المنظمة العربية للترجمة

إريك هوبْزْباوْم

عصر الثورة

أوروبا (1789 - 1848)

ترجمة: د. فايز الصُيّاغ

تقديم: د. مصطفى الحمارنة

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية



عصر الثورة

المنظمة العربية للترجمة

إريك هوبْزْباوْم

عصر الثورة

(أوروبا 1789 ـ 1848)

ترجمة د. فايز الصُيّـــاغ

تقديم د. مصطفى الحمارنة

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد المنظمة العربية للترجمة

هوبْزْباوْم، إريك

عصر الثورة (أوروبا 1789 ـ 1848)/ إريك هوبْزْباوْم؛ ترجمة فايز الصُيّاغ؛ تقديم مصطفى الحمارنة.

639 ص.ـ (علوم إنسانية واجتماعية)

ببليوغرافية: ص 585 ـ 606.

يشتمل على فهرس.

ISBN 9953-0-0761-6

1. أوروبا ـ تاريخ. 2. الثورة الصناعية. أ. العنوان. ب. الصُيّاغ، فايز (مترجم). ج. الحمارنة، مصطفى (مقدّم). د. السلسلة.

940.2



يصدر هذا الكتاب بدعم من البنك الأردني الكويتي وشركة أرامكس

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: 113-6001

الحمراء ـ بيروت 2090 1103 ـ لبنان

تلفون: 869164 ـ 801582 ـ 801587 (9611)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت / فاكس: 865548 (9611)

e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الثاني (يناير) 2007

المحتويات

القسم الأول
التطــورات

القسم الثاني
النتـائـج

تقديم الطبعة العربية

ثمة ما يشبه الإجماع في أوساط الدارسين المعاصرين على اعتبار إريك جون بلير هوبزباوم واحداً من أشهر المؤرخين المعاصرين في بريطانيا وأوروبا؛ بل إن الباحثين اليساريين ينزعون إلى اعتباره أبرز مؤرخي هذه الأيام في العالم أجمع، أو أفضل مؤرخي القرن العشرين. وتميل الفئة الأولى إلى التركيز على جدارته العلمية، ونهجه الموضوعي المعمق الشامل المتعدد الأبعاد في دراسة التاريخ الحديث، بينما تضيف الفئة الأخيرة من المراقبين سلسلة أخرى من السمات التي تميز منهجه الفكري، ومن بينها منظوره الماركسي المادي الجدلي في تحليل الظواهر التاريخية، والتزامه التعايش مع واقع العالم المعاصر السياسي والاجتماعي، واستمراره، حتى وهو على مشارف التسعينات من عمره، في التعبير عن مواقفه وآرائه الجريئة إزاء أحداث الساعة.

ولا بأس، في معرض الحديث عن منظور هوبزباوم ودراساته، من الإشارة إلى أنني تعرفت عليه، فكرياً، منذ بواكير دراساته المنشورة، أيام كنت طالب دراسات عليا في قسم التاريخ في جامعة جورجتاون منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. ففي خريف عام 1979، إذا لم تخني الذاكرة، كنت أعد دراسة عن الحركات الفلاحية، وكان كتاب هوبزباوم **المتمردون البدائيون** (*Primitive Rebels*) المنشور عام 1959، مصدراً أساسياً للبحث الذي كنت أقوم به. وقد بهرني ذلك المؤرخ منذ تلك الأيام، وتواصل اطلاعي المعمق ودراستي لمؤلفاته منذ ذلك الحين حتى

سيرته الذاتية **أزمة لافتة: حياة في القرن العشرين** (*Interesting Times: A Twentieth Century Life*) (2000) وعلى الرغم من ان هوبزباوم كان شيوعياً، إلا انه لم يكتب كالشيوعيين في ذلك الوقت. لقد كان ماركسي المنهج، لكنه أنتج دراسات مختلفة عن الكتابات اليسارية المألوفة آنذاك؛ فهو لم يكن كبعض أقرانه من الماركسيين الذين يحمّلون كتاباتهم نصوصاً أيديولوجية للتدليل على واقعة أو ظاهرة تاريخية ما، بل إن هوبزباوم كان يستعمل الأدوات والمفاهيم الماركسية في إطاره النظري بسهولة ومرونة وذكاء، مما يجعل تأثيره على القارئ عميق الوقع.

ولا يسعني إلا الإقرار بأن منهجه في التحليل التاريخي قد أسهم، إلى حد كبير، في بلورة نظرتي، كمؤرخ اجتماعي سياسي، إلى التاريخ العربي المعاصر، ومقاربتي لمجمل القضايا الواقعية التي نواجهها في الوطن العربي.

جانب من سيرته

ولد هوبزباوم في الإسكندرية عام 1917 لأب بريطاني وأم نمساوية، وانتقل إلى فيينا بعد وفاة والده ليعيش مع والدته، ولمتابعة دراسته في برلين. واضطر للرحيل إلى بريطانيا عام 1933، إثر تعاظم النزعة النازية والفاشية في ألمانيا، والنمسا، وإيطاليا، ومناطق أخرى في أوروبا الوسطى. وكان لمعاصرته صعودَ الفاشية وفشل الليبرالية أثر كبير في تكوين آرائه السياسية اليسارية واقترابه من الماركسية، كما أن هذه التجربة أثرت في اهتماماته البحثية لموضوع الهويات وظواهر التعصب العرقي والديني والإثني.

وفي لندن، أكمل دراساته الجامعية وحصل على الدكتوراه في التاريخ من كينغز كوليج في جامعة كامبريدج. وعمل محاضراً في جامعة لندن - كلية بيربك، وأصبح أستاذاً للتاريخ الاقتصادي الاجتماعي عام 1970، وزميلاً في الأكاديمية البريطانية عام 1978. وفي

العام 1998، قُلِّد وسام الشرف في بريطانيا والكومنولث. وعلى الرغم من أنه كان شيوعياً منذ العام 1936، إلا أنه ندد بالغزو السوفياتي لهنغاريا عام 1956، وعدل عن الحزب الشيوعي البريطاني إلى الحزب الشيوعي الإيطالي، وظل محافظاً على منظوره الماركسي العريض في توجهاته الفكرية وممارساته العملية.

ويعمل هوبزباوم الآن رئيساً لكلية بيربك ـ جامعة لندن، وأستاذاً زائراً في عدد من كبريات الجامعات الأوروبية والأمريكية والآسيوية. وبالإضافة إلى أن مؤلفاته الأساسية قد ترجمت إلى أكثر اللغات الحية (ربما باستثناء العربية)، فإن ما أسهم في تأثيره الفكري هو إتقانه لعدد من اللغات وأبرزها: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية والإسبانية. وعلاوة على اهتماماته الأكاديمية والفكرية والسياسية، فإنه عازف ماهر لموسيقى الجاز، وله دراسات وكتاب مطبوع في هذا المجال، وآخر عن الترابط بين الجاز والمقاومة والاحتجاج. ويقيم هوبزباوم مع زوجته وأبنائه في لندن.

هوبزباوم، مؤرخاً

درج إريك هوبزباوم على التأكيد في المقدمات التمهيدية لكل أعماله ـ في الكتاب الذي بين أيدينا كما في غيره ـ على أنه لا يسرد التاريخ، ولا يعيد صياغته، ولا يؤرخ لوقائعه أو يصف أحداثه كما تفعل جمهرة "المؤرخين" من قُدامى ومحدثين على السواء. إنه، كما يقول، إنما يتوجه إلى القارئ والمراقب والباحث الذكي المتعلم فحسب، فيدرس ظواهر التاريخ الأساسية والأحداث الكبرى المؤثرة في حياة الناس في المجتمعات البشرية، ويحلل أسبابها ونتائجها المباشرة وغير المباشرة، ويربط بعضها ببعض على نحو متكامل، في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية دون استثناء، بحيث تكون الحصيلة النهائية صورة نابضة بالحياة للواقع البشري في مرحلة معينة، تتسلسل على نحو جدلي مع ما يسبقها وما يليها من مراحل.

وفي سياق الإطار الفكري الجدلي العام الذي يتحرك فيه هوبزباوم، فإنه يستهل أول مؤلفاته المهمة **المتمردون البدائيون** بمقولة أعتقد أن المؤرخين العرب المحدثين هم في أمسّ الحاجة إليها لدراسة الماضي والحاضر على حد سواء. فهو يرى في هذا الكتاب أن الحركات الاجتماعية التي حدثت في غرب أوروبا وجنوبها في القرنين التاسع عشر والعشرين، وقام بها فلاحو الأندلس في إسبانيا، وعمال المناجم في درهام في بريطانيا، وحتى المافيا في صقلية، لم تكن وقائع لا يمكن التكهن بها، أو أحداثاً منبتّةَ الصلة بما قبلها وبعدها وحولها. كما أنها ليست من التفاهة إلى حد دفع أكثر المؤرخين إلى تهميشها أو اعتبارها فوراتٍ عرضيةً وحالاتٍ عابرةً من التمرد التلقائي الفاشل. (وتلك، في ما أرى، هي المقاربة التي ناقش بها أغلب المؤرخين العرب ظواهر مهمة في التاريخ العربي الإسلامي قبل حركة القرامطة، وثورة الزنج وغيرهما). ويرى هوبزباوم أن هذه الحركات، سواء ما نشأ منها عن أصول ريفية أو فلاحية أو برز في المراحل ما قبل الحضرية وقبل الصناعية، تمثل احتجاجاً عنيفاً على القمع، والفقر: إنها صرخة للثأر من الطغاة ومن أصحاب الثروة والجاه، وحلم غامض لتقليم أظفارهم وانتزاع أنيابهم، وإزالة أخطائهم وخطاياهم ضد الناس البسطاء العاديين. وكان طموح هذه الحركات، في جوهره، غاية في البساطة، وهو أن يعيش الناس لا في عالم جديد متكامل، بل في عالم تسوده روح العدل والإنصاف ويعامل فيه الناس على قدم المساواة. إلا أن هذه الحركات التي تتشابه، من حيث طبيعتها، مع جوانب من حروب العصابات الحديثة، كانت جميعها تفتقر إلى عنصرين جوهريين لازمين هما: أيديولوجية متماسكة تهدد الأهداف والمرامي القريبة والبعيدة، وتنظيم مترابط يضم أطراف الحركة ويحدد مسؤوليات الأعضاء فيها ودرجات انتمائهم وأساليب عملهم.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن هذه الحركات تظل مسالكَ جانبيةً ومؤشراتٍ بارزة على مسيرة المجتمعات في المستقبل، ومكوناتٍ رئيسيةً

في القوة الدافعة التي تحرك مسارات التاريخ البشري. والأهم من ذلك كله أن هذه الحركات الاجتماعية (البدائية) على ما بينها من اختلاف، تمثل آخر الأمر روافد مؤثرة تعزز التوجه نحو التغيرات الكبرى التي تتجلى في التاريخ الحديث في سلسلة من المنعطفات والثورات الحاسمة في العالم، ومنها الثورات الصناعية، والفرنسية، والأميركية، وأخيراً الروسية. ويعتقد إريك هوبزباوم، في هذا السياق، أن ما قاله المفكر الإيطالي اليساري أنطونيو غرامشي عن الحركات الفلاحية في جنوب إيطاليا في العشرينات من القرن التاسع عشر، يصدق على كثير من الجماعات في عالمنا المعاصر؛ لقد كانت جماهير الفلاحين، في نظره، "في حالة دائمة من الاختمار، بيد أنها بصفتها كتلةً جماعيةً، كانت تفتقر إلى قوة مركزية تعبر عن تطلعاتها واحتياجاتها".

وقد سلك هوبزباوم هذا النهج الاستقصائي المتكامل نفسه في دراساته اللاحقة التي تناول فيها انتفاضة العمال الزراعيين في جنوب وشرق إنجلترا عام 1830 (**الكابتن سوينغ** (*Captain Swing*) 1969)، والسير السياسية والفكرية لعدد من ثوار القرن العشرين **ثوار: مقالات معاصرة** (*Revolutionaries: Contemporary Essays*) (1973)، وسلسلة من الدراسات عن الحركات العمالية في بريطانيا وأوروبا.

وفي جميع هذه الدراسات التحليلية للحركات والأوضاع والظروف الممهدة للتغيرات الاجتماعية الكبرى في التاريخ الحديث، يكون إريك هوبزباوم قد ارتاد سبيلاً جديداً في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، تبلور بعد ذلك في مقاربات جيل من أبرز العلماء الاجتماعيين في الستينات والسبعينات من القرن الماضي لقضايا التغير الاجتماعي والحركات الاجتماعية والتحليل التاريخي المقارن، ومن بين هؤلاء: تشارلز تيللي (Charles Tilly)، وثيدا سكوكبول (Theda Skocpol)، وأنتون بلوك (Anton Blok). وينطلق هؤلاء وغيرهم، على العموم، من عدد من المفاهيم التحليلية التي أرسى هوبزباوم دعائمها في

الدراسات التحليلية، ومن بينها مفهوم "العصيان الاجتماعي"، وما كان، بموجب التعريف "الرسمي"، يُدعى "الجريمة الاجتماعية". ويفسر هذان المفهومان كثيراً من الأنماط المختلفة السائدة في التاريخي والاجتماعي السياسي لمجتمعات متباينة وفي عصور مختلفة. وكانت معظم ظواهر العصيان هذه تُعرَّف، حتى عهد قريب، وفق المنظور التقليدي، حتى في المؤسسات التعليمية، بأنها حركات تمرد تقوم بها جماعات من اللصوص أو المجرمين أو المهمشين من طفيليات المجتمع. وجاءت هذه المدرسة الفكرية الجديدة في العلوم الاجتماعية لتُخرِج هذه الحركات من نطاق الرؤية التقليدية، وتُدخلَها في عداد مظاهر الرفض والاحتجاج على جوانب محددة في الواقع الاجتماعي المؤسسي، وفي سياق تاريخي محدد.

ترتكز منهجية هوبزباوم في التحليل السياسي الاجتماعي على قاعدة معرفية موسوعية حول جميع مناحي الحياة في أوروبا وبقاع كثيرة من العالم في الفترة الممتدة بين بدايات القرن السابع عشر ومطلع القرن الحادي والعشرين في مجالات الاقتصاد، والسياسة، والثقافة، والفنون. وهو يرى أن مهمة المؤرخ هي "اكتشاف الأنماط والآليات التي حولت العالم من حال إلى حال". ولا تقتصر هذه المهمة، في رأيه، على اكتشاف الماضي، "بل تتجاوز ذلك إلى تفسيره، ومن ثَمَّ إيجادِ رابطةٍ تشده إلى الحاضر".

وفي هذا الإطار الذي يتحاشى السرد الوصفي، ويركز على التفسير الاجتماعي لحركة التاريخ، أي "من الأسفل للأعلى"، تمكن هوبزباوم منذ عقود من وضع سلسلة من الدراسات المَعْلَمية في تحليل التاريخ الحضاري لأوروبا. وإلى جانب هذه الدراسات، نشر هوبزباوم مخطوطة كارل ماركس (Karl Marx) **التشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية** (*Formen, die der kapitalistischen Produktion vorhergehen*) (1964) مترجمة إلى الإنجليزية، بعد أن وضع لها مقدمة

نظرية وتحليلية موسعة عن أنماط الإنتاج قبل الرأسمالية. وكانت هذه المقدمة وتلك الوثيقة إضافة نوعية متميزة إلى الأدبيات الماركسية لتحليل المشاعات الاجتماعية القديمة وتبيان أثرها على البنية الاجتماعية. كما أنها كانت تمثل خروجاً عن إطار الماركسية السوفياتية التي حولت إلى نماذج جامدة متحجرة أنماطَ الإنتاج الخمسة المعهودة (وهي: المشاعية البدائية، ونمط الرق والسخرة، والنظام الإقطاعي، والنظام الرأسمالي، وهذه الأنماط هي التي قامت قبل حلول النظام الخامس المنشود: الاشتراكية والشيوعية).

وقد تخللت هذه المؤلفات دراسات مهمة من بينها **الصناعة والإمبراطورية** (*Industry and Empire*) (1964) عن الثورة الصناعية في بريطانيا، و**الأمم والقومية منذ العام 1780** (1990)، وكتب أخرى. إلا أن إنجاز هوبزباوم الأهم والأكثر شهرة وذيوعاً في الأوساط الفكرية والأكاديمية في العالم يتمثل في ما أصبح يسمى "الثلاثية"، عن التاريخ الحضاري لأوروبا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر حتى مطالع القرن العشرين، واشتمل ذلك على ثلاثة مؤلفات مرجعية هي **عصر الثورة: أوروبا 1789 ـ 1848** (1962)، و**عصر رأس المال 1848 ـ 1875** (1975)، و**عصر الإمبراطورية 1875 ـ 1914** (1987). وفي عام 1994، استكمل هوبزباوم هذه السلسلة، التي تحولت إلى "رباعية"، بإصدار **عصر التطرف: القرن العشرون القصير 1914 ـ 1991**، عن تاريخ العالم منذ الحرب العالمية الأولى حتى انهيار الاتحاد السوفياتي وأنظمة الكتلة الشرقية في أوروبا، وتغوّل الهيمنة الأمريكية على الساحة الدولية.

وفي **عصر الثورة** الذي بين أيدينا، يتتبع هوبزباوم التحولات التاريخية الجسيمة البعيدة الخطر التي طرأت على أوروبا بخاصة والعالم عموماً بين العام 1789 والعام 1848، في أعقاب ما يطلق عليه اسم "الثورة المزدوجة"، أي الفرنسية التي تُسْتَهَلُّ بها هذه الفترة، ومُعاصِرتُها الثورةُ الصناعية في بريطانيا. وانسجاماً مع منهجه التحليلي

الذي أشرنا إليه، يتطرق هوبزباوم في الجزء الأول من الكتاب إلى التطورات الأساسية التي شهدتها هذه الفترة على الصعيدين الأوروبي والدولي. ثم يتحول في القسم الثاني إلى مناقشة المعالم البارزة لطبيعة المجتمع الذي أنتجته تلك الثورة المزدوجة، مع ربط كل واحد من أبعادها وجوانبها بالآخر. وبعد أن يتحدث عن الخطوط العريضة لهاتين الثورتين، وما تلاهما من حروب، بما فيها الحروب النابليونية، وثورات وحركات سياسية في مختلف أنحاء أوروبا، ينتقل إلى تضاريس مجتمع ما بعد الثورة الجديد، ويتحدث، بأسلوب موسوعي شامل، عن التغيرات الجذرية التي طرأت بعد الثورة المزدوجة على البنية الطبقية والتنظيم السياسي في أوروبا، والتحولات التي تجاوزت مجالات الصناعة والاقتصاد والسياسة لتشمل الجوانب الأيديولوجية (بما فيها الدين والنزعة العلمانية)، ثم العلوم والآداب والفنون. ويمضي بنا هذا الكتاب ليضعنا على أعتاب النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما كان هدير الموجة الثانية من الثورات يتصاعد من أعمق أعماق الأرض في الممالك الأوروبية كافة، توطئةً للانفجار العظيم عام 1848.

و**عصر الثورة**، شأنه شأن **عصر رأس المال** و**عصر الإمبراطورية**، له جدارته وأهميته، كما أن له قيمةً معرفيةً لا حدود لها. بيد أن له لدى القارئ والباحث والدارس العربي قيمةً متميزة، لسببين على الأقل.

يتجلى الأول في حرص المؤلف على استعراض الآثار والتداعيات التي انداحت على بقاع العالم الأخرى، وبخاصة على المنطقتين العربية والإسلامية، جراء الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، وحملات نابليون، والتوسع الاستعماري الأوروبي، وبدايات التفاعل الثقافي والعلمي والسياسي الحديث بين العرب وأوروبا.

أما السبب الثاني، فهو ما يؤكد عليه هوبزباوم في المقدمة التي وضعها خصيصاً لهذه الترجمة العربية لكتاب **عصر الثورة** وللسِّفْريْن الآخريْن اللذيْن سيصدران بالعربية تباعاً في هذه السلسلة. فمنذ القرن

السابع للميلاد، وعلى مدى ألف عام، كان "الغزاة" يداهمون أوروبا من الشرق لا من الغرب. وعلى الرغم من أن التبادل التجاري كان موصولاً بين الطرفين، إلا أن التحولات المثيرة في أوروبا منذ اندلاع الثورتين الفرنسية والصناعية قد عكست اتجاه الغزو. فمع توسع الأوروبيين الاقتصادي والعسكري، تصاعدت في أرجاء العالم الإسلامي دعواتٌ تُذكي روحَ المقاومة للغزو الأجنبي، وتحض على الإصلاح الداخلي والتحديث في آن معاً، وذلك ما سيتطرق له هوبزباوم بمزيد من التفصيل في كتابيه الآخرين: **عصر رأس المال** و**عصر الإمبراطورية**.

ملاحظات ختامية

ترك إريك هوبزباوم بصماته الفكرية والمنهجية على علم التاريخ الحديث، وأسهم إسهاماً كبيراً في تطوير أساليبه وتوسيع آفاقه. وقد حقق إنجازاته في هذا المجال في أجواء أكاديمية أوروبية لا ترحب، بالضرورة، بأمثاله من المفكرين، بل تواجههم بالعزوف أحياناً، بل بما يشبه العداء في أحيان أخرى. إلا أن هوبزباوم، على الصعيدين المنهجي والموضوعي في كتابة التاريخ، كان وما يزال موضع احترام وتقدير كبيرْين في الأوساط العلمية كافة.

ومقابل هذا الاحترام والتقدير لإنجازه العلمي، عانى هوبزباوم الكثير بسبب آرائه السياسية؛ فعلى سبيل المثال، تأخرت ترقيته الأكاديمية إلى رتبة أستاذ حتى العام 1970، على الرغم من إنتاجه العلمي الرصين وقيامه بالتدريس لمستويات جامعية متقدمة أكثر من عقدين.

وما يزال هوبزباوم يواجه حتى اليوم صنوفاً شتى من النقد لا شأن لها بالنزاهة الأكاديمية أو الأمانة العلمية. وتصدر هذه الانتقادات لأسباب واعتبارات سياسية في التحليل الأخير، ومن مصدرين قد

يبدوان متعارضيْن في الظاهر إلا أنهما يتقاطعان ويلتقيان في أكثر من ناحية.

المصدر الأول هو بعض الأوساط الفكرية اليمينية والليبرالية التي تأخذ على هوبزباوم اعتناقه للشيوعية منذ شبابه، ورفضه الانسحاب من الحزب الشيوعي رغم شجبه للمواقف السوفياتية أكثر من مرة. ويأخذ عليه البعض كذلك أنه لم يندد "بما فيه الكفاية" بفظائع ستالين في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي. وتتلخص حجة هوبزباوم ضد هذه الانتقادات بأن الحركة التي انتمى إليها هي التي أدت، في المقام الأول، إلى اندحار الفاشية والنازية في أوروبا. ويضيف أنه لا يستطيع، على الصعيدين الشخصي والإنساني، أن يتنكر لماضيه النضالي، لأن كثيراً من رفاقه ضحوا بأنفسهم وقضوا نحبهم - وعلى أيدي رفاقهم أحياناً - في سبيل قضية شريفة ومُثُل عليا، وهو لا يستطيع أن يضرب عرض الحائط بما قدموا من تضحيات. وقد اتسعت الفجوة بين هوبزباوم وهذا الفريق من النقاد بعد انهيار نظم الحكم الشيوعية في روسيا وأواسط أوروبا، وتزايد معارضته للسياسة والهيمنة الأمريكية في الساحة الدولية.

أما المصدر الآخر للنقد الموجه إلى هوبزباوم فإن دوافعه السياسية لا تخفى على أحد؛ فهو، باعتباره مفكراً علمانياً وتقدمياً بالدرجة الأولى، يحمل منذ زمن موقفاً معروفاً ومشهوداً من إسرائيل والصهيونية؛ وخلال السنوات الأخيرة، أدى تشدده في موقفه من إسرائيل إلى تعاظم الحملات الصهيونية ضده. ففي لقاء مطول أجرته معه صحيفة **الأوبزرفر** (*Observer*) البريطانية في سبتمبر/ أيلول عام 2002، يقول هوبزباوم بمنتهى الصراحة والوضوح: "لم أكن صهيونياً قط. ولكن بعد أن قامت إسرائيل واستقر فيها اليهود، لم تعد فكرة إزالتها وإزالتهم واردة. ولم أكن أبداً من الداعين إلى تدمير إسرائيل أو إذلالها. نعم، إنني يهودي. ولكن ذلك لا يعني أن عليّ أن أكون

صهيونياً ولا مؤيداً بأي شكل من الأشكال للسياسات التي تنتهجها الآن حكومة إسرائيل، وهي سياسات كارثية شريرة؛ إنها سياسات ستؤدي بطبيعتها إلى التطهير العرقي في أراضٍ محتلة. والسياسات الرسمية للأحزاب اليهودية التي تحكم إسرائيلَ الآن تعتبر منطقتي اليهودية والسامرة جزءاً مما أعطاه الله للإسرائيليين، وأعتقد اعتقاداً جازماً أن على اليهود أن يقولوا إن بوسع المرء أن يكون يهودياً دون أن يكون مؤيداً لإسرائيل".

وبين هذا الفريق من النقاد وذاك، يمضي إريك هوبزباوم قدماً في ما تبقى من أيامه الحافلة بالإنجازات العلمية والفكرية والمواقف السياسية. ويظل، في كل وقت، يردد عبارته المشهورة: "لقد أنجزت ما أنجزت دون أن أقدم أية تنازلات أو أساوم على الإطلاق".

د. مصطفى الحمارنة

مركز الدراسات الاستراتيجية ـ الجامعة الأردنية



تقديم المؤلف للطبعة العربية
عصر الثورة وعصر رأس المال وعصر الإمبراطورية[*]

وَضعتُ هذه المؤلفات الثلاثة، التي استكملتها بكتاب رابع عن تاريخ العالم منذ الحرب العالمية الأولى حتى سقوط الاتحاد السوفياتي، ليقرأها، كما تقول مقدمة الكتاب الأول، "المواطن الذكي المتعلم الذي لا يسعى إلى إشباع فضوله لمعرفة الماضي فحسب، بل يريد أيضاً أن يفهم كيف ولماذا أصبح العالم على ما هو عليه الآن، وإلام سيؤول". وتعالج هذه المؤلفات الأربعة كلها الفترة الأكثر أهمية في تطور البشرية منذ ما اصطلح على تسميته "ثورة العصر الحجري الحديث"، قبل نحو عشرة آلاف سنة، التي شهدت بدايات الزراعة، واستخدام المعادن، ونشوء المدن، والسجلات المدونة للنشاط والفكر الإنسانيين. إن التقسيم الزمني لمراحل التاريخ البشري عملية مختصرة بمعايير علوم الإحاثة، والآثار، وطبقات الأرض. بَيْد أن الفترة التي تتناولها هذه المؤلفات، على مدى قرنين ونصف القرن تقريباً، تغطي أجيالاً بشرية قليلة، وهي مدة قصيرة على نحو كافٍ لأن تستوعبها ذاكرة عائلة واحدة.

وقد لا تكون ثمة حاجة لإيضاح التحول المثير الذي طرأ على

(*) تُصدر المنظمة العربية للترجمة، ترجمة **عصر رأس المال وعصر الإمبراطورية** (المنظمة).

الحياة الإنسانية خلال هذه الحقبة، حتى قبل أن تتسارع خطوات التغيرات التاريخية العالمية في التعبير عن السرعة، خلال نصف القرن الماضي. إلا أن بوسعنا أن ندلل على ذلك بواحد من أقدم الأنشطة التقليدية في العالم الإسلامي، هو الحج إلى مكة. فقد كان، قروناً عديدة، يتم بصورة أساسية بَرّاً بواسطة القوافل أو سيراً على الأقدام. غير أن تقانة القرن التاسع عشر ـ الممثلة في قناة السويس، والسفن البخارية والسكة الحديدية، وافتتاح سكة الحجاز عام 1908 (بالتقويم الزمني الغربي) التي بنيت أساساً لتيسير أداء فريضة الحج - قد تضافرت جميعها لإنهاء عهد القوافل. ذلك أن آخر القوافل المهمة غادر القاهرة عام 1883 (بالتقويم الغربي). كما أنها يسّرت لمسلمي جنوب شرقي آسيا أن يشاركوا في الحج مشاركة فاعلة مهمة من الوجهة السياسية. وبحلول العام 1900، كان عدد الحجيج قد وصل إلى ما يتراوح بين ثمانين ألفاً ومئة ألف في السنة، وهو رقم لم يكن ممكناً تصوره حتى ذلك الحين. وبعد الحرب العالمية الثانية، كانت الآثار التي تركتها تقانة القرن العشرين على المواصلات البرية، وبصورة خاصة الخطوط الجوية، أكثر ثورية؛ إذ ارتفع عدد الحجيج إلى ما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين حاج في السنة.

ليس ثمة نشاط بشري خارج نطاق الابتكار. فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يسّرت الطباعة والانتشار السريع للكلمة المطبوعة في أرجاء الشرق الأوسط عملية تطوير لغة حديثة نموذجية للمتعلمين الناطقين بالعربية، مقابل اللغة الفصحى من جهة، واللهجات المحلية المتعددة التي يصعب التواصل بها من جهة ثانية. وحيث إن الأفلام والتلفاز ينبغي أن تكون مفهومة في أوساط الملايين من الناس على امتداد بلدان عديدة، فإنها قد خلقت، ربما للمرة الأولى في التاريخ، لغةً محكيةً مفهومةً عموماً في أرجاء بلدان المغرب والشرق الأوسط.

وبما أن التغيّر والتحول قد أصبحا من الخصائص المميزة لهذه البلدان، فليس من المستغرب أن تكون حتى الحركات المنادية بحماية

التراث أو العودة إليه تطورات تاريخية مستجدة. ومن الخطأ الاعتقاد أن السبب في اختلاف بلدان العالم الإسلامي كثيراً عن الديمقراطيات الدستورية في الاتحاد الأوروبي، مع استثناءات هامشية، هو أن هذه البلدان لم تتغير. فقد كان "الإخوان المسلمون" في مصر، وسيظلون، "حزباً سياسياً حديثاً"، له شكل من التنظيم السياسي ونهج في اجتذاب الأنصار، وبرنامج سياسي حافل بالفرضيات المستقاة من ميدان العمل السياسي الوطني، خلافاً لكل ما قام في العالم الإسلامي منذ قرنين، حتى وإن كانت أهدافه تتمثل في إقامة نظام اجتماعي قوامه الشريعة الإسلامية. وقد رأى البعض أن نهجاً تقليدياً في ظاهرة مثل "الحكومة الإسلامية" التي اختطها آية الله الخميني، قد غدت قابلة للتصديق والتصور "بفعل شروط الدولة والعمل السياسي" التي لم تكن موجودة في العالم الإسلامي قبل الثورة الفرنسية[1].

إن هذه المؤلفات تصف مرحلة حرجة في تحول هذا الكوكب، بفعل النسق الاجتماعي ـ الاقتصادي المستجد، تاريخياً، الذي سماه كارل ماركس "المجتمع البورجوازي"، وكان أول من أدرك مُنْطوَياتِه الثورية على الصعيد العالمي. ويبدأ التاريخ الذي أتناوله هنا بالاختراق المزدوج الحاسم الذي وقع في أواخر القرن الثامن عشر، والمسمّى "الثورة الصناعية" في بريطانيا. فهي التي مهدت الطريق للنمو الاقتصادي الرأسمالي، وللتغلغل العالمي، وللثورة السياسية الفرنسية ـ الأمريكية التي طرحت نموذجاً مثالياً متقدماً لمؤسسات المجتمع البورجوازي. وقد تحددت الملامح العامة لتاريخ المئتين والخمسين سنة الماضية جراء الآثار العالمية المتزايدة لهذا النسق، وبنمطه المتميز بالتنمية من خلال عدم الاستقرار، وبفترات متتالية من النمو السريع الذي

(1) Sami Zubaida, *Islam, the People and the State: Essays on Political Ideas and Movements in the Middle East* (London; New York: Routledge, [1989]), pp. 16-19.

يؤدي إلى وقوع الأزمات، وإلى إعادة الهيكلة، وإلى الثورة في بعض الأحيان. وقد كان حجم النمو العالمي لهذا النسق متواضعاً في القرن التاسع عشر، ولم تعترضه، بالمقارنة مع مقاييس لاحقة، أية تحديات. فالحقبة التي تلت العام 1914 هي التي أثبتت إمكانية خلق التصدُّع والزعزعة في العالم. وهذه المرحلة من الأزمات، والانهيارات، وإعادة الهيكلة، هي موضوع كتاب التاريخ الرابع الذي وضعته بعنوان **عصر التطرف**.

لم يكن ممكناً قيام نظام عالمي، بالمعنى الحرفي للكلمة، إلا في فترة كولومبوس وماجلاّن، عندما قام التجار وقادة الحملات الوافدة من "العالم القديم" في أوراسيا وأفريقيا باكتشاف ما يسمى "العالم الجديد" في نصف الكرة الغربي، وغزوه. وعندما تم الدوران حول الأرض بحراً، وعلى مدى أربعة قرون ونصف القرن منذئذٍ، هيمنت على التاريخ تطورات اقتصادية وسياسية وثقافية وفكرية نابعة من أوروبا. وترابط التغلغلُ الاقتصادي والغزو السياسي اللذان مارستهما حفنة من الأقطار الأوروبية، ثم مارسته، بعد سقوط تلك البلدان، الولايات المتحدة الأمريكية، وهي دولة أقامها المستوطنون الأوروبيون، واستلهمت التراث الأوروبي. وخلال القرن العشرين، انتهت الحقبة الأوروبية في تاريخ العالم. ويبدو، في مستهل القرن الحادي والعشرين، أن استمرار هذه الحقبة، برعاية الولايات المتحدة، لن يدوم طويلاً.

وحيث إن هذه المؤلفات تقدم صورة عامة لتاريخ العالم منذ "الثورة المزدوجة"، فإن تغطية المناطق المختلفة في العالم كانت متفاوتة جداً. وقد أوضحتُ أسباب ذلك في مقدمة **عصر الثورة**. ومع ذلك، فإن من المحبذ أن نتحدث في هذه الإصدارة لجمهرة الناطقين بالعربية، بشكل محدد، عن دور منطقتي المغرب والشرق الأوسط، والعالم الإسلامي بصورة عامة، في الفترة التي تبدأ في أواخر القرن الثامن عشر. وقد استشرفنا عدداً من هذه الموضوعات في عدة مواضع من **عصر الثورة**.

لقد ارتبطت المنطقة الوسطى من العالم الإسلامي، وهي التي احتلتها الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن، بشبكة من الوشائج مع أوروبا، سواء عن طريق التجارة أم عن طريق الغزو. وكان محتماً أن تمر التجارة بين الغرب والشرق الأقصى عبر هذه المنطقة. وعلى مدى ألف عام، كان الغزاة يأتون من الشرق، لا من الغرب. كانوا، منذ القرن السابع، ينتسبون إلى شعوب وحكام ممن اعتنقوا الإسلام. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت آخر تلك القوى الشرقية الغازية، وهي الإمبراطورية العثمانية، تعاني ضعفاً واضحاً، داخلياً وخارجياً، تحت وطأة الضغوط التي مارستها عليها الإمبراطوريتان الروسية والنمساوية، وكانت تتراجع في أوروبا وشمال البحر الأسود. لكن المناطق غير الأوروبية التي يقطنها سكان مسلمون أساساً لم تتعرض قط للاحتلال من جانب حكام غير مسلمين، باستثناء الغزوات الصليبية القصيرة نسبياً.

وقد اصطدم توسع الأوروبيين الاقتصادي والعسكري بعالم إسلامي كان ما يزال يمر بمرحلة من التوسع المستمر، ولا سيما في أفريقيا، والمناطق الوسطى والجنوبية الشرقية من آسيا. إلا أن هذا العالم كان يعاني نزاعات داخلية. فمن الوجهة السياسية، كانت القوى المركزية للإمبراطوريات العثمانية والفارسية والمغولية، قد اندثرت أو أوشكت على الاندثار. وراحت حركات إصلاحية دينية في الهوامش الخارجية للحضارة الإسلامية، مثل الوهّابية في الجزيرة العربية، والسنوسية في ليبيا، والمريدية في القوقاز، والحركة الجهادية بزعامة عثمان دون فوايو في شمال نيجيريا، نقول إن هذه الحركات راحت تدعو إلى العودة إلى الإسلام النقي، وسرعان ما أخذت تذكي المقاومة ضد الاعتداءات الأجنبية.

كان للتحولات المثيرة في أوروبا أثر مزدوج على العالم الإسلامي؛ إذ إنها أذكت روح المقاومة والإصلاح في آن معاً. فقد أصبح الإسلام،

من جهة، قوة لحشد المقاومة ضد غير المؤمنين الذين غدوا الآن في موقع يمكنهم من غزو أراضي المسلمين واحتلالها، سواء من الروس شمال البحر الأسود وشرقه، أو من جيوش فرنسا الثورية التي وصلت إلى مصر وسوريا، واستعادت النظام الملكي الفرنسي الذي سيطر على الجزائر. (وفي تلك الأثناء، كانت الصيغة البريطانية، التي جمعت بين التجارة والرفاه والدبلوماسية، تؤسس وتوسع الحكم البريطاني في الإقليم، على أنقاض إمبراطورية المغول المتهافتة). ومن جهة أخرى، أظهر التفوق الغربي قوة الأفكار وأساليب العمل الغربية والحاجة إلى التعلم منها. وقد تجسد ذلك، لحسن الحظ، في الثورة الفرنسية، وهي النهضة الأعظم الأكثر تأثيراً على الصعيد العالمي في ذلك العصر، كما أنها، بالتأكيد، أول حركة للأفكار الأوروبية تترك آثارها على العالم الإسلامي، لأنها لم تعد تمثل نزعات دينية في المسيحية الغربية.

وفي القرن التاسع عشر، كانت تأثيرات الإصلاح هي الأعمق وقعاً في مصر، التي حققت ما يشبه الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية في عهد محمد علي[2]. ففي عهده، ومن خلال الاستعانة بمستشاريه الفرنسيين والإيطاليين الذين استوحوا اتجاهاتهم من الدعاة الثوريين حتى من أوائل الاشتراكيين، أصبحت مصر أول دولة إسلامية تدخل مرحلة التحديث بصورة منظمة، وأول دولة غير أوروبية تسعى إلى سلوك سبيل التحديث للخروج من التخلف الاقتصادي. فقد احتفى محمد علي بالتصنيع، وبالتقانة الغربية، وبالإنتاج الذي يستهدف التصدير إلى أسواق (غربية)، وعكف على إعادة تنظيم الإدارة والتعليم والاقتصاد، وفرض سيطرة الدولة على المؤسسات الدينية في بلاده،

---

(2) انظر: الفصل التاسع من هذا الكتاب والفصل السابع من: Eric John Hobsbawm: *The Age of Capital, 1848-1875*, History of Civilization (New York: Scribner, 1975), and *The Age of Empire, 1875-1914*, History of Civilization (New York: Pantheon Book, 1987), Chapter 12.

وتصدى لمساعي الوهابيين للسيطرة على مكة والمدينة. واكتسبت مصر، في واقع الأمر، البنية التحتية للمجتمعات الحديثة، وعناصر النخبة الاقتصادية الجديدة العازمة على التحديث، بمن فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في مصر، والوافدون من أنحاء العالم. وقدمت هذه النخبة، فيما بعد، الدعم لأوائل الدعاة الذين نادوا بتحديث الإسلام في الشرق الأوسط، مثل جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وطَرحت، في وقت لاحق، مفهوماً عَلْمانياً لمجتمع مصري مستقل. وقد ظلت مصر، في أكثر من ناحية، تحتل مكان الصدارة في مساعي التحديث، منذ انتفاضة الضباط التقدميين بزعامة عرابي عام 1881 لإقامة حكومة دستورية، وحتى بعد ثورة الضباط الأحرار وجمال عبد الناصر عام 1952. وبما أن مصر، بثروتها الزراعية وموقعها الاستراتيجي، وقعت ضحية للقوة الاستعمارية الاقتصادية العسكرية المتفوقة، فقد اتخذت موقع الريادة في معاداة الاستعمار، وأصبحت (هي وإيرلندا) أول دولتين تابعتين تُرغِمان الإمبراطوريةَ البريطانية على التراجع عام 1922. إن نظرة استرجاعية لأحداث الماضي تدلنا على أن الأثر الإصلاحي لعصر الثورة في الأجزاء الرئيسية للإمبراطورية العثمانية كان أكثر عمقاً. غير أن ذلك لم يكن ظاهراً على هذا النحو في القرن التاسع عشر؛ فقد بدأ الإصلاح مبكراً في عهد السلطان سليم الثالث (1789ـ1807)، الذي أدرك الضعف الواضح الذي كانت الدولة العثمانية تعانيه في وجه التوسع الأوروبي، على الرغم من أن التحالف بين هيئة العلماء والقوات الانكشارية وضع نهاية لحكمه. وقد أحيا محمود الثاني (1807ـ1839) هذا البرنامج الإصلاحي الذي طرح، في عدة صور، قضية إعادة التنظيم، أو ما سمي "التنظيمات" التي انتشرت بعده في أوساط البيروقراطيين والمفكرين الساعين إلى التحديث حتى العام 1876، مع أنها لم تترك غير أثر قليل على الناس. وعلى الرغم من ذلك، استمر التفكك في الإمبراطورية العثمانية، بفعل آثار التمرد في الأقاليم، والقوة العسكرية الأجنبية. ومع نهاية القرن التاسع عشر،

كانت الإمبراطورية العثمانية قد فقدت جميع توابعها الأفريقية، وأكثر توابعها الأوروبية، وقدراً كبيراً من سيطرتها على الشرق الأوسط الذي ظل عثمانياً بالاسم فحسب. كما انخفض عدد سكانها بأكثر من الثلث في مرحلة تميزت بالنمو الديمغرافي. وفي عهد السلطان الطاغية الذي أخذت سلطته بالتضاؤل، مع أنه اعتمد على الدعم الإسلامي، قامت حركة الاتحاد والترقي (التي عرفت باسم "تركيا الفتاة") بحشد تحالف بين الساخطين في أوساط العسكريين والمدنيين، وتولت، في أعقاب الثورة الروسية الأولى، زمام الحكم عام 1908[3]. ومن نتائج ذلك أن حركة "تركيا الفتاة" كانت، خلافاً لمحاولات الإصلاح الإسلامية السابقة، عَلْمانية بصورة لا هوادة فيها. وواقع الأمر أن الثورة التركية بزعامة مصطفى كمال (أتاتورك) استطاعت، تحت تأثير الحرب العالمية وبعدها الثورة الروسية، أن تحول ما تبقى من الأراضي العثمانية إلى دولة قومية حديثة عَلْمانية فعالة اتحد سكانها بعد ذلك، لا بوصفهم مسلمين يحكمون مجموعة من الملل من ديانات أخرى، ويتسامحون معها، بل باعتبارهم أتراكاً يتمتعون بالوعي القومي (غير المتسامح قومياً). وفي عهد أتاتورك كانت تركيا، ومثلها الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي آنذاك، تمثل نموذجاً متطرفاً لنخبة من المصلحين الذين فرضوا في العالم الإسلامي التحديث العنيف المغاير للتقاليد وللإسلام. وليس واضحاً إطلاقاً ما إذا كان شكل التحديث الذي انتهجه أتاتورك سيحالفه النجاح، أو أنه سيكون مثالاً يُحتذى في البلدان الأخرى ذات الأغلبية المسلمة. بيد أن هذه التساؤلات، شأنها شأن عهد أتاتورك نفسه، تتصل بتاريخ القرن العشرين.

ولا بد من أن نتطرق، باختصار، إلى تيار تحديثي ثالث في الشرق الأوسط، هو حركة الإحياء الثقافي في المناطق الواقعة إلى الشرق من

---

(3) انظر الفصل الثاني، القسم الرابع، من: Hobsbawm, *The Age of Empire, 1875-1914.*

سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولا سيما لبنان وما حوله. وحيث إن المنطقة كانت تضم جماعات دينية متعددة، وأنها شهدت، بالمصادفة، تدخلاً كبيراً في المجالات الدبلوماسية والتعليمية من جانب القوى الأوروبية التي تذرعت بمزاعم دينية، فإن اللغة العربية، لا الإسلام، هي الوسيلة التي جمعت ووحّدت الصفوةَ المحدِّثة التي كانت تضم النخب التجارية الديناميّة. وربما كان لبنان هو البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي هاجر أبناؤه بأعداد كبيرة ناجحة جداً من الوجهة الاقتصادية في العهد العثماني إلى مختلف القارات: إلى الولايات المتحدة اعتباراً من خمسينات القرن التاسع عشر، والبرازيل من العام 1880، وغربي أفريقيا من العام 1892. وما زال يطلق عليهم اسم "توركوس = الأتراك" في أمريكا اللاتينية[4]. وفي هذه المنطقة، ولدت القومية العربية، بل القومية الجامعة لكل العرب، التي ينتسب إليها كل من المسلمين والمسيحيين ومن لا شأن لهم بالدين. وقد تصدت، أول الأمر، للحكام العثمانيين، ولكنها، خلال فترة السيطرة البريطانية ـ الفرنسية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أبدت مقاومة متزايدة ضد القوى الإمبريالية الأوروبية. وقد داخلتها، عند تعاظمها في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، بعض الأفكار الاشتراكية، غير أن إسهامها الرئيسي، قبل العام 1914، كان في الميدان الثقافي.

فكيف نستطيع أن نلخص الآثار التي خلفتها تطورات القرن التاسع عشر على العالم الإسلامي؟ لقد أصبح الموقع الاستراتيجي للشرق الأوسط في غاية الأهمية في زمن الثورة الفرنسية، وبقي كذلك منذ ذلك الحين. وقد تجلى ذلك في دوره خلال الحربين العالميتين. وقد تعزز هذا الدور بأهمية النفط المركزية للاقتصادات الصناعية الحديثة، وأدى

---

(4) Elie Safa, *L'Emigration libanaise*, préface du président Alfred Naccache (Thèse, université Saint - Joseph - Beyrouth, faculté de droit et des sciences économiques, 1960).

ذلك، بالإضافة إلى انهيار الإمبراطوريات العثمانية والإسلامية القديمة الأخرى، إلى مواجهة مباشرة بين عالم إسلامي واثقٍ في نفسه، متزايدِ الاتساع من جهة، والإمبراطوريات الأوروبية المتعدّية، التي سبقت ما حدث لأجزاء أخرى من العالم غير الأوروبي. وعلى الرغم من ذلك، فإن أغلبية العالم الإسلامي، الواقعة غربي الهند على الأقل، بقيت خارج مجال الحكم الاستعماري الغربي حتى القرن العشرين، مع أن المناطق التي ظلت مستقلة، من الوجهة الفنية، كانت إما ضعيفة أو خارج نطاق تيار التطورات الرئيسية في القرن التاسع عشر، أو كليهما. ومن جهة أخرى، فإن الهيمنة أو السيطرة الأوروبية خلال تلك المرحلة المبكرة من العولمة الاقتصادية لم تترك أية آثار ملموسة على أكثرية سكان (الأرياف) في تلك المناطق، عدا القمع الذي يمارسه حكامهم المحليون. وكان الحكام الغربيون يميلون إلى معاملة الدين الإسلامي باحترام، بسبب قدرته الواضحة على تعبئة الجماهير وإذكاء الروح القتالية فيها. وباستثناء بعض الظروف الخاصة (مثل الغزو العسكري المباشر، كما حدث في الجزائر)، فإن الحوافز لمقاومة التوسع الأوروبي كانت ضعيفة، وقد خفف منها شعور الأقليات السياسية التي يمثلها البيروقراطيون المستنيرون، من نخب الضباط والمدنيين على السواء، بأن المقاومة ستبوء بالفشل، ما لم يكن ثمة تحديث مسبق لمجتمعاتهم التي كانت تغطّ في سبات عميق. وقد اكتسب التحديث صفة الاستعجال والإلحاح بفعل تزايد العولمة في عصر الإمبراطورية، وتعاظم ضغوط الأوروبيين الاستعمارية، والأزمة الختامية للإمبراطورية العثمانية. وفي تلك المرحلة، التي تميزت بروح الإسلام المحافظة، والافتقار إلى الوعي السياسي في أوساط الجماهير الورعة، أخلى دعاة تحديث الإسلام السبيلَ لدعاة الإصلاح الراديكالي على النهج الغربي من جانب الأقليات المستنيرة التي كانت تتعامل بصورة فوقيّة مع شعوبها المتشبثة بالتقاليد. ولم يكن من قبيل المصادفة أن أيديولوجيات التحديث الغربية التي تبنتها الطلائع المستنيرة، وفرضتها من أعلى، أصبح لها نفوذها في العالم

الإسلامي، مثلما كان لها تأثيرها على أنظمة الحكم غير الأوروبية التي كانت تسعى للتخلص من التخلف الاقتصادي. ومن هذه الأيديولوجيات فلسفة أوغُست كُونْتْ الوضعية (التي كانت لها أصداء في البرازيل والمكسيك، وكذلك في الإمبراطورية العثمانية)، وتراث السان سيمونيين في مصر. وقد استبدلت هذه التيارات في العشرينات بنوع جديد من الأيديولوجيات الطليعية المستوحاة من الثورة الروسية. وقد استحدث القرن العشرون عنصرين أساسيين جديدين في تاريخ العالم الإسلامي هما: انهيار القوى والإمبراطوريات الأوروبية، والتعبئة السياسية للجماهير المسلمة الآخذة بمزيد من التحضر. ويقع هذان العنصران خارج النطاق الزمني لهذه المؤلفات الثلاثة: **عصر الثورة**، و**عصر رأس المال**، و**عصر الإمبراطورية**. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، لم يكن هذان العنصران ظاهرين للعيان.

إريك هوبْزْباوْم

لندن 2006

تصدير

يتتبع هذا الكتاب تحوُّلَ العالم بين العام 1789 والعام 1848، وهو التحول الذي يُعزى إلى ما نسميه هنا "الثورة المزدوجة" أي الثورة الفرنسية عام 1789 ومُعاصرتها الثورة الصناعية (البريطانية). ومن ثَم، فإن هذا المؤلَّف، بالمعنى الدقيق للكلمة، ليس تاريخاً لأوروبا أو للعالم. وقد حاولت الإشارة، وإن بصورة عابرة، إلى البلد الذي تأثر بمضاعفات الثورة المزدوجة هذه خلال تلك الفترة. أما إذا كان تأثير الثورة على البلد آنذاك غير ذي بال، فقد توخيت عدم الإشارة إليه. من هنا، سيجد القارئ في هذا الكتاب شيئاً عن مصر، لا عن اليابان؛ وسيقرأ عن إيرلندا أكثر مما يقرأ عن بلغاريا، وعن أمريكا اللاتينية أكثر من أفريقيا.

ولا يعني ذلك بالطبع أن تواريخ البلدان والشعوب التي لم يتعرض لها هذا المؤلف أقل إثارة أو أهمية من تلك التي اشتمل عليها. وإذا كان منظور هذا الكتاب أوروبياً أو بصورة أدق فرنسياً ـ بريطانياً في المقام الأول، فلأن العالم، أو جزءاً كبيراً منه على الأقل، قد أخذ بالتحول في تلك الفترة بفعل تأثيرات أوروبية، بل فرنسية أوروبية في أصولها. بيد أننا تجنبنا الخوض في موضوعات محددة أخرى كانت تستحق معالجة أكثر تفصيلاً في هذا الكتاب. ولا يعود ذلك إلى حجم هذا العمل فحسب، بل إلى أن هذه القضايا (على نحو ما نجده في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية) قد عولجت بصورة مستفيضة في مجلدات أخرى

لاحقة في هذه السلسلة (التي تشمل، بالإضافة إلى **عصر الثورة ـ 1789 ـ 1848** هذا، **عصر رأس المال 1848 ـ 1875** (*Age of Capital 1789 - 1848*)، و**عصر الإمبراطورية 1875 ـ 1914** (*Age of Empire 1875 - 1914*)، و**عصر التطرف 1914 ـ 1991** (*Age of Extremes 1914 - 1991*).

و لا يهدف هذا الكتاب إلى سرد تفصيلي، بل إلى التفسير والتأويل، أو ما يسميه الفرنسيون التبسيط والتعميم الراقي (Haute vulgarisation). والقارئ المثالي، في تصوري النظري، هو المواطن الذكي المتعلم الذي لا يسعى إلى إشباع فضوله لمعرفة الماضي فحسب، بل الذي يريد أن يفهم كيف ولماذا أصبح العالم على ما هو عليه الآن، وإلامَ سيؤول. من هنا، ليس ثمة غناء أو ضرورة لإسناد النص بما تقتضيه الدراسات المنهجية التي تستهدف جمهرة القراء المتبحرين في العلم. وعلى هذا الأساس، فإن ملاحظاتي تكاد تشير برمتها إلى المصادر الحقيقية للمقتبسات والأرقام، أو في بعض الأحيان، إلى الأسانيد الموثوق بها للأقوال المثيرة للجدل أو الدهشة بصورة خاصة.

وعلى الرغم من ذلك، يقتضي الإنصاف أن أتحدث عن المادة التي يرتكز إليها هذا الكتاب الذي يتميز باتساع نطاقه وتعدد أبعاده. إن جميع المؤرخين أكثر خبرة (أو بعبارة أخرى، أكثر جهلاً) بميادين دون أخرى. ولا بدّ لهم، خارج مجالات ضيقة نسبياً، أن يعتمدوا بصورة كبيرة على أعمال مؤرخين آخرين. وفي ما يتصل بالفترة الواقعة بين العامين 1789 و1848 نجد أنفسنا إزاء كمٍّ هائل من المطبوعات لا يستطيع الإلمام به أي فرد على الإطلاق، حتى وإن كان قادراً على أن يطلع عليه باللغات التي كتب بها. (والواقع أن جميع المؤرخين لا يتقنون بطبيعة الحال إلا عدداً قليلاً من اللغات في أحسن الأحوال).

وعلى هذا الأساس، فإن جانباً كبيراً من هذا الكتاب هو مادة يعاد استخدامها للمرة الثانية أو حتى الثالثة، ولا مناص من أن تنطوي على بعض الأخطاء، وعلى بعض نواحي القصور التي سيحمل عليها الخبراء

مثلما سيأسف لها هذا المؤلف. وسيضم هذا الكتاب ثَبتاً بالمراجع التي يمكن الرجوع إليها للمزيد من الدراسة.

ومع أن من المتعذر نسل شبكة التاريخ وتفكيكها إلى خيوط منفصلة مفردة من دون تدمير نسيجها، فإن من الضروري تنظيم الموضوع الواحد في أقسام فرعية لأغراض عملية. وقد حاولت تقسيم الكتاب إلى قسمين عريضين: يتطرق الأول بصورة عامة إلى التطورات الأساسية التي شهدتها تلك الفترة؛ بينما يرسم القسم الثاني الخطوط العريضة لطبيعة المجتمع الذي أنتجته الثورة المزدوجة. غير أن ثمة خطوطاً للتماس والتداخل المقصود بين الموضوعات بحيث يتعذر تمييز بعضها عن بعض حتى من الوجهة النظرية، ولا يغدو ذلك ممكناً إلا لتحقيق السهولة واليسر في تناول هذه القضايا.

ولا يسعني إلا التعبير عن الامتنان للعديد من الأشخاص الذين ناقشت معهم جوانب من هذا الكتاب، أو اطلعوا على المسودات والنسخ الأولى لبعض فصوله، غير أنهم لا يتحملون المسؤولية عما اقترفته من أخطاء؛ وأذكر من هؤلاء ج. د. برنال؛ ودوغلاس داكن؛ وإرنست فيشر؛ وفرانسيس هاسكل؛ وهـ. ج. كونغزبيرغر؛ ور. ف. ليزلي. ويدين النص الرابع عشر على نحو خاص بالكثير للأفكار التي طرحها إرنست فيشر. وقد قدمت الآنسة ب. رالف مساعدة سكرتارية قيمة، كما قامت الباحثة الآنسة إ. ميسن بجمع فهرس الأسماء في نهاية الكتاب.

إريك هوبْزْباوْم



المقدمة

تنطوي الكلمات، في أغلب الأحيان، على شهادات أعلى وقعاً من الوثائق. ولننظر، على سبيل المثال، في بضع كلمات اختُرعت أو اكتسبت معانيها الجديدة أساساً خلال فترة العقود الستة التي يعالجها هذا الكتاب. ومن هذه المصطلحات كلمات مثل: "الصناعة"؛ و"الصناعي"؛ و"المصنع"؛ و"الطبقة العاملة"؛ و"الرأسمالية"؛ و"الاشتراكية". يضاف إلى ذلك كلمات مثل: "الأرستقراطية"؛ و"السكة الحديدية"، وتعبيرات سياسية من نوع "الليبرالي"؛ و"المحافظ"؛ و"الجنسية"؛ وكذلك "العالِم"؛ و"المهندس"؛ و"البروليتاري"؛ و"الأزمة" (الاقتصادية). كما نجد مسميات مثل: "النفعي"؛ و"الإحصاء"، ومصطلحات عديدة للعلوم الحديثة، وأخرى مثل: "الصحافة"، و"الأيديولوجيا". وهي كلها كلمات نُحتت أو عُدلت خلال تلك الفترة[1]، شأنها شأن مصطلحات أخرى من نوع "الإضراب"؛ و"الإملاق".

---

(1) وضعت هذه المصطلحات والتعبيرات، أو ما يرادفها، حرفياً، قيد الاستعمال في جميع أنحاء العالم في مختلف اللغات. واكتسبت كلمات مثل "الاشتراكية" و"الصحافة" دلالاتها على هذا الأساس على الصعيد الدولي، بينما استعاد مصطلح "السكة الحديدية" (Iron Road) دلالته الحرفية في جميع أرجاء المعمورة باستثناء موطنه الأصلي بريطانيا حيث ما زال يسمى "الطريق الممهدة بالقضبان" (Railway).

وإذا تخيلنا العالم الحديث بدون هذه الكلمات (أي بدون الأمور والمفاهيم التي تعطيها هذه المسميات)، أدركنا عمق الثورة التي اندلعت بين العامين 1789 و1848 ومثلت التحول الأعظم في تاريخ البشرية منذ العصور المغرقة في القدم التي اخترع فيها الإنسان الزراعة، وصنع الأدوات المعدنية، والكتابة، والمدن، والدولة. فقد نقلت هذه الثورة العالم بأسره من حال إلى حال، وما زالت تفعل ذلك. غير أن علينا حين ننظر في أمرها أن نميز بعناية بين نتائجها على المدى البعيد، وهي التي لا يمكن حصرها في أي إطار اجتماعي، أو منظمة سياسية، أو توزيع للقوى والموارد على الصعيد الدولي من جهة، والمرحلة المبكرة الحاسمة لهذه الثورة، التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بوضع اجتماعي عالمي محدد من جهة ثانية. إن ثورة 1789-1848 العظيمة لم تكن انتصاراً لـِ "الصناعة" بحد ذاتها، بل للصناعة الرأسمالية؛ ولا للحرية والمساواة عموماً، بل للطبقة الوسطى وللمجتمع "البورجوازي" الليبرالي؛ ولا "الاقتصاد الحديث" أو "الدولة الحديثة"، بل للاقتصادات والدول في منطقة جغرافية معينة من العالم (هي جزء من أوروبا وأقسام من أمريكا الشمالية)، كان مركزها يتمثل في دولتين متجاورتين متنافستين هما: بريطانيا العظمى وفرنسا. لقد كان التحول الذي طرأ بين العام 1789 والعام 1848، في جوهره، تجسيداً للنهضة التوأم التي انطلقت من هذين البلدين، وانتشرت في مختلف أرجاء المعمورة.

إلا أن بوسعنا أن ننظر إلى هذه الثورة الثنائية (ذات الطابع السياسي بمجملها في فرنسا، والصناعي في بريطانيا) لا باعتبارها أمراً يتعلق بتاريخ هاتين الدولتين اللتين تولّتا حْملَ هذه الثورة وأصبحتا عَلَما عليها، بل بوصفها فوهةً لبركان إقليمي أوسع نطاقاً. ولم يكن الاندلاع المتزامن للبركان في فرنسا وبريطانيا، على ما بينهما من اختلاف، مصادفة محضة أو أمراً لا يثير الاهتمام. غير أن ما سيسترعي انتباه مؤرخ ما في العام 3000 للميلاد، على سبيل المثال، ومن زاوية تختلف عن تلك التي ينظر منها مراقب صيني أو أفريقي، هو أن هاتين الثورتين قد

قامتا في هذه البقعة أو تلك من شمال ـ غرب أوروبا وفي امتداداتها فيما وراء البحار، ولم يكن مقدراً لهما أن تحدثا آنذاك في أي مكان آخر من العالم. ومن المهم، بالقدر نفسه، أن نلاحظ أن أياً من هاتين الثورتين لم يكن ممكناً في تلك الآونة بأي شكل غير انتصار الرأسمالية البورجوازية ـ الليبرالية.

وغني عن البيان أن تحولاً بهذا العمق لا يمكن فهمه إلا بالعودة إلى ما قبل العام 1789، بل إلى ما قبل العقود التي سبقته مباشرة، وهي تعبر بوضوح، (حين نستحضرها بنظرة إلى الوراء على الأقل)، عن أزمة الأنظمة القديمة (Ancien régimes) التي سادت العالم الشمالي الغربي، قبل أن تكتسحها الثورة المزدوجة. وسواء اعتبرنا الثورة الأمريكية عام 1776 اندلاعاً مماثلاً في أهميته للثورتين البريطانية والفرنسية، أو مجرد نذير أو حافز مباشر لهما، وسواء علقنا أهمية كبرى على الأزمات الدستورية والتقلبات والتشنجات الاقتصادية بين العام 1760 والعام 1789، فإن هذه التطورات ستفسر لنا بوضوح، في أحسن الحالات، طبيعة المناسبة والتوقيت اللذين صاحبا هذين الاختراقيْن العظيميْن، لا الأسباب الأساسية التي أدت إليهما. وعلى المحلل في هذا السياق ألّا يشغل نفسه بتحديد المدى التاريخي الذي ينبغي عليه أن يعود إليه، مثل الثورة الإنجليزية في أواسط القرن السابع عشر، أو حركة الإصلاح الديني وبدايات الغزو العسكري الأوروبي والاستغلال الكولونيالي لاستعمار العالم في أوائل القرن السادس عشر، أو إلى مراحل سابقة لذلك؛ لأن التحليل المعمق سيقودنا إلى آفاق أبعد بكثير مما تسمح به الحدود التاريخية الزمنية لهذا الكتاب.

علينا أن نلاحظ هنا أن القوى الاجتماعية والاقتصادية، والأدوات السياسية والثقافية الساعية إلى هذا التحول، كانت مستعدة ومهيأة آنذاك في منطقة هي من الاتساع بحيث تستطيع أن تشعل الثورة في أرجاء القارة الأوروبية الأخرى. وعلينا أن لا نشغل أنفسنا باستقصاء ظهور

السوق العالمية، أو بروز طبقة في القطاع الخاص من أصحاب المشروعات الاقتصادية المبادرين النشطين على نحو كافٍ، أو ظهور دولة (في إنجلترا) عكفت على انتهاج فلسفة مؤداها أن تعظيم الفائدة الخاصة هو الأساس لسياسة الحكومة. وليس من واجبنا كذلك أن نتتبع تطور التقانة، أو المعرفة العلمية أو الأيديولوجيا التي انطوى عليها الإيمان الفرداني، العلماني، العقلاني بالتقدم. ويمكننا اعتبار وجود هذه العناصر كلها أمراً مفروغاً منه في ثمانينات القرن الثامن عشر، على أننا لا نستطيع أن نفترض أن هذه المكونات كانت على مستوى كافٍ من القوة والانتشار. وعلينا، على العكس من ذلك، أن نتحاشى إغفال طابع الجدة في هذه الثورة المزدوجة بسبب إهابها الظاهري الخارجي، أو باعتقاد ما نعرفه بصورة مؤكدة من أن ثياب روبسبيير (Robespierre) وسان جوست (Saint-Just)، وما كانا يتسمان به من مناقب أخلاقية، وأسلوب في الأداء النثري، لم يكن كله مختلفاً كل الاختلاف عما كان شائعاً في صالونات "النظام القديم"، وأن جيريمي بنثام (Jeremy Bentham)، الذي كانت آراؤه الإصلاحية تعبيراً عن تطلعات بريطانيا البورجوازية في ثلاثينات القرن التاسع عشر، هو نفسه الذي عرض هذه الأفكار ذاتها على كاثرين الكبرى في روسيا القيصرية، وأن أكثر المقولات تطرفاً في الاقتصاد السياسي للطبقة الوسطى إنما صدرت عن أعضاء في مجلس اللوردات البريطاني في القرن التاسع عشر.

وعلى هذا الأساس، فإن شاغلنا لا يدور حول تفسير وجود هذه العناصر في الاقتصاد والمجتمع الجديدين، بل يتركز في تفسير انتصارها؛ ولا ينحصر في تقصي التقدم الذي حققته من خلال نهلها لنسغها من منابع كامنة في القرون السابقة، بل في تبيان اقتحامها الكاسح للحصن الحصين. كما أن علينا أن نستشف التغيرات العميقة التي أحدثها هذا الانتصار المفاجئ في البلدان التي كانت الأسرع تأثراً مباشراً بها، وأرجاء أخرى من عالم فتحت أبوابه على مصاريعها أمام جميع الآثار المتفجرة للقوى الجديدة، وهي القوى التي سميت في عنوان

كتاب صدر مؤخراً عن تاريخ العالم في تلك الفترة "البورجوازية الظافرة".

وحيث إن الثورة المزدوجة قامت في جزء واحد من أوروبا، وخلفت فيه آثارها المباشرة في أجلى مظاهرها، فلا مناص من أن يكون التاريخ الذي يتناوله هذا المجلد إقليمياً في نطاقه. وبما أن الثورة العالمية التي انطلقت من هاتين البؤرتين الثنائيتين في إنجلترا وفرنسا، كان لا بد من أن تتخذ أول الأمر شكل توسع وغزو أوروبي لبقية العالم؛ فقد تمثلت، في الواقع، أبرز تداعياتها الصارخة بالنسبة للتاريخ العالمي في ترسيخ الهيمنة على العالم من جانب عدد قليل من الدول الأوروبية (ولا سيما بريطانيا) على نحو لا مثيل له في التاريخ. فقبل التجارة، والمحركات البخارية، والسفن والمواقع - وكذلك الأفكار - القادمة من الغرب، كانت الحضارات والإمبراطوريات العريقة في العالم قد بدأت الاستسلام والتداعي، إذ غدت الهند مقاطعة يشرف على إدارتها حاكم إداري بريطاني واسع الصلاحيات، وكانت الأزمات تمسك بخناق الدول الإسلامية، وأبواب أفريقيا مفتوحة للغزاة. بل إن إمبراطورية الصين العظيمة أرغمت بين العام 1839 والعام 1842 على فتح حدودها للاستغلال الغربي. وبحلول العام 1848، لم يكن ثمة ما يقف في طريق الغزو الأوروبي لأية بقعة ارتأت الحكومات ورجال الأعمال الغربيون أن من مصلحتهم احتلالها. وكان تقدم المشروع الرأسمالي الغربي مسألة وقت لا غير.

غير أن تاريخ الثورة المزدوجة لم ينحصر في انتصار المجتمع البورجوازي الجديد، بل كان أيضاً تاريخ نشوء القوى التي حولت التوسع إلى انكماش خلال قرن واحد من الزمان بعد العام 1848. يضاف إلى ذلك أن بوادر تقلب الحظوظ في المستقبل كانت، بحلول العام 1848، ظاهرة للعيان إلى حد ما. وصحيح أنه لم يكن ممكناً آنذاك التكهن بالثورات التي اندلعت ضد الغرب في مختلف أنحاء العالم في

أواسط القرن العشرين. ولم نشهد، إلا في العالم الإسلامي، المراحل الأولى لهذه المسيرة حين تبنى المغلوبون الذين تعرضوا للغزو الأوروبي آراء الغرب وأساليبه ليردوا كيده إلى نحره؛ وذلك ما نراه في بدايات حركة الإصلاح التغريبية داخل الإمبراطورية التركية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، والأهم من ذلك في فترة حكم محمد علي المهمة المهملة في مصر. غير أننا شهدنا في أوروبا، في الوقت نفسه، بروز القوى والأفكار التي كانت تتربص بالمجتمع الجديد الظافر وتتحين الفرصة للانقضاض عليه. لقد كان "شبح الشيوعية" يهيمن على أوروبا بحلول العام 1848. غير أنه جرى طرده والتخلص منه في العام نفسه. ولقد بقي هذا الشبح مدةً طويلة بعد ذلك عاجزاً، كما هي حال الأشباح، خاصةً في العالم الغربي الذي طالته الثورة المزدوجة بصورة فورية. وعلى الرغم من ذلك، فإننا، إذا نظرنا حولنا إلى العالم في ستينات القرن العشرين، لا نستطيع التقليل من الدور التاريخي للأيديولوجية الثورية الاشتراكية والشيوعية التي ولدت باعتبارها ردة فعل على الثورة المزدوجة تلك. وقد وجدت هذه الأيديولوجيا صيغتها التنظيمية الأولى عام 1848. فالفترة التاريخية التي بدأت ببناء أول منظومة من المصانع في العالم الحديث في لانكشير في بريطانيا، وبالثورة الفرنسية عام 1789، ستنتهي ببناء أولى شبكات السكة الحديدية، وبنشر البيان الشيوعي.

القسم الأول

التطـــورات



الفصل الأول

العالم في ثمانينات القرن الثامن عشر

Le dix-huitième siècle doit être mis au Panthéon. Saint - Just.

ينبغي أن يوضع القرن الثامن عشر في البانتيون [مدافن عظماء فرنسا]. سان ـ جوست[1].

I

أول ما تجدر ملاحظته في عالم الثمانينات من القرن الثامن هو أنه كان، في آنٍ معاً، أكبر كثيراً وأصغر كثيراً من عالمنا الحالي. لقد كان أصغر من الناحية الجغرافية لأن الناس، حتى الأكثر علماً ومعرفة، مثل العالِم الرحالة ألكسندر فون هامبولدت (Alexander von Humboldt) (1769ـ1859)، لم يكونوا يعرفون آنذاك إلا أجزاءً من المناطق المعمورة في كوكبنا. (أما "العوالم المعروفة" لدى الجماعات الأقل علماً وانتشاراً

---

(1) Louis-Antoine-Léon Saint-Just, *Oeuvres complètes de Saint-Just*, 2 vols., l'élite de la révolution; 1, avec une introd. et des notes par Charles Vellay (Paris: E. Fasquelle, 1908), vol. II: *Rapports et écrits divers (mai 1793- thermidor an II)*, p. 514.

من تلك التي كانت تقطن غربي أوروبا، فلا بد أنها كانت أصغر من ذلك، حتى إنها تضاءلت حتى غدت مجرد أثلام من الأرض يمضي فيها الفلاحون الصقلّيون الأمّيون والمزارعون في تلال بورما حياتهم). وكان كل شيء في حكم المجهول في ما وراء هذه البقاع. وكان جُلّ سطوح المحيطات، ولكن لا كلها، قد اكتشف ووضعت له الخرائط بفضل الكفاءة المشهودة التي أظهرها ملاحو القرن الثامن عشر من أمثال جيمس كوك، على الرغم من أن معرفة الإنسان بقيعان البحار ظلت شحيحة جداً حتى أواسط القرن العشرين. وكانت المعالم الرئيسية للقارات وأغلب الجزر معروفة، وإن لم تكن دقيقة بالمقاييس الحديثة. وكانت أحجام سلاسل الجبال وارتفاعاتها في أوروبا معروفة بقدر كبير من الدقة، وتلك الموجودة في أمريكا اللاتينية معروفة بصورة غامضة، وفي آسيا شبه معدومة. أما أفريقيا، فقد كانت معالمها مجهولة تماماً (باستثناء جبال الأطلس لأغراض عملية). وفيما عدا الأنهار الكبرى في الهند والصين، فإن مجاريها لم تكن معروفة إلا لحفنة من القناصين والتجار أو عدّائي الغابات الذين كانوا على معرفة أو إلمام بمسارات هذه الأنهار في المنطقة. ولم يصلوا خارج تلك المناطق القليلة في عدة قارات إلى بعد بضعة أميال على اليابسة من السواحل، وكانت خريطة العالم تتكون من مساحات بيض تتخللها علامات الطرق التي كان يسلكها التجار والمستكشفون. وعلى الرغم من هذه المعلومات المتناقلة التي جمعها أو استقاها الرحالة والمسؤولون المقيمون في مواقع نائية، فإن المساحات البيض كانت في واقع الأمر أوسع بكثير مما تظهره تلك الخريطة.

ولم يقتصر الصغر على "العالم المعروف" فحسب، بل تعداه إلى العالم الواقعي في جميع الحالات في المجال البشري. وحيث إن تعداد السكان لم يكن معروفاً للأغراض العملية في تلك الآونة، فإن تقديرات السكان لم تتعدَّ حدود التخمينات. غير أن من الواضح أن كوكبنا الأرضي لم يَعْمُرْهُ آنذاك إلا جانب من سكان عالمنا اليوم، ربما بنسبة لا تزيد على الثلث. وإذا لم تكن التخمينات الأكثر تداولاً بعيدة جداً عن

الصواب، فقد كان يعيش في آسيا وأفريقيا نسبة من سكان العالم أكبر إلى حد ما مما هي الحال اليوم. وكان سكان أوروبا عام 1800 نحو 187 مليوناً (مقابل 600 مليون اليوم). ويصدق ذلك بصورة خاصة على الأمريكتين اللتين لم يكن يعيش فيهما في تلك الأيام نسبة أقل بكثير مما كانت عليه الحال في المناطق الأخرى. ويمكن القول، بصورة عامة، إن اثنين من كل ثلاثة من البشر كانوا عام 1800 يعيشان في آسيا، وواحداً من كل خمسة في أوروبا، وواحداً من كل عشرة في أفريقيا، وواحداً من كل ثلاثة وثلاثين في أمريكا أو الأقيانوسيا. ومما لا شك فيه أن هذه النسبة القليلة من السكان كانت مبعثرة بصورة فضفاضة على وجه البسيطة، ربما باستثناء بقاع قليلة محددة تتميز بالزراعة الكثيفة، والتركيز الحضري العالي مثل أجزاء من الصين والهند وأوروبا الغربية وأوروبا الوسطى، حيث كانت كثافة السكان تقارب ما هي عليه في أيامنا هذه. وإذا كانت نسبة السكان قليلة، فإن مساحة الاستيطان البشري الفعال لم تقِلَّ عنها شِحّاً. لقد تقيدت حدود الاستيطان في المناطق القطبية بالظروف المناخية (التي ربما كانت أكثر برودة ومطراً مما هي عليه اليوم، مع أن مستويات الصقيع والمطر كانت بعيدة كل البعد عما كانت عليه خلال أسوأ الفترات في "عصر الجليد الأصغر" بين العام 1300 والعام 1700 تقريباً). كما أسهم انتشار الأمراض المستوطنة، مثل الملاريا، في الحد من الاستيطان في مناطق عديدة بينها جنوب إيطاليا التي ظلت سواحلها شبه مهجورة، ولم يستوطنها الناس إلا بصورة تدريجية خلال القرن التاسع عشر. وقد أدى انتشار أشكال بدائية من الاقتصاد، وفي مقدمتها الصيد، والتنويع الموسمي لمناطق رعي الماشية، الذي يهدد خيرات الأرض (في أوروبا)، إلى عزل المستوطنات عن مناطق كاملة، مثل سهول أبوليا. ومن الشواهد المألوفة عن مشاهد الطبيعة آنذاك صور سياحية تمثل الريف الروماني: مساحات خالية تظهر فيها بعض الأطلال، وتنتشر فيها الملاريا، وعدد من قطعان الماشية، وربما منظر شاذ جذاب لبعض قطاع الطرق. يضاف إلى ذلك بالطبع أن

جانباً كبيراً من الأراضي التي بدأت فلاحتها منذ ذلك الوقت كانت، حتى في أوروبا، أرضاً بَوْراً، أو مستنقعاتٍ تغمرها المياه، أو غاباتٍ أو مراعيَ وعرةً مهملة.

ومن ناحية ثالثة، كانت أجسام البشر آنذاك أصغر حجماً. وكان الأوروبيون، قياساً على ما هم عليه اليوم، أقصر قامة وأخف وزناً بصورة متميزة على العموم. ولنأخذ مثلاً على ذلك من الإحصاءات المتوفرة عن أجسام المجندين والمعلومات التي استخلصت منها هذه النتيجة؛ ففي إحدى المقاطعات في ساحل ليغوريا، كان طول الفرد بين 72 في المئة من المجندين بين العام 1779 والعام 1792، يقل عن متر ونصف المتر (أي خمسة أقدام وبوصتين)[2]. ولم يكن ذلك يعني أن الرجال في أواخر القرن الثامن عشر كانوا أكثر هشاشة منا. فجنود الثورة الفرنسية العُجف القصار الأغرار كانوا في قدرتهم على التحمل الجسدي يضاهون قرود اليوم الصغيرة في جبال المستعمرات. وكان شائعاً أن يمشي الجندي، بكامل عدته، من دون توقف طوال أسبوع بمعدل ثلاثين ميلاً في اليوم. غير أنه لا مراء في أن أجسام الناس كانت، بمعايير اليوم، نحيلةً جداً. ويتجلى ذلك، في أجلى صوره، في المكانة العالية التي كان الملوك والقادة العسكريون يولونها لـِ "الأشخاص الطوال" الذين كانوا يتصدرون كتائب النخبة في أوساط الحرس والفرسان وغيرهم.

وإذا كان العالم آنذاك أصغر حجماً من أكثر من ناحية، فإن صعوبة الاتصالات أو عدم التيقن من صحتها قد جعلته أكثر اتساعاً مما هو عليه اليوم. ولا أود المبالغة في تبيان هذه المصاعب. لقد كان القرن الثامن عشر في أواخره، بمقاييس العصور الوسطى أو القرن السادس عشر،

---

(2) Abel Hovelacque, "La Taille dans un canton ligure," *Revue mensuelle de l'école d'anthropology*, [vol. 6] (1896).

عصراً زاخراً بالاتصالات والمواصلات السريعة. بل إن تحسناً مشهوداً قد طرأ على الطرق، والعربات التي تجرها الخيول، والخدمات البريدية حتى قبل ثورة السكة الحديدية. ففي الفترة الواقعة بين أواخر الستينات من القرن الثامن عشر ونهاية ذلك القرن، انخفضت مدة السفر من لندن إلى غلاسغو من عشرة أيام أو اثني عشر يوماً إلى اثنتين وستين ساعة. كما أن نظام عربات البريد الذي استخدم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر قد انتشر على نحو واسع بين نهاية الحروب النابليونية ومجيء السكة الحديدية، ولم يقتصر على زيادة السرعة النسبية (وكانت خدمة البريد بين باريس وستراسبورغ عام 1833 تستغرق ستاً وثلاثين ساعة) بل أضفى على تلك الأنشطة طابع الانتظام. غير أن توفير المواصلات البرية للمسافرين كان محدوداً، مثلما كان نقل السلع بطيئاً وعاليَ الكلفة. ولم تنقطع الصلات بين أصحاب الأعمال الحكومية والتجار. وتشير التقديرات إلى أن البريد البريطاني نقل عشرين مليون رسالة في مطلع الحروب مع نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte) (وتضاعف هذا العدد عند نهاية الفترة التي نعالجها عشر مرات). إلا أن الرسائل كانت عديمة الفائدة للأغلبية العظمى من سكان العالم الذين لم يكونوا يحسنون القراءة، وكان السفر بعيد المنال، إلا لمن يتنقلون بين سوق وأخرى. وإذا ما تنقل هؤلاء براً فإنهم، في أغلب الأحيان، يقطعون المسافة مشياً على الأقدام، أو يستقلون العربات البطيئة التي نقلت، حتى في مطلع القرن التاسع عشر، خمسة أسداس البضائع الفرنسية بسرعة تقل عن عشرين ميلاً في اليوم. وكان حاملو الرسائل يقطعون مسافات طويلة لأداء مهماتهم، والحوذيون يقودون عربات البريد التي تحمل كل منها نحو اثني عشر راكباً تتضعضع عظامهم جراء الاهتزاز، أو يصابون بالدوار العنيف والغثيان إذا كانت العربة مجهزة بالنوابض الجلدية، وكان النبلاء يذرعون المنطقة في عرباتهم الخاصة. غير أن النقل البري، بالنسبة للأكثرية العظمى من سكان العالم، كان رهناً بسرعة سائق العربة الذي يغذ الخطى إلى جانب الحصان أو البغل. في ظل هذه الظروف، لم يكن

النقل البحري أكثر يسراً وأقل كلفة فحسب، بل كان أكثر سرعة (ما عدا الحالات التي تضطرب فيها الأمور بفعل الرياح والطقس). وقد استغرق انتقال الشاعر غوته (Goethe) خلال رحلته الإيطالية بين نابولي وصقلية، ذهاباً وإياباً، أربعة أيام وثلاثة أيام على التوالي. ولا شك في أنه كان سيمضي فترة أطول بكثير لو أراد أن يتمتع بالحد الأدنى من الراحة أثناء السفر. وكان الوصول إلى أحد المرافئ أشبه باقتراب المرء من عتبات العالم؛ إذ كانت لندن، بالمعنى الحرفي للكلمة، أقرب إلى مدينتي بليموث وليث منها إلى القرى في بريكلاند في مقاطعة نورفولك، وكانت إشبيلية أقرب منالاً من فيراكروز منها إلى فلادوليد [بلد الوليد]، وهامبورغ أقرب إلى باهيا منها إلى المنطقة الداخلية من بروميران. وكانت العقبة الرئيسية في وجه النقل البحري تتمثل في التعثر والانقطاع؛ فرحلات البريد من لندن إلى هامبورغ كانت، حتى العام 1820، تتم مرتين في الأسبوع فحسب، وإلى السويد والبرتغال مرة واحدة في الأسبوع، وإلى الولايات المتحدة مرة في الشهر. ولكن لا شك في أن بوسطن ونيويورك كانتا على علاقة أوثق بباريس بالمقارنة، مثلاً، مع علاقة ماراماروس الواقعة في كرباثيا ببودابست. ومثلما كان سهلاً نقل البضائع والناس بكميات وأعداد كبيرة عبر المحيطات الشاسعة (إذ كان نقل نحو 44.000 شخص من موانئ إيرلندا الشمالية إلى أمريكا خلال خمس سنوات (1769-1774) أسهل من نقل خمسة آلاف إلى دندي خلال ثلاثة أجيال)، كان وصل العواصم بعضها ببعض أسهل من وصل العواصم بالمناطق الريفية في البلد الواحد. فقد وصلت أخبار سقوط الباستيل إلى مدريد خلال ثلاثة عشر يوماً، بينما لم تصل إلى بلدة بيرون التي لا تبعد عن العاصمة باريس أكثر من 133 كيلومتراً إلا بعد ثمانية وعشرين يوماً.

من هنا، كان عالم 1789 بالنسبة لأغلب السكان فسيحاً متسعاً كل الاتساع، وكان الناس يعيشون ويموتون في البلدة، إن لم يكن في الضاحية، التي ولدوا فيها، إلا إذا تخللت حياتهم منعطفات تحيد بها عن

مسارها، مثل تجنيدهم في الجيش. وحتى في وقت متأخر هو العام 1861، كان أكثر من تسعة أعشار الناس في سبعين من أصل الدوائر التسعين في فرنسا يعيشون في الدائرة التي ولدوا فيها. أما أنحاء العالم الأخرى، فكانت من شأن العاملين في الحكومة وموضوعاً للشائعات. فلم تتيسر الصحف إلا لقلة قليلة من أبناء الطبقتين الوسطى والعليا. وعام 1814، لم يكن عدد النسخ المتداولة من أية صحيفة في فرنسا يتجاوز 5000 نسخة، ولم تكن الأغلبية الساحقة قادرة على القراءة على أية حال. وكانت الأخبار تصل إلى أغلب الناس عن طريق المسافرين والفئات المتحركة من السكان هي: التجار والبائعون الجوالون والعمال المياومون والصناع المهاجرون والشغيلة الموسميون. وكان هؤلاء شرائح واسعة مختلفة من الناس تضم المتسولين والمتسكعين والجوالين مثل الرهبان الطوافين والحجاج والمهربين واللصوص ولاعبي السيرك. وكانت الأخبار تنتقل كذلك بالطبع على ألسنة الجنود الذين كانوا يخالطون الناس وقت الحرب ويتولون حمايتهم وقت السلم. كما أن الأخبار كانت متداولة بالطبع عن طريق القنوات الرسمية في الدولة والكنيسة على حد سواء. غير أن أكثر العاملين في المؤسسات الحكومية والكنيسة كانوا من الموظفين المحليين أو الرجال الذين آثروا قضاء خدماتهم والعيش بين أهليهم، وخارج المستعمرات. وكان إيفاد المسؤولين الرسميين من جانب الحكومة المركزية لتولي مهمات متتابعة في الأقاليم قد بدأ خطواته الأولى. وبين موظفي الدولة هؤلاء، كان يُتوقع من الضابط أو آمر الكتيبة وحده أن يتنقل ولا يقيم زمناً طويلاً في مكان بعينه، ولا يؤنس وحشته في ذلك الموقع إلا تشكيلة منوعة من الخمور والنساء والخيول.

II

كان عالم 1789 في مجمله، إذن، ريفيّ الطابع، ولن نستطيع أن نفهمه إلا إذا استوعبنا هذه الحقيقة الجوهرية. وفي بلدان مثل روسيا

واسكندنافيا والبلقان التي لم تكن المدن قد نمت فيها وازدهرت، كان ما يتراوح بين 90 و97 من السكان ريفيين. وحتى في المناطق ذات التقاليد الحضرية القوية ـ التي أخذت آنذاك بالتأكل ـ كانت نسبة المحتوى الريفي والزراعي في حياة الناس، وفق التقديرات المتوفرة[3] عالية بصورة غير عادية: 85 في المئة في لومبارديا، و72 في المئة إلى 80 في المئة في البندقية، وأكثر من 90 في المئة في كالابريا ولوكانيا. ويتعذر علينا في الواقع أن نجد خارج عدد قليل من المناطق الصناعية أو التجارية المزدهرة بلداً أوروبياً ذا شأن لا يكون أربعة من كل خمسة من سكانه من أهل الريف. بل إن معدل السكان الحضر، حتى في إنجلترا نفسها، لم يتجاوز معدل سكان الريف للمرة الأولى إلا سنة 1851. إن اصطلاح "الحضر" غامض بالطبع، وهو يشتمل على المدينتين الأوروبيتين اللتين كانتا عام 1789 كبيرتين بمقاييسنا المعاصرة، هما لندن، التي بلغ مقدار سكانها نحو مليون نسمة، وباريس التي كان يقطنها نحو نصف مليون شخص، بالإضافة إلى طائفة أخرى يزيد عدد سكانها على مئة ألف نسمة: مدينتان في فرنسا، واثنتان أخريان في ألمانيا، وربما أربع في إسبانيا، وخمس في إيطاليا (فقد كان حوض البحر الأبيض المتوسط هو المهد التقليدي للمدن)، ومدينتان في روسيا، وواحدة في كل من البرتغال وبولندا وهولندا والنمسا، وإيرلندا واسكوتلندا وتركيا الأوروبية. إلا أن هذه المجموعة شملت كذلك جمهرة من البلدات الإقليمية الصغيرة التي كان يقطنها أغلب سكان المدن؛ هي البلدات التي كان يستطيع المرء فيها خلال دقائق أن يعبر من ساحة الكنيسة التي تحيط بها المباني العامة وبيوت الوجهاء باتجاه الحقول. ومن أصل الـ 19

(3) Luigi Dal Pane, *Storia del lavoro in Italia dagli inizi del secolo XVIII al 1815* (Milán [n. pb.], 1958), p. 135, et R. S. Eckers, "The North-South Differential in Italian Economic Development," *Journal of Economic History*, vol. XXI (1961), p. 290.

في المئة من النمساويين ممن عاشوا في المدن حتى أواخر الفترة التي نعالجها (1834)، كان أكثر من ثلاثة أرباعهم يقطنون في بلدات لا يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة، ونحو نصفهم في بلدات يتراوح عدد سكانها بين ألفين وخمسة آلاف. وهذه هي البلدات التي كان عمال المياومة الفرنسيون يتجولون فيها أثناء تطوافهم في فرنسا والأقطار المجاورة، وهي التي استحضر الشعراء الرومانسيون الألمان صورتها في المشاهد الطبيعية الوادعة التي رسموها كما كانت في القرن الخامس عشر، قبل أن يحولها الكساد في القرون اللاحقة إلى ما يشبه الهوام المتناثرة على بساط كهرماني اللون؛ وهي التي ارتفعت فوقها الكاتدرائيات الإسبانية الشاهقة؛ وكان اليهود الشاديسيون التقليديون المتشددون يلقون عصا الطاعة والتوقير أمام حاخاماتهم في أزقتها الطينية. أما الأرثوذوكس، ولا سيما المستقيمو الرأي منهم، فكانوا ينكرون النقاط الدقيقة المقدسة في الناموس؛ وهي التي وفد إليها المفتش العام في مسرحية غوغول التي تحمل هذا العنوان ليلقي الرعب في نفوس الأغنياء، ودخلها، في روايته **النفوس الميتة** المغامر تشيتيكوف ليشتري أسماء الخدم الموتى وأرواحهم ليعزز بها مكانته الاجتماعية. غير أن هذه البلدات هي نفسها التي خرج منها شباب متحمس طموح ليصنع الثورات أو يكسب الملايين أو كليهما. فقد أتى روبسبيير من أرّاس، وغراكوس بابوف (Gracchus Babeuf) من كوينتن، ونابليون من أجاسيو.

بيْد أن هذه البلدات الواقعة في الأقاليم كانت حضرية بسبب صغر حجمها. إن أهل البلدة الأصليين كانوا ينظرون بازدراء إلى أهل الريف نظرة العارف الفطن إلى القوي الغبي البليد الجاهل. (وبمقاييس الناس العاديين، لم يكن للقرى الواقعة في أطراف الريف ما تفخر به؛ فالكوميديات الشعبية الألمانية كانت تطفح بالسخرية القاسية من "البلدات الصغرى"). وكان الخط الفاصل حاداً واضحاً بين البلدة والريف، أو بالأحرى بين المهن في البلدة وما يقابلها في المناطق

الزراعية. وفي كثير من البلدات، كان الحاجز الذي تستوفى فيه الضريبة على السلع المحلية، أو حتى بقايا السور القديم، كافياً للفصل بينها. وفي الحالات القصوى، كما في بروسيا، أقامت الحكومة، الحريصة على ممارسة الإشراف الكامل على مواطنيها دافعي الضريبة، ما يشبه الفصل التام بين الأنشطة الحضرية والريفية. وحتى في الحالات التي لم يكن يجري فيها هذا التقسيم الإداري المتصلب، كان أهل البلدة يمتازون بخصائص مادية عن الفلاحين. وفي المنطقة الواسعة التي تمتد فيها أوروبا الشرقية، انتشرت جزر ألمانية ويهودية وإيطالية في بحيرات سلافية أو مجرية أو رومانية. بل إن أهل البلدة، الذين يشاركون الفلاحين حولهم جنسية واحدة وديناً واحداً، كانوا يظهرون بمظهر مختلف؛ فقد كانوا يرتدون ملابس مختلفة، حتى إنهم كانوا في أكثر الحالات (ما عدا السكان الكادحين الذين يصنعون المنتجات في بيوتهم) أطول قامة، وربما أرشق قواماً[4]. وربما كانوا أكثر فطنة وأكثر إلماماً بالقراءة والكتابة ـ وذلك ما كانوا يفخرون به بالتأكيد. غير أنهم في أسلوب حياتهم كانوا على القدر نفسه من الجهل بما يدور خارج البقعة التي يعيشون فيها التي كانت، كالقرية، منطقة مغلقة.

ظلت بلدات الأقاليم تنتمي أساساً إلى الاقتصاد والمجتمع الريفيين؛ فهي تستمد قوتها من جهد الفلاحين حولها، ومن اهتمامها بمصالحها الخاصة مع استثناءات قليلة. وكان المهنيون وأفراد الطبقة الوسطى فيها يمثلون الوسطاء في عمليات المتاجرة بالذرة والماشية، ومصنّعي المنتجات الزراعية، والمحامين والكتاب العدول الذين يتولون شؤون إقطاعيات

---

(4) من هنا، كان أهل بلدة بروكسل (Brussels)، في المعدل، أطول بثلاثة سنتيمترات من أهل الجماعات الريفية المحيطة بهم، وبسنتيمترين من أهل لوفان (Louvain). وثمة كمية معتبرة من الإحصاءات العسكرية حول هذه المسألة، مع أنها تعود جميعها إلى القرن التاسع عشر. انظر: L. Manouvrier, "Sur la taille des parisiens," *Bulletin de la société d'anthropologie de Paris*, 3ème série, vol. 11 (1888), p. 171.

النبلاء أو إجراءات التقاضي المتواصلة المتعلقة بالجماعات المالكة للأرض أو التي تحتفظ بحق الإشراف عليها، كما تضم التجار المبادرين الذين يتولون التعامل مع أصحاب المغازل والمناسج في الريف، والشخصيات الرفيعة من ممثلي الحكومة، واللوردات، والكنيسة. وكان الصناع المهرة وأصحاب الحوانيت فيها يزودون من حولهم من الفلاحين وأهل البلدة ـ الذين يعتاشون من جهد الفلاحين ـ باحتياجاتهم. وقد ساءت أوضاع البلدات في الأقاليم عما كانت عليه في عهدها الذهبي في أواخر القرون الوسطى، وقلما كانت تتمتع بوضع "المدينة الحرة" أو المدينة الدولة، ولم تعد مركزاً للتصنيع لسد احتياجات سوق أوسع، أو محطة في شبكة التجارة العالمية، وأصبحت بعد تدهور أوضاعها أكثر عناداً في تشبثها باحتكارها المحلي لأسواقها، وتصدت للدفاع عنها ضد القادمين الجدد. واستمدت النزعة الإقليمية، التي سخر منها الراديكاليون الشباب وتجار المدن الكبرى، جانباً كبيراً من قوتها من حركة الدفاع الاقتصادي هذه. وعاش الوجهاء وأحياناً النبلاء في جنوب أوروبا اعتماداً على مداخيلهم من تأجير مزارعهم. وفي ألمانيا، تولت الأجهزة البيروقراطية في البلديات الصغرى التي يصعب حصرها، وهي التي لم تكن أكثر من مزارع كبيرة، إدارة شؤون البلدات بالريع الذي تجمعه من الفلاحين المواظبين الصامتين. وقد تكون بلدات الأقاليم في أواخر القرن التاسع عشر، بالصورة التي تظهرها اللوحات الزيتية، مجتمعات محلية مزدهرة متنامية، تنتشر فيها الأبنية الحجرية المصممة على الطراز الكلاسيكي أو الروكوكو المزيّن البسيط، ويتجلى ذلك في اللوحات الزيتية التي رسمت لها وفي آثارها الباقية في أجزاء غرب أوروبا. غير أن منابع هذا الازدهار كانت في المناطق الريفية.

III

كانت المشكلة الزراعية، إذن، هي القضية الأساسية في عالم 1789. ويسهل علينا في هذه الحالة أن نفهم السبب الذي دفع دعاة أول

مدرسة اقتصادية قاريّة، هم الفيزيوقراطيون الفرنسيون، إلى أن يفترضوا بصورة تلقائية أن الأرض، وإيجار الأرض، هما المصدر الوحيد لصافي الدخل. وكان جوهر المشكلة الزراعية يتمثل في العلاقة بين من يفلحون الأرض من جهة، ومن يملكونها من جهة أخرى؛ أي بين من ينتجون ثروتها، ومن يجمعونها.

ومن حيث علاقات الملكية الزراعية، يمكننا أن نقسم أوروبا، أو بالأحرى المجمّع الاقتصادي الذي يقع مركزه في أوروبا الغربية، إلى ثلاثة أقسام عريضة. وباستثناء المنطقة الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية ورقاع زراعية مستقلة أقل أهمية، كان الفلاح النموذجي هندياً يعمل مرغماً أو بصورة أشبه بالسخرة، أو زنجياً يعمل بوصفه عبداً؛ أو، بصورة نادرة، مزارعاً مستأجراً، أو مشاركاً في المحصول أو ما إلى ذلك. وفي مستعمرات جزر الهند الغربية، حيث لم يكن المزارعون الأوروبيون يحرثون الأرض مباشرة إلا في ما ندر من الحالات، كان الإرغام الذي يمارسه المسيطرون على الأرض يتمثل في فرض حصة لهم من المحاصيل، مثل التوابل أو البن في الجزر الهولندية، على سبيل المثال. وبعبارة أخرى، كان الفلاح محروماً من الحرية مقيداً من الوجهة السياسية. وكان صاحب الأرض، يمتلك، في العادة، عزبة واسعة شبه إقطاعية (مزرعة أو أرضاً زراعية أو أطياناً) أو مزرعة يعمل فيها العبيد. ومن خصائص هذه المزارع شبه الإقطاعية أن اقتصادها كان بدائياً ويتمتع بالاكتفاء الذاتي، مكرساً في جميع الأحوال لتلبية المتطلبات الإقليمية فحسب؛ فقد كانت أمريكا الإسبانية تصدر المنتجات المعدنية التي يصنعها عمال السخرة الهنود، ولكنها لا تعادل المنتجات الزراعية في قيمتها. أما اقتصاد مزارع العبيد، التي تمركزت في جزر البحر الكاريبي وفي السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية (ولا سيما شمال البرازيل)، والسواحل الجنوبية للولايات المتحدة، فكانت تمتاز بإنتاج محاصيل قليلة، ولكنها عظيمة الأهمية بالنسبة للتصدير، ومنها السكر، وإلى حد أقل التبغ والبن، والصباغ، والأهم من ذلك كله القطن بعد الثورة

الصناعية. وقد أصبح، من ثَمَّ، جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد الأوروبي، ومن خلال تجارة العبيد، جزءاً من الاقتصاد الأفريقي. وتاريخ هذه المنطقة في الفترة التي نعالجها هو، في الأساس، سجلٌ لتقهقر السكر وصعود القطن.

وتقع منطقة الشرق الزراعي إلى الشرق من غرب أوروبا، وبالتحديد إلى الشرق من الخط الممتد بمحاذاة نهر إلبي، والحدود الجنوبية لما يعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا، ثم باتجاه الجنوب إلى ترييست في مسار يفصل شرق النمسا عن جنوبها. وكانت هذه المنطقة، من الوجهة الاجتماعية، تضم إيطاليا إلى الجنوب من توسكانيا وأمبريا، وجنوب إسبانيا، ولكنها لم تشمل اسكندنافيا (باستثناء الدانمارك وجنوب السويد). وقد اشتمل هذا الحزام العريض على شرائح ممن يمكن اعتبارهم، من الناحية الفنية، فلاحين أحراراً؛ ومنهم المزارعون المستوطنون الألمان المنتشرون في المنطقة الممتدة في سلوفينيا باتجاه الفولغا، والقبائل المستقلة تقريباً في الحدود الصخرية الكأداء داخل منطقة إليريا، وقبائل الفلاحين ـ المحاربين ممن لا يقلون عن سابقيهم همجيةً من الباندور والقوزاق الذين كانوا، حتى وقت قريب، يشكلون خطوط الفصل العسكرية بين المسيحيين والأتراك أو التتار، والصعاليك الرواد والأحرار الذين لم يكونوا في متناول الدولة أو اللوردات، أو أولئك الذين يعيشون في الغابات الشاسعة التي تعذرت فيها الزراعة على نطاق واسع. غير أن الفلاح العادي لم يكن حراً على العموم، بل كان ينوء تحت وطأة السخرة التي أخذ طوفانها بالتعاظم منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وقد بلغت أدنى مستوياتها في مناطق البلقان التي كانت، أو ظلت، تخضع للإدارة التركية المباشرة. وعلى الرغم من أن النظام الزراعي الأصلي للعهد التركي ما قبل الإقطاعي، المتمثل في تقسيم الأرض إلى وحدات تخص كل منها أحد المحاربين الأتراك بصورة غير إرثية، كان قد تداعى وتحول إلى إقطاعات زراعية يتوارثها الملاّكون المسلمون، فإن هؤلاء الورثة قلما

تعاطوا الزراعة، بل إنهم اكتفوا بالاستحواذ على ما ينتجه الفلاحون. ولهذا السبب، خرجت أقطار البلقان الواقعة جنوبيَّ الدانوب من نطاق السيطرة التركية لتصبح في القرنين التاسع عشر والعشرين دولاً زراعية أساساً، وإن تكن في غاية الفقر، لا بلداناً ذات ملكية زراعية مركزة. ومع ذلك، لم يكن الفلاح يتمتع بالحرية من الوجهة القانونية بوصفه مسيحياً، كما لم يكن فلاحاً حراً من الناحية الفعلية ما دام، على الأقل، في متناول ملاك الأرض.

وفي بقية أنحاء المنطقة، كان الفلاح النموذجي واحداً من الرقيق، يكرس الجانب الأكبر من الأسبوع للعمل الذي أرغم على أدائه في أرض سيده أو لِما يعادله من التزامات أخرى، وكان حرمانه من الحرية يبلغ حداً لا يميزه عن العبيد الذين يباعون أو يشترون بالجملة، كما كانت الحال في روسيا وأجزاء من بولندا حيث كان يمكن بيعه بمعزل عن الأرض. ويقول إعلان نشر في *Gazette de Moscou* سنة 1801: "للبيع، ثلاثة حوذيين مدربين جيداً ومن ذوي اللياقة، وكذلك صبيتان في الثامنة عشرة والخامسة عشرة من العمر، تتمتع كل منهما بالمظهر الحسن وبالخبرة في مختلف أنواع العمل اليدوي. ولدى البائع في منزله أيضاً اثنتان من مصففات الشعر، والأولى التي يبلغ عمرها إحدى وعشرين سنة، تستطيع القراءة والكتابة، وتتقن العزف على آلة موسيقية، وتؤدي مهمات الحوذيّ، وتصلح الفتاة الثانية لتصفيف شعر السيدات والسادة، وللعزف على البيانو والأرغن"، (وكان العديد من عمال السخرة يقومون بالخدمات المنزلية، ويمثلون خمسة في المئة من جميع عمال السخرة في روسيا عام 1851)[5].

---

(5) Henri Sée, *Esquisse d'une histoire du régime agraire en Europe aux XVIIIe et XIXe siècles* ([Paris: M. Giard, 1921]), p. 184, et Jerome Blum, *Lord and Peasant in Russia, from the Ninth to the Nineteenth Century* (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1961), pp. 455-460.

وفي داخل المناطق المجاورة لبحر البلطيق - وهو طريق التجارة الرئيسي مع أوروبا الغربية - كانت زراعة السخرة تنتج وتصدر للدول المستوردة في الغرب عدداً من المنتجات مثل: الذرة والكتان والقنب ومنتجات الغابات التي تستخدم أساساً في صناعة السفن. وكانت في أماكن أخرى تعتمد بدرجة أكبر على السوق الإقليمية التي كانت تضم، على الأقل، سوقاً واحدة قريبة ذات قدرة تصنيعية متقدمة ونمو حضري متطور مثل: سكسونيا وبوهيميا والعاصمة العظيمة فيينا. بيد أن كثيراً من هذه المناطق الزراعية كان متخلفاً. وفي تلك الآونة، بدأ افتتاح طريق البحر الأسود وتزايد مستوى التحضر في أوروبا الغربية، ولا سيما في إنجلترا، بإنعاش صادرات الذرة من أراضي الحزام الأسود في روسيا، التي ظلت، حتى بدء التصنيع في الاتحاد السوفياتي في وقت لاحق، عماد التجارة الخارجية الروسية. ويمكن على هذا الأساس اعتبار السخرة الشرقية "الاقتصاد التابع" المنتج للأغذية والمواد الخام لمصلحة أوروبا الغربية، مثلها مثل مستعمرات ما وراء البحار.

كانت لمناطق السخرة في إيطاليا وإسبانيا خصائص اقتصادية مشابهة على الرغم من أن الجوانب القانونية لمكانة الفلاحين كانت مختلفة. كانت هذه المناطق، بصورة عامة، تضم إقطاعات واسعة يملكها الوجهاء. وليس من المستبعد أن يكون بعض هؤلاء قد تحدروا من النبلاء الرومان القدامى الذين تحول عبيدهم وخدمهم إلى عمال مياومة معدمين في تلك المناطق. وكان مُلّاك الأرض من الدوقات والبارونات يحصلون على مداخيلهم من حظائر الماشية، ومن إنتاج الذرة (وكانت صقلية هي أهراء التصدير منذ زمن بعيد)، ومن كل ما يستطيعون ابتزازه من الفلاحين البائسين.

كان مالك إقطاعات السخرة، إذن، وجيهاً يملك هذه الأطيان الواسعة أو يفلحها أو يستغلها. أما عن ضخامة أطيان السخرة هذه، فحدِّث ولا حرج. فقد منحت كاترين الكبرى لخلصائها المقربين ما

يتراوح بين أربعين وخمسين ألفاً من عمال السخرة، وكانت عائلة رادزيفيل من بولندا تمتلك من الضِّياع ما يعادل نصف مساحة إيرلندا، وكان بوتوكي يملك ثلاثة ملايين فدّان في أُوكرانيا، وكانت أسرة إسترهازي البلغارية (التي كانت راعية للموسيقار هايدن (Haydn)) تمتلك ذات يوم ما يقارب سبعة ملايين فدّان. وكانت العِزَب التي تبلغ مساحتها مئات الآلاف من الفدادين أمراً شائعاً آنذاك[6].

ومع أن هذه الإقطاعات كانت مهملة بدائية غير فاعلة، فقد كانت تُدر دخلاً محترماً لمالكيها. ويلاحظ زائر فرنسي لهذه الأطيان البائسة في ميدينا سيدونيا أن الغراندوق يحكم "كأسد الغابة الذي يرعب بزئيره كل من يحاول الاقتراب منه"[7]. بيد أن هذا الإقطاعي لم يكن يعوزه التدفق النقدي، حتى بمقاييس الميلوردات [النبلاء] البريطانيين.

في ظل عِلْيَة القوم هؤلاء، كانت طبقة من وجهاء الريف المتفاوتة في أحجامها ومواردها الاقتصادية تستغل الفلاحين، وكانت في بعض البلدان واسعة بصورة لا تناسب فيها، وكانت، بالتالي، فقيرة ساخطة، لا يميزها عن طبيعة النبلاء بشكل أساسي غير ما تتمتع به من امتيازات سياسية واجتماعية، وغير عزوفها عن ممارسة أية أنشطة لا تتفق ومكانتها، مثل العمل. وقد ارتفعت نسبة هذه الطبقة في هنغاريا وبولندا إلى عُشْر السكان، وإلى نحو نصف المليون في إسبانيا في نهاية القرن

---

(6) صودر في تشيكوسلوفاكيا عام 1918 أكثر من ثمانين ضيعة تزيد مساحة كل منها على 25 ألف فدان، بينها إقطاعات تبلغ مساحة كل منها خمسمئة ألف فدان من عائلتي شوبنورن (Schoenborns) وشفارزنبرغ (Schwarzenbergs)، وأربعمئة ألف فدان من أسرة ليختنشتين (Liechtensteins)، ومئة وسبعين ألف فدان من عائلة كينسكي (Kinskys)، انظر: Theodor Häbich, *Deutsche Latifundien: Bericht und Mahnung*, 3. Aufl. (Stuttgart: W. Kohlhammer, 1947), pp. 27 ff.

(7) Albert Goodwin, ed., *The European Nobility in the Eighteenth Century: Studies of the Nobilities of the Major European States in the Pre-Reform Era* (London: A. and C. Black, 1953), p. 52.

الثامن عشر، أو، عام 1827، إلى نحو عشرة في المئة من مجموع طبقة النبلاء في أوروبا[8]، وكانت أقل من ذلك بكثير في مناطق أخرى.

IV

لم تكن البنية الزراعية مختلفة من الناحية الاجتماعية في مناطق أوروبا الأخرى، وذلك يعني بالنسبة للعامل أو الفلاح أن كل من يمتلك عزبة لا بد من أن يكون وجيهاً أو نبيلاً وعضواً في الطبقة الحاكمة. ولم يكن معقولاً أن يتمتع من لا يمتلك إقطاعةً كهذه بتلك المنزلة (التي تمنح المرء امتيازات اجتماعية وسياسية وتعتبر، اسميّاً، السبيل الوحيد للوصول إلى المناصب الرفيعة في الدولة). وفي أكثر الأقطار في أوروبا الغربية، كان النظام الإقطاعي الذي ينطوي عليه هذا الأسلوب من التفكير ما يزال حيّاً من الوجهة السياسية، على الرغم من أنه أصبح بصورة متزايدة بالياً من الناحية الاقتصادية. والواقع أن التخلف الاقتصادي للإقطاع الذي جعل دخل النبلاء والوجهاء يتدنى بصورة كبيرة قياساً على ارتفاع الأسعار والنفقات، قد دفع الأرستقراطية إلى الاستغلال المتعاظم للأصول الاقتصادية الثابتة الوحيدة التي بقيت لها؛ وهي الامتيازات القائمة على اعتبارات المولد والمكانة. من هنا، عكف النبلاء في جميع أنحاء القارة الأوروبية على إقصاء منافسيهم من ذوي المحتد المتواضع من المناصب المدرّة للربح في ظلال التاج؛ ففي السويد انخفضت نسبة المناصب التي يتولاها العامة من 66 في المئة عام 1719 (و42 في المئة عام 1700) إلى 23 في المئة عام 1780[9]. وفي

(8) Lewis Bernstein Namier, *1848: The Revolution of the Intellectuals* (London: G. Cumberlege, [1944]), and Jaime Vicens Vives, *Historia social y económica de España y América*, 4 vols. (Barcelona: Editorial Teide, [1957-1959]).

(9) Sten Carl Oscar Carlsson, *Ståndssamhälle Och Ståndspersoner, 1700-1865: Studier Rörande det Svenska Ståndssamhallets Upplosning* (Lund: C. W. K. Gleerup, [1949]).

فرنسا، أفضى "رد الفعل الإقطاعي" هذا إلى التعجيل بالثورة الفرنسية[10]. غير أن الصلة بين مِلْكية الإقطاعات ومكانة الطبقة الحاكمة ظلت وثيقة، بل إنها ازدادت وثوقاً فيما بعد، حتى وإن كانت تمتاز بالهشاشة كما كانت في فرنسا، حيث كان الانضمام إلى فئة النبلاء ملاّك الأرض سهلاً نسبياً، وبصورة أكبر في بريطانيا، حيث كانت المكانة المرتبطة بنبل المحتد وملكية الأرض تقوم على الثروة مهما كان نوعها، شريطة أن تكون طائلة بما فيه الكفاية.

غير أن المجتمع الريفي الغربي كان مختلفاً من الناحية الاقتصادية. فالفلاح النموذجي خسر جانباً كبيراً من وضعه باعتباره عاملاً مسخراً في أواخر العصور الوسطى، مع أنه حافظ في أغلب الأحيان على قدر كبير من وصمة التبعية القانونية. وكانت العزبة الإقطاعية كذلك قد فقدت طابعها ككيان لمشروع اقتصادي، وأصبحت مجرد نسق لجمع الإيجارات والمداخيل المالية الأخرى. وكان الفلاح الحر، الصغير أو المتوسط أو الكبير، هو الذي يحرث الأرض في العادة، وإذا كان مستأجراً بصورة أو بأخرى، فإنه يسدد الإيجار (أو، في مناطق قليلة، حصة من المحصول) إلى مالك الأرض. وإذا كان يتمتع بالتملك المطلق للأرض، فإنه قد يكون مقيداً بالتزامات منوعة تجاه المالك قد لا تكون مالية أو نقدية بالضرورة (مثل إرسال الذرة إلى مطحنة المالك)، ودفع الضريبة للأمير، والأعشار للكنيسة، وبعض الرسوم عن العمل الإرغامي، وتتقابل هذه كلها مع الإعفاء النسبي الذي تتمتع به الطبقات الاجتماعية الأعلى. ولكن إذا انتزعت هذه القيود السياسية، فإن جانباً من أوروبا سيبرز باعتباره منطقة للزراعة الفلاحية؛ وهي التي تتحول فيها أقلية من الفلاحين الأثرياء إلى مزارعين تجاريين يبيعون فائض المحصول إلى السوق الحضرية دائماً، وتعيش أكثرية من الفلاحين الصغار أو المتوسطين في ما يشبه الاكتفاء الذاتي من خلال الأرض التي

(10) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

استأجروها، إلا إذا كانوا من قلة الحيلة بحيث يضطرون إلى العمل بدوام جزئي للحصول على أجر في المزارع أو مراكز التصنيع.

إن عدداً قليلاً من المناطق فحسب استطاع دفع التنمية الزراعية إلى مرحلة متقدمة باتجاه الرأسمالية الزراعية، وقد احتلت إنجلترا مكان الصدارة في هذا المجال؛ فقد كانت ملكية الأرض فيها مركزة إلى أقصى الحدود، غير أن الفلاح كان، في العادة، مزارعاً ـ مستأجراً تجارياً متوسطاً يعمل معه عمال مأجورون. غير أن ما حجب ذلك هو تنامي فئة صغار المالكين والكوّاخين الذين يعملون ويقيمون في المزارع. غير أن حرمان هؤلاء من تلك الامتيازات (خلال الفترة الممتدة من العام 1760 إلى العام 1830 تقريباً) لم يؤدِّ إلى ظهور الزراعة الفلاحية، بل إلى نمو طبقة من المبادرين الزراعيين، والمزارعين، وبروليتاريا زراعية عريضة. وبرزت كذلك نزعات رأسمالية قوية في مناطق قليلة كانت الاستثمارات التجارية فيها تصب، تقليدياً، في الزراعة، مثلما كانت الحال في أجزاء من شمال إيطاليا وهولندا، أو في البقاع التي كانت تنتج المحاصيل التجارية التخصصية. غير أن ذلك كان يمثل استثناء على القاعدة. وكان ثمة استثناء آخر في إيرلندا، الجزيرة التعيسة التي جمعت بين مساوئ المناطق المتخلفة في أوروبا والقرب الجغرافي من الاقتصاد الأكثر تقدماً؛ ففيها عكفت حفنة من الوجهاء الغائبين، الذين يشبهون نظراءهم الأندلسيين والصقليين، على استغلال جماهير عريضة من مستأجري الأرض عن طريق ابتزازهم إيجارات باهظة.

من الناحية الفنية، كانت الزراعة الأوروبية، باستثناء زراعة بعض المناطق المتقدمة، تقليدية وعلى مستوى متدنٍّ من الكفاءة إلى درجة مذهلة، وكانت منتجاتها غالباً من النوع التقليدي: الشاودار والقمح والشعير والشوفان؛ وفي أوروبا الشرقية الحنطة السوداء، التي كانت الغذاء الأساسي للناس، والأبقار، والغنم والماعز مع منتجاتها من الألبان والخنازير والطيور وكميات من الفاكهة والخضار، والنبيذ؛ وعدد

من المواد الخام الصناعية مثل الصوف والكتان والقنب لصنع الحبال للسفن، والشعير لصنع الجعة، وما إلى ذلك. وكان الغذاء في أوروبا إقليمياً. أما المنتجات التي تنشأ في مناخات أخرى، فكانت من الندرة بحيث تدخل في باب الكماليات، باستثناء السكر الذي ربما كان أهم المواد الغذائية المستوردة من المناطق الاستوائية وقد تسببت حلاوته في توليد أشنع أنواع المرارة في التاريخ الإنساني. ففي إنجلترا (وهي البلد الأكثر تقدماً)، كان معدل الاستهلاك السنوي للفرد 14 باونداً في التسعينات من القرن الثامن عشر. ولكن معدل الاستهلاك للفرد الواحد من الشاي عام الثورة الفرنسية، حتى في إنجلترا، كان لا يتجاوز أونصتيْن في الشهر.

كانت المحاصيل الجديدة المستوردة من الأمريكتين والمدارات الاستوائية قد بدأت تشق طريقها في أوروبا. ففي أوروبا الجنوبية والبلقان، كانت الذرة (الهندية) قد أخذت بالانتشار، وأسهمت في إلزام المزارعين المتنقلين الثبات والاستقرار في قطع الأراضي التي تخصهم في البلقان، وحقق الأرز بعض التقدم في شمال إيطاليا، وزرع التبغ في عدة مقاطعات، وكان ذلك في أغلب الأحيان احتكاراً حكومياً بقصد تحصيل الريع، مع أن استهلاكه لا يكاد يذكر بالمقاييس الحديثة؛ فقد كان الإنجليزي العادي عام 1790 يدخن ويتنشق سعوطاً أو يمضغ ما يعادل أونصة وثلث الأونصة من التبغ في الشهر. وكانت تربية دودة القز لصنع الحرير شائعة في أجزاء من جنوب أوروبا. كما أن أبرز المحاصيل الجديدة، وهو البطاطا، قد بدأ يتلمس أولى خطواته في القارة الأوروبية، ما عدا إيرلندا التي كانت فيها البطاطا المزروعة في فدان واحد هي الأقدر على إشباع العدد الأكبر من الناس على مستوى الكفاف؛ مما جعلها الغذاء الرئيسي. وخارج إنجلترا والأراضي المنخفضة، كانت زراعة محاصيل الجذور والأعلاف (ما عدا التبن) قد بلغت مستويات مشهودة، وكانت الحروب النابليونية وحدها هي التي أدت إلى إنتاج الشمندر لصنع السكر.

إن القرن الثامن عشر لم يكن، بالطبع، يتميز بالكساد الزراعي؛ فعلى العكس من ذلك، فإن فترة طويلة من التوسع الديمغرافي، والزحف الحضري المتزايد، والتجارة والتصنيع قد بدأت تشجع على التطور الزراعي، بل تطلبته. وشهد النصف الثاني من ذلك القرن بداية الارتفاع المدهش المطرد لعدد السكان (وهو من الخصائص المميزة للعالم الحديث)؛ ففي الفترة الممتدة بين العام 1755 والعام 1784 على سبيل المثال، ازداد سكان منطقة برابان الريفية (في بلجيكا) بمعدل 44 في المئة[11]. غير أن ما أدهش دعاة التطوير الزراعي العديدين، الذين ضاعفوا من عدد جمعياتهم، وتقاريرهم الحكومية، ومنشوراتهم الدعائية من إسبانيا إلى روسيا، لم يكن تقدم الزراعة، بل حجم العراقيل التي تعترض طريق هذا التقدم.

V

كان عالم الزراعة يتسم بالبلادة، ربما باستثناء القطاع الرأسمالي فيه. وكانت قطاعات التجارة، والتصنيع، والتقانة، والأنشطة الثقافية تتميز بالثقة، والسرعة، والقدرة على التوسع، مثلما كانت الطبقات المنتفعة من هذه القطاعات نشطة متفائلة قوية العزيمة. ولا يسع المراقب المعاصر إلا أن يدهش إزاء التوسع الكبير في الحركة التجارية التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالاستغلال الاستعماري. فقد امتدت حول الأرض شبكة من الطرق التجارية البحرية، وتعاظم حجمها واتسعت قدراتها بسرعة، وراحت تنقل الأرباح إلى الجماعات التجارية في أوروبا شمالي الأطلسي، واستخدم هؤلاء التجار السطوة الكولونيالية للسطو على أهل جزر الهند الشرقية[12] ونهب ما لديهم من السلع وتصديرها إلى

---

(11) Pierre Lebrun [et. al.], "La Rivoluzione industriale in Belgio," *Studi Storici*, vol. II, nos. 3-4 (1961), pp. 564-565.

(12) وكذلك كان الحال، إلى حد ما، في الشرق الأقصى الذي كانوا يشترون منه =

أوروبا وأفريقيا حيث تستعمل هي والبضائع الأوروبية الأخرى لابتياع العبيد للعمل في شبكات المزارع الآخذة في التوسع السريع في الأمريكتين. وكانت المزارع الأمريكية تقوم بدورها بتصدير السكر والقطن وما إلى ذلك بكميات أضخم وأرخص إلى موانئ الأطلسي وبحر الشمال حيث يصار إلى إعادة توزيعها باتجاه الشرق، ومراكز التصنيع التقليدية، علاوة على السلع التي يجري التعامل بها تجارياً بين الشرق والغرب في أوروبا مثل: المنسوجات والملح والنبيذ وغيرها. وكانت الحبوب، والأخشاب، والكتان تأتي من "البلطيق". أما أوروبا الشرقية، فكانت ترسل الحبوب، والأخشاب، والكتان (الذي كان من الصادرات المربحة إلى المناطق الاستوائية)، والقنب والحديد الوارد من حزام المستعمرات الثاني هذا. وأصبحت شبكة التجارة أكثر كثافة بين اقتصادات أوروبا النامية نسبياً، التي شملت، بالمعنى الاقتصادي، جماعات المستوطنين البيض المتزايدة النشاط في المستعمرات البريطانية الشمالية في أمريكا (في شمال الولايات المتحدة الأمريكية بعد العام 1783).

وكان الزارع، أي "النبوب"، يعود من المستعمرات حاملاً ثروة لم تكن تخطر على بال أصحاب البطون النهمة في أقاليم أوروبا، من تجار وشاحنين في موانئ بوردو وبريستول وليفربول الفاخرة التي كانت قد بنيت أو أعيد بناؤها خلال ذلك القرن بحيث أصبحت هي الفائز الاقتصادي الحقيقي في ذلك العصر. وكان بين فئات الرابحين كذلك كبار المسؤولين والممولين الذين استمدوا ثرواتهم من خدمات الدولة المربحة؛ ذلك أن هذه المرحلة تمثل العصر الذي كان فيه مصطلح "دائرة الربح في ظلال العرش" يطبق بمعناه الحرفي. تضاف إلى هؤلاء طبقة وسطى من المحامين، ومديري العقارات، وأصحاب مصانع الجعة

= الشاي، والحرير، والخزف الصيني وغيره مما كان مطلوباً على نحو متزايد في الأسواق الأوروبية. غير أن استقلال الصين واليابان السياسي قلل من طابع القرصنة في تلك التجارة.

والخمور المحليين، والتجار وغيرهم ممن جمعوا ثروة متواضعة في عالم الزراعة، وعاشوا حياة بسيطة هادئة. وكان بين هؤلاء كذلك أصحاب المصانع الذين كانوا يحتلون مرتبة الأقارب الفقراء. فعلى الرغم من أن مراكز التعدين والتصنيع كانت تتسع بسرعة في جميع أرجاء أوروبا، فإن التاجر، والإقطاعي مالك الأرض في أوروبا الشرقية، ظلا يسيطران على الوضع في المقام الأول.

ويعود ذلك إلى أن الشكل الرئيسي لتعزيز الإنتاج الصناعي كان يتمثل في ما يسمى النسق المحلي أو المنتج الذي كان التاجر يبتاع بموجبه منتجات الحرفيين والفلاحين العاملين في الزراعة بدوام جزئي، ثم يبيعها بدوره في الأسواق الأوسع. وكان لا بد لتنامي هذه التجارة من أن يؤدي حتماً إلى خلق شروط بدائية لتطور بدايات الرأسمالية الصناعية. فربما يتحول الحرفي الذي يبيع منتجاته إلى ما يشبه العامل الذي يتقاضى أجوره بحساب القطعة (خاصةً عندما يزوده التاجر بالمواد الخام، وربما يؤجره معدات الإنتاج).

وقد يصبح الفلاح الذي كان يقوم بالنسج هو النسّاج الذي يتمتع بملكية قطعة من الأرض. وربما يؤدي التخصص في العمليات والأنشطة إلى تقسيم الحرفة القديمة أو خلق تجمع من العمال شبه المهرة في أوساط الفلاحين. وقد يتحول الحرفي ـ المعلم القديم أو مجموعة خاصة من الحرفيين أو الوسطاء المحليين إلى نوع من مقاولي الباطن أو أرباب العمل. إلا أن التاجر يظل هو المسيطر الرئيسي على أشكال الإنتاج غير المركزية هذه، وهو الذي يقوم بالربط بين عمال القرى الضائعة أو الشوارع الخلفية والأسواق العالمية. وكان "الصناعيون" الذين خرجوا أو أوشكوا على الخروج من صفوف المنتجين أنفسهم يعملون إلى جانبه بوصفهم مشغلين صغاراً، حتى وإن لم يعتمدوا عليه اعتماداً مباشراً. وكان ثمة استثناءات قليلة، ولا سيما في إنجلترا الصناعية. وكان أصحاب مصانع الحديد، وكبار الخزافين، من أمثال

جوسيا ويدجوود، رجالاً محترمين معتدين بأنفسهم، ويتردد على منشآتهم الفضوليون من جميع أنحاء أوروبا. غير أن الصناعي العادي (ولم يكن هذا المصطلح قد اخترع بعد) ظل حتى ذلك الحين مشرفاً صغيراً لا واحداً من أساطين الصناعة.

ومهما يكن من أمر، فإن أنشطة التجارة والصناعة، على اختلاف مراتبها، شهدت ازدهاراً مشهوداً. وكانت بريطانيا، وهي التي حققت النجاح الأكبر بين الدول الأوروبية في القرن الثامن عشر، تدين بنفوذها لتقدمها الاقتصادي. وبحلول الثمانينات من ذلك القرن، كانت جميع الحكومات المتعقِّلة تعمل في سياساتها الأوروبية على تشجيع النمو الاقتصادي، ولا سيما التنمية الصناعية، وإن بدرجات متفاوتة من النجاح. كما أن العلوم، التي لم تكن النزعة الأكاديمية المتطرفة قد قسمتها في القرن التاسع عشر إلى فروع "صافية" راقية، وأخرى عملية "متدنية"، أخذت تكرس نفسها لحل مشكلات الإنتاج. وفي ثمانينات القرن كان التقدم الباهر قد تحقق في مجال الكيمياء التي كانت، تقليدياً، الأوثق ارتباطاً بممارسات الصناعة ومشاغلها ومتطلباتها. ولم تكن **الإنسيكلوبيديا (الموسوعة)** الكبرى التي وضعها ديدرو (Diderot) ودالامبير (D'Alembert) مجرد خلاصة وافية للفكر الاجتماعي والسياسي التقدمي، بل كانت سجلاً للتقدم التقني والعلمي. ذلك أن الإيمان الذي تشرّبه وتشبع به القرن الثامن عشر بتقدم المعرفة الإنسانية، وبالمنهج العقلاني، وبالثورة، والمدنية، والسيطرة على الطبيعة؛ أي "حركة التنوير"، إنما كان يستمد قوته أساساً من التقدم الواضح في مجالات الإنتاج، والتجارة، والعقلانية الاقتصادية والعلمية التي كان من المعتقد أنها ترتبط بكليهما على نحو حتمي. وكان فرسان الساحة البارزون في هذا المجال هم أبناء الطبقات الأكثر التصاقاً بأشواط التقدم الجليةِ في ذلك العصر: جماعات التجار ومالكي الأراضي المستنيرين اقتصادياً، والمحولين، والمديرين الاقتصاديين والاجتماعيين، والطبقة الوسطى المتعلمة، وأصحاب المصانع والمبادرين الاقتصاديين. كان هؤلاء

الرجال معجبين كل الإعجاب بشخص مثل بنجامين فرانكلن (Benjamin Franklin)، صاحب المطبعة، الصحافي، المخترع، المبادر بالمشروعات التجارية، رجل الدولة، ورجل الأعمال الحاذق؛ لأنه رمز لمواطن المستقبل النشط العصامي المتبصر. وفي إنجلترا، قام هؤلاء الرجال، الذين لم يكونوا بحاجة إلى الاقتداء بشخصيات ثورية عبر الأطلسي، بتشكيل جمعيات إقليمية انطلقت منها خطوات التقدم العلمي والصناعي والسياسي. فقد ضمت "الجمعية القَمَرية" (Lunar Society) في بيرمينغهام الخزافَ جوسيا ويدجوود (Josiah Wedgwood)، ومخترعَ المحرك البخاري الحديث جيمس وات (James Watt)، وشريكَه في العمل ماثيو بولتون (Matthew Boulton)، والعالم الكيميائي بريستلي (Priestley)، والعالم البيولوجي الوجيه رائد نظريات التطور إيرازموس داروين (Erasmus Darwin) (جد تشارلز داروين الأشهر)، وصاحب المطبعة الشهير باسكرفيل. وتدافع هؤلاء من كل مكان إلى منتديات الماسونيين الأحرار التي انتفت فيها اعتبارات التمييز الطبقي وانتشرت الدعوة الحماسية النزيهة لأيديولوجية "التنوير".

ومن المهم أن نلاحظ أن المنبريْن الرئيسيين لهذه الأيديولوجيا كانا مركزي انطلاق الثورة المزدوجة؛ أي فرنسا وبريطانيا، مع أن أفكارها في واقع الأمر أصبحت قيد التداول في العالم في صيغتها الفرنسية (حتى ولو كانت مجرد نسخة فرنسية لأفكار بريطانية). وسيطرت على الفكر "المتنوِّر" نزعة فردية عَلْمانية عقلانية تقدمية، تهدف إلى تحطيم الأغلال التي كبلت الحرية الفردية، وإلى التحرر من تقاليد الجهل التي سادت القرون الوسطى وظلت تلقي ظلالها على العالم، ومن شعوذة الكنائس (التي تناقض الدين "الطبيعي" أو "العقلاني")، ومن السفاهة التي قسمت الناس ووزعتهم في تراتبية تكون منزلتهم فيها عليا أو دنيا حسب اعتبارات المولد أو معايير أخرى لا وزن لها. وكانت شعاراتها تتمثل في الحرية والمساواة، وبالتالي الإخاء بين الناس كافة. وأصبحت هذه الشعارات مع الوقت هي التي ترفعها الثورة الفرنسية. وترتبت على

سيادة النزوع إلى الحرية الفردية نتائج عظيمة الفائدة. ويمكننا أن نتتبع أبرز هذه النتائج، بل أن نلاحظها، في تفتح المواهب الفردية بصورة حرة طليقة في عالم التفكير. لقد كان الإيمان الغامر بالتقدم لدى المفكر "المستنير" النموذجي تعبيراً عن التزايد المنظور في المعرفة والأساليب، وفي الثروة والرفاه والحضارة التي كان يشاهد تجلياتها في كل ما حوله، التي كان بوسعه أن يعزوها بحق إلى ما كان يؤمن به ويطرحه من أفكار. لقد كانت الساحرات يُحرقن حرقاً على نطاق واسع في مطلع ذلك القرن، وكانت الحكومات المستنيرة، مثل الحكومة النمساوية في نهايته، قد حظرت التعذيب في أثناء التحقيق القضائي، بل وألغت الرق. ويمكننا أن نتصور الوضع عندما تزال العراقيل الباقية التي كانت تعترض سبيل التقدم مثل المصالح الذاتية للإقطاع والكنيسة.

ولا يصح لنا، إذا ما توخينا الدقة، أن نطلق على فلسفة "التنوير" اسم أيديولوجية الطبقة الوسطى، على الرغم من وجود الكثير من المتنورين - وكان لهم الرأي الحاسم من الوجهة السياسية - ممن افترضوا على نحو تلقائي أن المجتمع الحر ينبغي أن يكون مجتمعاً رأسمالياً[13]. وكانت، نظرياً، ترمي إلى تحرير جميع البشر. وانطلقت منها، بل ولدت في أحضانها، جميع الأيديولوجيات التقدمية والعقلانية والإنسانية. بيد أن زعماء حركة الانعتاق الذي دعت إليه فلسفة التنوير كانوا في واقع الممارسة الفعلي من الشرائح الوسطى في المجتمع؛ أي الأشخاص الجدد العقلانيين من أصحاب المقدرة والجدارة، لا ممن يتفاخرون بالنسب

---

(13) يقول تورغو (Turgot): "من يعرفون مسيرة التجارة يعلمون أيضاً أن أي مشروع مهم، في مجال حركة البضائع أو الصناعة، يقتضي التساند بين نوعين من الرجال، أصحاب المشروعات ... والعمال الذين يعملون لصالحهم وفق أجر متفق عليه. ذلك هو الأصل الحقيقي للتمييز بين أصحاب المشروعات أرباب العمل من جهة، والعمال وزملائهم من جهة أخرى. وهو تمييز قائم على طبيعة الأشياء"، انظر: Anne-Robert-Jacques Turgot, *Oeuvres de Turgot*, vol. 5, p. 244.

والمولد. وكان لا بد للنظام الاجتماعي الناجم عن أنشطتهم من أن يكون نظاماً "برجوازياً" ورأسمالياً.

والأقرب إلى الدقة والصواب أن ندعو حركة "التنوير" أيديولوجيةً ثورية، على الرغم من الحذر والاعتدال السياسي الذي توخاه أبطالها في القارة الأوروبية، ممن كانوا، حتى الثمانينات من القرن الثامن عشر، يؤمنون بالمَلَكية المطلقة المستنيرة. فالاستنارة كانت تنطوي على إلغاء النظام الاجتماعي السياسي السائد في أكثر أرجاء أوروبا. ولم يكن متوقعاً من "الأنظمة القديمة" أن تلغي نفسها بنفسها طوعاً. فقد كانت، كما رأينا، على العكس من ذلك، تعزز نفسها في أكثر من مجال للتصدي لمسيرة القوى الاجتماعية والاقتصادية المتقدمة. وتمثلت القلاع الحصينة لهذه الأنظمة (خارج بريطانيا، والأقاليم المتحدة وبقاع قليلة أخرى عانت فيها الهزيمة) في المَلَكيات التي كان المتنورون المعتدلون يعلقون آمالهم عليها.

VI

باستثناء بريطانيا، التي كانت قد قامت بثورتها في القرن السابع عشر، وبلدان أخرى أقل وزناً، كانت الملكيات المطلقة تحكم قبضتها على جميع الدول الفاعلة في القارة الأوروبية. أما البلدان التي لم تحكمها هذه الملكيات، مثل بولندا، فقد شاعت فيها الفوضى، وأصبحت لقمة سائغة لجيرانها. وتربعت العروش الموروثة التي اعتبرت نفسها ظل الله على الأرض على تراتبيات هرمية من النبلاء ملاك الأرض، يعززها في ذلك التنظيم التقليدي، والعصمة التي تدعيها الكنائس، وتحيط بها شبكة متعاظمة من المؤسسات التي درجت منذ زمن طويل على تمجيد أنظمة الحكم الملكية تلك. والواقع أن الحاجة إلى الحفاظ على تماسك الدولة وكفاءتها في غمرة المزاحمات العالمية الحادة قد دفعت الملوك إلى لجم النزعات الفوضوية التي برزت في أوساط النبلاء وأصحاب المصالح الذاتية الآخرين، وإلى استخدام موظفين مدنيين غير

أرستقراطيين قدر المستطاع في أجهزة الدولة. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الحاجة، والنجاح العالمي الواضح الذي حققته قوة الرأسمالية البريطانية في أواخر القرن الثامن عشر، قد دفعا أكثر هؤلاء الملوك (أو بالأحرى مستشاريهم) إلى محاولة وضع برامج لتحديث الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية. ففي تلك الأيام، تبنى الأمراء شعار "التنوير" كما تفعل الحكومات في أيامنا، ولأسباب مماثلة، عندما ترفع شعار "التخطيط". وكما هي الحال في أيامنا كذلك، فإن من رفعوا هذه الشعارات نظرياً لم يفعلوا إلا القليل لتطبيقها بالممارسة. ولم يكن أكثر من طبقوها في الواقع العملي يأبهون للمثل العليا العامة التي تسعى إلى تحقيقها للمجتمع محاولات "التنوير" (أو "التخطيط") هذه، بل كان همهم ينحصر في الفائدة العملية لانتهاج أحدث الأساليب من أجل مضاعفة ما يحصلون عليه من ريع وثروة وسلطة.

وعلى العكس من ذلك، كانت الطبقات الوسطى والمتعلمة والملتزمون المؤمنون بالتقدم يتطلعون إلى الجهاز الإداري المركزي القوي للملكية لتحقيق آمالهم. لقد كان الأمير بحاجة إلى طبقة وسطى وإلى أفكارها لتحديث دولته، وكانت الطبقة الوسطى الضعيفة تحتاج إلى أمير يفُتّ في عضد المقاومة التي تبديها المصالح الأرستقراطية والكهنوتية الراسخة في وجه التقدم.

غير أن الملكية المطلقة، على الرغم مما قد تتسم به من حداثة وابتكار، لم تكن في واقع الأمر راغبة في فك ارتباطها بتراتبية الملاكين النبلاء؛ فهي الطبقة التي كانت، آخر الأمر، تنتسب إليها، وتتبنى قيمها وتعلي من شأنها، وتعتمد على مساندتها إلى أقصى الحدود. إلا أن الملكية المطلقة التي كانت، نظرياً، حرة في أن تفعل ما تشاء، ظلت تنتمي، من حيث الممارسة، إلى العالم الذي وصمه التنويريون بالإقطاع، وذلك هو المصطلح الذي أشاعته وروجت له الثورة الفرنسية فيما بعد. وكانت الملكية مستعدة لاستخدام كل الموارد الممكنة من أجل تعزيز

سلطتها وتعظيم ريعها من الضرائب في الداخل، وتعزيز قوتها خارج حدودها، حتى ولو أدّى ذلك إلى دعم الفئات التي تمثل القوى الفاعلة الصاعدة في المجتمع، وكانت مستعدة لتقوية نفوذها السياسي عن طريق ضرب الفئات والطبقات الاجتماعية والأقاليم بعضها ببعض. إلا أن آفاقها كانت محددة بتاريخها، وبوظيفتها، وبطبقتها؛ فهي لم تطلب ـ ولم يكن بمقدورها أن تحقق ـ التحول الاقتصادي الشامل المتكامل الذي استلزمه تقدم الاقتصاد ودعت إليه الشرائح الاجتماعية الصاعدة.

ولنأخذ مثالاً واضحاً على ذلك، هو أن قلة قليلة من المفكرين العقلانيين، بمن فيهم مستشارو الأمراء، كانت تشكك جدياً بالحاجة إلى إلغاء الرق والقيود الباقية التي كانت تفرض التبعية الإقطاعية على الفلاحين. لقد أقر هؤلاء بأن الإصلاح هو في طليعة الأهداف التي يسعى إلى بلوغها أي برنامج مستنير. ولم يتوانَ أي أمير في الأقاليم الممتدة من مدريد إلى سان بطرسبرغ، ومن نابولي إلى ستوكهولم، عن تبني هذه البرامج. غير أن حركات تحرير الفلاحين، التي كانت تبدأ من السلطة العليا بين وقت وآخر خلال ربع القرن الذي سبق الثورة الفرنسية، حدثت في واقع الأمر في دول صغيرة متميزة مثل الدانمارك وسافوي، وفي الإقطاعات الشخصية لبعض الأمراء الآخرين. وحاول جوزيف الثاني (Joseph II) ملك النمسا دعم واحدة من حركات التحرير الكبيرة هذه عام 1781، غير أنها فشلت أمام المقاومة السياسية التي أبدتها المصالح الذاتية الخاصة وتمرد الفلاحين إلى حد لم يكن متوقعاً من قبل، فظلت هذه الحركة منقوصة.

غير أن ما ألغى العلاقات الزراعية الإقطاعية بالفعل في جميع أنحاء أوروبا الغربية والوسطى كان الثورة الفرنسية، عن طريق الفعل المباشر أو رد الفعل أو الاقتداء، ثم ثورة العام 1848.

كان ثمة نزاع كامن، سرعان ما يتحول إلى صراع علني بين القوى القديمة والقوى الجديدة في المجتمع " البورجوازي" الجديد. ولم يكن

ممكناً تخفيف حدة التوتر في إطار الأنظمة السياسية القائمة إلا إذا انتصرت بالطبع دول أصبحت برجوازية بالفعل مثل بريطانيا. وقد تزايد استهداف هذه الأنظمة بفعل الضغوط التي كانت تتعرض لها من ثلاثة اتجاهات: من القوى الجديدة، ومن المقاومة الراسخة المتزايدة التصلب التي أبدتها جماعات المصالح القديمة، ومن المنافسين الأجانب.

وتمثلت أبرز نقاط الضعف بالنقطة التي تلتقي فيها المقاومة الوافدة والقديمة؛ أي في الحركات الاستقلالية في الأقاليم والمستعمرات النائية أو التي لم تكن السيطرة عليها حازمة صارمة. وهكذا فإن الإصلاحات التي أقدم عليها جوزيف الثاني خلال حكم أسرة هابسبرغ في الثمانينات من القرن الثامن عشر ولّدت في هولندا النمساوية (بلجيكا الآن) فوراناً وحركة ثورية انضمت، عام 1789، بصورة تلقائية إلى الثورة الفرنسية. وكانت الظاهرة الأكثر شيوعاً من ذلك انتشار السخط في أوساط جماعات المستوطنين البيض في مستعمرات الدول الأوروبية وراء البحار، وازدياد التذمر من سياسات حكوماتهم المركزية التي تشددت في إخضاع المستعمرات لمصلحة العواصم. وفي جميع أرجاء الأمريكتين، سواء منها الإسبانية أو الفرنسية أو البريطانية، وكذلك في إيرلندا، كانت حركات المستوطنين تطالب بالاستقلال لأنظمة لا تمثل بالضرورة قوى أكثر تقدمية من العواصم المركزية من الوجهة الاقتصادية. وقد نجح العديد من المستعمرات البريطانية في تحقيق الاستقلال، إما بصورة سلمية بعض الوقت مثل إيرلندا، أو عن طريق الثورة كما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية. وأدى التوسع الاقتصادي، والنمو الاستعماري، والتوترات التي رافقت إصلاح "الحكم المستنير المطلق" إلى مضاعفة المناسبات التي تنشأ فيها هذه النزاعات في السبعينات والثمانينات من القرن الثامن عشر.

ولم يكن انشقاق الأقاليم والمستعمرات مميتاً في ذاته؛ فقد كان بوسع الملكيات العريقة أن تتحمل خسارة إقليم أو إقليمين. كما أن

بريطانيا، وهي الضحية الأولى للنزعة الاستقلالية في المستعمرات، لم تتضرر جراء ضعف الأنظمة القديمة، وظلت مستقرة ديناميّة على الرغم من قيام الثورة الأمريكية. وكانت هناك مناطق قليلة تستلزم الظروف الداخلية فيها تحولاً جذرياً للسلطة. غير أن المنافسة الدولية هي التي دفعت الوضع إلى نقطة الانفجار.

ذلك أن المنافسة الدولية (أي الحرب) قد وضعت موارد الدول على المحك كما لم تفعل أية تحديات أخرى. وعندما تخفق الدولة في اجتياز هذه المحنة، فإنها تهتز وتتصدع، أو تسقط. وقد سيطرت إحدى هذه المنافسات الكبرى على الساحة الأوروبية الدولية خلال الحقبة العظمى من القرن الثامن عشر، وشكلت المحور الرئيسي فيها خلال فترات الحرب العامة المتكررة: 1689ـ1713، 1740ـ1748، 1756ـ1763، 1776ـ1783، وتداخلت مع الفترة التي نعالجها الممتدة من العام 1792 إلى العام 1815. وتميزت هذه الفترة بالنزاع بين بريطانيا وفرنسا، وكانت، بمعنى من المعاني، صراعاً بين النظامين القديم والجديد. ذلك أن فرنسا، التي استثارت عداء بريطانيا بالتوسع السريع لنشاطها التجاري وإمبراطوريتها الاستعمارية، كانت كذلك هي الأقوى الأكثر تفوقاً ونفوذاً؛ أي بعبارة أخرى، النموذج الكلاسيكي الأرستقراطي للملكية المطلقة. وليس في التاريخ ما يضاهي الصراع بين هاتين القوتين من حيث تمثيله الحي لتفوق نظام اجتماعي جديد على آخر قديم. ولم يقتصر الأمر على انتصار البريطانيين، بدرجات متفاوتة من الحسم، في جميع هذه الحروب ما عدا واحدة منها، فقد تجاوزوا ذلك إلى دعم الجهود لتنظيم هذه الحروب، وتمويلها، وشحنها بسهولة نسبية. أما الملكية الفرنسية، من جهة أخرى، فعلى الرغم من أنها أكثر من بريطانيا اتساعاً، وسكاناً، وثراء بحكم مواردها الممكنة، فإن الحرب كانت أشد وطأة عليها. ففي أعقاب هزيمتها في حرب السنوات السبع (1756ـ1763)، أتاحت لها ثورة المستعمرات الأمريكية الفرصة لترد كيد أعدائها إلى نحورهم، وقد اغتنمت فرنسا هذه الفرصة. وفي الصراع

الدولي الذي اندلع بعد ذلك، منيت بريطانيا بهزيمة مرة في الواقع، وفقدت الأجزاء الأكثر أهمية من إمبراطوريتها الأمريكية؛ وتحقق النصر لفرنسا التي أصبحت حليف الولايات المتحدة الجديدة. غير أن الكلفة كانت باهظة، وأسفرت الصعوبات التي واجهت الحكومة الفرنسية عن مرحلة من التأزم السياسي الذي أدى، بعد ست سنوات، إلى اندلاع الثورة الفرنسية.

VII

بقي علينا، في خاتمة هذا المسح التمهيدي لأوروبا عشية الثورة المزدوجة، أن نلقي نظرة على العلاقات بين أوروبا (أو، بصورة أدق، شمال غرب أوروبا) وباقي العالم. إن الهيمنة السياسية والعسكرية الكاملة التي فرضتها على العالم أوروبا (وامتداداتها وراء البحار، ممثلة بمجتمعات المستوطنين البيض) إنما كانت حصيلة لعصر الثورة المزدوجة. وفي أواخر القرن الثامن عشر، كان على عدد من القوى والحضارات الكبرى غير الأوروبية أن تواجه التاجر والبحار والجندي الأبيض مواجهة يقف فيها الطرفان على قدم المساواة. فإمبراطورية الصين العظيمة، وهي آنذاك في قمة فاعليتها تحت حكم أسرة مانشو (تشينغ)، كانت بعيدة عن متناول الطامعين. وعلى العكس من ذلك، كانت التيارات الثقافية في ذلك العصر تتوجه من الشرق إلى الغرب، والفلاسفة الأوروبيون يتعلمون الدروس من هذه الحضارة المختلفة، ولكن الراقية، بينما كان الفنانون والحرفيون يتمثلون في أعمالهم موضوعات الشرق الأقصى، ويسيئون فهمها في أغلب الأحيان، ويعدلون منتجاتها الجديدة (مثل "الصيني") لتناسب الاحتياجات الأوروبية. ولم تكن الدول الإسلامية مهيضة الجناح مثلما أصبحت في القرن التاسع عشر، على الرغم من أنها، مثل تركيا، كانت تتوجس خيفة أحياناً من القوة العسكرية لجاراتها من الدول الأوروبية (مثل النمسا، وقبلها روسيا). وظلت أفريقيا بمنأى عن الاختراق العسكري

الأوروبي. وباستثناء مناطق ضيقة حول رأس الرجاء الصالح، كان البيض ينحصرون في المواقع التجارية الساحلية.

غير أن التوسع المتسارع المتعاظم للتجارة والمشروع الرأسمالي الأوروبي قد قوض أسس النظام الاجتماعي لهذه المناطق: في أفريقيا من خلال الكثافة غير المسبوقة لتجارة العبيد المخيفة، وحول المحيط الهندي عبر تغلغل القوى الاستعمارية المتنافسة، وفي الشرقين الأدنى والأوسط من خلال التجارة والنزاع العسكري. وكان الغزو الأوروبي قد بدأ ينتشر بصورة واسعة إلى ما بعد المناطق التي كان يقيم فيها رواد المستوطنين الأسبان والبرتغاليين منذ القرن السادس عشر، والمستوطنون البيض الأمريكيون الشماليون في القرن السابع عشر. وكان البريطانيون هم الذين قطعوا أشواطاً بعيدة في هذا المجال بعد أن فرضوا سيطرتهم الإقليمية المباشرة على جزء من الهند (ولا سيما منطقة البنغال)، وأطاحوا تقريباً إمبراطوريةَ المغول. وقد مهدت هذه الخطوط الطريقَ للبريطانيين ليصبحوا حكام عموم الهند ومديريها. وكان الضعف النسبي الذي أصاب الحضارات غير الأوروبية عندما واجهت التفوق التقاني والعسكري الغربي أمراً متوقعاً. فإن ما يسمى "عصر فاسكو دا غاما" أوشك آنذاك على بلوغ ذروته القصوى بعد أربعة قرون من التاريخ استطاعت فيها حفنة من الدول الأوروبية وقوة الرأسمالية الأوروبية أن تفرض سيطرة كاملة، وإن كانت، بمعايير أيامنا الحاضرة، مؤقتة، على جميع أنحاء العالم. وقد قُدّر لهذه الثورة المزدوجة أن تجعل من التوسع الأوروبي أمراً لا يقاوم، على الرغم من أنها وفرت للعالم غير الأوروبي الظروف والعدة اللازمة للهجوم المعاكس على الهيمنة الأوروبية.



الفصل الثاني

الثورة الصناعية

تنطوي هذه الأعمال، مهما كانت طريقة تشغيلها وأسبابها ونتائجها، على فوائد لا حصر لها، تسجل لحساب هذا الإنسان الألمعي النافع الذي سيحتل الجدارة أينما ذهب؛ لأنه سيحمل الناس على التفكير. عليكم أن تنفضوا عنكم غبار اللامبالاة، والكسل والخنوع والبلادة التي تسمر بها الناس على الطرق التي سلكها أجدادهم، فحالت بينهم وبين الاستقصاء والتفكير، وكبلت فيهم روح الطموح. يمكنكم عند ذلك أن توقنوا أن ما تفعلونه هو الصحيح. انظروا إلى تدفق الفكر والعنفوان وانطلاق الجهد القوي وانبثاقه في شتى سبل الحياة جراء العمل الذي قام به رجال مثل: برندلي (Brindley) ووات وبريستلي وهاريسون (Harrison) وآركرايت (Arkwright). هل ثمة إنسان في أي منحى من مناحي الحياة لم تنتعش آماله بعد رؤية المحرك البخاري الذي اخترعه وات؟

آرثر يونغ (Arthur Young): **رحلات في إنجلترا وويلز**[1]

---

(1) Arthur Young, *Tours in England and Wales*, Series of Reprints of Scarce =Tracts in Economic and Political Science; no. 14, Selected from the Annals of

من هذه البالوعة العفنة يخرج النبع الأعظم للصناعة البشرية ليخصب العالم بأكمله؛ ومن هذا المصرف القذر يتدفق الذهب الخالص. وتكتسب البشرية هنا أكمل مراحل نموها وأكثرها فظاعة في الوقت نفسه، وهنا تجترح المدينة العجائب فيما يتحول الإنسان المتمدن إلى ما يشبه المخلوق الهمجي.

أليكسيس دو توكفيل (A. de Tocqueville) عن مانشستر عام 1835[2].

I

فلنبدأ من الثورة الصناعية؛ أي من بريطانيا. وقد تبدو نقطة الانطلاق هذه نزوة شخصية للوهلة الأولى؛ ذلك أن تداعيات هذه الثورة لم تتجلَّ بصورة واضحة لا لبس فيها - وخارج بريطانيا في جميع الأحوال - إلا في أواخر الفترة التي يعالجها هذا الكتاب، لا قبل سنة 1830 بالتأكيد، وربما لا قبل سنة 1840 أو نحوها. إذ لم يبدأ انشغال الأدب والفنون ببروز المجتمع الرأسمالي إلا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر؛ أي بذلك العالم الذي تهاوت فيه جميع الروابط الاجتماعية باستثناء روابط الذهب والعملة الورقية وما يترتب عليها من مكاسب (وكارلايل (Carlyle) هو أول من استخدم هذه العبارة). وتنتمي إلى ذلك العقد رواية الأديب الفرنسي أونوريه دو بلزاك (Honoré de Balzac) **الكوميديا الإنسانية** (*Comédie humaine*)، وهي الصرح الأدبي الشاهق الذي يصوِّر تلك المرحلة. ولم تبدأ بالتدفق إلا عام 1840 أو

Agriculture ([London: The London School of Economics and Political Science, = 1932]), p. 269.

(2) Alexis de Tocqueville, *Journeys to England and Ireland*, Translated by George Lawrence and K. P. Mayer; Edited by J. P. Mayer (New Haven: Yale University Press, 1958), pp. 107 - 108.

نحوه تيارات الأدبيات الرسمية وغير الرسمية عن الآثار الاجتماعية للثورة. وبين هذه الأعمال "الكتب الزرق" والاستقصاءات الإحصائية في إنجلترا، ودراسة عالم الاقتصاد لوي ـ رينيه فيليرميه (L. R. Villermé) **صورة عن الأحوال المادية والمعنوية للعمال**، ودراسة فريدريك إنغلز (Frederick Engels) عن **أوضاع الطبقة العاملة في إنجلترا**، وأعمال دوكبتيو (Ducpetiaux) في بلجيكا، وأنشطة الكثير من المراقبين المهمومين أو الفزعين من ألمانيا إلى إسبانيا والولايات المتحدة. ولم نشهد حتى الأربعينات من القرن التاسع عشر ظهور البروليتاريا، وهي وليدة الثورة الصناعية، والشيوعية التي ارتبطت آنذاك بحركاتها الاجتماعية، وشبح البيان الشيوعي، وتحرك هذه الظواهر كلها عبر أوروبا. إن اسم الثورة الصناعية بحد ذاته يعكس آثارها البطيئة في أوروبا. لقد وجدت الثورة في بريطانيا قبل أن يولد اسمها. ولم يخترع الاشتراكيون الإنجليز والفرنسيون، وهم جماعة لا سابق لها، هذا الاسم إلا في العشرينات من القرن التاسع عشر، وربما كانوا متأثرين في ذلك بالتماثل بين ما كان يحدث في بريطانيا، وبين الثورة السياسية في فرنسا[3].

على أننا سننظر في الثورة الصناعية أولاً لسببين: الأول هو أنها "اندلعت" قبل اقتحام الباستيل؛ والثاني هو أننا لا نستطيع بمعزل عنها أن نفهم تيارات التاريخ العميقة اللاشخصية التي حملت الأشخاص والأحداث في تلك الفترة، أو نستوعب الإيقاع المركب غير المتوازن للتاريخ.

ترى، ماذا تعني عبارة "اندلعت الثورة الصناعية"؟ إنها تعني أنه في وقت ما من ثمانينات القرن الثامن عشر، سقطت للمرة الأولى في

---

(3) Anna Bezanson, "The Early Uses of the Term Industrial Revolution," *Quarterly Journal of Economics*, vol. XXXVI, no. 2 (February 1922), p. 343, and George Norman Clark, *The Idea of the Industrial Revolution*, Glasgow University Publications; 95 (Glasgow: Jackson Son and Co, 1953).

التاريخ الإنساني الأغلال التي كانت تكبل القوة الإنتاجية للمجتمعات البشرية التي أصبحت قادرة منذئذٍ على مضاعفة الناس، والبضائع والخدمات، على نحو مستمر سريع، وحتى الوقت الحاضر، لا حدود له. وذلك ما يعرف فنياً في أوساط علماء الاقتصاد بِـ "الانطلاق في نمو مستدام ذاتياً"؛ إذ لم يستطع أي مجتمع سابق أن يخترق السقف الذي فرضته على الإنتاج بنية اجتماعية قبل ـ صناعية، وعلوم وتقانة قاصرة، وما يتبع ذلك من التوقف الدوري والمجاعة والموت. ولم يكن هذا الانطلاق بالطبع واحداً من الظواهر التي تداهم العالم غير الفني على حين غرّة مثل الزلازل والشهب؛ إذ يمكن أن نعود بتاريخها المبكر السحيق في أوروبا، اعتماداً على مزاج المؤرخ ومصلحته الخاصة، إلى الألف الأولى الميلادية إن لم يكن قبل ذلك. وقد أُسبِغ لقب "الثورة الصناعية" على تجارب أخرى للتحليق كانت في ركاكتها أشبه بمحاولة صغار البط الطيران، في القرنين الثالث عشر والسادس عشر، والعقد الأخير من القرن السابع عشر. ومنذ أواسط القرن الثامن عشر، كانت عملية التسارع في الانطلاق واضحة للعيان إلى حد دفع بعض قدامى المؤرخين إلى العودة بالثورة الصناعية إلى العام 1760، إلا أن البحث المتأني يميل إلى إقناع الخبراء باختيار الثمانينات لا السبعينات من القرن الثامن عشر باعتبارها العقد الحاسم. فقد شهدت هذه الفترة، في حدود علمنا، بداية المؤشرات الإحصائية ذات العلاقة بالارتفاع الحاد المفاجئ بصورة عمودية تقريباً؛ إشارةً إلى بدء عملية "التحليق". وبعبارة أخرى، فإن الاقتصاد قد أصبح محمولاً جواً.

إن تسمية هذه العملية بالثورة الصناعية تبدو أمراً منطقياً منسجماً مع التقاليد الراسخة، مع أن بعض المؤرخين المحافظين درجوا ذات يوم على إنكار وجودها، ربما بسبب خشيتهم من مواجهة المفاهيم الملتهبة، وهم يستخدمون بدلاً من ذلك مصطلحات تافهة من نوع "التطور المتسارع". وإذا لم يكن التحول النوعي الجوهري المفاجئ الذي حدث في ثمانينات القرن الثامن عشر أو نحوها ثورة بالفعل، فإن الكلمة

تغدو عديمة المعنى؛ فالثورة الصناعية لم تكن، في واقع الأمر، حكاية ذات بداية ونهاية. وليس ثمة معنى للتساؤل عما إذا كانت قد "اكتملت"؛ لأنها تهدف، في جوهرها، إلى أن تجعل التغيير الثوري المعيار السائد، وهي ما تزال تمضي قدماً. وكل ما نستطيع أن نسأله هو ما إذا كانت التحولات الاقتصادية قد أفلحت في إقامة اقتصاد صناعي في أساسه، قادر، بالمعنى العريض للكلمة، على إنتاج كل ما تريده في حدود الوسائل المتاحة؛ أي، بالمعنى الفني، "اقتصاد صناعي ناضج". وفي بريطانيا، وبالتالي في العالم، اتفق أن هذه الفترة من التصنيع الأولى تطابقت بصورة تامة تقريباً مع الفترة التي يتناولها هذا الكتاب، لأنها، إذا كانت قد بدأت وقت "الإقلاع" في العقد الثامن من القرن الثامن عشر، فإنه يمكن القول إنها انتهت بإقامة السكة الحديدية وبناء صناعة ثقيلة ضخمة في بريطانيا في أربعينات القرن التاسع عشر. ولكن يمكن تحديد الإطار الزمني للثورة نفسها، أي "مرحلة الإقلاع"، بقدر من الدقة إذا وضعناه في الفترة الممتدة من العام 1780 إلى العام 1800؛ أي أنها كانت معاصرة للثورة الفرنسية، وإن تكن قد سبقتها بسنوات.

ربما كان هذا الحدث في جميع الأحوال هو الأهم في التاريخ العالمي منذ اختراع الزراعة ونشوء المدن، وقد تولت بريطانيا دور المبادرة في هذا المجال. وغني عن البيان أن الحدث لم يكن عرضياً أو صدفة محضة. وإذا كان هناك سباق لارتياد الثورة الصناعية، فإنه لم يكن فيه إلا متسابق واحد. صحيح أن تقدماً كبيراً حدث في المجالات التجارية والصناعية في جميع أقطار أوروبا بفعل جهود الوزراء وموظفي الدولة الأذكياء الحصيفين في الاقتصاد، الذين كانوا يقدمون المشورة لكل عرش من العروش المستنيرة في أوروبا، من البرتغال إلى روسيا. وكان هؤلاء حريصين قبل كبار المديرين المتنفذين في أيامنا هذه، على تحقيق "النمو الاقتصادي". وحققت بعض الدول والأقاليم الصغرى آنذاك، مثل ساكسوني وأسقفية لييج، مستوى مشهوداً من التصنيع، مع أن مجمعاتها الصناعية كانت من الصغر والتمركز المحلي بحيث لم تستطع،

مثل بريطانيا، أن تمارس التأثير الثوري في العالم. غير أن من الواضح أن بريطانيا كانت، حتى قبل الثورة، قد قطعت أشواطاً بعيدة وسبقت منافسيها المحتملين الرئيسيين من حيث معدل حصة الفرد الواحد من المخرجات والتجارة، حتى بالمقارنة مع المعدلات البريطانية للقيمة الإجمالية لهذين العنصرين.

ومهما كانت الأسباب التي يُعزى إليها التقدم البريطاني، فإنها لم تكن تعود إلى التفوق العلمي والتقاني؛ فقد كان الفرنسيون متقدمين بالتأكيد على بريطانيا في مجال العلوم الطبيعية. وقد شددت الثورة الفرنسية التأكيد على هذا العنصر الإيجابي، ولا سيما في مجالي الرياضيات والفيزياء، وشجعت العلوم في فرنسا، فيما كان الرجعيون يتخوفون منها في إنجلترا. وكان البريطانيون، حتى في العلوم الاجتماعية، دون هذا المستوى من التفوق الذي جعل وأبقى علم الاقتصاد موضوعاً انغلوسكسونياً بارزاً. غير أن الثورة الصناعية في بريطانيا وضعتها في مقدمة الموضوعات دون منازع. إن العالم الاقتصادي في ثمانينات القرن الثامن عشر كان يقرأ ما كتبه آدم سميث (Adam Smith)، إلا أنه كان في الوقت نفسه يقرأ، وربما يحقق فائدة أكبر من دراسات الفيزيوقراطيين ومحاسبي الدخل الوطني، وكيزناي (Quesnay)، وتورغو، ودوبون دو نيمور (Dupont de Nemours)، ولافوازييه (Lavoisier)، وربما واحد أو اثنين من إيطاليا. وقد أنتج الفرنسيون مخترعات أكثر أصالة، مثل مغزل جاكار (1804) (وهو أداة أكثر تعقيداً من جميع الأجهزة المماثلة التي صممت في بريطانيا)، كما صنعوا سفناً أكثر تقدماً. كما كانت لدى الألمان مؤسسات للتدريب التقني، مثل بيرغاكاديمي (Bergakademie) البروسية، لم يكن ثمة ما يضاهيها في بريطانيا. وأسست الثورة الفرنسية ذلك المعهد الفريد الفعال إيكول بوليتكنيك (Ecole polytechnique). وكان التعليم الإنجليزي نموذجاً مضحكاً لسوء الذوق، مع أن مدارس القرى الصارمة والجامعات المتشددة المضطربة الديمقراطية في اسكوتلندا الكالفينية قد

عوضت عن جوانب القصور فيه. فقد أرسلت إلى جنوب البلاد كوكبة من الشباب اللامعين المجدّين العقلانيين الساعين إلى تحقيق التقدم المهني لأنفسهم من أمثال: جيمس وات وتوماس تلفورد (Thomas Telford) ولودن ماكادم (Loudon McAdam) وجيمس مِل (James Mill). وكانت الجامعتان الإنجليزيتان الوحيدتان، أوكسفورد وكامبريدج، تعانيان التخلف الفكري. كذلك كان الحال في المدارس الثانوية والعامة الخاملة، باستثناء "الأكاديميات" التي أسسها "المنشقون" الذين حرموا من الدراسة في النظام التعليمي (الأنغليكاني). حتى إن العائلات الأرستقراطية التي كانت ترغب في تعليم أبنائها كانت تعتمد على المدرسين الخصوصيين أو الجامعات الاسكوتلاندية. ولم يكن هناك أي نظام للتعليم الابتدائي قبل أن يؤسس لانكستر الكويكري (وبعده منافسوه الانغليكانيون) نوعاً من حملات التطوع الجماعية لمحو الأمية الابتدائية في مطلع القرن التاسع عشر، مما ابتلى نظام التعليم الإنجليزي في ما بعد بالنزاعات الطائفية. كما أن الخوف الاجتماعي لم يكن يشجع على تعليم الفقراء.

لحسن الحظ، لم يكن ضرورياً إدخال تعديلات فكرية وثقافية كثيرة لإحداث الثورة الصناعية[4]. لقد كانت مخترعاتها التقنية في منتهى

---

(4) "مما يثلج الصدر، من ناحية، أن نرى الإنجليز يستقون ثروة من معين حياتهم السياسية؛ وذلك من خلال دراستهم لقدامى المؤلفين، بصرف النظر عن الأسلوب الرتيب الذي يجنون به هذه المعرفة. بل إن خطباءهم في البرلمان كثيراً ما يستشهدون بأقوال القدماء لتحقيق غاياتهم. وكانت هذه الممارسات مثار إعجاب المشاركين في المنتديات، وتركت آثارها عليهم. ومن ناحية أخرى، فإن من المدهش أن نشاهد بلداً انتشرت فيه بوضوح نزعة التصنيع، ومن ثم الحاجة إلى تعريف الناس بالعلوم والآداب التي تحفزهم على المضي قدماً في مساعيهم. كما أن غياب مثل هذه الموضوعات في المناهج التربوية للشباب لم يكن يظهر للعيان. ومن المدهش بالقدر نفسه أيضاً أن نلاحظ مستوى الإنجاز لدى رجال يفتقرون إلى التعليم الرسمي اللازم لما يمارسونه من أنشطة مهنية"، انظر: Wilhelm Wachsmuth, *Europäische Sittengeschichte vom Ursprunge volksthümlicher Gestaltungen bis auf unsere Zeit* (Leipzig: F. C. W. Vogel, [n. d.]), vol. V, 1-2: *Das Zeitalter des Kirchenstreits*, 1839, p. 736.

التواضع، ولم تتجاوز نطاق الحرفيين الأذكياء الذين كانوا يجرون التجارب في مشاغلهم، أو القدرات البناءة لدى النجارين، وصانعي الطواحين، والقفالين: المكوك الطائر، ودولاب الغزل، والمغزل الآلي. وحتى أكثر آلاتها تقدماً من الوجهة العلمية، وهو المحرك البخاري الدوراني الذي اخترعه جيمس وات (1784)، لم يكن يتطلب إلا جانباً من الفيزياء التي كانت معروفة طوال الشطر الأكبر من ذلك القرن؛ ذلك أن النظرية الصحيحة حول الآلات البخارية لم تتحدد إلا بعد تطبيقها العملي، وذلك في عشرينات القرن التاسع عشر على يد الفرنسي كارنو (Carnot) الذي استخلصها من العديد من الاستخدامات العملية للآلات البخارية، ولا سيما في المناجم. ويمكن القول إن الابتكارات التقنية للثورة الصناعية كانت، عند توفر الظروف المناسبة، تصنع نفسها بنفسها، ربما باستثناء الصناعة الكيماوية؛ ولا يعني ذلك أن أوائل الصناعيين لم يكونوا مهتمين بالعلوم أو بفوائدها العملية[5].

بيد أن الظروف المناسبة كانت آنذاك واضحة جَليّة في بريطانيا التي قام فيها الشعب، قبل قرن من الزمان، بمحاكمة الملك وإعدامه، وتم فيها الإقرار بأن تحقيق الربح والنفع الخاص والتنمية الاقتصادية هو الهدف الأسمى لسياسة الحكومة. كما أن الحل البريطاني الثوري الفريد قد أنهى، لأسباب عملية، المشكلة الزراعية؛ إذ إن حفنة من مُلاّك الأراضي ذوي العقلية التجارية كانوا قد استحوذوا على الأرض التي كان يحرثها المزارعون ـ المستأجرون باستخدام من لا أرض لهم أو صغار

(5) A. E. Musson and E. Robinson, "Science and Industry in the Late Eighteenth Century," *The Economic History Review*, 2nd Series, vol. XIII (December 1960); Robert E. Schofield: "The Industrial Orientation of Science in the Lunar Society of Birmingham," *Isis*: vol. 47 (March 1956), and vol. 48 (December 1957), and "Membership of the Lunar Society of Birmingham," *Annals of Science*, vol. 12, no. 2 (June 1956).

الملّاك. أما البقية الباقية من الاقتصاد الجماعي القديم في القرى، فقد اكتسحتها "قوانين الإغلاق" (1760ـ1830) والمعاملات الخاصة. غير أننا لا نلمح في تلك الفترة ملامح "شريحة الفلاحين البريطانيين" في أوج ازدهارها بالمعنى نفسه الذي نتحدث فيه عن الفلاحين في فرنسا وألمانيا وروسيا. لقد كانت هذه مخصصة أساساً للسوق؛ فقد انتشرت مراكز التصنيع منذ زمن بعيد في المناطق الريفية غير الإقطاعية. وكانت الزراعة قد هيأت نفسها للقيام بثلاثة أنواع من الأنشطة الأساسية في حقبة التصنيع هذه: زيادة الإنتاج والإنتاجية لسد الاحتياجات الغذائية للعدد المتزايد من السكان غير الزراعيين، وتوفير فائض كبير متصاعد من العمال المرشحين للاستخدام في البلدات وفي الصناعات، وتوفير الآليات الكفيلة بتأمين رأس المال التراكمي الذي سيُستثمر في قطاعات اقتصادية مستجدة. (وثمة نشاطان آخران ربما لم يكونا على القدر نفسه من الأهمية في بريطانيا، هما: خلق سوق كبيرة بما فيه الكفاية لسكان المناطق الزراعية، وهم القطاع الأكبر عادة، وتوفير فائض للتصدير يساعد على تأمين الواردات الرأسمالية). وكان قد توفر آنذاك حجم لا بأس به من رأس المال الإداري الاجتماعي ـ وهو العدّة العامة الضرورية المكلفة لتقدم الاقتصاد بسلاسة إلى الأمام، ولا سيما في مجالات الشحن البحري، ومرافق الموانئ، والتحسن في الطرق والممرات المائية. وكان النشاط السياسي قد تحول نحو تحقيق الربح. وربما واجهت متطلبات معينة من رجال الأعمال مقاومة من جانب المصالح الخاصة؛ وكما سنرى في وقت لاحق، كان الزراعيون قد بدأوا وضع آخر العراقيل لإعاقة تقدم الصناعيين بين العام 1795 والعام 1846. غير أن ثمة إقراراً عاماً في تلك الفترة بأن المال لا يتكلم بصوت مرتفع فحسب، بل يحكم. ولم يكن على الصناعيين إلا الحصول على المال الكافي ليضمنوا قبولهم في أوساط من يحكمون المجتمع.

كان رجل الأعمال، بلا شك، في سبيله لكسب المزيد من المال؛ لأن الشطر الأكبر من القرن الثامن عشر كان فترة من الازدهار والتوسع

الاقتصادي المريح في أغلب أوروبا، وكان يمثل المهاد الحقيقي لتصور المفكر والكاتب فولتير (Voltaire) للدكتور بانغلوس. ويمكن القول إن هذا التوسع كان، بمساعدة من نسب التضخم الطفيفة، سيدفع البلد، عاجلاً أم آجلاً، إلى العقبة التي تفصل الاقتصاد ما قبل الصناعي عن الاقتصاد الصناعي. إلا أن المشكلة لم تكن بسيطة إلى هذا الحد. إن جانباً كبيراً من التوسع الصناعي في القرن الثامن عشر لم يؤدِّ في الواقع على الفور أو في المستقبل المنظور، إلى ثورة صناعية؛ أي إلى خلق "نظام تصنيع" مُمكنن يتولى بدوره إنتاج كميات ضخمة بكلفة سريعة التناقص بحيث لا يعود معتمداً على الطلب، بل يغدو قادراً على خلق السوق الخاصة به[6] فعلى سبيل المثال، اتسعت، إلى حد كبير، في ميدلاندز ويوكاشير البريطانيتين، صناعة البناء أو الصناعات العديدة الصغيرة التي كانت تنتج السلع المعدنية المستخدمة في المنازل مثل المسامير والأواني والسكاكين والمقصات وما إليها، في تلك الفترة، ولكنها كانت واحدة من أنشطة السوق. وفيما كانت عام 1850 تنتج أكثر بكثير مما كانت تنتجه عام 1750، فقد ظلت تستخدم الأساليب القديمة أساساً. ولم يكن المطلوب هو التوسع مهما كان نوعه، بل كان نوعاً خاصاً من الإنتاج الذي أدى إلى ازدهار مانشستر لا بيرمينغهام.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الثورات الصناعية الرائدة حدثت في وضع تاريخي خاص برز فيه النمو الاقتصادي من تقاطع القرارات التي اتخذها العديد من المبادرين في المشروعات التجارية والمستثمرين في القطاع الخاص. وكان ما يسيّر كلاً من هؤلاء الوصية الأولى في ذلك العصر: الشراء من أرخص الأسواق والبيع في أغلاها. وكيف لهؤلاء أن يكتشفوا أن الربح الأقصى لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال تنظيم

(6) تطرح صناعة السيارات الحديثة مثالاً على ذلك. إن ما خلق هذه الصناعة بحجمها الحديث ليس الطلب على العربات الذي كان في ثمانينات القرن الثامن عشر، بل القدرة على شراء السيارات الرخيصة، وهي القدرة التي ولّدت الطلب الجماعي عليها.

ثورة صناعية، لا عن طريق القيام بالأنشطة التجارية المألوفة (التي كانت أكثر ربحاً في الماضي)؟ وكيف لهم أن يتعلموا ما لم يكن يعلمه الآخرون آنذاك من أن الثورة الصناعية ستفضي إلى تسارع غير مسبوق في توسع أسواقهم؟ وإذا ما أخذنا بالاعتبار أن القاعدة الاجتماعية الأساسية اللازمة لثورة صناعية كانت قد قامت في إنجلترا خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، فإن المستثمرين كانوا بحاجة إلى أمرين: يتمثل أولهما في صناعة توفر مكافأة استثنائية لصاحب المصنع الذي يستطيع أن يوسع مدى إنتاجه بسرعة حتى ولو استخدم مبتكرات بسيطة قليلة الكلفة إلى حد ما؛ أما العامل الثاني فهو وجود سوق عالمية تحتكرها دولة واحدة أساساً[7].

تصدق هذه الاعتبارات في بعض النواحي على جميع البلدان في الفترة التي نعالجها. فقد اتخذ مصنعو البضائع الاستهلاكية الجماعية فيها جميعاً مكان الصدارة في النمو الصناعي - وفي مجال النسيج بصورة غير حصرية[8] - لأن السوق الجماعية لمثل هذه السلع كانت نشطة بالفعل، وكان رجال الأعمال يدركون بوضوح إمكانيات التوسع. وتصدق هذه الاعتبارات، من ناحية أخرى، على بريطانيا وحدها. لقد واجه الرواد الصناعيون البريطانيون عدداً من المشكلات الأكثر صعوبة. فما إن بدأ التصنيع في بريطانيا حتى أخذت الدول الأخرى بالتمتع بفوائد التوسع

(7) "لم تتسع، إلا بصورة بطيئة، القدرة الشرائية مع تزايد السكان، والدخل الفردي، وكلفة التنقل والقيود المفروضة على التجارة. غير أن السوق أخذت بالاتساع في كل الأحوال، وكان السؤال الحيوي المطروح هو: متى سيظهر منتج للبضائع الاستهلاكية الجماعية قادر على الاستحواذ على جزء كاف من هذه السوق على نحو يسمح بالتوسع السريع المستمر في الإنتاج؟"، انظر: Kenneth Berrill, "International Trade and the Rate of Economic Growth," *The Economic History Review*, vol. 12, no. 3 (1960), p. 358.

(8) Walther G. Hoffmann, *The Growth of Industrial Economies*, Translated from the German by W. O. Henderson and W. H. Chaloner ([Manchester, Eng.]: Manchester University Press, [1958]), p. 68.

الاقتصادي السريع الذي حفزته الثورة الصناعية الرائدة. يضاف إلى ذلك أن النجاح البريطاني أثبت جدوى الوسائل التي استخدمتها هذه الثورة، وأصبحت ممكنة محاكاة الأساليب البريطانية، واستيراد المهارة ورأس المال البريطانيين. وأقدمت صناعة النسيج السكسونية، التي عجزت عن ابتكارات خاصة بها، على نسخ ما ابتكره البريطانيون، وأحياناً بإشراف ميكانيكيين إنجليز، كما أن بعض الإنجليز، ممن كانوا مولعين بالقارة الأوروبية، مثل عائلة كوكريل، أسسوا مواقع لهم في بلجيكا وعدة مناطق من ألمانيا. وبين العام 1789 والعام 1848، كانت الخبرات والمحركات البخارية، ومعدات إنتاج القطن والاستثمارات البريطانية قد أغرقت أوروبا وأمريكا.

أما بريطانيا نفسها، فلم تستمتع بهذه الفوائد. إلا أنها، من ناحية أخرى، كانت تمتلك اقتصاداً ودولة نشطة هما من القوة بحيث استطاعا السيطرة على أسواق المنافسين. كما كان من نتائج الحروب التي نشبت بين العام 1793 والعام 1815، التي تمثل المرحلة الأخيرة من النزال الإنجليزي ـ الفرنسي في ذلك القرن، القضاء على جميع المنافسين في العالم غير الأوروبي، باستثناء الولايات المتحدة الغنية إلى حد ما. وعلاوة على ذلك، كان لبريطانيا اقتصاد قادر بصورة تثير الإعجاب على شق طريق الريادة لثورة صناعية في ظروف رأسمالية، ووضع اقتصادي يمكنها من أمرين: السيطرة على صناعة القطن والتوسع الكولونيالي.

II

كانت صناعة القطن البريطانية، شأنها شأن صناعات القطن الأخرى، قد نشأت أصلاً باعتبارها منتجاً جانبياً للتجارة في ما وراء البحار، التي أنتجت ما تحتاجه من المواد الخام (أو على الأقل واحدة من المواد الخام؛ لأن المنتج الأصلي كان مزيجاً من القطن والكتان)، ومن السلع القطنية الهندية التي اكتسحت السوق التي حاول المصنعون الأوروبيون السيطرة عليها بتقليدهم للأساليب البريطانية. ولم يحققوا أول

الأمر كل النجاح، على الرغم من أنهم استطاعوا، بطريقة تنافسية، إعادة إنتاج البضائع الرخيصة الخشنة أكثر مما كانت الحال عليه بالنسبة للسلع المحسنّة الدقيقة الصنع. إلا أن المصالح الذاتية القديمة الراسخة لتجارة الصوف استطاعت، لحسن الحظ، أن تضمن استمرار الحظر على السلع القطنية الهندية (التي سعت المصالح التجارية المحضة لشركة الهند الشرقية إلى تصديرها من الهند بأضخم كمية ممكنة، فمنحت بالتالي فرصة أخرى لبدائل صناعة القطن المحلية). وضمنت صناعة القطن وخليط القطن، وهما أرخص من الصوف، لنفسها سوقاً متواضعة ولكنها مفيدة في البلاد. غير أن فرص التوسع السريع الرئيسية المتاحة للبريطانيين كانت تكمن في ما وراء البحار.

إن التجارة الكولونيالية الاستعمارية هي التي ولدت صناعة القطن واستمرت في رعايتها. وقد نمت في القرن الثامن عشر في المناطق الداخلية من الموانئ الرئيسية للمرحلة الكولونيالية في بريستول وغلاسغو، وبصورة خاصة في ليفربول، وهي المركز الكبير للمتاجرة بالعبيد. كما شجعت عليها كل مرحلة من هذه التجارة اللاإنسانية المتسارعة النمو. والواقع أن تجارتي القطن والرقيق كانتا تسيران جنباً إلى جنب خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة؛ ذلك أن العبيد الأفارقة كانوا، جزئياً على الأقل، يُجلبون مع السلع القطنية الهندية. ولكن عندما تعثر تزويد تلك البضائع بسبب الحرب أو حركات التمرد في الهند أو ما حولها، كان بوسع لانكشير أن تدخل الحلبة. كانت مزارع الهند الغربية التي أُخذ منها العبيد هي التي تصدِّر الجزء الأكبر من القطن الخام للصناعة البريطانية، وكان المزارعون يشترون بدلاً منها أنسجة مانشستر القطنية بكميات معتبرة. وقبيل "الإقلاع" بوقت قصير، كانت وجهة الكميات الهائلة من صادرات مانشستر القطنية قد تحولت إلى الأسواق الأفريقية والأمريكية مجتمعة[9]. وقد سددت لانكشير فيما بعد

---

(9) Alfred P. Wadsworth and Julia de Lacy Mann, *The Cotton Trade and*=

ديونها للعبيد بالاحتفاظ بهم؛ ذلك أن مزارع العبيد في الولايات المتحدة الجنوبية في التسعينات من القرن الثامن عشر كانت قد توسعت وتنامت بفعل متطلبات مصانع لانكشير المتعاظمة التي لا تشبع، وهي التي كانت المزارع تزودها بكميات ضخمة من القطن الخام.

هكذا أقلعت صناعة القطن كالطائرة الشراعية بفعل رياح التجارة الكولونيالية التي شُدَّت إليها، وهي التجارة التي كانت تبشر بتوسع عظيم سريع، وفوق ذلك كله، لا يمكن التكهن به، وتشجع المبادرين بالمشروعات التجارية على تبني الأساليب الثورية المطلوبة لمواجهة التوسع. وبين العام 1750 والعام 1769، تضاعفت صادرات القطن البريطانية أكثر من عشر مرات. وفي أوضاع كهذه، تبلغ مكافأة التاجر الذي يكون أول من دخل السوق بصفقات القطن الضخمة حدوداً فلكية تستحق المخاطرة والانخراط في مغامرة تقنية. غير أن أسواق ما وراء البحار، ولا سيما المناطق الفقيرة المتخلفة "الآخذة بالنمو"، لم تقتصر على التوسع المثير بين وقت وآخر فحسب، بل تجاوزته إلى التوسع المستمر غير المحدود. ولا شك في أننا إذا أخذنا جانباً من هذه السوق بصورة مستقلة معزولة عما حولها، فإنها ستبدو صغيرة بالمقاييس الصناعية، وقد زادت منافسة "الاقتصاديات المتقدمة" المختلفة لها من صغرها. غير أننا إذا افترضنا أن أحد الاقتصادات المتقدمة قد استطاع أن يحتكر كلَّ هذه السوق أو جُلَّها مدةً كافية من الزمن، فإن احتمالات المستقبل تغدو، كما شهدنا، غير محدودة؛ وذلك بالضبط هو ما نجحت صناعة القطن البريطانية في تحقيقه، بمساعدة نشطة من الحكومة البريطانية. وإذا ما استثنينا السنوات القليلة الأولى من ثمانينات القرن الثامن عشر، يمكننا أن نصف الثورة الصناعية من حيث حجم المبيعات

Industrial Lancashire, 1600-1780, Publications of the University of Manchester, = Economic History Series; no. VII ([Manchester]: Manchester University Press, 1931), Chapter VII.

بأنها انتصار لسوق التصدير على السوق المحلية. ففي العام 1814، صدرت بريطانيا نحو أربع ياردات من الأنسجة القطنية مقابل كل ثلاث ياردات تستهلك محلياً، وفي العام 1850 ثلاث عشرة مقابل كل ثمانٍ[10]. وفي أسواق التصدير المتسعة هذه، كانت الأسواق الكولونيالية وشبه الكولونيالية التي كانت زمناً طويلاً منافذ الصادرات البريطانية إلى الخارج، تحقق بدورها النصر. وكان هذا الأمر طبيعياً خلال الحروب النابليونية، عندما انقطعت الصلة بالأسواق الأوروبية إلى حد كبير بفعل الحرب أو الحصار. لكن هذه الأسواق استمرت في تأكيد نفسها حتى بعد انتهاء الحروب. وعام 1820، استوردت أوروبا ـ التي أصبحت أبوابها الآن مفتوحة للصادرات البريطانية ـ نحو 128 مليون ياردة من القطنيات البريطانية، وأمريكا خارج الولايات المتحدة، وأفريقيا وآسيا نحو 80 مليوناً. غير أن أوروبا استوردت بحلول العام 1840، نحو 200 مليون ياردة، بينما بلغت حصة المناطق "المتخلفة" 529 مليوناً من الياردات.

ويعود ذلك إلى أن الصناعة البريطانية بنت احتكارها في هذه المناطق على أساس الحرب، وعلى ثورات الشعوب الأخرى، وعلى حكمها الإمبراطوري الاستعماري. ويجدر بنا في هذا السياق أن نلتفت إلى منطقتين بصورة خاصة. فقد اعتمدت أمريكا اللاتينية اعتماداً كلياً تقريباً على الواردات البريطانية خلال الحروب النابليونية. وبعد أن بدأت القطيعة إثر ذلك بينها وبين إسبانيا والبرتغال[11]، خضعت للتبعية الاقتصادية البريطانية، وابتعدت في الوقت نفسه عن التدخل السياسي الذي يمارسه منافسو بريطانيا المحتملون في أوروبا. وبحلول العام 1820 كانت القارة الأمريكية اللاتينية الفقيرة تستورد ما يزيد على ربع ما

---

(10) François Crouzet, *L'Economie britannique et le blocus continental, 1806-1813*, 2 vols. (Paris: Presses universitaires de France, 1958), p. 63.

(11) انظر ص 220-222 و441-442 من هذا الكتاب.

تستورده أوروبا من الملابس القطنية البريطانية، ثم ارتفعت هذه النسبة إلى ما يعادل نصف الصادرات الأوروبية. وكانت جزر الهند الغربية، كما رأينا، هي المصدِّر التقليدي للبضائع القطنية، تساعدها على ذلك شركة الهند الشرقية. غير أن غلبة مصالح الصناعيين البريطانيين الخاصة أرغمت المصالح التجارية للهند الشرقية (ناهيك عن المصالح الهندية) على التراجع. وقد جردت الهند من التصنيع على نحو منهجي منظم حتى أصبحت بدورها سوقاً لصناعات لانكشير القطنية. وكان شبه القارة الهندية يستورد 11 مليون ياردة فقط عام 1820، وارتفع هذا الرقم عام 1840 إلى 145 مليون ياردة. ولم يكن ذلك مجرد امتداد مريح لأسواق لانكشير. فقد كان معْلماً رئيسياً من معالم التاريخ العالمي. ذلك أن أوروبا كانت منذ عهود سحيقة هي التي تستورد من الشرق أكثر مما تبيعه؛ لأن الشرق لم يكن بحاجة إلى الكثير من الغرب لقاء ما يرسله من التوابل والحرير وخليط الكتان والقطن والجواهر وما إلى ذلك. إن قماش القمصان القطنية الذي أنتجته الثورة الصناعية قد قلب، رأساً على عقب، هذه العلاقة التي ظلت حتى ذلك الحين متوازنة بفعل مزيج من سبائك الذهب المصدرة وأعمال اللصوصية. والصينيون المحافظون المكتفون ذاتياً هم وحدهم الذين ظلوا يرفضون ابتياع ما يعرضه الغرب أو الاقتصادات التي يسيطر عليها الغرب، إلى أن اكتشف التجار الغربيون بين العام 1815 والعام 1842، بمساعدة سفن المدفعية الغربية، سلعة مثالية يمكن تصديرها، بالجملة، من الهند إلى الشرق؛ ألا وهي الأفيون.

وعلى هذا الأساس، فتح القطن آفاقاً لا حدود لها لإغراء أصحاب المشروعات التجارية الخاصة بدخول غمار الثورة الصناعية، ومجالات كافية مفاجئة للتوسع. وقد هيأت لهم، لحسن الحظ، الظروف التي تمكنهم من تحقيق هذه الأغراض. فالاختراعات الجديدة التي أضفت طابعاً ثورياً على صناعة القطن، ومنها دولاب الغزل، وقفص الغزل المائي، وبعدها بقليل نول النسيج الذي يعمل بالطاقة، كانت

كلها بسيطة قليلة الكلفة، وسددت ثمنها بنفسها فوراً عن طريق رفع مستوى الإنتاجية. ويمكن عند الضرورة أن يركّبها، قطعة قطعة، رجال بسطاء بدأوا حياتهم العملية ببضع جنيهات مقترضة ذلك أن الرجال الذين هيمنوا على تراكم الثروة العظيم في القرن الثامن عشر لم يكونوا ميالين إلى استثمار مبالغ طائلة في الصناعة. فالتوسع الصناعي يمكن أن تموله الأرباح الجارية بسهولة؛ لأن الجمع بين مكاسب الأسواق العريضة والتضخم المطرد للأسعار يولّد معدلات خيالية من الأرباح. وفي ذلك يقول سياسي إنجليزي، بحق، فيما بعد: "إن ثروات لانكشير لم تكن نتيجة لخمسة في المئة أو عشرة في المئة، بل لمئات في المئة وآلاف في المئة". إن مساعد تاجر ألبسة مثل روبرت أوين (Robert Owen) بدأ عمله عام 1789 باقتراض مئة جنيه في مانشستر. وما إن حل العام 1809 حتى كان قد اشترى حصص شركائه بمبلغ 84 ألف جنيه دفعها نقداً، وكانت حكايته قصة نجاح تجاري متواضع. ويجدر بنا أن نتذكر أن أقل من 15 في المئة من العائلات في بريطانيا كانت عام 1800 تحصّل دخلاً يزيد على 50 جنيهاً في السنة، وأن ربع هؤلاء كانوا يحصلون على أكثر من 200 جنيه في السنة[12].

غير أن صناعة القطن كانت تنطوي على فوائد أخرى؛ لقد كانت جميع المواد الخام اللازمة لها تفد من الخارج، وكان ممكناً تعزيز إمداداتها بفعل الإجراءات الجذرية المتاحة للرجل الأبيض في المستعمرات، مثل تشغيل الرقيق وفتح مناطق جديدة للفلاحة بدلاً من الاعتماد على الأساليب البطيئة المستخدمة في الزراعة الأوروبية. ولم تكن المصالح الخاصة لأصحاب المزارع الأوروبيين تعرقل سيرها[13]. فبعد التسعينات

(12) P. K. O'Brien, "Britisch Incomes and Property in the Early Nineteenth Century," *The Economic History Review*, 2nd Series, vol. XII (August 1959), p. 267.

(13) ظلت إمدادات ما وراء البحار من الصوف، على سبيل المثال، متدنية الأهمية خلال الفترة التي نعالجها كلها، ولم تصبح عاملاً مهماً إلا في السبعينات من القرن الثامن عشر.

من القرن الثامن عشر، تحولت إمدادات القطن البريطانية إلى الولايات الجنوبية الجديدة من الولايات المتحدة الأمريكية، وظلت تستمد الثروة منها حتى الستينات من القرن الثامن عشر. ومرة أخرى، تعرضت عملية التصنيع، ولا سيما في مجال الغزل، لأزمة تمثلت في نقص الأيدي العاملة الكفؤة الرخيصة، فاضطرت عندها إلى التحول إلى المكننة، وتضررت في المدى البعيد صناعة مثل صناعة الكتان التي تمتعت، أول الأمر، بحظ أفضل مما كان للقطن في التوسع الكولونيالي، جراء السهولة التي يمكن بها توسيع الإنتاج الرخيص غير المُمَكْنَن في مناطق الفلاحين الفقيرة التي ازدهرت فيها، (خاصة في أوروبا، وكذلك في إيرلندا). إن السبيل الواضح للتوسع الصناعي في سكسونيا ونورماندي، وإنجلترا في القرن الثامن عشر، لم يكن في تشييد المصانع، بل في تعزيز ما يسمى نظام "الانتشار" والتوزيع "المحلي" الذي أتاح للعمال الذين كانوا في الماضي حرفيين مستقلين أو فلاحين مستقلين أحياناً، عندما يتوفر لهم الوقت الكافي في الموسم الميت، تصنيع المواد الخام في بيوتهم باستخدام الأدوات التي يمتلكونها أو يستأجرونها، وهي المواد التي يسلمونها إلى التجار الذين كانوا في سبيلهم إلى أن يتحولوا إلى أرباب عمل ومستخدمين(14). والواقع أن أكثر التوسع في الإنتاج في كل من بريطانيا ومناطق العالم الأخرى المتقدمة اقتصادياً كان من هذا النوع في المرحلة الأولى من التصنيع. وحتى في صناعة القطن، فإن عمليات النسج قد اتسعت بعد استقدام مجموعات من النساجين الذين يستخدمون الأنوال اليدوية المحلية لتغذية نواة المغازل المكننة، حيث إن النول اليدوي البدائي كان أداة أكثر كفاءة

(14) يتخذ "النظام البيتي"، وهو المرحلة الأساسية الأولية في تحول عملية التصنيع وانتقالها من الإنتاج البيتي أو الحرفي إلى مرحلة الصناعة الحديثة، أشكالاً عديدة لا حصر لها، يقترب بعضها من نظام المصانع. وعندما يتحدث كاتب في القرن الثامن عشر عن أرباب التصنيع في أي من البلدان الغربية، فذلك هو ما يعنيه بالتحديد.

من دولاب الغزل (وبالمناسبة، كان النساجون في كل مكان يموتون ميتة متباطئة غير كريمة، ويتمردون أحياناً على المصير البائس الذي انتهوا إليه، بعد أن قررت الصناعة الاستغناء عن خدماتهم).

III

من هنا، فإن المنظور التقليدي لدراسة تاريخ الثورة الصناعية، انطلاقاً من صناعة القطن في المقام الأول، هو منظور صحيح؛ فقد كان القطن هو الصناعة الأولى التي تَثَوْرَنَتْ، ومن الصعب أن نتخيل قطاعاً آخر دفع جمهرة المبادرين بالمشروعات التجارية في القطاع الخاص إلى الثورة. كان القطن، حتى وقت متأخر هو الثلاثينات من القرن الثامن عشر، هو الصناعة البريطانية الوحيدة التي ساد فيها استخدام المصنع أو "المعمل" (وقد اشتق الاسم من المنشآت ما قبل الصناعية الواسعة الانتشار التي كانت تقوم بعملياتها عن طريق تشغيل الآلات الثقيلة بالطاقة)؛ وبدأ ذلك أول الأمر (1780 - 1815) أساساً في مجال الغزل والتمشيط وعدد قليل من عمليات المساندة، ثم أخذ بالتزايد المستمر في مجال النسيج بعد العام 1815. وحتى الستينات من القرن الثامن عشر، كانت "المعامل" التي شملها "قانون المصانع" الجديد تعتبر بصورة حصرية مصانع للنسيج، ومعامل للقطن، في أغلب الأحيان. وكان إنتاج المعامل في فروع النسيج يتميز بالبطء قبل أربعينات ذلك القرن، بل إنه لا يكاد يذكر في مراكز التصنيع الأخرى. فالمحرك البخاري الذي كان قد استخدم في صناعات عديدة أخرى بحلول عام 1815، لم يستعمل بصورة ملموسة إلا في المناجم التي كان لها دور الريادة في تشغيله. وعام 1830، كان مصطلحا "الصناعة" و"المصنع"، بالمعنى الحديث للكلمة، يستخدمان حصراً للدلالة على مناطق القطن في المملكة المتحدة.

ولا يعني ذلك انتقاصاً من قدر القوى التي أسهمت في الابتكار الصناعي في مجالات السلع الاستهلاكية، ولا سيما في صناعات النسيج

الأخرى[15]، والأغذية والمشروبات والفخار والخزف والأدوات المنزلية الأخرى. وقد ساعد الزحف الحضري المتسارع واتساع المدن على ذلك. إلا أن هذه المصانع كانت تستخدم أعداداً قليلة من العمال أول الأمر: ولم تبلغ أي من الصناعات مستوى العمالة المباشرة في صناعة القطن التي كانت عام 1833 تشمل مليوناً ونصف المليون من العاملين أو ممن يعتمدون عليهم[16]. من ناحية أخرى، كانت قدرة هذه المصانع والصناعات على التحويل متواضعة جداً؛ إن تخمير الجعة، الذي كان في أغلب نواحيه متقدماً ومُمْكَناً جداً من الوجهة التقنية والعملية، وحدثت فيه الثورة قبل القطن بوقت طويل، لم يترك غير أثر طفيف في البيئة الاقتصادية حوله. ويتجلى ذلك في حالة مُخمر جعة غينيس الشهيرة في دبلن؛ إذ بقي الوضع الاقتصادي في دبلن وإيرلندا (وليس الذوق المحلي) بعد إنشاء المصنع مثلما كان عليه قبل إنشائه[17]. إن الطلب على الاحتياجات المتصلة بصناعة القطن ـ مثل المزيد من البناء والنشاط في المناطق الصناعية الجديدة، والآلات، والإضاءة الصناعية، والشحن والكثير من الأنشطة الأخرى ـ كان كافياً، بحد ذاته، لتفسير جانب كبير من النمو الاقتصادي في بريطانيا حتى الثلاثينات من القرن الثامن عشر. ومن ناحية ثالثة، كان التوسع في صناعة القطن من الضخامة، ووزنه في تجارة بريطانيا الخارجية من الأهمية بحيث سيطرت هذه الصناعة على تحركات الاقتصاد بأكمله.

---

(15) نلاحظ سيطرة صناعة النسيج في جميع البلدان التي نشطت فيها مراكز التصنيع لأغراض التصدير إلى السوق؛ إذ كانت في سيليسيا (1800) تمثل 74 في المئة من قيمة المنتجات المصنعة كلها، انظر: Hoffmann, *The Growth of Industrial Economies*, p. 73.

(16) Edward Baines, *History of the Cotton Manufacture in Great Britain; with a Notice of its Early History in the East, and in all the Quarters of the Globe* (London: H. Fisher, R. Fisher and P. Jackson, [1835]), p. 431.

(17) Peter Mathias, *The Brewing Industry in England, 1700-1830* (Cambridge: University Press, 1959).

وارتفعت كمية القطن المستورد إلى بريطانيا من 11 مليون باوند [رطل] عام 1785 إلى 588 مليوناً عام 1850؛ وإنتاج القماش من 40 مليون ياردة إلى 2.025 ياردة[18]. وشكّل القطن المصنّع ما بين 40 و50 في المئة من قيمة الصادرات الإجمالية السنوية المعلنة لبريطانيا بين العام 1816 والعام 1848. وكان ازدهار القطن يعني ازدهار الاقتصاد، وركوده يمثل ركوداً اقتصادياً، كما كانت حركة أسعاره هي التي تحدد أوضاع الميزان التجاري للدولة. ولم يكن يضاهي القطن في قوته إلا الزراعة، مع أنها، هي الأخرى، كانت آخذة بالتراجع.

وعلى الرغم من أن التوسع في صناعة القطن وفي الاقتصاد الصناعي الذي كان القطن محوره الأساسي، كان أكثر مما يمكن أن يتصوره الخيال الرومنطيقي في جميع الأحوال[19]، إلا أن تقدم هذه الصناعة لم يكن يتسم بالسلاسة؛ فقد تبدّت بين الثلاثينات وأوائل الأربعينات من القرن الثامن عشر مشكلات النمو الكبيرة، ناهيك عن حالة من التململ الثوري لا مثيل لها في أية فترة من التاريخ البريطاني المتأخر. وقد تمثلت العثرة الأولى التي اعترضت سبيل الاقتصاد الرأسمالي الصناعي في التباطؤ الواضح في النمو، بل في التراجع الذي أصاب الدخل القومي البريطاني خلال تلك الفترة[20] غير أن هذه الأزمة الرأسمالية العامة لم تكن ظاهرة مقصورة على بريطانيا وحدها.

لقد تجلت أخطر تداعيات هذه الأزمة في الجانب الاجتماعي؛ فقد أدى الانتقال إلى الاقتصاد الجديد إلى حالة من البؤس والسخط، وهما

---

(18) Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892), p. 158.

(19) Baines, *History of the Cotton Manufacture in Great Britain; with a Notice of its Early History in the East, and in all the Quarters of the Globe*, p. 112.

(20) Phyllis Deane, "Estimates of the British National Income," *The Economic History Review* (April 1956) and (April 1957).

عنصرا الثورة الاجتماعية. وقد اندلعت الثورة الاجتماعية بالفعل على هيئة انتفاضات تلقائية في أوساط الفقراء في المناطق الحضرية والصناعية، ومهدت لثورات العام 1848 في القارة الأوروبية، وحركة "الميثاقيين" في بريطانيا. ولم يقتصر التذمر على الفقراء الكادحين، بل إن صغار رجال الأعمال، ومن لم يستطيعوا التكيف مع الأوضاع الجديدة، وصغار البورجوازيين، وقطاعات خاصة في الاقتصاد، كانوا من ضحايا الثورة الصناعية ومضاعفاتها. وكان رد الفعل في أوساط السُّذج من العمال على النظام الجديد الإقدام على تحطيم الآلات التي اعتبروا أنها المسؤولة عن متاعبهم. ومما يدعو إلى الاستغراب أن قطاعاً كبيراً من رجال الأعمال والمزارعين أبدى تعاطفاً عميقاً مع أنشطة العمال "اللودية" هذه؛ لأن أبناء هذا القطاع اعتبروا أنفسهم أيضاً من ضحايا الأقلية الشيطانية من المبتكرين الأنانيين. إن استغلال العمل، الذي خفض دخل العمال إلى مستوى الكفاف، ومكّن الأثرياء من تجميع الأرباح التي تموّل التصنيع (وتزيد من رفاهية التجار وراحتهم) قد أثار عداء البروليتاريا كذلك. كما تولَّد العداء لدى صغار التجار بسبب جانب آخر من تحويل الدخل القومي من الفقراء إلى الأغنياء، ومن الاستهلاك إلى الاستثمار. وربما كان كبار المولين، وهم الجماعة الضيقة من قابضي الأرصدة المحلية والأجنبية، مكروهين بين صغار رجال الأعمال والمزارعين وغيرهم أكثر مما كانوا مكروهين في أوساط العمال. لقد كان هؤلاء يتقاضون ما كان يدفعه الجميع من الضرائب؛ أي ما يعادل 8 في المئة من الدخل القومي بأكمله[21]، وكانوا يعرفون عن الأموال والاعتمادات ما يكفي لإثارة حفيظتهم الشخصية إزاء ما لحق بهم من ضرر. لقد كانت الأمور على ما يرام بالنسبة للأثرياء الذين كان بوسعهم أن يحصلوا على ما يريدون من الاعتمادات المالية،

(21) انظر الفصل الخاص بـ "الحرب"، الفصل الرابع من هذا الكتاب، انظر أيضاً:
O'Brien, "Britisch Incomes and Property in the Early Nineteenth Century," p. 267.

ويفرضوا سياسة التقليص والانكماش النقدي الصارم على الاقتصاد في أعقاب الحروب النابليونية. أما الإنسان العادي البسيط فهو الذي كان عليه أن يتحمل، ويطالب، في جميع البلدان والحالات خلال القرن التاسع عشر، بالاعتمادات اليسيرة والسياسات المالية غير المتشددة[22] وكان العمال والبورجوازيون الصغار المتذمرون على شفا السقوط في جرف المعوزين الذين لا يمتلكون شيئاً، فشاركوا، من ثم، في حالة التململ، فوحّد هؤلاء بدورهم بينهم وأدخلوهم في حركة الاحتجاج الجماعية "الراديكالية" و"الديمقراطية" والجمهورية التي كان "الراديكاليون" في بريطانيا، و"الجمهوريون" الفرنسيون و"الجاكسونيون" الأمريكيون أكثر زعامتها نفوذاً بين العام 1815 والعام 1848.

غير أن هذه المشكلات، من وجهة نظر الرأسمالية، لم تكن ذات أهمية لتقدم الاقتصاد إلا إذا استطاعت، بفعل حادث رهيب، أن تطيح النظام الاجتماعي. ومن ناحية أخرى، كانت العملية الاقتصادية، على ما يبدو، تعاني من عدد من مواطن الضعف الداخلية التي تهدد الحافز الأساسي للنظام، ألا وهو الربح. فإذا انخفض معدل الريع بالنسبة لرأس المال إلى الصفر، فإن على الاقتصاد الذي يعمل فيه العمال المنتجون لتحقيق الربح أن يتباطأ قليلاً ليستقر في "وضع ساكن" كان الاقتصاديون يتوقعونه ويخشونه[23]. كانت مواطن الضعف الثلاثة

---

(22) يمكن التعرف إلى جميع القائمين بحركات الاحتجاج بمن فيهم المزارعون وصغار المستثمرين، من النزعة الراديكالية في بريطانيا في مرحلة ما بعد نابليون حتى النزعة الشعبوية في الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال مطالبتهم بالسياسات المالية اللينة؛ لقد كانوا جميعاً من "المهووسين بالعملة".

(23) Joseph Alois Schumpeter, *History of Economic Analysis*, Edited from Manuscript by Elizabeth Boody Schumpeter (New York: Oxford University Press, 1954), pp. 570-571, and John Stuart Mill, *Principles of Political Economy*, Book IV, Chapter IV: =

الواضحة تتمثل في دائرة التجارة بين الازدهار والركود، وميل معدلات الربح إلى الهبوط، ثم قلة الفرص المتاحة للاستثمارات المربحة (التي تعني الأمر نفسه). ولم تكن النقطة الأولى ذات خطر، إلا في نظر نقاد الرأسمالية الذين كانوا أول من قام بتقصي الأمر واعتباره جزءاً لا يتجزأ من العملية الاقتصادية الرأسمالية ودليلاً على ما فيها من تناقضات ذاتية[24].

كان الجميع على علم بالأزمات الاقتصادية الدورية التي كانت تفضي إلى البطالة، وإلى انخفاض الإنتاج، وحالات الإفلاس وغيرها. وكانت مثل هذه الظواهر في القرن الثامن عشر تشير إلى كوارث زراعية على العموم (مثل فشل الحصاد وما إلى ذلك)، وظل تعثر الزراعة في القارة الأوروبية يعتبر السبب الأول للكساد الواسع الانتشار حتى نهاية الفترة التي نتناولها. كما شاعت الأزمات الدورية في قطاعات الاقتصاد التصنيعية والمالية الصغيرة، على الأقل في بريطانيا منذ العام 1973. وفي أعقاب الحروب النابليونية، كانت حالات الازدهار والانهيار المثيرة في الفترات 1825ـ1826، 1836ـ1837، 1842ـ1846، و1846ـ1848، تتحكم بصورة واضحة في الحياة الاقتصادية في بلد في حالة سلم. وفي

= "عندما تمتلك دولة ما إنتاجاً ضخماً ودخلاً صافياً كبيراً تستطيع أن تدّخر منه، وعندما تتوافر، بناء على ذلك، الوسائل الكفيلة لتحقيق إضافة سنوية إلى رأس المال، لمدة طويلة، فإن من الخصائص التي ستتميز بها تلك الدولة أن معدل الربح يكون، إذا جاز التعبير، قريباً من حدوده الدنيا في العادة، وتصبح الدولة بالتالي على حافة الحالة السكونية الثابتة .... وإذا لم تبرز ظروف تعارض آثار الزيادة السنوية الراهنة في رأس المال، فإن مجرد استمرار هذه الزيادة سيكون كافياً في سنوات قليلة لتخفيض معدل الربح الصافي (إلى الحد الأدنى)". إلا أن القوى المناوئة ـ المتمثلة في الموجة التنموية التي ولدتها السكة الحديدية ـ كانت قد تجلت للعيان.

(24) كان السويسري سيموند دو سيسموندي (Simonde de Sismondi)، ومالتوس (Malthus)، المحافظ المهتم بشؤون بلاده، أول من طرحوا حجتهم من هذا المنطلق، حتى قبل العام 1825. أما الاشتراكيون الجدد، فقد جعلوا نظرية ـ الأزمة التي تقدموا بها واحداً من مرتكزات نقدهم للرأسمالية.

أواخر الثلاثينات من القرن الثامن عشر (أي في العقد العظيم الأهمية من الفترة قيد البحث) جرى الإقرار على نحو غامض بأن هذه الأزمات تمثل ظواهر دورية منتظمة، وفي عالم التجارة والمال على الأقل[25]. غير أن رجال الأعمال كانوا في العادة يعتبرونها نتيجة لخطأ ما، مثل الغلو في المضاربة على الأسهم الأمريكية، أو للتدخل الخارجي في عمليات الاقتصاد الرأسمالي السلسة. ولم تكن في جميع الأحوال تعتبر دليلاً على صعوبات جوهرية في النظام نفسه.

ولم يكن الأمر على هذا النحو في تقلص هامش الربح الذي اتضح بشكل جلي في صناعة القطن. لقد أفادت هذه الصناعة أول الأمر من منافع عظيمة جمة؛ فالمكننة عززت مستوى الإنتاجية (أي خفضت كلفة الوحدة المنتجة) من جانب الأيدي العاملة التي كانت متدنية الأجور إلى درجة بغيضة، حيث إن أغلبها كان من النساء والأطفال[26]. وبين 12.000 عامل في مصانع القطن في غلاسغو عام 1833، كان 2000 عامل فحسب يتقاضون أجوراً تزيد على 12 شلناً. وفي 131 معملاً في مانشستر، كان متوسط الأجور يقل عن 12 شلناً، ولم يكن يزيد على

---

(25) John Wade, *History of the Middle and Working Classes*; Samuel Jones Loyd, *Reflections Suggested by a Perusal of Mr. J. Horsley Palmer's Pamphlet: On the Causes and Consequences of the Pressure on the Money Market* (London: P. Richardson, 1837), and James Wilson, *Fluctuations of Currency, Commerce and Manufactures; Referable to the Corn Laws* ([London: n. pb., 1840]).

"كما تجلت أيضاً في فرنسا في أعمال آ. بلانكي (A. Blanqui) (شقيق الثوري الشهير) عام 1837، وم. بريون (M. Briaune) عام 1840، وكذلك، بدون شك، في أعمال آخرين".

(26) في العام 1835، قدّر إ. بينز (E. Baines) معدل الأجور لدى العاملين في مجالي النسيج والغزل بعشرة شلنات في الأسبوع، مع احتساب عطلة غير مدفوعة الأجر لمدة أسبوعين في السنة، بينما كان متوسط الأجر لنساجي النول اليدوي سبعة شلنات في الأسبوع.

ذلك إلا في واحد وعشرين منها[27]. كما كان بناء المصانع رخيصاً نسبياً؛ ففي العام 1846، كان ممكناً بناء مصنع يضم 410 آلات، بما في ذلك كلفة الأرض والمنشآت، بكلفة تعادل 11.000 باوند/ جنيه[28]. والأهم من ذلك كله أن الكلفة الرئيسية (أي كلفة المادة الخام) كانت قد انخفضت انخفاضاً حاداً بفضل التوسع السريع في زراعة القطن في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن اخترع إيلي ويتني محلج القطن عام 1793. وإذا أضفنا إلى ذلك أن التجار المبادرين كانوا يتمتعون بفائدة إضافية ناجمة عن تضخم الأرباح (أي من ميل الأسعار على العموم إلى الارتفاع عندما كانوا يبيعون منتجاتهم أكثر من الفائدة التي يحصلون عليها عند صنعها)، فإننا سنفهم الأسباب التي غمرت فئات المنتجين بالسعادة.

بعد عام 1815، أخذت هذه الفوائد بالتناقص المطرد جراء تقلص هامش الربح؛ ففي بادئ الأمر، تضافرت الثورة الصناعية والمنافسة لإحداث تراجع مثير دائم في أسعار المنتجات الجاهزة، لا في التكاليف العديدة الأخرى للإنتاج[29]. من ناحية ثانية، كانت أجواء التسعير بعد العام 1815 تتسم بالانكماش لا بالتضخم؛ أي أن الأرباح، أخذت بالتراجع إلى درجة بسيطة، دون أن تبرز عوامل أخرى تساعد على

---

(27) Baines, *History of the Cotton Manufacture in Great Britain; with a Notice of its Early History in the East, and in all the Quarters of the Globe*, p. 441, and Andrew Ure and Peter Lund Simmonds, *The Cotton Manufacture of Great Britain Investigated and Illustrated*, 2 vols. (London: H. G. Bohn, 1861), pp. 390 ff.

(28) George White, *A Practical Treatise on Weaving*, Intended as a Text Book for Manufacturers by Hand and Power Looms and Power Loom Engineers (Glasgow: J. Niven, 1846), p. 272.

(29) M. Blaug, "The Productivity of Capital in the Lancashire Cotton Industry during the Nineteenth Century," *The Economic History Review*, vol. 13 (April 1961).

رفعها. ففي حين كان سعر رطل من الخيوط المغزولة 10 شلنات و11 بنساً عام 1784، كانت كلفة المواد الأولية اللازمة لها شلنين (أي بهامش قدره 8 شلنات و11 بنساً)؛ وكان السعر 11 شلناً وربع البنس، وكلفة المادة شلناً واحداً و6 بنسات (والهامش شلناً واحداً). وعام 1822، كان سعر المنتج 11 شلناً وربع البنس، وكلفة المادة 7 شلنات وربع البنس، وكان الهامش للتكاليف الأخرى والأرباح على هذا الأساس 4 بنسات فقط[30] وبالطبع، لم يكن هذا الوضع القائم في بريطانيا، بل في جميع الدول المتقدمة، مأساوياً بالنسبة للصناعة. وقد كتب أحد أساطين القطن ومؤرخيه في عبارة لا تظهر إلا جانباً من الحقيقة عام 1835: "إن الأرباح ما زالت كافية، وتسمح بتراكم ضخم لرأس المال لدى المنتجين"[31]. ومع تعاظم إجمالي المبيعات، تصاعد إجمالي الأرباح حتى في الأوقات التي تضاءلت فيها معدلات الربح. وكل ما كانت الحاجة تدعو إليه هو التوسع المستمر بحسابات فلكية. وعلى الرغم من ذلك، كان ضرورياً كبح التقلص في هوامش الربح أو إبطاؤه على الأقل، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بخفض التكاليف. ومن بين جميع التكاليف، فإن الأجور، التي قدّر ماكولوك أنها تعادل ثلاثة أضعاف كلفة المواد الخام في السنة، كانت هي المرشحة للتخفيض.

كان ممكناً ضغط الأجور بالاقتطاع المباشر منها، وباستبدال العمال المهرة المُكْلِفين بملاحظي الآلات الأرخص، وبالمنافسة بينهم وبين الآلات؛ وقد أدى هذا الأخير إلى تقليص متوسط الأجر الذي يتقاضاه نسّاج النول اليدوي في بولتون من 33 شلناً سنة 1795، و14 شلناً سنة

---

(30) Thomas Ellison, *The Cotton Trade of Great Britain: Including a History of the Liverpool Cotton Market and of the Liverpool Cotton Brokers' Association* (London: E. Wilson, 1886), p. 61

(31) Baines, *History of the Cotton Manufacture in Great Britain; with a Notice of its Early History in the East, and in all the Quarters of the Globe*, p. 356.

1815، إلى 5 شلنات وستة بنسات (وبعبارة أدق، إلى ربح صاف مقداره أربعة شلنات وبنس ونصف البنس) بين العام 1829 والعام 1834[32]. وقد انخفضت الأجور المالية بالفعل بصورة مطردة خلال المرحلة ما بعد النابليونية. غير أن هذه الاقتطاعات كانت تواجه حدوداً فيزيولوجية، إلا إذا أريد لهؤلاء العمال أن يتضوروا جوعاً، كما كانت الحال عليه بالنسبة لنحو نصف مليون من النساجين على النول اليدوي. ولم يكن ممكناً خفض الأجور إلى ما دون هذا الحد إلا إذا انخفضت كلفة المعيشة. وقد تبنى منتجو القطن الرأي القائل إن ما رفع كلفة المعيشة بطريقة اصطناعية كان الاحتكار الذي مارسه مُلّاك الأراضي لخدمة مصالحهم. كما تفاقم الوضع بفعل تعرفة الحماية الباهظة التي فرضها برلمان الملّاك وطوقوا بها الزراعة البريطانية في ما بعد فترة الحروب، وهي قوانين الذرة. ومن عناصر الضرر الأخرى التي انطوت عليها تلك الإجراءات أنها كانت تهدد النمو الأساسي للصادرات البريطانية. فإذا منعت مناطق أخرى من العالم غير المصنع بعد من بيع منتجاتها الزراعية، فكيف سيتسنى لها أن تسدد ثمن البضائع المصنعة التي تستطيع بريطانيا وحدها تزويدها؟ من هنا، أصبحت أنشطة مانشستر الاقتصادية مركزاً للمقاومة العنيفة المستميتة ضد مصالح ملّاك الأراضي عموماً، وقوانين الذرة بصورة خاصة، وغدت تمثل العمود الفقري لـِ "رابطة مناهضة قوانين الذرة" التي نشطت بين العام 1838 والعام 1846. غير أن قوانين الذرة لم تُلْغَ إلا عام 1846، كما أن إلغاءها لم يؤدِّ إلى خفض كلفة المعيشة بصورة فورية. وليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن استيراد المواد الغذائية من دون قيود كان سيؤدي إلى مثل هذا التخفيض قبل البدء بتشغيل السكة الحديدية والمحركات البخارية.

في ظل هذه الظروف، كانت الصناعة تتعرض لضغوط هائلة تدفعها إلى المكننة (أي إلى خفض الكلفة عن طريق الاقتصاد في

(32) انظر: المصدر نفسه، ص 489.

استخدام الأيدي العاملة)، وإلى ترشيد الإنتاج والمبيعات وتوسيعها، بما يعوض عن تقلص الهوامش من خلال تجميع الفوائد الصغيرة المتأتية من كل وحدة إنتاجية. وتباينت درجات النجاح في هذا المضمار، فقد شهدت مستويات الإنتاج والتصدير ارتفاعاً هائلاً، وتصاعد كذلك، بعد العام 1815، مستوى المكننة في المهن التي كانت حتى ذلك الحين يدوية أو شبه ممكننة، ولا سيما في مجال النسيج. واتخذ ذلك، بصورة أساسية، شكل التركيز على استخدام الآلات الموجودة أو المحسنة، لا تلك التي شملتها الثورة التقنية. وتعاظمت الضغوط بصورة ملموسة لتبني الابتكارات الفنية؛ فبين العام 1800 والعام 1820، سجلت تسع وثلاثون براءة اختراع جديدة في مجال غزل القطن وما يتصل به من أنشطة، وإحدى وخمسون براءة في عشرينات القرن الثامن عشر، وست وثمانون في الثلاثينات، ومئة وست وخمسون في الأربعينات منه[33] غير أن صناعة القطن البريطانية كانت بحلول الثلاثينات قد بلغت مرحلة الاستقرار التقاني. من جهة أخرى، وعلى الرغم من أن إنتاجية العامل الواحد قد ازدادت في الفترة ما بعد النابليونية، فإنها لم تبلغ حدوداً ثورية. أما التسارع الجدي للعمليات، فلم يحدث إلا في النصف الثاني من ذلك القرن.

كان ثمة ضغط مماثل على معدل الفائدة على رأس المال، وهو ما درجت النظريات المعاصرة على دمجه مع الأرباح. غير أن النظر في هذه المسألة سيفضي بنا إلى المرحلة القادمة من التنمية الصناعية ـ وهي بناء صناعة البضائع ـ الرأسمالية الأساسية.

IV

من الواضح أن أي اقتصاد صناعي لا يمكن أن ينمو بعد بلوغه

(33) Ure and Simmonds, *The Cotton Manufacture of Great Britain Investigated and Illustrated*, vol. 1, pp. 317 ff.

نقطة محددة إلا إذا توفرت له قدرة رأس المال السلعي المناسبة. ولهذا السبب، فإن المؤشر المفرد الأكثر وثوقاً لقياس الإمكانيات الصناعية لبلد ما، حتى في أيامنا هذه، يتمثل في كمية إنتاجه من الحديد والصلب. لكن من الواضح أيضاً أن تحمّل كلفة الاستثمار الرأسمالي الباهظة الضرورية للجانب الأكبر من التنمية، في ظل المشروعات التجارية الخاصة، لن يكون ممكناً للأسباب نفسها التي أدت إلى تصنيع القطن أو أية سلعة استهلاكية أخرى. فهناك سوق جماعية قائمة أو محتملة لهذه السلع؛ فحتى الناس البدائيون يرتدون القمصان أو يستعملون الأدوات المنزلية أو المواد الغذائية. وتنحصر المشكلة هنا في وضع سوق واسعة بما فيه الكفاية في متناول رجال الأعمال بالسرعة الكافية. إلا أنه ليست هناك سوق، على سبيل المثال، للمعدات الحديدية الثقيلة مثل الدعامات المعدنية. ولا تظهر هذه السوق إلا في سياق ثورة صناعية (لا عند بدئها). أما من يصبون أموالهم في استثمارات ضخمة يطلبها حتى مصنع متواضع للحديد (مقارنة بمعمل كبير للقطن) قبل ظهوره للعيان؛ فهم أقرب إلى المضاربين، والمغامرين والحالمين من رجال الأعمال المتبصرين. والواقع أن فئة من هؤلاء المضاربين المغامرين التقانيين في فرنسا، وهم السان سيمونيون[34]، عكفت عن الترويج والدعوة إلى هذا النوع من التصنيع الذي يتطلب استثمارات ضخمة طويلة الأمد.

وتتجلى مواطن القصور هذه بصورة خاصة في مجال التعدين، ولا سيما صناعة الحديد. فقد ازدادت قدرة هذا المجال بفضل عدد قليل من الابتكارات البسيطة مثل الحفر والبكرات في ثمانينات القرن الثامن عشر، غير أن الطلب غير العسكري عليها ظل متواضعاً نسبياً. أما الطلب العسكري، فقد كان ضخماً بما فيه الكفاية نتيجة لسلسلة من الحروب بين العام 1756 والعام 1815 وهي الحروب التي لم تخف حدتها

(34) انظر ص 332-333 و445-446 من هذا الكتاب.

إلا بعد معركة واترلو. إلا أنها لم تكن بالتأكيد من الضخامة بحيث تجعل من بريطانيا منتجاً بارزاً عظيم الأهمية للحديد. وقد تفوقت عام 1790 على فرنسا بنسبة أربعين في المئة أو نحو ذلك فقط. وعام 1800، لم يكن إنتاجها يعادل نصف إجمالي الإنتاج في القارة الأوروبية بأسرها، فبلغ، بمقاييس الفترات اللاحقة، رقماً متدنياً يقرب من ربع مليون طن من الحديد. وبدأت حصة بريطانيا من الإنتاج العالمي للحديد تتناقص في العقود التالية.

ويصدق ذلك، إلى حد بسيط لحسن الحظ، على المناجم التي تشمل مناجم الفحم في المقام الأول. ولم تقتصر مميزات الفحم على كونه المصدر الرئيسي للطاقة في مجال الصناعة، بل إنه كان الوسيلة الأساسية للوقود المنزلي، جراء النقص النسبي للغابات في بريطانيا. وقد أدى نمو المدن، ولا سيما لندن، إلى توسع سريع في نشاط مناجم الفحم منذ أواخر القرن السادس عشر. وبحلول مطلع القرن الثامن عشر، كان تعدين المناجم من الصناعات الحديثة البدائية، بل إنها كانت تستخدم أوائل المحركات البخارية (المصممة لأغراض مشابهة في استخراج المعادن غير الحديدية من المناجم، ولا سيما في كورنوول) لضخ الماء. من هنا، فإن مناجم الفحم لم تكن تتطلب أو تتعرض لثورة تقانية كبيرة خلال الفترة التي يتناولها هذا الكتاب. وكانت الابتكارات أقرب إلى التحسينات منها إلى التحولات في مضمون الإنتاج، غير أن قدراتها كانت هائلة، فلكية بالمقاييس العالمية. وقد تكون بريطانيا أنتجت عام 1800 قرابة عشرة ملايين طن من الفحم، أو نحو 90 في المئة من الإنتاج العالمي، بينما أنتجت منافستها الأقرب، فرنسا، أقل من مليون طن.

هذه الصناعة الجبارة، على الرغم من أنها لم تكن تتوسع بالسرعة اللازمة لتصنيع واسع النطاق بالمقاييس الحديثة، كانت ضخمة إلى حد يكفي لحفز الاختراع الرئيسي الذي قدر له أن يحدث التحول في

صناعات السلع الرأسمالية؛ أي السكة الحديدية. فالمناجم لم تكن تقتصر على طلب كميات ضخمة من المحركات البخارية ذات القوة العالية، بل استلزمت وجود وسائل كفؤة لنقل الكميات الهائلة من الفحم من قاع المنجم إلى فوهته، ثم، بشكل خاص، من رأس المنجم إلى نقطة الشحن. وقدّم "مسار القاطرة" أو "السكة الحديدية" الحلَّ المنشود؛ لقد كان جرّ تلك الشاحنات بوساطة المحركات أمراً مغرياً، ولم يكن قَطْرُها بالمحركات الثابتة فكرة غير عملية. كما تبين آخر الأمر أن كلفة نقل البضائع بالجملة برّاً ستكون باهظة إلى حد أدرك معه مُلاكُ المناجم في الحقول الداخلية أن استخدام وسائل المواصلات هذه على المدى القصير يمكن أن يُعمم ويوسّع للنقل عبر مسافات أطول. وكان الخط الممتد من حقول المناجم الداخلية في دَرام إلى الساحل (ستوكتون ـ دارلينغتون 1825) هو أول خطوط السكة الحديدية الحديثة. ومن الوجهة التقنية تعتبر السكة الحديدية وليدةَ المنجم، ولا سيما منجم الفحم في شمال إنجلترا. وقد بدأ جورج ستيفنسون (George Stephenson) حياته ملاحظَ محرك بخاري في تاينسايد، وظل أكثر سائقي القاطرات البخارية يُستخدَمون من حقل المناجم في موطنه الأصلي سنوات عديدة.

لم يكن في الثورة الصناعية ابتكارٌ ألهب الخيال مثل السكة الحديدية. ويتجلى ذلك في أنه المنتَج الوحيد في القرن التاسع عشر الذي تم استيعابه في صور الشعر الشعبي والقصائد الأدبية على حد سواء. وما إن ثبتت صلاحيتها الفنية وجدواها الربحية في إنجلترا (بين العام 1825 والعام 1830 تقريباً) حتى كانت الخطط قد وضعت لبنائها في أكثر أرجاء العالم الغربي، مع أن تنفيذها تأخر بصورة عامة. فقد مُدّت خطوط السكة الحديدية الأولى في الولايات المتحدة (1827)، ثم فرنسا (1828 و1835)، وألمانيا وبلجيكا (1835)، وحتى في روسيا (1837). ولا شك في أن السبب في ذلك هو أن أياً من المخترعات الأخرى لم يكشف للإنسان العادي سرعة العصر الجديد وقوته بهذا القدر من الإثارة؛ وزادت من وقع هذا الكشف درجة النضج الفنية المشهورة التي

تجلت حتى في الأنواع المبكرة للسكة الحديد؛ فالسرعة البالغة ستين ميلاً في الساعة، على سبيل المثال، كانت كافية وعملية تماماً في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، ولم تزد كثيراً على ذلك في القاطرات التي بدأ تشغيلها في وقت لاحق. لقد كانت القاطرة رمزاً مدهشاً لانتصار الإنسان عبر التقانة؛ إذ كانت بألسنة الدخان الأفعوانية الضخمة المنبعثة منها، تشق طريقها بسرعة الريح عبر البلدان والقارات، وتمتد وتنتشر تحتها وعلى جانبيها الأرصفة والمنصات والمعابر والجسور والمحطات التي تشكل بمجموعها سلسلة من المباني العامة التي تتضاءل أمام امتدادها الأهرامات، وقنوات المياه الرومانية، وحتى سور الصين العظيم.

والواقع أن الكلفة الباهظة للسكة الحديد كانت، من الوجهة الاقتصادية، ميزتها الرئيسية. ولا شك في أن قدرتها على اختراق أقطار معزولة عن أسواق العالم آنذاك جراء ارتفاع كلفة النقل، والزيادة الكبيرة في السرعة والحجم لنقل الناس والبضائع برّاً، كانت ستكتسب أهمية بالغة في المدى البعيد. غير أنها، من الناحية الاقتصادية، كانت أقل أهمية عام 1848: خارج بريطانيا لقلة خطوط السكة الحديدية، وفي بريطانيا لأن مشكلات النقل كانت، لأسباب جغرافية، عسيرة الحل في البلدان التي لم تكن لها منافذ بحرية[35]. وبالنسبة لدارس التنمية الاقتصادية، فإن شهية السكة الحديدية الشديدة للحديد والفولاذ، وللفحم، وللمعدات الثقيلة، وللأيدي العاملة، وللاستثمار الرأسمالي، كانت كلها في تلك المرحلة أكثر أهمية. فقد وفرت الطلب الضخم اللازم لإحداث تحول عميق في صناعات السلع الرأسمالية يماثل ما حدث في صناعة القطن. وخلال العقدين الأولين من عمر السكة الحديدية (1830ـ1850)، ارتفع إنتاج بريطانيا من الحديد من 680 ألف

(35) لا تبعد أية نقطة عن البحر في بريطانيا أكثر من 70 ميلاً. وكانت جميع المناطق الصناعية الرئيسية في القرن التاسع عشر، باستثناء واحدة، إما على ساحل البحر أو على مقربة منه.

طن إلى مليونين ومئتين وخمسين ألف طن؛ أي أنه تزايد ثلاثة أضعاف. كما تضاعف ثلاث مرات إنتاج الفحم من 15 مليون طن إلى 49 مليوناً. ويعود هذا الارتفاع المثير إلى خطوط السكة الحديدية بالدرجة الأولى، حيث كان كل ميل واحد من السكة يتطلب 300 طن من الحديد لمد القضبان فقط[36]. وتلت ذلك في العقود اللاحقة بالطبع أشواط من التقدم الصناعي الذي جعل إنتاج الحديد بالجملة أمراً ممكناً.

تكمن أسباب هذا التوسع المفاجئ، الضخم، الجوهري، على ما يبدو في فورة الحماس غير العقلاني الذي أصاب رجال الأعمال والمستثمرين ودفعهم إلى إقامة المزيد من الخطوط. ففي العام 1830، لم تكن ثمة إلا عشرات من الأميال من خطوط السكة الحديدية في العالم بأسره وقد امتد أكثرها على الطريق بين ليفربول ومانشستر. وارتفع هذا الرقم إلى 4,500 ميل عام 1840، وإلى 23,500 ميل بحلول العام 1850. وعرض أكثر هذه الخطوط في السوق في عدة فورات من المضاربة المحمومة عرفت باسم "لوثة السكة الحديدية" بين العام 1835 والعام 1837، وبصورة خاصة بين العام 1844 والعام 1847. وأقيم أكثر هذه الخطوط برأسمال بريطاني، وحديد بريطاني، ومعدات وخبرات بريطانية[37]. وكانت فورات الاستثمار هذه غير عقلانية؛ لأن عدداً قليلاً من خطوط السكة الحديدية كان في الواقع أكثر ربحاً بالنسبة للمستثمرين من مشروعات تجارية أخرى. وقد جلب أكثرها أرباحاً

(36) John Harold Clapham, *An Economic History of Modern Britain*, 3 vols. (Cambridge: The University Press, 1926-38), pp. 427 ff; Mulhall, *The Dictionary of Statistics*, p. 121 and 132, and Michael Robbins, *The Railway Age* (London: Routledge and Paul, [1962]), pp. 30-31.

(37) في العام 1848، كان ثلث رأس المال المستثمر في خطوط السكة الحديدية الفرنسية بريطانياً. انظر: Rondo Emmett Cameron, *France and the Economic Development of Europe 1800-1914; Conquests of Peace and Seeds of War* (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 196), p. 77.

متواضعة، ولم يحقق عدد كبير منها أية أرباح على الإطلاق؛ ففي العام 1855، كان معدل المردود بالنسبة لرأس المال المستثمر في السكة الحديدية البريطانية مجرد 3.7 بالمئة. ولا ريب في أن المروجين والمضاربين وأشخاصاً آخرين قد جنوا من ذلك مكاسب طائلة، غير أن نصيب المستثمر العادي كان مختلفاً. وعلى الرغم من ذلك، فقد استثمر نحو 28 مليون جنيه/ باوند بحلول العام 1840، ونحو 240 مليوناً عام 1850 على أمل تحقيق الربح[38].

ولماذا؟ إن الحقيقة الأساسية الماثلة عن بريطانيا خلال الجيلين الأولين من الثورة الصناعية هي أن الطبقات الثرية الميسورة كدّست بسرعة بالغة أرصدة عالية من الدخل تفوق جميع الاحتمالات المتاحة للإنفاق والاستثمار (كان الفائض القابل للاستثمار يقرب من 60 مليون جنيه/ باوند في أربعينات القرن التاسع عشر)[39]. ولا شك في أنه كان بوسع المجتمعات الإقطاعية والأرستقراطية أن تبدد الكثير من المال في العيش الباذخ، والمباني الفخمة والأنشطة غير الاقتصادية الأخرى[40]. فحتى في بريطانيا، خلّف دوق ديفونشير السادس (Duke of Devonshire)، الذي كان يتمتع بدخل سخيّ، لورثته ديوناً بلغت مليون جنيه في أواسط القرن التاسع عشر (وسددها هؤلاء باقتراض مليون ونصف المليون من الجنيهات شاركوا بجانب منها في أنشطة عمرانية وعقارية باهظة الكلفة)[41]، غير أن القطاع الأكبر من أبناء

---

(38) Mulhall, *The Dictionary of Statistics,* p. 497 and 501.

(39) Leland Hamilton Jenks, *The Migration of British Capital to 1875* (New York and London: A. A. Knopf, 1927), p. 126.

(40) إن مثل هذا الإنفاق يحفز الاقتصاد بالطبع، ولكن بأسلوب لا يتميز بالكفاءة على الإطلاق، وبطريقة لا تخدم النمو الصناعي.

(41) David Spring, "The English Landed Estate in the Age of Coal and Iron: 1830-1880," *The Journal of Economic History*, vol. 11, no. 1 (1951).

الطبقات الوسطى الذين كانوا يمثلون جمهرة المستثمرين الرئيسيين كانوا يعدلون عن الاستثمار ويميلون إلى الادخار، مع أن ثمة مؤشرات عديدة إلى أنهم كانوا من الثراء، بحلول العام 1840، بحيث يقدمون هم أيضاً على الإنفاق في مجال الاستثمار. وأصبحت زوجة الواحد منهم تحمل لقب "سيدة/ ليدي" بعد أن تدرس التعليمات وأصول السلوك الواردة في كتيبات الإتيكيت التي تضاعفت طبعاتها في تلك الفترة، وأصبحت الكنائس الصغيرة الملحقة بمنازلهم تبنى وفق الطراز الفاخر الباذخ الكلفة. بل إنهم أخذوا يحتفلون بالمجد الجماعي الذي حققوه ببناء القاعات القبيحة في مراكز البلديات والأنصاب المدنية الشنيعة التي تحاكي الطراز الغوطي أو أسلوب عصر النهضة، وهي التي سجل مؤرخو البلديات باعتزاز كلفتها الباهظة[42].

وفي المجتمعات الاشتراكية أو مجتمعات الرفاه الحديثة، يوزَّع جانب من هذه التراكمات الضخمة، من دون شك، لأغراض اجتماعية. غير أن ذلك كان مستبعداً تماماً في الفترة التي نتناولها. وفي تلك الأثناء، استمرت الطبقة الوسطى، التي كانت معفاة من الضرائب تقريباً، في تكديس الدخل وسط جمهرة الجياع من الناس. وكان التراكم في هذا الجانب يقابل الجوع في ذلك. وبما أن أبناء الطبقة الوسطى هؤلاء لم يكونوا مزارعين يخبئون مدخراتهم في الجوارب الصوفية أو على شكل أساور ذهبية، فقد كان عليهم أن يجدوا مجالات لاستثمار أموالهم بصورة مربحة. وأين يمكنهم ذلك؟ إن الصناعات القائمة آنذاك، على سبيل المثال، كانت زهيدة الكلفة بحيث إنها كانت عاجزة عن استيعاب جانب بسيط من الفائض المتاح للاستثمار. وحتى لو افترضنا أن حجم

---

(42) لم توقف بعض المدن التي واصلت تقاليد القرن الثامن عشر تشييد المباني العامة، غير أن حاضرة صناعية جديدة نموذجية مثل بولتون في لانكشير لم تقم بإنشاء مبان باذخة غير نفعية قبل العامين 1847 و1848. انظر: James Clegg, *A Chronological History of Bolton* ([n. p.: n. pb., 1876]).

صناعة القطن سيتضاعف، فإن الكلفة الرأسمالية ستظل غير قادرة على امتصاص جزء زهيد من هذه الأموال. وكان المطلوب إذن قطعة ضخمة من الإسفنج قادرة على امتصاص الفائض بأكمله[43].

كان الاستثمار الأجنبي واحداً من المجالات الممكنة. وكانت بلدان العالم الأخرى تواقة للحصول على قروض غير محدودة؛ وفي مقدمة هذه البلدان الحكومات القديمة التي كانت تسعى لاستعادة توازنها بعد الحروب النابليونية، والجديدة التي تهافتت على الاقتراض لأغراض غير محددة. وكان المستثمر الإنجليزي مستعداً للإقراض الفوري. غير أن القروض الأمريكية الجنوبية التي كانت واعدة في عشرينات القرن التاسع عشر، والقروض الأمريكية الشمالية التي خطت خطواتها الأولى في ثلاثينات القرن كانت، في أغلب الأحيان، حبراً على ورق، وقصاصاتٍ مهملةً عديمة القيمة؛ فمن أصل خمسة وعشرين قرضاً حكومياً بيعت بين العام 1818 والعام 1831، أصبح ستة عشر من هذه القروض عام 1831 ديوناً فاسدة لا تُستوفى (بما فيها قيمتها البالغة عند الإصدار 42 مليون جنيه). وكان المستثمر سيتقاضى عن هذه القروض، نظرياً، ما يتراوح بين سبعة وتسعة في المئة، غير أنه لم يتقاضَ، في واقع الأمر، أكثر من ثلاثة وواحد من عشرة في المئة. وكانت أمثال هذه التجارب مخيبة للآمال، خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار أن القروض اليونانية ذات الخمسة في المئة في العامين 1824 و1825 لم تبدأ دفع أية فوائد عنها على الإطلاق إلا في سبعينات القرن[44]. من هنا، كان من الطبيعي أن يبحث رأس المال المتدفق من بريطانيا إلى الخارج في فورات المضاربة عام 1825، وبين العام 1835 والعام 1837 عن مجالات أقل خطراً.

---

(43) قدّر ماكولوك إجمالي رأس المال ـ الثابت والعامل ـ لصناعة القطن بنحو 34 مليون جنيه عام 1833، و47 مليون جنيه عام 1845.

(44) Albert H. Imlah, "British Balance of Payments and Capital Export of 1816-1913," *The Economic History Review*, 2nd Series, vol. V (1952), p. 24.

وقد ألقى جون فرانسيس (John Francis) نظرة على أيام لوثة المضاربة عام 1851، فوصف الرجل الثري الذي "رأى تراكم الثروة الذي كان بالنسبة للصناعيين يتجاوز حدود أنماط الاستثمار العادية دائماً إذا ما أُحسن استخدامه بطريقة قانونية منصفة. لقد رأى المال الذي كان، في مطلع شبابه، يُستثمَر في قروض الحرب أو يهدر، عندما اكتملت رجولته، في مناجم أمريكا الجنوبية، وشق الطرق، واستخدام الأيدي العاملة، وفي توسيع الأعمال التجارية. وكان امتصاص ("السكة الحديدية") لرأس المال يتم، عند نجاحه، في البلد الذي أُنتج فيه. وخلافاً لما كانت عليه الحال في المناجم الأجنبية والقروض الأجنبية، فإن رؤوس الأموال هذه لم تكن تتلاشى أو تغدو عديمة القيمة"[45].

والتساؤل عما إذا كانت تلك الأموال ستجد أشكالاً أخرى من الاستثمار المحلي، كالبناء مثلاً، ليس أكثر من مسألة نظرية، وما تزال الإجابة عنها قضية تحتمل النظر. لقد وجدت في واقع الأمر السكة الحديدية التي لم يكن معقولاً بناؤها بهذه السرعة وبهذا الاتساع بغير رؤوس الأموال التي كانت تتدفق وتصب فيها، ولا سيما في أواسط الأربعينات من القرن التاسع عشر. وكانت نقطة التقاطع هذه مصادفة سعيدة؛ ذلك أن السكة الحديدية تمكنت، دفعة واحدة، من حل جميع المشكلات التي ينطوي عليها النمو الاقتصادي.

---

(45) John Francis, *A History of the English Railway, Its Social Relations and Revelations, 1820-1845* (London: Longman, Brown, Green and Longmans, 1851), vol. 2, p. 136; Henry Tuck, *The Railway Shareholder's Manual*, 7th Ed. (London: E. Wilson, 1846), Preface, and Thomas Tooke, *A History of Prices and of the State of the Circulation, from 1793 to 1837*, vol. II, pp. 275 and 333-334:

عن الضغوط التي مارستها الفوائض التراكمية في لانكشير على السكة الحديدية .

V

إن تتبع زخم التصنيع يمثل جانباً واحداً من مهمات المؤرخ. أما الجانب الآخر، فهو استقصاء حشد الموارد الاقتصادية وإعادة استخدامها، وتكيف الاقتصاد والمجتمع اللذين كانا مطالبين بالمحافظة على المسار الثوري الجديد.

كانت قوى العمل هي العامل الأول، وربما الأخطر، الذي كان من الضروري حشدُه وإعادة استخدامه. فالاقتصاد الصناعي يعني انخفاضاً حاداً لا تناسب فيه مع حجم القطاع الزراعي من السكان (أي القطاع الريفي)، وارتفاعاً حاداً في القطاع غير الزراعي (أي تزايد القطاع الحضري)، كما يعني، بصورة مؤكدة تقريباً (كما هي الحالة في الفترة التي تغطيها هذه الدراسة) تزايداً عاماً متسارعاً في عدد السكان. وبالتالي، فإن من شأن ذلك أن يؤدي إلى ارتفاع حادٍ في توفير الغذاء، ومن الزراعة البيتية بصورة أساسية؛ أي أنّ الأمر يتطلب "ثورة زراعية"[46].

إن النمو السريع للبلدات والمستوطنات غير الزراعية في بريطانيا قد أسهم بالطبع، ولمدة طويلة، في حفز الزراعة. وكانت الزراعة، لحسن الحظ، متدنية الكفاءة في الأشكال ما قبل الصناعية، حتى إن تحسينات قليلة بسيطة، مثل إيلاء بعض الاهتمام الواعي بتربية المواشي، وتدوير المحاصيل، وتسميد المزارع والاهتمام بتنظيمها، أو بزراعة محاصيل جديدة، كانت كفيلة بإنتاج مردود كبير لا مثيل له. وقد سبق هذا التغيّرُ الزراعي الثورةَ الصناعية، ومهد الطريق للمراحل الأولى من تزايد السكان المتسارع. واستمر الزخم في اندفاعه قدماً، مع أن المزارع

(46) قبل عصر السكة الحديدية والسفينة البخارية، أي قبل نهاية الفترة التي يعالجها هذا الكتاب، كانت إمكانيات استيراد كميات ضخمة من المواد الغذائية محدودة. ومع ذلك، أصبحت بريطانيا منذ الثمانينات من القرن الثامن عشر مستورداً صافياً للغذاء بصورة عامة.

البريطانية قد تضررت كثيراً بفعل الكساد الذي أعقب الكلفة الخيالية الباهظة للحروب النابليونية. وربما كانت التغيرات التي جرت آنذاك، من ناحية التقانة والاستثمار الرأسمالي، متواضعة إلى حد كبير، حتى الأربعينات من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي يمكن القول إن العلوم الزراعية والهندسية قد بلغت فيها مرحلة البلوغ والنضج. والزيادة في الإنتاج، التي مكنت المزارع البريطانية في الثلاثينات من ذلك القرن من توفير 98 بالمئة من الحبوب لسكان زادوا مرتين أو ثلاث مرات عما كانوا عليه في أواسط القرن الثامن عشر[47]، لم يكن لها أن تتحقق لو لم تتضافر عدة عوامل كان من أبرزها تبني المناهج التي ارتادت آفاقاً جديدة في القرن الثامن عشر، والترشيد، والتوسع في المناطق المفلوحة.

وقد أنجز ذلك كله، بدوره، بفعل تحولات اجتماعية لاتقنية: عن طريق تصفية الفلاحة الجماعية المتحررة من القرون الوسطى، التي تمثلت بالحقول المفتوحة والمراعي المشاع (أي "حركة الإغلاق")، والزراعة التي يمارسها الفلاحون لتحقيق الاكتفاء الذاتي، والمواقف التقليدية غير التجارية من الأرض. وبفضل التطور التمهيدي الذي حصل بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، فإن مشكلة الزراعة حُلَّت حلاً جذرياً فريداً، بأقل قدر من المتاعب، وغدت بريطانيا بذلك بلداً يضم عدداً قليلاً من كبار ملاّك الأراضي، وعدداً معتدلاً من المزارعين المستأجرين التجاريين، وعدداً ضخماً من العمال المأجورين. وقد أنجزت هذه التطورات، برغم مواقف المعارضة المتفرقة التي لم تقتصر على فقراء الريف المستائين، بل شملت وجهاء الريف المتشبثين بالتقاليد. إن "نظام سبينهاملاند" لغوث الفقراء الذي تبناه الوجهاء والقضاة بصورة تلقائية في عدة مقاطعات قبل سنة المجاعة عام 1795 وبعدها، قد اعتبر آخر محاولة منظمة لحماية المجتمع الريفي القديم من تأكل الدخل النقدي[48].

---

(47) Mulhall, *The Dictionary of Statistics*, p. 14.

وكانت "قوانين الذرة" التي حاولت المصالح الزراعية أن تحمي بها الزراعة من أزمة ما بعد العام 1815، على الرغم من التقاليد الاقتصادية المتبعة، في جانب منها، بياناً ضد النزوع إلى التعامل مع الزراعة باعتبارها صناعة يمكن الحكم عليها وفق معايير الربح وحدها، كغيرها من الأنشطة. غير أن هذه الحركات كانت عمليات يائسة في الخطوط الخلفية ضد دخول الرأسمالية بصورة نهائية في المناطق الريفية؛ وقد منيت آخر الأمر بالهزيمة أمام التقدم الجذري الذي حققته موجة الطبقة الوسطى بعد العام 1830 بإصدار "قانون الفقر" الجديد عام 1834، وإلغاء قوانين الذرة عام 1846.

من ناحية الإنتاجية الاقتصادية، حقق هذا التحول الاجتماعي نجاحاً باهراً. أما من زاوية المعاناة الإنسانية، فقد آل الأمر إلى فاجعة زاد من وقعها الكساد الذي أصاب القطاع الزراعي بعد العام 1815، وجرَّ البؤس واليأس على فقراء الريف. بل إن واحداً من الدعاة المتحمسين للإغلاق والتقدم الزراعي، هو آرثر يونغ، قد تأثر كل التأثُّر بالعواقب الاجتماعية لهذا التحول[49]. إلا أن هذا التحول ترك آثاراً حميدة على عملية التصنيع؛ فالاقتصاد الصناعي يحتاج إلى الأيدي العاملة التي كانت تجيء من القطاع غير الصناعي السابق. وكان السكان الريفيون في الداخل، أو الوافدون المهاجرون من إيرلندا بصورة خاصة أهم المصادر للقوى العاملة، بالإضافة إلى شتى صغار المنتجين والكادحين الفقراء[50].

---

(48) يكفل هذا النظام معاشاً للفقراء عن طريق تقديم الدعم عند الضرورة. ومع أن النظام كان يتسم أول الأمر بحسن النوايا، غير أنه أدى آخر الأمر إلى زيادة درجة الإعواز بين الفقراء.

(49) *Annals of Agriculture*, vol. XXXVI, p. 214.

(50) ثمة من يرى أن الأيدي العاملة لا تأتي من هذه المصادر، بل من الزيادة الإجمالية المتسارعة للسكان. غير أن وجهة النظر هذه تجانب الصواب؛ ففي الاقتصاد الصناعي، ينبغي أن لا تقتصر الزيادة الحادة على الأعداد في قوة العمل غير الزراعية، بل على النسبة. ويعني ذلك أن الرجال والنساء الذين كانوا سيبقون في القرى ويعيشون كما عاش أجدادهم، يجب=

ولا بد من أن تجتذب المهن الجديدة الرجال، بل لا بد من إرغامهم على ذلك إذا كانوا يتمتعون بالمناعة ضد هذه المغريات أول الأمر ويعتزمون، كما كانوا على الأغلب، الاستمرار في أسلوب حياتهم التقليدي(51). إلا أن الأعباء الاقتصادية والاجتماعية كانت الدافع الأكثر فاعلية؛ وكانت الأجور المرتفعة ومساحة الحرية التي توفرها حياة البلدة هي الجزرة التكميلية. وكانت القوى الساعية إلى تحرير الرجال من مرتكزاتهم التاريخية الاجتماعية ما تزال آنذاك ضعيفة نسبياً، لأسباب مختلفة، مقارنة بما أصبحت عليه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولم يكن مقدراً للهجرة الواسعة أن تحدث إلا بفعل الكوارث المثيرة التي أصبحت شائعة بعد العام 1850 مثل المجاعة في إيرلندا التي دفعت نحو مليون ونصف المليون من أصل ثمانية ملايين ونصف المليون من الإيرلنديين إلى الهجرة بين العام 1835 والعام 1850. وعلى الرغم من ذلك، كانت هذه القوى أقوى في بريطانيا مما كانت عليه في فرنسا. ولولا ذلك، لتعثرت مسيرة التنمية الصناعية في بريطانيا كما تعثرت في فرنسا بسبب الاستقرار والارتياح النسبي في أوساط المزارعين وصغار البرجوازيين، مما حرم الصناعة من اجتذاب الأيدي العاملة المطلوبة(52).

بيد أن اجتذاب أعداد كافية من العمال يظل أقل أهمية من اجتذاب قوة عمل كافية تتمتع بالمؤهلات والمهارات اللازمة. وتبين لنا تجربة القرن

= أن ينتقلوا إلى منطقة أخرى في مرحلة ما من حياتهم. ويعود ذلك إلى أن البلدات تنمو بأسرع من معدل التزايد السكاني بينهم، وكان أبطأ مما كان عليه المعدل في القرى في جميع الأحوال. وهذا هو الحال، سواء بدأ السكان المزارعون بالتناقص، أم أخذت أعدادهم بالاستقرار، أو بالتزايد.

(51) Wilbert Ellis Moore, *Industrialization and Labor. Social Aspects of Economic Development*, Studies of the Institute of World Affairs (Ithaca; New York: Cornell University Press, 1951).

(52) كان على بريطانيا، بدلاً من ذلك، أن تعتمد مثل الولايات المتحدة، على الهجرة الواسعة. والواقع أن بريطانيا اعتمدت جزئياً على هجرة الإيرلنديين.

العشرين أن حل هذه المشكلة الحرجة قد ازداد صعوبة. إن على جميع العمال، أول الأمر، أن يتعلموا كيفية العمل بأسلوب يناسب الصناعة؛ أي إيقاع العمل اليومي المنتظم المتواصل الذي يختلف تماماً عن عمل المزارع الخاضع للتقلبات الموسمية، أو عمل الحرفي المستقل المؤلف من أجزاء متفاوتة متقطعة. كما أن على العمال أن يتعلموا التجاوب مع الحوافز المالية. لقد كان أرباب العمل البريطانيون آنذاك يشكون على الدوام، مثلما يشكو نظراؤهم في جنوب أفريقيا اليوم، من "كسل" العمال أو من ميلهم إلى أن يعملوا ويتقاضوا أجراً يكفي لسد احتياجاتهم المعيشية مدة أسبوع واحد يتركون بعده العمل. وقد وجد المستخدمون آنذاك حلاً لهذه المشكلة في نظام تأديبي انضباطي صارم (يشتمل على الغرامات، وتأكيد علاقة السيد ـ الخادم باستخدام القانون لمصلحة رب العمل)، وفي ممارسة أخرى أهم من ذلك كله هي دفع أجر قليل، حيثما أمكن، للعامل بحيث يضطر للعمل المستمر طوال الأسبوع ليتمكن من تحصيل الحد الأدنى من الدخل[53]. وفي المعامل التي كانت فيها مشكلة الانضباط في العمل أكثر إلحاحاً، وجد أرباب العمل أن الأنسب لهم استخدام النساء والأطفال الأكثر طواعية الأقل كلفة. فقد كان نحو ربع العاملين في مصانع القطن الإنجليزية بين العام 1834 والعام 1847 من الرجال البائعين، وأكثر من نصف عددهم من النساء والفتيات، والباقون من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثماني عشرة سنة[54]. ولضمان انضباط العمل، انتشرت ممارسات أخرى تعكس الحجم الصغير والطابع المجزأ للمراحل الأولى من عملية التصنيع، وكان بينها التأجير من الباطن؛ أي اعتبار العامل الماهر هو

---

(53) انظر ص 371-373، الفصل العاشر من هذا الكتاب.

(54) Blaug, "The Productivity of Capital in the Lancashire Cotton Industry during the Nineteenth Century," p. 368.

على الرغم من ذلك، طرأ انخفاض حاد على عدد الأطفال ممن هم دون الثالثة عشرة في ثلاثينات القرن التاسع عشر.

رب العمل للعمال غير المهرة العاملين معه. ففي صناعة القطن، على سبيل المثال، كان نحو ثلثي الأولاد، وثلث البنات، يعملون "مستخدَمين تحت إمرة المشغلين" مباشرة، مما أخضعهم لمراقبة أشد. وانتشرت هذه الترتيبات بصورة أوسع خارج المصانع، وكان الحافز المالي هو الذي يدفع المستخدِم الفرعي هذا إلى تشديد الرقابة على من يعملون تحت إشرافه للحؤول بينهم وبين التراخي في عملهم.

كان الأمر الأكثر صعوبة يتمثل في توظيف أو تدريب أعداد كافية من العمال المهرة أو المدربين فنياً. وعلى الرغم من أن بعض الحرف، مثل البناء، استمرت من دون تغيير من الناحية العملية، إلا أن نسبة قليلة من المهارات ما قبل الصناعية كانت نافعة في الصناعة الحديثة. وأدى التصنيع الخفيف الذي شهدته بريطانيا عبر القرون التي سبقت العام 1789، لحسن الحظ، إلى تراكم مخزون واسع من المهارات المناسبة، في أساليب النسج ومعالجة المعادن على السواء. وهكذا أصبح القَفّال، وهو من الحرفيين القلائل الذين يتقنون التعامل الدقيق مع المعادن، هو السَّلَف لصانع الآلات في القارة الأوروبية، وكثيراً ما كان يعطيه اسماً ما. أما في بريطانيا، فقد تولى هذا الدور مشغل الآلة، أو "المهندس" أو "مهندس الآلة" (الذي برز داخل المناجم وخارجها). ولم يكن من قبيل المصادفة أن لقب "مهندس" يطلق على كل من عامل التعدين الماهر، والمصمم، والمخطط. وكان أكثر العاملين التقنيين من ذوي المراتب العليا يستخدمون من بين هؤلاء الرجال المهرة في النواحي الآلية الذين يعتمدون على أنفسهم. والواقع أن التصنيع البريطاني اعتمد على مصدر المهارات المتقدمة هذا الذي لم يكن يخضع لأي تخطيط مسبق. ولم يكن ذلك متوفراً للتصنيع القارّي؛ وذلك ما يفسر الإهمال الصارخ للتعليم العام والفني في هذا البلد الذي سيتحمل كلفته في وقت لاحق.

ومقابل المشكلات المتعلقة بتأمين الأيدي العاملة، لم تكن مشكلة تأمين رأس المال مسألة مهمة. وخلافاً لما كان عليه الحال في الدول

الأوروبية، لم تكن بريطانيا تواجه نقصاً في رأس المال الجاهز القابل للاستثمار. وقد تمثلت المشكلة الأساسية هنا في أن من سيطروا على أغلبية رؤوس الأموال في القرن الثامن عشر، وهم ملاّك الأراضي، والتجار، وأصحاب سفن الشحن، والممولون ومن هم على شاكلتهم، كانوا يكرهون الاستثمار في الصناعات الجديدة. وكان الاستثمار يبدأ، في أغلب الأحيان، بتجميع المدخرات أو القروض الصغيرة ثم تنحيتها عن طريق إعادة تشغيل الأرباح. وبسبب نقص رأس المال المحلي، أصبح أوائل الصناعيين، ولا سيما العصاميون منهم، أكثر تدبيراً وتقتيراً وجدّاً واستحواذاً، وغدا العاملون معهم أكثر تعرضاً للاستغلال؛ غير أن هذا الوضع كان يدل على التعثر في تدفق فائض الاستثمار الوطني لا على قصوره. من ناحية أخرى، كان أثرياء القرن الثامن عشر على استعداد لاستثمار أموالهم في مشروعات تجارية معينة مفيدة للتصنيع، خصوصاً في مجالات المواصلات والنقل (مثل القنوات وأحواض رسو السفن، والطرق)، والمناجم التي كان ملاّك الأراضي يحصلون من ورائها على الريع حتى ولو لم يتولوا هم إدارتها.

ولم تكن ثمة أيضاً صعوبات في أنماط التجارة والتمويل، في القطاعين الخاص والعام على حد سواء. وكان من الأمور المألوفة لدى الناس البنوك، والعملة الورقية، وحوالات التبادل التجاري، ومخزون البضائع، والأسهم، والتفصيلات الفنية للتعامل التجاري في ما وراء البحار وبالجملة، والتسويق. كما توفرت أعداد كبيرة من القادرين على التعامل مع هذه الأنشطة أو تعلم إجراءاتها. وعلاوة على ذلك، فإن سياسات الحكومة كانت، بحلول نهاية القرن الثامن عشر، تدل على الالتزام الحازم بالأولوية التامة للعمل التجاري. كما أن القوانين المخالفة لهذه السياسات (مثل قانون ثيودور الاجتماعي) قد غدت طيّ النسيان منذ زمن بعيد إلى أن ألغيت آخر الأمر في الفترة الممتدة بين العام 1813 والعام 1835، إلا في الأحوال التي تتصل فيها بالزراعة. ومن الوجهة النظرية، كان التهافت هو السمة المميزة للقوانين والمؤسسات المالية

والتجارية البريطانية التي صُممت لإعاقة التنمية الاقتصادية لا لتطويرها؛ ذلك أنها، على سبيل المثال، جعلت من الضروري إصدار "قوانين خاصة" باهظة الكلفة من جانب البرلمان كل مرة يريد فيها جماعة من الناس تأسيس شركة مساهمة. وقدمت الثورة الفرنسية للفرنسيين، من خلال نفوذهم في بقية القارة الأوروبية، آليات أكثر عقلانية وفاعلية لتحقيق هذه الأغراض. أما من ناحية الممارسة، فقد استطاع البريطانيون تدبير أمورهم على نحو جيد، بل إنهم تفوقوا بصورة كبيرة على منافسيهم في هذا المجال.

في مثل هذه الأجواء التجريبية الاعتباطية التي تفتقر إلى التخطيط، بني أول اقتصاد صناعي رئيسي، وكان صغيراً فوضوياً بالمقاييس الحديثة، وما زال الجانب الفوضوي فيه واضحاً في بريطانيا حتى هذه الآونة. أما إذا نظرنا إليه بمقاييس العام 1848، فإنه يبدو غاية في الضخامة، مع أنه يولد الإحساس بالصدمة؛ لأن المدن التي قامت على أساسه كانت أقبح، والطبقة العاملة أسوأ حالاً مما هي في مناطق أخرى[55]. كما أن الزوار الأجانب كانوا يضيقون ذرعاً بالجو المثقل بالضباب، المشبع بالدخان، الذي كانت جماهير الناس الشاحبة تتحرك فيه جيئةً وذهاباً. غير أن هذا الاقتصاد الصناعي أطلق قوة مليون حصان من عقالها، وأنتج مليوني ياردة من القطن سنوياً على ما يزيد على سبعة عشر مليوناً من الأنوال الآلية، واستخرج من الأرض نحو خمسين مليون طن من الفحم، وصدّر أو استورد ما يعادل مئة وسبعين مليون جنيه من البضائع كل سنة. وكان حجم التجارة البريطانية ضعفي ما كان عليه لدى منافستها الفرنسية، وكانت بريطانيا بالكاد قد تقدمت على فرنسا عام 1870، وكان استهلاك بريطانيا من القطن ضعفي استهلاك

(55) يرى أحد المؤرخين المحدثين أن أحوال الطبقة العاملة في بريطانيا كانت أسوأ مما كانت عليه في فرنسا على العموم في الفترة بين العامين 1830 و1848، انظر: Henri Sée, *Histoire économique de la France*, vol. 2, p. 189 n.

الولايات المتحدة الأمريكية، وأربعة أضعاف الاستهلاك الفرنسي، وأنتجت بريطانيا أكثر من نصف الحديد الخام الذي ينتجه العالم المتقدم اقتصادياً، واستعمل الفرد البريطاني من هذا المنتج ضعفي ما استعمله نظيره في جارتها بلجيكا التي تليها في مستوى التصنيع، وثلاثة أضعاف المعدل في الولايات المتحدة الأمريكية، وأكثر من أربعة أضعاف المتوسط في فرنسا. كما أن ما يتراوح بين مئتين وثلاثمئة مليون جنيه من الاستثمارات الرأسمالية البريطانية ـ وكان ربعها في الولايات المتحدة، ونحو خمسها في أمريكا اللاتينية ـ قد جلبت العائدات والطلبات من جميع أنحاء العالم[56]. لقد كانت بريطانيا، بحق، "مشغل العالم".

وكانت بريطانيا والعالم، على حد سواء، يعلمان أن الثورة الصناعية التي انطلقت في تلك الجزر، على يد التجار والمبادرين إلى المخاطرة في مشروعات اقتصادية، ومن خلالهم، وكان ناموسها الأساسي هو الشراء من أرخص الأسواق والبيع من دون قيود في أغلاها، هي التي كانت تقوم بتحويل العالم من حال إلى حال، ولم يكن ثمة ما يستطيع عرقلة مسيرتها. فقد غدت الآلهة القديمة والملوك القدماء لا حول لهم ولا طوْل أمام رجال الأعمال والآلات البخارية في العصر الجديد.

(56) Mulhall, *The Dictionary of Statistics*, and Imlah, "British Balance of Payments and Capital Export of 1816-1913," pp. 228-229.

وضع هذا التقدير، تحديداً، عام 1854.



الفصل الثالث

الثورة الفرنسية

"إن الإنجليزي الذي لا ينحني احتراماً وإعجاباً بالأسلوب الجليل الذي تجري فيه الآن واحدة من أهم الثورات التي شهدها العالم، لا بد من أن يكون عديم الإحساس بالفضيلة وبالحرية، وهو لن يكون من أبناء وطني الذين كان من حسن حظهم أن يشهدوا ما جرى خلال الأيام الثلاثة الماضية في هذه المدينة العظيمة، وسيشهد على أن ما أقوله لا غلوّ فيه ولا شطط".

صحيفة **ذي مورننغ بوست** (*The Morning Post*) (21 تموز/ يوليو/ 1789/ حول سقوط الباستيل).

"إن الأمم المستنيرة ستسارع إلى محاكمة أولئك الذين حكموها حتى الآن. سيهرب الملوك إلى الصحراء، ليعايشوا الوحوش الضارية التي يضاهونها وحشية؛ وسوف تستوفي الطبيعة حقوقها".

سان ـ جوست. "حول دستور فرنسا". خطاب ألقي في المؤتمر، 24 نيسان/ أبريل 1793.

I

إذا كان الاقتصاد في عالم القرن التاسع عشر قد تشكل على نحو أساسي تحت تأثير الثورة الصناعية البريطانية، فإن السياسة والأيديولوجيا في ذلك القرن قد تشكّلا بتأثير من الفرنسيين. لقد قدمت بريطانيا لهذا العالم نموذجاً للسكة الحديد والمصانع اللذين يمثلان المادة الاقتصادية المتفجرة التي فتحت باب البنى الاقتصادية والصناعية التقليدية في العالم غير الأوروبي على مصراعيه. غير أن فرنسا هي التي بدأت ثورات ذلك القرن، ووجهتها بأفكارها، حتى إن العلم الثلاثي الألوان، مهما كان شكله، أصبح بمثابة الرمز لكل الأمم الناشئة الصاعدة. وتمحورت الأنشطة السياسية في أوروبا (بل وفي العالم) بين العام 1789 والعام 1917 إلى حد بعيد حول النضال المناصر لمبادئ 1789 أو المعادي لها، أو حتى حول التطورات المثيرة عام 1793. لقد طرحت فرنسا المفردات والقضايا الخاصة بالسياسة الليبرالية والراديكالية الديمقراطية أمام معظم العالم، كما طرحت المثال العظيم الأول للقومية، مفهوماً ومفرداتٍ. كما قدمت فرنسا لأكثر الدول القانون الدستوري، ونموذج التنظيم العلمي والتقني، ونظام القياس المتري. ومن خلال التأثير الفرنسي، اخترقت أيديولوجيا العالم الحديث الحضارات القديمة التي كانت، حتى ذلك الحين، تقاوم الأفكار الأوروبية. وكان ذلك كُله هو الإنجاز الذي حققته الثورة الفرنسية[1].

كانت أواخر القرن الثامن عشر، كما رأينا، عصر الأزمات

---

(1) علينا أن لا نغالي في تضخيم الفرق بين التأثيرات البريطانية والتأثيرات الفرنسية. إن أياً من مركزي الثورة المزدوجة لم يقصر تأثيره على ميدان محدد للنشاط الإنساني، وكان كل من هذين المركزين يؤدي دوراً مكمِّلاً لا منافساً للآخر. ومع ذلك، وحتى عندما التقى الطرفان بالصورة الأكثر وضوحاً على مفهوم واحد مثل الاشتراكية، التي اخترعت وأطلق عليها هذا الاسم في الوقت نفسه في البلدين كليهما، فإن هذا اللقاء قد تم من اتجاهين مختلفين.

لأنظمة الحكم القديمة ونظمها الاقتصادية في أوروبا. وكانت العقود الأخيرة من ذلك القرن حافلة بحركات التململ والاضطراب السياسية التي قاربت أحياناً حدود التمرد، وبالتحركات المطالبة بالاستقلال في المستعمرات، وقد بلغت أحياناً حد المطالبة بالانفصال، ولم يقتصر ذلك على الولايات المتحدة (1776ـ1783)، بل شمل أيضاً إيرلندا (1782ـ1784) وبلجيكا ولييج (1787ـ1790)، وهولندا (1783ـ1787)، وجنيف وحتى، كما تقول بعض التحليلات، إنجلترا (1779). وكان في التمايز المدهش بين هذه الكوكبة من حركات التململ السياسي ما دفع بعض المؤرخين المحدثين إلى الحديث عن "عصر الثورة الديمقراطية" التي كانت الثورة الفرنسية إحداها، وإن كانت الأعمق وقعاً، الأبعد أثراً[2].

وحيث إن أزمة الأنظمة القديمة لم تكن مجرد ظاهرة فرنسية، فإن هذه الملاحظات تنطوي على قدر من الصحة. ويمكن أن نقول من هذا المنطلق إن الثورة الروسية عام 1917 (وقد احتلت في أهميتها مكانة مماثلة في القرن العشرين)، كانت هي الأكثر إثارة، والأعمق وقعاً بين سلسلة من الحركات المثيلة، كتلك التي أسدلت، قبل العام 1917 بسنوات، ستار الختام على الإمبراطوريتين القديمتين: التركية والصينية. غير أن في مثل هذا التحليل إغفالاً لنقطة جوهرية؛ فالثورة الفرنسية قد لا تكون ظاهرة منعزلة، غير أنها كانت هي الأكثر عمقاً وأثراً وقوة من جميع الحركات المعاصرة لها. فقد اندلعت، بدايةً، في أقوى دول أوروبا (وإذا ما استثنينا روسيا)، وأكثرها سكاناً؛ إذ كان الفرنسيون يمثلون عشرين

---

(2) انظر: R. R. Palmer, *Age of Democratic Revolution: A Political History of Europe and America, 1760-1800* (Princeton: Princeton University Press, 1959), and Jacques Godechot, *La Grande nation: L'Expansion révolutionnaire de la France dans le monde, 1789 - 1799*, 2 vols., collection historique (Paris: Editions montaigne, 1956), vol. 1, chapitre 1.

في المئة من سكان أوروبا. ومن ناحية أخرى، كانت الثورة الفرنسية، دون غيرها من الثورات التي سبقتها أو صاحبتها أو تلتها، ثورة جماهيرية اجتماعيةً، وأكثر تطرفاً جذرياً من أية نهضة أخرى، وعلى نحو غير مسبوق، في سياق مقارن. ولم يكن من قبيل المصادفة أن الثوريين الأمريكيين، والبريطانيين "اليعاقبة" الذين هاجروا إلى فرنسا بسبب تعاطفهم السياسي قد وجدوا أنفسهم معتدلين في فرنسا. فقد كان توم بين (Tom Paine) متطرفاً في بريطانيا وفرنسا؛ غير أنه أصبح في باريس الأكثر اعتدالاً في أوساط الجيرونديين. وكانت النتائج التي تمخضت عنها الثورات الأمريكية هي، على العموم، استمرار الدول في الحفاظ على الأوضاع التي كانت قائمة فيها، ولكن بعد التخلص من السيطرة السياسية التي كان يمارسها عليها البريطانيون، والأسبان، والبرتغاليون. أما نتائج الثورة الفرنسية، فكانت بحلول "عصر بلزاك" محل "عصر مدام دوباري".

ومن جهة ثالثة، كانت الثورة الفرنسية بين الثورات المعاصرة لها وحدها التي حملت رسالة رسولية. فقد انطلقت جحافلها من أجل ثَوْرَنة العالم؛ وقد أفلحت أفكارها في تحقيق ذلك. أما الثورة الأمريكية، فقد ظلت حدثاً مصيرياً في نطاق التاريخ الأمريكي، ولم تخلف وراءها غير آثار أساسية قليلة خارج هذا الإطار (باستثناء البلدان التي ارتبطت أو تأثرت بها مباشرةً). لقد كانت الثورة الفرنسية عَلَماً ومعْلَماً في جميع البلدان. وخلافاً لنتائج الثورة الأمريكية، حفزت تداعياتها جملةً من الانتفاضات التي أفضت إلى تحرير أمريكا اللاتينية بعد العام 1808، وشَعَّت آثارها حتى البرتغال، حيث استوحى رام موهان روي منها فكرة تأسيس أول حركة إصلاح هندويّة والنموذج الرائد للقومية الهندية الحديثة (وعندما زار إنجلترا عام 1830، أصر على أن يبحر على متن سفينة فرنسية ليظهر حماسه لمبادئ الثورة الفرنسية). كانت الثورة الفرنسية، كما وُصفت بعبارة بليغة، هي "الحركة العظيمة الأولى لأفكار

المسيحية الأوروبية التي تركت أثراً حقيقياً في عالم الإسلام"[3]، وعلى نحو يكاد يكون مباشراً. ففي أواسط القرن التاسع عشر، أصبحت الكلمة التركية "فَطَن/ وطن" (Vatan) المستعملة حتى ذلك الحين لتصف مكان ولادة المرء أو إقامته، تستخدم تحت تأثير الثورة الفرنسية، للدلالة على معنى آخر، هو الوطن/ المواطن؛ أما مصطلح الحرية، الذي كان قبل العام 1800 يستخدم بصورة أساسية باعتباره تعبيراً قانونياً يقابله الرق والعبودية، فقد غدا له مضمون سياسي. أما نفوذها غير المباشر، فكان عالمياً تماماً؛ إذ إنها طرحت لجميع الحركات الثورية اللاحقة، وأُدخلت دروسها وعِظاتها (وفقاً لما يرتئيه أنصارها) في إطار الاشتراكية والشيوعية الحديثتين[4].

إن الثورة الفرنسية ظلت ثورة العصر، لا واحدة من ثوراته فحسب. وعلينا من ثَمَّ، أن نسعى إلى فهمها لا من خلال الظروف العامة في أوروبا، بل في سياق الأوضاع المحددة في فرنسا. ويمكن أن نستشف ملامحها المميزة من خلال منظور دولي. لقد كانت فرنسا طوال القرن الثامن عشر المنافس الاقتصادي الرئيسي في الساحة الدولية لبريطانيا. وأثارت القلق تجارتها الخارجية التي تضاعفت أربع مرات في الفترة بين العام 1720 والعام 1780، وكان نظامها الكولونيالي في مناطق معينة (مثل جزر الهند الغربية) أكثر ديناميّةً من النظام البريطاني. بيد أن فرنسا لم تكن في قوة بريطانيا، التي سبق لمصالح التوسع الاستعماري أن حددت، جوهرياً، سياستها الخارجية. فقد كانت هي الدولة الأقوى، الممثلة، في أكثر من ناحية، للنموذج الجليّ للملكيات

---

(3) Bernard Lewis, "The Impact of the French Revolution on Turkey," *Journal of World History*, vol. 1 (1953), p. 105.

(4) لا يعني ذلك انتقاصاً من تأثير الثورة الأمريكية. فقد أسهمت، دون شك، في حفز الفرنسيين، كما أنها، بمعنى أضيق، طرحت نماذج دستورية منافسة وأحياناً بديلة لما قدمه الفرنسيون لمختلف الدول في أمريكا اللاتينية. يضاف إلى ذلك أنها كانت بين وقت وآخر مصدر إلهام للحركات الديمقراطية الراديكالية.

الأرستقراطية القديمة المطلقة في أوروبا. وبعبارة أخرى، كان الصراع بين الإطار الرسمي والمصالح الخاصة للنظام القديم من جهة، والقوى الاجتماعية الجديدة الطالعة من جهة أخرى، أكثر حدة في فرنسا مما كان عليه في بريطانيا.

لقد كانت القوى الجديدة تعرف ما تريده حق المعرفة. إن العالم الاقتصادي الفيزيوقراطي تورغو دعا إلى استغلالٍ كُفءٍ للأرض ومبادرةٍ حرة في مجالات المشروعات والتجارة، وإلى إدارة كفؤة موحدة المقاييس والمعايير لبقعة وطنية واحدة متجانسة، وإلى إلغاء جميع التقييدات والمظالم الاجتماعية التي كانت تعوق تنمية الموارد الوطنية، وإلى العقلانية والإنصاف في الإدارة والضريبة. إلا أن محاولة تيرغو تطبيق برنامجه هذا بوصفه أول وزير لدى لويس السادس عشر بين العام 1774 والعام 1776 باءت بفشل ذريع وهذا الفشل لا يدعو إلى الاستغراب. إن إصلاحاً على هذه الشاكلة، لم يكن يتعارض مع الملكية المطلقة أو ما تستسيغه، إذا ما شرع في تطبيقه بجرعات متواضعة. فحيث إن مثل تلك الإصلاحات كانت على العكس من ذلك، يشد من أزرها، فإنها، كما رأينا، كانت واسعة الانتشار آنذاك في أوساط "الطغاة المستنيرين". غير أن الإصلاحات في أغلب الدول التي حكم فيها "الطغاة المستبدون" كانت إما غير قابلة للتطبيق، وبالتالي مجرد فورات تنظيرية، أو غير قادرة على تغيير الطابع العام للبُنى السياسية والاجتماعية فيها، أو أنها فشلت في مقاومة الأرستقراطيات والمصالح المحلية الخاصة الأخرى، فأعادت البلاد إلى نسخة منمقة منقحة للدولة السابقة ذاتها. وقد منيت هذه الإصلاحات في فرنسا بالفشل بصورة أسرع من أصحابها في بلدان أخرى؛ لأن المصالح الخاصة كانت فيها أكثر فاعلية. إلا أن نتائج هذا الفشل كانت أكثر كارثية بالنسبة للملكية الفرنسية، كما أن قوى التغيير البورجوازية كانت قد بلغت من القوة حدّاً يحول بينها وبين أن تعود القهقرى إلى حالة العجز. بل إن هذه القوى أفلحت في التحول بآمالها والعدول بها عن الملكية المستنيرة إلى الشعب أو "الأمة".

بيْد أن مثل هذا التعميم لا يُفضي بنا إلى فهم الأسباب التي أشعلت الثورة في ذلك الوقت تحديداً، أو جعلتها تنهج هذا السبيل الذي سلكته. لذلك، فإن من الأفضل أن ننظر في أمر ما يسمى "الرجعية الإقطاعية" التي أطلقت بالفعل الشرارة لتفجير برميل البارود في فرنسا.

كان الإحساس بالأمن شائعاً في أوساط ما يقارب أربعمئة ألف من الأشخاص الذين كانوا، من أصل ثلاثة وعشرين مليوناً من الفرنسيين، يشكلون طبقة النبلاء، أو "نخبة النخب" بلا منازع في الأمة، على الرغم من أنها لم تتمتع بالحماية المطلقة في وجه الاقتحام الذي تمارسه طبقات أخرى أقل نفوذاً، كما كانت الحال في روسيا وبلدان أخرى. فقد تمتعت هذه النخبة في فرنسا بامتيازات ذات شأن، كالإعفاء من العديد من الضرائب (التي لم تكن على أية حال أكثر عدداً مما حظي به رجال الدين الأفضل تنظيماً)، وحتى تقاضي الريوع الإقطاعية. غير أن أوضاع هذه النخبة كانت، من الوجهة السياسية، أقل بريقاً؛ فالملكيات المطلقة، مع أنها كانت أرستقراطية برمتها، بل إقطاعية في جوهرها، قد جردت النبلاء من الاستقلال والمسؤولية السياسية، واقتطعت قدر الإمكان جانباً من مؤسساتهم التمثيلية القديمة (أي الفئات المتميزة وأعضاء "البرلمان")، وظلت هذه الحقيقة الواقعة متداولة في أوساط الفئات الأرستقراطية العليا وفئة نبلاء الشرف (Noblesse de robe) التي ابتدعها الملوك في وقت لاحق لأغراض شتى، ولا سيما في مجالات المالية والإدارة، وضمت رجالاً من الطبقة الوسطى أُضفي عليهم النبل جراء عملهم موظفين في الحكومة ساخطين على كل الأرستقراطيين والبورجوازيين سخطاً مزدوجاً قدر المستطاع، من خلال الشرائح والفئات الباقية من القانونيين والقضاة والفئات الأخرى. ولأن النبلاء كانوا بحكم المولد والتقاليد، مقاتلين أكثر مما كانوا كسّابين، ولم يكن ممكناً تجاهل مخاوف النبلاء الاقتصادية، فقد سبق أن حُرموا رسمياً من ممارسة تجارة أو مهنة، واعتمدوا على الدخل المتأتي لهم من

إقطاعاتهم الزراعية. وإذا كانوا من الأثيرين لدى الملك من أفراد الأقلية الواسعة، أو من نبلاء البلاط، فإنهم يعتاشون من مصاهرتهم للعائلات الثرية، ومن التقاعد من العمل في المحاكم، ومن الهدايا والوظائف التكريمية العاطلة. غير أن كلفة المحافظة على مرتبة النبل هذه كانت باهظة آخذة بالتصاعد، فانخفض دخلهم لأنهم نادراً ما كان يديرون ثرواتهم، هذا إذا كانوا قد أداروها فعلاً. كما أن التضخم مال إلى خفض قيمة الريوع الثابتة، مثل الإيجارات.

وكان طبيعياً في هذه الحالة أن يستخدم النبلاء مصدر النفوذ الوحيد الذي بقي لهم: وهو الامتيازات الطبقية التي أُقرت لهم، وطوال القرن الثامن عشر، وفي فرنسا كما في العديد من البلدان الأخرى، راحوا ينقضّون، بصورة مطردة، على الوظائف الرسمية التي كانت الملكية المطلقة تفضل أن يشغلها رجال من الطبقة الوسطى مؤهلون وأكفاء فنياً ومأمونون سياسياً. وبحلول الثمانينات من القرن الثامن عشر، كانت أربع سرايا من النبلاء تشغل هذه المناصب، ولو عن طريق ابتياع تكليف بمهمات في الجيش. وكان جميع الأساقفة قد أصبحوا من النبلاء، بل إنهم استأثروا بالجانب الأكبر من المناصب الرفيعة في الإدارة الملكية، ولا سيما الملاحظ العام. من هنا، فإن النبلاء لم يكتفوا باستعداء الطبقة الوسطى وإثارة مشاعر أفرادها عن طريق النجاح في تزاحمهم على المناصب العامة، بل قوضوا سياسة الدولة نفسها عن طريق ميلهم المتزايد لتولي مهمات الإدارة في المركز وفي الأقاليم. وبالمثل، حاول هؤلاء، ولا سيما الوجهاء الفقراء في الأقاليم الذين لم يكن لهم غير موارد قليلة أخرى، أن يعوضوا عن انخفاض دخلهم بامتصاص أقصى ما يستطيعون امتصاصه من حقوقهم الإقطاعية المعتبرة بتقاضي الأموال كاملة، (والخدمات في حالات نادرة) من الفلاحين. وبرزت فئة مهنية جديدة تضم "الإقطاعانيين" الذين عكفوا على إحياء الحقوق العتيقة البالية من هذا النوع لتعظيم المردود الحالي. وكان العضو الأبرز فيها، غراكوس بابوف، زعيماً لأول تمرد شيوعي

في التاريخ الحديث عام 1796. من هنا، فإن النبلاء لم يكتفوا بإرهاق الطبقة الوسطى واستنزافها، بل تجاوزوا ذلك إلى إرهاق الفلاحين واستنزافهم.

إن وضع هذه الطبقة العريضة التي تضم نحو 80 في المئة من جميع الفرنسيين، كان أقرب إلى السوء. لقد كانوا، بصورة عامة، أحراراً بالفعل، وملّاكاً للأرض في أغلب الأحيان. ومن حيث الكم الفعلي، كان النبلاء يمتلكون نحو خمس الأرض فحسب، وسلك الكهنوت يمتلك نحو 6 في المئة مع تباينات نسبية في الأقاليم[5]. وهكذا، كان الفلاحون في دوقية مونبلييه يمتلكون 38 إلى 40 في المئة من الأراضي، والبورجوازيون بين 18 إلى 19، والنبلاء 15 إلى 16، ورجال الدين 3 إلى 4، بينما كان خمس الأراضي مشاعاً عاماً[6]. وفي واقع الأمر، كانت الأغلبية العظمى من الناس غير متملكة للأرض، أو أن ما كانت تملكه غير كافٍ. وقد أسهم في زيادة هذا القصور استمرار التخلف التقني المتزايد، كما أن الجشع العام لحيازة الأراضي قد تصاعد بفعل زيادة عدد السكان. وكانت مستحقات الإقطاعيات، والأعشار، والضرائب تلتهم القسط الأكبر المتصاعد من دخل الفلاح، وكان التضخم يؤدي إلى خفض قيمة القسط الباقي. ولم تنتفع من ارتفاع الأسعار إلا أقلية صغيرة من الفلاحين الذين كان لديهم فائض مستمر للبيع في السوق. أما الباقون فقد لحق بهم الضرر بشكل أو بآخر، وبخاصة عندما تسوء المحاصيل، وتسود السوق أسعار المجاعات. ولا شك في أن أوضاع الفلاحين قد تفاقمت خلال السنوات العشرين التي سبقت الثورة الفرنسية للأسباب نفسها.

---

(5) Henri Sée, *Esquisse d'une histoire du régime agraire en Europe aux XVIIIe et XIXe siècles* ([Paris: M. Giard, 1921]), pp. 16-17.

(6) Albert Soboul, *Les Campagnes montpelliéraines à la fin de l'ancien régime: Propriété et cultures d'après les compoix* (Paris: Presses universitaires de France, 1958).

وقد أدت المتاعب المالية للنظام الملكي إلى دفع الوضع إلى حافة الانفجار. لقد كانت البنية الإدارية والمالية للمملكة بالية وقد فات أوانها، كما كانت محاولة إصلاح هذا الخلل بالإصلاحات بين العام 1774 والعام 1776 قد باءت بالفشل، ومنيت بالهزيمة أمام مقاومة المصالح الخاصة التي تزعمتها "البرلمانات". ثم شاركت فرنسا في حرب الاستقلال الأمريكية، وأوصلتها كلفة الانتصار على بريطانيا إلى حالة الإفلاس النهائي. ويمكن للثورة الأمريكية أن تدعي أنها كانت السبب المباشر للثورة الفرنسية. ووضعت برامج متسرعة منوعة، غير أنها لم تحقق غير نجاح ضئيل متناقص. وتبين أن الاقتصاديات الفعالة لن تكون مجدية، وأن التعامل مع وضع يزيد فيه الإنفاق عشرين في المئة على الأقل على الواردات لا يمكن أن يجري إلا بعملية إصلاح أساسية تعبأ فيها القدرات الحقيقية المعتبرة الخاضعة للضريبة في البلاد. فعلى الرغم من أن الأزمة كانت تُعزى إلى المباذل الباذخة في فرساي، فإن إنفاق البلاط لم يكن يتجاوز 6 في المئة من النفقات الإجمالية عام 1788، بينما استهلكت الحرب، والبحرية، والدبلوماسية نحو ربع الإجمالي، وخدمة الديون القائمة نحو النصف. وتضافرت الحرب والديون، والحرب الأمريكية وديونها، لتقصم ظهر النظام الملكي.

لقد منحت أزمة الحكومة الفرصة للأرستقراطية و"البرلمانات". غير أن هذه الجماعات رفضت الدفع إلا إذا وُسِّعت الامتيازات التي كانت تتمتع بها. وقد حدث الاختراق الأول في جبهة الحكم المطلق عندما قامت "جمعية من الوجهاء" منتقاة بعناية، ولكنها متمردة، بتقديم عرض لتلبية مطالب الحكومة. وحدث الاختراق الثاني، الحاسم، عندما اتخذ قرار يائس لدعوة مجلس "فئات الطبقات العامة"، وهو الجمعية العمومية الإقطاعية القديمة في البلاد، إلى الانعقاد بعد أن ظل مدفوناً منذ العام 1614. لقد بدأت الثورة إذن باعتبارها محاولة من جانب الأرستقراطية للقبض على زمام الحكم في الدولة. بيد أن هذه المحاولة أساءت تقدير الحسابات لسببين: تمثل الأول في أنها قللت من أهمية

النوايا المستقلة التي أعربت عنها "الطبقة الثالثة"، وهي الكيان المتخيّل الذي كان يضم ممثلين لغير المنتسبين إلى طبقتي النبلاء ورجال الكنيسة، ولكن الطبقة الوسطى هي التي كانت تهيمن على هذا الكيان في واقع الأمر. كما أن المحاولة الأرستقراطية تجاهلت الأزمة الاقتصادية والاجتماعية العميقة الغور التي طرحت فيها مطالبها السياسية.

إن الثورة الفرنسية لم تحدث على أيدي حزب أو حركة قائمة بالمعنى الحديث للكلمة، ولم يتزعمها رجال يحاولون تنفيذ برنامج منهجي منظم. بل إنها لم تطرح "قيادات" من النوع الذي عودتنا عليه ثورات القرن العشرين حتى ظهرت شخصية ما بعد ثورية مثل نابليون. وعلى الرغم من ذلك، فقد تلاقت الآراء العامة في إجماع مدهش في أوساط مجموعة اجتماعية على قدر كبير من التماسك أضفت وحدة فعالة على الحركة الثورية. وكانت هذه المجموعة هي "البورجوازية" التي ترعرعت أفكارها في أحضان الليبرالية الكلاسيكية كما رسم معالمها "الفلاسفة"، و"الاقتصاديون"، ونشرها الماسونيون الأحرار، وشاعت في أوساط الجمعيات غير الرسمية. ويمكن بهذا المعنى أن نحمل "الفلاسفة" بحق مسؤولية الثورة. وصحيح أنها كانت ستحدث من دونهم، غير أنهم ربما سارعوا إلى الانتقال من مجرد تحطيم النظام القديم، إلى استبداله بسرعة بنظام جديد.

كانت أيديولوجية 1789، في إطارها الأعم، ماسونية الطابع، ووجدت تعبيراً عن نفسها غاية في الجلال والبراءة في أُوبرا موتزارت (Mozart) "الناي السحري" (1791) (Magic Flute)، وهي واحدة من أوائل الأعمال الفنية الدعاوية العظيمة في عصر دخلت أرقى إنجازاته الفنية في عداد الدعاية. وعلى نحو أكثر تحديداً، وضعت الملامح الرئيسية لمطالب البورجوازية عام 1789 في "إعلان حقوق الإنسان والمواطنين" الشهير الصادر في تلك السنة. وكانت هذه الوثيقة بمثابة بيانٍ ضد التراتبية التي سادت مجتمع النبلاء ذوي الامتيازات،

ولكنه لم يكن تحبيذاً لقيام مجتمع ديمقراطي تسوده المساواة؛ إذ تعلن مادته الأولى: "يولد الناس ويعيشون أحراراً متساوين في ظل القانون"؛ غير أنها تنص على وجود التمايزات الاجتماعية، "إذا كان في ذلك خدمة للنفع العام"، والملكية الخاصة حق طبيعي، مقدس، أصيل لا يمكن انتهاكه، والناس متساوون أمام القانون، والمهن مفتوحة لجميع المواهب على قدم المساواة. ولكن إذا بدأ التسابق من أجلها من دون عقبات، فإنه كان من المفترض أن المتسابقين لن يصلوا إلى خط النهاية معاً. لقد نص الإعلان (مقابل معارضته لتراتبية النبلاء أو الحكم المطلق) على أن "لجميع المواطنين الحق في التعاون على وضع القانون"؛ "إما شخصياً أو من خلال ممثليهم". كما أن الجمعية التمثيلية التي ارتأتها الوثيقة هيئةً أساسية للحكم لم تكن منتخبة بالضرورة انتخاباً ديمقراطياً، ولم يكن نظام الحكم الذي انطوت عليه نظاماً يلغي الملكية؛ فالملكية الدستورية القائمة على أوليغاركية من ذوي الأملاك، وتعبر عن نفسها من خلال مجلس تمثيلي، كانت في أوساط الليبراليين البورجوازيين أدعى للقبول من الجمهورية الديمقراطية التي ربما كانت هي التعبير المنطقي عن تطلعاتهم النظرية، على الرغم من أن ثمة من سارعوا إلى المجاهرة بذلك أيضاً. غير أن البورجوازي الليبرالي الكلاسيكي عام 1789 (والليبرالي عام 1848)، لم يكن على العموم ديمقراطياً، بل مؤمناً بالدستورية، وبدولة عَلْمانية تشيع فيها الحريات المدنية وضمانات المشروعات الخاصة، وبحكومة تتألف من دافعي الضرائب وأصحاب الأملاك.

ومهما يكن من أمر، فإن نظام حكم كهذا سيتجاوز مجرد التعبير عن مصالحه الطبقية ليصبح تعبيراً عن "إرادة الشعب"، الذي تحول (في انعطافةٍ عميقة الدلالة) إلى "الأمة الفرنسية". ولم يعد الملك يسمى "لويس"، أو "الذاكر لفضل الله"، أو "ملك فرنسا والنافار"، "لويس بفضل الله، والقانون الدستوري للدولة، ملك الفرنسيين". ويقول الإعلان إن "مصدر السيادة بأكملها يكمن أساساً في الأمة".

ولا تُقر الأمة، على حد قول الأب سييز (Abbé Sieyès)، بمصلحة على الأرض تعلو مصلحتها، أو تقبل بقانون أو سلطة غير قوانينها وسلطاتها، سواء ما يصدر منها عن البشر أو ما يصدر عن أمم أخرى. ولا شك في أن الأمة الفرنسية، ومقلِّديها لاحقاً، لم تدرك أول الأمر أن مصالحها قد تتضارب ومصالح شعوب أخرى، بل رأت، على العكس من ذلك أنها تدشِّن، أو تشارك في حركة تسعى إلى تحرير الشعوب عموماً من الطغيان. غير أن المنافسة بين البلدان (كما كانت الحال بين رجال الأعمال الفرنسيين)، والإخضاع الوطني (كما حدث مثلاً عند إخضاع مصالح الدول المغلوبة أو المحررة لمصالح الأمة العظمى) كانت متضمَّنة في القومية التي أعطتها بورجوازية 1789 تعبيرها الرسمي الأول. لقد كان التماهي بين الشعب والأمة مفهوماً ثورياً، وأكثر ثورية من البرامج البورجوازية الليبرالية التي قدمت الوثيقة تعبيرها عنها. غير أن هذه الوثيقة كانت سلاحاً ذا حدين.

وحيث إن الفلاحين والكادحين الفقراء كانوا أميين متواضعين أو غير ناضجين سياسياً، وعملية الانتخاب غير مباشرة، فقد أنتخب 610 رجال أغلبهم من هذه الفئات لتمثيل "الطبقة الثالثة"، وكانت أغلبيتهم من المحامين الذين أدوا دوراً اقتصادياً مهماً في أقاليم فرنسا، وكان نحو مئة منهم من الرأسمالية أو رجال الأعمال. وقد خاضت الطبقة الوسطى معركة مريرة ناجحة للحصول على نسبة تمثيل تعادل ما كانت تتمتع به طبقتا النبلاء ورجال الكنيسة مجتمعتين، ويجسد ذلك طموحاً معتدلاً لمجموعة تمثل، رسمياً، 95 في المئة من الشعب. وكافحوا الآن بعزم مماثل لإحقاق حقوقهم في استغلال الأصوات المحتملة للأغلبية بتحويل مجلس فئات الطبقات العامة إلى جمعية عامة للنواب الأفراد الذين يصوتون على هذا النحو، بدلاً من أن الهيئة الإقطاعية التقليدية كانت تتداول الرأي وتصوت حسب ما تتلقاه من "أوامر"، وهو الوضع الذي كان بوسع النبلاء ورجال الدين فيه دائماً أن يتفوقوا على أصوات الطبقة الثالثة. وقد حدث الاختراق الثوري الأول حول هذه القضية.

فبعد نحو ستة أسابيع على افتتاح "مجلس العموم للطبقات العامة" تجمع النبلاء ورجال الكنيسة، من قبيل حرصهم على الحؤول دون صدور أية أفعال من جانب الملك، وضموا إلى صفوفهم كل من كانوا مستعدين لموافقتهم على شروطهم، وشكلوا "جمعية عامة" يحق لها أن تعيد كتابة الدستور. ودفعت بهم محاولة مناوئة للثورة إلى وضع مطالبهم في قالب يقارب ما كان راسخاً في أنشطة مجلس العموم الإنجليزي. لقد انتهى الحكم المطلق، وفق العبارة التي وجهها ميرابو (Mirabeau)، النبيل السابق اللامع سيئ السمعة إلى الملك: "مولاي، إنك غريب في هذه الجمعية، ولا يحق لك التحدث هنا"[7].

أفلحت الطبقة الثالثة في مواجهة المقاومة المتحدة التي أبداها الملك وذوو الامتيازات الفئوية؛ لأنها لم تقتصر على تمثيل وجهات نظر أقلية من المتعلمين والمناضلين، بل تعدت ذلك إلى تمثيل قوى أكثر قوة ونفوذاً: الكادحين الفقراء في المدن، ولا سيما باريس، والفلاحين الثوريين (لفترة قصيرة) أيضاً. وكان ما حوّل محاولة محدودة للإصلاح إلى ثورة يتمثل في أن دعوة مجلس فئات الطبقات العامة تزامنت مع نشوب أزمة اقتصادية اجتماعية عميقة. لقد كانت ثمانينات القرن الثامن عشر، لجملة من الأسباب المتشابكة، حافلة بالصعوبات في فروع الاقتصاد كافة. وقد تفاقمت هذه الأزمة وازدادت حدة جراء موسم سيئ للمحاصيل عام 1788 (و1789)، وشتاء صعب كل الصعوبة. لقد ألحقت مواسم الحصاد السيئة الضرر بالفلاحين؛ فقد أتاحت لكبار المنتجين أن يبيعوا الحبوب بأسعار المجاعات، بينما قد تضطر أغلبية الرجال العاملين على أراض ضيقة غير كافية إلى أن يأكلوا الذرة التي زرعوها بأيديهم، أو يشتروا الطعام بهذه الأسعار، خصوصاً في الأشهر التي سبقت الحصاد (أي أيار/ مايو ـ تموز/ يوليو). ومن الواضح أن ذلك قد أضّر بالفقراء

---

(7) Albert Goodwin, *The French Revolution*, Grey Arrow; no. G16 (London: Arrows Books, 1959), p. 70.

في المراكز الحضرية الذين ارتفعت كلفة المعيشة بالنسبة لهم ـ وكان الخبز غذاءهم الأساسي ـ وتضاعفت الأسعار، كما ألحقت بهم مزيداً من الضرر عندما أسفر العوز في المناطق الريفية عن تقليص سوق العمل أمام المنتجين، مما تسبب في حدوث كسادٍ صناعي. وسيطر اليأس والتململ مع انتشار الشغب وقطع الطرق، وتضاعف يأس الفقراء الحضر عندما انقطعت سبل العمل في الوقت الذي ارتفعت فيه كلفة المعيشة. وفي ظل ظروف اعتيادية، لم تكن لتحدث غير أعمال شغب عمياء محدودة. غير أن التشنج الرئيسي في المملكة، والحملات الدعاوية والانتخابية، قد وضعت مشاعر الناس اليائسة في منظور سياسي؛ إذ أدخلت فكرة هائلة جبارة ضد القمع هي "الليبرالية" في أوساط الوجهاء، ووقفت جماعات المشاغبين خلف نواب الطبقة الثالثة.

حوّلت الثورة المضادة انتفاضة جماهيرية كافية إلى انتفاضة فعلية. ولا شك في أن النظام القديم كان سيشن هجوماً مضاداً، بالقوة المسلحة عند الضرورة، مع أن الجيش لم يعد بأكمله مصدراً للثقة (والحالمون غير الواقعيين وحدهم هم الذين كانوا يتوهمون أن لويس السادس عشر قد يقبل بالهزيمة ويحول نفسه إلى ملك دستوري، حتى لو كان أقل غباءً وسفاهةً مما كان عليه، وزوجاً لامرأة أقل سذاجة وأكثر إحساساً بالمسؤولية، وكان هو أقل استعداداً للاستماع إلى مستشارين أقل جهلاً). وفي الواقع أن الثورة المضادة عبأت جماهير باريس، الجائعة، المتشككة المتحفزة، وكانت الحصيلة الأكثر إثارة في تعبئتهم هذه هي استيلاؤهم على الباستيل، وهو سجن الدولة الذي يمثل رمزاً للسلطة، حيث كان الثوريون يأملون في الحصول على السلاح. ولا شيء يعادل إسقاط الرموز وقت الثورة. إن الاستيلاء على الباستيل الذي جعل الرابع عشر من تموز/ يوليو عيداً وطنياً لفرنسا، كرس سقوط الطغيان، واعتبر في جميع أرجاء العالم بداية للتحرير. حتى ليقال إن الفيلسوف المتقشف إيمانويل كانْت (Immanuel Kant)، الذي درج أهالي بلدة كونيغسبيرغ التي يعيش فيها على أن يضبطوا مواقيتهم

على تحركاته، قد أخر نزهته بعد الظهر عند سماعه النبأ، فأقنع الأهالي بذلك أن حادثاً من النوع الذي يهز العالم قد حدث. وربما كان الأمر من ذلك أن سقوط الباستيل نشر الثورة في مدن الأقاليم والريف.

إن ثورات الفلاحين تكون واسعة عديمة الشكل، غُفْلاً ولكنها لا تقاوم. وكان ما حوَّل فورةً من تململ الفلاحين إلى تشنج لا سبيل إلى ردّه مزيجاً من انتفاضات البلدات في الأقاليم وموجة من الذعر الجماعي الذي راح ينتشر بصورة غامضة ولكنها سريعة في أرجاء البلاد الواسعة؛ وهو ما عرف بالخوف الأعظم في أواخر تموز/ يوليو وأوائل آب/ أغسطس 1789. وخلال ثلاثة أسابيع من يوليو، كانت الإقطاعية الفرنسية الريفية وآلة الدولة في فرنسا الملكية قد تبعثرتا. وتحولت البقية الباقية من سلطة الدولة إلى مجموعة متناثرة من العناصر التي لا يمكن الركون إليها: جمعية وطنية لا حول لها ولا طوْل. وأعداد من إدارات الطبقة الوسطى التي أقامت في البلدات أو الأقاليم وحدات بورجوازية من "الحرس الوطني" على غرار ما حدث في باريس. وعندها أرغمت الطبقة الوسطى والأرستقراطية على القبول بما لا بد منه؛ فقد ألغيت جميع الامتيازات الإقطاعية رسمياً على الرغم من أنها استعيدت بثمن باهظ بعد أن استقر الوضع السياسي. ولم يلْغ الإقطاع نهائياً إلا عام 1793. وبحلول نهاية آب/أغسطس، تبنت الثورة بيانها الرسمي: "إعلان حقوق الإنسان والمواطن". وفي الاتجاه المعاكس، كان الملك، بغبائه المعهود، يواصل المقاومة، وأخذت قطاعات من ثوار الطبقة الوسطى، الذين أفزعتهم منطويات النهوض الجماعي، تتيقن من أن الاتجاهات المحافظة قد آن أوانها.

ومجمل القول إن ملامح الشكل الرئيسي للسياسات الفرنسية والبورجوازية اللاحقة جميعها قد بدأت تتَّضح وتنجلي، وستهيمن هذه الرقصة الجدلية المثيرة على الأجيال القادمة، وسنرى دعاة الإصلاح المعتدلين في الطبقة الوسطى يحشدون الجماهير ضد المقاومة العنيدة أو

الثورة المضادة، وسنرى الجماهير وهي تندفع إلى ما يتجاوز أهداف المعتدلين وصولاً إلى ثوراتها الاجتماعية الخاصة، والمعتدلين ينقسمون في تلك الأثناء بين جماعة محافظة تنضم آخر الأمر إلى صفوف الرجعيين، وجناح يساري مصمم على بلوغ ما تبقى من أهداف المعتدلين التي لم تتحقق بعد بمساعدة من الجماهير، حتى ولو خاطرت بفقدان السيطرة عليها. وهكذا دواليك، عبر التكرار والتنويع في صيغة المقاومة ـ التعبئة الجماهيرية ـ التحول إلى اليسار ـ الانشقاق في أوساط المعتدلين ـ والتحول إلى اليمين، إلى أن تتخذ الأمور واحداً من مسارين: فإما أن تتحول أغلبية الطبقة الوسطى إلى المعسكر المحافظ، أو تُمنى بالهزيمة أمام الثورة الاجتماعية. وفي أغلب الثورات البورجوازية التالية، كان على الليبراليين المعتدلين أن يتراجعوا، أو ينتقلوا في مرحلة مبكرة جداً إلى صفوف المحافظين. بل إننا نجدهم في القرن التاسع عشر (ولا سيما في ألمانيا) غير ميالين إلى بدء الثورة على الإطلاق خوفاً من نتائجها غير المحسوبة، وآثروا مع ذلك أن يتصالحوا مع الملك والأرستقراطية. وكان وجه الغرابة في الثورة الفرنسية يتمثل في أن جانباً من الطبقة الوسطى الليبرالية كان مستعداً للإبقاء على روحه الثورية إلى أن يبلغ، بل يتجاوز حدود الثورة المعادية للبورجوازية، وهؤلاء هم "اليعاقبة"، الذين أصبح اسمهم مرادفاً لـِ "الثورة الراديكالية الجذرية" في كل مكان.

ولماذا؟ السبب، في جانب منه، هو أن البورجوازية الفرنسية لم يكن وراءها، مثل الليبراليين اللاحقين، ما يفزعها من الذكريات المريرة للثورة الفرنسية. ففي أعقاب 1794، اتضح للمعتدلين أن نظام اليعاقبة قد دفع بعجلات الثورة إلى الأمام بأكثر مما يحتمله البورجوازيون ومصالحهم في المستقبل، كما تبين للثوريين أنه إذا ما قُدر لـِ "شمس 1793" أن تشرق مرة أخرى، فإن عليها أن تُطل على مجتمع غير بورجوازي. كما أن بوسع اليعاقبة، من جهة أخرى، أن يتقبلوا النزعة الراديكالية؛ إذ لم تكن قد قامت في زمانهم طبقة قادرة على أن تطرح

نفسها بديلاً اجتماعياً متماسكاً لهم. فمثل هذه الطبقة لا يمكن أن تنشأ إلا في سياق الثورة الصناعية، مع البروليتاريا أو، بصورة أدق، مع الأيديولوجيات والحركات المنطلقة منها. ولم تكن الطبقة العاملة، (وتلك، بالمناسبة، تسمية مغلوطة لجمهرة من العاملين بأجر خارج ميدان الصناعة على الأغلب)، قد أسهمت حتى ذلك الحين بأي دور مستقل ذي أهمية. صحيح أنهم جاعوا، وشاغبوا، وربما حلموا. غير أنهم، لأغراض عملية، تبعوا زعماء غير بروليتاريين. أما الفلاحون، فلا يقدمون بديلاً سياسياً عن أي طرف آخر، ويظلون، حسبما تقتضيه المناسبات، يحافظون على أنفسهم إما كقوة تتعذر مقاومتها، أو كتلة ثابتة في مكانها من دون حراك. وإذا استثنينا زُمر المفكرين الأيديولوجيين والمناضلين الذين يداهمهم العجز حالما يحرمون من الدعم الجماهيري، فإن البديل الوحيد للراديكالية البورجوازية هو جماعة "اللامتسرولون" (Sansculottes)، الذين يمثلون، على الأغلب، حركة حضرية هلاميّةً للكادحين الفقراء، وصغار الحرفيين، والصناع المهرة، وأصحاب المشروعات الصغرى ومن إليهم. كان اللامُتسرولون منظمين، ولا سيما في "أقسام" باريس والنوادي السياسية المحلية، وكانوا القوة الضاربة الرئيسية للثورة؛ أي جمهرة المتظاهرين والمشاغبين، وبناة المتاريس. ومن خلال صحافيين مثل مارا (Marat) وإيبير (Hébert)، وناطقين محليين، وضعوا سياسة يكمن خلفها نموذج اجتماعي مثالي غامض المعالم، متناقض يجمع بين احترام الملكية الفردية (الصغيرة)، والعداء للأثرياء، والعمل الذي تكلفه الحكومة، والأجور والضمان الاجتماعي للفقراء، وديمقراطية متطرفة ومحلية ومباشرة تقوم على المساواة والحرية. والواقع أن اللامتسرولين كانوا فرعاً من الاتجاه السياسي المهم العام الذي كان يستهدف التعبير عن مصالح الجماهير العريضة من "الناس العاديين" الذين يعيشون بين قطبي الرحى: البورجوازيين والبروليتاريا، مع ميل إلى الثانية دون الأولى؛ لأنهم كانوا جميعاً يعانون الفقر. ويمكننا أن نلاحظ تيارات أخرى في هذا الاتجاه العام في الولايات المتحدة (مثل

الجفرسونية، والديمقراطية الجاكسونية، أو الشعبوية)، وفي بريطانيا (الراديكالية)، وفي فرنسا (أسلاف "الجمهوريين" والاشتراكيين الراديكاليين في المستقبل)، وفي بلدان أخرى. ولقد نزع هذا التيار، في أغلب الأحيان، إلى الاستقرار في المراحل التي تلت عصور الثورة ليمثل الجناح اليساري في ليبرالية الطبقة الوسطى، مع تحاشي الاعتقاد بالمبدأ القديم بأن ثمة أعداء له في صفوف اليسار، والاستعداد، وقت الأزمات، للتمرد ضد "حائط المال" أو "المَلَكيين الاقتصاديين" أو "صليب الذهب الذي علقت عليه البشرية". بيد أن حركة اللامتسرولين أخفقت كذلك في طرح بديل حقيقي؛ ذلك أن النموذج المثالي الذي كان يراودها، ويمثل الماضي الذهبي للقرويين والصناع المهرة الذين لا يكدر حياتهم أصحاب البنوك والملايين، لم يكن ممكن التحقيق، وكان التاريخ يتحرك ضدهم في الاتجاه المعاكس. وجل ما كان بوسعهم أن يفعلوه ـ وذلك ما أنجزوه بين العامين 1793 و1794 ـ هو أن يقيموا العراقيل في طريق التاريخ، وذلك ما أعاق النمو الاقتصادي الفرنسي منذ ذلك الوقت وربما حتى الآن. والحقيقة أن حركة اللامتسرولين كانت ظاهرة توحي العجز حتى إن اسمها أصبح، إلى حد بعيد، نسياً منسياً، أو أن ذكرها لا يرد إلا باعتبارها مرادفة لليعاقبة الذين تزعموها في السنة الثانية.

II

في الفترة بين العامين 1789 و1791، باشرت البورجوازية المعتدلة الظافرة، من خلال ما أصبح الآن "الجمعية التأسيسية"، عملية الترشيد والإصلاح الهائلة التي كانت ترمي إليها في فرنسا. وتعود إلى تلك الفترة أغلب الإنجازات المؤسسية الدائمة للثورة، بما فيها نتائجها الدولية الباهرة، واستحداث النظام المتري، وريادة تحرير اليهود. وكان للجمعية التأسيسية منظور ليبرالي تماماً من الوجهة الاقتصادية؛ فقد تركزت سياستها تجاه الفلاحين في إغلاق الأراضي العامة المشاع

وتشجيع أصحاب المشروعات الريفية، وتجاه الطبقة العاملة في درء خطر النقابات، وتجاه الحرف الصغيرة في إلغاء نقابات التجار والصناع وجمعياتهم. ولم ترضَ عامة الناس بغير القليل الملموس، باستثناء عَلْمنة أراضي الكنيسة وبيعها (وكذلك أراضي النبلاء المهاجرين) عام 1790، مما كان له ثلاث فوائد مترابطة هي: إضعاف سلطة الكهنوت، وتعزيز قدرة أصحاب المشروعات الفلاحية في الأقاليم، ومنح كثير من الفلاحين مردوداً قيس على قدر نشاطهم الثوري. وتولى دستور 1791 صيانة الديمقراطية بنظام ملكي دستوري يقوم على تمتع قاعدة عريضة من "المواطنين النشطين" ذوي الأملاك بحق التصويت. وكان من المؤمل أن يكون هؤلاء أهلاً لهذا الحق. غير أن ذلك لم يتحقق في الواقع؛ فالملكية، التي غدت تساندها الآن جماعات قوية من الثوريين السابقين المنشقين، لم ترضخ لمتطلبات النظام الجديد. لقد كان البلاط يُحِكم، ويتآمر، لإرسال حفنة من أبناء عمومة الملك لطرد زمرة العوام الحاكمة تلك، وإعادة ملك فرنسا، الكاثوليكي الأول، المبارك من الرب، إلى مكانه الحق. وجاء الدستور المدني للكهنوت (1790)، وهو محاولة خاطئة لا لتدمير الكنيسة، بل لتدمير الولاء الروماني المطلق للكنيسة، ليدفع أكثر رجال الدين وأتباعهم إلى صفوف المعارضة، وليدفع الملك إلى محاولة يائسة، تكشفت آخر الأمر عن محاولة انتحارية، للهرب من البلاد. وألقي القبض عليه في فارين (حزيران/ يونيو 1791)، فغدت النزعة الجمهورية منذئذٍ قوة جماهيرية؛ ذلك أن الملوك الذين يتخلون عن شعوبهم إنما يخسرون حقهم في ولائها لهم. ومن جهة أخرى، أبرز اقتصاد المعتدلين القائم على المشروع الخاص المنفلت درجةَ التقلب في مستويات الأسعار، وزاد بالتالي من حدة الموقف في أوساط الفقراء في المراكز الحضرية، ولا سيما في باريس. وسجل سعر الخبز درجة السخونة السياسية في باريس بدقة لا يضاهيها إلا ميزان الحرارة، وأصبحت جماهير باريس الآن هي القوة الثورية الحاسمة. فلا عجب إذن في أن العلم الفرنسي الجديد المثلث الألوان قد جمع بين الأبيض الملكي

القديم، ولونيْ باريس الأحمر والأزرق.

وأفضى نشوب الحرب إلى نقطة الانفجار؛ أي إلى الثورة الثانية عام 1792، وجمهورية اليعاقبة في السنة الثانية، وآخر الأمر، إلى مجيء نابليون. وبعبارة أخرى، فإن الحرب حولت تاريخ الثورة الفرنسية إلى تاريخ لأوروبا.

عملت قوّتان على دفع فرنسا إلى خوض حرب عامة، هما: اليمين المتطرف واليسار المعتدل. وأصبح واضحاً بالنسبة للملك، وللنبلاء الفرنسيين، والأرستقراطية المتزايدة التي أخذت تتجمع في مختلف المدن الألمانية الغربية، أن التدخل الأجنبي هو الوسيلة الوحيدة لإعادة النظام القديم[8]. وإذا أخذنا بالاعتبار تعقيدات الوضع الدولي، والاستقرار السياسي النسبي في الدول الأخرى، أدركنا أن تنظيم مثل هذا التدخل لم يكن بالأمر اليسير. غير أنه كان من الواضح أيضاً لدى النبلاء والحاكمين بنعمة الرب في أماكن أخرى أن استعادة سلطة لويس السادس عشر لم تكن مجرد دليل على التضامن الطبقي، بل كانت صمام الأمان ضد انتشار الأفكار الوافدة من فرنسا. من هنا، بدأت القوى المتأهبة لغزو فرنسا التجمع في الخارج.

وفي الوقت نفسه، كان الليبراليون المعتدلون أنفسهم، ولا سيما مجموعات السياسيين المتحلقين حول النواب من دائرة جيروند التجارية، يمثلون قوة محاربة؛ ويعود ذلك جزئياً إلى أن كل ثورة حقيقية تنزع إلى أن تكون مسكونية في آفاقها. فبالنسبة للفرنسيين، وللعديد من أنصارهم

---

(8) بين العامين 1789 و1795، هاجر ما يقارب 300 ألف فرنسي، انظر: C. Bloch, "L'Emigration française au XIX siècle," *Etudes d'histoire moderne et contemporaine*, vol. 1 (1947), p. 137, et Donald Greer, *The Incidence of the Emigration during the French Revolution* (Cambridge: Harvard University Press, 1951).

في الخارج، كان تحرير فرنسا هو المرحلة الأولى من الانتصار العالمي الشامل لمعركة الحرية؛ وأدى ذلك الموقف إلى الإسراع بالاعتقاد بأن من واجب أُمِّ الثورات أن تتولى تحرير جميع الشعوب التي كانت ترزح تحت نير القمع والطغيان. كانت ثمة عاطفة مشبوبة ورغبة عارمة في أوساط الثوار والمعتدلين والمتطرفين لإشاعة الحرية، وعجز حقيقي عن فصل الأمة الفرنسية عن البشرية المستعبدة بأكملها. وتبنت كل من الحركات الثورية الفرنسية والأخرى وجهة النظر هذه، أو قامت بتعديلها، حتى العام 1848 على الأقل. وأصبحت جميع الخطط الرامية إلى تحرير أوروبا حتى العام 1848 رهناً بانتفاضة مشتركة تقوم بها الشعوب بزعامة فرنسية لإطاحة الرجعية الأوروبية. ومالت الثورات الوطنية والتحررية بعد العام 1830، مثلما حدث في إيطاليا وبولندا، إلى الاعتقاد بأنها تحمل رسالة رسولية تدفعها إلى تمكين الآخرين من الإمساك بزمام الحرية.

ومن جهة أخرى، فإن الحرب، إذا ما نظرنا إليها نظرة أقل مثالية، ستساعد في حل العديد من المشكلات الداخلية. ولا شك في أنه كان من المغري أن تُعزى الصعوبات التي يعانيها النظام الجديد إلى مؤامرات المهاجرين والطغاة الأجانب لتتحول إليهم مشاعر النقمة الشعبية. وقد احتج أصحاب الأعمال، بصورة خاصة، بأنه لا يمكن معالجة خفض قيمة العملة والمشكلات الأخرى إلا إذا أزيلت مخاطر التدخل الخارجي. وكان هؤلاء، ومنظِّروهم وأنصارهم، يرون من خلال نظرة خاطفة على السجل البريطاني، أن التفوق الاقتصادي هو وليد السياسة العدائية المنهجية (ولم يكن القرن التاسع عشر من الأوقات التي يكون فيها أصحاب الأعمال الناجحون من محبي السلام). يضاف إلى ذلك أن الحرب كما سيتبين فيما بعد ستنتج الريح، ولهذه الأسباب كلها، أخذت الأكثرية في الجمعية التشريعية الجديدة، باستثناء جناح يميني صغير، وجناح يساري صغير يتزعمه روبسبيير، الدعوة للحرب. ولهذه الأسباب ذاتها أيضاً، أصبحت غزوات الثورة تجمع بين التحرير، والاستغلال، والإلهاء السياسي.

أعلنت الحرب في نيسان/ أبريل 1792. وأدت الهزيمة التي عزاها الشعب، بقدر من المعقولية، إلى الخيانة وأعمال التخريب الملكية، إلى الراديكالية. وفي خلال آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر، أطيحت الملكية، وأسست جمهورية واحدة متماسكة، وأعلن عصر جديد في تاريخ البشرية مع البدء بتطبيق "السنة الأولى" من التقويم الثوري بوساطة العمل العسكري الذي قامت به جماهير اللامُتسروِلين في باريس. وقد بدأت الثورة الفرنسية عصرها الحديدي البطولي في غمرة مذابح أقيمت للمساجين السياسيين، وانتخابات المؤتمر الوطني - الذي قد يكون التجمع الأبرز في تاريخ العمل البرلماني - والدعوة إلى المقاومة الشاملة للغزو. وسجن الملك، وأوقف الغزو الأجنبي في معركة غير مثيرة بالمدفعية في فالمي.

إن الحروب الثورية تفرض منطقها الخاص. وكان الجيروندييون، الذين أظهروا نزعة حربية في الخارج وتوخوا الاعتدال في الداخل، يمثلون الحزب المهيمن في المؤتمر الجديد، وكانوا يتألفون من مجموعة من الخطباء البرلمانيين اللامعين الأخاذين، ويمثلون الأعمال التجارية الكبيرة، والبورجوازية في الأقاليم، ويتمتعون بمكانة ثقافية مميزة، وكانت سياساتهم مستحيلة كلياً؛ ذلك أن دولة قادرة على شن حملات محدودة بقوة عسكرية منظمة هي وحدها القادرة على حفظ التوازن المحكم بين الحرب والشؤون الداخلية (وذلك ما كانت تفعله النساء والرجال في بريطانيا في روايات جين أوستن (Jane Austen)). ولم تقم الثورة بحملة محدودة، كما أنها لم تكن لديها قوات منظمة؛ لذلك تأرجحت الحرب، على هذا الأساس، بين الانتصار الساحق للثورة العالمية من جهة، والهزيمة الساحقة التي كانت تعني نجاح الثورة المضادة من جهة ثانية. أما الجيش، وهو ما تبقى من الجيش الفرنسي القديم، فكان عديم الفاعلية غير جدير بالثقة؛ إذ هرب دومورييز أبرز القادة الجمهوريين من الجيش بعد فترة وجيزة، وانضم للأعداء. ولم يكن ممكناً كسب مثل هذه الحرب إلا بانتهاج أساليب ثورية غير مسبوقة،

حتى لو كان النصر يعني إلحاق الهزيمة بالتدخل الأجنبي فحسب. وقد تم العثور على هذه الأساليب في الواقع. فخلال أزمتها هذه، اكتشفت الثورة الفرنسية أو اخترعت الحرب الشاملة؛ أي حشد جميع موارد الأمة من خلال التجنيد، والتقنين، وممارسة السيطرة الحازمة على الاقتصاد، وإلغاء الامتيازات بين الجنود والمدنيين، في الداخل والخارج. ولم يتضح هول التداعيات التي خلفها هذا الاكتشاف إلا في هذه الحقبة التاريخية. فحيث إن الحرب الثورية بين العامين 1792 و1794 ظلت حالة استثنائية، فإن أغلب المراقبين في القرن التاسع عشر لم يفهموا معناها، واقتصرت النتائج التي خلصوا إليها (ثم نسيت في أواخر العهد الفيكتوري الطويل) على القول إن الحروب تؤدي إلى الثورات، وإن الثورات تكسب حروباً يستحيل كسبها. ولا يسعنا إلا في أيامنا هذه، وبمنطق المجهود الحربي الشامل المعاصر، أن نفهم معنى جمهورية اليعاقبة، و"الإرهاب" في العامين 1793 و1794.

لقد أعرب اللامتسرولون عن ترحيبهم بحكومة حرب ثورية، لا لأنهم كانوا يرون، بحق، أن هذه الوسائل وحدها هي التي ستحقق الهزيمة بالثورة المضادة والتدخل الأجنبي، بل لأن هذه الوسائل التي انتهجوها حشدت الشعب، وجعلت العدالة الاجتماعية أقرب منالاً (وقد تناسى هؤلاء أن مجهود الحرب الحديثة الفعال لا يتواءم والديمقراطية الطوعية اللامركزية المباشرة التي يبتغونها). وكان الجيرونديون، من جهة أخرى، يتخوفون من التبعات السياسية الناجمة عن الجمع بين الثورة الجماهيرية والحرب اللتين أطلقوهما من العقال. كما لم يكونوا مهيأين للمنافسة مع اليسار، ولم يكونوا يرغبون في محاكمة الملك أو إعدامه، بل كان عليهم أن يزاحموا منافسيهم "الجبليين" (اليعاقبة)، رموز الحماس الثوري. فاليعاقبة، لا الجيرونديون، هم الذين يريدون توسيع الحرب إلى حملة أيديولوجية عامة للتحرير، ويواجهون بالتحدي المباشر المنافس الاقتصادي الأكبر: بريطانيا. وقد أفلحوا في هذا المسعى. ففي العام 1793، كانت فرنسا تخوض الحرب مع أغلبية

أوروبا، كما بدأت تطبيق عمليات الضم الأجنبي (الذي أكسبه الشرعية المبدأ الذي استحدث في الآونة الأخيرة، القاضي بحق فرنسا في "حدودها الطبيعية"). إلا أن توسيع الحرب، ولو بالأسلوب السيئ الذي سارت عليه، قد شدد من قبضة اليسار الذي كان هو وحده القادر على كسب الحرب. وتراجع الجيرونديون بعد أن خسروا فرصة المناورة، إلى أن انتهوا، آخر الأمر، إلى شن هجمات خائبة على اليسار الذي كان، بدوره، قد بدأ ثورة منظمة في الأقاليم ضد باريس. وفي 2 حزيران/ يونيو 1793، قام اللامتسرولون بانقلاب سريع أطاحوا به الجيرونديين، وأطل عهد جمهورية اليعاقبة.

III

عندما يفكر الشخص العادي المتعلم في الثورة الفرنسية، فإن أول ما يرد إلى ذهنه يتمثل في أحداث العام 1789، ولا سيما "جمهورية اليعاقبة للسنة الثانية". وتبرز في هذا السياق صور جلية شتى: روبسبيير المتأنق، ودانتون (Danton) الجسيم الداعر، وسان ـ جوست الثوري الجليدي الأنيق، ومارا الفظ، ولجنة السلامة العامة، والمحكمة الثورية والمقصلة. وقد انقرض كثير من الأعلام الثوريين المعتدلين الذين تحركوا عام 1789 في منتصف المسافة بين ميرابو ولافاييت من جهة، واليعاقبة من جهة أخرى، ولم يعد يذكرهم إلا المؤرخون. وتُستحضَر ذكرى الجيرونديين باعتبارهم جماعة فحسب، وربما لاعتبارات غير مهمة سياسياً، وبسبب النساء الرومانسيات اللواتي التحقن بهم، ومنهن مدام رولان (Mme Roland)، أو شارلوت كورداي (Charlotte Corday). فأنّى لأحد من غير الخبراء أن يعرف أسماء مثل: بريسو، فيرنيو، غوديه وغيرهم؟ لقد خلق المحافظون صورة دائمة لـِ "الإرهاب"، والدكتاتورية، والتعطش الهستيري لسفك الدماء دونما هوادة. وعلى الرغم من ذلك، فإن عمليات القتل الجماعي آنذاك تبدو متواضعة نسبياً إذا ما قيست بمعايير القرن العشرين، أو حتى بمقاييس قمع المحافظين

للثورة الاجتماعية، مثل المذابح التي جرت بعد "كومونة باريس" عام 1871. فقد نفذت سبعة عشر ألفاً من حالات الإعدام الرسمي خلال أربعة عشر شهراً[9]. واعتبر الثوار، ولا سيما في باريس، هذه الفترة جمهورية الشعب الأولى التي ألهمت جميع ما تلاها من ثورات. ولا ينبغي على هذا الأساس قياس هذه المرحلة بمعايير الحياة البشرية العادية.

وذلك صحيح. غير أن الأمر بالنسبة للطبقة الوسطى الصلبة التي وقف أفرادها وراء "الإرهاب" بكل قوة، لم يكن حالة مَرَضية ولا رؤية مستقبلية، بل كان في المقام الأول الأسلوب الوحيد الفعال للمحافظة على بلادهم. وهذا ما فعلته جمهورية اليعاقبة، فحققت بذلك إنجازاً فارقاً للعادة. ففي حزيران/ يونيو 1973، كانت ستون من أصل ثمانين دائرة في فرنسا في حالة تمرد ضد باريس، وكانت جيوش الأمراء الألمان تغزو فرنسا من الشمال والشرق، بينما كان البريطانيون يشنون هجماتهم من الجنوب والغرب، وكانت البلاد تعاني العجز والإفلاس. وما إن انقضت أربعة عشر شهراً حتى كانت فرنسا كلها تخضع لسيطرة مُحكمة بعد أن طرد جميع الغزاة، وأعاد الجيش الفرنسي احتلال بلجيكا، وأوشك على دخول مرحلة جديدة من الانتصارات العسكرية المستمرة السهلة نسبياً ما يقرب من عشرين عاماً لاحقة. ففي آذار/ مارس 1794 كانت نفقات الجيش، الذي تضاعف حجمه ثلاث مرات عما كان عليه من قبل، تعادل نصف النفقات السابقة في آذار/ مارس 1973، واستقرت قيمة العملة الفرنسية (أو، بالأحرى، أوراق الأسينياه (Assignats) التي حلت محلها)، خلافاً لما كان عليه الحال في الماضي وما أصبح عليه في المستقبل. ولا عجب إذن إذا وجدنا جانبون سان أندريه، العضو اليعقوبي في لجنة السلامة العامة الذي أصبح، رغم نزعته الجمهورية الراسخة، واحداً من أكثر رجالات نابليون كفاءة،

---

(9) Donald Greer, *The Incidence of the Terror during the French Revolution: A Statistical Interpretation* (Cambridge: Harvard University Press, 1935).

ينظر بازدراء إلى فرنسا الإمبراطورية التي بدأت تتداعى تحت وطأة الهزائم بين العامين 1812 و1813. لقد أفلحت جمهورية السنة الثانية في التعامل مع أزمات أسوأ بموارد أقل[10].

بالنسبة لهؤلاء الرجال، بل لجميع أعضاء المؤتمر الوطني الذي استمر بفرض سيطرته طوال هذه الفترة البطولية، كان الخيار بسيطاً بين أمرين لا ثالث لهما: فإما الإرهاب بكل ما فيه من مثالب من وجهة نظر الطبقة الوسطى، أو تدمير الجمهورية وتفكيك بنية الدولة الوطنية، وربما، على نحو ما حدث في بولندا، اختفاء البلاد بأكملها. ولولا الأزمة المستحكمة في فرنسا، لكان الكثيرون منهم يفضلون نظاماً أقل حديديةً، واقتصاداً أقل خضوعاً للسيطرة. وأدى سقوط روبسبيير إلى انتشار وبائي للتسيّب الاقتصادي والتهريب والفساد الذي أفضى آخر الأمر إلى تصاعد التضخم ثم إلى إعلان الإفلاس الوطني عام 1797. وحتى لو نظرنا إلى الوضع من زاوية أضيق، فإن مستقبل الطبقة الوسطى الفرنسية كان يعتمد على وجود دولة وطنية مركزية موحدة قوية. وعلى أية حال، فإن الثورة التي خلقت تقريباً مفهوم "الأمة"، و"الانتماء الوطني" بالمعنى الحديث للاصطلاح لم تكن تتخلى عن مفهوم "الأمة العظمى".

كانت المهمة الأولى التي أخذها نظام اليعاقبة على عاتقه هي حشد الدعم الشعبي ضد الجيرونديين ووجهاء الأقاليم المنشقين، والمحافظة

(10) "هل تعرفون الحكومة (التي تحقق لها النصر)؟... إنها حكومة المؤتمر، حكومة اليعاقبة ذوي القبعات الحمر، الذين ارتدوا الملابس الصوفية الخشنة، وعاشوا على الخبز الكفاف والجعة الرديئة، وناموا على مطارح مدت على أرض قاعات الاجتماع عندما كان يعييهم التعب ولا يستطعون الاستيقاظ لإجراء المزيد من المداولات. هؤلاء هم الرجال الذين أنقذوا فرنسا. وكنت واحداً منهم أيها السادة. ولا يسعني في هذا المقام، وأنا أوشك على دخول ردهات الإمبراطور، إلا أن أعتز بذلك كل الاعتزاز"، مقتبسة من كتاب: Jean Savant, *Les Préfets de Napoléon* ([Paris]: Hachette, [1958]), pp. 111-112.

على المساندة الجماهيرية التي يتمتع بها اللامتسرولون في باريس، الذين كانت مطالبتهم بجهد حربي ثوري ـ أي بالتجنيد العام، وبالإرهاب ضد "الخونة"، والضبط المحكم للأسعار ـ تصادف هوى في نفوس اليعاقبة، مع أن مطالبهم الأخرى كانت أكثر صعوبة. وأعلن دستور جديد أكثر تطرفاً كان الجيرونديون قد أرجأوا إعلانه. ووفقاً لهذه الوثيقة النبيلة، وإن كانت أكاديمية المنحى، منح الشعب حق التصويت الكامل الشامل، وحق التمرد، والعمل، أو الإعالة، والأهم من ذلك كله، الإعلان الرسمي عن أن هدف الحكومة هو تحقيق السعادة للجميع، وأن حقوق الناس ينبغي أن لا تكون متاحة فحسب، بل يجب ممارستها بنشاط وفاعلية. وكانت هذه الوثيقة أول دستور ديمقراطي حقيقي تعلنه دولة حديثة. وبصورة أكثر تخصيصاً، ألغى اليعاقبة البقية الباقية من الحقوق الإقطاعية من دون تعويض، وطوروا فرص المستثمرين الصغار لابتياع أراضي المهاجرين المهجورة، كما ألغوا، بعد بضعة أشهر، الرق في المستعمرات الفرنسية لتشجيع الزنوج في سان دومنغو على الكفاح لمصلحة الجمهورية ضد الإنجليز. وكان لهذه الإجراءات نتائج بعيدة المدى؛ ففي أمريكا، أسهمت في إبراز أول زعامة ثورية مستقلة ذات شأن في توسان ـ لوفرتور[11]. وأسست في فرنسا قلعة حصينة منيعة للفلاحين الملاّك، صغاراً ومتوسطين، ولصغار الصناع المهرة وأصحاب الحوانيت، الذين أصابهم التقهقر الاقتصادي ولكنهم ظلوا على ولائهم الشديد للثورة وللجمهورية؛ وذلك هو الموقف المهيمن في البلاد منذ ذلك الحين. وقد تباطأ التحول الرأسمالي للزراعة والمشروعات الصغيرة، وهو الشرط الجوهري للنمو الاقتصادي السريع، وخفّت سرعة الزحف

(11) كان فشل فرنسا النابليونية في استعادة هايتي واحداً من الأسباب الرئيسية لتصفية كامل الإمبراطورية الأمريكية المتبقية التي بيعت للولايات المتحدة بموجب صفقة لويزيانا (1803). وهكذا، كان من النتائج الإضافية لانتشار النزعة اليعقوبية في أمريكا أن أصبحت الولايات المتحدة قوة تنتشر على مدى قارة بأكملها.

الحضري، والتوسع في أسواق البناء، وتكاثر الطبقة العاملة، وبالتالي مظاهر التقدم في الثورة البروليتارية. وحكم على كل من الشركات الكبرى والحركة العمالية أن تظل ظاهرة أقلية في فرنسا، وجزراً يحيط بها بحر من البقالات على زوايا الشوارع، ومن صغار الملّاك الزراعيين وأصحاب المقاهي[12].

أخذ مركز الحكومة الجديدة، التي مثلت تحالفاً بين اليعاقبة واللامتسرولين، يميل بحذر إلى اليسار، وتجلى ذلك في إعادة تشكيل لجنة السلامة العامة التي سرعان ما أصبحت هي حكومة الحرب الفعالة في فرنسا. وقد فقدت اللجنة دانتون، الثوري القوي، الجسور، وربما الفاسد، الموهوب إلى أبعد الحدود، الأكثر اعتدالاً مما يبديه ظاهره (وكان وزيراً في آخر حكومة ملكية)، ولكن اللجنة كسبت ماكسيمليان روبسبيير الذي أصبح أكثر أعضائها نفوذاً. وإن قلة من المؤرخين يستطيعون أن يقيّموا، بروح موضوعية لا تشوبها العاطفة، هذا المحامي الأنيق الظريف المتعصب الذي يعتقد في قرارة نفسه أن الفضيلة حكرٌ ووقف عليه، لأنه هو الذي يجسد الإرهاب والعظمة اللذين حملتهما السنة الثانية التي لا يمكن لامرئ أن يتخذ منها موقف الحياد، وهو لم يكن شخصاً مقبولاً على أية حال؛ وحتى الذين يعتقدون الآن أنه كان على حق، يؤثرون عليه العنفوان الرياضي اللامع الذي كان يتمتع به مهندس الفراديس الإسبارطية الشاب سان ـ جوست. ولم يكن رجلاً عظيماً، بل إنساناً ضيق الأفق أغلب الأحيان. بيد أنه الفرد الوحيد ممن أفرزتهم الثورة (عدا نابليون)، وأحاطت به هالة من الاستهواء والتمجيد. ذلك أن جمهورية اليعاقبة لم تكن بالنسبة له وبالنسبة للتاريخ، أداة لكسب الحرب، بل نموذجاً مثالياً؛ إنها تجسد سيادة العدالة والفضيلة، بما تنطوي عليه من إرهاب وعظمة، عندما يكون المواطنون

---

(12) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

سواسية في نظر الأمة، ويباشرون مطاردة الخونة. وقد استوحى مزيداً من القوة من جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau)[13]، ومن اعتقاده الراسخ بعصمته، ولم تكن لديه سلطات دكتاتورية رسمية، أو حتى مكتب خاص، لأنه لم يكن أكثر من عضو في لجنة السلامة العامة، وهي اللجنة الأقوى، وإن لم تكن الكاملة القوة، في المؤتمر، وكانت قوته تنبع من الشعب ـ من جماهير باريس، وكان إرهابه من إرهابهم. وعندما تخلى عنه الناس، هوى ساقطاً.

تكمن مأساة روبسبيير وجمهورية اليعاقبة في أنهما كانا مرغمين على قطع هذا الدعم. فقد كان النظام تحالفاً بين الطبقة الوسطى وجماهير الكادحين. أما بالنسبة ليعاقبة الطبقة الوسطى، فإنه يمكن التغاضي عن الامتيازات التي يتمتع بها اللامتسرولون ما دامت تزيد من التفاف الجماهير حول النظام دون إلقاء الرعب في نفوس الملاّك، وكان يعاقبة الطبقة الوسطى هم العامل الحاسم في نطاق هذا التحالف. يضاف إلى ذلك أن احتياجات الحرب أرغمت كل حكومة على التنفيذ والضبط والربط بصورة مركزية، وعلى حساب الديمقراطية الحرة المحلية المباشرة في المنتديات والشُّعب، وفي الميليشيات التطوعية العرضية، والانتخابات الحرة الحافلة بالمناقشات التي كان يغتذي منها اللامتسرولون. إن العملية التي عززت موقف الشيوعيين على حساب الفوضويين في الحرب الأهلية الإسبانية بين العامين 1936 و1939 هي التي شجعت اليعاقبة من أتباع سان ـ جوست وأمثاله على حساب اللامتسرولين من أنصار إيبير. وبحلول العام 1794، كانت الحكومة والأنشطة السياسية قد تحولت إلى كتلة واحدة متماسكة من السلطة، يسيرها ويشرف عليها مندوبون مباشرون عن اللجنة أو المؤتمر، من خلال مبعوثين لأداء مهمات محددة، بالإضافة إلى أعداد ضخمة من الضباط والمسؤولين اليعاقبة، بالتعاون مع المنظمات الحزبية المحلية.

---

(13) انظر الفصل الثالث عشر، ص 445-457 من هذا الكتاب.

وأخيراً، فإن الاحتياجات الاقتصادية للحرب أسهمت في تراخي المساندة الشعبية. وقد استفادت الجماهير في المدن والبلدات من ضبط الأسعار والتقنين. غير أن تجميد الأجور الذي رافقها ألحق الضرر بالناس. أما في المناطق الريفية، فإن التجميع المنهجي المنظم للأغذية قد أثار مشاعر العداء في أوساط الفلاحين.

وهكذا، تراجعت الجماهير إلى تخوم التذمر أو إلى أجواء من السلبية الحائرة الغاضبة، خصوصاً بعد محاكمة أنصار إيبير وإعدامهم، وهم الأعلى صوتاً بين المتحدثين بلسان اللامتسرولين. وفي تلك الأثناء، دب الفزع في صفوف المزيد من المساندين المعتدلين بسبب الهجمات التي شنت على الجناح الأيمن الذي تزعمه دانتون في المعارضة. وكان هذا الطرف المنشق قد وفر ملجأ للعديد من المتلاعبين بالسوق، والمضاربين، وناشطي السوق السوداء وغيرهم من العناصر التي كانت، رغم فسادها، هي التي تتراكم لديها رؤوس الأموال. وقد تفاقم هذا الوضع عندما أخذ دانتون يجسد في سلوكه توجهاً فولستافياً لا صلة له بالأخلاق، يقوم على حرية الحب وحرية الإنفاق (وكثيراً ما يبرز مثل هذه الاتجاهات أول الأمر في المراحل الأولى من الثورات الاجتماعية، إلى أن تعود الغلبة للنزعة التطهرية المحافظة). إن أمثال دانتون في التاريخ يُمْنوْن بالهزيمة دائماً على أيدي أمثال روبسبيير (أو من يدعون أنهم يحذون حذو روبسبيير)، لأن تكريس التقاليد المحافظة يستطيع أن يحقق النجاح، بينما تعجز عن ذلك الحياة البوهيمية. وإذا كان روبسبيير قد تمتع بدعم معتدل، لأنه قضى على الفساد ـ الذي كان يعمل في كل الأحوال لمصلحة المجهود الحربي ـ فإن القيود المشددة على الحرية وعلى الكسب قد أثارت مخاوف رجال الأعمال. وأخيراً، فإن قطاعاً صغيراً فحسب من الرأي العام كان يلقي بالاً للأهواء والنزوات الأيديولوجية المتداولة في تلك الفترة، مثل حملات اقتلاع المسيحية (بسبب حماس اللامتسرولين)، والدين المدني الجديد الذي جاء به روبسبيير باسم "الكائن الأسمى"، وما يرافقه من طقوس واحتفالات. وكان ذلك

بمثابة ردة فعل على الملحدين وتطبيقاً لمبادئ جان جاك المقدس. وظل هسيس المقصلة المستمر يذكر جميع السياسيين أن لا أحد منهم في مأمن حقيقي. وبحلول نيسان/ أبريل 1794، كان اليمين واليسار قد لقيا مصرعهما على المقصلة، وبدأ أنصار روبسبيير يعانون العزلة السياسية، ولم يبقوا في مواقعهم إلا بسبب أزمة الحرب. وفي أواخر حزيران/ يونيو 1794، وعندما كانت جيوش الجمهورية الجديدة تثبت صمودها وصلابتها وتدحر النمساويين في فلوروس، وتحتل بلجيكا، كانت النهاية على الأبواب. وفي التاسع من ثيرميدور بموجب التقويم الثوري (يوليو 27، 1794)، أطاح المؤتمر روبسبيير. وفي اليوم التالي، أعدم هو وسان جوست وكوتون، ولحق بهم إلى المقصلة بعد أيام قليلة سبعة وثمانون عضواً من ثوار كومونة باريس.

IV

ثيرميدور هو خاتمة المرحلة البطولية الباقية في الأذهان من الثورة: مرحلة اللامتسرولين الأشاعث والمواطنين الأكارم ذوي القبعات الحمر الذين نظروا إلى أنفسهم باعتبارهم بروتوس وكاتو؛ مرحلة العبارات البليغة الطنانة، ولكن سريعة الاندثار: "ليون لن تتكرر" ("Lyon n'est plus")، "عشرة آلاف من الجنود الحفاة. عليكم أن تجردوا جميع الأرستقراطيين في ستراسبورغ من أحذيتهم وتسلموها لتُنقل إلى القيادة العامة بحلول الساعة العاشرة من صباح الغد"[14]. لم تكن هذه مرحلة مريحة للعيش، لأن أغلب الرجال كانوا يتضورون جوعاً، وأكثرهم يساورهم الخوف. ولكنها كانت ظاهرة مهولة قاصمة مثل أول انفجار

---

(14) Louis-Antoine-Léon Saint-Just, *Oeuvres complètes de Saint-Just*, 2 vols., l'élite de la révolution; 1, avec une introd. et des notes par Charles Vellay (Paris: E. Fasquelle, 1908), vol. II: *Rapports et écrits divers (mai 1793-thermidor an II)*, p. 147.

نووي، وتغيرت بعدها مسارات التاريخ كافة على الدوام. وكانت الطاقة التي أطلقتها من عقالها كافية لاكتساح جيوش الأنظمة القديمة في أوروبا ووضعها في مهب الريح.

تمثلت المشكلة التي واجهت الطبقة الوسطى الفرنسية، في ما تبقى مما يعرف فنياً بالفترة الثورية (1794ـ1799)، في كيفية تحقيق الاستقرار السياسي والتقدم الاقتصادي انطلاقاً من البرنامج الليبرالي الأصلي بين العامين 1789 و1791. ولم تتمكن من حل هذه المشكلة قط منذ ذلك اليوم حتى الآن، على الرغم من أنها اكتشفت بعد العام 1870 معادلة عملية في أغلب الأحيان في الجمهورية البرلمانية. التغيرات السريعة في الأنظمة، من الإدارة (1795ـ1799)، والقنصلية (1799ـ1804)، الإمبراطورية (1804ـ1814)، ومَلَكية البوربون المستعادة (1815ـ1830)، والملكية الدستورية (1830ـ1848)، والجمهورية (1848ـ1851)، والإمبراطورية (1852ـ1870)، كانت كلها محاولات للحفاظ على المجتمع البورجوازي مع تحاشي الخطر المزدوج الذي تمثله جمهورية اليعاقبة الديمقراطية، والنظام القديم.

غير أن نقطة الضعف الكبرى لدى الثيرميدوريين كانت تتمثل في افتقارهم إلى أي دعم سياسي، وكذلك في غياب روح التسامح لديهم، وقد وجدوا أنفسهم محاصرين بين رجعية أرستقراطية أعيد إحياؤها من جهة، وفقراء اليعاقبة ـ اللامتسرولين الباريسيين الذي سرعان ما راحوا يتحسرون على سقوط روبسبيير من جهة ثانية. وعام 1795، ابتكروا دستوراً مفصلاً من أجهزة الضبط والربط لحماية أنفسهم من كليهما، وأدت التحركات الدورية يميناً ويساراً إلى المحافظة على التوازن القلق بينهما، إلا أن الطرفين اضطرا إلى الاعتماد على الجيش للفتّ في عضد المعارضة. وكان هذا الوضع مشابهاً على نحو غريب لأوضاع الجمهورية الرابعة فيما بعد، كما أنه أفضى إلى نتائج مماثلة: حكم يتزعمه جنرال. بيد أن الإدارة اعتمدت على الجيش لأغراض أبعد من قمع الانقلابات

والمؤامرات الدورية (ومنها عدة محاولات عام 1795، ومؤامرة بابوف 1796، فروكتيدور 1798، فلوريال 1798، وبريريال 1799)[15]. لقد كان العجز وعدم القدرة على الحركة هما الضمانة الوحيدة لقوة النظام الضعيف الذي لا يتمتع بالشعبية. غير أن روح المبادرة والتوسع هي التي كانت تحتاجها الطبقة الوسطى. وقد استطاع الجيش أن يحل هذه المشكلة التي كانت تبدو مستعصية؛ فهو قد غزا، ودفع كلفة نفسه. والأكثر من ذلك أن غنائمه وغزواته قدمت دعماً مالياً للحكومة. ولم يكن مستغرباً إذن أن أكثر قادة الجيش ذكاءً واقتداراً، نابليون بونابرت، قد قرر بعد ذلك أن الجيش يمكن أن يستغني كلياً عن نظام مدني خائر.

كان هذا الجيش الثوري هو الوليد الجبار لجمهورية اليعاقبة، وقد تحول من جيش من المواطنين الثوريين "Levée en masse" إلى قوة من المقاتلين المحترفين. ولم تكن ثمة دعوة لحمل السلاح بين العامين 1793 و1798. كما أن من لم تكن لديهم الرغبة أو الموهبة للانخراط في الجندية هربوا من الجيش بالجملة. فاحتفظ بالتالي بالخصائص الثورية واكتسب السمات المتعلقة بالمصالح الخاصة؛ وتلك هي الخلطة النابليونية النموذجية. وقد منحته الثورة قوة عسكرية متفوقة غير مسبوقة استغلها نابليون بعبقريته القيادية خير استغلال. وبقيت هذه القوة أشبه بالأداة القابلة للتكيف، حيث يكتسب المجندون الأغرار مهاراتهم القتالية من قدامى الجنود ويتشبعون بروح معنوية عالية. ولم تكن ثمة درجة ملموسة من الانضباط الشكلي في معسكراتهم؛ فقد عومل الجنود معاملة الرجال، وطبق عليهم بصورة مطلقة قانون الترقية على أساس الجدارة (التي تعني التميز في المعارك)، مما أدى إلى نشوء تراتبية بسيطة من العسكريين الشجعان. يضاف إلى ذلك كله إحساسهم بأن لهم رسالة ثورية يؤدونها، مما منح الجيش الفرنسي درجة من الاستقلال عن الموارد التي كانت الجيوش التقليدية تعتمد عليها. فلم يكن لهم نظام فعال

---

(15) هذه هي أسماء الشهور في التقويم الثوري.

للإمداد والتموين؛ لأنهم كانوا يعيشون على ما يتوفر في البلاد التي يدخلونها. ولم يكن لهم رديف من صناعة السلاح، حتى في الحدود الدنيا لاحتياجاتهم الاسمية. غير أن هذه القوات كانت تخوض المعارك وتكسبها، واحدة إثر أخرى، بسرعة فائقة لم تكن تحتاج معها إلا للقليل من السلاح؛ ففي العام 1806، تهاوت آلة الجيش البروسي العظيمة في وجه جيش لم يطلق أكثر من 1,400 طلقة مدفع. كان بوسع الجنرالات أن يراهنوا على شجاعة لا حدود لها في الهجوم، وعلى قدر كبير من روح المبادرة في صفوف الجيش. ولا شك في أن نقطة الضعف التي كان يعانيها هذا الجيش تعود إلى أصوله. ففيما عدا نابليون وقلة من القادة الآخرين، كانت القيادات والأركان فيه تمتاز بالضعف، لأن الجنرال أو الماريشال في جيش نابليون كان، في الأصل، معاون رائد أو ضابط كتيبة مقداماً نال الترقية على أساس شجاعته وروحه القيادية، لا على أساس ذكائه. ويطرح لنا الماريشال ني (Marshal Ney) البطل، البالغ الغباء، نموذجاً لذلك. لقد كان نابليون ينتصر في المعارك، غير أن قادته هم الذين كانوا يخسرونها، وكانت شبكة الإمداد في الجيش كافية في البلدان الغنية التي كانت تتعرض للنهب مثل بلجيكا، وشمال إيطاليا، وألمانيا. غير أنها، كما سنرى، سرعان ما تصاب بالتفكك والانهيار في المناطق الجرداء الواسعة في بولندا وروسيا. وقد أدى غياب خدمات الصحة العامة إلى مضاعفة الإصابات في صفوفه؛ ففي الفترة بين العامين 1800 و1815، خسر نابليون 40 في المئة من جنوده (وكان 30 في المئة منهم من الهاربين من الخدمة)؛ غير أن ما بين 90 في المئة و98 في المئة من هؤلاء لم يلقوا مصرعهم في القتال، بل ماتوا بسبب الجروح، والمرض، والإنهاك والبرد. وباختصار، فإن هذه القوات كانت جيشاً اكتسح أوروبا بأكملها لا لأنه كان قادراً على ذلك، بل لأنه كان مضطراً لذلك.

من ناحية أخرى، كانت الجندية، شأنها شأن الأنشطة الأخرى التي قدمتها الثورة البورجوازية، مساراً مهنياً مفتوحاً للمواهب، وكان

لمن سلكوا هذا المسار ونجحوا فيه مصلحة خاصة في الاستقرار الداخلي كأي مجتمع بورجوازي؛ وذلك ما جعل الجيش، على الرغم من النزعة اليعقوبية المتأصلة فيه، عماداً وسنداً لحكومة ما بعد الثيرميدور، وجعل قائده بونابرت شخصاً مناسباً لاختتام الثورة البورجوازية وبدء العمل لإقامة نظام حكم بورجوازي. ولقد كان نابليون بونابرت نفسه، الذي نشأ في عائلة وجيهة بمقاييس جزيرة كورسيكا الوحشية التي وفد منها، واحداً من أصحاب المهن الاحترافية من هذا النوع. فقد ولد عام 1769، وشق طريقه ببطء في سلاح المدفعية، وهو من فروع الجيش الملكي القليلة التي كانت الكفاءة الفنية فيها من الضرورات القصوى. وفي ظل الثورة، ولا سيما في أثناء دكتاتورية اليعاقبة التي ساندها كل المساندة، نشأ نابليون الثوري الطموح الساخط، إلى أن تعرف إليه مفوض محلي ـ ومن كورسيكا أيضاً ـ في إحدى جبهات القتال الساخنة، وعرف فيه جندياً واعداً ذا مواهب متعددة مشهودة. ورقي إلى جنرال في السنة الثانية، وشهد سقوط روبسبيير، وساعدته قدرته على تنمية الصلات المفيدة في باريس على التقدم بعد هذه اللحظة العصيبة، واغتنم الفرصة خلال الحملة على إيطاليا عام 1796 التي جعلته جندي الجمهورية الأول من دون منازع، وتصرف بصورة مستقلة تقريباً عن السلطة المدنية. وقد منح جانباً مهماً من السلطة، وقام هو بدوره بالإمساك بزمام الجانب الآخر عندما كشفت الغزوات الأجنبية عام 1799 عن عجز الإدارة، وتبين له أنه لا يمكن الاستغناء عنه. وأصبح القنصل الأول، ثم القنصل مدى الحياة، ثم الإمبراطور. وكان مجيئه بما يشبه المعجزة إيذاناً بأن مشكلة الإدارة المستعصية غدت قابلة للحل؛ ففي غضون عدة سنوات، أصبح لفرنسا قانون مدني، وعقدت مصالحة مع الكنيسة، بل أقيم في فرنسا بنك وطني، هو واحد من الرموز البارزة للاستقرار البورجوازي. واستقبل العالم أسطورته الدنيوية الأولى.

وستتعرف أجيال عديدة طوال قرن من الزمان، على أسطورة نابليون كما كانت آنذاك، حيث سيظل تمثاله النصفي معروضاً في

مكاتب حكومات الطبقة الوسطى بأكملها، وستظل تدور حوله النكات لا باعتباره إنساناً، بل بوصفه الإله ـ الشمس، ولا يمكن تفسير قوة هذه الأسطورة تفسيراً مناسباً على أساس انتصارات نابليون العسكرية أو آلته الدعاوية أو عبقريته التي لا مراء فيها. لقد كان إنساناً لا مجال للشك في ألمعيته، وتنوع الجوانب في شخصيته، أو في ذكائه أو قوة خياله، على الرغم من أن السلطة أضفت عليه بعض "الشقاوة". ولم يكن ثمة من يضاهيه قائداً عسكرياً، كما أنه كان مخططاً على مستوى مشهودٍ له من الكفاءة، حاكماً، ورئيساً، ومشرفاً تنفيذياً، وعلى درجة من التوازن الثقافي أتاحت له أن يفهم ما يقوم به مرؤوسوه. وكفرد، كان يبدو كأنه يُشع ويُشيع حوله إحساساً بالعظمة. غير أن من يشهدون على ذلك، مثل غوته، إنما التقوه وهو في ذروة شهرته، أي بعد أن غلفته الأسطورة. لقد كان، من دون شك، رجلاً عظيماً بالغ العظمة، وسيظل الناس المتعلمون يتعرفون إلى صورته، مثلما تعرفوا إلى صورة لينين فيما بعد، في معرض التاريخ المصور، بحجمه الصغير، وخصلة شعره المتهدلة على جبهته، ويده التي تدخل في فتحة صدريته، وسيظل من الإجحاف مقارنته بأي واحد مرشح للعظمة في القرن العشرين.

إن أسطورة نابليون لا تقوم على جدارته الشخصية بقدر ما ترتكز إلى الحقائق المتصلة بحياته المهنية، وهي فريدة من نوعها. لقد بدأ العظماء المعروفون الذين هزوا العالم في الماضي ملوكاً مثل الإسكندر الأكبر، أو من أبناء المدينة مثل يوليوس قيصر (Julius Caesar). غير أن نابليون كان هو "الشاويش الصغير" الذي برز ليحكم قارة أوروبا بحكم موهبته الشخصية المحضة (وليس ذلك صحيحاً من الناحية الفنية، غير أن صعوده الشهابي يجعل هذا الوصف قريباً من الواقع). ويحق لشاب مثقف مثل نابليون، التهم الكتب في صباه وكتب قصائد وروايات رديئة، وعشق روسو حتى العبادة، أن يبلغ طموحه سقف السماء، وأن يرى أحرف اسمه الأولى محاطة بأكاليل الغار، وأن يطمح حتى رجل الأعمال، على سبيل المثال، إلى أن يكون "نابليون المال" أو

الصناعة. لقد افتُتن عامة الناس بإطلالته الفريدة عليهم آنذاك بوصفه واحداً منهم بلغ من العظمة حداً لم يبلغه من ولدوا ليجدوا التيجان في انتظارهم. وأسبغ نابليون على الطموح اسماً شخصياً في الوقت الذي كانت فيه الثورة المزدوجة تفتح باب العالم على مصراعيه أمام الطامحين. غير أنه كان أكثر من ذلك؛ كان نموذجاً لإنسان القرن الثامن عشر المتمدِّن، العقلاني، الطُّلَعَة، المستنير، الذي أخذ عن روسو ما يجعله الإنسان الرومنطيقي في القرن التاسع عشر. كان إنسان الثورة، والرجل الذي حقق الاستقرار. وبعبارة واحدة: كان نابليون هو الشخصية التي كان يحلم بها كل إنسان خارج على ما هو تقليدي.

وبالنسبة للفرنسيين، كان نابليون يمثل أمراً أبسط من ذلك؛ لقد كان الحاكم الأكثر نجاحاً في تاريخهم. فقد حقق انتصارات مجيدة في الخارج؛ ولكنه أسس أو أرسى في الداخل دعائم المؤسسات الفرنسية كما نعرفها حتى اليوم. وصحيح أن الثورة ثم الإدارة قد مهّدتا لجُلِّ أفكاره، إن لم يكن كلّها، إلا أن إسهامه الشخصي هو الذي جعلها أكثر محافظةً، وتراتبيةً، وتسلطاً. لقد اكتفى أسلافه بالتوقع والترقب. أما هو فقد تولى التنفيذ. إن المَعْلَمُ النيّر العظيم الذي يضم وثائق القانون الفرنسي وأسفاره ومدوناته، الذي أصبح نموذجاً حذا حذوه العالم البورجوازي الأنغلوسكسوني برمته، كان نابليوني الأصل والنشأة. كما أن نابليون هو الذي وضع التراتبية الرسمية للمناصب، من رتبة المدير العريف فما دون، وللمحاكم، وللجامعات والمدارس. وما زالت "المهن" العظيمة في الحياة العامة، وفي الجيش، والخدمة المدنية، والتعليم، والقانون، تحتفظ بطابعها النابليوني. ولقد حقق الاستقرار والازدهار لجميع الفرنسيين ما عدا ربع المليون من الجنود الذين لم يعودوا إلى بلادهم من ساحة الحروب التي خاضها، ولكنه منح أقرباءهم المجد والعزة. ولا شك في أن البريطانيين كانوا يعتقدون أنهم يدافعون عن الحرية في وجه الطغيان. غير أن أغلب الإنجليز كانوا عام 1815 أفقر وأسوأ حالاً مما كانوا عليه عام 1800، بينما كان الفرنسيون

يعيشون بالتأكيد في بحبوحة نسبية، كما أن الفرنسيين، ما عدا أقلية ضئيلة من العمال المأجورين، لم يفقدوا شيئاً من الميزات الاقتصادية المهمة التي جلبتها الثورة. فلا عجب إذن إن ظلت البونابرتية هي أيديولوجية الفرنسيين غير السياسيين، ولا سيما الفلاحين، بعد سقوطه؛ وذلك ما بدّده نابليونٌ ثانٍ أصغر من الأول بين العامين 1851 و1870.

بيد أن نابليون دمر شيئاً واحداً فحسب، هو ثورة اليعاقبة، حلم المساواة، والحرية، والإخاء، وحلم الشعب الذي أعلن الثورة الجليلة ضد الاستبداد. لقد كان الحلم أقوى وأبقى أثراً من أسطورة نابليون؛ ذلك أن الحلم، لا ذكرى نابليون بعد سقوطه، هو الذي استلهمته ثورات القرن التاسع عشر، حتى في بلاده فرنسا.



الفصل الرابع

الحرب

"في أيام الابتكار، يغدو كل ما هو غير جديد خبيثاً مؤذياً، ويغدو الفن العسكري الملكي غير مناسب لنا؛ لأننا أناس مختلفون يواجهون أعداء مختلفين. إن قوة الشعوب وانتصاراتها، وعظمة سياساتها وحروبها، كانت على الدوام تعتمد على مبدأ واحد وحيد، وعلى مؤسسة واحدة. . . . إن لأمتنا هويتها الوطنية الخاصة، وينبغي أن يكون نظامها العسكري مختلفاً عن نظام أعدائها. حسناً، إذن: إذا كانت الأمة الفرنسية مرعبة بسبب ما تتمتع به من حماسة ومهارة، وإذا كان أعداؤنا على هذا المستوى من السفاهة والبرود والتلكؤ، فإن على نظامنا العسكري أن يكون أكثر زخماً وجموحاً".

سان ـ جوست، من تقرير قدم للمؤتمر الوطني باسم لجنة السلامة العامة، في التاسع عشر من الشهر الأول للسنة الثانية (10 تشرين الأول/ أكتوبر 1793).

"ليس صحيحاً أن الحرب تجري بأمر إلهي، وليس صحيحاً أن الأرض متعطشة للدم. إن الله نفسه يلعن الحرب، كما يلعنها من يخوضونها، ومن يؤمنون بها في رعب خفيّ".

ألفريد دو فيني (Alfred de Vigny)، **العبودية والمجد العسكري** .(*Servitude et grandeur militaires*)

I

بين العامين 1792 و1815، استمرت الحرب موصولة غير منقطعة في أوروبا، وصاحبتها أو تزامنت معها حروب أخرى في الخارج: في جزر الهند الغربية والشرق، والهند في التسعينات من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وفي العمليات البحرية التي كانت تجري بين حين وآخر في الخارج بعد ذلك، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بين العامين 1812 و1814. وكان للانتصارات أو الهزائم في هذه الحروب نتائج مهمة؛ لأنها غيرت خريطة العالم. علينا، إذن، أن ننظر في هذه الحروب أول الأمر، غير أن علينا أن ننظر في مشكلة أكثر خفاءً: كيف كانت نتائج مسيرة الحرب الفعلية، والعمليات والحشود العسكرية، والإجراءات السياسية والاقتصادية التي ترتبت عليها؟

خلال هذين العقدين، التقى وجهاً لوجه نوعان من المتحاربين مختلفان كل الاختلاف، من حيث طبيعة القوى والأنظمة. فهناك فرنسا الدولة، ذات المصالح والتطلعات تواجه (أو تحالف) دولاً أخرى مثلها؛ وهناك، من ناحية أخرى، فرنسا الثورة التي تدعو شعوب العالم إلى إطاحة الطغيان واحتضان الحرية، فتتصدى لمقاومتها القوى المحافظة والرجعية. ولا شك في أن الاختلاف بين هذين المسارين من الصراع قد تضاءل خلال السنوات الرؤيوية النبوئية الأولى من الحرب الثورية. وما إن انتهى حكم نابليون، حتى طغى عنصر الغزو والاستغلال الإمبريالي على عنصر التحرير، فيما كانت الجيوش الفرنسية تهزم بلداً ما، أو تحتل أراضيه أو تضمها إليها. فتصبح الحروب الدولية عندها أقل التصاقاً بالحروب الأهلية الدولية (والمحلية في كل دولة على حدة). على العكس من ذلك، فإن القوى المناوئة للثورة قد وطنت نفسها على الاعتقاد بأن لا مجال للتراجع عن أكثر إنجازات الثورة في فرنسا، ومن ثم غدت

مستعدة للتفاوض (مع بعض التحفظات) على شروط السلام بين دولة وأخرى مثلها لا بين النور والظلمات. بل إنها، بعد أسابيع قليلة من هزيمة نابليون الأولى، أبدت استعدادها لإعادة فرنسا لاعباً مساوياً لها في اللعبة التقليدية من التحالفات، والتحالفات المضادة، والخديعة، والتهديد والحرب التي تقوم فيها الدبلوماسية بتنظيم العلاقات بين القوى الكبرى. وعلى الرغم من ذلك، ظلت الطبيعة المزدوجة للحرب على حالها، بوصفها صراعاً بين دول، وبين أنظمة اجتماعية في الوقت نفسه.

من الوجهة الاجتماعية، لم تكن القسمة بين القوى المتحاربة متساوية على الإطلاق. فباستثناء فرنسا نفسها، لم تكن ثمة غير دولة واحدة ذات وزن هي الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تميل أيديولوجياً إلى فرنسا بحكم نزعتها الثورية وتعاطفها مع إعلانات "حقوق الإنسان". وقد مالت الولايات المتحدة إلى الجانب الفرنسي في واقع الأمر، وخاضت، في مناسبة واحدة، على الأقل، حرباً إلى جانب فرنسا وإن لم يكن بالتحالف معها ضد عدو مشترك هو بريطانيا. غير أن الولايات المتحدة وقفت على الحياد أغلب الوقت، ولم يكن صدامها مع البريطانيين يستدعي أية تفسيرات أيديولوجية. ولم يكن سائر التحالفات الأيديولوجية لفرنسا غير أحزاب أو تيارات من الرأي داخل الدول الأخرى، لا قوى تمثل الدول بحد ذاتها.

وبالمعنى العريض للكلمة، فإن كل شخص متعلم، موهوب مستنير قد تعاطف حتماً مع الثورة، بجميع مراحلها حتى دكتاتورية اليعاقبة، وغالباً إلى ما بعدها بكثير (ولم يعمد بيتهوفن (Beethoven) إلى إلغاء إهدائه السيمفونية البطولية "إيرويكا" إلى نابليون إلا عندما جعل الأخير من نفسه إمبراطوراً). ويمكن مقارنة قائمة الموهوبين والنابغين الذين ساندوا الثورة أول الأمر بقائمة مماثلة ممن أبدوا دعمهم الشامل للجمهورية الإسبانية في الثلاثينات من القرن العشرين. فمن بريطانيا،

ضمت القائمة الأولى الشعراء: ووردزورث (Wordsworth) وبليك (Blake) وكوليريدج (Coleridge) وروبرت بيرنز (Robert Burns) وسوذي (Southey)، ومن العلماء الكيميائي جوزيف بريستلي وعدد من الأعضاء في "الجمعية القمرية" في بيرمينغهام[1]، والتقانيين والصناعيين مثل قطب صناعة الحديد ويلكنسون (Wilkinson) والمهندس توماس تلفورد والمثقفين في حزب "ويغ" المحافظ؛ والمنشقين عنه عموماً. واشتملت في ألمانيا على الفلاسفة: كانت وهيردر (Herder) وفيخته (Fichte) وشيللنغ (Schelling) وهيغل (Hegel) وشيللر (Schiller) وهويلدرلن (Hoelderlin) وفيلاند (Wieland) والعجوز كلوبستوك (Klopstock) والموسيقار بيتهوفن، وفي سويسرا المربي بستالوتزي (Pestalozzi)، وعالم النفس لافاتر (Lavater)، والرسام فويسلي (Fuessli) (فوسيلي). وشملت في إيطاليا جميع المناوئين لآراء رجال الدين تقريباً. وعلى الرغم من أن الثورة قد حظيت بهذا الدعم الفكري، وكرمت بدورها المتعاطفين المرموقين ومن اعتقدت أنهم يناصرون مبادئها بأن منحتهم المواطنة الشرفية الفرنسية[2]، فإن أمثال بيتهوفن وروبرت بيرنز لم يكن لهم بحد ذاتهم أهمية سياسية أو عسكرية.

ولقد تجلت نزعات سياسية يعقوبية جادة أو مشاعر موالية للفرنسيين عموماً في مناطق معينة مجاورة لفرنسا سادت فيها ظروف اجتماعية مماثلة أو علاقات ثقافية دائمة معها (مثل: الأراضي المنخفضة

(1) الواقع أن ابن جيمس وات سافر إلى فرنسا بالفعل، وذلك ما أثار الفزع في نفس والده.

(2) الطريف أن من بين الذين مُنحوا الجنسيةَ الفرنسية: بريستلي، وبنتام، ولبرفورس، وكلاركسون (وهو من مثيري الشغب المناهضين للرق)، وجيمس ماكنتوش وديفيد وليامز من بريطانيا، وكلوبستوك، وشيلر، وكامبي، وأناركارسيس كلوتس من ألمانيا، وبستالوتزي من سويسرا، وكوزيوسكو من هولندا، وغوراني من إيطاليا، وكورنيليوس دو باو من هولندا، وواشنطن، وهاملتون، وماديسون، وتوم بين وجويل بارلو من الولايات المتحدة. ولم يكن هؤلاء جميعهم من المتعاطفين مع الثورة.

والراينلاند وسويسرا وسافوي)، وكذلك في إيطاليا، ولأسباب مختلفة، إلى حد ما، في إيرلندا وبولندا. وكان مقدَّراً لليعقوبية أن تكون، من دون شك، ظاهرة ذات أهمية سياسية أكبر في بريطانيا، حتى ما بعد "الإرهاب"، لو لم تصطدم بالتمييز التقليدي ضد الفرنسيين الذي انطوت عليه الوطنية الإنجليزية الشعبية، وضاعفت منها مشاعر الازدراء التي كان البريطانيون السِّمان يُكنّونها لأهل القارة المعوزين (وكانت الرسوم الكاريكاتورية البريطانية تظهر جميع الفرنسيين مهزولين كأعواد الثقاب). يضاف إلى ذلك موقف العداء من فرنسا التي كانت تعتبر "العدو الموروث" لبريطانيا، مع أنها كانت "العدو الموروث" لاسكوتلندا[3]. كانت اليعقوبية البريطانية فريدة في نوعها من حيث إنها كانت، في الأساس، ظاهرة تخص الطبقة العاملة أو الصناع المهرة، على الأقل، بعد أن انحسرت موجة الحماس العام. وربما كانت "المجتمعات المطابقة" أول المؤسسات السياسية المستقلة للطبقة العاملة، غير أنها وجدت صوتاً متميز القوة لدى توم بين في كتابه **حقوق الإنسان** (*Rights of Man*) (الذي يحتمل أن يكون قد بيعت منه نحو مليون نسخة). وكذلك بعض الدعم السياسي من مصالح الويغ (الأحرار)، وهم الذين يتمتعون بالحصانة ضد الملاحقة بسبب ثرواتهم ومكانتهم الاجتماعية. كما أنهم كانوا على استعداد للدفاع عن تقاليد الحريات المدنية البريطانية، ويحبذون إقامة سلام مع فرنسا عن طريق التفاوض. وعلى الرغم من ذلك، فإن الضعف الحقيقي لليعقوبية البريطانية كان يتمثل في مطالبة الأسطول الذي كان راسياً في سبايتهيد بالسماح له بالخروج لمواجهة الفرنسيين حالما تلبى مطالبه الاقتصادية.

ولم تكن للنزعة اليعقوبية قوة يؤبه لها في شبه جزيرة إيبيريا، وفي الأقاليم الخاضعة لأسرة هابسبيرغ، وألمانيا الوسطى والشرقية، وإسكندنافيا، والبلقان وروسيا، وقد اجتذبت بعض الشباب

(3) قد يكون لذلك صلة بكون النزعة اليعقوبية الاسكوتلندية قوةً شعبية أكثر نفوذاً.

المتحمسين، والمفكرين المتنورين، وعدداً قليلاً آخر مثل إغناطيوس مورتينوفيكس (Ignatius Martinovics) في هنغاريا وريغاس في اليونان، ممن احتلوا مكان الصدارة في تاريخ النضال الذي خاضته بلدانهم لتحقيق الاستقلال الوطني والاجتماعي. إلا أن غياب الدعم الجماهيري لمواقفهم هذه في أوساط الطبقات الوسطى والعليا، ناهيك عن الفلاحين الأميين المتعصبين، جعل من السهل قمع اليعقوبية حتى لو لجأت للتآمر، كما حدث في النمسا. وكان لا بد من أن ينقضي جيل كامل قبل أن تنشأ التقاليد النضالية الليبرالية الإسبانية من بضعة مؤامرات طلابية صغيرة أو بين المبعوثين اليعاقبة بين العامين 1792 و1795.

والواقع أن النزعة اليعقوبية في الخارج اجتذبت، بأيديولوجيتها المباشرة، الطبقات المتعلمة والوسطى، فاعتمدت قوتها السياسية، بعد ذلك، على فاعلية هؤلاء أو مدى حماستهم؛ لهذا، أحدثت الثورة الفرنسية تأثيراً عميقاً في بولندا. وكانت فرنسا هي القوة الأجنبية الوحيدة التي علق البولنديون الآمال على مساندتها لهم ضد المطامع المشتركة للبروسيين، والروس، والنمساويين، الذين كانوا قد ضموا مساحات شاسعة من البلاد، وتقاسموها بأكملها فيما بينهم. كما طرحت فرنسا نموذجاً للإصلاح الداخلي العميق الذي أيقن جميع البولنديين أنه الوحيد القادر على حماية بلادهم من مطامع الجزارين حولهم. فلا غرو إذن أن "دستور الإصلاح" للعام 1791 قد تأثر تأثراً بالغاً عميقاً واعياً بالثورة الفرنسية، وكان أول الدساتير الجديدة التي يتجلى فيها هذا التأثير[4]. وكان النبلاء والوجهاء من دعاة الإصلاح في بولندا يتمتعون بحرية التصرف. أما في هنغاريا، حيث كان النزاع

(4) بما أن بولندا كانت آنذاك جمهورية النبلاء والوجهاء، فإن دستورها كان "يعقوبياً" بالمعنى السطحي للكلمة فحسب؛ ذلك أنه عزز حكم النبلاء بدلاً من إلغائه.

الناشب بين فيينا ودعاة الاستقلال المحلي يقدم حافزاً مماثلاً لوجهاء البلاد للاهتمام بنظريات المقاومة (إذ طالبت غومور بإلغاء الرقابة؛ لأنها تتعارض والعقد الاجتماعي الذي وضعه روسو)، فإن المصلحين لم يكونوا يتمتعون بالحرية نفسها. من هنا، كانت اليعقوبية أكثر ضعفاً وأقل فاعلية. وفي إيرلندا أيضاً، أضفى التململ الوطني والزراعي على اليعقوبية قوة سياسية أكبر بكثير مما أعطي للأيديولوجية الماسونية المتحررة التي يحملها زعماء "إيرلندا المتحدة". وأقيمت الصلوات والدعوات في كنائس هذا البلد المغرق في الكاثوليكية لانتصار الفرنسيين الملحدين. بل إن الإيرلنديين فتحوا أذرعهم ترحيباً بالقوات الفرنسية إذا ما فكرت بغزوهم، لا لأنهم يتعاطفون مع روبسبيير، بل لأنهم يكرهون الإنجليز ويبحثون عن حلفاء ضدهم. وفي إسبانيا، التي تقاسم السيطرة عليها الفقر والكاثوليكية، فشلت اليعقوبية في إيجاد مواطئ قدم لها بسبب مغاير، هو أن الإسبان لا يخضعون لأجنبي قط. وإذا أتيح ذلك لأحد، فإنه سيكون فرنسياً على الأغلب.

لم تكن بولندا ولا إيرلندا مثالين نموذجيين للتيار اليعقوبي؛ لأن البرنامج الفعلي للثورة لم يخلف فيها غير آثار طفيفة. وقد تجلت هذه الآثار في بلدان تتشابه فيها المشكلات الاجتماعية والسياسية مع تلك التي في فرنسا. وتنقسم هذه إلى فئتين: بلدانٍ كانت اليعقوبية المحلية الأصلية فيها تتمتع بفرصة معقولة لبلوغ السلطة السياسية، وأخرى لن تمضي فيها الأمور قدماً إلى الأمام إلا بغزو فرنسي. وتنتمي إلى المجموعة الأولى البلدان المنخفضة، وأجزاء من سويسرا، وربما تندرج في الثانية دويلة أو دويلتان في إيطاليا. وكانت بلجيكا (هولندا النمساوية) قد أعلنت الثورة عام 1789. وكثيراً ما ننسى أن كميل ديمولان (Camille Desmoulins) أطلق على صحيفته اسم **ثورات فرنسا وبرابان** (*Les Révolutions de France et de Brabant*). وكان العنصر الموالي لفرنسا في أوساط الثوريين (وهم الديمقراطيون الفونكستيون) أضعف، بلا شك، من المحافظين المتمسكين بكيان الدولة. غير أنه كان من القوة

بحيث يقدم دعماً ثورياً لغزو فرنسا لبلادهم، وذلك ما كانوا يحبذونه. وفي الأقاليم المتحدة، كان "الوطنيون" الذين يطالبون بالتحالف مع فرنسا من القوة بحيث إنهم كانوا يعتزمون الثورة، على الرغم من أنهم لم يكونوا متأكدين من نجاحها من دون مساعدة خارجية. كانوا يمثلون الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى، واندفع آخرون إلى مواجهة حكم الأقليات الأوليغاركية المهيمنة التي يسيطر عليها التجار في المدن. وفي سويسرا، كانت عناصر الجناح اليساري في بعض الكانتونات البروتستانتية على قدر كبير من القوة. وهنا، كان الغزو الفرنسي يؤدي، مرة أخرى، دوراً تكميلياً أكثر مما كان يقوم به من دور ثوري في الساحة المحلية.

ولم يكن الأمر كذلك في غرب ألمانيا وإيطاليا. فقد رحب اليعاقبة الألمان بالغزو الفرنسي، ولا سيما في مينز والجنوب الغربي. غير أن أحداً لم يستطع ادعاء أنه أوشك على إثارة المتاعب لحكومته[5]. وقد أدى انتشار الروح التنويرية والماسونية في إيطاليا إلى ارتفاع شعبية الثورة في أوساط المتعلمين. غير أن اليعقوبية المحلية ربما لم تكن قوية إلا في مملكة نابولي، حيث سيطرت على أفئدة جميع المستنيرين (المعادين للكنيسة) في أوساط الطبقة الوسطى وجانب من طبقة الوجهاء، وترعرعت ونمت في الجمعيات والروابط المتنامية في أجواء جنوب إيطاليا. بل إنها عانت هناك من فشلها التام في الاتصال بجماهير الثورة الاجتماعية، فأعلنت بسهولة نسبية جمهورية في نابولي فيما كانت الأنباء تتوالى عن تقدم الفرنسيين. غير أن الجمهورية سرعان ما أطاحتها قوى اليمين الرجعي تحت راية البابا والملك؛ ذلك أن الفلاحين وأهالي نابولي يطلقون على اليعقوبي، بحق، لقب "رجل العربة".

(5) فشل الفرنسيون حتى في إقامة جمهورية تابعة لهم في الراينلاند.

بصورة عامة، إذن، كانت القيمة العسكرية للنزعات الموالية لليعقوبية تؤدي دوراً مسانداً للغزو الفرنسي، وتمثل مخزوناً لرجال الإدارة الذين يمكن الركون إليهم سياسياً في المناطق المغلوبة. بل إن النية كانت تتجه إلى تحويل المناطق التي توجد فيها قوة يعقوبية محلية إلى جمهوريات تابعة، ومن ثم ضمها إلى فرنسا حينما تسنح الفرصة. فضُمت بلجيكا عام 1795، وأصبحت هولندا جمهورية باتافيا في السنة نفسها وإحدى ممالك أسرة بونابرت فيما بعد. كما ضمت الضفة اليسرى لنهر الراين وفي ظل دول نابليون التابعة (مثل غراندوقية بيرغ ـ في منطقة الروهر الحالية ـ ومملكة ويستفاليا) وامتد الضم المباشر إلى الشمال الغربي من ألمانيا. وأصبحت سويسرا جمهورية هلفتيا عام 1798 ثم ضُمت فيما بعد. وأقيمت منظومة من الجمهوريات في إيطاليا: شرقي الألب (1797)، وليغوريا (1797)، وروما (1798)، وبارتينوبيا (1798) التي أصبحت أرضاً فرنسية جزئياً، ولكنها دول تابعة في أغلبها (مملكة إيطاليا، ومملكة نابولي).

تمتعت اليعقوبية الأجنبية ببعض الأهمية العسكرية، كما لعب اليعاقبة الأجانب دوراً مهماً في وضع الاستراتيجية الجمهورية، ولا سيما الجماعة الساليسيتية التي أسهمت بدور مهم في إبراز نابليون بونابرت الإيطالي في صفوف الجيش الفرنسي ثم في تحقيق إنجازاته اللاحقة في إيطاليا، ولكنْ لا يمكن القول إنه أو إنها كانت ذات أثر حاسم. وكان بوسع حركة واحدة موالية لفرنسا أن تكون العامل الحاسم لو أنها استغلت استغلالاً فعالاً، ألا وهي الحركة الإيرلندية. إن الجمع بين الثورة الإيرلندية والغزو الفرنسي، ولا سيما بين العامين 1797 و1798 عندما كانت بريطانيا هي الطرف المقاتل الوحيد ضد فرنسا في الميدان، كان سيرغم بريطانيا على السعي إلى السلام. غير أن مشكلات الغزو الفنية في عرض البحر كانت في غاية الصعوبة، وكانت مساعي فرنسا للإقدام على ذلك تتسم بالتردد والارتباك. والانتفاضة الإيرلندية

عام 1798 سيئة التنظيم سهلة القمع، رغم تمتعها بمساندة جماهيرية واسعة. ولا غناء إذن في التفكير في الاحتمالات النظرية للعمليات الفرنسية الإيرلندية.

وإذا كان الفرنسيون قد تمتعوا بمساندة القوى الثورية في الخارج، فإن خصومهم حظوا كذلك بدعم مماثل؛ ذلك أنه لا يمكن حرمان التحركات التلقائية للمقاومة الشعبية ضد الغزو الفرنسي من مكوناتها الثورية الاجتماعية، حتى ولو كان المزارعون الذين رفعوا شعارها قد عبروا عنها انطلاقاً من نزعتهم النضالية الملكية ـ الكنسية المحافظة. ومما ينبغي الإشارة إلى أهميته أن الخطط العسكرية التي اقترنت في القرن العشرين اقتراناً تاماً بالحرب الثورية، والعصابات أو حركات الأنصار، كانت بين العامين 1792 و1815 وقفاً على القوى المناوئة لفرنسا. ففي فرنسا نفسها، كانت حركات فنديه والشوان في بريتاني تخوض حرب عصابات ملكية منذ العام 1973، مع بعض التقطع، حتى العام 1802. أما في الخارج، فربما كانت العصابات في جنوب إيطاليا هي الرائدة في حرب العصابات الشعبية المعادية لفرنسا بين العامين 1798 و1799، وقد مارسها بنجاح ملحوظ أهل التيرول بزعامة أندرياس هوفر (Andreas Hofer) عام 1809. والأهم من ذلك الإسبان عام 1808، والروس، إلى حد ما، بين سنتي 1798 و1799. ومن المفارقات أن الأهمية العسكرية لهذه المخططات الثورية بالنسبة لأعداء فرنسا كانت بالنسبة للفرنسيين أكبر بكثير بالتأكيد من الأهمية العسكرية لليعاقبة الأجانب. ولم تقم خارج حدود فرنسا حكومة موالية لليعاقبة لحظةً واحدة بعد انسحاب القوات الفرنسية. إلا أن التيرول، وإسبانيا، وإلى حد ما جنوب إيطاليا، واجهت الفرنسيين بمشكلة عسكرية أكثر خطراً من أي وقت مضى بعد هزيمة جيوشهم النظامية وحكامهم؛ والسبب في ذلك بسيط: فقد كانت هذه كلها حركات فلاحية. وحيثما لم تكن التحركات القومية المعادية للفرنسيين تعتمد على الفلاحين، فإن قيمتها

العسكرية لم تكن ذات بال. لقد خلقت الحركات الوطنية الاسترجاعية "حرب تحرير" ألمانية بين العامين 1813 و1814. ولكن يمكن القول إنها، بحكم ارتكازها إلى مقاومة شعبية ضد الفرنسيين، تمثل نوعاً من الخيال الورع[(6)]. وفي إسبانيا، فإن الناس، بعد اندحار جيشهم، استطاعوا وقف تقدم الفرنسيين. أما في ألمانيا، فإن الجيوش التقليدية ألحقت بهم الهزيمة بطريقة تقليدية تماماً.

ولا نجانب الصواب إذا قلنا إذن إن الحرب، من الوجهة الاجتماعية، كانت تدور بين فرنسا والأراضي المحاذية لحدودها من جهة، وبقية العالم من جهة أخرى. وقياساً على علاقات القوة التقليدية، فإن خطوط التماس كانت أكثر تعقيداً؛ فالصراع الجوهري هنا كان بين فرنسا وبريطانيا، وقد بسط ظلاله على العلاقات الدولية الأوروبية خلال الجزء الأكبر من ذلك القرن. وكان الأمر، من وجهة النظر البريطانية، مسألة اقتصادية كلياً؛ فقد أراد البريطانيون القضاء على منافسهم الرئيسي ليحققوا لأنفسهم الهيمنة التجارية الكاملة على الأسواق الأوروبية، والسيطرة التامة على الأسواق في المستعمرات وفي ما وراء البحار، ومن ثم، على أعالي البحار. والواقع أنهم حققوا نتيجة للحرب ما لا يقل عن ذلك أهمية؛ إذ إن هذا الهدف لم يكن يتضمن في أوروبا طموحاً للاستيلاء على الأرض، اللهم إلا السيطرة على نقاط محدودة ذات أهمية في المجال البحري، أو ضمان عدم سقوط هذه المواقع في أيدي دول قوية إلى حد الخطر. أما بقية بريطانيا، فكانت قانعة بأية تسوية قارية تستطيع فيها الدول الأخرى إيقاف منافستها فرنسا عند حدها؛ وذلك يتضمن، على الصعيد الخارجي، تدمير الإمبراطوريات الكولونيالية وضم أجزاء معتبرة منها إلى بريطانيا.

---

(6) Wolfgang von Groote, ed., *Die Entstehung des Nationalbewusstseins in Nordwestdeutschland, 1790-1830*, Göttinger Bausteine zur Geschichtswissenchaft; Bd. 22 (Gottingen: Musterschmidt-Verlag, [1952]).

كانت هذه السياسة في ذاتها كافية لتزويد فرنسا ببعض الحلفاء؛ لأن جميع الدول البحرية، والتجارية، والاستعمارية كانت تنظر إليها بالكثير من العداء والتوجس. بل إن موقفها العادي كان أقرب إلى الحياد؛ لأن للتجارة الحرة زمن الحرب مزايا جمة. غير أن ميل بريطانيا إلى التعامل مع السفن المحايدة باعتبارها، من الناحية الواقعية، قوة مساندة لفرنسا أكثر منها لبريطانيا، قد دفعها إلى مواجهة صراعية بين حين وآخر، إلى أن تمكنت سياسة الحصار الفرنسية من دفعها في الاتجاه المعاكس بعد العام 1806. وكانت أكثر القوى البحرية من الضعف، أو من انقطاع الاتصال فيما بينها داخل أوروبا بحيث لم تكن تسبب لبريطانيا أية متاعب. غير أن الحرب الأنغلو ـ أمريكية بين العامين 1812 و1814 كانت هي حصيلة هذا الصراع.

كان العداء الفرنسي تجاه بريطانيا أكثر تعقيداً إلى حد ما، غير أن العنصر الذي كان في هذا الموقف، كما هو الموقف البريطاني، يطالب بالنصر "الشامل" قد تعزز إلى درجة عظيمة بقيام الثورة التي سلمت السلطة إلى بورجوازية فرنسية كانت، شأنها شأن نظيرتها البريطانية، ذات شهية لا حدود لها. إن النصر على البريطانيين كان يتطلب، على الأقل، تدمير التجارة البريطانية التي كانت تعتمد عليها إنجلترا، وتدميرها بصورة دائمة للحؤول دون انتعاشها مجدداً في المستقبل (وكانت أوجه التشابه بين الصراعين الفرنسي ـ البريطاني، والروماني ـ القرطاجي ماثلة في أذهان الفرنسيين الذين كانت مخيلتهم السياسية كلاسيكية الطابع إلى حد كبير). وفي حالات المزاج الأكثر طموحاً، كانت البورجوازية الفرنسية تأمل موازنة التفوق الاقتصادي البريطاني بما لديها من موارد سياسية وعسكرية؛ أي بأن تخلق لنفسها وترتهن سوقاً شاسعة محّرمة على منافسيها. وأضفى هذان الاعتباران على الصراع الأنغلو ـ فرنسي طابع الديمومة والعناد على نحو قل نظيره في أي نزاع آخر. ولم يكن أي من الطرفين يطمح، في واقع الأمر، إلى ما هو أقل من النصر الكلي الشامل؛ وكان ذلك أمراً نادراً في تلك الأيام مع أنه

أصبح شائعاً في أيامنا هذه. وانتكست فترة السلام الوحيدة بين الجانبين (1802ـ1803) بسبب عزوف البلدين عن المحافظة عليها. وزاد في تحديد ملامح هذه المرحلة المشهودة أن الوضع العسكري وحده هو الذي فرض حالة من الجمود؛ ففي أواخر التسعينات من القرن الثامن عشر، كان واضحاً أن البريطانيين كانوا عاجزين عن اقتحام القارة الأوروبية على نحو فعال، مثلما كان الفرنسيون عاجزين عن الخروج منها بصورة فعالة أيضاً.

كانت القوى الأخرى المعادية لفرنسا تخوض نضالاً أقل استماتةً وعنفاً. فكلها تطمع في إطاحة الثورة الفرنسية، ولكن لا على حساب تطلعاتها السياسية. غير أنه تبين بشكل جليّ بين العامين 1792 و1795 أن مثل هذه المساعي كانت تفتقر إلى الواقعية. والدولة التي كانت الأكثر عداء لفرنسا بصورة مستديمة، وشاركت في كل تحالف رئيسي ضد فرنسا، هي النمسا، التي تعززت الروابط بين الأسرة الحاكمة فيها وبين أسرة البوربون بفعل تهديد فرنسا المباشر للممتلكات ومناطق النفوذ النمساوية في إيطاليا، ومركزها المتقدم في ألمانيا. وكانت روسيا معادية لفرنسا بصورة متقطعة، ولم تدخل الحرب إلا في الفترات الممتدة بين الأعوام 1795ـ1800، 1805ـ1807، وعام 1812. أما بروسيا، فكان يتنازعها التوتر والتجاذب بين التعاطف مع الجانب المضاد للثورة، والشك في نوايا النمسا، ومطامعها الخاصة في بولندا وألمانيا التي انتفعت بالمبادرة الفرنسية. ولذلك دخلت الحرب أحياناً بطريقة شبه مستقلة، بين الأعوام 1792ـ1795، 1806ـ1807 (عندما تعرضت للتهديد) وعام 1813. ويميّز التقلبُ النسبي سياساتِ سائر الدول التي شاركت بين حين وآخر في التحالفات المعادية لفرنسا. لقد وقفت ضد الثورة، غير أنها، كما يحدث في عالم السياسة على الدوام، كانت تتصيد الفرص وتتابع مصالحها الخاصة، ولم يكن في مصلحة هذه الدول أن تقف موقف العداء الدائم الثابت من فرنسا، ولا سيما فرنسا الظافرة التي وضعت الأسس لإعادة توزيع الأراضي الأوروبية.

كما أن تطلعات الدول الأوروبية الدبلوماسية ومصالحها الدائمة هيأت السبل لفرنسا لعقد عدد من التحالفات الممكنة؛ ذلك أن أي نسق دائم لبلدان يسودها التوتر والمزاحمة فيما بينها يعني أن معاداة دولة ما لا بد من أن ينطوي على التعاطف مع البلد المعادي لتلك الدولة. وكان الأكثر مدعاة للثقة بين تلك الأطراف هم الأمراء الألمان الصغار الذين ما فتئت مصالحهم تدفعهم، بالتحالف مع فرنسا في العادة، إلى إضعاف سلطة الإمبراطور (أي النمسا) على المقاطعات والأقاليم، أو الأمراء الذين لحق بهم الضرر جراء تنامي قوة بروسيا. والأبرز الأهم بين هؤلاء هم أمراء الدول الألمانية الجنوبية الغربية: بادن وفورتنبيرغ وبافاريا، التي كوّنت جميعها نواة "اتحاد الراين" الذي أقامه نابليون (1806)، وساكسونيا، منافس بروسيا القديم وضحيتها. بل إن ساكسونيا كانت آخر حليفات نابليون وأكثرها ولاءً له، وذلك ما تفسره، جزئياً، مصالحها الاقتصادية؛ لأنها، بحكم كونها مركزاً متقدماً للإنتاج والتصنيع، انتفعت من "النظام القاري" النابليوني.

وحتى لو أخذنا في الاعتبار الانقسامات القائمة في المعسكر المعادي لفرنسا، والتحالفات المحتملة التي يمكن للفرنسيين أن يراهنوا عليها، فإن التحالفات المناوئة لفرنسا كانت، على الورق على أقل تقدير، أقوى بكثير من تلك التي تعمل لمصلحتهم، في المراحل الأولى على الأقل. غير أن التاريخ العسكري للحروب يشهد للفرنسيين بسلسلة موصولة تقريباً من الانتصارات الخاطفة المذهلة. ففي أعقاب الهزائم التي ألحقها الفرنسيون بالثورة المحلية المضادة، وبالهجمات الأجنبية المتزامنة معها (1793-1794)، كانت ثمة فترة قصيرة وقف فيها الفرنسيون موقفاً دفاعياً خطراً، وكان ذلك عام 1799 عندما أفلح التحالف الثاني في حشد الجحافل الروسية الجرارة بقيادة سوفوروف في أولى حملاتها العسكرية في أوروبا الغربية. غير أن سجلّ الحملات والمعارك الميدانية بين العامين 1794 و1812 يجسّد، من الناحية الواقعية العملية، نصراً فرنسياً مؤزراً غير منقطع. ويكمن سرُّ الثورة في فرنسا في أن إشعاعها

السياسي في الخارج لم يكن، كما رأينا، حاسماً. ويمكننا في أفضل الحالات، أن نزعم أنها حالت دون مقاومة شعوب الدول الرجعية للفرنسيين الذين جلبوا لهم الحرية. بيد أن الدول التقليدية في القرن الثامن عشر لم تكن في خططها العسكرية الإستراتيجية والتكتيكية تعوّل على مشاركة المدنيين في الحرب: بل إن فريدريك الأكبر أبلغ أهالي برلين الأوفياء له، الذين عرضوا عليه مقاومة الروس، أن عليهم أن يتركوا أمر الحرب للمحترفين المتخصصين بها. غير أن الثورة غيرت مفهوم الحرب وأساليبها لدى الفرنسيين، وجعلتهم يتفوقون بصورة لا تقاس على جيوش أنظمة الحكم القديمة. وكانت الجيوش القديمة، من الوجهة الفنية، أفضل تدرّباً وانضباطاً. وفي المجالات التي كان فيها لهاتين الخصلتين دور مهم حاسم، مثل المعارك البحرية، كان الفرنسيون يعانون درجة عالية من التخلف؛ لقد كانوا متطوعين ممتازين، وبارعين في الغارات الخاطفة التي تعتمد على مبدأ "اضرب واهرب"، إلا أنهم لم يستطيعوا التعويض عن افتقارهم لعدد كاف من البحارة المدربين، والأهم من ذلك، من الضباط البحريين الأكفاء، وهم الفئة التي اجتثتها الثورة من أصولها؛ لأن أفرادها كانوا من طبقة النبلاء النورمانديين والبريتونيين الموالين للملكية. ولم يكن بوسع الثورة خلق بديل سريع لهم. وفي ستة اشتباكات بحرية كبيرة، وثمانية صغيرة بين بريطانيا وفرنسا، كانت خسائر الفرنسيين من الرجال عشرة أضعاف خسائر البريطانيين[7]. أما في الحالات التي كانت تستدعي التنظيم الفوري، والحركة، والمرونة، وفوق ذلك كله، الهجوم الشجاع والروح المعنوية العالية، فإن الفرنسيين كانوا سادة الموقف من دون منازع. وهذه الميزات لم تكن تعتمد على العبقرية العسكرية للجندي الفرد؛ لأن السجل العسكري للفرنسيين قبل أن يتولى نابليون أمرهم لم يكن متميزاً، كما أن

---

(7) Michael Lewis, A *Social History of the Navy, 1793-1815* (London: G. Allen and Unwin, 1960), pp. 370 and 373.

مستوى المعدل النوعي لجنرالات فرنسا لم يكن استثنائياً. إلا أن من الممكن أن تكون هذه الميزات قد اعتمدت، في جانب منها، على إنعاش الكوادر في الداخل والخارج، وتلك إحدى النتائج الأساسية لأية ثورة. ففي العام 1806، كان تسعة وسبعون من أصل 142 جنرالاً في الجيش البروسي الفائق القوة قد تجاوزوا الستين من العمر، وكذلك كان ربع قادة الكتائب[8]. وبالمقابل، وفي العام نفسه، فإن نابليون (الذي أصبح جنرالاً وهو في الرابعة والعشرين) ومورا (Murat) (الذي كان آمراً لفرقة عسكرية وهو في السادسة والعشرين)، وني (الذي تولى المنصب نفسه في السابعة والعشرين)، ودافو (Davout)، كانوا جميعاً بين السادسة والعشرين والسابعة والثلاثين من العمر.

II

إن قصة النجاح العسكري الفرنسي قد تبعث على الملل، ومن ثم سنستغني عن أية مناقشة تفصيلية لعمليات الحرب البرية. ففي الفترة ما بين سنتي 1793 و1794، تمكن الفرنسيون من الحفاظ على الثورة وحمايتها. وبين العام 1794 والعام 1795، احتلوا الأراضي المنخفضة، وإقليم الراين، وأجزاء من إسبانيا، وسويسرا، وسافوي (وليغوريا). وفي العام 1796، منحتهم حملة نابليون الإيطالية المشهورة إيطاليا بأكملها، وحطمت أول تحالف قام ضد فرنسا. أما حملات نابليون على مالطا، ومصر، وسوريا (1797-1799) فقد أدى تدخل القوة البحرية البريطانية إلى قطع اتصالاتها مع قواعد انطلاقها في أوروبا. كما أن التحالف الثاني تمكن، خلال غيابه، من طرد الفرنسيين من إيطاليا وأرغمهم على التراجع إلى ألمانيا. وكان من نتائج هزيمة الجيوش المتحالفة في سويسرا (معركة زيورخ، 1799) إنقاذ فرنسا من الغزو. وما إن عاد

(8) Gordon A. Craig, *The Politics of the Prussian Army, 1640-1945* (Oxford: Clarendon Press, 1955), p. 26.

نابليون وتسلّم السلطة، حتى كان الفرنسيون يستأنفون هجماتهم. وبحلول العام 1801، كان الفرنسيون قد فرضوا السلام على من بقي من المتحالفين في القارة الأوروبية، وحتى على البريطانيين بحلول عام 1802. وبعد ذلك، ظل التفوق الفرنسي في المناطق المغلوبة أو الخاضعة للسيطرة الفرنسية بين العامين 1794 و1798 من دون منازع. وبدأت محاولة جديدة لشن الحرب على الفرنسيين في الفترة ما بين 1805 و1807، غير أنها أسفرت عن امتداد النفوذ الفرنسي إلى حدود روسيا. وهُزمت النمسا عام 1805 في معركة أوسترليتز في مورافيا، وأرغمت على القبول بالسلام. أما بروسيا، التي دخلت الحرب بصورة مستقلة متأخرة، فقد دُمِّرت قواتها في معركتي يينا وأويرستيدت عام 1806 وتقطعت أوصالها بعد ذلك. وعلى الرغم من أن روسيا قد هزمت في أوسترليتز، ودُحرت في آيلو (1807)، وهزمت ثانية في فريدلاند (1807)، فقد حافظت على سلامة قوتها العسكرية. وقد عاملتها معاهدة تيلسيت (1807) باحترام له ما يبرره، حين فرضت هيمنة فرنسا على باقي القارة الأوروبية، بعد استثناء المنطقة الإسكندنافية والبلقان التركية. وعندما حاولت النمسا التحرر عام 1809، شنت عليها الحرب وأُلحقت بها الهزائم في معارك آسبيرن ـ إيسنغ، وفاغرام. غير أن ثورة الإسبان عام 1808 ضد فرض جوزيف، شقيق نابليون، ملكاً عليهم، فتحت ميداناً للعمليات أمام البريطانيين، وبدأت نشاطاً عسكرياً دائماً في شبه الجزيرة الأيبيرية، لم يتأثر بحالات الهزيمة أو التراجع الدورية التي قام بها البريطانيون (مثلاً: بين العام 1809 والعام 1810).

أما في البحر، فإن الفرنسيين كانوا في ذلك الوقت يعانون هزيمة ساحقة. فبعد معركة الطرف الأغر (1805)، تبددت أحلامهم لا بغزو بريطانيا عبر القناة فحسب، بل بالمحافظة على اتصالاتهم بما وراء البحار. ولم تكن ثمة وسيلة ممكنة لإلحاق الهزيمة ببريطانيا إلا من خلال الضغط الاقتصادي؛ وذلك ما حاول نابليون تنفيذه بصورة فعالة عن طريق استحداث النظام القارّي (1806). وقد أدت الصعوبات التي

انطوى عليها التطبيق الفعال للحصار الاقتصادي إلى تقويض طابع الاستقرار في التسوية التي تم التوصل إليها في تلسيت، وإلى تردي العلاقات مع روسيا التي كانت تمثل نقطة الانعطاف الأساسية في سيرة نابليون ومسيرته. فقد غزا روسيا، واحتل موسكو. ولو أن القيصر قبل بالسلام، كما فعل أكثر أعداء نابليون في ظروف مماثلة، لكانت مقامرته قد كللت بالنجاح. غير أن القيصر لم يفعل، ووجد نابليون نفسه أمام خيارين: فإما أن يواصل خوض حرب مفتوحة من دون ضمانة أكيدة على تحقيق النصر فيها، وإما أن ينسحب. وكان كلا الخيارين يمثل كارثة في ذاته. لقد كانت أساليب الفرنسي، كما رأينا، ناجحة حتى ذلك الحين في حملات خاطفة في مناطق غنية بما فيه الكفاية، وذات كثافة سكانية عالية تمكن الجنود من العيش على ما تنتجه الأرض. غير أن ما نجح في لومباردي أو أقاليم الراين التي شهدت تطوير هذه الإجراءات والأساليب، وكان فعالاً حتى في أوروبا الوسطى، أخفق إخفاقاً ذريعاً في فضاءات بولندا وروسيا الشاسعة الفارغة القاحلة. وقد مُني نابليون بالهزيمة لا بسبب قسوة الشتاء الروسي، بل بسبب إخفاقه في إمداد الجيش العظيم وتجهيزه وتموينه. وقد أسفر الانسحاب من موسكو عن تدمير هذا الجيش. فمن أصل ستمئة وعشرة آلاف من الرجال الذين عبروا الحدود الروسية ذات يوم، لم يعد عبر الحدود نفسها إلا نحو مئة ألف.

وفي ظل هذه الظروف، فإن التحالف الأخير ضد الفرنسيين لم يضم قدامى الأعداء والضحايا، بل شمل جميع الأطراف الحريصة على أن تكون في معسكر الظافرين؛ وكان ملك سافوي آخر من انضموا إلى التحالف. وفي لايبزغ (1813)، مني بالهزيمة جيش جديد أغلبه من الأغرار، واندفع الحلفاء دونما هوادة صوب فرنسا، على الرغم من المناورات المذهلة التي قام بها نابليون، كما اقتحم البريطانيون فرنسا من شبه الجزيرة الأيبيرية. واحتلت باريس، وتنحى الإمبراطور يوم السادس من نيسان/أبريل عام 1814. وقد حاول أن يستعيد سلطته عام 1815،

غير أن معركة واترلو (حزيران/ يونيو 1815) كانت نهاية المطاف.

III

خلال عقود الحرب تلك، أعيد رسم الحدود السياسية في أوروبا مرة بعد مرة. وسنكتفي هنا بالنظر في التغيرات التي بقيت ودامت، بصورة أو بأخرى، وظلت قائمة بعد هزيمة نابليون.

كان من أهم هذه التغيرات الترشيد العام للخريطة السياسية الأوروبية، ولا سيما في ألمانيا وإيطاليا. فمن ناحية الجغرافيا السياسية، وضعت الثورة الفرنسية حداً للعصور الوسطى الأوروبية. إن الدولة النموذجية الحديثة، التي تطورت على مدى عدة قرون، هي منطقة متماسكة الأراضي، موصولة الأطراف ذات حدود واضحة المعالم، تحكمها سلطة واحدة ذات سيادة، وفق نسق أساسي واحد في المجالات الإدارية والقانونية. ومنذ الثورة الفرنسية، أصبح مفترضاً أن مفهوم الدولة يمثل أيضاً "أمةً" أو مجموعة لغوية واحدة (غير أن الدولة ـ الأرض ذات السيادة لم تكن تشتمل على هذا العنصر في ذلك الوقت). وعلى الرغم من أن الدولة الإقطاعية التقليدية الأوروبية كانت تبدو كذلك، كما كانت الحال، على سبيل المثال، في إنجلترا القروسطية، فإنها لم تكن تستلزم هذا الأمر؛ لأنها صيغت وقامت أساساً على "الأرض الإقطاعية الزراعية". وكما أن اصطلاح "إقطاعات دوق بيدفورد" لم يكن يعني بالضرورة أن هذه الأملاك قطعة أو وحدة واحدة، أو أن مالكها هو الذي يتولى إدارتها مباشرة، أو أن عقد الإشراف عليها كان ينص على الشروط والإيجارات نفسها، أو يحرّم تأجيرها من الباطن، فإن الدولة الإقطاعية في أوروبا الغربية لم تستبعد منظومة متشابكة معقدة من الخيارات التي لا يمكن التساهل بشأنها اليوم. وبحلول العام 1789، كان ثمة إحساس متنام بالضيق من هذه التعقيدات. ووجدت هذه الجيوب الأجنبية نفسها مَنزوية في بقعة أو أخرى من إحدى الدول، مثل مدينة أفينيون البابوية في فرنسا. كما

وجدت بعض المناطق في إحدى الدول نفسها، لأسباب تاريخية، تابعة لسيّد آخر يقيم في بلد آخر، أي، وفق المصطلحات الحديثة، تحت سيادة ثنائية مزدوجة[9]. وكانت "الحدود" التي تمثل الحواجز الجمركية، تنتشر عبر المقاطعات المختلفة في البلد الواحد. وقد ضمت إمبراطورية الإمبراطور الروماني المقدس إقطاعاته الخاصة التي تراكمت على مدى القرون من دون أن تطالها محاولات الوحدة أو التوحيد. بل إن رأس أسرة هابسبيرغ المالكة لم يكن له لقب واحد يصف حكمه لأراضيه حتى العام 1804[10]. ولم يكن ثمة سيد أعلى يمسك بزمام السلطة على مختلف الأقاليم التي تتراوح بين دول قوية في ذاتها مثل مملكة بروسيا (التي لم تتوحد حتى العام 1807)، ومقاطعات مختلفة الأحجام، إلى جمهوريات من المدن ـ الدول. كما أن "فرسان الإمبراطور الأحرار" الذين لم تتجاوز إقطاعاتهم، في أغلب الأحيان، بضعة أفدنة، لم يكن لهم سيد أعلى. وإذا كانت كلٌّ من هذه الإقطاعات واسعة بصورة كافية، فإنها، بدورها، تفتقر إلى الوحدة والانسجام؛ لأنها محصلة لتاريخ عشوائي طويل من عمليات الاقتطاع المجزأة، والتقسيمات وإعادة الدمج والتجميع لإرث العائلة. ولم يكن يؤخذ في الحسبان آنذاك، في معرض الحديث عن مكونات الدولة، المركب المكون من اعتبارات الاقتصاد، والإدارة، والأيديولوجيا، والقوة التي تميل إلى فرض حدود دنيا لمساحة الأرض وحجم السكان مع تحديد لهوية الحكم ـ وهي الاعتبارات التي تُشعِرُنا اليوم بنوع من الاستهجان لدى قبول ليختنشتاين مثلاً عضواً في الأمم المتحدة. من هنا، فقد تكاثرت الدويلات والبلدان الأقزام، ولا سيما في ألمانيا وإيطاليا.

---

(9) كان الناجي الوحيد من هذه الفئة جمهورية أندورا، التي كانت تخضع لسيطرة ثنائية من جانب أسقف أورغل الإسباني ورئيس الجمهورية الفرنسية.

(10) كان، بمفرده وبصفته الشخصية، دوق النمسا، وملك هنغاريا، وملك بوهيميا، وكونت التيرول، إلخ.

لقد ألغت الثورة والحروب اللاحقة عدداً كبيراً من هذه المخلفات، فاندثر جانب منها بفعل الحماس الثوري لتوحيد الأراضي وخلق الانسجام الداخلي فيها، واختفى جانب آخر جراء انكشاف الدول الصغيرة الضعيفة المتكرر لمطامع جاراتها الكبرى مدةً طويلة جداً، واختفت كيانات بقيت على قيد الحياة طوال عصور، مثل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأكثرية الدول ـ المدن، والمدن ـ الإمبراطوريات. فلفظت الإمبراطورية آخر أنفاسها عام 1806، واندثرت جمهوريتا جنوا والبندقية القديمتان بحلول العام 1797. ومع نهاية الحرب، انخفض عدد المدن الألمانية الحرة إلى أربع فحسب. وثمة مجوعة أخرى من الكيانات القروسطية، وهي الدول الكهنوتية المستقلة، سلكت هذا السبيل نفسه؛ ومنها المقاطعات الأبرشية وكولون ومينز وتريفيز وسالزبورغ وغيرها، وبقيت الدول البابوية في وسط إيطاليا حتى العام 1870. كما أدت عمليات الضم، ومعاهدات السلام، والمؤتمرات التي حاول الفرنسيون بها إعادة تشكيل الخريطة السياسية الألمانية بصورة منهجية (1797ـ1798، 1803) إلى تقليص عدد الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، بما فيها فرسان الإمبراطور الأحرار، من 234 إلى أربعين. وفي إيطاليا، حيث أدت أجيال من الحروب العشوائية إلى تبسيط البنية السياسية، ودفع الدويلات إلى التمركز في شمال إيطاليا ووسطها، كانت التغيرات أقل حدة وإثارة. فحيث إن هذه التغيرات أفادت بعض الدول الملكية الراسخة، فإن هزيمة نابليون قد أسهمت في استمرارها، إذ لم تعد النمسا تفكر باستعادة جمهورية البندقية؛ لأنها كانت قد اكتسبت الثورة الفرنسية، كما أنها لم ترضخ قط لفكرة التنازل عن سالزبورغ (التي كسبتها عام 1803) لمجرد أنها تكن مشاعر الاحترام للكنيسة الكاثوليكية.

أما خارج أوروبا، فإن التغيرات الإقليمية خلال الحرب كانت بالطبع حصيلة للعمليات الجماعية التي قامت بها بريطانيا بضم مستعمرات الآخرين، ولحركات التحرر من الاستعمار التي ألهمتها الثورة الفرنسية (كما حدث في سان دومنغو)، أو أفسح لها المجال، أو

فرضها، الانفصال المؤقت للمستعمرات عن مراكز الدول الاستعمارية (كما في أمريكا الإسبانية والبرتغالية). وقد ضمنت هيمنة بريطانيا على البحار الاستمرار وعدم التراجع عن أكثر هذه التغيرات، سواء أكانت قد حدثت على حساب الفرنسيين أم في معرض التصدي لهم.

وبالقدر نفسه من الأهمية، كانت التغيرات المؤسسية التي استحثها الغزو الفرنسي مباشرة أو بطريقة غير مباشرة. لقد كانت فرنسا، في أوج سطوتها تحكم، كجزء من تكوينها كدولة، جميع ألمانيا الواقعة شمال الراين، وبلجيكا، وهولندا، وشمال ألمانيا الممتد شرقاً حتى ليوبك، وسافوي، وبيدمونت، وليغوريا، وإيطاليا غرب الابينين نزولاً حتى حدود نابولي، والأقاليم الإيليرية الممتدة من كارينثيا جنوباً لتشمل دلماسيا. وكانت الممالك والدوقيات التابعة أو التي تحكمها عائلات فرنسية تغطي إسبانيا، وبقية إيطاليا، وبقية الراينلاند ـ وستفاليا، وجزءاً كبيراً من بولندا. وفي هذه الأقاليم جميعها (ربما باستثناء غراندوقية وارسو)، كانت مؤسسات الثورة الفرنسية والإمبراطورية النابليونية توضع موضع التطبيق بصورة تلقائية، أو تغدو نموذجاً تحتذيه الإدارة المحلية. وألغي الإقطاع رسمياً، وطبق القانون والنظام العدلي الفرنسي، وهكذا دواليك. وكانت هذه التغيرات أبقى وأبعد أثراً مما طرأ على الحدود، وظلّ قانون نابليون المدني، أو عاد ليكون، هو الأساس للنظم القانونية المحلية في بلجيكا، والرينلاند (حتى بعد عودتها إلى بروسيا) وفي إيطاليا. وما أن يُلغى الإقطاع، حتى يكون هذا الإلغاء نهائياً لا رجعة عنه.

لقد اتضح لأعداء فرنسا الأذكياء أن ما ألحق بهم الهزيمة هو نظامها السياسي الجديد المتفوق، أو، على الأقل، إخفاقهم في انتهاج سبل بديلة للإصلاح. من هنا، فإن التغيرات لم تنجم عن الغزو الفرنسي فحسب، بل عن ردود الفعل إزاءه، أو في أحيان معينة، عن كلا السبيلين، كما حدث في إسبانيا. إن المتعاونين مع نابليون، أو

المُتَفرنسين، من جهة، والزعماء الليبراليين في زمرة قادس المناوئة لفرنسا من جهة أخرى، كانوا يأملون أساساً في قيام دولة أسبانية محدثة تسلك سبل الإصلاح التي انتهجتها الثورة الفرنسية. وقد أخفق بعضهم في ذلك فيما حاول آخرون تحقيق هذه الأغراض. وثمة حالة أخرى أكثر وضوحاً من حالات الإصلاح عن طريق ردات الفعل، هي بروسيا. فقد كان الليبراليون الأسبان مصلحين في المقام الأول، ولم يكونوا أعداء لفرنسا إلا من قبيل المصادفة التاريخية. أما في بروسيا، فقد استُحدث شكل من أشكال تحرير المزارعين، ونُظِّم جيش يضم عناصر قادرة على أن تهب للدفاع عن البلد، ونفذت إصلاحات قانونية، واقتصادية، وتربوية من خلال الآثار التي خلفها انهيار الجيش والدولة اللذين بناهما فريدريك في معركتي يينا وأويرستيدت، وبقصد واضح لا لبس فيه، للتخفيف من عواقب هاتين الهزيمتين.

ويمكن القول، بقليل من المبالغة، إن جميع الدول المهمة الواقعة غربي روسيا وتركيا، وجنوبي اسكندنافيا في القارة الأوروبية، لم تخرج من الحروب التي استمرت نحو عقدين من دون أن تتأثر مؤسساتها بانتشار الثورة الفرنسية أو محاولات تقليدها. بل إن مملكة نابولي المغرقة في الرجعية لم تحاول استعادة النظام الإقطاعي القانوني بعد أن ألغاه الفرنسيون.

بيد أن التغيرات في الحدود، والقوانين، والمؤسسات الحكومية لم تكن شيئاً إذا ما قورنت بأثر ثالث من الآثار التي خلفتها الحروب الثورية، ألا وهو التحول العميق الذي طرأ على البيئة السياسية. فعندما نشبت الثورة الفرنسية، استقبلتها حكومات أوروبا بدم بارد؛ فالتغير المفاجئ في المؤسسات، واندلاع الانتفاضات، وإطاحة السلالات المالكة، واغتيال الملوك، وإعدامهم، لم تشكل بحد ذاتها صدمة لحكام القرن الثامن عشر، الذين اعتادوا على هذه الأمور، وكانوا ينظرون إليها من ناحية تأثير ما تحدثه من تغيرات على توازن القوى وعلى موقعهم

النسبي بالدرجة الأولى. وكما كان يقول فيرجين (Vergennes)، وزير الخارجية الشهير في العهد القديم، "إن المتمردين الذين أقوم بطردهم من جنيف هم عملاء لإنجلترا، بينما يمد المتمردون في أمريكا لنا يد الصداقة الطويلة الأمد في المستقبل. إن سياستي تجاه كل من هذين الطرفين لا تتأثر بنظامهما السياسي، بل بالأسباب التي تهم الدولة"[11]. غير أن وصفاً مختلفاً تماماً كان قد برز بحلول العام 1815 تجاه الثورة، وسيطر على سياسة القوى الأوروبية.

أصبح معروفاً آنذاك أن الثورة في بلد واحد قد تتحول إلى ظاهرة أوروبية، وأن المبادئ التي تدعو إليها قد تنتشر عبر الحدود، بل قد يتفاقم الوضع إذا ما أقدم جنودها الغزاة على نسف الأنظمة السياسية في القارة. كما غدا معروفاً آنذاك أن الثورة الاجتماعية ممكنة، وأن للأمم كياناً مستقلاً عن بنية الدولة، مثلما أن للشعوب كياناً مستقلاً عن الحكام، وأن للفقراء كياناً مستقلاً عن الطبقات الحاكمة. وكان دو بونالد (De Bonald) قد لاحظ عام 1796 أن "الثورة الفرنسية حدث فريد في التاريخ"[12]. غير أن هذه عبارة مضللة؛ فقد كانت الثورة عالمية شاملة، ولم تكن لدى أية دولة حصانة ضدها. والجنود الفرنسيون الذين شاركوا في الحملات التي امتدت من الأندلس حتى موسكو، ومن البلطيق إلى سوريا، وعلى امتداد بقعة لم تصلها أية غزوة منذ حملات المغول، ومنطقة أوسع بالتأكيد مما وصلت إليه أية قوة عسكرية مفردة في أوروبا منذ النورديين ـ نقول إن هؤلاء الجنود الفرنسيين زادوا ثورتهم شمولاً وعمقاً بفاعلية لا مثيل لها، وكانت المبادئ التي حملوها، والمؤسسات التي نقلوها معهم، حتى في ظل نابليون، من إسبانيا إلى إيليريا، عالمية شاملة، وذلك ما عرفته الحكومات، وعرفته الشعوب.

---

(11) Albert Sorel, *L'Europe et la révolution française*, 8 vols. ([Paris: E. Plon, nourrit et cie, 1922-1927]), vol. 1, p. 66.

(12) *Considérations sur la France*, chapitre IV.

وقد عبر عن هذا الموقف رجل العصابات المتمرد الوطني اليوناني كولوكوترون (Kolokotrones) بقوله: "في رأيي أن الثورة الفرنسية، وأعمال نابليون، قد فتحت عيون العالم. إن الدول لم تكن تعرف شيئاً قبل ذلك. وكانت الشعوب تعتقد أن الملوك هم آلهة على الأرض، وأن على الناس أن يروا أن كل ما يقوله الملوك أو يفعلونه هو الصواب. غير أن التغيرات التي تحصل الآن قد جعلت التحكم في الناس أمراً في غاية الصعوبة"[(13)].

IV

لقد شاهدنا الآثار التي خلفتها نحو عشرين سنة من الحرب على البنية السياسية في أوروبا. ولكن، ما هي التبعات التي ترتبت على سيرورات الحرب الفعلية، والحشود والعمليات العسكرية والإجراءات السياسية والاقتصادية التي أعقبتها؟

من المفارقات أن هذه الآثار برزت في أجلى مظاهرها في المواقع التي كان فيها سفك الدماء في أدنى مستوياته، باستثناء فرنسا نفسها التي تكبدت بالتأكيد أعلى نسبة من الإصابات والخسائر البشرية غير المباشرة قياساً على غيرها من الدول. وكان من حسن طالع الرجال في الفترة الثورية والنابليونية أنهم عاشوا بين مرحلتين من الحروب البربرية: في القرن السابع عشر وفي أيامنا هذه؛ وهما المرحلتان اللتان كانت تُباد فيهما شعوب ودول برمتها وتصبح أثراً بعد عين على نحو يفوق كل قدرة على التخيل. فمن جراء الحروب التي وقعت بين العامين 1792 و1815، حتى في شبه الجزيرة الأيبيرية التي امتدت فيها العمليات العسكرية فترة أطول وجعلتها المقاومة الشعبية والعمليات الانتقامية أكثر شراسة من غيرها، فإننا لا نجد منطقة تعرضت للدمار مثلما تعرضت

(13) Leften Stavros Stavrianos, "Antecedents to the Balkan Revolutions of the Nineteenth Century," *Journal of Modern History*, vol. 29, no. 4 (1957), p. 344.

أجزاء من أوروبا الوسطى والشرقية خلال حرب الثلاثين سنة، والحروب الشمالية في القرن السابع عشر، والسويد وبولندا في أوائل القرن الثامن عشر، أو بقاع واسعة من العالم في الحرب أو الحرب الأهلية في القرن العشرين. إن فترة التحسن الاقتصادي الطويلة التي سبقت العام 1789 كانت تعني أن المجاعة، والطاعون والوباء اللذين صاحباها، لم تضف الكثير إلى ما عانته هذه المناطق من أهوال المعارك وعمليات النهب، على الأقل في العام 1811 (إن مرحلة المجاعة الكبرى جاءت بعد الحروب التي نشبت بين العامين 1816 و1817)، وكانت الحملات العسكرية قصيرة خاطفة حادة، والمعدات والأسلحة المتمثلة في المدفعية المتحركة الخفيفة نسبياً أقل قدرة على التدمير إذا ما نظرنا إليها في ضوء المقاييس الحديثة، ولم تكن عمليات الحصار شائعة. وربما كانت النيران تمثل الخطر الأكبر على أماكن السكن ووسائل الإنتاج. وكان من الممكن إعادة بناء البيوت الصغيرة والمزارع بسهولة، كما كان الدمار المادي الذي يتعذر إصلاحه في اقتصاد ما قبل التصنيع يكمن في غابات الخشب، ومزارع الفاكهة والزيتون التي يستغرق نموها وقتاً طويلاً، ولم يكن ثمة وفرة من هذه الثروات على أية حال.

من هنا، يبدو أن الخسائر البشرية الناجمة عن عقدين من الحرب لم تكن، بالمقاييس الحديثة، باهظة إلى درجة مرعبة؛ وذلك على الرغم من أن الحكومات لم تحاول حسابها، وجميع التقديرات الحديثة تظل غامضة قريبة من حدود التخمين، باستثناء ما يتصل منها بفرنسا وبحالات قليلة خاصة. ويمكننا أن نقارن نحو مليون من قتلى الحرب في الفترة كلها[14]، بخسائر أية دولة بمفردها من الأطراف الرئيسية المتحاربة

(14) Gaston Bodart and Vernon Lyman Kellogg, *Losses of Life in Modern Wars: Austria-Hungary; France; Military Selection and Race Deterioration*, Edited by Harald Westergaard (Oxford: Clarendon Press; London: New York; H. Milford, 1916), p. 133.

طوال أربع سنوات ونصف السنة من الحرب العالمية الأولى، أو بنحو ستمئة ألف قتيل في الحرب الأهلية الأمريكية بين العامين 1861 و1865. وحتى لو افترضنا سقوط مليوني قتيل خلال الحرب التي امتدت نحو عشرين سنة، فإن ذلك لن يكون تقديراً مبالغاً فيه، إذا ما أخذنا في الاعتبار، بصورة خاصة، الآثار البشرية التي تسببت فيها المجاعات والأوبئة في تلك الأيام. وثمة تقارير عن أن ضحايا وباء الكوليرا بلغوا 236,744 نسمة في إسبانيا عام 1865[(15)] والواقع أن ما من بلد، ربما باستثناء فرنسا، قد سجلت زيادة ملموسة في عدد سكانها في تلك الفترة.

وبالنسبة لأغلب سكان أوروبا، باستثناء البلدان المتحاربة، لم تكن الحرب تعني أكثر من انقطاع مفاجئ مؤقت في إيقاع الحياة العادية، هذا إذا كانت تعني أي شيء على الإطلاق. إن العائلات في روايات جين أوستن كانت تمارس حياتها كأن شيئاً لم يكن. وقد تذكر ميكلنبيرغرز الذي كان يعمل مع فريتز رويتر (Fritz Reuter)، أيام الاحتلال الأجنبي باعتبارها حكايات قصيرة أكثر منها دراما إنسانية. وعندما استرجع الهر كوغلغن الشيخ ذكريات طفولته في ساكسونيا (التي كانت تعتبر، مثل بلجيكا ولومبارديا، واحدة من البؤر الجاذبة للجيوش والمعارك بحكم وضعها السياسي والجغرافي في أوروبا) فإنه اكتفى بذكر الأسابيع القليلة التي كانت فيها الجيوش تعبر فيها شوارع درسرن أو تتجول فيها. وصحيح أن أعداد المشاركين في تلك العمليات كانت أعلى بكثير مما كان شائعاً في حروب سابقة، مع أنها كانت استثنائية بالمقاييس الحديثة. حتى إن حملات التجنيد لم تكن تعني استدعاء أكثر من شريحة بسيطة من القادرين على حمل السلاح. إن مقاطعة كوت دور في فرنسا قدمت طوال حكم نابليون نحو أحد عشر ألف رجل، أي نحو 3,15 في المئة من

---

(15) Jaime Vicens Vives, *Historia social y económica de España y América*, 4 vols. (Barcelona: Editorial Teide, [1957-1959]), vol. IV, ii, p. 15.

سكانها البالغ عددهم ثلاثمئة وخمسين ألفاً. وفي الفترة بين العامين 1800 و1815، لم يجند من إجمالي سكان فرنسا أكثر من 7 في المئة، مقابل 21 بالمائة في الحرب العالمية الأولى التي دامت فترة أقصر[16]. إلا أن هذه النسب تظل عالية جداً بالأرقام المطلقة. فعملية الحشد والتعبئة خلال العامين 1793 و1794 ربما جندت نحو ستمئة وثلاثين ألفاً من الرجال (من أصل إجمالي نظري قد يبلغ سبعمئة وسبعين ألفاً). وكان جيش نابليون خلال فترة السلم عام 1805 يضم نحو أربعمئة ألف جندي، بينما كان الجحفل الأعظم الذي قاده في مستهل حملته على روسيا سبعمئة ألف رجل (بينهم ثلاثمئة ألف جندي من غير الفرنسيين)، ما عدا الجنود الفرنسيين المنتشرين في أرجاء القارة الأوروبية، ولا سيما في إسبانيا. وكانت حصيلة التعبئة التي أعلنتها الدول المعادية لفرنسا أقل من ذلك بكثير، خاصة أن هذه الجيوش لم تكن ترابط في ميادين القتال بصورة دائمة (باستثناء القوات البريطانية)، بالإضافة إلى أن الصعوبات المالية والصعوبات التنظيمية كثيراً ما كانت تجعل عملية الحشد الكامل أكثر مشقة. فقد سمحت معاهدة السلام المبرمة عام 1809 للنمسا بتجنيد ما يقارب مئة وخمسين ألف رجل عام 1913، غير أنها لم تستطع أن تعبئ لأية حملة عسكرية أكثر من ستين ألفاً. أما البريطانيون فإنهم، من جهة أخرى، حافظوا على أعداد عالية مدهشة من الجنود في حالة التعبئة العسكرية. وربما كان هؤلاء الجنود الذين بلغ عددهم في ذروة الحرب بين العامين 1813 و1814، ثلاثمئة ألف في الجيش النظامي، ومئة وأربعين ألفاً من قوات الأسطول والبحرية، بعد أن زودوا بالأرصدة الكافية، قد تجشموا أعباء أثقل بكثير مما تحمله الفرنسيون خلال أغلبية سني الحرب[17].

---

(16) Geoffrey Bruun, *Europe and the French Imperium, 1799-1814*, The Rise of Modern Europe (New York; London: Harper and Brothers, 1938), p. 72.

(17) بما أن هذه الأرقام كانت تعتمد على الأموال التي أقرها البرلمان، فإن الرجال الذين جندوا للحرب كانوا بالتأكيد أقل عدداً. انظر: Jules Leverrier, *La Naissance de*=

كانت الخسائر جسيمة، على الرغم من أنها، مرة أخرى، لم تكن كذلك بالمقاييس الحديثة التي عرفناها هذه الأيام. إن 6 في المئة أو 7 في المئة فحسب من البحارة البريطانيين الذين قتلوا بين العامين 1793 و1815 هم الذين استسلموا للفرنسيين، بينما أودى المرض والحوادث بنحو 8 في المئة منهم. وكان الموت في ساحة القتال الفعلي يمثل خطراً قليلاً؛ إذ إن 2 في المئة من الإصابات في أوسترليتز، وربما 8 في المئة أو 9 في المئة منها في واترلو كانت تمثل القتلى في الميدان بالفعل. أما الخطر المرعب الذي كان يتهدد الجنود فهو الإهمال، والقذارة، وسوء التنظيم، وتردّي الخدمات الطبية، والجهل بالمستلزمات الصحية التي أدت كلها إلى الإجهاز على الجرحى، والمساجين، وفي الأحوال الجوية المناسبة (مثل خطوط الاستواء)، إلى القضاء على الجميع تقريباً.

لا مراء في أن العمليات العسكرية قد أسفرت عن مقتل الكثيرين، على نحو مباشر أو غير مباشر، ودمرت معدات الإنتاج. غير أنها، كما رأينا، لم تؤد في الحالتين كلتيهما إلى عرقلة جدية لإيقاع النمط الاعتيادي في الحياة والنمو في البلاد. بيد أن المتطلبات الاقتصادية للحرب، وللحرب الاقتصادية، قد تركت آثاراً بعيدة المدى.

كانت الحروب الثورية والنابليونية، بمقاييس القرن الثامن عشر، باهظة الكلفة على نحو غير مسبوق. حتى إن كلفتها المالية أذهلت المعاصرين أكثر مما أذهلتهم كلفتها من أرواح البشر. لقد كان انخفاض الأعباء المالية للحرب في الجيل الذي أعقب واترلو بالتأكيد أكثر حدة من انخفاض الكلفة البشرية. وترى بعض التقديرات أن كلفة الحروب

---

l'armée nationle, 1789-1794, collection "problèmes" (Paris: Editions sociales = internationales, 1939), p. 139; Georges Lefebvre, *Napoléon*, peuples et civilisations. Histoire générale; XIV (Paris: F. Alcan, [1936]), p. 198 et 527; Lewis, A *Social History of the Navy, 1793-1815*, p. 119, and *Parliamentary Papers*, vol. XVII (1859), p. 15.

التي وقعت بين العامين 1821 و1850 لم تتجاوز، في المعدل، عشرة في المئة في السنة عما يعادلها بين العامين 1790 و1820، وأن المعدل السنوي لضحايا الحرب ظل أقل بنحو خمسة وعشرين في المئة مما كان عليه في فترة مماثلة سابقة[18]. ولكن كيف ستدفع هذه الكلفة؟ لقد كان الأسلوب التقليدي يعتمد على المزج بين التضخم النقدي (أي إصدار عملة جديدة لدفع ديون الحكومة)، والقروض، والحد الأدنى من الضريبة الخاصة؛ لأن الضرائب كانت تثير حفيظة الناس والمتاعب السياسية (عندما تمنحها "البرلمانات" أو فئات الشعب). غير أن الطلبات المالية الاستثنائية والأوضاع التي فرضتها الحرب قد قلبت كل هذه الحسابات رأساً على عقب.

إن هذه الظروف، بدايةً، قد عّرفت العالم على العملة الورقية[19] غير القابلة للتحويل. وكانت سهولة طبع هذه الأوراق النقدية في القارة، ودفع التزامات الحكومة، أمراً لا يمكن مقاومته. وكانت "الأسينياه" ("Assignats") الفرنسية (1789) أول الأمر، مجرد سندات من الخزينة الفرنسية تحمل فائدة مقدارها خمسة في المئة، صممت انتظاراً للريع المأمول في المستقبل نتيجة لبيع أراضي الكنيسة. وقد حولت خلال بضعة أشهر إلى عملة، أدت الأزمات المالية المتلاحقة إلى صكها بكميات متعاظمة، وإلى خفض قيمتها بصورة حادة، وساعد على ذلك تناقص الثقة لدى الناس. ومع نشوب الحرب، كانت قيمتها قد انخفضت بنحو 40 في المئة، ونحو الثلثين في حزيران/ يونيو 1793. وقد حافظ اليعاقبة على أوضاعها. غير أن شبح الانفلات الاقتصادي الذي أطلَّ بعد الثيرميدور هوى بها إلى الحضيض حتى أصبحت لا تساوي واحداً على

---

(18) Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892).

(19) قبل نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن أي نوع من العملة الورقية المتداولة شائعاً نسبياً، سواء كانت قابلة للاستبدال بسبائك الذهب أو الفضة عند الطلب أم لم تكن.

ثلاثمئة من قيمتها الاسمية، إلى أن وضع إفلاس الدولة الرسمي عام 1797 خاتمة لهذه الحكاية النقدية التي دفعت الفرنسيين إلى رفض أي نوع من العملة النقدية الورقية طوال ما يقرب من قرن من الزمان. ولم تكن مسيرة العملات الورقية في البلدان الأخرى حافلة بالقدر نفسه من الكوارث، على الرغم من أن العملة الروسية كانت، بحلول العام 1812، قد انخفضت إلى ما يعادل 20 في المئة من قيمتها الاسمية، والنمساوية (التي خفضت مرتين في العامين 1810 و1815) إلى 10 في المئة. واستطاع البريطانيون أن يتحاشوا هذا الأسلوب الخاص في تمويل الحرب، وكانوا يعرفون العملة الورقية حق المعرفة ولا يتحاشون التعامل بها. غير أن بنك إنجلترا لم يستطع مقاومة الضغوط المزدوجة التي تستلزمها المتطلبات الحكومية - التي كانت في الأساس ترسل إلى الخارج على هيئة قروض ومعونات - بسبب إنضاب مخزونها من السبائك الذهبية، ومتطلبات القطاع الخاص التي تفرضها سنة المجاعة. ففي العام 1797، أوقفت دفعات الذهب للعملاء في القطاع الخاص، وأصبحت العملة الورقية غير القابلة للتحويل، بالفعل، هي العملة السارية المفعول، وكانت ورقة الجنيه/ الباوند الواحد إحدى هذه النتائج. ولم يعانِ الباوند الورقي أي خفض جدي مثل العملات القارّيّة، وبلغ أدنى مستوياته عام 1817 بنسبة 71 في المئة من قيمته الأصلية، ثم ارتفع مرة أخرى إلى 98 في المئة. إلا أنه استمر على هذه الحال مدة أطول بكثير مما كان متوقعاً له، ولم يستأنف سداد الدفعات النقدية كاملة إلا عام 1821.

كانت القروض هي البديل الآخر للضرائب. على أن الارتفاع المذهل في الدين العام، الناجم عن الإنفاق الباهظ الطويل الأمد على الحرب، أفزع حتى البلدان الأكثر ازدهاراً وثراءً وتقدماً من الوجهة المالية. فبعد خمس سنوات من تمويل الحرب، عن طريق القروض أساساً، وجدت الحكومة البريطانية نفسها مرغمة على اتخاذ خطوة غير مسبوقة لا تبشر بالخير بدفع نفقات الحرب عن طريق الضرائب، وبفرض ضريبة على الدخل لهذا الغرض (1799-1816). وجعلت ثروة

البلاد المتعاظمة من هذه الخطوة أمراً معقولاً تماماً، وأصبحت ممكنةً تغطية نفقات الحرب من الدخل الراهن. ولو فرضت الضرائب المناسبة في البداية، لما ارتفع الدين الوطني من 228 مليون باوند عام 1793 إلى 876 مليوناً عام 1816، وعمولة الدين السنوية من 10 ملايين باوند عام 1792 إلى 30 مليوناً عام 1815 (أي أكثر بكثير من إجمالي إنفاق الحكومة في السنة الأخيرة قبل الحرب). وكانت العواقب الاجتماعية لهذه المديونية جسيمة للغاية؛ لأنها كانت، في واقع الأمر، بمثابة قناة تحولت من خلالها كميات متعاظمة من ريع الضريبة التي يدفعها السكان عموماً إلى جيوب طبقة صغيرة من "قابضي الأموال"، وهم الذين كان الناطقون بلسان الفقراء وصغار رجال الأعمال والمزارعين، مثل وليام كوبيت، يشنون عليهم الهجمات الصحافية الضارية. وكانت الحكومة البريطانية، التي درجت منذ زمن بعيد على سياسة دعم حلفائها العسكريين، هي التي تقدم القروض الخارجية. وقد وفرت لهذا الغرض 80 مليون باوند في الفترة بين العامين 1794 و1804. وكان المنتفعون المباشرون من ذلك هم أصحاب البيوت المالية الدولية، البريطانية والأجنبية، مثل أسرتي بيرينغ وروتشيلد، اللتين كانتا تؤديان دور الوسيط في مثل هذه المعاملات (وقد أرسل المؤسس ماير أمشيل روتشيلد (Meyer Amschel Rothschild) ابنه ناثان من فرانكفورت إلى لندن لهذا الغرض عام 1798). وقد بدأ العصر الذهبي لهؤلاء المولين العالميين بعد الحرب، عندما تكفلوا تمويل القروض الضخمة التي استهدفت مساعدة أنظمة الحكم القديمة على التعافي من آثار الحرب، والأنظمة الجديدة على تحقيق الاستقرار لنفسها. بيد أن الأسس التي قامت عليها هيمنة روتشيلد وبيرينغ (Barings) وأمثالهما على عالم المال على نحو لم يسبقهم أحد إليه من قبل، إنما أرسيت دعائمها خلال الحرب.

على أن الجوانب الفنية للتمويل الحربي تظل أقل أهمية من الأثر الاقتصادي العام الذي أفضى إليه تحويل الموارد من وحدة الاستخدام

السلمية إلى الحربية، كما تفعل الحروب الكبرى عادة. ومن الأخطاء الفادحة اعتبار الجهد الحربي بأكمله عبئاً على الاقتصاد المدني أو على حسابه. إن القوات المسلحة قد تحشد، إلى حد ما، الرجال الذين قد يعانون بغيرها البطالة، أو لا يمكن استخدامهم أصلاً في حدود اقتصاد المرحلة[20]. والصناعة الحربية تستطيع، في المدى البعيد، أن تقدم الحوافز لتطورات تعرضت للإهمال بالنظر لاعتبارات الربح التي تسود وقت السلم، على الرغم من أنها، في المدى القصير، تحول الرجال والمعدات من الأسواق المدنية. وذلك ما أصبح شائعاً ومعروفاً في صناعات الحديد والفولاذ التي لم تكن (كما عرفنا في الفصل الثاني) تتمتع بإمكانيات توسع سريع يضاهي ما شهده قطاع الأنسجة القطنية، فاعتمدت، من ثم، على حوافز الحكومة والحرب. وقد كتب ديونيسيوس لاردنر (Dionysius Lardner) عام 1831 يقول: "خلال القرن الثامن عشر، أصبح سبك الحديد مرادفاً تقريباً لقولبة المدافع"[21]. ويمكننا على هذا الأساس أن نعتبر جانباً من تحويل الموارد الرأسمالية من استخدامات وقت السلم عنصراً من عناصر الاستثمار طويل الأمد في صناعات السلع الرأسمالية والتطوير التقاني. وكان من جملة الابتكارات التقنية التي ولّدتها الحروب الثورية والنابليونية صناعة سكر الشمندر في القارة الأوروبية (بديلاً لسكر القصب المستورد من جزر الهند الغربية)، وصناعة الأغذية المعلبة (التي برزت نتيجة لمساعي البحرية البريطانية لتأمين المواد الغذائية التي يمكن حفظها على متن السفن فترات متطاولة). وعلى الرغم من ذلك، ومع أخذ كل الاعتبارات بالحسبان، فإن أي حرب ضخمة لا بد من أن تعني تحويلاً ضخماً للموارد، وقد تؤدي، في حالات الحصار المتبادل، إلى التنافس

---

(20) كان ذلك هو الأساس القوي الذي ارتكزت عليه الهجرة التقليدية في أوساط المرتزقة العاملين في الخدمة العسكرية في المناطق الجبلية المكتظة بالسكان مثل سويسرا.

(21) Dionysius Lardner, *Cabinet Cyclopaedia*, 133 vols. ([London: n. pb., 1830 - 1849]), vol. 1, pp. 55-56.

المباشر بين قطاعي الاقتصاد السلمي والاقتصاد الحربي على الموارد الشحيحة نفسها.

والتضخم واحد من النتائج الواضحة لهذا التنافس. ونحن نعلم أن فترة الحرب قد رفعت الخط البياني لمستويات الأسعار البطيئة النمو، ودفعتها بصورة حادة إلى أعلى في جميع البلدان؛ وذلك، بحد ذاته، يعني أو يعكس قدراً ما من إعادة توزيع الدخل، بما ينطوي عليه ذلك من نتائج اقتصادية، لمصلحة رجال الأعمال، على سبيل المثال، وبعيداً عن مصالح العمال والعاملين المأجورين (لأن الأجور تقل عن الأسعار في العادة)، ولمصلحة المزارعين (الذين عرف عنهم ترحيبهم بارتفاع الأسعار وقت الحرب) بعيداً عن مصالح المصنعين المنتجين. وفي الاتجاه المعاكس، فإن نهاية احتياجات الحرب، التي تطلق كتلة ضخمة من الموارد من عقالها وتعيدها إلى أسواق أوقات السلام، بما فيها القوى العاملة التي كانت مجندة وقت الحرب، قد جلبت معها، كما تفعل دائماً، مشكلات حادة تتعلق بالتكيف. ولنأخذ مثالاً واضحاً على ذلك: بين العامين 1814 و1818، نقصت قوة الجيش البريطاني بما يعادل نحو 150 ألف جندي؛ أي أكثر من سكان مدينة مانشستر المعاصرة، وانخفض مستوى أسعار القمح من 108 شلنات ونصف الشلن للربع عام 1813 وإلى 64 شلناً واثنين من عشرة من الشلن عام 1815. ونحن نعلم في الواقع أن التكيف خلال مرحلة ما بعد الحرب قد خلق مشكلات اقتصادية غير عادية في جميع أنحاء أوروبا، وتفاقمت وازدادت حدة بفعل الكوارث التي أصابت موسم المحاصيل بين العامين 1816 و1817.

إلا أن علينا في هذا المقام أن نطرح سؤالاً عاماً أكثر شمولاً: إلى أي حدٍّ أعاق تحويل الموارد، أو أبطأ، التنمية الاقتصادية في مختلف البلدان؟ من الواضح أن هذا السؤال يتعلق، بصفة خاصة، بفرنسا وبريطانيا، القوتين الاقتصاديتين العظميين اللتين تحملتا الأعباء

الاقتصادية الجسيمة. ولم يكن العبء الفرنسي من نتائج الحرب في مراحلها الأخيرة؛ لأن هذه الحرب صممت لتغطي تكاليفها بنفسها، إلى حد بعيد، على حساب الشعوب الأجنبية المغلوبة التي احتلت الجيوش الغازية أراضيها أو نهبتها، أو فرضت الضرائب على من فيها من رجال ومعدات وأموال. إن نصف الريع الناجم عن الضريبة في إيطاليا كان من نصيب الفرنسيين بين العامين 1805 و1812[22] وربما لم تصل حصة الضريبة إلى هذا الحد، إلا أن من الواضح أن تلك الأعباء كانت بالأسعار الحقيقية والنقدية، أقل كلفة مما يمكن أن تكون عليه في وضع آخر. إن الخلل الذي أصاب الاقتصاد الفرنسي عاد إلى عقد كامل من الثورة، والحرب الأهلية، والفوضى التي أدت، على سبيل المثال، إلى خفض المردود لمراكز التصنيع في سين ـ انفريور (روان) من 41 مليوناً إلى 15 مليوناً، ومستوى القوى العاملة من 246 ألفاً إلى 86 ألف عامل بين العامين 1790 و1795. وينبغي أن نضيف إلى ذلك خسارة التجارة الخارجية بسبب سيطرة بريطانيا على أعالي البحار. أما العبء البريطاني، فيعود إلى كلفة النقل التي لم تقتصر على جهد البلاد الحربي فحسب، بل شملت وجوه الدعم التقليدي المقدم للحلفاء في القارة الأوروبية ولعدد من الدول الأخرى. وقد تحمل البريطانيون، بالمقاييس النقدية، العبء الأكبر طوال الحرب؛ فقد كلفتهم الحرب ما يتراوح بين ثلاثة وأربعة أضعاف ما تكبده الفرنسيون.

والإجابة عن السؤال العام الذي طرحناه تظل أيسر بالنسبة للفرنسيين مما هي بالنسبة للبريطانيين؛ ذلك أن الاقتصاد الفرنسي ظل، بلا شك، يعاني الركود النسبي. ولولا الثورة والحروب، لحققت

(22) Evgeny Viktorovitch Tarlé, *Le Blocus continental et le royaume d'Italie: La Situation économique de l'Italie sous Napoléon 1er, d'après des documents inédits* (Paris: F. Alcan, 1928), pp. 3-4 et 25-31; Henri Sée, *Histoire économique de la France*, vol. II, p. 52, et Mulhall, *The Dictionary of Statistics*.

الصناعة والتجارة الفرنسيتان مزيداً من التوسع السريع. وعلى الرغم من أن الاقتصاد الفرنسي حقق نمواً أساسياً في عهد نابليون، إلا أنه لم يستطع التعويض عما خلفه النكوص وضياع الزخم في التسعينات من القرن الثامن عشر. أما بالنسبة للبريطانيين، فإن الإجابة أقل جلاءً؛ لأن التوسع اتخذ منحىً سريعاً حاداً كالشهاب. والسؤال الوحيد هو: هل كان التوسع سيحقق لولا الحرب المزيد من التقدم بصورة أسرع؟ والإجابة التي تتمتع بالقبول العام اليوم أنه كان سيحقق ذلك[23]. وبالنسبة للبلدان الأخرى، سيكون الجواب أقل أهمية في الأوضاع التي يتسم فيها النمو الاقتصادي بالبطء أو التقلب، كما كانت الحال في الجانب الأكبر من إمبراطورية الهابسبيرغ، أو عندما يكون الأثر الكمّي للمجهود الحربي قليلاً نسبياً.

إن مثل هذه المقولات الجريئة تمثل، بالطبع، تحايلاً على السؤال. بل إنه لم يكن يفترض في الحروب الاقتصادية الصريحة التي خاضتها بريطانيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر أن تجلب الازدهار بذاتها أو من خلال توفير الحوافز للاقتصاد، وكان النصر هو الذي يعوَّل عليه لتحقيق ذلك، عن طريق القضاء على المنافسين والسيطرة على أسواق جديدة. إن "كلفة" الخلل الاقتصادي، وتحويل الموارد وما إلى ذلك، تقاس بما يتحقق وراءها من "فائدة" كانت تنعكس في الوضع النسبي للمتحاربين بعد الحرب. ووفق هذه المقاييس، يمكن القول إن الحروب التي امتدت بين العامين 1793 و1815، قد دفعت بنفسها أكثر بكثير من

(23) Arthur D. Gayer, W. W. Rostow [and] Anna Jacobson Schwartz, *The Growth and Fluctuation of the British Economy, 1790-1850: An Historical, Statistical, and Theoretical Study of Britain's Economic Development*, 2 vols., with the Assistance of Isaiah Frank (Oxford: Clarendon Press, 1953), pp. 646-649, and François Crouzet, *L'Economie britannique et le blocus continental, 1806-1813*, 2 vols. (Paris: Presses universitaires de France, 1958), pp. 868 ff.

كلفتها. فمقابل تباطؤ طفيف في التوسع الاقتصادي ـ الذي كان ضخماً على أية حال ـ تمكنت بريطانيا من القضاء، بصورة حاسمة، على منافستها الأكثر قرباً، بحيث أصبحت هي بالفعل "مَشْغَل العالم" مدة جيلين. وكانت بريطانيا، وفقاً لجميع المؤشرات الصناعية والتجارية، تتقدم أشواطاً بعيدة على جميع البلدان الأخرى (ربما باستثناء الولايات المتحدة) قياساً على ما كانت عليه عام 1789. وإذا اعتبرنا أن القضاء المؤقت على منافسيها، واحتكار الأسواق البحرية وفي المستعمرات، كانت كلها من الشروط الجوهرية المسبقة لمواصلة التصنيع في بريطانيا، فإن الثمن لتحقيق ذلك يبدو متواضعاً. وإذا قلنا إن تقدمها الواضح عام 1789 كان كافياً آنذاك لأن يكفل التفوق الاقتصادي البريطاني دونما حاجة لحرب طويلة، يمكننا أن نعتقد كذلك أن الكلفة لم تكن باهظة للدفاع عن هذا التفوق ضد الخطر الفرنسي لاستعادة ما أضاعته المزاحمة الاقتصادية عن طريق الوسائل السياسية والعسكرية.



الفصل الخامس

السلام

"إن التوافق الراهن (بين القوى) يمثل الدرع الأمنية الكاملة تجاه الفورات الثورية التي تعتمد في كل دولة تقريباً في أوروبا. . . . ومن مقتضيات الحكمة الحقيقية أن نترفع على الخلافات الصغيرة العادية، ونقف صفاً واحداً وراء المبادئ التي يمثلها النظام الاجتماعي القائم حالياً".

كاستلري (Castlereagh)[1].

"إضافة لذلك، فإن إمبراطور روسيا هو الحاكم المطلق الوحيد الذي يؤهله وضعه كلياً للانتقال، اعتباراً من الآن، إلى المهام الكبرى. إنه على رأس الجيش الوحيد المتأهب، بحق، بين جيوش أوروبا كافة".

غينتز (Gentz)، 24 مارس/ آذار 1818[2].

---

(1) Castlereagh, *Correspondence*, Third Series, XI, p. 105.

(2) Friedrich Gentz, *Dépêches inédites du chevalier de Gentz aux hospodars de Valachie, pour servir à l'histoire politique européenne (1813-1828)*, 3 vols., publiées par le comte Prokesch-Osten fils (Paris: E. Plon, 1876-1877), vol. 1, p. 371.

بعد أكثر من عشرين سنة من الحرب شبه الموصولة والثورة، أخذت أنظمة الحكم القديمة الظافرة تواجه المشكلات المتصلة بصنع السلام والمحافظة عليه، وهي مشكلات صعبة وخطرة في الوقت نفسه. كان من الواجب تنظيف الركام والأنقاض التي تراكمت على مدى عقدين من الزمان، وإعادة توزيع الغنائم من الأراضي. والأهم من ذلك أنه قد اتضح لدى رجال الدولة الأذكياء أنه لا يمكن السماح منذئذٍ بنشوب حرب رئيسية في أوروبا؛ لأن ذلك سيعني، بصورة شبه مؤكدة، ثورة جديدة، وبالتالي دماراً للأنظمة السياسية القديمة. وعلى حد تعبير الملك ليوبولد (Leopold) عاهل بلجيكا، عم الملكة فيكتوريا (Victoria) الحكيم الممل بعض الشيء، في معرض حديثه عن أزمة لاحقة: "في حالة المرض الاجتماعي الذي تعاني منه أوروبا الآن، سيكون مستحيلاً شن حرب عامة. . . إن مثل هذه الحرب ستؤدي إلى صراع بين المبادئ، (و) أعتقد من معرفتي بأوروبا أن هذا الصراع سيغير شكل القارة، ويحدث انقلاباً يدمر بنيتها كاملة"[3]. ولم يكن الملوك ولا رجال الدولة أكثر حكمة وتحديداً مما كانوا عليه، غير أن الفزع كان قد تملكهم دونما ريب.

كما أنهم كانوا ناجحين، على غير عادة. ففي الفترة التي انقضت بين هزيمة نابليون وحرب القرم التي امتدت ثلاث سنوات (1854ـ1856)، لم تقع في الواقع حرب عامة في أوروبا، ولم ينشب أي صراع تقابلت فيه قوتان كُبرَيان في ميدان القتال. بل لم تكن ثمة حروب بين أكثر من دولتين كبريين، باستثناء حرب القرم، على مدى قرن كامل بين العامين 1815 و1914. وجدير بمواطني القرن العشرين أن يقدروا مثل هذا الإنجاز الرائع. وتتزايد أهمية هذا الإنجاز إذا عرفنا أن المشهد الدولي كان بعيداً كل البعد عن الهدوء والاستقرار، حافلاً بالأزمات

(3) Joanna Richardson, *My Dearest Uncle: A Life of Leopold, First King of the Belgians* (London: Jonathan Cape, 1961), p. 165.

والصراعات. فقد أدت الحركات الثورية[4] إلى تدمير الاستقرار الذي لم يتحقق إلا بعد صعوبات كبيرة في الساحة الدولية. وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر في جنوب أوروبا بصورة خاصة، وفي البلقان وأمريكا اللاتينية، وبعد العام 1830 في غرب أوروبا (ولا سيما بلجيكا)، ومرة ثانية عشية ثورة 1848. وقد جعل انهيار الإمبراطورية التركية ـ التي كان يتهددها التفكك الداخلي ومطامع الدول الكبرى المنافسة، ولا سيما بريطانيا، وروسيا، وإلى حد أقل فرنسا ـ مما اصطلح على تسميته "المسألة الشرقية" سبباً رئيسياً للأزمة؛ فقد برزت، على نحو غير متوقع، في اليونان في عشرينات القرن التاسع عشر، وفي الثلاثينات في مصر. ومع أنها قد هدأت بعد صراع حاد بصورة خاصة بين العامين 1839 و1841، إلا أنها ظلت، كسابق عهدها، قابلة للانفجار. وكانت العلاقات بين بريطانيا وروسيا في أسوأ حالاتها فيما يتصل بالشرق الأدنى والأرض الحرام بين الإمبراطوريتين في آسيا. ولم تكن فرنسا لتقنع بمكانة أكثر تواضعاً من تلك التي كانت تحتلها قبل العام 1815. وعلى الرغم من كل هذه المخاطر والدوامات، كانت القنوات الدبلوماسية تتقاطع وتعبر مساحات واسعة من المياه الهوجاء، ولكن من دون أن تتصادم.

لقد كان على جيلنا، الذي أخفق إخفاقاً ذريعاً في المهمة الأساسية المتصلة بالدبلوماسية الدولية، وبتحاشي الحرب، أن ينظر إلى رجال الدولة والمناهج التي سادت بين العامين 1815 و1848 باحترام لم يعرفه أسلافه. إن تاليران (Talleyrand)، الذي تولى السياسة الخارجية الفرنسية بين العامين 1814 و1835، يظل نموذجاً مثالياً للدبلوماسية الفرنسية حتى يومنا هذا. كما أن كاستلري، وجورج كانينغ (George Canning)، والفيكونت بالمرستون (Viscount Palmerston) الذين كانوا وزراء

(4) التي سنناقشها، عدة مرات، في الفصل السادس من هذا الكتاب.

خارجية بريطانيا على التوالي في الفترة بين العامين 1812 ـ 1822 و1822ـ1827، وجميع الحكومات من غير حزب التوري (المحافظين) من 1830 حتى 1852[5]، اكتسبوا منزلة مضَلِّلة استرجاعية بوصفهم عمالقة الدبلوماسية. أما الأمير ميترنيخ (Metternich)، الوزير الأول في النمسا طوال الفترة الممتدة من هزيمة نابليون حتى إطاحته هو نفسه عام 1848، فينظر إليه اليوم باعتباره رجل الدولة الحكيم الذي حافظ على الاستقرار، لا بوصفه العدو اللدود لأشكال التغيير كافة. ومع ذلك، فإننا لا نكاد نتبين صفة تستحق الإشادة في وزراء خارجية روسيا في عهد الإسكندر الأول (Alexander I) (1801 ـ 1825)، ونيكولا الأول (Nicholas I) (1825ـ1855)، وفي بروسيا غير المهمة نسبياً في الفترة التي نعالجها.

ويبدو أن للإشادة بهؤلاء السياسيين ما يبررها بمعنى من المعاني. إن استقرار أوروبا بعد الحروب النابليونية لم يكن يتمتع، أكثر من غيره، بسمات العدل والأخلاق. إلا أننا إذا أخذنا بالاعتبار أهداف من صنعوا هذا الاستقرار، المعادية تماماً للروح الليبرالية وللقومية (وللنزعة الثورية)، فإنه سيبدو واقعياً ومعقولاً. فلم تكن ثمة محاولة لاستثمار النصر النهائي على فرنسا التي كان الجميع حريصين على عدم استثارتها في فورة جديدة من اليعقوبية الثورية. وقد تركت حدود البلد المهزوم في وضع ليس أفضل بكثير مما كان عليه عام 1789، كما أن التعويضات المالية لم تكن باهظة، كما كان احتلال القوات الأجنبية للأراضي الفرنسية قصير الأمد. وبحلول العام 1818، استعادت فرنسا مكانتها عضواً كامل العضوية في منظومة "التوافق الأوروبي" (ولولا عودة نابليون الفاشلة عام 1815، لكانت هذه الشروط أكثر يسراً وليناً). وقد أعيدت أسرة البوربون إلى الحكم، إلا أنه كان من المفهوم أن عليها أن تقدم بعض التنازلات لاسترضاء الرعايا الذين تعتمل في نفوسهم

(5) أي خلال هذه الفترة، باستثناء عدة أشهر بين العامين 1834 و1835، وبين عامي 1841 و1846.

النزعات الخطرة. وتم القبول بالتغيّرات الثورية التي جلبتها الثورة، وبالأداة المشتعلة، أي الدستور، التي منحت لهم، مع أنها عادت بالطبع بصيغة في غاية الاعتدال باعتبارها ميثاقاً "وافق عليه بحرية" الملك المطلق العائد لويس الثامن عشر.

لقد أعيد رسم خريطة أوروبا، من دون إبداء أي اهتمام بتطلعات شعوبها أو بحقوق العديد من الأمراء الذين حرمهم منها الفرنسيون بين وقت وآخر، ولكن مع اهتمام ملموس بالمحافظة على توازن القوى بين الدول الخمس الكبرى التي برزت من الحرب: روسيا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا. وكانت الدول الثلاث الأولى هي وحدها التي تتمتع بالأهمية. إذ لم يكن لبريطانيا أية مطامع إقليمية في القارة، على الرغم من أنها كانت تحبذ الاحتفاظ بالسيطرة أو بسط يد الحماية على عدد من المواقع ذات الأهمية البحرية أو التجارية. فاحتفظت بمالطا والجزر الأيونية وهيليغولاند، وشددت الرقابة على صقلية، واستفادت استفادة واضحة جراء انتقال النرويج من الدانمارك إلى السويد، مما حال دون سيطرة دولة واحدة على مدخل بحر البلطيق. كما انتفعت من اتحاد هولندا وبلجيكا (الأراضي المنخفضة النمساوية سابقاً)، الذي وضع منابع الراين والشلدت بين يدي دولة مأمونة الجانب ولكنها قوية، خصوصاً إذا ساعدتها الحدود المحصنة بالقلاع في الجنوب، لمقاومة تعطش فرنسا المعروف لبلجيكا. وكان البلجيكيون والنرويجيون يرفضون هذين الترتيبين كليهما، ولم يقدر للترتيب الأول أن يستمر حتى ثورة 1830. وقد استبدل فيما بعد، في أعقاب مناوشات فرنسية بريطانية، بمملكة صغيرة دائمة محايدة يحكمها أمير اختارته بريطانيا. غير أن مطامع بريطانيا خارج أوروبا كانت عظيمة بالطبع، مع أن السيطرة الشاملة التي فرضتها البحرية البريطانية على أعالي البحار قد قللت من أهمية أن يرفع أي إقليم العلم البريطاني بالفعل أو لا يرفعه، إلا في حدود الهند الشمالية الغربية، حيث كانت مقاطعات أو أقاليم ضعيفة فوضوية هي التي تفصل بين الإمبراطوريتين البريطانية والروسية، إلا أن المنافسة بين

بريطانيا وروسيا لم تؤثر على المنطقة التي جرت التسوية بشأنها بين العامين 1814 و1815. وفي أوروبا، لم تكن المصالح البريطانية تتطلب أية قوة للحفاظ عليها.

وقد أشبعت روسيا، وهي القوة الرئيسية الحاسمة على اليابسة، مطامعها الإقليمية بضم فنلندا (على حساب السويد)، وباصارابيا (على حساب تركيا)، والجانب الأكبر من بولندا التي منحت قدراً من الاستقلال في ظل نظام محلي كان على الدوام يفضل التحالف مع روسيا (وقد أُلغي هذا القدر من الاستقلال بعد التمرد بين العامين 1830 و1831)، وقسم باقي هولندا بين بروسيا والنمسا، باستثناء المدينة ـ الجمهورية كراكاو التي انهارت بدورها مع انتفاضة 1846. أما بالنسبة للدول الأخرى، فإن روسيا اكتفت بممارسة هيمنة فعّالة، عن بعد، على جميع المقاطعات والإمارات المطلقة شرقي فرنسا، مع حرصها على الابتعاد عن كل ما يتصل بالثورة. ورعى القيصر الإسكندر حلفاً مقدساً لهذا الغرض، وانضمت إليه النمسا وبروسيا، غير أن بريطانيا رفضت المشاركة فيه. فربما لم تكن الهيمنة الروسية على الجزء الأكبر من أوروبا وضعاً مثالياً من وجهة النظر البريطانية، غير أنها كانت انعكاساً للواقع العسكري، ولا يمكن الحؤول دونها إلا بالسماح لفرنسا بدرجة من القدرة أكبر مما قد يتحمله أعداؤها القدامى أو يتكبدونه من كلفة حرب جديدة لا يطيقونها. لقد أقر الجميع بوضوح بمكانة فرنسا باعتبارها قوة كبرى، غير أنهم لم يكونوا مستعدين لقبول ما ينطوي عليه هذا الإقرار.

كانت النمسا وبروسيا قوتين عُظميين بالفعل، ولكن من قبيل اللياقة والكياسة فحسب؛ أو أن ذلك هو الاعتقاد الصحيح نظراً لضعف النمسا المعروف في أوقات الأزمات الدولية، أو الخاطئ نظراً لانهيار روسيا عام 1806. لقد كان دور هاتين الدولتين ينحصر في كونهما عاملي استقرار في أوروبا. وقد استعادت روسيا ما كانت تسيطر عليه من المقاطعات الإيطالية، بالإضافة إلى أراضي البندقية في إيطاليا

ودلماسيا. كما فرضت حمايتها مرة أخرى على المقاطعات الأقل شأناً في شمال إيطاليا ووسطها، التي كان أغلبها تحت سيطرة أقرباء أسرة هابسبيرغ (باستثناء بيدمونت - سردينيا التي ابتلعت جمهورية جنوا وبدأت تؤدي دور الحاجز الفعال بين النمسا وفرنسا). وإذا كان لـِ "النظام" أن يستقر ويستتب في إيطاليا، فإن النمسا هي التي ستلعب دور الشرطي. ولما كانت مصلحتها تنحصر في تحقيق الاستقرار، وتحاشي كل ما يمكن أن يتهددها بالتفكك، فقد أمكن الركون إليها بوصفها صمام أمان دائماً ضد أية محاولات لإشاعة الاضطراب في القارة. وقد استفادت بروسيا من رغبة بريطانيا في وجود قوة قادرة معقولة في غربي ألمانيا، وهي المنطقة التي كانت مقاطعاتها تميل إلى صف فرنسا، أو تتعرض للهيمنة الفرنسية، كما أنها استعادت أراضي الراينلاند ذات الإمكانيات والموارد الاقتصادية الضخمة التي رفضت الدبلوماسية الأرستقراطية السماح بها، واستفادت كذلك من الصراع الدائر بين بريطانيا وروسيا حول ما كانت بريطانيا تعتبره توسعاً روسياً مُغالياً في بولندا. وكانت الحصيلة الصافية شبكة معقدة من المفاوضات التي تخللتها التهديدات بالحرب إذا تخلت بريطانيا لروسيا عن المناطق التي كانت تابعة لها في الأراضي البولندية، وتلقت بدلاً منها نصف ساكسونيا الصناعية الغنية. ومن الناحية الإقليمية والاقتصادية، كانت مكاسب بروسيا من تسوية العام 1815 أكبر نسبياً مما نالته الدول الأخرى. بل إنها، في واقع الأمر، أصبحت للمرة الأولى دولة أوروبية عظمى من حيث الموارد الحقيقية، مع أن ذلك لم يتضح للسياسيين إلا في الستينات من القرن التاسع عشر. وكانت كل من النمسا، وبروسيا، وعدد آخر من الدول الألمانية الأقل أهمية، التي كان دورها الدولي الأساسي يتركز في تزويد الأسر المالكة في أوروبا بالذرية الصالحة، تنظر إلى الأخرى بعين الغيرة داخل الكونفدرالية الألمانية، غير أن النمسا ظلت تحتل موقع الصدارة دونما منازع. وكانت المهمة الدولية الرئيسية للكونفدرالية هي إبعاد الدول الصغيرة عن المدار الفرنسي الذي كانت،

تقليدياً، تدور فيه. وعلى الرغم من النزعات الإقليمية، فإن هذه الدويلات لم تكن تتحرج من كونها من التوابع النابليونية.

كان رجال الدولة عام 1815 من الحكمة بحيث أدركوا أنْ ليس بوسع أية تسوية، مهما بلغت درجة الإتقان في تصميمها ووضعها، أن تقاوم المزاحمة بين الدول، والظروف المتغيرة. من هنا، عكفوا على وضع الآليات الكفيلة بالمحافظة على السلام ـ أي بحل المشكلات فور بروزها ـ عن طريق عقد المؤتمرات المنتظمة. وكان مفهوماً بالطبع أن القرارات الحاسمة بهذا الشأن متروكة لِـ "القوى العظمى" (وهذا المصطلح هو من مبتكرات تلك الفترة). ولم يكن "التوافق الأوروبي" ـ وهو مصطلح آخر برز في تلك المرحلة ـ مطابقاً لمنظمة الأمم المتحدة، بل كان أقرب إلى العضوية الدائمة في مجلس الأمن الدولي. غير أن هذه المؤتمرات المنتظمة لم تعقد إلا خلال بضع سنوات من العام 1818 الذي أعيدت فيه فرنسا إلى "التوافق"، حتى العام 1822.

وقد انهار نظام المؤتمرات؛ لأنه لم يستطع الاستمرار بعد السنوات الأولى التي أعقبت الحروب النابليونية، عندما أثارت المجاعة التي وقعت في العامين 1816 و1817، ثم النكسات الاقتصادية، مخاوف حقيقية، وإن كانت غير مبررة، من الثورة الاجتماعية في كل مكان، بما في ذلك بريطانيا. فبعد عودة الاستقرار عام 1820، بدأ كل خلل في تسوية العام 1815 يكشف عن تعارض المصالح بين الدول الكبرى. فعندما واجهت الموجة الأولى من التململ والتمرد بين العامين 1820 و1822، تمسكت النمسا وحدها بالمبدأ القاضي بإخماد هذه الحركات جميعها بصورة فورية تلقائية لمصلحة النظام الاجتماعي (وسلامة الأراضي النمساوية). وقد وافقت على ذلك الملكيات التي تشكل "التحالف المقدس" في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، وتبعتها فرنسا، على الرغم من أن الأخيرة التي تمارس بالمشاركة مع إسبانيا (1823) دور الشرطي الدولي، لم تكن مهتمة بالاستقرار في أوروبا قدر اهتمامها بتوسيع نطاق أنشطتها الدبلوماسية والعسكرية، ولا سيما في إسبانيا وبلجيكا وإيطاليا حيث وضعت أكثر

استثماراتها الأجنبية[6]. أما بريطانيا، فاتخذت موقفاً منفرداً. ويعود بعض ذلك، وبخاصة بعد أن حل كانينغ المرن محل الرجعي المتزمت كاستلري (1822)، إلى أنها اقتنعت بأن الإصلاح السياسي في أنظمة الحكم المطلقة أمر حتمي لا بد منه عاجلاً أم آجلاً. كما أن السياسيين البريطانيين لم يكونوا يشعرون بالتعاطف مع الحكم المطلق. يضاف إلى ذلك أن تطبيق مبدأ الشرطة الدولية كان سيُدخل الدول المنافسة، ولا سيما فرنسا، إلى أمريكا اللاتينية التي كانت، كما رأينا، مستعمرة اقتصادية بريطانية حيوية. فساند البريطانيون بدورهم استقلال دول أمريكا اللاتينية، مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية في إعلان مونرو عام 1823، وهو بيان لم تكن له قيمة عملية، بل كان مؤشراً تنبؤياً إلى مصالح المستقبل. وإذا كانت ثمة قوة تولت حماية استقلال أمريكا اللاتينية فهي البحرية البريطانية. وكانت مواقف القوى الكبرى أكثر تبايناً حول اليونان. فروسيا، على كراهيتها للثورات، استفادت من تحرك الشعب الأرثوذكسي الذي أضعف الأتراك، اعتماداً في الأساس على مساعدة روسية (بالإضافة إلى ذلك، فإن روسيا كانت ترتبط بمعاهدة تتيح لها حق التدخل في تركيا دفاعاً عن المسيحيين الأرثوذكس). وقد أدى الخوف من تدخل أحادي روسي، ومن الضغوط الموالية لليونان، والمصالح الاقتصادية، والاعتقاد بأن تفكك تركيا آتٍ لا محالة ولا يمكن منعه بل يمكن في أحسن الحالات تنظيمه وتوجيهه، إلى تعديل موقف البريطانيين، من العداء إلى الحياد إلى التدخل غير الرسمي الموالي لليونان. وعلى هذا الأساس، نالت اليونان استقلالها (1829) بدعم مشترك من جانب روسيا وبريطانيا. وكان مما خفف الضرر في الساحة الدولية أن الدولة تحولت إلى مملكة يتولى زمام الحكم فيها واحد من جمهرة الأمراء

---

(6) Rondo Emmett Cameron, *France and the Economic Development of Europe 1800-1914; Conquests of Peace and Seeds of War* (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1961), p. 85.

الألمان الصغار، لا إلى كيان تابع لروسيا. غير أن عنصر الاستمرارية في تسوية العام 1815، ونظام المؤتمرات، ومبدأ قمع جميع الثورات، كانت كلها قد تحولت إلى أنقاض.

إن ثورات العام 1830 قد دمرتها نهائياً؛ لأنها لم تؤثر في الدويلات فحسب، بل في دولة كبرى أيضاً هي فرنسا. فقد انتزعت المناطق الأوروبية الواقعة غربي نهر الراين من قبضة العمليات البوليسية التي يمثلها التحالف المقدس. وفي غضون ذلك، حولت "المسألة الشرقية"، أي مشكلة التعامل مع انحلال تركيا المحتوم، البلقانَ والشرق إلى ساحة للاقتتال بين الدول الكبرى، وعلى رأسها روسيا وبريطانيا. لقد أخلّت "المسألة الشرقية" بميزان القوى؛ لأن جميع العوامل قد تضافرت لتعزيز موقف روسيا التي كانت تهدف، آنذاك وفي أوقات لاحقة، إلى السيطرة على المضائق التي تفصل بين أوروبا وآسيا الصغرى وتشكل مدخلها إلى البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن هذا الأمر يتعلق بالبعدين الدبلوماسي والعسكري فحسب، بل أصبح، بعد نمو صادرات الحبوب الأوكرانية، قضية اقتصادية ملحّة. وكانت بريطانيا، المهمومة كالعادة بوسائل الوصول إلى الهند، قلقة كل القلق من التوجه الجنوبي لواحدة من الدول الكبرى التي تهددها بصورة جدية. وقد تمثلت سياستها بهذا الصدد في تشجيع تركيا على التصدي للتوسع الروسي مهما كانت التكاليف (وكان لذلك فائدة إضافية هي تعزيز التجارة البريطانية في الشرق، التي اتسعت بصورة مُرضية جداً خلال تلك الفترة). غير أن هذه السياسة لم تكن قابلة للتكهن أو التنبؤ لسوء الحظ. فالإمبراطورية التركية لم تكن، بأي حال من الأحوال، كياناً عاجزاً لا حول له ولا طول، من الناحية العسكرية على الأقل. بل كانت في أحسن حالاتها قادرة على خوض عمليات عسكرية متطاولة ضد حركات التمرد الداخلية (التي كان من اليسير عليها أن تلحق بها الهزيمة)، وقوة روسيا التي تتضافر معها أوضاع دولية غير مواتية (وذلك ما لم تكن تستطيعه). كما أنها لم تكن قادرة آنذاك على تحديث نفسها، أو مستعدة لذلك؛ وذلك على الرغم

من أن بوادر التحديث كانت قد بدأت في عهد محمود الثاني (Mahmoud II) (1809ـ1839) في الثلاثينات من القرن التاسع عشر. من هنا، لم يكن ثمة سبيل للحد من النفوذ الروسي المتزايد المطرد وللحؤول دون انهيار تركيا تحت وطأة متاعبها المختلفة، إلا أن تقدم بريطانيا الدعم الدبلوماسي والعسكري المباشر (أي التهديد بالحرب)؛ وذلك ما جعل "المسألة الشرقية" هي القضية الأكثر قابلية للانفجار على الساحة الدولية بعد الحروب النابليونية، وقد تؤدي إلى حرب عامة. وقد وقع ذلك بالفعل في الفترة بين العامين 1854 و1856. بيد أن الأوضاع التي مهدت السبيل لتأييد روسيا دولياً ضد بريطانيا هي نفسها التي جعلت روسيا أكثر ميلاً إلى التسوية والمصالحة. وكان أمامها سبيلان لتحقيق هذا الهدف: فإما دَحْرُ تركيا وتجزئتها وفرض الاحتلال الروسي بعدها على القسطنطينية والمضائق؛ أو فرضُ ما يشبه الحماية على دولة تركية ضعيفة خانعة. وكان من الضروري الإبقاء على هذين الخياريْن. وبعبارة أخرى، فإن القسطنطينية لم تكن في نظر القيصر تستحق حرباً كبيرةً. وهكذا، كانت حرب اليونان في العشرينات من القرن التاسع عشر تناسب خيار التقسيم والاحتلال. غير أن روسيا لم تحقق من ذلك ما كانت ترغب فيه، ولم تشأ اكتساب المزيد مما أفلحت في تحقيقه. فعكفت بدلاً من ذلك على التفاوض من أجل معاهدة تفضيلية استثنائية في أُنكيار سكيليسي (1833) مع تركيا التي كانت تعاني وضعاً صعباً وتدرك حاجتها الماسة إلى حام قوي الجانب مثل روسيا. واستشاطت بريطانيا غضباً وغيظاً؛ فقد شهدت العشرينات من القرن التاسع عشر ولادة مرض "الخوف من روسيا" الجماعي الذي تولدت عنه صورة لروسيا بوصفها عدوة وراثية لبريطانيا[7]. وفي مواجهة الضغوط البريطانية، انسحب الروس بدورهم، وعادوا في الأربعينات من ذلك

(7) كانت العلاقات الأنغلو ـ روسية القائمة على التكامل الاقتصادي، ودية تقليدياً في واقع الأمر، ولم تبدأ بالتردي بصورة جدية إلا بعد الحروب النابليونية.

القرن إلى مناقشة المقترحات الرامية إلى تقسيم تركيا.

إن المزاحمة البريطانية الروسية في الشرق لم تكن، في واقع الممارسة الفعلية، بضخامة الصورة التهويلية المعلنة عنها (ولا سيما في بريطانيا). وعلاوة على ذلك، فقد قلل خوف بريطانيا من انتعاش فرنسا من حدة هذه المزاحمة في جميع الأحوال. والواقع أن عبارة "اللعبة الكبرى" التي استخدمت فيما بعد لوصف الأنشطة التآمرية التي كان يقوم بها المغامرون والعملاء السرّيون لكلتا الدولتين في الأرض الحرام التي كانت تفصل بين الإمبراطوريتين تعبر عن أجواء هذه المزاحمة خير تعبير. غير أن ما جعل هذا الوضع خطيراً بالفعل هو المسار الذي لا يمكن التكهن به الذي سلكته حركات التحرر الوطني داخل تركيا، والتدخلات التي كانت تقوم بها الدول الأخرى. وبين هذه الدول، كانت النمسا تبدي اهتماماً سلبياً ملحوظاً بالمسألة، لكونها إمبراطورية متعددة القوميات آيلة للسقوط، تهددها حركات الشعوب نفسها التي كانت تقوض دعائم الاستقرار في تركيا، مثل السلافيين البلقان، وأبرزهم الصرب. إلا أن خطرهم لم يكن وشيكاً، مع أنه مهد الطريق في وقت لاحق لنشوب الحرب العالمية الأولى. وكانت فرنسا أكثر ميلاً لإثارة المتاعب؛ لأن لها سجلاً عريضاً من التأثير الدبلوماسي في الشرق الذي حاولت، مرة بعد مرة، استعادته وتعظيمه. ومنذ حملة نابليون على مصر كان النفوذ الفرنسي قوياً بصورة خاصة في تلك البلاد التي كان واليها محمد علي باشا، الحاكم المستقل تقريباً، قادراً على زعزعة التماسك في الإمبراطورية التركية أو الحفاظ عليه كما يشاء. بل إن أزمات المسألة الشرقية في الثلاثينات من القرن الثامن عشر (1831ـ1833 و1839ـ1841) كانت، في جوهرها، أزمات تعرضت لها علاقات محمد علي مع سيده الاسمي في اسطنبول/ القسطنطينية، وقد تفاقمت في الفترة الثانية بفعل المساندة الفرنسية لمصر. وإذا لم تكن روسيا راغبة في شن حرب من أجل الاستيلاء على القسطنطينية، فإن فرنسا لم تكن قادرة على ذلك أو راغبة فيه. وكانت ثمة أزمات دبلوماسية. بيد أنه لم تحدث

حروب بسبب تركيا في أي وقت طوال القرن التاسع عشر.

يتضح من مسار الصراعات الدولية خلال تلك الفترة، إذن، أن المادة الناسفة في العلاقات الدولية لم تكن متفجرة بما فيه الكفاية لإشعال حرب رئيسية. وبين الدول الكبرى، كان النمساويون والروس من الضعف بحيث لا يستطيعون القيام بهذه المخاطرة. أما البريطانيون، فكانوا قانعين راضين بالوضع. فقد أحرزوا بحلول العام 1815 نصراً كاملاً لم يتسنَّ لأية دولة أخرى أن تحققه في تاريخ البشرية، وبرزت بعد عشرين سنة من الحرب مع فرنسا بوصفها الاقتصادَ الصناعي "الوحيد"، والقوةَ البحرية "الوحيدة"؛ ذلك أن البحرية البريطانية كانت عام 1840 تضم من السفن ما يعادل السفن في أساطيل العالم مجتمعة، كما كانت القوة الكولونيالية الاستعمارية الوحيدة تقريباً على الأرض. ولم يكن ثمة ما يقف دون تحقيق المصالح التوسعية للسياسة الخارجية البريطانية، وتوسع التجارة والاستثمار البريطانيين. وكانت لروسيا، التي لم تكن راضية بالقدر نفسه، مطامع إقليمية محدودة، ولم يكن هناك ما يمكن أن يعوق تقدمها فترة طويلة، أو أن الأمور كانت تبدو كذلك آنذاك. وعلى الأقل، لم يكن ثمة ما يبرر نشوب حرب اجتماعية خطرة عامة. وكانت فرنسا وحدها هي الدولة "المستاءة"، ولديها القدرة على زعزعة الاستقرار في النظام العالمي. غير أنها لم تكن تستطيع ذلك إلا في ظل ظرف واحد هو استعادتها للطاقات الثورية اليعقوبية داخل فرنسا، والروح الليبرالية والقومية في الخارج؛ ذلك أن فرنسا، بمنطق المنافسة التقليدية بين الدول الكبرى، كانت قد أصيبت إصابة قاتلة، ولم يعد بوسعها، مثلما كانت تفعل في عهد لويس الرابع عشر أو أيام الثورة، أن تحارب تحالفاً يضم اثنتين أو أكثر من الدول الكبرى على قدم المساواة، بالاعتماد على سكانها ومواردها المحلية. ففي العام 1780، كانت نسبة الفرنسيين إلى البريطانيين تعادل اثنين ونصفاً إلى واحد، غير أنها تغيرت عام 1830 إلى أقل من ثلاثة إلى اثنين. وفي العام 1780، كان عدد الفرنسيين يقارب عدد الروس، غير أن الروس

أصبحوا يمثلون نصف الفرنسيين عام 1830. يضاف إلى ذلك، أن إيقاع النمو الاقتصادي الفرنسي تخلّف بصورة مميتة عن نظرائه في بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفيما بعد، في ألمانيا.

إلا أن اليعقوبية كانت تتضمن كلفة لا طاقة لأية حكومة فرنسية بها ثمناً لتطلعاتها الدولية. ففي العام 1830، ثم في العام 1848، عندما أطاحت فرنسا النظام القائم فيها، واهتز الحكم الملكي المطلق أو دمر نهائياً في أماكن أخرى، ارتعدت فرائص الدول الكبرى. وكان بوسعها أن تتجنب هذه الأزمة. ففي العامين 1830 و1831، لم يكن المعتدلون الفرنسيون مستعدين لأن يرفعوا إصبعاً واحدةً تأييداً للمتمردين البولنديين الذين كان الرأي العام يتعاطف معهم في أوساط الليبراليين الفرنسيين والأوروبيين جميعاً. وقد وجّه الشيخ المتحمس لافاييت سؤالاً إلى بالميرستون عام 1830: "وبولندا؟ ما الذي ستفعله؟ ما الذي سنفعله من أجلها؟"[8]. وكان الجواب: "لا شيء". وكان بمقدور فرنسا أن تعزز مواردها بموارد الثورات الأوروبية، وذلك ما كان يأمله جميع الثوريين. غير أن مضاعفات تلك الوثبة إلى الحرية كانت تفزع الحكومات الفرنسية الليبرالية المعتدلة مثلما كانت ترعب ميترنيخ. ولم تجرؤ أية حكومة فرنسية بين العامين 1815 و1848 على الإخلال بالسلام العام خدمة لمصلحتها الخاصة.

أما خارج نطاق التوازن الأوروبي، فلم يكن ثمة، بالطبع، ما يقف حجر عثرة في سبيل التوسع والعمليات الحربية. والواقع أن مكتسبات الدول البيض من الأراضي، على ضخامتها، كانت محدودة.

---

(8) Alfred Chlapowski, *La Fayette et la Pologne, 1830-1834: Centenaire de la mort du général La Fayette célébré à la bibliothèque polonaise de Paris, le 28 mai 1934*, [catalogue de l'exposition par M. Czeslaw Chowaniec; allocution de M. Alfred de Chlapowski; conférence de M. Félix Ponteil; textes de La Fayette] (Paris: Bibliothèque polonaise; société générale d'imprimerie et d'édition,1934).

وقد اكتفى البريطانيون باحتلال المواقع الحرجة المتصلة بالسيطرة البحرية على العالم، وبمصالحهم التجارية العالمية، مثل الطرف الجنوبي لأفريقيا (الذي انتزع من هولندا خلال الحروب النابليونية)، وسيلان، وسنغافورة (التي أسست في ذلك الوقت)، وهونغ كونغ، وبمقتضيات الحملة على تجارة الرقيق التي لبّت مطالبَ كلٍّ من التوجهات الإنسانية داخل بريطانيا ومتطلبات المصالح الإستراتيجية للبحرية البريطانية التي عززت احتكارها العالمي. وتمكن البريطانيون بذلك من الحصول على موطئ قدم على امتداد السواحل الأفريقية. ولكن البريطانيين، على العموم، رأوا، مع استثناء واحد مهم، أن وجود عالم منفتح أمام التجارة البريطانية بحماية من البحرية البريطانية ضد أية اقتحامات معادية سيكون استغلاله قليل الكلفة، عند الاستغناء عن التكاليف الإدارية للاحتلال. أما الاستثناء المهم، فكان الهند وكل ما يتصل بالسيطرة عليها. وكان من الواجب الاحتفاظ بالهند مهما كانت الكلفة، وذلك ما أدركه أرباب التجارة الحرة المعادون للاستعمار دونما مواربة. وكانت أسواقها تتسم بأهمية متعاظمة[9]، وسيلحق بها الضرر إذا ما تركت الهند لشأنها. كما كانت هي المفتاح لبوابة الشرق الأقصى، وإلى تجارة المخدرات، وإلى ما شابه ذلك من الأنشطة المربحة التي يرغب فيها رجال الأعمال الأوروبيون. وهكذا فتحت أبواب الصين خلال حرب الأفيون بين العامين 1839 و1842. ومن ثم تضخم حجم التجارة البريطانية ليشمل ثلثي شبه القارة الهندية بين العامين 1814 و1849، نتيجة للحروب ضد المهاراتات والنيباليين والبورميين والراجبوتات والأفغان والسنديين والسيخ. كما اتسعت الشبكة البريطانية التي كانت تتحكم بالطريق إلى الهند، وازداد التفافها حول منطقة الشرق الأوسط. وازدحمت في هذه الشبكة منذ العام 1840 السفن البخارية العابرة للمحيطات، التي عززها خط للنقل البري في برزخ السويس.

---

(9) انظر الفصل الثاني، ص 89-92 من هذا الكتاب.

وعلى الرغم من ذيوع صيت روسيا (خصوصاً لدى البريطانيين) لنزعتها التوسعية، فإن غزواتها الفعلية بهذا الصدد كانت تتسم بالتواضع. فقد نجح القيصر في تلك الفترة في ضم بعض البقاع الشاسعة الخالية من سهوب القرغيز شرقي الأورال، وبعض المناطق الجبلية التي اشتد التنازع عليها في القوقاز. ومن جهة أخرى، كسبت الولايات المتحدة الأمريكية كامل مناطقها الغربية جنوبي حدود أوريغون من خلال التمرد والحرب ضد المكسيك السيئة الطالع. أما الفرنسيون، فقد اضطروا إلى قصر مطامعهم التوسعية على الجزائر التي غزوها بذريعة مختلقة عام 1830، وحاولوا احتلالها على مدى سبع سنوات لاحقة، ولم يتمكنوا من القضاء على حركة المقاومة فيها إلا عام 1847.

ولا بد من التنويه، بصورة منفصلة، بواحد من الشروط التي ارتبطت بتسوية السلام الدولية، ألا وهو إلغاء تجارة الرقيق العالمية. ولقد كانت الأسباب الداعية لذلك خيريةً إنسانية، واقتصاديةً في الوقت نفسه. كان نظام الرق، بحد ذاته، أمراً مرعباً، كما أنه لم يكن يتمتع بكفاءة عالية. وعلاوة على ذلك، رأى البريطانيون الذين تصدروا هذه الدعوة النبيلة بين الدول لإلغاء الرق، أن اقتصاد المرحلة الممتدة بين العامين 1815 و1848 لم يكن يعتمد كسابقه في القرن الثامن عشر، على بيع الناس والسكر، بل على المتاجرة بالسلع القطنية. وقد استغرق الإلغاء الفعلي للرق وقتاً أطول (إلا في المواقع التي اكتسحتها الثورة الفرنسية). وقد ألغاها البريطانيون في المستعمرات التي بسطوا نفوذهم عليها، ولا سيما جزر الهند الغربية، عام 1834، على الرغم من أنهم سرعان ما بدأوا استبدالها باستيراد العمال من دون عقود استخدام من آسيا، للعمل في المزارع الضخمة الباقية. ولم يقدم الفرنسيون على إلغائه رسمياً مرة أخرى إلا عند اندلاع ثورة 1848. وفي سنة 1848 كان الرق منتشراً على نطاق واسع في العالم، وانتشرت معه أيضاً تجارة الرقيق (غير الشرعية).

الفصل السادس

الثورات

"إن الحرية، وهي عندليب يغني بصوتِ عملاق، قادرة على إيقاظ من يغطون في نوم عميق... هل يمكننا أن نفكر اليوم في أي شيء غير الكفاح من أجل الحرية أو ضدها؟ ومن لا يحبون الإنسانية قد يكونون عظماء إذا ما تحولوا إلى طغاة. ولكن هل بوسع أحد أن يقف موقف عدم الاكتراث؟".

لودفيغ بورن (Ludwig Boerne)، 14 شباط/ فبراير، 1831[1].

"إن الحكومات، التي فقدت توازنها، تعاني الفزع، والارتياع والتخبط في الفوضى جراء صرخات الطبقة الوسطى في المجتمع، التي وجدت نفسها بين الملوك والرعية، فكسرت صولجان الملك، واغتصبت صوت الشعب".

من خطاب من ميترنيخ إلى القيصر، 1820[2].

---

(1) Ludwig Boerne, *Gesammelte Schriften*, vol. III, pp. 130-131.

(2) Clemens Lothar Wenzel Metternich - Winneburg, *Memoirs of Prince Metternich*, vol. III, p. 468.

I

نادراً ما تجلى عجز الحكومات التام عن التحكم في مسار التاريخ مثلما ظهر في جيل ما بعد العام 1815. لقد كان الهدف الأسمى لجميع الدول التي أمضت أكثر من عشرين سنة لإلحاق الهزيمة بالثورة الفرنسية الأولى هو الحؤول دون اندلاع ثورة ثانية على غرارها، أو حدوث ما هو أسوأ من ذلك، أي نشوب ثورة أوروبية عامة على مثالها. ويصدق ذلك حتى على البريطانيين الذين لم يكونوا متعاطفين مع الأنظمة الرجعية المطلقة التي استعادت سلطتها في جميع أنحاء أوروبا، وأدركت أن عليها أن لا تحيد عن سبيل الإصلاح أو تتحاشاه. لكنها كانت، في الوقت نفسه، تخشى اتساع النزعة الفرنسية ـ اليعقوبية أكثر مما تخاف من أية تطورات دولية طارئة أخرى. وعلى الرغم من ذلك، لم يحدث قط في التاريخ الأوروبي، ولم يحدث إلا نادراً في أي مكان آخر، أن كانت النزعة الثورية وبائية شاملة إلى هذا الحد، سريعة الانتشار عن طريق العدوى التلقائية أو الدعاية المنظمة على السواء. وبين العامين 1815 و1848، اشتعلت الثورة في العالم الغربي في ثلاث موجات رئيسية (واحتفظت آسيا وأفريقيا بالمناعة حتى ذلك الحين، فلم تحدث أوائل الثورات الكبرى في آسيا، وهي "العصيان الهندي" و"تمرد تايبي"، إلا في الخمسينات من القرن التاسع عشر. وجاءت الموجة الأولى بين العامين 1820 و1824، وتمثلت مراكزها في الجانب الأوروبي من حوض البحر الأبيض المتوسط: في إسبانيا (1820)، ونابولي (1820)، واليونان (1821). وقد أخمدت هذه الثورات في جميع البقاع باستثناء اليونان. وأدت الثورة الإسبانية إلى إنعاش حركة التحرر في أمريكا اللاتينية التي كانت قد منيت بالهزيمة بعد محاولة أولية أعقبت غزو نابليون لإسبانيا عام 1808، ولكنها انتهت بعدد قليل من اللاجئين والعصابات في أماكن نائية. وفي أمريكا الجنوبية الإسبانية، تحقق الاستقلال بزعامة أبطال التحرير الثلاثة العظام: سيمون بوليفار (Simon Bolivar) وسان مارتن (San Martin) وبرناردو أوهيغنز (Bernardo O'Higgins)، على

التوالي، في "كولومبيا الكبرى" (التي ضمت الجمهوريات الحالية كولومبيا وفنزويلا والإكوادور)، والأرجنتين ما عدا الأراضي الداخلية التي تعرف الآن باسم باراغواي وبوليفيا والسهوب المترامية الممتدة عبر نهر بليت، حيث حارب رعاة البقر القادمون من باندا أورينتال (أوروغواي الآن) ضد الأرجنتينيين والبرازيليين، والتشيليين، وتولى سان مارتن تحرير معامل السلطة الإسبانية في ولاية انبيرو، بمساعدة الأسطول التشيلي الذي كان يقوده النبيل الراديكالي البريطاني كوشرين وهو الشخصية الأصلية للكابتن هورنبلور في رواية **سي. إس. فورستر** (*C. S. Forester*) التي تحمل هذا العنوان. وبحلول العام 1822 كانت أمريكا الجنوبية الإسبانية قد تحررت، وتركها سان مارتن، وهو زعيم معتدل بعيد النظر ومثال نادر على إنكار الذات، لبوليفار وللجمهوريين، واستقر في أوروبا ليعيش من دخل خصصه له أوهيغنز (O'Higgins) حياة نبيلة في بولون سورمير التي كان يلجأ إليها المدنيون الإنجليز. وفي تلك الأثناء، انضم الجنرال الإسباني إيتوربيد (Iturbide)، الذي أرسل لقتال من تبقى من عصابات الفلاحين في المكسيك، إلى صفوفهم تحت تأثير الثورة الإسبانية، وأعلن استقلال المكسيك الدائم عام 1821. وعام 1822، انفصلت البرازيل بهدوء عن البرتغال في ظل الوصي على العرش الذي تركته الأسرة الحاكمة في البرتغال بعد عودتها إلى أوروبا من المنفى في عهد نابليون. واعترفت الولايات المتحدة فوراً بأهم الدول الجديدة الطالعة، وتبعتها بريطانيا بعد أن توخت إبرام اتفاقيات تجارية معها. وكان الفرنسيون قد تركوا المنطقة بحلول العشرينات من القرن التاسع عشر.

وجاءت الموجة الثانية من المدّ الثوري في الفترة بين العامين 1829 و1834، وتركت آثارها على جميع أرجاء أوروبا شرقي روسيا وعلى قارة أمريكا الشمالية. وينبغي اعتبار عصر الإصلاح في عهد الرئيس أندرو جاكسون (Andrew Jackson) (1829ـ1837)، مع أنه لم يكن مرتبطاً مباشرةً بحركات النهوض الأوروبية، جزءاً منها. وفي أوروبا، حفزت

إطاحة البوربون في فرنسا عدة انتفاضات متنوعة. فقد نالت بلجيكا (1830) استقلالها عن هولندا، وقُمعت بولندا (1830ـ1831) بعد عمليات عسكرية مهمة، وأثيرت القلاقل في عدة أجزاء من ألمانيا وإيطاليا، وسيطرت الليبرالية على سويسرا ـ وهي التي كانت آنذاك مسالمة أكثر مما هي عليه الآن ـ بينما بدأت في إسبانيا والبرتغال فترة من الحرب الأهلية بين الليبراليين ورجال الكنيسة. بل إن بريطانيا نفسها قد تأثرت، بفعل التهديد القائم، بانفجار بركانها الداخلي، وهو إيرلندا، التي حققت "الانعتاق الكاثوليكي" (1829)، وشهدت إعادة فتح ملف الإصلاح. وتزامن صدور قانون الإصلاح عام 1832 مع ثورة تموز/ يوليو في فرنسا عام 1830، بل إن الأنباء الواردة من باريس شجعت على إصداره. وربما كانت هذه الفترة هي الوحيدة في التاريخ الحديث التي كانت فيها الأحداث السياسية في بريطانيا تشير بشكل موازٍ لما كان يجري في القارة الأوروبية، إلى حد لم يكن مستبعداً فيه قيام وضع ثوري هناك بين العامين 1831 و1832، لولا ضبط النفس الذي تحلى به كل من حزبي الويغ والتوري (اللذيْن ولد منهما حزبا الأحرار والمحافظين على التوالي)، وهي الفترة الوحيدة في القرن التاسع عشر التي يصدق فيها هذا التحليل للأحداث. كانت الموجة الثورية للعام 1830، إذن، أمراً أكثر أهمية بكثير من نظيرتها عام 1820. فقد أعطت الدليل القاطع على الهزيمة النكراء التي ألحقتها القوى البورجوازية بالارستقراطية في أوروبا الغربية. وستكون الطبقة الحاكمة خلال الخمسين سنة اللاحقة هي "البورجوازية العظمى" المكونة من أصحاب البنوك، وكبار الصناعيين، وأحياناً كبار موظفي الدولة. وقد قبلت بهم طبقة أرستقراطية ارتضت أن تتنازل عن دورها أو أن تروِّج أساساً لسياسات البورجوازية التي لم تواجهها حتى ذلك الحين حركات الانتخاب العام، مع أنها كانت تتعرض لأعمال الشغب التي كانت تقوم بها فئات المتذمرين من رجال الأعمال أو من صغارهم أو من البورجوازية الصغيرة وبواكير الحركات العمالية. وكان نظامها السياسي في بريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا،

متشابهاً في جوهره: مؤسسات ليبرالية تحد من ديمقراطيتها المؤهلات التي ينبغي توفرها في الناخبين مثل التملك والتعليم، في ظل ملكية دستورية (ولم يكن في فرنسا من هؤلاء الناخبين، أول الأمر، أكثر من 168 ألفاً). والواقع أن هذه المؤسسات كانت مماثلة لما برز في المرحلة البورجوازية الأولى الأكثر اعتدالاً من الثورة الفرنسية، وهي دستور العام 1791[3]. أما في الولايات المتحدة، فقد تقدمت الديمقراطية الجاكسونية درجة أخرى على ذلك: هزيمة العصبة الأوليغاركية المتملكة غير الديمقراطية التي تماثل دورها مع الحركات التي حققت النصر آنذاك في أوروبا الغربية، واندحار هذه الجماعات أمام الديمقراطية السياسية غير المحدودة التي حملتها إلى السلطة أصوات المرابطين على الحدود، وصغار الفلاحين، والفقراء في المناطق الحضرية، وكان ذلك ابتداعاً مدهشاً. وقد عكف على تمحيصه ودراسته دراسة موثقة مفكرون ليبراليون معتدلون واقعيون أدركوا أن توسيع مجالات الاقتراع آتٍ لا ريب فيه آجلاً أم عاجلاً. وكان من أبرز هؤلاء أليكسيس دو توكفيل، الذي خلص في كتابه **الديمقراطية في أمريكا** (*Democracy in America*) (1835) إلى نتائج قاتمة. غير أن العام 1830، كما سنرى، شهد ابتكاراً أكثر راديكالية في مجال النشاط السياسي، وهو بروز الطبقة العاملة قوة مستقلة واعية ذاتها في السياسة في بريطانيا وفرنسا، وحركات قومية في عدد كبير من البلدان الأوروبية.

تكمن وراء هذه التغيرات الرئيسية تغيرات أساسية في النمو الاقتصادي والاجتماعي. وإذا استقصينا أي جانب من الحياة الاجتماعية، فإننا سنجد أن العام 1830 يمثل نقطة انعطاف أساسية فيه. ويتجلى ذلك واضحاً في جميع التواريخ وشتى المناسبات بين العامين 1789 و1848. كما أنه يبرز على نحو مشهود في تاريخ التصنيع والزحف

---

(3) بالممارسة فقط، مع تعقيدات على حق التصويت أكثر تشدداً مما كان عليه الحال عام 1791.

الحضري في القارة الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، وفي تاريخ موجات الهجرة البشرية الاجتماعية والجغرافية، وفي تاريخ الفنون والأيديولوجيا. كما أنه يشكل في بريطانيا وأوروبا الغربية عموماً بداية لعقود من أزمة التنمية في المجتمع الجديد التي انتهت بهزيمة ثورات 1848 والقفزة الاقتصادية العملاقة بعد العام 1851.

وكانت الموجة الثورية الثالثة الأضخم عام 1848 نتيجة لهذه الأزمة. فقد اندلعت الثورة في وقت واحد تقريباً وانتصرت (مؤقتاً) في فرنسا، وجميع إيطاليا، والدول الألمانية، والجزء الأكبر من إمبراطورية الهابسبيرغ وسويسرا (1847). كما أنها أثرت، بصورة أقل حدّة، على إسبانيا، والدانمارك، ورومانيا، وبصورة متقطعة على إيرلندا، واليونان، وبريطانيا. ولم يكن ثمة ما هو أقرب إلى مفهوم الثورة العالمية التي كان يحكم بها الثوريون من هذه الانتفاضات العفوية العامة التي اختتمت بها المرحلة التي يعالجها هذا الكتاب. فما كان العام 1789 مجرد انتفاضة شعب واحد بدا الآن وكأنه "ربيع الشعوب" في القارة الأوروبية برمتها.

II

خلافاً للثورات التي نشبت في أواخر القرن الثامن عشر، كانت ثورات ما بعد الفترة النابليونية مقصودة مدبرة، بل جيدة التخطيط. ذلك أن الإرث الهائل للثورة الفرنسية نفسها كان يتمثل في منظومة من النماذج والأنماط للنهوض السياسي أقامتها الثورة ليستخدمها الثوار في كل مكان. ولا يعني ذلك أن ثورات الفترة الواقعة بين العامين 1815 و1848 كانت من صنع مجموعة قليلة ممن كانوا يوصفون بالمشاغبين الساخطين في التقارير التي كان الجواسيس ورجال الشرطة المتفرغون يرفعونها إلى رؤسائهم. فقد حدثت لأن الأنساق السياسية التي أعيد فرضها على أوروبا كانت تناقض الظروف السياسية تناقضاً عميقاً متزايداً في مرحلة التغير الاجتماعي السريع في القارة الأوروبية، ولأن مظاهر

السخط الاقتصادي والاجتماعي كانت من الحدّة بحيث جعلت سلسلة الانتفاضات أمراً لا محيد عنه. غير أن النماذج السياسية التي خلقتها ثورة 1789 دفعت بالمسيرة إلى تحقيق هدف محدد، وتحويل السخط من حركة تململ إلى ثورة، والأهم من ذلك إلى ربط أوروبا بأكملها في حركة واحدة. وربما كان من الأنسب بلغة هذه الأيام أن نصفها بالحركة الانقلابية.

كانت ثمة نماذج عدة، مع أنها مستمدة كلها من تجربة فرنسا بين العامين 1789 و1797. وهي تتطابق وتيارات المعارضة الرئيسية فيما بعد العام 1815: الليبرالي المعتدل (أو، بالمعنى الاجتماعي، الطبقات الوسطى العليا والليبراليون الأرستقراطيون)، والديمقراطيون - الراديكاليون (أو، بالمعنى الاجتماعي، الطبقة الوسطى الدنيا، وجانب من قطاع المنتجين الصناعيين، والمثقفين والوجهاء الساخطين)، والاشتراكيون (أو، بالمعنى الاجتماعي، "الفقراء الكادحون" أو الطبقات الصناعية الجديدة). ومن الناحية الاشتقاقية، فإن هذه التيارات جميعها تشير إلى الطابع العالمي لهذه المرحلة؛ فمصطلح "ليبرالي" فرنسي - إسباني الأصل، و"راديكالي" بريطاني، و"اشتراكي" بريطاني - فرنسي. كما أن مصطلح "محافظ" فرنسي الأصل في جانب منه؛ وفي ذلك دليل على الترابط الوثيق الفريد بين الأنشطة السياسية في بريطانيا والقارة الأوروبية خلال فترة "قانون الإصلاح". وكانت الأولى تستلهم ثورة 1789-1791، وتعتبر نموذجها السياسي الأعلى ملكية دستورية على الطراز البريطاني، يساندها نظام برلماني يمثل حكم القلة المتملكة شبيه بما أدخله دستور 1791. وقد أصبح هذا النموذج، كما رأينا، هو النظام الدستوري السائد في فرنسا، وبريطانيا، وأخيراً بلجيكا بعد 1830-1832. أما الثاني، فكان يستوحي مثاله الأعلى من ثورة 1792-1793، ويسعى إلى تحقيق نموذج سياسي يمثل الجمهورية الديمقراطية ويكون أقرب إلى "دولة الرفاه"، مع نزعة عدائية تجاه الأثرياء تطابق ما ورد في الدستور اليعقوبي عام 1793. ولكن مثلما

كانت الجماعات الاجتماعية التي كانت تطالب بالديمقراطية الراديكالية مجموعة ملتبسةً لا يسودها الانسجام، فإن من الصعب إطلاق صفة محددة على نموذجها الثوري الفرنسي. فقد جمع عناصر مما كان يوصف، في الفترة بين 1792 و1793، بأنه يعقوبي، أو جيروندي أو لامُتَسَرْوِلِيّ، على الرغم من أن يعقوبية العام 1793 كانت السمة البارزة فيه. أما الثالثة، فكانت تستوحي آراءها من ثورة السنة الثانية وانتفاضات ما بعد تيرميدور، وعلى رأسها مؤامرة بابوف للمتساوين، وهي تمرد اليعاقبة المتطرفين وأوائل الشيوعيين الذي يمثل مولد التقاليد الشيوعية الحديثة في السياسة. وكان هذا التمرد وليد حركة اللامتسرولين والجناح اليساري من الروبسبييرية، على الرغم من أنه لم يستمد من الجماعة الأولى إلا القليل، ما عدا كراهية الطبقة الوسطى والطبقة الغنية. ومن الوجهة السياسية، كان النموذج الثوري البابوفي امتداداً لتقاليد روبسبيير وسان ـ جوست.

في أنظمة الحكم المطلق، كانت هذه الحركات بالنسبة للحكومات كلها تخريبية بالقدر نفسه، وتهدف إلى الإخلال بالاستقرار والنظام العام، وبعضها كرس نفسه بشكل واع لإشاعة الفوضى، وبعضها أكثر خطورة من بعضها الآخر لأن مهمتها كانت تتركز في إلهاب مشاعر الجماهير المعدمة الجاهلة. (من هنا، أولى البوليس السري التابع لميترنيخ ما يبدو لنا الآن قدراً ضخماً من الاهتمام لتوزيع الكتيب المعنون **كلمات مؤمن** (*Paroles d'un croyant*) (1834)، لأنه باستخدامه لغة كاثوليكية غير سياسية، لا بد أن يستهوي أناساً لا تؤثر فيهم الدعاية الملحدة الصريحة)[4]. إلا أن ما كان يجمع حركات المعارضة، في الواقع، هو كراهيتها واحتقارها لنظم الحكم التي كانت سائدة عام 1815، ولقاؤها في جبهة مشتركة واحدة، مع تعدد الأسباب والدوافع، ضد الملكية المطلقة، والكنيسة، والأرستقراطية. ويمثل تاريخ الفترة الممتدة

(4) Vienna, Verwaltungsarchiv: Polizeihofstelle H 136/ 1824, *Passim.*

بين العامين 1815 و1848 سجلاً لتفكك هذه الجبهة الممتدة.

III

خلال فترة إعادة الملكية (1815ـ1830)، غطت ستارة الرجعية جميع المنشقين، وألقت عليهم ظلالها القاتمة حتى كادت تتلاشى الفروق بين البونابرتيين والجمهوريين، والمعتدلين، والراديكاليين. ولم تكن قد برزت حتى ذلك الحين طبقة عاملة ثورية أو اشتراكية واعية ذاتها في الحياة السياسية، إلا في بريطانيا. فقد برز تحت مظلة "التعاونية"، التي دعا إليها روبرت أوين، تيار بروليتاري سياسي وأيديولوجي مستقل في الثلاثينات من القرن التاسع عشر. وكانت أغلب مشاعر السخط الشعبي خارج بريطانيا لا تحمل مضموناً سياسياً، أو كانت في ظاهرها تشريعية وكنسية، واحتجاجاً بليداً على المجتمع الجديد الذي لم يحمل معه على ما يبدو إلا الشر والفوضى. من هنا، كانت المعارضة السياسية في القارة، مع استثناءات قليلة، تنحصر في الفئات الصغيرة الغنية المتعلمة، وكان ذلك يعني الشيء نفسه. فحتى في موقع اليسار المنيع في "إيكول بوليتكنيك"، كان ثلث الطلبة فحسب، وهم أبرز الفئات الهدامة، من أبناء البورجوازية الصغيرة (ومن خلال الشرائح الدنيا في الجيش وموظفي الخدمة المدنية في أكثر الحالات)، وثلاثة من عشرة في المئة فقط من "الطبقات الشعبية". وكان الفقراء الواعون من صف اليسار أميل إلى قبول الشعارات التقليدية لثورة الطبقة الوسطى، ولكن بالمعنى الراديكالي ـ الديمقراطي لا بالمعنى المعتدل، ولكنهم كانوا حتى ذلك الحين يؤكدون على طابع التحدي الاجتماعي. وكان البرنامج النموذجي الذي التف حوله الكادحون البريطانيون الفقراء مرة بعد أخرى إجراء إصلاحياً برلمانياً بسيطاً تعبر عنه "البنود الستة" في "ميثاق الشعب"[5].

---

(5) تشمل هذه النقاط الست: 1 ـ حق التصويت للبالغين، 2 ـ التصويت من خلال صناديق الاقتراع، 3 ـ مناطق انتخابية متساوية، 4 ـ دفع مرتبات لأعضاء البرلمان، 5 ـ برلمانات سنوية، 6 ـ إلغاء تأهيل المرشحين بالتملك.

ولم يكن هذا البرنامج، في جوهره، بعيداً عن "اليعقوبية" التي تبناها جيل توم بين، وينسجم تماماً مع الراديكالية السياسية البنثامية التي انتهجها مصلحو الطبقة الوسطى كما عرضها جيمس مِل (على الرغم من ارتباطها بالطبقة العاملة الواعية لذاتها). وكان الفرق الوحيد خلال فترة إعادة الملكية يكمن في أن الكادحين الراديكاليين كانوا يفضلون سماعها من الرجال الذين كانوا يتحدثون إليهم باللغة التي يفهمونها؛ أي بالعبارات الطنانة التي يستخدمها أوريتور هنت (Orator Hunt) (1773ـ1835)، أو الكاتب الألمعي الحماسي البليغ الأسلوب وليام كوبيت (William Cobbett) (1762ـ1835)، أو، بالطبع، توم بين (1737ـ1809)، لا من خلال الخطابات التي يلقيها مصلحو الطبقة الوسطى أنفسهم.

على هذا الأساس، لم تكن التمايزات الاجتماعية ولا الوطنية في هذه الفترة تقسم المعارضة الأوروبية إلى معسكرات متباينة لا يمتاز أحدها عن الآخر بصورة مهمة. وإذا وضعنا جانباً بريطانيا والولايات المتحدة حيث كان قد قام شكل من النشاط السياسي الجماهيري المنتظم (رغم القيود التي فرضتها عليه في بريطانيا الهستيريا المناوئة لليعقوبية حتى أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر)، فإن المستقبل السياسي كان يبدو واحداً متشابهاً لدى قادة المعارضة في جميع البلدان الأوروبية. كما تماثلت أساليب تحقيق الثورة في الوقت الذي كانت فيه نظم الحكم المطلق في أغلب أنحاء أوروبا ترفض الإصلاح السلمي. فاعتبر جميع الثوريين أنفسهم، بحق، نخباً صغيرةً من الأحرار التقدميين يعملون في أوساط جمهرة عريضة عاجزة من عامة الناس العاديين الجهلة المُضَلّلين. وقد رحب هؤلاء العامة بالثورة عند إطلالتها، غير أنه لم يكن متوقعاً منهم أن يشاركوا في الإعداد لها. وكانوا جميعاً (ولا سيما غربي البلقان في جميع الأحوال)، يرون أنهم يخوضون حربهم ضد عدو واحد، هو اتحاد الأمراء المؤمنين بالحكم المطلق تحت مظلة القيصر. من هنا، تصور هؤلاء أن الثورة وحدة واحدة موحدة لا تقبل التجزئة؛ أي ظاهرة

أوروبية لا مجموعة من حركات التحرر الوطنية أو المحلية، ومال أكثرهم إلى تبني نوع واحد من التجمع الثوري، أو حتى الشكل التنظيمي نفسه، وهو أَخَويّات جمعيات التمرد السرية.

نشأت هذه الأَخَويّات في أواخر المرحلة النابليونية، وكان لكل منها طقوس متعددة الألوان، وتراتبية مستمدة أو منسوخة عن النماذج الماسونية. وكان أشهرها، ربما بسبب شهرتها العالمية، جمعية "أبناء العم الصالحون"، أو "الكاربوناري". ويبدو أنهم تحدروا من منظمات ماسونية أو جماعات مشابهة شرقي فرنسا من خلال مجموعة من الضباط المعادين لنابليون في إيطاليا. واتخذت هذه الجماعات شكلها التنظيمي في جنوب إيطاليا بعد العام 1806، ثم انتشرت مع جماعات أخرى شمالاً، ثم في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد العام 1815. بل إن هذه الجماعات، أو مثيلاتها أو فروعها، امتدت حتى الأراضي الروسية، حيث انضمت إليها جماعات "الديسمبريين" الذين قاموا بأول تمرد في التاريخ الروسي الحديث عام 1825، وانتشرت بصورة خاصة في اليونان. وبلغت المرحلة الكاربونارية أوجها في العامين 1820 و1821، غير أن أكثر الأخويات كانت قد دمرت بحلول العام 1823. ومع ذلك، استمرت الحركة الكاربونارية (بالمعنى العريض للاصطلاح) بوصفها جذع المنظمة الثورية. وربما أسهم في الحفاظ على ترابطها دعمها المعنوي والسياسي لحركة التحرير اليونانية (الهيلينية). وبعد إخفاق ثورات العام 1830، ساعد اللاجئون السياسيون القادمون من بولندا وإيطاليا على نشرها في بقاع أخرى.

كانت حركات الكاربوناري وأمثالها، من الوجهة الأيديولوجية، خليطاً من عدة عناصر، يجمع بينها الكراهية المشتركة للرجعية. وكان الراديكاليون، بمن فيهم اليعاقبة البابوفيون اليساريون بوصفهم الثوريين الأكثر عزيمة وتصميماً، يؤثرون تأثيراً متعاظماً في هذه الأخويات، لأسباب واضحة. وكان فيليبو بوناروتي، رفيق السلاح القديم لبابوف،

هو الأكثر قدرة على التآمر، على الرغم من أن مبادئه ربما كانت على يسار إخوانه وأبناء عمومته الآخرين.

ويظل مطروحاً للنقاش ما إذا كانت جهود الكاربوناريين قد نُسِّقت لتوليد ثورة عالمية في وقت واحد، على الرغم من قيام محاولات للربط بين جميع الأخويات السرية في منظمة عالمية تآمرية عملاقة مترامية الأطراف، في أعلى مستوياتها ونقاط انطلاقها على الأقل. ومهما كانت حقيقة الأمر، فقد وقعت سلسلة من الانتفاضات على الطراز الكاربوناري بين العامين 1820 و1821. وقد أخفقت إخفاقاً ذريعاً في فرنسا حيث لم تكن ثمة بيئة مناسبة للثورة، ولم يستطع المتآمرون أن يتحكموا بالروافع الفعالة الوحيدة القادرة على قيادة التمرد في ظرف غير مناسب، وهي الجيش الساخط. لقد كان الجيش الفرنسي، آنذاك وخلال القرن التاسع عشر، جزءاً من الخدمة المدنية؛ أي أنه كان يأتمر بأوامر الحكومة الرسمية مهما كان نوعها. وقد نجح المتمردون نجاحاً تاماً، ولكنه مؤقت، في عدد من الدول الإيطالية، وكذلك في إسبانيا، حيث اكتشف التمرد "النقي" أكثر أدواته فاعلية، هي الأمر العسكري. فقد وجّه الكولونيلات الليبراليون الذين نظموا أنفسهم في أخويات سرية أوامرهم إلى ضباط الكتائب لكي يحذوا حذوهم في إعلان التمرد، ففعلوا (حاول المتآمرون الديسمبريون الروس القيام بالأمر نفسه مع سرايا الحراس التابعة لهم عام 1825، غير أنهم فشلوا لخشيتهم من المضي بعيداً في هذا الاتجاه). ومنذ ذلك الحين، أصبحت أخويات ضباط الجيش التي كانت تنحو منحىً ليبرالياً في أغلب الأحيان، وأسلوب الأمر العسكري، من المعالم المنتظمة للمشاهد السياسية في أيبيريا وأمريكا اللاتينية، ومن المكتسبات السياسية الباقية غير المؤكدة للفترة الكاربونارية. ويعود ذلك إلى أن الجيوش الجديدة فتحت آفاق العمل الاحترافي للشباب غير الأرستقراطيين. ويمكننا أن نلاحظ، بصورة عابرة، أن ما كانت تقوم به هذه الأخويات السرية، مثل الجمعيات الماسونية، من تراتبية وطقوس، قد استهوى رجال الجيش

لأسباب مفهومة. أما النظام الإسباني الليبرالي الجديد، فقد أطاحه غزو فرنسي بمساندة الرجعية الأوروبية عام 1823.

لم يتبقَّ من الثورات التي نشبت بين العامين 1820 و1822 إلا الثورة اليونانية عام 1821[6]. ويعود ذلك، في جانب منه، إلى نجاحها في البدء بانتفاضة شعبية حقيقية، وفي جانب آخر، إلى الأوضاع الدبلوماسية المواتية. ومن ثم أصبحت اليونان مصدر إلهام لليبرالية العالمية. كما أن النزعة الهيلينية، التي اشتملت على مساندة منظمة لليونانيين، وانضمام العديد من المتطوعين إليهم، أديا دوراً مماثلاً في حشد الجناح اليساري الأوروبي في العشرينات من القرن التاسع عشر، بالطريقة نفسها التي قدم بها الدعم للجمهورية الإسبانية في وقت لاحق في الثلاثينات من القرن العشرين.

غيّرت ثورات العام 1830 الأوضاع تغييراً كلياً. فقد كانت، كما رأينا، باكورة المنتجات لفترة عريضة جداً من التململ الاقتصادي الاجتماعي الواسع الانتشار والتغير الاجتماعي المتسارع. وأعقبت ذلك نتيجتان رئيسيتان أخريان، تمثلت الأولى في أن الأنشطة السياسية الجماعية والثورة الجماهيرية على غرار نموذج العام 1789 أصبحت، مرة أخرى، ممكنة التحقيق، وغدا الاعتماد الحصري على الأخويات السرية أقل ضرورة. وقد أطيح البوربون في باريس عن طريق مزيج من أزمة في السياسات التي انتهجت بعد عودة الملكية، وتململ شعبي جراء الكساد الاقتصادي. وابتعدت باريس في تموز/ يوليو عام 1830 عن أجواء العجز الجماعي، وارتفعت فيها أعداد متزايدة من المتاريس في العديد من المواقع على نحو لم يتكرر في أوقات سابقة أو لاحقة (والواقع أن المتراس أصبح عام 1830 رمزاً للثورة. ومع أن أصل هذا الرمز في التاريخ الثوري لباريس يعود إلى العام 1588 على الأقل، فإن المتراس أدى دوراً لا يقل أهمية عما سبقه بين العامين 1789 و1794).

---

(6) بالنسبة لليونان، انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

وكانت النتيجة الثانية أن "الشعب" و"الفقراء الكادحين" أصبحا، مع تقدم الرأسمالية، مرادفين للبروليتاريا الصناعية ولـِ "الطبقة العاملة". من هنا، بدأت تبرز إلى الوجود حركة بروليتارية ـ اشتراكية ثورية.

كما أدخلت ثورات 1830 تعديلين إضافيين على النشاط السياسي للجناح اليساري. فقد وضعت خطاً فاصلاً بين المعتدلين والراديكاليين، وخلق هؤلاء في الجانبين وضعاً دولياً جديداً. وبهذا العمل، أسهمت الثورات في شق الحركة لا على أسس اجتماعية مختلفة فحسب، بل إلى مسيرات وطنية مختلفة.

وعلى الصعيد الدولي، شقت هذه الثورات أوروبا إلى إقليمين رئيسيين. فقد رفعت، إلى الأبد، قبضة القوى الرجعية المتحدة عن كاهل المنطقة الواقعة غربي الراين. وانتصرت الليبرالية المعتدلة في فرنسا، وبريطانيا، وبلجيكا. غير أن الليبرالية (الأكثر راديكالية) لم تنتصر تماماً في سويسرا وشبه الجزيرة الأيبيرية، حيث وقفت كل واحدة من الحركات الكاثوليكية المؤيدة والمناوئة للنزعة الليبرالية وجهاً لوجه أمام الأخرى، إلا أن "التحالف المقدس" لم يستطع الاستمرار في تدخله في هذه المناطق على نحو ما كان يفعل شرق الراين. وخلال الحروب الأهلية البرتغالية الإسبانية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، دعمت القوى الليبرالية المعتدلة والمناصرة للحكم المطلق هذه الحركات، مع أن القوى الليبرالية كانت أكثر نشاطاً. وساعدها في ذلك بعض المتطوعين والأنصار الراديكاليين الأجانب، مما ألقى بظلاله على النزعة الإسبانية التي شاعت في ثلاثينات القرن[7]. إلا أن القضايا الكامنة في أعماق

---

(7) في إسبانيا، أبدى الإنجليز اهتماماً باللاجئين الليبراليين الذين اتصلوا بهم في العشرينات من القرن التاسع عشر. كما أدت النزعة البريطانية المعادية للكاثوليكية دوراً في تحويل الحظوة التي تمتعت بها إسبانيا إلى عداء للملك كارل. وتجسد ذلك في كتاب جورج بورو (George Borrow) **الكتاب المقدس في إسبانيا** (*Bible in Spain*) ومؤلَّف موراي (Murray) الشهير **كتاب إسبانيا** (*Handbook of Spain*).

هذه المدينة تُركت في هذه البلدان ليصار إلى تقريرها بموجب توازن القوى المحلية؛ ويعني ذلك أنها تركت من دون تقرير أو قرار، وظلت تتقلب بين فترات قصيرة من النصر الليبرالي (1833ـ1837، 1840ـ1843) وانتعاش القوى المحافظة.

وشرقي الراين، ظل الوضع في ظاهره على ما كان عليه قبل العام 1830. فقد أخمدت جميع الثورات، ومنها: حركات التمرد الألمانية والإيطالية التي ساندها أو تعاطف معها النمساويون، والثورة البولندية، وحركات التمرد الأكثر أهمية وخطورة في روسيا. وعلاوة على ذلك، استمرت المشكلة الوطنية في تلك المنطقة في الاستئثار بالأولوية على غيرها. فقد كانت جميع الشعوب تعيش في دول إما صغيرة جداً أو كبيرة جداً وفق المعايير الوطنية، سواء بوصفها أعضاء في دول مفككة مقسمة إلى مقاطعات صغيرة (ألمانيا، وإيطاليا، وبولندا)، أو أعضاء في إمبراطوريات متعددة الجنسيات (هابسبيرغ، وروسيا، وتركيا) أو بهاتين الصفتين كلتيهما. وينبغي أن لا نشغل أنفسنا بالهولنديين والاسكندينافيين الذين كانوا، على الرغم من انتمائهم بشكل عام إلى الأقاليم التي لم ينتشر فيها الحكم المطلق، يعيشون حياة هادئة نسبياً خارج مسرح الأحداث المثيرة التي شهدتها بقية أوروبا.

بقيت هناك جوامع مشتركة كبيرة بين الثوريين في المنطقتين. ويشهد على ذلك أن ثورات 1848 اندلعت في كلتيهما على الرغم من تفاوت المواقع. ومع ذلك، برزت في المنطقتين فروق في الزخم الثوري؛ ففي الغرب، توقفت بريطانيا وبلجيكا عن مواكبة الإيقاع الثوري العام، في حين انخرطت إسبانيا والبرتغال، وإلى حد أقل سويسرا، في صراعات أهلية مزمنة لم تعد أزماتها تتطابق مع نظيراتها في أماكن أخرى إلا بالمصادفة (كما كانت الحال في الحرب الأهلية في سويسرا عام 1847). وبرزت في سائر دول أوروبا تفاوتات حادة بين الدول "الثورية" النشطة، وتلك السلبية الفاترة الحماس. ومن ثم كانت

الشرطة السرية في إمبراطورية الهابسبيرغ منشغلة دائماً بمشكلات البولنديين، والإيطاليين والألمان (غير النمساويين)، وكذلك بالهنغاريين الجموحين على الدوام، بينما لم يرد في تقاريرهم ما يشير إلى مخاطر في أراضي الألب أو المناطق السلافية الأخرى. أما الروس، فلم يكن ثمة ما يشغلهم إلا البولنديون، بينما كان بوسع الأتراك أن يراهنوا على استقرار الأوضاع في المناطق السلافية في البلقان.

كانت أوجه التفاوت هذه انعكاساً للتنويعات في إيقاع التطور، وفي الظروف الاجتماعية في مختلف البلدان. وقد بدأ ذلك يظهر بصورة متزايدة في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، وتزايدت أهميته في المجال السياسي. من هنا، فإن التصنيع المتقدم غيّر إيقاع الحياة السياسية في بريطانيا؛ ففي حين كانت أغلبية القارة تجتاز مرحلة من الأزمات الاجتماعية الحادة في الفترة بين 1846 و1848، كانت بريطانيا تعاني وضعاً بديلاً مماثلاً هو الكساد الصناعي (1841ـ1842)[8]. وإذا كانت ثمة جماعات من الشباب المثاليين تأمل وقوع انقلاب عسكري يضمن انتصار الحرية في روسيا، كما حدث بعد العام 1830 في إسبانيا وفرنسا، فإن تدني درجة النضج في الظروف الاجتماعية والسياسية عما كانت عليه في إسبانيا قد جعلت مثل هذا التحول أمراً بعيد الاحتمال.

وعلى الرغم من ذلك، كانت مشكلات الثورة، على تنوعها، متقاربة بين الشرق والغرب؛ إذ أفضت إلى تزايد التوتر بين المعتدلين والراديكاليين. ففي الغرب، انسحب الليبراليون المعتدلون من جبهة المعارضة المشتركة المطالبة بإعادة الملكية، إلى عالم الحكومة أو الحكومة المحتملة. وعلاوة على ذلك، فإنهم بعد أن أحرزوا بعض النفوذ من خلال جهود الراديكاليين ـ لأنهم هم الذين حاربوا وراء المتاريس ـ فإنهم سرعان ما غدروا بهم. ولم يكن ثمة مجال للتعامل مع أمر عظيم الأهمية

(8) انظر كذلك الفصل التاسع من هذا الكتاب.

والخطر مثل الديمقراطية أو الجمهورية. وفي ذلك يقول غيزو (Guizot) المعارض الليبرالي أيام الملكية المستعادة، رئيس الوزراء في عهد ملكية يوليو/ تموز: "لم يعد ثمة سبب شرعي، أو ذريعة مقبولة، للمقولات والمواقف التي طالما طرحت تحت راية الديمقراطية. إن ما كان ديمقراطيةً في الماضي يدخل الآن في عداد الفوضى، وغدت الروح الديمقراطية ـ وستظل إلى عهد بعيد ـ مرادفةً للروح الثورية"[(9)].

لقد وصل الأمر إلى أبعد من ذلك؛ فبعد فترة قصيرة من التسامح والحماسة، أخذ الليبراليون يميلون إلى الفتور في حماستهم للمزيد من الإصلاح، ويقمعون اليسار الراديكالي، ولا سيما ثوار الطبقة العاملة. وفي بريطانيا، واجه "الاتحاد العام" الأُويني الاتجاه والميثاقيون العداء من جانب كل من معارضي قانون الإصلاح والكثير من أنصاره بين العامين 1834 و1835. وعام 1839، تعاطف آمر القوة العسكرية التي تحركت ضد الميثاقيين مع كثير من مطالبهم بوصفه من الراديكاليين في الطبقة الوسطى، إلا أنه، على الرغم من ذلك، أوقفهم عند حدهم. أما في فرنسا، فإن قمع الانتفاضة الجمهورية عام 1834 كان نقطة الانعطاف الحاسمة؛ فالسنة التي رُوِّع فيها ستة من العمال النزيهين من ويزلي (وهم الذين عرفوا بـِ "شهداء تولبودل") وحوكموا بعد محاولتهم تأسيسَ اتحاد للعمال الزراعيين، كانت تمثل بداية الهجوم على حركة الطبقة العاملة في بريطانيا. من هنا، تحلل الراديكاليون، والجمهوريون، والحركات البروليتارية الجديدة من تحالفهم مع الليبراليين. وكان المعتدلون، في أثناء وجودهم في صفوف المعارضة، يتوجسون شراً من "الجمهورية الديمقراطية الاشتراكية/ الاجتماعية" التي أصبحت من شعارات اليسار.

---

(9) François Pierre Guillaume Guizot, *Of Democracy in Modern Societies* (London: [Henry Hooper], 1938), p. 32.

ولم تنتصر في أوروبا أية ثورة أخرى. وقد برز الانشقاق بين المعتدلين والراديكاليين وظهر تيار الثوريين الاجتماعيين الجديد في أعقاب التحقق من أسباب الهزيمة وتحليل إمكانيات النجاح في المستقبل. ووضع المعتدلون، وهم الملاك المحافظون وعدد ممن شاكلهم من أفراد الطبقة الوسطى، آمالهم في الإصلاح بين أيدي الحكومات المناسبة السريعة التأثر، والدعم الدبلوماسي للقوى الليبرالية الجديدة، وكانت الحكومات المناسبة السريعة التأثر نادرة. فقد ظلت سافوي في إيطاليا متعاطفة مع الليبرالية، مشدودة إلى تيار من الدعم المعتدل الذي كانت الأنظار تتجه إليه للمساعدة على توحيد إيطاليا في المستقبل. وكانت جماعة من الليبراليين الكاثوليك، الذين شجعتهم ظاهرة غريبة قصيرة الأمد هي "البابوية الليبرالية" في ظل البابا الجديد بيوس التاسع (Pope Pius IX) (1846)، تحلم أحلاماً عقيمة بحشد قوة الكنيسة لتحقيق الغرض نفسه. وكانت جميع الدول ذات الأهمية في ألمانيا معادية لليبرالية. ولم يمنع ذلك بعض المعتدلين، وهم أقل عدداً ممن صورتهم الدعاية التاريخية البروسية، من التطلع إلى بروسيا التي كانت تشتمل، على الأقل، على اتحاد الجمرك الألماني (1834)، أو أن يحلموا بوجود أمراء تحولوا عن مواقفهم السابقة بدلاً من المتاريس. وفي بولندا، حيث لم يعد الإصلاح المعتدل المأمول بتشجيع من القيصر يشجع أقطاب جناح "القيصريين" الذين علقوا عليه الآمال، أخذ هؤلاء يأملون في تدخل دبلوماسي غربي. ولم تكن هذه التوقعات واقعية على الإطلاق في الفترة الفاصلة بين العامين 1830 و1848.

وقد أصيب المعتدلون بالقدر نفسه من خيبة الأمل نتيجة إخفاق الفرنسيين في أن يؤدوا دور المحررين الأمميين الذي أوكلته إليهم "الثورة الكبرى" والنظرية الثورية. بل إن خيبة الأمل هذه، والحركة القومية المتعاظمة في الثلاثينات من القرن التاسع عشر[10] والإدراك الجديد

(10) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

للاختلافات في النزعة الثورية بين بلد وآخر، قد تضافرت كلها لتحطم الاتجاه الأممي الموحد الذي كان يطمح إلى تحقيقه الثوريون في عهد الملكية المستعادة. وظلت الآفاق الاستراتيجية على حالها، وبقي التحرير في أوروبا ينتظر مجيءَ فرنسا يعقوبيةٍ جديدة، وربما بريطانيا تدخليةٍ راديكاليةٍ (كما كان يعتقد ماركس (Marx))، باعتبارها السبيل الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ما دام اندلاع ثورة في روسيا لم يكن ممكناً[11]. وعلى الرغم من ذلك، برزت ردات فعل قومية ضد النزعة الأممية المنطلقة من فرنسا خلال الفترة الكاربونارية. وكانت هذه المواقف منسجمة مع النزعة الرومنطيقية[12] التي استهوت اليسار بعد العام 1830. ولن نجد في القرن الثامن عشر أوسع من تلك التي قامت بين بوناروتي (Filippo Buonarroti)، معلم الموسيقى العقلاني من جهة، وجوزيف مازيني (Joseph Mazzini) (1805ـ1872) العاجز الفظ السريع الاستثارة الذي أصبح الداعية الأول ضد الكاربونارية. وقد دبر الأخير مؤامرات وطنية عديدة (مثل: "إيطاليا الفتاة"، و"ألمانيا الفتاة"، و"بولندا الفتاة" إلخ.)، وربط بعضها ببعض في رابطة "أوروبا الفتاة" (Young Europe). وكان هذا التنظيم اللامركزي للحركة الثورية واقعياً بمعنى من المعاني؛ ذلك أن الدول كانت عام 1848 تنشأ بصورة مستقلة، تلقائية، متزامنة. غير أنها لم تكن كذلك بمعنى آخر. فقد كان الحافز لانطلاقها المتواقت فرنسي المصدر، وأدى إحجام الفرنسيين عن أداء دور المحرر إلى انهيار هذه الدول الصاعدة.

وسواء أكان الراديكاليون رومنطيقيين أم غير ذلك، فإنهم رفضوا، لأسباب عملية وأيديولوجية، الثقة التي أولاها المعتدلون للأمراء والقوى الأخرى؛ إذ ينبغي على الشعوب أن تكون مستعدة لتحقيق

---

(11) نجد أوضح مناقشة لهذه الاستراتيجية الثورية في مقالات ماركس (Marx) في صحيفة *Neue Reinische Zeitung* خلال ثورة عام 1848.

(12) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

التحرر بأنفسها؛ لأن أحداً لن يقوم بهذه المهمة نيابة عنها. وقد تبنت هذا الموقف أيضاً الحركات البروليتارية الاشتراكية في ذلك الوقت، وأدركت أن ذلك لم يكن ممكناً إلا عبر الفعل والعمل المباشر. وكان هذا الفهم شائعاً كذلك على الطراز الكاربوناري أساساً في جميع الأحوال، فيما بقيت الجماهير على موقفها السلبي. ولم تكن هذه الأساليب فعالة جداً، مع أنه كان ثمة فرق شاسع بين محاولة مازيني لغزو سافوي من جهة، والمحاولات الجادة المستمرة التي بذلها الديمقراطيون البولنديون للإبقاء على حرب الأنصار أو إنعاشها في بلادهم بعد هزيمة العام 1831. غير أن تصميم الراديكاليين على تولي زمام الحكم من دون القوى الراسخة أو رغماً عنها ولّد انشقاقاً آخر في صفوفهم. فهل كانوا مستعدين أو عاجزين عن فعل ذلك على حساب الثورة الاجتماعية؟

IV

كان هذا السؤال مُلهباً مثيراً في كل مكان، إلا في الولايات المتحدة، حيث لم يعد بوسع أحد أن يتخذ أو يتجنب قراراً لتعبئة الناس العاديين سياسياً؛ لأن الديمقراطية الجاكسونية سبق أن فعلت ذلك[13]. ولكن على الرغم من ظهور حزب العاملين (Workingmen's Party) في الولايات المتحدة (1828-1829)، وتعاظم التذمر في أوساط قطاعات من السكان، فإن مسألة قيام ثورة اجتماعية على الطراز الأوروبي لم تكن قضية جدية في تلك البلاد الواسعة المتزايدة الاتساع. كما أن هذا السؤال لم يكن مثيراً للمشاعر في أمريكا اللاتينية، حيث لم يكن ثمة طرف في الساحة السياسية، ربما باستثناء المكسيك، يحلم بحشد الهنود (أي الفلاحين والعمال الزراعيين)، والعبيد الزنوج، وحتى الأجيال الهجينة (مثل صغار الفلاحين والحرفيين، والفقراء في المناطق الحضرية)، وراء أي هدف مهما كان نوعه. أما في أوروبا الغربية،

(13) باستثناء عبيد الجنوب بالطبع.

حيث كانت الثورة الاجتماعية احتمالاً حقيقياً في أوساط الفقراء الحَضَر، وفي الحزام الأوروبي العريض الذي شهد ثورة زراعية، فإن السؤال عما إذا كان من الضروري أو من غير المناسب الإهابة بالجماهير للثورة كان ملحّاً ولا يمكن تحاشيه.

كان سخط الفقراء، ولا سيما الفقراء في المناطق الحضرية، في أوروبا الغربية واضحاً في كل مكان. بل إنه انعكس بجلاء حتى في فيينا الإمبراطورية في المواقف الشائعة في أوساط العامة والبورجوازية الصغيرة، ووجدت تعبيراً عنها في المسارح الشعبية في الضواحي. وفي الفترة النابليونية، جمعت المسرحيات المعروضة فيها بين الروح الشعبية، والولاء الساذج لأسرة الهابسبيرغ الحاكمة، وعمل فرديناند ريموند (Ferdinand Raimund)، الكاتب الأشهر في تلك المرحلة، على ملء خشبة المسرح بالحكايات الخرافية، والحزن، والحنين إلى البراءة التي أصبحت تفتقر إليها الجماعات البسيطة التقليدية غير الرأسمالية. غير أن ما سيطر عليها بعد العام 1815 هو النجم يوهان نستروي (Johann Nestroy) الذي جمع بين السخرية الاجتماعية والسياسية، والظرف الجدي المرّ، والنقد الهدّام، وتحول إلى ثوري متحمس عام 1848. ويصدق ذلك أيضاً حتى على المهاجرين الألمان الذين كانوا في أثناء عبورهم الهافر، يتذرعون بعبارة "ليس لدينا ملك في هذه البلاد"، لتبرير هجرتهم إلى الولايات المتحدة التي أصبحت موطن الأحلام بالنسبة لفقراء أوروبا[14].

كان السخط الحضري شاملاً في الغرب، وكانت الحركة البروليتارية والاشتراكية واضحة كل الوضوح في الدولتين اللتين شهدتا

(14) Marcus Lee Hansen, *The Atlantic Migration, 1607-1860: A History of the Continuing Settlement of the United States*, Edited with a Foreword by Arthur M. Schlesinger, Third Printing (Cambridge (Massachusetts): Harvard University Press, 1945), p. 147.

الثورة المزدوجة: بريطانيا وفرنسا[15]. وقد برزت هذه الحركة في بريطانيا عام 1830 أو نحوه، واتخذت شكلاً ناضجاً للغاية على هيئة حركة جماهيرية للكادحين الفقراء الذين اعتبروا المحافظين والليبراليين خونةً محتملين والرأسماليين أعداءً لقضيتهم. وتمثلت أبرز إنجازاتها وأضخمها في حركة "ميثاق الشعب" (People's Charter) العريضة التي بلغت أوْجها بين العامين 1839 و1842. ولكنها حافظت على نفوذها إلى ما بعد العام 1848. إلا أن الحركة الاشتراكية أو "التعاونية" البريطانية كانت على درجة كبيرة من الضعف. فقد بدأت بشكل مؤثر بين العامين 1829 و1834 تجتذب الجانب الأكبر من مناضلي الطبقة العاملة إلى صفها واستمالتهم إلى مبادئها (التي انتشرت منذ أوائل العشرينات من ذلك القرن في أوساط الحرفيين والعمال المهرة)، والقيام بمحاولات طموحة لإقامة "نقابات عامة" وطنية للطبقة العاملة. بل إن هذه الحركة المتأثرة بنفوذ روبرت أوين، قامت بمحاولات لتأسيس اقتصاد عام تعاوني بمعزل عن الرأسماليين. وكان الإحباط بعد صدور قانون الإصلاح عام 1832 قد دفع الجانب الأكبر من الحركة العمالية إلى توسم القيادة في هؤلاء الأُوينيين من التعاونيين، والنقابيين الثوريين البدائيين ومن شابههم. غير أن فشلهم في القيادة، ووضع استراتيجية سياسية فعالة، والحملات المنظمة ضدهم من جانب أرباب العمل والحكومة، أسهمت كلها في تحطيم الحركة في الفترة بين العامين 1834 و1836. وقد أدى هذا الإخفاق إلى تحويل الاشتراكيين إلى جماعات دعائية وتعليمية تتحرك خارج التيار الرئيسي للتحرك العمالي، أو إلى رواد لتعاونيات المستهلكين المتواضعة على هيئة متجر تعاوني أقيم في روشديل في لانكشير عام 1844. من هنا، كانت المفارقة المتمثلة في أن ذروة الحركة الجماهيرية الثورية للفقراء الكادحين في بريطانيا، وهي الحركة "الميثاقية"، كانت، من الوجهة الأيديولوجية، أقل تقدماً من الحركة

---

(15) انظر كذلك الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب.

التي نشطت بين العامين 1829 و1834، مع أنها كانت، من الوجهة السياسية، أكثر نضجاً. غير أن ذلك لم يجنبها الهزيمة التي منيت بها نتيجة لعجز زعمائها السياسي، والاختلافات المحلية والجهوية، والقصور عن أي عمل وطني منسق يتجاوز إعداد العرائض الضخمة.

لم تكن هناك حركة جماهيرية مماثلة في فرنسا. فقد كان المكافحون داخل "حركة الطبقة العاملة" الفرنسية بين العامين 1830 و1848 في أغلبهم من الحرفيين الحضر التقليديين وعمال المياومة، ولا سيما في المجالات التي تستلزم مهارة معينة، والعاملين في مراكز الصناعة التقليدية المحلية مثل صناعة الحرير في ليون (ولم يكن كبار الثوريين من نساجي الحرير عمالاً مأجورين، بل كانوا أقرب إلى صغار المعلمين). وعلاوة على ذلك، فإن ممثلي الأطراف المختلفة للاشتراكية "الطوباوية" الجديدة، ولا سيما أتباع سان سيمون (Saint-Simon)، وفورييه (Fourier)، وكابيه (Cabet) وغيرهم، لم يُعْنوا بالتحريض السياسي، مع أن أعضاء جماعاتهم ومنتدياتهم السرية الصغيرة، ولا سيما أتباع فورييه، أصبحوا، في واقع الأمر، بمثابة النواة لقيادات الطبقة العاملة، والمنظمين للعمل الجماهيري في مستهل ثورة 1848. ومن ناحية أخرى، كان في فرنسا تراث قوي متطور سياسياً من اليعقوبية اليسارية والبوبوفية، وهم الذين أصبح أكثرهم شيوعيين بعد العام 1830. وكان أوغست بلانكي (Auguste Blanqui) (1805ـ1881)، تلميذ بوناروتي، هو الزعيم الأكثر هيبةً بينهم.

لم تسهم البلانكية إلا في إحداث القليل من التفكير الاشتراكي من ناحيتي التحليل والتنظير الاجتماعيين، ما عدا التأكيد على ضرورة الاشتراكية، والملاحظة القاطعة بأن بروليتاريا العمال المأجورين المسْتَغَلّين هي التي ستكون المهندسَ الرئيسي لها، والطبقة الوسطى (لا العليا) عدوَّها الأساسي. ومن حيث الاستراتيجية السياسية والتنظيم، قامت بتكييف الأداة الثورية التقليدية، وهي الأخويات السرية التآمرية، بحيث

تناسب الظروف البروليتارية، وجردتها من كثير من الطقوس والملابس التي كانت سائدة خلال فترة الملكية المستعادة، وكذلك من الأساليب اليعقوبية التقليدية في الثورة، والتمرد والدكتاتورية الشعبية المركزية من أجل قضية العمال. وقد اكتسبت الحركة الاشتراكية الثورية الحديثة من البلانكيين (نقلاً عن سان ـ جوست، وبابوف، وبوناروتي) الاعتقاد بأن الهدف ينبغي أن يكون الاستيلاء على السلطة السياسية، وتليه بعد ذلك "دكتاتورية البروليتاريا" (ويعود هذا المصطلح إلى أصول بلانكية). وضعف البلانكية، في جانب منه، هو ضعف الطبقة العاملة الفرنسية. وفي غياب حركة جماهيرية عريضة، ظلت البلانكية، شأنها شأن سابقتها الكاربونارية، حركة نخبوية تخطط للثورة في فراغ، مما تسبب في إخفاقها في أكثر الأحيان، كما حدث في انتفاضة العام 1839.

ويبدو، على هذا الأساس، أن الطبقة العاملة، أو الثورة الحضرية والاشتراكية، كانت تمثل أخطاراً حقيقيةً في أوروبا الغربية، على الرغم من أن فئات المستخدِمين والحكومات في الدول الصناعية المتقدمة مثل بريطانيا وبلجيكا كانت تنظر إليها باطمئنان نسبي له ما يبرره. فليس ثمة دليل على أن الحكومة البريطانية كانت تتخوف، بصورة جدية، من المخاطر التي يمكن أن تهدد النظام والأمن جراء حركة الميثاقيين، على ما فيها من ضخامة، وانقسام، وسوء تنظيم، وانحراف في القيادة[16]. من جهة أخرى، لم يقدم السكان الحضر شيئاً لتشجيع الثوريين أو تخويف الحكام. وقد أصيبت الحكومة البريطانية ببعض الفزع عندما انطلقت، في أواخر العام 1830، موجة من الشغب وتدمير الآلات الصناعية سرعان ما انتشرت بين العمال الزراعيين المجوَّعين في الأجزاء الجنوبية والشرقية من إنجلترا. وكان نفوذ الثورة الفرنسية التي وقعت في تموز/ يوليو 1830 واضحاً في هذه الثورة التلقائية الواسعة الانتشار، ولكن

(16) F. C. Mather, "The Government and the Chartists," in: Asa Briggs, *Chartist Studies* (London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1959).

السريعة الانطفاء، التي اعتبرت "آخر ثورة عمالية" في تلك الفترة[17]. وقد عوقبت هذه الثورة بقسوة أكثر بكثير مما عوملت به أعمال الشغب التي قام بها الميثاقيون. وكان ذلك متوقعاً بالنظر إلى الأوضاع الأكثر توتراً من الناحية السياسية خلال فترة الملكية المستعادة. ومع ذلك، فإن التململ الزراعي سرعان ما انحسر وتحول إلى أشكال أقل خطراً من الوجهة السياسية. أما في سائر المناطق المتقدمة اقتصادياً، باستثناء غرب ألمانيا إلى حد ما، فلم يكن متوقعاً نشوب ثورة زراعية أو حتى تصورها، ولم تكن النظرة الحضرية لأغلب الثوريين ذات جاذبية خاصة للفلاحين. ولم تحدث في جميع أنحاء أوروبا الغربية (باستثناء الجزيرة الأيبيرية) مثل هذه الثورة إلا في إيرلندا، حيث انطلق تحرك ثوري أصيل جرى تنظيمه بطريقة سرية، وأسهمت فيه جمعيات إرهابية واسعة الانتشار مثل: ريبونمن (Ribbonmen) ووايتبويز (Whiteboys). إلا أن إيرلندا كانت، اجتماعياً وسياسياً، تنتمي إلى عالم مختلف عن عالم جيرانها.

من هنا، فإن قضية الثورة الاجتماعية خلقت شقاً بين الراديكاليين في الطبقة الوسطى؛ أي في أوساط جماعات رجال الأعمال الساخطين، والمثقفين، والآخرين الذين وجدوا أنفسهم عام 1830 يقفون موقف المعارضة من الحكومات الليبرالية المعتدلة. ففي بريطانيا، قسمت "الراديكاليين في أوساط الطبقة الوسطى" إلى تيارين: من يميلون إلى مساندة الميثاقيين، أو الوقوف في صفهم (كما حدث في بيرمينغهام أو في "اتحاد الاقتراع الشامل" الذي يتزعمه رجل الدين الكويكري جوزيف ستورج (Joseph Sturge))، ومن يصرون (مثل أعضاء "رابطة المعارضين لقانون الذرة") على محاربة كل من الأرستقراطية والميثاقيين.

---

(17) انظر: *Parliamentary Papers*, vol. XXXIV (1834).
الإجابات عن السؤال 53 (أسباب ونتائج أعمال الشغب والحرائق في العامين 1830 و1831).

وقد غلب المتصلبون آخر الأمر لثقتهم بالتجانس في وعيهم الطبقي، وبأموالهم التي أنفقوها بمبالغ طائلة، وبفاعلية منظمات الدعاية والإعلان التي أقاموها. أما في فرنسا، فإن ضعف المعارضة الرسمية في وجه لويس فيليب (Louis Philippe)، والبادرة التي اتخذتها جماهير باريس الثورية، حوّلا القرار إلى اتجاه آخر. ويقول الشاعر الراديكالي بيرانجيه (Béranger) بعد ثورة شباط/ فبراير 1848: "ها قد أصبحنا جمهوريين مرة أخرى... وربما كان ذلك قد تم في وقت أبكر وأسرع مما يلزم... وكنت أفضل اتخاذ إجراءات أكثر حذراً، غير أننا لم نختر الساعة، ولا حشدنا القوى، ولا حددنا اتجاه المسيرة"[18]. ولم يكن لانشقاق راديكاليي الطبقة الوسطى عن اليسار المتطرف أن يحدث إلا بعد الثورة.

ولم تكن المشكلة معقدة بالقدر نفسه بالنسبة للبورجوازية الصغيرة المتذمرة التي كانت تضم الصناع، وأصحاب الحوانيت، والمزارعين المستقلين وأمثالهم، الذين كانوا مع جماهير العمال المهرة يؤلفون كتائب الراديكاليين الرئيسية في أوروبا الغربية. فهم، بوصفهم فئة محدودة الموارد، تعاطفوا مع الفقراء ضد الأغنياء، وباعتبارهم من صغار الملاك، مع الأغنياء ضد الفقراء. إلا أن التشتت في مشاعرهم ومواقفهم أفضى بهم إلى التردد والشك بدلاً من إحداث تغيير أساسي في ولائهم السياسي، فغدوا، آخر الأمر، خليطاً رخواً من اليعاقبة، والجمهوريين، والديمقراطيين. وعلى الرغم من أنهم كانوا مكوّناً متردداً في جميع الجبهات الشعبية، فقد كانوا عنصراً ثابتاً في جميع الأحوال، حتى اللحظة التي استولى فيها المُصادِرون على الحكم بالفعل.

V

كانت المشكلة أكثر جدية وخطورة في سائر أنحاء أوروبا الثورية،

---

(18) Jean Dautry, *1848 et la II ième republique* ([n. p: n. pb., 1849]), p. 80.

حيث كان وجهاء الريف والمثقفون المتذمرون يشكلون نواة الراديكالية. وكان الفلاحون هم الجماهير، وهم يفدون، على الأغلب، من بلدان غير تلك التي ينتمي إليها أهل البلدات وملاك الأراضي التي يعملون فيها؛ فهم سلافيون ورومانيون يعملون في هنغاريا، وأوكرانيون شرقي بولندا، وسلافيون في أجزاء من النمسا. وكان أفقر ملاك الأراضي وأقلهم كفاءة، ممن لم يكونوا مستعدين للتخلي عن مكانتهم التي تجلب لهم الدخل، هم الأكثر تطرفاً في شعورهم القومي في أغلب الأحيان. صحيح أن أغلبية الفلاحين كانت غارقة في الجهل والسلبية السياسية، وأن مساندتهم للثورة لم تكن قضية ملحّة بالنسبة لهم، غير أن ذلك لا يعني أن مسألة الثورة لم تكن من همومهم الرئيسية. كما أن هذه الروح السلبية لدى الفلاحين لم تكن أمراً مفروغاً منه في أربعينات القرن التاسع عشر؛ فقد كانت انتفاضة الأقنان في غاليقيا عام 1846 أضخم ثورة فلاحية منذ الثورة الفرنسية عام 1789.

وعلى الرغم من الجذوة الظاهرة في هذه القضية، إلا أنها كانت خطابية إلى حد ما. فمن الوجهة الاقتصادية كان تحديث المناطق المتخلفة، خصوصاً شرقي أوروبا، يستلزم الإصلاح الزراعي، أو على أقل تقدير إلغاء الرق الذي ظل شائعاً في الإمبراطوريات النمساوية، والروسية، والتركية. ومن الناحية السياسية، كانت بوادر النشاط في أوساط الفلاحين إيذاناً مؤكداً بأنه لا بد من عمل ما لتلبية مطالبهم، ولا سيما في البلدان التي خاض فيها الثوريون الحرب ضد الحكم الأجنبي. فإذا لم يستطع هؤلاء اجتذاب الفلاحين إلى صفوفهم، فإن الرجعيين هم الذين سينجحون في ذلك. وكان الملوك والأباطرة الشرعيون ورجال الكنيسة يتمتعون بميزة تكتيكية هي أن الفلاحين كانوا يثقون بهم أكثر مما يثقون بالسادة الملاّك، ويتوقعون منهم العدل والإنصاف. وكان الملوك على استعداد تام لتأليب الفلاحين على الوجهاء عند الضرورة. وقد فعلت أسرة البوربون ذلك دونما تردد ضد يعاقبة نابولي عام 1799. وعام 1848، هتف الفلاحون اللومبارديون: "يعيش راديتسكي... الموت

للسادة الملاك!"، ترحيباً بالجنرال النمساوي الذي أجهز على الثورة الوطنية[19]. ولم تكن المهمة المطروحة على الراديكاليين في البلدان المتخلفة أن يسعوا إلى التحالف مع الفلاحين، بل النجاح في تحقيق هذا التحالف.

من هنا، انقسم الراديكاليون في هذه البلدان إلى فئتين: الديمقراطيين، واليسار المتطرف. وأقرت الفئة الأولى (التي كانت تمثلها الجمعية الديمقراطية البولندية في هولندا، وأتباع كوسوث (Kossuth) في هنغاريا، وأنصار مازيني في إيطاليا) بالحاجة إلى استمالة الفلاحين والتزامهم قضية الثورة، عن طريق إلغاء الرق ومنح حقوق الملكية لصغار المزارعين عند الضرورة. غير أنهم كانوا يأملون قيام نوع من التعايش السلمي بين طبقة من النبلاء تتخلى عن حقوقها الإقطاعية، مع نيل تعويضات عن ذلك، وطبقة الفلاحين الوطنية. إلا أن الديمقراطيين تجاهلوا في الواقع عرض أي برنامج ملموس للإصلاح الزراعي أو الاجتماعي، واكتفوا بالوعظ العام والدعوة إلى الديمقراطية السياسية والتحرر الوطني؛ وذلك ما حدث بالفعل عندما لم تبلغ رياح التمرد الفلاحي حدود الإعصار، ولم يتصاعد فيها الخوف من أن يستغلها الأمراء لمصلحتهم (كما حدث في أغلب إيطاليا).

كان اليسار المتطرف في النضال الثوري صراعاً بين الجماهير من جهة، والحكام الأجانب والمستغلين المحليين من جهة أخرى. وقد سبقوا الثوار الاجتماعين والوطنيين في القرن العشرين إلى الإعراب عن شكوكهم في قدرة النبلاء والطبقة الوسطى الضعيفة، التي ترتبط مصالحها الخاصة يوماً بعد يوم بالحكم الاستعماري، على السير بالدولة الحديثة على طريق الاستقلال والتحديث. ومن ثم كان برنامجهم متأثراً

(19) St. Kiniewicz, “La Pologne et l’Italie à l’époque du printemps des peoples,” dans: *La Pologne au Xe congrès international des sciences historiques à Rome* (Warszawa: [Państw. Wydaw. Naukowe], 1955), p. 245.

كل التأثر بالاشتراكية الوليدة في الغرب. وخلافاً لما طرحه أكثر الاشتراكيين "الطوباويين" في المرحلة ما قبل الماركسية، فقد كانوا ثواراً سياسيين ونقاداً اجتماعيين في آنٍ معاً. من هنا، أقدمت جمهورية كراكاو القصيرة العمر عام 1848 على إلغاء الأعباء المترتبة على الفلاحين، ووعدت الفقراء الحضر بإقامة "مشاغل وطنية". وتبنى الجناح الأكثر تقدماً في حركة الكاربوناري في جنوب إيطاليا برنامجاً بلانكياً بابوفياً. وإذا استثنينا بولندا، فإن هذا التيار الفكري كان ضعيفاً نسبياً، وقد تناقص نفوذه بسبب الإخفاق الذي منيت به حركات تضم، بشكل أساسي، أبناء المدارس، والطلبة، والمثقفين الذين فقدوا هويتهم الطبقية التي تعود في أصولها إلى فئات الوجهاء أو العامة، وقلة من المثاليين. وقد فشلت هذه الجماعات في تعبئة الفلاحين الذين بذلت قصارى الجهد لاستقطابهم واجتذابهم[20].

على هذا الأساس، لم يستطع الراديكاليون في المناطق المتخلفة في أوروبا أن يحلوا مشكلاتهم بطريقة فعالة. ويعود جانب من ذلك إلى عدول أنصارهم عن تقديم أية تنازلات مناسبة في الوقت المناسب للفلاحين. ويرجع جانب آخر إلى غياب النضج السياسي لدى الفلاحين. فقد جرت ثورات العام 1848 في إيطاليا أساساً وراء ظهور أهالي الريف الخاملين. أما في بولندا (حيث تحول التمرد عام 1846 بسرعة إلى انتفاضة ضد الوجهاء البولنديين، بتشجيع من الحكومة النمساوية)، فلم تحدث ثورة على الإطلاق عام 1848، إلا في بوزنانيا البروسية. بل إن الاشتراطات التي صاحبت الإصلاح الزراعي الذي نفذه الوجهاء في هنغاريا، وهي أكثر الدول الثورية تقدماً، قد حالت دون حشد

(20) مهما يكن من أمر، فإن الراديكالية المشابهة للمازينية في عدد قليل من المناطق التي شاعت فيها الملكية الزراعية الصغيرة، أو الاستئجار أو تقاسم المحصول، مثل راماغنا، وأجزاء من جنوب غرب ألمانيا، قد نجحت في استقطاب قدر معقول من الدعم الجماهيري عام 1848 وبعده.

الفلاحين بصورة كاملة، لخوض حرب تحرير وطنية. وفي أغلبية المناطق في شرق أوروبا، كان الفلاحون السلافيون، الذين ارتدوا زي الجنود الإمبراطوري، هم أداة القمع الفعالة ضد الثوار الألمان والمجريين.

VI

على الرغم من ذلك كله، فإن الحركات الثورية بين العامين 1830 و1848 ظلت تحافظ على منطلقات مشتركة فيما بينها، رغم اختلافاتها الناجمة عن الظروف المحلية، والجنسية، والطبقية. فقد بقيت، كما رأينا، في المقام الأول، منظماتٍ أقلية تضم، إلى حد بعيد، أفراداً من الطبقة الوسطى والمثقفين المتواطئين الذين كانوا يعيشون في المنفى، أو في عالم المتعلمين الضيق نسبياً (وعندما اندلعت الثورات، كان عامة الناس يأتون إلى البلدات التي تجري فيها. ففي انتفاضة العام 1848، سقط 350 قتيلاً، بينهم نحو عشرة من الطلبة وصغار الإداريين أو أفراد العائلات المالكة للأراضي. كما كان بينهم 74 امرأة وطفلاً، بينما كان الباقون من الحرفيين والعمال)[21]. من جهة أخرى، اتبع الثوريون نمطاً مشتركاً من التحرك السياسي، والأفكار الإستراتيجية والتكتيكية وما إلى ذلك. واستمدوا ذلك كله من تجربة ثورة العام 1789 وتراثها، ومن إحساس عميق بالوحدة العالمية.

ومن السهل تفسير العامل الأول. ففيما عدا الولايات المتحدة وبريطانيا، وربما سويسرا وهولندا واسكندنافيا، لم تنشأ في أوروبا تقاليد راسخة في التحريض والتنظيم الجماهيري باعتبارها جزءاً من الحياة الاجتماعية، كما لم تتوفر الظروف لمثل هذه التقاليد خارج بريطانيا والولايات المتحدة. فلم يكن معقولاً أن نتصور في أي مكان آخر أن

---

(21) D. Cantimori, in: Ferenc Fejtö, ed., *The Opening of an Era, 1848: An Historical Symposium*, with an introd. by A. J. P. Taylor (London: Allan Wingate, 1948), p. 119.

توزع صحيفة مثل **نورثرن ستار** (*Northern Star*) الميثاقية أكثر من ستين ألف نسخة في الأسبوع على عدد أوسع من ذلك من القراء في نيسان/ أبريل 1839[22]، في الوقت الذي كانت الصحف فيه توزع نحو خمسة آلاف نسخة، مع أن توزيع الصحف شبه الرسمية، وكذلك مجلات الترفيه والمنوعات منذ الثلاثينات من ذلك القرن، قد يتجاوز عشرين ألف نسخة في بلد مثل فرنسا[23]. وحتى في الدول التي يحكمها نظام دستوري مثل بلجيكا وفرنسا، لم يكن التحريض اليساري مسموحاً به قانونياً إلا بصورة متقطعة، كما أن تنظيمات اليسار كانت غير مشروعة في أغلب الأحيان. وفي الوقت الذي انتشرت فيه صورة مزيفة للسياسات الديمقراطية في أوساط طبقات محددة تشكل "المواطنين الشرعيين" وتمس بتداعياتها المحرومين، فقد كان من النادر استخدام الأدوات الأساسية للنشاط السياسي الجماهيري، وهي الحملات العامة الهادفة إلى الضغط على الحكومات، والتنظيمات الجماعية، والعرائض، والخطب الموجهة إلى التجمعات العامة وغيرها. ولم يكن هناك من يفكر جدياً خارج بريطانيا بأن من الممكن تحقيق الانتخابات البرلمانية الشاملة عن طريق حملة جماهيرية من التواقيع والتظاهرات العامة، أو إلغاء أحد القوانين الجائرة عن طريق حملة من الدعاية العامة وممارسة الضغوط، مثلما فعلت حركة الميثاقيين، ورابطة المعارضين لقانون الذرة على التوالي. فالتغيرات الدستورية الكبيرة، شأنها شأن التغيرات الاجتماعية الكبيرة، تعني الانفصال عن البنية القانونية في البلاد.

وفي العادة، تكون المنظمات غير الشرعية أصغر من المنظمات

---

(22) Donald Read, *Press and People, 1790-1850: Opinion in three English Cities* (London: E. Arnold, [1961]), p. 216.

(23) Irene Collins, *The Government and the Newspaper Press in France, 1814-1881*, Oxford Historical Series; General Series (London: Oxford University Press, 1959).

الشرعية، كما أن تكوينها لا يكون تمثيلياً. والواقع أن تحول جمعيات الكاربوناري السرية العامة إلى منظمات بروليتارية - ثورية، مثل الجماعة البلانكية، قد أسفر عن انخفاض في عدد أعضائها من أبناء الطبقة الوسطى، مع ارتفاع في مستوى عضوية الطبقة العاملة فيها؛ أي في عدد المنتسبين إليها من الحرفيين وعمال المياومة المهرة. وتقول بعض التقارير إن الطبقة الدنيا كانت تمثل أغلبية الأعضاء في المنظمات البلانكية في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر[24]. وكذلك كان الحال في رابطة الخارجين على القانون الألمانية (التي أصبحت بدورها رابطة العدل والرابطة الشيوعية التي تزعمها ماركس وإنغلز)، التي كان عمال المياومة الألمان المغتربون هم عمودها الفقري. غير أن هذه الحالة تمثل وضعاً استثنائياً؛ فالقطاع الأكبر من المتواطئين كان من الطبقات المهنية أو من الوجهاء الأدنى مكانة، ومن الطلبة وأبناء المدارس وأمثالهم، وكان بينهم (خارج البلدان الأيبيرية) نسبة من الضباط الشباب أقل مما كان في الحركة الكاربونارية في ذروة نشاطها.

بالإضافة إلى ذلك، استمر اليسار الأوروبي والأمريكي بأكمله، إلى حد ما، في محاربة الأعداء أنفسهم، والاشتراك في التطلعات نفسها، وفي برنامج واحد. وجاء في "إعلان المبادئ" الخاص بالديمقراطيين المتآخين (الذين كانوا يضمون مواطنين أصليين من بريطانيا العظمى، وفرنسا، وألمانيا، واسكندنافيا، وبولندا، وإيطاليا، وسويسرا،

---

(24) Eric John Hobsbawm, *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movements in the 19th and 20th Centuries* (Manchester: Manchester University Press, 1959), pp. 171-172; V. Volguine, "Les Idées socialistes et communistes dans les sociétés secrètes," *Questions d'histoire*, vol. II (1954), pp. 10-37, and Alan Barrie Spitzer, *The Revolutionary Theories of Louis Auguste Blanqui*, Columbia Studies in the Social Sciences; no. 594 (New York: Columbia University Press, 1957), pp. 165-166.

وهنغاريا، وبلدان أخرى): "إننا نشجب، ونفند، ونندد بجميع أنواع اللامساواة والامتيازات الإرثية الثابتة. ومن هذا المنطلق، فإننا نعتبر الملوك، والأرستقراطيين، والطبقات التي تحتكر الامتيازات لمجرد حيازتها للأملاك في عداد المغتصبين. وتتمثل عقيدتنا السياسية في الدعوة إلى إقامة حكومات ينتخبها الشعب بأكمله وتكون مسؤولة أمامه"[25]. ولم يكن أمام الراديكاليين والثوريين إلا أن يوافقوا على ذلك. فالبورجوازي يفضل وضعاً تتمتع فيه المُلْكية بحرية الحركة، ولكن من دون أن تتمتع بامتيازات سياسية (كما كان الحال في دساتير الفترة بين العامين 1830 و1832 التي جعلت التصويت رهناً بحالة التملك)، والاشتراكي الشيوعي سيسعى إلى تأميمها. ولا شك في أن الأمور ستبلغ (كما حدث مع الميثاقيين في بريطانيا) منعطفاً يبدأ فيه جميع الحلفاء السابقين الذين وقفوا ضد الملك والأرستقراطيين وأصحاب الامتيازات، الانقضاض بعضهم على بعض، ويتحول الصراع بعد ذلك إلى مواجهة بين البورجوازيين والعمال. ولكن الأمور لم تصل إلى هذا الحد في أي مكان آخر قبل العام 1848. فلم تكن في صفوف الحكومة آنذاك، بصورة رسمية، إلا البورجوازية الكبرى في عدد قليل من البلدان. بل إن أكثر الشيوعيين البروليتاريين وعياً كانوا يعتبرون أنفسهم ويتصرفون بوصفهم الجناح اليساري المتطرف في الحركة الراديكالية الديمقراطية العامة، وكانوا يعتبرون إنجازات الجمهورية "البورجوازية - الديمقراطية" خطوة تمهيدية لا يمكن الاستغناء عنها لتحقق الاشتراكية مزيداً من التقدم. وصحيح أن البيان الشيوعي الذي وضعه ماركس وإنغلز كان إعلاناً بالحرب المقبلة مع البورجوازية، إلا أنه كان، في الوقت نفسه، إعلاناً بالتحالف الراهن معها، على الأقل في ألمانيا. بل إن الطبقة الوسطى الألمانية الأكثر تقدماً الممثلة في جمعية صناعيي

---

(25) George Douglas Howard Cole and A. W. Filson, *British Working Class Movements, Select Documents, 1789-1875* (London: Macmillan, 1951), p. 402.

الراينلاند، طلبت من ماركس أن يحرر صحيفتها الراديكالية *Neue Rheinische Zeitung* عام 1848، فقبل أن يحررها لا بوصفها بوقاً للشيوعية، بل باعتباره هو الناطق بلسان الراديكالية الألمانية وزعيمها.

إن اليسار الأوروبي تجاوز مجرد الاشتراك في النظر إلى الأوضاع من زاوية واحدة إلى وضع صورة مشتركة لمسيرة الثورة، بناءً على ما جرى عام 1789، مع إضافة لمسات له من العام 1830. فسوف تنشأ في تقديرهم أزمة في الشؤون العامة للدولة، وتؤدي، في وقت لاحق، إلى قيام التمرد. وقد تبددت، بصورة متزايدة، مصداقية الفكرة الكاربونارية الداعية إلى قيام النخبة بانقلاب أو تمرد، من دون أن يؤخذ بالاعتبار المناخ السياسي أو الاقتصادي (ولم تثبت هذه الفكرة إلا في البلدان الأيبيرية، بعد الفشل الذريع الذي منيت به عدة محاولات من هذا النوع في إيطاليا، كما حدث بين العامين 1833 و1834، والعامين 1841 و1845 على سبيل المثال، أو في المحاولات الانقلابية التي قام بها لويس نابليون ابن شقيق نابليون عام 1836). وستقام بعد ذلك المتاريس في العاصمة، وسيتوجه الثوار إلى القصر، والبرلمان أو (في حالة المتطرفين الذين يذكرون عام 1792) إلى مبنى البلدية، ويرفعون أي علم مثلث الألوان يكون في متناولهم، ويعلنون الجمهورية، ويؤلفون حكومة انتقالية. عندئذٍ، تتقبل البلاد الحكم الجديد (وكان ثمة قبول عام بالأهمية الحاسمة للعواصم، على الرغم من أن الحكومات لم تشرع بإعادة تخطيطها إلا بعد العام 1848 لتسهيل عمليات تصدي الجنود للثوريين).

وسيصار عند ذلك إلى تنظيم حرس وطني من المواطنين المسلحين، وستجري انتخابات ديمقراطية لجمعية تأسيسية، وستصبح الحكومة الانتقالية حكومة دائمة، كما سيصبح الدستور الجديد نافذ المفعول. وبعد ذلك، سيبدأ نظام الحكم الجديد بتقديم العون الأخوي للثورات الأخرى التي ستكون بالتأكيد قد اندلعت في تلك الأثناء، وسيكون ما يحدث بعد ذلك من مهمات ما بعد الثورة. وتقدم الأحداث التي جرت

في فرنسا بين العامين 1792 و1799 نماذج حية لما يتعين عمله أو تحاشيه. وقد تركز الاهتمام في أذهان أغلب اليعاقبة في أوساط الثوريين على حماية الثورة والدفاع عنها ضد القوى المحلية أو الأجنبية المعادية للثورة. ويمكن، على العموم، القول إن السياسي الأكثر ميلاً إلى اليسار هو الأكثر ميلاً إلى المبدأ اليعقوبي الداعي إلى المركزية والسلطة التنفيذية المتشددة مقابل مبادئ الجيرونديين حول الفيدرالية، واللامركزية أو الفصل بين السلطات.

ومما عزز هذه النظرة المشتركة النزعةُ الأممية التقليدية القوية التي استمرت حتى في أوساط القوميين الذين رفضوا القبول التلقائي بزعامة أية دولة؛ أي فرنسا أو العاصمة باريس. إن قضية جميع الشعوب واحدة، حتى لو صرفنا النظر عن حقيقة واضحة مؤداها أن تحرير أكثر الدول الأوروبية يعني، ضمناً، هزيمة المَلَكيات القيصرية. وفي إطار الإخاء الأممي، ستندثر التحيزات والأهواء الوطنية (التي "استغلتها السلطات في جميع العصور لقمع الشعوب"، كما كان يعتقد الديمقراطيون المتآخون). ولم تتوقف المحاولات الرامية إلى إقامة الهيئات والمنظمات الثورية الأممية، من "أوروبا الفتاة" التي أسسها مازيني لمواجهة الدويلات الكاربونارية ـ الماسونية القديمة، إلى "الرابطة الديمقراطية لتوحيد جميع البلدان" عام 1847. وفي أوساط الحركات القومية، كانت أهمية هذه النزعة الأممية آخذة بالتناقص مع حصول هذه الدول على استقلالها، في الوقت الذي تبين فيه أن العلاقات بين الشعوب لم تكن تتسم بالإخاء كما كان مفترضاً من قبل. وقد تزايدت قوة النزعة الأممية في الحركات الاجتماعية ـ الثورية التي تبنت التوجه البروليتاري، وغدت "الأممية"، بوصفها تنظيماً ونشيداً، جزءاً لا يتجزأ من الحركات الاشتراكية في وقت لاحق من القرن التاسع عشر.

كان النفي من العوامل العرضية التي عززت النزعة الأممية بين العامين 1830 و1848. فقد كان أغلب المناضلين السياسيين في اليسار

الأوروبي من المغتربين ممن تجمعوا باعتبارهم لاجئين أو طالبي لجوء على مدى عدة عقود في أماكن قليلة نسبياً، منها: فرنسا وسويسرا، وإلى حد أقل، بريطانيا وبلجيكا (وكانت الأمريكتان بعيدتين جداً عن الراغبين في الهجرة السياسية المؤقتة، على الرغم من انجذاب بعضهم إليهما). وكان القطاع الأكبر من هؤلاء المنفيين يتألف من المهاجرين البولنديين الذين نزحوا من بلادهم إثر هزيمة العام 1831، وتراوح عددهم بين خمسة آلاف وستة آلاف[26]؛ ثم من الإيطاليين والألمان (الذين تزايدت أعدادهم بفعل موجات كبيرة من المهاجرين غير السياسيين أو الجماعات المحلية المستقرة خارج أوطانها في بلدان أخرى). وبحلول الأربعينات من القرن التاسع عشر، كانت جماعات من المثقفين الروس الأثرياء قد تشربت الأفكار الثورية خلال جولاتها الدراسية في الخارج، أو سعيها للعيش في أجواء أكثر أماناً من البيئة التي جمعت في عهد نيكولا الأول (Nicholas I) بين الخوازيق والزنازين. كما انتشر الطلبة والمقيمون الأثرياء الوافدون من البلدان الصغيرة أو المتخلفة في المدينتين اللتين كانت كل منهما مركزاً للإشعاع الثقافي لشرقي أوروبا، وأمريكا اللاتينية والشرق: باريس، وبعدها بعدة أشواط، فيينا.

وفي مراكز اللجوء هذه، كان المهاجرون ينظمون أنفسهم، ويتنافسون، ويتخاصمون، ويتزاورون، ويندد بعضهم ببعض، ويخططون لتحرير أوطانهم أو بلدان أخرى. وأصبح البولنديون، وإلى حد أقل، الإيطاليون (وكان منهم غاريبالدي (Garibaldi) الذي حارب في المنفى من أجل تحرير عدد من بلدان أمريكا اللاتينية)، يمثلون الكتائب الأممية للمناضلين الثوريين. وكانت كل الانتفاضات وحروب التحرير التي شهدتها الفترة بين العامين 1831 و1871 منقوصة ما لم

(26) J. Zubrzycki, "Emigration from Poland in the 19th and 20th Centuries," *Population Studies*, vol. 6 (1952-1953), p. 248.

تعززها فرق من الخبراء العسكريين أو المحاربين البولنديين. ويصدق ذلك ـ كما يرى البعض ـ على التمرد المسلح الوحيد في بريطانيا خلال المرحلة الميثاقية عام 1839. ولم يقتصر الأمر على البولنديين، فإن مغترباً نموذجياً مهتماً بتحرير الشعوب هو هارو هارينغ (Harro Harring) الدانماركي الأصل (كما كان يزعم)، حارب على التوالي من أجل اليونان (1821)، وبولندا (1830ـ1831)، وانضم تحت زعامة مازيني إلى صفوف "ألمانيا الفتاة" و"إيطاليا الفتاة"، ثم "اسكندنافيا الفتاة" المشبوهة، ثم عبر المحيط للنضال من أجل ولايات متحدة في أمريكا اللاتينية، قبل أن يعود للمشاركة في ثورة العام 1848. وقد نشر في تلك الأثناء أعمالاً تحمل عناوين مثل "الشعوب"، و"قطرات من الدم"، و"كلمات إنسان"، و"قصائد من شاعر اسكندينافي"[27].

لقد جمع هؤلاء المغتربين والمترحلين مصيرٌ مشترك ومثالٌ أعلى مشترك، وعانى أكثرهم مشكلات الفقر والمطاردة البوليسية نفسها، والمراسلات غير المشروعة، والتجسس، ودسائس العملاء المحرضين المنتشرين في كل مكان. وكانت الملكيات المطلقة في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، شأنها شأن الفاشية بعد ذلك في الثلاثينات من القرن العشرين، بارعة في الربط بين أعدائها المشتركين. ومثلما كان الحال بعد نحو قرن من الزمان، فإن الشيوعية، التي وعدت بتقديم التفسيرات والحلول للأزمة الاجتماعية في العالم، اجتذبت المناضلين وذوي الفضول الثقافي إلى عاصمتها باريس، فأضافت بذلك سلسلة من المغريات إلى مواطن السحر في المدينة ("لولا النساء الفرنسيات، لما كانت الحياة تستحق العيش" (Mais tant qu'il y a des

(27) كان من سوء حظه أنه استعدى ماركس، الذي ألحق به العار على مر الزمان عندما خصص له جانباً من موهبته وقدرته على التشنيع المقذع في **عظماء في المنفى**، انظر: Karl Marx, "Die Grossen Maenner des Exils," in: Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz Verlag, 1960), vol. 8, pp. 292-298.

grisettes, va![28]. وفي مراكز اللجوء والهجرة هذه، شكل المهاجرون جماعات من المنفيين الوافدين، والدائمين في أغلب الأحيان، تخطط لتحرير الجنس البشري. ولم يكونوا يحبون بعضهم بعضاً أو يتفقون فيما بينهم على الدوام، أو يعترفون بأن مصيراً واحداً ينتظرهم. لقد كانوا يهيئون أنفسهم معاً، وينتظرون الثورة الأوروبية التي اندلعت ـ وأخفقت ـ عام 1848.

(28) "Engels to Marx in Brussels, 9 March 1847," *Karl Marx Frederick Engels: Collected Works*, vol. 38.

الفصل السابع

القومية

"لكل شعب رسالة خاصة، هي أن يسهم في تحقيق الرسالة العامة للإنسانية. وهذه الرسالة هي التي تكون قومية الشعب. والقومية مقدسة".

"قانون الإخاء" لدى "أوروبا الفتاة"، 1834.

"سيأتي يوم... تقف فيه جرمانيا، بكل مهابتها، على المنصة البرونزية التي تمثل الحرية والعدالة، وهي تحمل في إحدى يديها شعلة التنوير التي ستنشر أشعة الحضارة في أقصى أقاصي المعمورة، وتحمل في الأخرى ميزان الحكم بين الناس. وسيُهرع إليها الناس لتسوية ما بينهم من منازعات؛ وهم أنفسهم الناس الذين يؤكدون لنا الآن أن القوة هي الحق، وهم الذين يركلوننا بأحذية الاحتقار والازدراء".

من خطبة ألقاها سيبنفايفر (Siebenpfeiffer) في مهرجان هامباخ 1832.

I

بعد العام 1830، وقع الانشقاق، كما رأينا، في الحركة الثورية العامة. وتستحق إحدى النتائج المترتبة على هذا الانشقاق، وهي الحركات القومية الواعية لذاتها، اهتماماً خاصاً..

إن أبرز ما يمثل هذا التطور الحركات المسماة "الفتاة" التي أسسها أو أثر فيها جيوسيبي مازيني بعد ثورة 1830، ومنها: "إيطاليا الفتاة"، و"بولندا الفتاة"، و"سويسرا الفتاة"، و"ألمانيا الفتاة"، و"فرنسا الفتاة" (1831-1836)، ومثلها، في الأربعينات من ذلك القرن، "إيرلندا الفتاة"، وهي بمثابة السَّلَف للمنظمة الثورية الوحيدة الناجحة التي قامت على غرار النماذج الشائعة في مطلع القرن التاسع عشر للأخويات التضامنية، وهي منظمة "الفينانيين" أو "الأخوية الإيرلندية الجمهورية"، التي عرفت على نطاق أوسع باسم ذراعها التنفيذي، وهو "الجيش الجمهوري الإيرلندي". ولم تكن هذه الحركات مهمة بحد ذاتها؛ فقد كان مجرد ارتباطها بمازيني كافياً لإصابتها بالعجز التام وعدم الفاعلية. أما من الوجهة الرمزية، فقد كان لها أهمية بالغة؛ ذلك أنها تشير إلى تبني هذا الشعار في مرحلة لاحقة من جانب حركات قومية أخرى مثل "التشيك الفتاة" و"تركيا الفتاة". كما أنها تمثل دليلاً على تفكك الحركة الثورية الأوروبية إلى مسارات قومية منفصلة. ولا غرو في أن تماثلت البرامج والاستراتيجيات والخطوات التنفيذية لجميع هذه المسارات، بل تشابهت أيضاً الأعلام التي رفعتها وكانت في جميع الحالات تقريباً تشتمل، بشكل من الأشكال، على ثلاثة ألوان. ولم يكن أعضاؤها يرون أن ثمة تناقضاً بين مطالبهم ومطالب أية حركة قومية أخرى، بل إنهم آمنوا بالإخاء والتآخي فيما بينها، وبقدرتها جميعاً على تحرير نفسها في وقت واحد. ومن جهة أخرى، كانت كل منها تميل إلى تبرير اهتمامها بشعبها وأمتها في المقام الأول بأن تتبنى دور المخلص المنقذ لجميع الشعوب على السواء. فمن إيطاليا (بالنسبة إلى مازيني)،

وبولندا (في نظر ميكييفيتش (Mickiewicz))، ستبدأ دروب الحرية لجميع شعوب الأرض. واللافت أن السياسات المحافظة، بل الإمبريالية الاستعمارية، قد سلكت هذا النهج نفسه؛ ويتجلى ذلك في إعلاء السلافيين الروس من شأن "روسيا المقدسة"، أو موقف المؤمنين بروما الثالثة، والألمان الذين أسهبوا في إبلاغ شعوب العالم في وقت لاحق أن الروح الألمانية ستقدم لها العلاج الناجح. والواقع أن هذا الالتباس في مفهوم القومية يعود في أصوله إلى الثورة الفرنسية؛ ففي تلك الأيام، كانت ثمة ثورة عظيمة واحدة، ودولة ثورية واحدة، ومنطلق واحد لجميع الثورات، ومحرك محوري وحيد لحركات التحرير في العالم أجمع. وكان الاستهداء بباريس أمراً عقلانياً صائباً. أما الاسترشاد الملتبس بما يدور في إيطاليا، أو بولندا، أو ألمانيا (على أيدي حفنة من المهاجرين المتضامنين)، فلم يكن يعني الكثير إلا للإيطاليين، والبولنديين، والألمان.

ولو كان الدور الثوري وقفاً على العضوية في تلك الأخويات القومية ـ الثورية، لما كانت تستحق المزيد من الاهتمام. غير أنها انعكست في ظهور قوى أكثر نفوذاً وقدرة كانت تتبلور في الوعي السياسي في الثلاثينات من القرن التاسع عشر نتيجة للثورة المزدوجة. وكانت الظاهرة الأكثر قوة من الناحية المباشرة تتمثل في سخط ملاّك الأراضي الصغار أو الوجهاء، وبزوغ طبقة وسطى أو شريحة دنيا من طبقة وسطى وطنية في العديد من الدول، وكان الناطق بلسان هاتين الفئتين هم المثقفون المهنيون في أكثر الأحيان.

وربما تبدى الدور الثوري للوجهاء الصغار في أجلى صورة في بولندا وهنغاريا. فقد ارتأى كبار الملاّك في هذين البلدين منذ زمن بعيد أن يتصالحوا مع الحكم المطلق ومع السيطرة الأجنبية. وكان الأساطين الهنغاريون من الكاثوليك على العموم، وقد ترسخت مكانتهم في الحياة العامة بوصفهم من أعمدة البلاط في مجتمع فيينا، ولم ينضم إلى ثورة

1848 إلا قلة قليلة منهم. وقد نفخت الأيام المجيدة الماضية روحاً ثوريةً حتى في أصحاب المال والمكانة. غير أن الأكثر نفوذاً بين الأحزاب شبه القومية، وهو تجمع القيصريين الذي غدا يعمل الآن من "أوتيل لامبير" في باريس، كان دائماً يميل إلى التحالف مع روسيا، ويفضل العمل الدبلوماسي على الثورة. وكان المنتسبون إلى هذه الحركات، من الوجهة الاقتصادية، من الأثرياء القادرين على نيل متطلباتهم، مع الاقتصاد في الإنفاق، وحتى على الاستثمار بصورة كافية في تحسين أراضيهم الزراعية للانتفاع إذا شاؤوا من التوسع الاقتصادي في تلك الفترة. وقد قام الكونت زيشيني (Széchenyi)، وهو واحد من الليبراليين المعتدلين من هذه الطبقة ومن دعاة النمو الاقتصادي، بتقديم دخل عام كامل، هو نحو ستين ألف فلورين، للأكاديمية الهنغارية الجديدة للعلوم. وليس ثمة ما يشير إلى أن مستوى المعيشة لديه قد تضرر جراء هذا التبرع الكريم. ومن جهة أخرى، فإن العديد من الوجهاء الذين لم يكن لديهم، باستثناء مولدهم، ما يميزهم عن المزارعين الفقراء الآخرين (وكان ثُمْن السكان في هنغاريا يدّعون لأنفسهم مكانة الوجهاء) كانوا يفتقرون إلى مال يستثمرونه ليزيدوا أرباحهم، وإلى الرغبة في منافسة الألمان واليهود للحصول على ثروة الطبقة الوسطى. وإذا لم يكن بوسعهم أن يعيشوا معيشة لائقة جراء ما يتقاضونه من أجور، وحيث إنهم حرموا من الجندية، فإنهم يستطيعون، إذا توفرت لديهم الرغبة والعلم أن يمارسوا المهن القانونية، والإدارية، أو أن يتولوا الوظائف الثقافية، ولكن خارج الأنشطة التي يحتكرها البورجوازيون. لقد كان هؤلاء الوجهاء هم القلعة الحصينة لمعارضة الحكم المطلق، وللغرباء وحكم أصحاب السلطة والنفوذ في بلدانهم، ويتسترون، كما كانت الحال في هنغاريا، وراء حائط مزدوج من الكالفينية وتنظيم المقاطعات، وكان طبيعياً أن تصب في التيار القومي مواقف المعارضة والسخط لدى هؤلاء الوجهاء وتطلعهم إلى مزيد من الوظائف والمناصب.

ومن المفارقات أن النزعة القومية لدى طبقات أصحاب الأعمال

المحلية كانت في تلك الفترة أقل حدة مما كانت لدى الفئات الأخرى. ولا شك في أن وجود سوق واسعة موحدة كان يحمل الكثير من الميزات في دولتين مجزأتين مثل ألمانيا وإيطاليا. ولننظر إلى ما كان يتغنى به في تلك الأيام مؤلف نشيد **ألمانيا فوق الجميع** (*Deutschland über Alles*): لحم الخنزير والمقصات، والأحذية وربطات الساق، والصوف، والصابون، والقطن المغزول، والجعة[1]. قد حققت هذه العناصر ما عجزت عن تحقيقه النزعة القومية، إذ خلفت نوعاً من الوحدة الوطنية الحقيقية من خلال الوحدة الجمركية. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن ثمة دليل على أن أصحاب السفن على سبيل المثال، في جنوا (الذين قدموا فيما بعد الكثير من الدعم المالي لغاريبالدي)، كانوا يفضلون سوقاً وطنية إيطالية على الازدهار التجاري الواسع الذي تحمله التجارة في حوض البحر المتوسط. وقد تتذمر من هذا التمييز النُّوّيات الصناعية والتجارية التي نشأت في مقاطعات معينة في الإمبراطوريات الشاسعة المتعددة القوميات. إلا أنها كانت، في أعماقها، تفضل على نحو واضح الأسواق العريضة المفتوحة أمامها آنذاك على الأسواق الصغيرة التي ستنجم عن الاستقلال الوطني في المستقبل. ولم يسهم أقطاب الصناعة البولنديون، الذين فتحت أمامهم أبواب روسيا كلها على مصاريعها، بأي دور ملموس في الحركة القومية البولندية حتى ذلك الحين. وعندما أعلن بالاكي (Palacky)، نيابة عن التشيك، أنه "لو لم تكن النمسا موجودة، لتوجّبَ خلقُها"، فإنه لم يكن يدعو الملكية إلى مساندة شعبه ضد الألمان، بل كان يعبر عن تحليل اقتصادي سليم للقطاع الأكثر تقدماً من الناحية الاقتصادية في إمبراطورية واسعة يغلب عليها التخلف في جميع النواحي الأخرى. وكانت المصالح الاقتصادية تتصدر المطامح القومية، كما هي الحال في بلجيكا حيث كانت جماعة

---

(1) Hoffmann von Fallersleben, "Der Deutsche Zollverein," in: Hoffmann von Fallersleben, *Unpolitische Lieder*.

من الرواد الصناعيين تعتبر نفسها، لأسباب مشكوك فيها، مهضومة الحقوق في ظل سيطرة جماعات التجار الهولنديين التي أُلحقت بها عام 1815. إلا أن هذه كانت حالة استثنائية.

كان أبرز الداعين إلى قومية الطبقة في تلك المرحلة من الشرائح الدنيا والوسطى من المهنيين، والإداريين، والمثقفين، أي من الفئات المتعلمة (وهم لا يمتازون، بالطبع عن طبقات أصحاب الأعمال التجارية، ولا سيما في البلدان المتخلفة، حيث يكون مديرو العقارات، والكتاب العدول، والمحامون وأمثالهم هم الذين تتراكم لديهم الثروة من الأرياف). وبعبارة أدق، فإن طلائع الحركة القومية لدى الطبقة الوسطى قد خاضت المعركة وشقت طريقها وفقاً للخطوط التي حددت تقدم التعليم في أوساط أعداد غفيرة من "الرجال الجدد" ممن دخلوا ميادين كانت، حتى ذلك الحين، من نصيب صفوة صغيرة. ويعتبر تقدم المدارس والجامعات مقياساً لتقدم التيار القومي، مثلما تعتبر المدارس، ولا سيما الجامعات، المراكز الواعية للدعوة القومية. وقد سبق النزاع بين ألمانيا والدانمارك حول شليزفيغ - هولشتين عام 1848، ثم عام 1864 ومهّد له نزاع بين جامعتي كييل وكوبنهاغن حول القضية نفسها في الأربعينات من ذلك القرن.

وكان التقدم مذهلاً، مع أن عدد "المتعلمين" الإجمالي ظلَّ قليلاً. لقد تضاعف عدد التلاميذ في مدارس الليسيه الحكومية في فرنسا في الفترة الواقعة بين العامين 1809 و1842، وتزايد بسرعة فائقة في ظل ملكية تموز/ يوليو، إلا أنه ظل أقل من 19 ألفاً عام 1842 (وكان عدد من يتلقون التعليم الثانوي آنذاك[2] نحو 70 ألفاً). وعام 1850، كان في روسيا نحو 20 ألفاً من تلامذة المدارس الثانوية من أصل عدد السكان

---

(2) Georges Weill, *Histoire de l'enseignement secondaire en France (1802-1920)* (Paris: Payot, 1921), p. 72.

الإجمالي الذي بلغ ثمانية وستين مليون نسمة[3]، وكان عدد طلبة الجامعات أقل من ذلك بالطبع، مع أنه كان في تزايد. ويصعب أن ندرك أن شباب المعاهد الأكاديمية البروسية الذين هاجمتهم فكرة التحرر بعد العام 1805 لم يتجاوز عددهم ألفاً وخمسمئة طالب، وأن عدد الدارسين في "البوليتكنيك"، الذي كان من العوامل التي قوضت حكم أسرة البوربون بعد العام 1815، كان ألفاً وخمسمئة وواحداً وخمسين شاباً في الفترة الواقعة بين العامين 1815 و1830، أي ما معدله مئة طالب في السنة. ولا يغرب عن البال، أن العدد الإجمالي لطلبة الجامعات في القارة الأوروبية بأكملها، حتى في الجزر البريطانية غير الثورية، لم يكن في غمرة المد الثوري الطلابي عام 1848، يزيد على 40 ألفاً[4]. وقد ظلت هذه الأعداد في تزايد، وارتفعت في روسيا من 1700 عام 1825 إلى 4600 عام 1848. وحتى لو لم ترتفع، فإن التحولات التي طرأت على المجتمع والجامعات[5] قد ولّدت فيها وعياً جديداً لذاتها بوصفها فئة اجتماعية. وليس ثمة من يتذكر أن جامعة باريس كانت تضم نحو ستة آلاف طالب؛ لأنهم لم يقوموا بأي دور مستقل في الثورة[6]. إلا أنه لا

---

(3) Emile Louis Victor Laveleye, *L'Instruction du peuple* (Paris: Hachette et cie, 1872), p. 278.

(4) Friedrich Paulsen, *Geschichte des Gelehrten Unterrichts auf den Deutschen und Schulen Universitäten vom Ausgang des Mittelalters bis zur Gegenwart*, 2 vols., Mit Besonderer Rücksicht auf den klassischen Unterricht, 2., Umgearb. und sehr Erweiterte Aufl. (Leipzig: Veit and Comp., 1896-1897), vol. 2, p. 703, et Adeline Daumard, "Les Elèves de l'école polytechnique, 1815-1848," *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, vol. 5 (1958).

في الأربعينات من القرن التاسع عشر، كان العدد الإجمالي للطلبة الألمان والبلجيك في الفصل الدراسي، على المعدل، أربعة عشر ألف طالب. انظر: D. Conrad, "Die Frequenzverhaltnisse der Universitaten der Hauptsach Lichsten Kulturlander," *Jahrbücher Für Nationalökonomie und Statistik*, vol. LVI (1895), pp. 376 ff.

(5) انظر الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب.

(6) Louis Liard, *L'Enseignement supérieur en France: 1789-1889*, 2 vols. =

يمكن تجاهل هذا العدد من طلبة المعاهد الأكاديمية بحلول العام 1830.

وبوسع النخب الصغيرة أن تعمل وتنشط من خلالها معرفتها بلغات أجنبية. وما إن تتسع الكوادر المتعلمة وتكبر بما فيه الكفاية، حتى تفرض اللغة القومية نفسها (ويتجلى ذلك في النضال من أجل إقرار اللغات المحلية في الولايات الهندية منذ الأربعينات من القرن العشرين). من هنا، فإن اللحظة التي تكتب فيها الصحف والكتب المدرسية باللغة القومية، أو تستخدم فيها هذه اللغة بصورة رسمية للمرة الأولى، تشكل خطوة حاسمة في التطور الوطني. وقد اتخذت مثل هذه الخطوات في مناطق واسعة من أوروبا بحلول الثلاثينات من القرن التاسع عشر. وهكذا، وضعت أو استكملت خلال ذلك العقد بواكير الأعمال التشكيلية في الفلك، والكيمياء، والأنثروبولوجيا، وعلوم المعادن، والنبات. وكذلك كان الأمر في رومانيا، حيث أُلفت الكتب المدرسية الأولى باللغة الرومانية لتحل محل اليونانية، كما استعيض بالهنغارية عن اللاتينية بوصفها اللغة الرسمية في مجلس الشعب "الدييت" عام 1840، مع أن جامعة بودابست، التي يجري الإشراف عليها من فيينا، لم تتخلَّ عن المحاضرات باللاتينية إلا عام 1844 (مع أن الكفاح من أجل اعتماد الهنغارية لغةً رسميةً كان قد استمر بصورة متقطعة منذ العام 1790). وفي زغرب، نشرت مجلة **الغازيت الكرواتية** (*Croatian Gazette*) (التي صدرت فيما بعد باسم **الغازيت الإليرية الوطنية** (*Illyrian National Gazette*)) اعتباراً من العام 1835 في أول صياغة أدبية لما كان حتى ذلك الحين مجرد تجميع مركب لعدد من اللهجات المحلية. ومن الصعب قياس التغيير في البلدان التي كانت لها لغات رسمية آنذاك، وعلى الرغم من أن اللافت أن عدد الكتب الصادرة في ألمانيا بالألمانية (مقابل الكتب اللاتينية والفرنسية) أصبح

= (Paris: A. Colin, 1888-1894), pp. 11 ff.

للمرة الأولى بعد العام 1830 يتجاوز 90 في المئة، بينما انخفضت نسبة المنشور بالفرنسية إلى أقل من 4 في المئة[7]. ويعطينا توسع النشر مؤشرات مقارنة على العموم. ففي ألمانيا، ظل عدد الكتب المنشورة عام 1821 مثلما كان عليه عام 1800 في حدود أربعة آلاف عنوان. إلا أنه ارتفع عام 1841 إلى اثني عشر ألفاً[8].

وبالطبع، كانت الأغلبية العظمى من الأوروبيين، وغير الأوروبيين، غير متعلمة. ولا يمكننا، في واقع الأمر، أن نصف أياً من الشعوب بأنها كانت متعلمة عام 1840، ما عدا الألمان، والهولنديين، والاسكندينافيين، ومواطني الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن أن نصف بعضاً منها بالأمّيّة، مثل السلافيين الجنوبيين الذين لم تكن نسبة من يحسنون القراءة والكتابة بينهم عام 1847 تتجاوز واحداً في المئة (بل إن نسبة الدلماسيين الذين كانوا يجندون في الجيش النمساوي كانت، في وقت لاحق، واحداً في المئة)، أو مثل الروس الذين كانت نسبة غير الأميين بينهم اثنين في المئة (1840). كما أن السكان في بلدان عديدة أخرى كانوا شبه أميين مثل: الإسبان، والبرتغاليين (الذين كان لديهم ثمانية آلاف طفل فحسب في جميع المدارس بعد حرب شبه الجزيرة)، والإيطاليين، باستثناء أهل لومبارديا وبيدمونت. بل إن نسبة الأميين حتى في بريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا، كانت في الأربعينات من القرن التاسع عشر تتراوح بين 40 و50 في المئة[9]. ولا تشكل الأمية عائقاً في سبيل الوعي السياسي، غير أنه ليس ثمة مؤشرات على أن القومية

---

(7) في مطلع القرن الثامن عشر، طبع أقل من 60 في المئة فقط من الكتب المنشورة في ألمانيا باللغة الألمانية؛ وارتفعت هذه النسبة بصورة مطردة منذئذٍ. انظر: Paulsen, *Geschichte des Gelehrten Unterrichts auf den Deutschen und Schulen Universitäten vom Ausgang des Mittelalters bis zur Gegenwart*, vol. 2, pp. 690-691.

(8) *Handwörterbuch der Staatswissenschaften*, Hrsg. von dr. J. Conrad [et al.], 2. Gänzlich Umgearb. Aufl. (Jena: G. Fischer, 1898-1901), Art. Buchhandel.

(9) Laveleye, *L'Instruction du peuple*, p. 264.

بالمعنى الحديث للمصطلح كانت تياراً جماهيرياً قوياً إلا في البلدان التي طالتها الثورة المزدوجة وهي: فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وكذلك في إيرلندا بحكم تبعيتها الاقتصادية والسياسية لبريطانيا.

إن ربط القومية بالطبقة الوسطى المتعلمة لا يعني أن جمهرة الروس، على سبيل المثال، لم تكن تعتبر نفسها روسية إذا واجهت قوى أو فئات مغايرة لها. غير أن مقياس القومية بالنسبة للجماهير، بصورة عامة، كان يكمن في الدين؛ إذا كان الإسبان يعرفون بأنهم كاثوليك، والروس أرثوذكس. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن المواجهات بين الشعوب أصبحت أكثر توتراً، فإنها ظلت نادرة الوقوع. ولم تكن أنواع من الشعور القومي غريبة تماماً عن الأغلبية العظمى من جماهير الناس، مثل الإيطاليين، التي لم تكن تتكلم اللغة الوطنية الأدبية، بل اللهجات المحلية التي كان يصعب التفاهم بها بين جماعة وأخرى. وحتى في ألمانيا، فإن الأساطير التي تتحدث عن حب الوطن كانت تعاني التشديد على درجة الشعور الوطني ضد نابليون. وكان لفرنسا شعبية بالغة غربي ألمانيا، ولا سيما بين الجنود الذين استخدمتهم على نطاق واسع[10]. وكان بوسع السكان المتعلقين بالبابا أو الإمبراطورية أن يعبروا عن غضبهم على الأعداء، الذين كانوا فرنسيين، غير أن ذلك لم يتضمن إحساساً بالوعي الوطني، ناهيك عن الرغبة في إقامة دولة قومية. وعلاوة على ذلك، فإن ارتباط النزعة القومية بالطبقة الوسطى والوجهاء كان يثير المخاوف في نفوس الفقراء. فقد حاول الثوريون الراديكاليون البولنديون، مثلما فعل الكاربوناريون والمتآمرون الآخرون في جنوب إيطاليا، بحماس استمالة الفلاحين وحشدهم عن طريق التعهد بإجراء الإصلاح الزراعي. وكان إخفاقهم في هذا المجال كاملاً تقريباً. وعام

(10) Wilhelm Wachsmuth, Europäische Sittengeschichte vom Ursprunge Volksthümlicher Gestaltungen bis auf Unsere Zeit (Leipzig: F. C. W. Vogel, [s. d.]), vol. V, 1-2: *Das Zeitalter des Kirchenstreits*, 1839, pp. 807-808.

1846، عارض الفلاحون في غاليقيا الثوريين البولنديين على الرغم من أن هؤلاء الثوريين قد ألغوا نظام الرق، وآثر الفلاحون أن يضعوا ثقتهم في موظفي الإمبراطور الرسميين.

إن اقتلاع الشعوب من جذورها، وهو الذي قد يكون الظاهرة الأكثر أهمية في القرن التاسع عشر، كان يعني انقراض هذه الروح التقليدية المحلية القديمة العميقة الغور. غير أن الناس في أكثر أرجاء العالم حتى العشرينات من القرن التاسع عشر لم يكونوا يهاجرون من بلدانهم أو إلى بلدان أخرى، إلا عندما يرغمهم على ذلك الجيش أو الجوع، أو في حالة الجماعات المهاجرة، تقليدياً، مثل الفلاحين المهاجرين من وسط فرنسا ممن درجوا على العمل في مجالات الإنشاءات الموسمية في الشمال، أو الفنانين الحرفيين الألمان الجوالين. ولم يكن الاقتلاع يعني الوُطان أو الحنين إلى البلد الأصلي الذي أصبح المرض النفسي الشائع في القرن التاسع عشر (وعبرت عن أغانٍ عاطفية شعبية لا حصر لها)، بل كان يعني شعوراً مرضياً أكثر حدة، ووجعاً في القلب اكتشفه الأطباء للمرة الأولى في أوساط السويسريين المرتزقَة القدامى في بلدان أجنبية، وقد كشفه التجنيد في الحروب الثورية، ولا سيما في أوساط البريطانيين. وكان الانجذاب والتعلق بغابات الشمال النائية من القوة بحيث تهجر إحدى الخادمات الإستونيات الخدمة الممتازة لدى مخدوميها في سكسونيا، حيث تتمتع بالحرية، وتعود إلى حياة السخرة والرق في موطنها الأصلي. وقد تزايدت موجات الهجرة، التي برزت في أجلى مظاهرها بالهجرة إلى الولايات المتحدة، وتعاظمت، بصورة خاصة، اعتباراً من العشرينات، مع أنها لم تبلغ أعلى مستوياتها إلا في الأربعينات من القرن التاسع عشر، عندما عبر شمال الأطلسي نحو ثلاثة أرباع المليون من المهاجرين (مما يعادل ثلاثة أضعاف العدد في الثلاثينات). وعلى الرغم من ذلك، كانت ألمانيا هي مصدر الهجرة الرئيسي الأول بعد الجزر البريطانية، وظلت ترسل أبناءَها الفلاحين المستوطنين إلى شرق أوروبا وأمريكا، والحرفيين الفنيين الجوالين عبر

القارة الأوروبية، والمرتزقة إلى كل مكان آخر.

وبوسعنا، في الواقع، أن نتحدث عن حركة وطنية منظمة متماسكة واحدة كانت قبل العام 1848 تعتمد على الجماهير، وتتمتع بميزة كبرى هي التماهي مع الكنيسة، وهي أقوى المؤسسات وأكثرها حفاظاً على التقاليد. وقد تمثل هذا التيار في "حركة الإلغاء الإيرلندية" بزعامة دانيال أوكونل (Daniel O'Connell) (1785ـ1847)، وهو محام غوغائي مفوّه وفلاح أصلي، وهو الوحيد، حتى العام 1848، من القادة الشعبيين القادرين على استهواء الجماهير المتخلفة وإيقاظ الوعي السياسي في أوساطها، ولا يضاهيه في ذلك إلا إيرلندي آخر هو فيرغوس أوكونور (Feargus O'Connor) (1794ـ1855)، الذي كان يرمز إلى الميثاقيين في بريطانيا، وربما لويس كوسوث (Louis Kossuth) (1802ـ1894) الذي كان قد حظي بقدر من الاحترام في أوساط الجماهير قبل ثورة 1848، مع أن سمعته خلال الأربعينات من ذلك القرن كانت ترتكز على دوره باعتباره زعيماً للوجهاء. وقد أسبغ عليه المؤرخون القوميون من التكريم في وقت لاحق ما يصعب معه تقدير نشاطه المبكر بصورة واضحة. وقد نالت "الرابطة الكاثوليكية" التي أسسها أوكونور، المساندة الجماهيرية ودعم رجال الدين ـ الذي لم يكن مبرراً تماماً ـ خلال الكفاح الناجح من أجل تحقيق "الانعتاق الكاثوليكي" (1829). ولم يكن هذا مرتبطاً بأية صورة بالوجهاء، الذين كانوا، على أية حال، من الانجليز الإيرلنديين البروتستانت. ولقد كانت حركة من الفلاحين، ومن عناصر الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى التي كانت آنذاك في تلك الجزيرة المعوزة. وقد انتقل "المحرر" إلى دفة القيادة على أكتاف موجات من الحركات الجماهيرية في الثورة الزراعية، وهي الباعث الرئيسي المحرك للحياة السياسية الإيرلندية خلال هذا القرن المفزع، وقد نُظمت على هيئة جمعيات إرهابية سرية أسهمت، بدورها، في إخفاء المرونة والانفتاح على العقلية التقليدية الضيقة في الحياة الإيرلندية. إلا أن أوكونور لم يكن يهدف إلى الثورة ولا إلى

الاستقلال الوطني، بل إلى استقلال ذاتي معتدل للطبقة الوسطى عن طريق الاتفاق أو التفاوض مع حزب الويغ/ الأحرار البريطاني. والحقيقة إنه لم يكن قومياً في نظرته، ولا ثورياً فلّاحياً، بل كان زعيماً معتدلاً يطالب بالحكم الذاتي وفقاً لما تتطلع إليه الطبقة الوسطى. بل إن النقد الأساسي المبرَّر الذي أنحى به القوميون الإيرلنديون في وقت لاحق عليه (وعلى غرار النقد الذي وجهه القوميون الهنود على نحو أكثر حدة إلى غاندي (Gandhi) الذي يحتل مكانة مماثلة في تاريخ بلاده) هو أنه كان قادراً على إثارة إيرلندا برمتها ضد البريطانيين، ولكنه رفض ذلك عن سابق تدبير. غير أن ذلك لا يبدل شيئاً في حقيقة أن الحركة التي تزعمها كانت تتمتع بمساندة جماهيرية حقيقية من الشعب الإيرلندي.

II

ظهرت، خارج نطاق العالم البورجوازي الحديث، حركات تمرد شعبي على الحكم الأجنبي (الذي يعني في هذه الحالة حكماً من جانب دين مختلف لا قومية مختلفة). وكانت هذه الحركات تمهد أحياناً لحركات وطنية لاحقة، وكان منها حركات التمرد على الإمبراطورية التركية، وعلى الروس في القوقاز، والحرب على الحكم البريطاني الداهم داخل الهند وعلى حدودها. ويجدر بنا أن لا نغالي في تأكيد الطابع القومي لهذه الحركات بالمعنى الحديث لهذا المفهوم، على الرغم من أنها، خلافاً للحركات النخبوية في البلدان الأقل تغنّياً بالبطولات، قد تكون في المناطق المتخلفة لمقاومة الحكم الأجنبي (أو حكم الكفار) حروباً شعبيةً حقيقيةً يشنها الفلاحون وأصحاب القطعان المكافحون المسلمون والجماعات العشائرية المنظمة بزعامة شيوخ القبائل وأبطال قطاع الطرق أو بوحي من تعاليم الدين. والواقع أن مقاومة المهاراتيين (وهم جماعة إقطاعية عسكرية هندوسية) والسيخ (وهم مجموعة دينية عسكرية) للبريطانيين في الفترة بين العامين 1803 و1818 ومن 1845 إلى 1849 على التوالي تمتُّ بصلة كبيرة للحركة القومية الهندية اللاحقة، كما أنها لم تولّد

مواقف قومية خاصة بها[11]. وقد وجدت قبائل القوقاز المتوحشة المشحونة بروح البطولة المتعطشة لأخذ الثأر في طائفة "المريدين" الطهرانية المسلمة، رابطاً مؤقتاً للوحدة فيما بينها ضد الغزاة الروس، وتوسمت في شامل (1797ـ1871) زعيماً قادراً على قيادتها. ولكننا لا نعثر اليوم على أمة قوقازية واحدة، بل على مجموعة من التجمعات السكانية الجبلية في جمهوريات سوفياتية صغيرة (ولم يشارك الجورجيون والأرمن، الذين كوّنوا أمماً بالمعنى الحديث، في حركة شامل). كما أن البدو، الذين انتشرت بينهم دعوات طوائف دينية طهرانية مثل: الوهابية في شبه الجزيرة العربية، والسنوسية في ما أصبح يعرف الآن بليبيا، حاربت في سبيل الله، ومن أجل العودة إلى حياة أكثر بساطة، مثلما حارب أصحاب قطعان المواشي غارات المغيرين، وفساد الضرائب، والباشوات والمدن. غير أن القومية العربية التي نعرفها الآن هي وليدة القرن العشرين ـ وقد نشأت وترعرعت في المدن، لا في مضارب البدو.

إن حركات التمرد ضد الأتراك في البلقان، ولا سيما في أوساط السكان الجبليين الأقوياء الشكيمة في الشمال والغرب هي من النوع الذي لا يمكن تفسيره باستخدام مصطلحات حديثة لمفهوم القومية، على الرغم من أن العديد من الشعراء والمقاتلين الشجعان ـ وهم يمثلون أمراً واحداً في كثير من الأحيان كما هي الحال في الشعراء ـ المحاربين

(11) ظلت حركة السيخ نسيج وحدها، إلى حد بعيد، حتى وقتنا الحاضر. فقد جعلت التقاليد النضالية للمقاومة الهندية في ماهاراشترا من هذه البقعة مركزاً مبكراً للقومية الهندية، وأنتجت بعضاً من أوائل القيادات ذات الصبغة التقليدية مثل ب. ج. تيلاك؛ غير أن ذلك اتسم بطابع إقليمي في أحسن حالاته، ولم يتمتع بالسيطرة على الحركة. وقد تظهر اليوم بعض الحركات الشبيهة بالنزعة القومية الماهاراتية، غير أن قاعدتها الاجتماعية تتمثل في مقاومة الطبقة العاملة العريضة والشرائح الدنيا من الطبقة الوسط الماهاراتية المستضعفة ضد الفئات الكوجيراتية التي حافظت على هيمنتها الاقتصادية، وإلى عهد قريب، اللغوية.

الأساقفة في مونتنيغرو - يتغنون بأمجاد الأبطال شبه الوطنيين مثل سكاندنبيرغ الألباني، وبالمآسي التي حلت بالصربيين إثر هزيمتهم في معارك مغرقة في القدم على يد الأتراك. فلم يكن ثمة أمر أسهل من التمرد، عند الضرورة أو توفر الرغبة، على الإدارة المحلية، أو خوض معارك في أماكن نائية ضد الإمبراطورية التركية المتداعية. غير أن التخلف كان هو الصفة المشتركة التي تجمع سكان ما أصبح يعرف بيوغوسلافيا، بمن فيهم من كانوا يعيشون في الإمبراطورية التركية. وكان مفهوم يوغوسلافيا نتيجة لتصورات المثقفين في هنغاريا - النمسا، لا محصلة لنضال المحاربين من أجل الحرية[12]. وقد خاض أهالي مونتينيغرو الأرثوذكس الذين عرفوا بصعوبة المراس، ضد "الكفار" الكاثوليك الألبان، وكذلك "الكفار" من المسلمين البوزنيين السلافيين. كما ثار البوزنيون، وبينهم مسلمون كثر، ضد الأتراك بالجسارة نفسها التي قاتلوا بها ضد الصربيين الأرثوذكس في غابات سهول الدانوب، بل وبحماس أكبر مما حاربوا به "قدامى الصربيين" في مناطق الحدود الألبانية. وكان الصربيون من أوائل البلقانيين الذين ثاروا في القرن التاسع عشر بزعامة بلاك جورج (Black George) (1760-1817) تاجر الخنازير قاطع الطريق، إلا أن المرحلة الأولى من تمرده (1804-1807) لم تكن موجهة ضد السلطان، بل نيابة عنه ضد فساد الحكام المحليين. وليس في التاريخ المبكر للتمرد في المناطق الجبلية في غرب البلقان ما يشير إلى أن السكان المحليين من الصربيين، والألبان، واليونانيين وغيرهم لن يرضوا في أوائل القرن التاسع عشر بمقاطعة مستقلة ذاتياً لا

---

(12) الجدير بالملاحظة أن النظام اليوغوسلافي [في الستينات من القرن العشرين] قد حطم ما كان يعرف بالدولة الصربية وقسمها إلى جمهوريات ووحدات من القوميات الفرعية في صربيا، وبوسنيا، ومونتينيغرو، ومقدونيا، وكوسوفو - ميتوهيدجا. وإذا أخذنا بالاعتبار المعايير اللغوية للقومية في القرن التاسع عشر، فإن أكثر هذه الوحدات تنتمي إلى شعب "صربي" واحد، باستثناء المقدونيين الأقرب صلة بالبلغار، والأقلية الألبانية في كوسمت. غير أنها لم تتطور على الإطلاق إلى قومية صربية واحدة.

تقوم على أساس قومي، تحت إمرة حاكم قوي مثل علي باشا (Ali Pasha)، "أسد جانينا" (1741ـ1822) الذي استقر حكمه في إيبيروس فترة من الزمان.

ولم يحدث أن الحرب الأبدية التي كان يخوضها أصحاب الماشية من شيوخ العشائر وقطاع الطرق المغاوير ضد أية حكومة فعلية قد خالطتها أفكار الطبقة الوسطى والثورة الفرنسية عن القومية، إلا في حالة واحدة وحيدة هي حرب اليونان في سبيل الاستقلال (1821ـ1830). من هنا أصبحت اليونان في نظر القوميين والليبراليين أسطورة ومصدراً للإلهام في كل مكان. فلم يحدث إلا في اليونان أن هب الشعب بأكمله في وجه قوى الاحتلال والقمع، بصورة مطابقة لتصور اليسار الغربي بهذا الصدد. وقام الدعم الذي قدمه اليسار الأوروبي، بزعامة الشاعر بايرون (Byron) الذي توفي في اليونان، بدور كبير في تحقيق الاستقلال لليونان.

كان أغلب اليونانيين قريبي الشبه بالفلاحين ـ المحاربين المنسيين الآخرين والعشائر في شبه الجزيرة البلقانية. غير أن جانباً منهم شكلوا طبقة عالمية من التجار والمديرين استقرت على شكل أقليات أو مستعمرات في عدة مناطق في الإمبراطورية التركية وخارجها. وكانت الكنيسة الأرثوذكسية التي ينتسب إليها أكثرية أهل البلقان ويرأسها بطريرك يوناني في اسطنبول، تستعمل اللغة اليونانية، وتستخدم اليونانيين ليشغلوا المناصب والوظائف العليا فيها. وتولى الموظفون المدنيون اليونان، الذين تحولوا إلى أمراء تابعين، حكم المقاطعات الدانوبية (أي رومانيا الآن). وقد غلب الطابع اليوناني على جميع الطبقات المتعلمة والتجارية في البلقان، ومنطقة البحر الأسود، والشرق، بحكم طبيعة نشاطها، بصرف النظر عن أصولها القومية. وقد تزايدت قوة هذا التطبّع بالطابع الهيليني خلال القرن الثامن عشر أساساً بسبب التوسع الاقتصادي الكبير الذي وسع بدوره نطاق التواصل الذي يتحرك فيه

اليونانيون في الشتات. فقد حملتهم تجارة الحبوب الجديدة المزدهرة إلى المراكز التجارية الإيطالية والفرنسية والبريطانية، وعززت من علاقاتهم مع روسيا. كما أن التوسع التجاري في البلقان خلق الروابط بين التجار اليونانيين أو المتيوْنِنين من جهة وأوروبا الوسطى من جهة أخرى. ونشرت أوائل الصحف اليونانية في فيينا (1784ـ1812). كما أن موجات الهجرة والاستيطان الدورية للفلاحين المتمردين زادت من نفوذ الجماعات اليونانية في المنفى. وفي أوساط هذا الشتات في المدن الكبرى، انتشرت ورسخت أفكار الثورة الفرنسية حول الليبرالية والقومية وأساليب التنظيم السياسي عن طريق الجمعيات الماسونية السرية. وكان ريغاس (Rhigas) (1760ـ1798)، وهو زعيم حركة ثورية مغمورة، وربما ذات أفق قومي بلقاني، يتحدث بالفرنسية، كما أنه قام بتعديل نشيد "المارسيلييز" ليناسب الظروف الهيلينية. وعام 1814 أسست في أوديسا، ميناء الحبوب الروسي الجديد الضخم، جمعية "فيلكي هيتايريا" (Philké Hetairia)، وهي رابطة وطنية سرية قامت أساساً بثورة العام 1821.

كانت القومية لدى هؤلاء قريبة، إلى حد ما، من تلك التي دعت إليها الحركات النخبوية في الغرب. ولا يمكن لغير ذلك تفسير الجهود التي بذلت، بإشراف كبار المتنفذين اليونان المحليين، لدعم الثورة الرامية إلى تحقيق الاستقلال لليونان في مقاطعات الدانوب. ذلك أن من كان ينطبق عليهم وصف اليونانيين في مناطق الرقيق البائسة تلك كانوا هم سادة الإقطاع، والأساقفة، والتجار، والمثقفين. وكان طبيعياً أن تمنى هذه الثورة بالفشل الذريع (1821). إلا أن حركة "هيتايريا" كانت قد بدأت لحسن الحظ تستقطب زعامات قطاع الطرق الفوضويين، والخارجين على القانون، وشيوخ العشائر في جبال اليونان (خصوصاً في البيليبونيز). ونجحت في ذلك نجاحاً أكبر، ولا سيما بعد العام 1818، مما حققته حركة الكاربوناري في جنوب إيطاليا، عندما حاولت اجتذاب زعماء العصابات المحليين. ويُعتقد أن المفهوم الحديث للقومية لم

يكن ليعني الكثير لهؤلاء "المكافحين"، مع أنه كان لدى العديد منهم "كتبة" متعلمون، وكان احترام العلم والرغبة فيه من الخصائص الباقية الموروثة عن الحضارة الهيلينية القديمة، وقد وضع هؤلاء البيانات والبلاغات مستخدمين مصطلحات وتعبيرات يعقوبية. وإذا كان لزعماء هذه الحركة أية أهداف، فهي التطلع إلى إقامة نموذج سياسي مثالي شامل في شبه الجزيرة اليونانية يسعى فيه الجميع إلى البطولة، ويتطلع فيه العصاة الذين لجأوا إلى الجبال إلى مقاومة أي نوع من أنواع الحكم وإلى إحقاق حقوق الفلاحين المهضومة. وبالنسبة لحركات التمرد التي تزعمها رجال مثل كولوكوترون، تاجر الماشية قاطع الطرق، كان دعاة القومية على النمط الغربي يحلمون بحركة ذات نزوع قومي هيليني، لا طابع محلي صرف. وقد حققوا لهم آخر الأمر تلك الظاهرة الفريدة المثيرة للفزع: انتفاضة جماهيرية يقوم بها شعب أعزل.

كانت القومية اليونانية الجديدة كفيلة بنيل الاستقلال. غير أن تضافر جهود قيادات الطبقة الوسطى، والفوضى وسوء التنظيم، وتدخل القوى الكبرى أسفرت عن إنتاج صورة مشوهة عن النموذج الليبرالي الغربي الذي أصبح مألوفاً في مناطق أخرى مثل أمريكا اللاتينية، وأسفر كذلك عن قيام وضع متناقض ضاقت فيه آفاق النزعة الهيلينية الشاملة لتقتصر على اليونان فحسب، مما أدى إلى إيقاظ أو حفز الروح القومية الخامدة في أوساط شعوب البلقان الأخرى. وفيما كانت الصبغة اليونانية ضرورة مهنية للمسيحيين الأرثوذكس المتعلمين في البلقان، فإن النزعة الهيلينية حققت بعض التقدم. غير أنها بدأت بالانحسار، حتى في صفوف الفئات المتعلمة المدمجة اجتماعياً في البلقان، حالما أخذت تشدد على دعم اليونان فحسب. وبهذا المعنى، كان استقلال اليونان يمثل الشرط الجوهري التمهيدي لتطور القوميات البلقانية الأخرى.

ويصعب الحديث عن القومية إطلاقاً خارج أوروبا. فقد حلت الجمهوريات الأمريكية اللاتينية العديدة محل الإمبراطوريتين الإسبانية

والبرتغالية المنهارتين (وبعبارة أدق، أصبحت البرازيل، وظلت، ملكية مستقلة بين العامين 1816 و1889)، وغدت حدودها هي الخطوط الفاصلة بين إقطاعات ملاك الأراضي الذين وقفوا إلى جانب هذا أو ذاك من زعماء التمرد. وكان من نتائج ذلك أن هذه الجمهوريات بدأت تكتسب مصالح سياسية خاصة بها وتظهر مطامع إقليمية. وكان مستحيلاً تحقيق النموذج المثالي الأمريكي القومي الأصلي الذي تصوره سيمون بوليفار (1783ـ1830) في فنزويلا، وسان مارتن (1778ـ1850)، في الأرجنتين، غير أنه ظل تياراً ثورياً قوياً في جميع أرجاء المناطق التي تتحدث بالإسبانية، مثلما ظلت النزعة القومية البلقانية، وهي وريثة الوحدة الأرثوذكسية المناهضة للإسلام مستمرة، وربما لا تزال، مستمرة حتى اليوم. إن اتساع القارة ومدى التنوع فيها، ووجود بُؤَرٍ مستقلةٍ للثورة في المكسيك (وهي التي قررت ما يحدث في أمريكا الوسطى)، وفي فنزويلا وبونس آيريس، والمشكلة الخاصة المتعلقة بمركز الكولونيالية الإسبانية في البيرو التي تحررت بقوة خارجية، كل هذه العوامل فرضت حالة من التجزئة الفورية. غير أن الثورات الأمريكية اللاتينية كانت من صنع جماعات صغيرة من أبناء المدن، والجنود، والمتفرنسين، مما أضفى طبيعة سلبية على جمهرة الكاثوليك البيض الفقراء، وعدم الاكتراث بالهنود الأصليين أو معاداتهم. وفي المكسيك وحدها تحقق الاستقلال بمبادرة من حركة شعبية من المزارعين؛ أي من الهنود الذين انطلقت مسيرتهم تحت راية عذراء غواديلوب، ومن ثم سلكت المكسيك منذ ذلك الحين سبيلاً مختلفاً متقدماً من الوجهة السياسية قياساً على ما حدث في باقي أمريكا اللاتينية. ومع ذلك، فحتى في أوساط شريحة صغيرة من الأمريكيين اللاتينيين القادرين على الحسم السياسي، فإن من المفارقات التاريخية في أيامنا هذه أن نتحدث عن أي تطور يتجاوز حدود المحاولات الجنينية لبلورة "وعي وطني" في كولومبيا، وفنزويلا، والإكوادور.

لقد نشأت نماذج أولية للقومية في بلدان مختلفة في شرق أوروبا،

غير أن اللافت أنها اتخذت طابع التمرد المحافظ لا الوطني. فقد تعرض السلافيون للقمع في كل مكان، باستثناء روسيا وعدد من المواقع الحصينة المتناثرة في البلقان. غير أن قوى القمع، كما رأينا، لم تكن في نظرهم ممثلة بالملكية المطلقة، بل بملاك الأرض الألمان أو المجريين وبالمستغلين في المراكز الحضرية. كما أن القومية لدى هؤلاء لم تكن تسمح للسلافيين بإنشاء كيان قومي. بل إن برنامجاً راديكالياً مثل الولايات المتحدة الألمانية اقترحه الجمهوريون والديمقراطيون في بادن (في جنوب غرب ألمانيا) أوصى بإقامة وضم جمهورية إيليرية (أي كرواتية سلوفينية) تتخذ من تريست الإيطالية عاصمة لها، وأخرى مورافية تكون عاصمتها أولوموك، وجمهورية ثالثة بوهيمية تكون براغ عاصمة لها[13]. من هنا، كانت آمال القوميين السلافيين المباشرة معلقة على ما سيقوم به إمبراطورا النمسا وروسيا. وقد أعربت اتجاهات متنوعة من الحركات المؤمنة بالتضامن السلافي عن تفضيلها لروسيا، واجتذبت بذلك المتمردين السلافيين، وحتى البولنديين المناوئين لروسيا، ولا سيما في فترات الهزيمة واليأس، كما حدث في أعقاب انهيار الثورات عام 1846. وأبدى دعاة النزعة "الإيرليرية" في كرواتيا، والقومية المعتدلة في التشيك تفضيلهم للتوجه نحو النمسا، وتلقي الاتجاهان مساندة مدروسة من الحكام من أسرة هابسبيرغ، خصوصاً وأن اثنين من كبار الوزراء في الحكومة النمساوية، هما كولورات (Kolowrat)، والقائد العام للشرطة سيدلنتسكي (Sedlnitzky)، كانا من التشيك. وقد تمت حماية التطلعات الثقافية الكرواتية في الثلاثينات من ذلك القرن. وبحلول العام 1840، كان كولورات قد أوصى بإجراء ثبتت جدواه في ثورة 1848، وهو تعيين أحد القادة العسكريين الكرواتيين حاكماً لكرواتيا، مع التحكم والسيطرة على الأمور على الحدود العسكرية مع هنغاريا

---

(13) Jean Sigmann, "Les Radicaux badois et l'ideé nationale allemande en 1848," *Etudes d'histoire moderne et contemporaine*, vol. II (1948), pp. 213-214.

للوقوف في وجه المجريين الشّموسين[14]. وبالتالي، فإن التمسك بالروح الثورية عام 1848 كان يعني بالضرورة الوقوف في وجه المطامح الوطنية السلافية. وكان الصراع الضمني بين الدول "التقدمية" والدول "الرجعية" من العوامل التي أسهمت في إخفاق ثورات 1848.

ولا نلمس أثراً للقومية في أي مكان آخر؛ لأن الشروط الاجتماعية لنشأتها لم تكن موجودة. والواقع أن القوى التي تزعمت الحركات القومية فيما بعد كانت في تلك الفترة تعارض التحالف بين التقاليد والدين والفقر الجماعي، وهي القوى التي تولدت عنها مقاومة قوية لتعديات الغزاة والمستغلين الغربيين. فعناصر البورجوازية المحلية، التي تنامت في البلدان الآسيوية، إنما نشأت في أحضان المستغلين الأجانب الذين زودتهم بالعملاء والوسطاء والأتباع. وتطرح الجماعة البارْسية في بومبي [مومبي] مثالاً على ذلك. وحتى لو لم يكن الآسيوي المتعلم "المستنير" من الكومبرادورات الوسطاء أو الموظفين الأدنى مرتبة ممن يعملون لمصلحة الحكام الأجانب أو الشركات الأجنبية (وهو وضع لا يختلف عن أوضاع الشتات اليوناني في تركيا)، فإن واجبه السياسي الأول هو أن "يستغرب" أو يتشبه بالغرب؛ أي أن يستحدث أفكار الثورة الفرنسية، ويحقق التحديث العلمي والتقاني في أوساط شعبه، ويتصدى للمقاومة التي يشترك فيها الحكام التقليديون، والمحكومون التقليديون (وذلك وضع مشابه لما كان سائداً بين الوجهاء واليعاقبة في جنوب إيطاليا). من هنا، يغدو هؤلاء الوسطاء مقطوعي الصلة، بصورة مزدوجة، بشعوبهم. وقد عملت الأساطير القومية على تعتيم هذا الطلاق عن طريق التكتم على الصلة بين الكولونيالية الاستعمارية من جهة، وبواكير الطبقة الوسطى من أهل البلاد الأصليين من جهة أخرى. وكان من السبل الأخرى التي أثبتتها هذه المدرسة إعطاء بوادر المقاومة

(14) [Julius] Miskolczy, *Ungarn in der Habsburger-Monarchie* (Wien; München: Verlag Herold, 1959), p. 85.

ضد الأجانب طابع الحركات القومية اللاحقة. أما في آسيا، والبلدان الإسلامية، بل أكثر من ذلك في أفريقيا، فإن اللقاء بين الطبقة الوسطى والقومية، وبينهما وبين الجماهير، لم يتحقق إلا في القرن العشرين.

كانت القومية في الشرق، إذن، نتاجاً للنفوذ والغزو الغربيين. وتتضح هذه الصلة بأجلى صورها في الدولة الشرقية الوحيدة التي وضعت فيها الأسس لانطلاق أول حركة قومية حديثة ضد الاستعمار[15]، ألا وهي مصر. لقد أدخلت الغزوة النابليونية الأفكار والأساليب والطرائق الغربية التي أدرك قيمتها جندي محلي قادر طموح هو محمد علي. فما إن تسلم زمام الحكم وحقق الاستقلال تقريباً عن تركيا في فترة الارتباك التي أعقبت انسحاب الفرنسيين، حتى شرع محمد علي، بدعم فرنسي، وبمعونة فنية غربية (فرنسية في المقام الأول)، في إرساء دعائم سلطته الاستبدادية الساعية إلى التمثل بالغرب. وقد هلّل اليساريون الأوروبيون في العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر ورحبوا بهذا الحاكم المستبد المستنير، ووضعوا خدماتهم تحت تصرفه، فيما الذي كانت الرجعية في بلدانهم تبدو مثبطة للآمال. وعمل التيار السان سيموني المتميز، الذي كانت تتنازعه الدعوة إلى الاشتراكية، والتنمية الصناعية على يد أصحاب المصارف المستثمرين والمهندسين، على تقديم المعونة الجماعية المؤقتة له، وإعداد خططه للتنمية الاقتصادية[16]. كما وضع دعاة هذا التيار الأسس لمشروع قناة السويس (التي أشرف على حفرها السان سيموني دي ليسيبس (De Lesseps)) ومهدوا لتبعية قاتلة انجرّ إليها الحكام المصريون عن طريق القروض الضخمة التي تفاوضت بشأنها مجموعات متنافسة من المحتالين الأوروبيين الذين حولوا مصر إلى مركز لحركات التمرد المعادية للاستعمار. بيد أن النزعة القومية لدى محمد علي لم تكن أقوى مما كان

(15) باستثناء الإيرلنديين.

(16) انظر حول أصحاب هذا التيار، ص 445-446 من هذا الكتاب.

لدى أي حاكم شرقي مستبد آخر. إن سياسته الاستغرابية، لا تطلعات شعبه، هي التي وضعت الأسس للحركة القومية فيما بعد. وإذا كانت مصر قد مهدت لأول حركة قومية في العالم الإسلامي، بينما كان المغرب في مؤخرة الركب، فإن ذلك يعود إلى أن محمد علي (ولأسباب جيوسياسية مفهومة تماماً) سلك الطريق الأحب للاستغراب، وذلك ما لم تفعله، أو تحاول فعله، الإمبراطورية الشريفية في الأطراف الغربية النائية من العالم الإسلامي. والقومية، شأنها شأن الكثير من الظواهر في العالم الحديث، إنما هي وليدة للثورة المزدوجة.



القسم الثاني

النتـائـــج



الفصل الثامن

الأرض

"اعلموا أنني سيدكم، وأن سيدي هو القيصر. وللقيصر الحق في أن يوجه لي الأوامر، وعلي أن أطيع، لا أن أنقلها إليكم. وفي هذه الإقطاعية، أنا القيصر، وأنا الله على الأرض بالنسبة لكم، وأنا مسؤول عنكم أمام الله في السماء... ومثلما يُكشط جلد الحصان أولاً عشر مرات بالمشط ذي الأسنان الحديدية، ثم ينظف بالمشط الناعم، فإنني سأنظفكم بمنتهى الخشونة، ولا أحد يعلم ما إذا كنت سأصل آخر الأمر للمشط الناعم. ومثلما ينظف الله الهواء بالرعد والبرق، فإنني في قريتي هذه، سأنظفكم أيضاً بالرعد وبالنار عند الضرورة".

مالك إقطاعي روسي لأقنانه[1].

"إن امتلاك بقرة أو بقرتين وخنزير وبضع إوزّات يرفع بالطبع من مكانة الفلاّح، نفسياً، بين أقرانه من الطبقة نفسها.. فهو إذ

(1) August Franz Ludwig Maria Haxthausen-Abbenburg, *Studien über die Innern Zustände, das Volksleben und Insbedondere die Ländlichen Einrichtungen Russlands*, 3 vols. (Hannover: Hahn, 1847-1852), vol. 2, p. 3.

يمشي الهوينى وراء قطيعه، إنما يتعلم الكسل والتراخي. . .
ويصبح العمل نهاراً بالنسبة له مدعاة للاشمئزاز، ويتزايد نفوره
من العمل مع انغماسه في رعي الماشية. ومع مرور الوقت، فإن
بيع عجل أو خنزير هزيل يعطي وسيلة لإضافة الإدمان إلى
الخمول. إن بيع البقرة غالباً ما ينجح، فيضطر مالكها التعيس
المحْبَط، الذي يكون قد عزف عن استئناف دورة العمل اليومي
المنتظم الذي كان في الماضي يمثل بالنسبة له مصدر الرزق. . . إلى
الاستغناء عن هذا المورد الذي لم يعد أهلاً له".

مسح أجراه مجلس الزراعة في سومرست 1798[2].

I

إن ما حدث للأرض هو الذي حدد حياة أكثر البشر وموتهم بين العامين 1789 و1848. من هنا، فإن الآثار التي خلفتها الثورة على العقارات، وعلى استئجار الأرض، وعلى الزراعة، كانت الظاهرة الأكثر كارثية في تلك الفترة. فلا الثورة السياسية ولا الثورة الاقتصادية استطاعتا تجاهل الأرض التي اعتبرها أوائل الاقتصاديين، وهم الفيزيوقراطيون، المصدر الوحيد للثورة. وقد أجمع هؤلاء على أن التحول الثوري للأرض هو الشرط المسبق والنتيجة الضرورية للمجتمع البورجوازي، إن لم يكن للتنمية الاقتصادية المتسارعة كلها. وكانت الأرض الخصيبة التي ترعرع فيها النمو الاقتصادي مكللةً بقمّةٍ جليديةٍ من الأنظمة الزراعية التقليدية والعلاقات الاجتماعية الريفية. وكان من الواجب إذابتها مهما كان الثمن، لتتسنى حراثة التربة من جانب المشروعات الخاصة الساعية إلى تحقيق الربح. وقد تضمن ذلك ثلاثة أنواع من التغير: الأول هو ضرورة تحويل الأرض إلى سلعة، يمتلكها

(2) John Billingsley, *General View of the Agriculture of the County of Somerset*, Second Edition (Bath: Printed by R. Cruttwell, 1798), p. 52.

أفراد من القطاع الخاص ينبغي أن يتمتعوا بحرية التصرف فيها، شراءً وبيعاً. والتغير الثاني هو أن تنتقل ملكية الأرض إلى طبقة قادرة على تنمية مواردها الإنتاجية لمصلحة السوق، وتسترشد بمنطق عقلاني مستنير، أي يسعى إلى تحقيق الفائدة والمصلحة الشخصية. أما الأمر الثالث، فهو ضرورة تغيير الجماهير الضخمة من سكان الأرياف، وتحويلهم، ولو بصورة جزئية، إلى عمال مأجورين متحركين في القطاع الزراعي المتنامي في الاقتصاد. وكان بعض الاقتصاديين الراديكاليين الأكثر تبصراً يدركون ضرورة إحداث تغيّر منشود رابع، مع أنه كان يصعب، بل يتعذر، تحقيقه؛ ذلك أن "الاحتكار الطبيعي" لم يكن ينسجم مع اقتصاد كان يُفترض أن تتحرك فيه جميع عوامل الأرض المنتجة. وحيث ان مساحة الأرض كانت محدودة، والقطع المختلفة متفاوتة في درجة خصوبتها ووسائل الوصول إليها، فإن ملّاك الأجزاء الخصبة منها كانوا يتمتعون بميزة خاصة بالتأكيد، ويفرضون إيجاراً على الأجزاء الباقية. وقد أثيرت مناقشات حامية، ولا سيما في إنجلترا الصناعية، حول السبل الكفيلة بإزالة هذا العبء أو التخفيف منه، وذلك، على سبيل المثال، بفرض ضريبة مناسبة، أو سن قانون يحد من تركّز الملكية، أو حتى بالتأميم. وأثّرت هذه الحجج كذلك على "الاحتكارات الطبيعية" الأخرى، مثل السكة الحديدية التي لم يكن تأميمها لهذا السبب متعارضاً مع قيام اقتصاد يقوم على القطاع الخاص، كما كان شائعاً آنذاك بصورة واسعة الانتشار[3]. غير أن تلك المشكلات كانت تخص المجتمع المدني الذي كان يجب إقامته فوراً أول الأمر.

وقد وقفت في سبيل تحقيق ذلك عقبتان رئيسيتان، وكانت كلتاهما تتطلب مزيجاً من العمل السياسي والاقتصادي. وهاتان العقبتان هما سادة الأرض ما قبل الرأسماليين، والفلاحون التقليديون. وكان بالوسع تحقيق

(3) قدمت اقتراحات جدية بالتأميم حتى في إنجلترا في الأربعينات من القرن التاسع عشر.

هذه المهمة بأساليب شتى، وأكثر هذه الوسائل راديكالية كانت بريطانية وأمريكية؛ لأن البلدين ألغيا الفلاحين، وقام أحدهما بإلغاء سادة الأرض. وقد أسفر الحل البريطاني المعهود عن قيام بلد أصبح فيه نحو أربعة آلاف من الملاك يمتلكون نحو أربعة أسباع الأرض[4] التي قام بحراثتها، حسب إحصائيات 1851، نحو ربع مليون من المزارعين (وكان ثلاثة أرباع الأرض مقسماً إلى قطع تتراوح مساحة كل منها بين خمسين وخمسمئة فدان). واستخدم المزارعون نحو مليون وربع المليون من العمال المأجورين والخدم، وانتشرت جيوب من صغار الملاّك. ولكن من الخطأ الاعتقاد بوجود فلاحين بريطانيين، بالمعنى الذي كان سائداً في القارة الأوروبية، خارج المرتفعات الاسكوتلندية وأجزاء من ويلز. وكان الحل الأمريكي النموذجي هو أن يقوم المزارع التجاري المالك بالتعويض عن نقص العمال المأجورين بالاستخدام المكثف للآلة. وكانت آلات الحصاد التي اخترعها أوبيد هوسي (Obed Hussey) (1833)، وسايروس ماكورميك (Cyrus McCormick) (1834)، عنصراً مكملاً لجهود المزارعين ذوي العقلية التجارية، المبادرين إلى دخول ميدان المضاربة على الأرض، ممن مدوا أسلوب الحياة الأمريكي إلى غربي ولايات نيوانغلاند، عن طريق مصادرة الأرض، أو ابتياعها في فترة لاحقة من الحكومة بأسعار رمزية. أما الحل النموذجي الروسي، فكان أقلَّ ثورية، وقد تضمن تحويل ملاك الأراضي أنفسهم إلى مزارعين رأسماليين، والأقنان إلى عمال مأجورين. من جهة أخرى، احتفظ أفراد اليونكر بسيطرتهم على الإقطاعات الصغيرة التي كانوا، منذ وقت طويل، يفلحونها لأغراض التصدير إلى السوق، وبأيدي عمال السخرة، غير أنهم أصبحوا يشغلّون الآن فيها الفلاحين "المحررين" من

(4) هذه الأرقام مبنية على ما ورد في كتاب **يوم القيامة الجديد** (*New Domesday Book*) للفترة بين 1871ـ1873، غير أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها لا تمثل الوضع عام 1848.

أغلال السخرة ومن الارتباط بأرض السادة الملاك. ولا شك في أن الحالة البوميرانية في بروسيا تطرح لنا مثالاً متطرفاً. ففي وقت لاحق من ذلك القرن، غطى نحو ألفي إقطاعة ما يعادل واحداً وستين في المئة من الأرض، وشملت البقية نحو ستين ألف قطعة متوسطة وصغيرة[5]؛ غير أن ما يجدر ذكره أن الطبقة العاملة الريفية كانت من عدم الأهمية بحيث لم ترد في كتاب كرونيز (Krüniz) المسمى **موسوعة الاقتصاد المحلي والزراعي** للعام 1773 (*Encyclopaedia of Domestic and Agricultural Economy*)، بينما قُدر عدد العمال الريفيين المأجورين الذين لا أرض لهم في روسيا عام 1849، بما يقرب من مليوني عامل[6]. والحل المنهجي الوحيد للمشكلة الزراعية، بالمعنى الرأسمالي، كان في الدانمارك، التي نشأت فيها طبقة واسعة من المزارعين التجاريين المتوسطين والصغار. ويعزى ذلك بصورة أساسية إلى الإصلاحات في مرحلة الطغيان المستنير في الثمانينات من القرن الثامن عشر، مما يضع هذه المسألة خارج نطاق البحث الذي يتناوله هذا الكتاب.

كان الحل الأمريكي الشمالي يعتمد على سمة فريدة هي توفر مساحات لا حدود لها من الأراضي التي لا التزام عليها، وغياب جميع مخلفات العلاقات الإقطاعية، أو التجمعات الفلاحية التقليدية. وكان العائق الوحيد الذي يقف في طريق التوسع في الزراعة الفردية يتعلق بقبائل الهنود الحمر التي كانت ملكية الأراضي فيما بينها جماعية، وغالباً بوصفها مناطق للصيد، مع ضمان ذلك باتفاقيات مبرمة مع الحكومات البريطانية، والفرنسية، والأمريكية. وكان الصراع الكلي يدور بين موقف

---

(5) *Handwörterbuch der Staatswissenschaften*, Hrsg. von dr. J. Conrad [et al.], 2. Gänzlich Umgearb. Aufl. (Jena: G. Fischer, 1898-1901), Art. Grundbesitz.

(6) Theodor Freiherr von der Goltz, *Geschichte der Deutschen Landwirtschaft*, 2 vols. (Stuttgart; Berlin: J. G. Cotta Nachfolger, 1903), vol. 2, and A. Sartorius von Waltershausen, *Deutsche Wirtschaftsgeschichte, 1815-1914*, 2 Ergänzte Auflage (Jena: G. Fischer, 1923), p. 132.

من المجتمع لا يعتبر الملكية الفردية الثابتة الكاملة ترتيباً عقلانياً، بل يراه الترتيب "الطبيعي" الوحيد، من جهة، وبين موقف لا يأخذ بهذا الرأي من جهة أخرى. ويتجلى ذلك، بأوضح صورة، في المواجهة بين اليانكي الأمريكيين، والهنود. ويقول مفوض الشؤون الهندية(7): "إن من الأسباب الأكثر فتكاً وإيذاءً (التي منعت الهنود من تعلم فوائد الحضارة) كانت حيازتهم الجماعية المشتركة للأراضي، وحقهم في الحصول على تعويضات نقدية كبيرة، والفرصة المتاحة لهم للانغماس في عاداتهم التي تتسم بالتشرد وعدم الاستقرار، وتحول بينهم وبين اكتساب الوعي بمعنى الملكية الفردية وفوائد الاستيطان في موقع معين، ونزوعهم إلى الخمول والتبذير، ومنحهم الفرص لإشباع شهواتهم ورغباتهم". ومن هنا، فإن تجريدهم من الأرض عن طريق التزوير أو السرقة أو أية أنواع أخرى من الضغط كان سلوكاً أخلاقياً مربحاً في الوقت نفسه.

لم يكن الهنود الرحل البدائيون هم الشعب الوحيد الذي لم يفهم معاني العقلانية في البورجوازية الفردية، ولم يكن يرغب فيها. والواقع أن الأغلبية العظمى من سكان الأرياف، من السادة الإقطاعيين حتى الرعاة المدقعين، باستثناء الأقليات المستنيرة، اتحدوا معاً في معارضة هذه الروح البورجوازية الفردية، ولم يكن ممكناً خلق ظروف قادرة على تحويل الأقلية العقلانية إلى أكثرية عقلانية إلا بثورة سياسية قانونية تستهدف كلاً من السادة والفلاحين التقليديين. وتاريخ العلاقات الزراعية في أغلبية أوروبا ومستعمراتها خلال تلك الفترة هو تاريخ هذه الثورة، على الرغم من أن الإحساس بنتائجها لم يتبلور إلا في النصف الثاني من ذلك القرن.

---

(7) Lewis Henry Morgan, *The Indian Journals, 1859-1862*, Edited and with an Introd. by Leslie A.White; Illus. Selected and Edited by Clyde Walton (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1959), p. 15.

كان أول ما استهدفته الثورة، كما رأينا، تحويل الأرض إلى سلعة. وكان لا بد من إلغاء وقف الأملاك وحبسها وخطر البيع والنقل الذي كان قائماً على نبل المحتد، مما جعل ملاك الأراضي عرضة لعقوبة الإفلاس القانوني بسبب عدم الكفاءة الاقتصادية، وسيتيح ذلك، بدوره، للمستثمرين الأكفأ اقتصادياً أن يتولوا أمر هذه الأراضي. وفوق ذلك، كان لا بد من مصادرة الأغلبية العظمى من أراضي الوقف في البلدان الكاثوليكية والمسلمة من نطاق الأنشطة غير الاقتصادية والخزعبلات، وفتحها أمام السوق والاستغلال العقلاني (وكانت البلدان الكاثوليكية قد فعلت ذلك منذ زمن بعيد)، وكانت الأراضي في سبيلها إلى العَلْمنة والبيع، وكان ضرورياً كذلك تمكين المشروعات الاقتصادية الفردية من الحصول على مساحات شاسعة أيضاً من الأراضي المملوكة جماعياً والسيئة الاستغلال، مثل أراضي الجماعات في القرى والبلدات، والحقول والمراعي والغابات المشاع وغيرها. كما كانت هذه الأراضي في سبيلها إلى التجزئة إلى قطع فردية وإلى "الإغلاق". ولم يكن ثمة شك في أن المشترين الجدد سيكونون على جانب كبير من الحماس، والقوة، والتعقل؛ وبناء على ذلك، سيحقق الهدف الثاني للثورة الزراعية.

ولم يكن ذلك ممكن التحقيق إلا بشرط واحد، هو تحول الفلاحين، الذين سيخرج من صفوفهم الكثير من هؤلاء المشترين، إلى طبقة قادرة على التصرف بحرية بما لديها من موارد؛ ومن شأن هذه الخطوة أن تؤدي تلقائياً إلى تحقيق الهدف الثالث، وهو خلق قوة عمل "حرة" واسعة في السوق، تتألف من أولئك الذين لم يستطيعوا التحول إلى بورجوازيين. وبالتالي، فقد كان من الأمور الجوهرية تحرير الفلاحين من القيود والواجبات غير الاقتصادية (مثل علاقة الرقيق نصف الحر في النظام الإقطاعي، والسخرة، والالتزام بالدفع للسيد، والعمل الإرغامي، وغيرها). وسيكون لذلك فوائد إضافية مهمة؛ إذ يمكن عند ذلك التثبت من أن العامل المأجور الحر الذي قد يتمتع بالحوافز لنيل مكافأة أكبر، أو المزارع الحر، هو أكثر كفاءة من نظيره المرغم على

العمل، سواء كان الأخير قِناً، أم عبداً، أم مدنياً مسخراً بالعمل لدى سيد ما وفاءً لدْين. وكان ثمة شرط آخر يتعين تحقيقه؛ فقد كان لا بد من أن تقتلع من الجذور وتتاح حرية الحركة بحرية لأعداد ضخمة جداً من العاملين الذين كانوا يعتاشون من الأرض التي ربطهم بها التاريخ البشري على الدوام، ولكنهم تحولوا إلى سكان فائضين عن الحاجة إذا لم تستغل الأرض بصورة إنتاجية[8]. وعندها فقط، يمكنهم الهجرة إلى البلدات والمصانع التي تحتاج إلى قوتهم العضلية. وبعبارة أخرى، فقد كان على الفلاحين أن يخسروا أرضهم وارتباطاتهم الأخرى.

كان ذلك يعني، في أغلب أنحاء أوروبا، إلغاء منظومة من الترتيبات القانونية والسياسية التقليدية التي اصطلح على تسميتها "الإقطاع"، حيثما كان. وبشكل عام، كان ذلك قد تحقق بين العامين 1789 و1848، بفعل الثورة الفرنسية، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في المنطقة الممتدة بين جبل طارق وشرق بروسيا، ومن البلطيق إلى صقلية. ولم تحدث تغيرات مماثلة في وسط أوروبا إلا عام 1848، وفي روسيا ورومانيا في الستينات من ذلك القرن. أما خارج أوروبا، فقد حدثت تغيرات مشابهة في الأمريكتين، باستثناء البرازيل، وكوبا، والمنطقة الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية حيث استمر الرق حتى الفترة بين العامين 1862 و1888. كما حدثت إصلاحات قانونية مماثلة في مستعمرات قليلة كانت تخضع لسيطرة الدول الأوروبية

---

(8) في أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر، قدر حجم قوة العمل الفائضة القابلة للاستخدام بنسبة 1 إلى 6 من مجموع السكان في المناطق الحضرية والصناعية في إنجلترا، ونسبة 1 إلى عشرين في فرنسا وألمانيا، و1 إلى 25 في النمسا وإيطاليا، و1 إلى 30 في إسبانيا، و1 إلى 100 في روسيا. انظر: Alban de Villeneuve-Bargemont, *Economie politique chrétienne ou recherches sur la nature et les causes du paupérisme en France et en Europe et sur les moyens de le soulager et de le prévenir*, 3 vols. (Paris: Paulin, 1834), vol. 2, pp. 3 ff.

مباشرة، مثل الهند والجزائر. وكذلك كان الأمر في تركيا، ولفترة قصيرة في مصر[9].

باستثناء بريطانيا وأقطار قليلة أخرى كان الإقطاع، بهذا المعنى، قد ألغي أو أنه لم يوجد على الإطلاق (رغم وجود التجمعات الفلاحية التقليدية)، كانت هناك بالفعل أساليب أخرى مماثلة لتحقيق ذلك. ولم يكن التشريع في بريطانيا ضرورياً أو حتى ممكناً من الناحية السياسية لمصادرة الملكيات الكبيرة؛ لأن كبار مُلاّك الأراضي ومزارعيهم كانوا قد تكيفوا مع متطلبات المجتمع البورجوازي. وقد أبدوا مقاومة شديدة لانتصار العلاقات البورجوازية في الأرياف بين العامين 1795 و1846. ومع أن هذه المقاومة اشتملت، بصورة مبهمة، على نوع من الاحتجاج التقليدي ضد النزعة الكاسحة لمبدأ الفائدة الفردية الصافية، فإن سبب استيائهم الواضح كان بسيطاً جداً، وهو رغبتهم في الإبقاء على الأسعار المرتفعة والإيجارات العالية التي ارتبطت بالحروب الثورية والنابليونية في مرحلة الكساد التي أعقبت الحرب، وقد شكلوا جماعة زراعية ضاغطة، لا حركة إقطاعية رجعية. من هنا، سلطت المواد الأساسية الأقسى في القانون على بقايا طبقة الفلاحين، وهم ساكنو الأكواخ والعمال. وبعد صدور "قانون الإغلاق"، أدى نحو خمسة آلاف "إغلاق" إلى تجزئة نحو ستة ملايين فدان من الحقول والأراضي المشاع منذ العام 1760 وبعده، وتحويلها إلى ملكيات فردية، وعززت ذلك سلسلة من الترتيبات غير الرسمية. وقد صمم "قانون الفقراء" الصادر عام 1834 لتضييق الخناق على فقراء الريف وإرغامهم على الهجرة إلى حيثما توجد الوظائف وفرص العمل. وسرعان ما بدأ هؤلاء الهجرة. وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر، كانت عدة دول على وشك فقدان سكانها تماماً. ومنذ العام 1850، أصبح الهروب من الأرض عاماً شاملاً.

(9) Charles Issawi, "Egypt since 1800: A Study in Lopsided Development," *Journal of Economic History*, vol. 21, [no. 2] (1961), p. 5.

وقد ألغت الإصلاحات في ثمانينات القرن الثامن عشر الإقطاعَ في الدانمارك، على الرغم من أن المنتفعين الأساسيين منها لم يكونوا الإقطاعيين، بل الفلاحين المستأجرين والملاّك الذين اندفعوا بعد إلغاء الحقول المفتوحة إلى تجميع ما يمتلكونه من قطع الأرض في ممتلكات فردية؛ وهذا الإجراء مشابه لحركة "الإغلاق" التي كانت قد أوشكت على الانتهاء عام 1800. وكانت الإقطاعات تحزم وتباع إلى مستأجريها السابقين، مع الكساد الذي أعقب المرحلة النابليونية، ولكن شعور صغار المالكين أكثر من المستأجرين بعدم جدوى هذه الإجراءات قد أبطأ هذه العملية بين العامين 1816 و1830. وبحلول العام 1865، كانت الدانمارك، في الأساس، دولة من الفلاحين الملاّك المستقلين. وقد جرت في السويد إصلاحات مشابهة، وإن تكن أقل تطرفاً، وتركت آثاراً مماثلةً. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت الفلاحة الجماعية التقليد وفق نظام الأشرطة الزراعية قد أوشكت على الانقراض. ودمجت المناطق الإقطاعية السابقة في أرجاء ذلك البلد الأخرى التي غلبت عليها سيطرة الفلاحين الأحرار، وذلك ما كان سائداً في النرويج (التي كانت عام 1815 جزءاً من السويد، وقبلها جزءاً من الدانمارك). واتضحت عند ذلك، بصورة جلية، نزعة إلى تجزئة المشروعات الكبيرة في بعض المناطق، وكانت تقابلها من جانب آخر نزعة لتجميع الأملاك. وكانت الحصيلة الصافية هي التحسن السريع الذي طرأ على الإنتاجية الزراعية. ففي الدانمارك تضاعف عدد قطعان الماشية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر[10]. إلا أن التزايد السريع في عدد السكان قد ترك أعداداً متعاظمة من فقراء الريف من دون عمل. وقد أدت

(10) Brynjolf Jakob Hovde, *The Scandinavian Countries, 1720-1865, the Rise of the Middle Classes* (Boston: Chapman and Grimes, [1943]), vol. 1, p. 279.

للاطلاع على ازدياد المحاصيل من 6 ملايين طن (عام 1770) إلى 10 ملايين، انظر: *Handwörterbuch der Staatswissenschaften*, Art. Bauernbefreiung.

الصعوبات التي كانوا يعانونها بعد منتصف القرن التاسع إلى أضخم حركة للهجرة نسبياً في ذلك القرن (وإلى الوسط الغربي لأمريكا) من النرويج القاحلة، وبعدها بقليل من السويد، وأقل من ذلك من الدانمارك.

II

كان إلغاء الإقطاع في فرنسا، كما رأينا، من نتائج الثورة. فقد أدت ضغوط الفلاحين والنزعة اليعقوبية إلى دفع الإصلاح الزراعي إلى ما هو أبعد مما أراده دعاة التنمية الرأسمالية[11]؛ إذ إن فرنسا لم تعد دولة سادة الأرض والعمال الزراعيين، ولا بلد المزارعين التجار، بل أصبحت، في المقام الأول، دولةَ خليطٍ من شتى أنواع الملاك الزراعيين الذين غدوا العماد الرئيسي لجميع الأنظمة السياسية اللاحقة التي لم تشكل تهديداً لملكيتهم لأراضيهم. وقد يصعب التحقق من مقولة ترى، على سبيل التخمين، أن عدد الملاك الزراعيين قد ازداد بمعدل خمسين في المئة، من أربعة ملايين إلى ستة ملايين ونصف المليون. وكل ما نعلمه، بصورة أكيدة، هو أن عدد هؤلاء الملاك لم يتناقص، بل ارتفع في بعض المناطق أكثر مما ازداد في أخرى. ولا بد من المزيد من الاستقصاء لمعرفة ما إذ كان المعدل النموذجي هو الارتفاع في دائرة موسيل بنسبة 40 في المئة بين العامين 1789 و1801 أو أن مستوى هذا العدد ظل من دون تغيير في دائرة نورمان أور[12]. لقد كانت الأوضاع، على العموم، حسنة على الأرض، ولم تكن ثمة صعوبات

(11) انظر ص 117-118 و151-154 من هذا الكتاب.

(12) Alexandre Chabert, *Essai sur les mouvements des prix et des revenus en France, 1798 -1820* (Paris: Librairie de médicis, 1949), vol. 2, pp. 27 ff, and Fernand L'Huillier, *Recherches sur l'alsace napoléonienne* ([Paris]: Librairie istra, [1945]), p. 470.

حقيقية، حتى في سنة 1847-1848، إلا في قطاع من العمال المأجورين[13]. وبالتالي، كان تدفق فائض العمال من القرية إلى البلدة ضئيلاً، مما تسبب في إبطاء الثورة الصناعية الفرنسية.

وفي أغلب أرجاء أوروبا اللاتينية، والأراضي الواطئة، وسويسرا، وغربي ألمانيا، تم إلغاء الإقطاع على أيدي قوات الغزو الفرنسية التي صممت على أن "تعلن باسم الأمة الفرنسية فوراً ... إلغاء نظام الأعشار الذي يدفع بموجبه نصف الغلة أو المال للكنيسة، والنظام الإقطاعي، والحقوق المرتبطة بسيادة الإقطاعيين على المقاطعات"[14] أو بأيدي الليبراليين المحليين الذين تعاونوا مع الفرنسيين أو اقتدوا بهم. وبحلول العام 1799، كانت الإصلاحات القانونية قد انتصرت في الأقطار المجاورة لشرقِ فرنسا وفي شمال إيطاليا ووسطها، وكانت، في أغلب الأحيان، استمرارا وتكملة لتطورات سابقة فيها. وكانت عودة أسرة البوربون بعد إجهاض ثورة نابولي عام 1798-1799 قد أدت إلى إرجاء هذه الإصلاحات في جنوب إيطاليا حتى العام 1808، كما أن الاحتلال البريطاني أبعدها عن صقلية على الرغم من أن الإقطاع قد أُلغي في هذه الجزيرة بين العامين 1812 و1843. وفي إسبانيا، كان الليبراليون الكورتيز المعادون لفرنسا قد ألغوا الإقطاع في قادس عام 1811، وبعض الأوقاف عام 1813، مع أن عودة أنظمة الحكم القديمة قد أعاق التنفيذ العملي لتلك المبادئ، وذلك ما كان يحدث خارج المناطق التي طالها التحول العميق بسبب اندماجها وقتاً

(13) G. Desert, dans: Ernest Labrousse, *Aspects de la crise et de la dépression de l'économie française au milieu du XIXe siècle, 1846-1851*, bibliothèque de la révolution de 1848; t. 19, études sous la direction de E. Labrousse (La Roche-sur-yon: Impr. centrale de l'ouest, 1956), vol. 2, p. 584.

(14) Jacques Godechot, *La Grande nation: L'Expansion révolutionnaire de la France dans le monde, 1789 - 1799*, 2 vols., collection historique (Paris: Editions montaigne, 1956), vol. II, p. 584.

طويلاً مع فرنسا. من هنا، فإن الإصلاحات الفرنسية قد بدأت، أو تواصلت، ولم تستكمل الثورة القانونية في مناطق مثل شمال غرب ألمانيا إلى الشرق من نهر الراين، وفي "المقاطعات الإيليرية" (إستريا ودلماسيا وراغوسا، وفي وقت لاحق سلوفينيا وجزء من كرواتيا)، التي لم تخضع للحكم الفرنسي إلا بعد العام 1805.

غير أن الثورة الفرنسية لم تكن هي القوة الوحيدة وراء الثورة الشاملة في العلاقات الزراعية. فقد تركت الدعوة الاقتصادية إلى ترشيد استغلال الأرض أثراً بالغاً على الطغاة المستنيرين في الفترة السابقة على الثورة، وخلفت استجابات مماثلة. ففي إمبراطورية الهابسبيرغ، ألغى جوزيف الثاني بالفعل نظام الاسترقاق، وعَلْمَنَ جانباً كبيراً من أراضي الكنيسة في الثمانينات من القرن الثامن عشر. ولأسباب مماثلة، استعاد الأرقاء في ليفونيا الروسية رسمياً مكانتهم باعتبارهم فلاحين ملاّكاً، وهي المنزلة التي كانوا قد تمتعوا بها في ظل الإدارة السويدية. ولم يحصل هؤلاء على أدنى مساعدة من ذلك، لأن جشع السادة الملاك الأقوياء سرعان ما حوّل الانعتاق إلى مجرد أداة لمصادرة أملاك الفلاحين. وبعد الحروب النابليونية، جرد الفلاحون من الضمانات القانونية القليلة التي بقيت لهم، وخسروا بين العامين 1819 و1850 خُمس أراضيهم على الأقل، فيما ازداد حجم العقارات التي يمتلكها النبلاء بما يتراوح بين 60 و180 في المئة[15]، وأصبحت تحرث هذه الأراضي طبقة من العمال الذين لا أرض لديهم.

وهذه العوامل الثلاثة، وهي تأثير الثورة الفرنسية؛ ودعوة الترشيد الاقتصادي التي طرحها موظفو الدولة؛ وجشع طبقة النبلاء، هي التي

(15) Adolf Agthe, *Ursprung und Lage der Landarbeiter in Livland*, Zeitschrift für Die Gesamte Staatswissenschaft Ergänzungsheft XXIX (Tübingen: H. Laupp, 1909), pp. 122-128.

حدثت انعتاق الفلاحين في بروسيا بين العامين 1807 و1816. وكان نفوذ الثورة الفرنسية حاسماً من دون شك؛ ذلك أن جيوشها سحقت بروسيا، وقدمت دليلاً قاطعاً مؤثراً على عجز أنظمة الحكم القديمة التي لم تستطع التكيف مع الأساليب الحديثة، أي التي لم تكن على الطراز الفرنسي. وكما حدث في بليفونيا، تلازم الانعتاق مع إلغاء الحماية القانونية المتواضعة التي حظي بها الفلاحون في الماضي. ومقابل إلغاء العمل القسري والمستحقات الإقطاعية، وحقوق الملكية الجديدة، أرغم العامل، من جملة خسائر أخرى، على إعطاء سيده السابق ما يعادل الثلث أو النصف من ممتلكاته السابقة أو مبلغاً باهظاً من المال الذي يقصم الظهر عوضاً عنها. وكانت عملية الانتقال الطويلة المعقدة أبعد ما تكون عن الاكتمال بحلول العام 1848، غير أنه كان واضحاً أن ملاك الأراضي هم الذين حققوا الفائدة الكبرى، وأن عدداً أقل من ذلك من الفلاحين المرفهين أفادوا بعض الفائدة بفضل حقوق الملكية الجديدة التي أصبحوا يتمتعون بها، بينما ساءت أحوال الأغلبية العظمى من الفلاحين وتزايدت بسرعة أعداد العمال الذين لا يمتلكون أرضاً[16].

---

(16) أدى قصور التنمية الصناعية المحلية وإنتاج واحد أو اثنين من محاصيل التصدير (ولا سيما الحبوب) إلى تشجيع إقامة المزارع الضخمة وزيادة العمال الذين لا يمتلكون الأرض. وكان من شأن ذلك تسهيل قيام مثل هذا التنظيم (كان 90 في المئة من مبيعات الحبوب التجارية في روسيا آنذاك تأتي من الإقطاعيات الزراعية، و 10 في المئة فحسب مما يملكه الفلاحون)، ومن جهة أخرى، كان الفلاحون أو صغار المزارعين يتمتعون ببعض الميزات في الحالات التي خلقت فيها التنمية الصناعية المحلية أسواقاً متزايدة متنوعة للمواد الغذائية التي تستهلكها البلدان المجاورة. من هنا، وفيما أدى تحرير الفلاحين في روسيا إلى حرمان عمال السخرة من الملكية، فإن الفلاحين في بوهيميا انتقلوا إلى حالة من الاستقلال بعد تحررهم عام 1848. انظر: Peter Ivanovich Lyashchenko, *History of the National Economy of Russia to the 1917 Revolution*, Translated by L. M. Herman (New York: Macmillan, 1949), p. 360.

للمقارنة بين بروسيا وبوهيميا، انظر: *Jahrbücher Für Nationalökonomie und Statistik*, vol. 146 (1937), pp. 434 ff.

كانت النتائج مجزية في المدى الطويل من الوجهة الاقتصادية، على الرغم من جسامة الخسائر في المدى القريب، كما يحدث غالباً في التغيرات الزراعية الكبيرة. ففي العام 1830ـ1831، كانت بروسيا قد استعادت مستوى الماشية والخراف الذي كان لديها في مطلع القرن، وأصبح لملاك الأراضي حصة أكبر، وللفلاحين حصة أصغر. من جهة أخرى، ارتفعت مساحة الأراضي المحروثة بما يزيد على الثلث، والإنتاجية بمعدل النصف تقريباً خلال النصف الأول من القرن[17]. وكان فائض السكان الريفيين يتزايد بسرعة. وبما أن الأوضاع في الريف كانت بالغة السوء، فإن المجاعة التي حدثت بين العامين 1846 و1848 ربما كانت أسوأ في ألمانيا منها في أي مكان آخر باستثناء إيرلندا وبلجيكا، وخلقت الكثير من الحوافز على الهجرة. بل إن الألمان كانوا قبل المجاعة الإيرلندية، هم المصدر لأكبر موجات المهاجرين.

اتخذت أغلب الخطوات القانونية الفعلية لتأمين النسق البورجوازي لملكية الأرض، كما رأينا، بين العامين 1789 و1812. وقد بدأت نتائجها بالظهور والاتضاح بصورة بطيئة خارج فرنسا وبعض المناطق المجاورة لها، لأسباب تتمثل في مجملها في قوة ردات الفعل الاجتماعية والاقتصادية في أعقاب هزيمة نابليون. وعلى العموم، كان كل تقدم ليبرالي يدفع الثورات القانونية خطوة إلى الأمام من حيز النظرية إلى حيز التطبيق، وكل استعادة لمظاهر من نظم الحكم القديمة خطوة إلى الوراء، ولا سيما في البلدان الكاثوليكية حيث كانت عَلْمنة أراضي الكنيسة وبيعها من أكثر متطلبات الليبراليين إلحاحاً. وبالتالي، فإن الانتصار المؤقت لثورة ليبرالية في إسبانيا عام 1820 قد مهّد لإصدار قانون "التسريح" الذي سمح للنبلاء ببيع أراضيهم بحرّية؛ وقد ألغي بعد عودة الحكم المطلق عام 1823، وقد أعادت الليبرالية تأكيده عند

(17) F. Luetge, "Auswirkung der Bauernbefreiung," *Jahrbücher Für Nationalökonomie und Statistik*, vol. 157 (1943), pp. 353 ff.

انتصارها مرة أخرى عام 1836، وهكذا دواليك. وكانت مساحة الأراضي التي انتقلت ملكيتها في ذلك الوقت، بحسب تقديرنا، متواضعة، إلا في المناطق التي كان فيها أفراد نشطون من الطبقة الوسطى والمضاربين على الأراضي مهيأين لاغتنام هذه الفرصة. ففي سهول بولونيا في شمال إيطاليا، تراجعت القيمة الإجمالية لأراضي النبلاء من 78 في المئة عام 1789 إلى 66 في المئة عام 1804، ثم إلى 51 في المئة في 1835[18] ومن ناحية أخرى، بقي 90 في المئة من أراضي النبلاء في صقلية في أيدي أصحابها إلى مرحلة متأخرة فيما بعد[19].

كان ثمة استثناء واحد في هذا المجال هو أراضي الكنيسة. وكانت أملاك الكنيسة تضم مساحات شاسعة من الأراضي البور المهمة سيئة الاستغلال، التي تمرح فيها الذئاب من دون رادع أو وازع. ويقال إن ثلث هذه الأراضي في مملكة نابولي كانت تخص الكنيسة في العام 1760[20]. وحتى في فترة الحكم الرجعي المطلق التي شهدت انهيار حكم جوزيف الثاني المستبد المستنير في النمسا الكاثوليكية، فإن أحداً لم يقترح إعادة الأراضي المُعلنة المجزأة إلى رهبان الأديرة. وعلى هذا

---

(18) *Renato Zangheri, Prime ricerche sulla distribuzione della proprieta fondiaria nella pianura bolognese (1789-1835)* (Bologna: Cappelli; stampa, 1957).

(19) انظر: Emilio Sereni, *Il Capitalismo nelle campagne (1860-1900)* (Turín: Einaudi, 1948), pp. 175-176.

ثمة من يرون، بحجج معقولة، أن هذه البورجوازية الريفية القوية الممثلة في جوهرها للطبقة الاجتماعية التي تقود وتنظم المسيرة نحو الوحدة الإيطالية، كانت، بحكم توجهاتها الزراعية، تميل إلى التجارة الحرة الصارمة، التي أكسبت الوحدة الإيطالية الكثير من حسن النية من جانب بريطانيا، غير أنها أدت، في الوقت نفسه، إلى إعاقة التصنيع في إيطاليا. G. Mori, "Osservazioni sul libero-scambismo dei moderati nel Risorgimento," *Rivista storica del socialismo*, vol. 3, no. 9 (1960).

(20) Luigi Dal Pane, *Storia del lavoro in Italia dagli inizi del secolo XVIII al 1815* (Milán [n. pb.], 1958), p. 119.

الأساس، تراجعت مساحة أراضي الكنيسة في إحدى ضواحي راماغنا في إيطاليا من اثنين وأربعين ونصف في المئة من المنطقة عام 1783 إلى أحد عشر ونصف في المئة عام 1812. ولكن الأرض المفقودة لم تكن من نصيب الملاك البورجوازيين فحسب (وقد ارتفعت نسبتهم من 24 إلى 47 في المئة)، بل وزعت أيضاً على النبلاء (الذين زاد معدلهم أيضاً من 34 إلى 41 في المئة)[21]. ولا عجب، إذن، في أن تقوم الحكومات الليبرالية المتقطعة، حتى في إسبانيا الكاثوليكية، ببيع أكثر من نصف إقطاعات الكنيسة بحلول العام 1845، وبشكل أساسي للمقاطعات التي تركزت فيها أملاك الكنيسة أو كانت التنمية الاقتصادية فيها متقدمة (وقد بيع في خمس عشرة مقاطعة ما يزيد على ثلاثة أرباع إقطاعات الكنيسة)[22].

ومما يؤخذ على النظرية الاقتصادية الليبرالية أن إعادة التوزيع الواسعة للأراضي لم تفرز، كما تكهنت التوقعات الواقعة، طبقة من ملاك الأراضي أو المزارعين الناشطين التقدميين. فما الذي يدفع مشترياً من الطبقة الوسطى ـ سواء أكان محامياً أم تاجراً أم مُضارباً ـ في منطقة متخلفة اقتصادياً ويتعذر الوصول إليها، إلى أن يُلزم نفسه الاستثمار المتعب لتحويل أرض مملوكة إلى مشروع اقتصادي يُدار بطريقة سليمة، بدلاً من أن يحتل المكانة التي حرم طويلاً من الوصول إليها، ويأخذ مكان النبيل أو رجل الكنيسة الذي كان يمتلك تلك الأرض في الماضي، ويبدأ عندها ممارسة صلاحياته كافة، مع إيلاء العملة النقدية احتراماً أكثر، واعتبار أقل للتقاليد والعادات؟ وعلى امتداد المساحات البالغة الاتساع في جنوب أوروبا، برزت منظومة من "البارونات"

---

(21) Renato Zangheri, éd., *Le Campagne emiliane nell'epoca moderna; saggi e testimonianze*, Biblioteca G. G. Feltrinelli. Studi e ricerche storiche (Milano: Feltrinelli, [1957]), p. 73.

(22) Jaime Vicens Vives, *Historia social y económica de España y América*, 4 vols. (Barcelona: Editorial Teide, [1957-59]), IVii, pp. 92 and 95.

القساة لتشد من أزر الطبقة القديمة. وبدأت المجمعات التي تركزت فيها العزب الكبيرة بالانقراض التدريجي، كما هي الحال في جنوب إيطاليا، أو بقيت على حالها، كما في صقلية، أو تعززت، كما في إسبانيا. وفي أنساق الحكم هذه، أدت الثورة القانونية إلى تشديد قبضة النظام الإقطاعي بنسق جديد. وزاد في ذلك أن صغار المشترين، ولا سيما الفلاحين، لم ينتفعوا من عمليات بيع الأرض. وعلى الرغم من ذلك، ظلت البنية الاجتماعية القديمة في جنوب أوروبا قوية إلى حدٍّ أصبح معه مجرد التفكير في الهجرة الجماعية أمراً مستحيلاً، إذ استمر الرجال والنساء في العيش حيثما عاش أجدادهم، وتضوروا جوعاً عند الضرورة مثلما تضور أولئك. أما الهجرة الجماعية من جنوب إيطاليا، فلم تحدث إلا بعد نصف قرن من الزمان.

وحتى عندما كان الفلاحون يتسلمون الأرض بالفعل، أو يُثبَّت امتلاكهم لها، كما كانت الحال في فرنسا، وأجزاء من ألمانيا، أو اسكندنافيا، فإنهم لم يتحولوا كما كان مأمولاً إلى طبقة ناشطة من صغار المزارعين؛ وذلك يعود إلى أمر بسيط هو أن الفلاحين كانوا يريدون الأرض، ولكنهم لم يكونوا، إلا فيما ندر، يريدون اقتصاداً زراعياً بورجوازياً.

III

كان النظام التقليدي القديم، على ما فيه من عجز ونزعة للقمع، يمتاز بقدر ملموس من اليقين الاجتماعي، وحتى في أتعس حالاته، بشيء من الأمان الاقتصادي، بالإضافة إلى أن هالة مقدسة من التقاليد والعادات كانت تحيط بذلك النظام. والمجاعات الدورية، وأعباء العمل التي كانت تجعل الرجال يشيخون في الأربعين والنساء في الثلاثين، إنما كانت عملاً ربانياً؛ وهي لا تكون أعمالاً من صنع البشر إلا في الأوقات العصيبة الخارقة للعادة وحالات الثورة. ومن وجهة نظر الفلاحين، لم تُعْطِ الثورة القانونية شيئاً غير بعض الحقوق القانونية، غير

أنها أخذت الكثير. ففي بروسيا، قدم الانعتاق للفلاح ما يعادل الثلثين أو النصف من الأرض التي كان يحرثها، وحرره من العمل القسري ومن التزامات أخرى. إلا أنه، رسمياً، سلبه الكثير من الميزات، ومنها: مطالبته سيد الأرض بالمساعدة في الأوقات التي تقل فيها الغلال، أو يتفشى فيها الوباء بين القطعان؛ وحقه في جمع أو شراء الحطب للوقود من غابات السيد؛ وحقه في طلب المساعدة من السيد لإعادة بناء بيته أو إصلاحه؛ وحقه في حالات الفقر المدقع في أن يطلب معونة السيد لدفع الضريبة؛ وحقه في رعي ماشيته في غابات السيد. وفي مثل هذا الوضع، يجد الفلاح الفقير نفسه بين أمرين أحلاهما مر. صحيح أن أملاك الكنيسة كانت عديمة الكفاءة، ولكن هذه الخصيصة هي التي اجتذبت الفلاحين. فإن ما اعتادوا عليه خلال معيشتهم في هذه العزبة يصبح حقوقاً مكتسبةً. فإن تجزئة الحقل، أو المرعى، أو الغابة المشاع، أو إغلاقها سيحرم الفلاح أو ساكن الكوخ الفقير من موارد واحتياطات كان يعتبرها (بشخصه أو بوصفه جزءاً من السلعة) من حقوقه. وكانت سوق الأراضي الحرة تعني أنه قد يضطر إلى بيع أرضه، أو كانت تعني نشوء طبقة من التجار الناشطين في الأرياف، وأن يتعرض هو للاستغلال من جانب الجشعين القساة منهم بدلاً من السادة الإقطاعيين القدامى أو بالإضافة لهم. لقد كان تطبيق الليبرالية على الأرض أشبه بالقصف الصامت الذي هشم البنية الاجتماعية التي طالما عاش في كنفها ولم يترك مكانها غير الأغنياء، وغير العزلة الموحشة التي تسمى الحرية.

كان طبيعياً أن يبادر فقراء الفلاحين أو سكان الأرياف جميعاً إلى المقاومة قدر المستطاع، وكان طبيعياً أن يجاهر هؤلاء بالمقاومة باسم النموذج المثالي القديم لمجتمع مستقر عادل، أي باسم الكنيسة والملك الشرعي. وإذا ما استثنينا ثورة الفلاحين في فرنسا (التي لم تكن في العام 1789 ضد الكنيسة ولا ضد الملك على أية حال)، فإن جميع الحركات الفلاحية التي قامت في تلك الفترة ضد ملك "أجنبي" أو كنيسة

"أجنبية" إنما قامت في ظاهرها لمصلحة الكهنة أو الحكام المحليين. فقد انضم الفلاحون في جنوب إيطاليا إلى صفوف البروليتاريا الفرعية الحضرية في ثورة اجتماعية مضادة ضد اليعاقبة النابوليين والفرنسيين باسم العقيدة المقدسة وأسرة البوربون؛ وكانت تلك هي الشعارات التي رفعتها عصابات المتمردين وقطاع الطرق في كالابريا وأبوليا ضد الاحتلال الفرنسي، وضد الوحدة الإيطالية فيما بعد. وبالمثل، تزعم الكهنة وأبطال قطاع الطرق الفلاحين الإسبان في حرب العصابات التي شنوها ضد نابليون. وتحالفت الكنيسة، والملك، ونزعة تقليدية متطرفة حتى بالمقاييس السائدة في مطلع القرن التاسع عشر، لتحفز المغاوير الموالين للملك كارل في أقاليم: الباسك ونافار وقسطلة وليون وأراغون، في حربهم الضروس ضد الليبراليين الإسبان في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر. وكانت عذراء غواديلوب هي التي تزعمت الفلاحين المكسيكيين عام 1810. كذلك شنت الكنيسة والإمبراطور الحرب على البافاريين والفرنسيين بزعامة جابي الضرائب أندرياس هوفر في التيرول عام 1809. كذلك حارب الروس عام 1812ـ1813 من أجل القيصر والكنيسة الأرثوذكسية المقدسة. كما أن الثوريين البولنديين في غاليقيا أدركوا أن الوسيلة الوحيدة لاستنهاض الفلاحين الأوكرانيين هي الأرثوذكسية اليونانية والكهنة الموحدون، وقد فشلوا لأن الفلاحين عدلوا عن السادة وانضموا إلى الإمبراطور. وخارج فرنسا، حيث استهوت النزعة الجمهورية والبونابرتية قطاعاً مهماً من الفلاحين بين العامين 1791 و1815، وحيث كانت الكنيسة تلفظ آخر أنفاسها حتى قبل الثورة، فقد اندلعت اضطرابات فلاحية يمكن أن نسميها الآن يسارية، في مناطق قليلة، ولا سيما تلك التي كانت الكنيسة تعتبر فيها حاكماً غريباً مكروهاً مثل روماغنا البابوية وإميليا. وحتى في فرنسا نفسها، ظلت بريتاني وفانديه قلعتين حصينتين للملكية البوربونية الشعبية. وكان إخفاق الفلاحين الأوروبيين في نصرة اليعاقبة والليبراليين، أي المحامين، وأصحاب الحوانيت، ومديري العقارات،

وموظفي الحكومة، وملاك الأرض، كان هذا الإخفاق قد أصاب مقتلاً من ثورات العام 1848 في البلدان التي لم تمنحهم الثورة فيها الأرض. وفي الحالات التي منحوا فيها الأرض، أدى تخوفهم من فقدانها أو قناعتهم بما لديهم إلى إصابتهم بالخمول والعجز.

لم يقف الفلاحون، بطبيعة الحال، في صف الملك الحقيقي الذي كادوا لا يعرفونه، بل من أجل صورة مثالية لملك عادل كان، لو عرف، سيعاقب الانتهاكات التي يرتكبها زبانيته واللوردات، على الرغم من أن هؤلاء الفلاحين كانوا يهبّون لنصرة الكنيسة الحقيقية؛ ذلك أن كاهن القرية كان واحداً منهم، وكذلك كان القديسون في عداد الأهل لهم لا لغيرهم. بل إن إقطاعية الكنيسة المتداعية كانت، في بعض الأحيان، مالك أرض أكثر تسامحاً معهم من الرجل العادي الجشع. وحيثما كان الفلاحون يمتلكون الأرض ويتمتعون بالحرية، كما كان حالهم في التيرول، ونافار، أو (بدون ملك) في كانتونات سويسرا الكاثوليكية الأصلية التي انطبعت في أذهانهم بصورة البطل القومي وليام تِلْ، فإنهم كانوا يتشبثون بالتقاليد دفاعاً عن حريتهم النسبية ضد التجاوزات الليبرالية. أما في الأحوال المغايرة، فكانوا أكثر ميلاً إلى الاتجاه الثوري، وكانت أية دعوة لمقاومة الغزو الأجنبي، أو البورجوازية، سواء أطلقها الكاهن، أم الملك أم أي شخص آخر، كفيلةً لا بنهب بيوت الوجهاء والمحامين في المدينة فحسب، بل بإقامة مسيرة احتفالية تدق فيها الطبول، وترفع رايات القديسين لاحتلال الأراضي وتقسيمها، ويقتل اللوردات، وتُغتصب نساؤهم، وتحرق الوثائق القانونية. إن فقر الفلاحين وحرمانهم من الأرض كانا، في اعتقادهم، مخالفة لتعليمات المسيح ورغبة الملك. وكان ذلك هو الأساس الراسخ للتململ الاجتماعي الثوري الذي جعل الحركات الفلاحية حليفاً غير موثوق به للرجعية في المناطق التي ينتشر فيه الرق، والإقطاعات الواسعة، أو في المناطق التي تشيع فيها الأملاك الضئيلة الحجم أو المجزأة إلى قطع بالغة الصغر. وكان كل ما يحتاجونه للتحول

من ثورة شرعية شكلاً، إلى ثورة يسارية شكلاً، هو إدراكهم أن الملك والكنيسة يقفان إلى جانب الأغنياء المحليين، وبروز حركة ثورية من جانب رجال مثلهم ويتكلمون لغتهم. وربما كانت حركة غاريبالدي الراديكالية الشعبية أول هذه الحركات. وقد هلل له وأعلى من شأنه العصاة في نابولي فيما كانوا، في الوقت نفسه، يتغنون بأمجاد الكنيسة المقدسة وأسرة البوربون. وستكون المارتسية والباكونينية أكثر فاعلية في هذا المضمار. غير أن تحول حركات التمرد الفلاحية من اليمين السياسي إلى اليسار السياسي كان قد بدأ قبل العام 1848؛ ذلك أن الآثار العظيمة التي خلفها الاقتصاد البورجوازي على الأراضي، التي حولت نزعة التمرد الفلاحية السطحية إلى حركات وبائية، لم تتضح بصورة جلية إلا بعد أواسط القرن التاسع عشر، ولا سيما في الفترات التي سبقت وتلت الكساد الزراعي الكبير في ثمانينات ذلك القرن.

IV

كانت الثورة القانونية بالنسبة لأجزاء واسعة من أوروبا، كما رأينا، أشبه بأمر مفروض عليها من الخارج ومن سلطة عليا، وكزلزال اصطناعي لا كمسيرة لينة على سهل ممتد مترامي الأطراف. وقد تجلى ذلك في الحالات التي فرضت فيها هذه الثورة على اقتصاد غير بورجوازي تعرض للغزو من جانب اقتصاد بورجوازي، كما حدث في أفريقيا وآسيا.

من هنا، فإن غزاة الجزائر الفرنسيين وجدوا أمامهم مجتمعاً قروسطياً نموذجياً قام فيه نسق راسخ مزدهر من المدارس الدينية تموله مؤسسات خيرية عديدة[23]. ويقال إن الجنود الفرنسيين الفلاحين كانوا

(23) تماثل هذه الأراضي تلك التي منحت للكنيسة في البلدان المسيحية في القرون الوسطى لأغراض خيرية أو طقوسية.

أقل علماً ومعرفةً من الشعب الذي غزوه[24] وقد أغلقت المدارس، لأنها اعتبرت منابت للشعوذة، كما سمح بشراء أراضي الأوقاف للأوروبيين الذين لم يفهموا مقاصدها ولا الاستحالة القانونية لانتزاعها أو نقل ملكيتها. ولجأ مديرو المدارس، الذين كانوا، في العادة، أعضاء في الأخويات الدينية الواسعة النفوذ، إلى المناطق التي لم تقع تحت الاحتلال، لتعزيز قوات الثورة بزعامة عبد القادر. وبدأ منذ ذلك الوقت تحويل الأرض بصورة منظمة إلى ملكية خاصة بسيطة يتبادلها المشتري والبائع، مع أن الآثار الكاملة لهذا التحول لم تظهر إلا بعد فترة طويلة. وأنّى لرجل ليبرالي أوروبي أن يفهم الشبكة المركبة من الحقوق والالتزامات الجماعية التي حالت، في منظمة مثل القبائل، دون انهيار الأرض وتبعثرها إلى أشرطة وأجزاء فوضوية ضئيلة من الأثلام المملوكة من أفراد؟

بحلول العام 1848، لم تكن الجزائر قد قُهرت بعد، وكانت مناطق شاسعة من الهند تخضع للإدارة البريطانية المباشرة لأكثر من جيل. وحيث إن أحداً من المستوطنين البريطانيين لم يكن يرغب في تملك أرض هندية، لم تبرز أية مشكلات تتعلق بانتزاع الأرض أو مصادرتها. وكان أثر النزعة الليبرالية على الحياة الزراعية في الهند في المقام الأول حصيلة لسعي الحكام البريطانيين إلى وضع خطة مناسبة فعالة لتحصيل الضرائب على الأراضي. وكان تضافر الجشع والنزعة القانونية الفردية لديهم هو الذي سبب الكارثة؛ فقبل دخول البريطانيين إلى الهند، كانت قواعد امتلاك السيد الإقطاعي للأرض معقدة، شأنها في ذلك شأن المجتمعات التقليدية القابلة للتغير التي تتعرض بصورة دورية للغزو الأجنبي. غير أنها كانت بشكل عام تعتمد على ركيزتين ثابتتين؛ فالأرض، قانوناً وفعلاً، تخص تجمعات تحكم نفسها بنفسها (ومنها القبائل، والعشائر،

---

(24) M. Emerit, "L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830," *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, vol. 1 (1954), p. 207.

وكومونات القرى، والأخويات وأمثالها)، وكانت الحكومة تحصل على نسبة من المحصول. وعلى الرغم من أن جانباً من الأرض كان قابلاً للتداول على نحو ما، وأن بعض العلاقات الزراعية كان يمكن تفسيرها بأنها نوع من التملك، وبعض الدفعات في الريف بأنها نوع من الإيجار، فإنه لم يكن هناك ملاكون للأرض، أو مستأجرون، أو أراض مملوكة بصورة فردية، أو تأجير بالمعنى الإنجليزي. وكان هذا الوضع مدعاة للاستهجان والاستياء من جانب المديرين والحكام البريطانيين الذين لم يفهموه، بل مضوا قدماً في اختراع ترتيبات ريفية مألوفة لديهم. وفي البنغال، وهي أول منطقة واسعة تقع تحت السيطرة البريطانية المباشرة التي كانت تسمى الموغال، كان القائم على جباية ضريبة الأرض، أي الزيمندار، من فئة الجباة الزراعيين أو الوكلاء المفوضين. ولا ريب في أن هؤلاء كانوا يماثلون مالك الأرض البريطاني، الذي يدفع الضريبة المقدرة على جميع ما يمتلكه من عزب (كما هي الحال في ضريبة الأرض الإنجليزية هذه الأيام)، وفقاً للتصنيف الذي يجري بموجبه جمع الضرائب، بحيث تؤدي عنايته بالأرض إلى تحسن أوضاعها، ودعمه لنظام أجنبي إلى إضفاء الاستقرار عليها. ويقول اللورد تينماوث (Lord Teignmouth) في تسجيله لوقائع شهر حزيران/ يونيو 1789، التي وضعت فيها الخطوط العريضة لِـ "التسوية الدائمة" لعائدات الأراضي في البنغال: "إنني أعتبر الزيمندار مالك الأرض، التي تنتقل ملكيتها على التوالي بحق الميراث. . . . وصلاحية التنازل عن الأرض عن طريق البيع أو الرهن، مستمدة من هذا الحق الأساسي. . . ."[25]. وقد طبقت تنويعات من هذا الأسلوب الذي سمي النظام الزيمنداري على نحو 19

(25) Romesh Chunder Dutt, *The Economic History of India under Early British Rule, from the Rise of the British Power in 1757 to the Accession of Queen Victoria in 1837*, Trübner's Oriental Series (London: K. Paul, Trench, Trübner and co, [1916]), p. 88.

في المئة من المناطق في فترات لاحقة من الحكم البريطاني في الهند.

إن الجشع، لا سهولة التعامل، هو الذي استدعى تطبيق النوع الثاني من نظام العائدات، الذي شمل آخر الأمر ما يزيد على نصف المناطق الهندية خلال الحكم البريطاني، أي ريوتواري. فالحكام البريطانيون، الذين اعتبروا أنفسهم خلفاً لاستبداد شرقي كان، من وجهة نظرهم التي تفتقر إلى الحكمة، هو المالك الأعلى للأرض برمتها، حاولوا القيام بمهمة عملاقة هي وضع تقديرات للضريبة الفردية على كل فلاح، باعتبار أنه من ملاك الارض الصغار أو المستأجرين. وكان المبدأ الكامن وراء هذا الإجراء، كما عبر عنه المسؤولون الأكفاء بالوضوح المعهود فيهم، يمثل الليبرالية الزراعية في أنقى حالاتها. وقد استلزم ذلك، على حد تعبير غولدسميد (Goldsmid) ووينغايت (Wingate)، " تحديد المسؤولية المشتركة في عدة حالات تكون فيها الحقول ملكاً جماعياً، أو موزعة بين شركاء في الإرث، والإقرار بملكية الأرض، والحرية الكاملة في الإدارة فيما يتعلق بالاستئجار من المستأجرين من الباطن، والبيع المضمون لأصحاب الأرض، والتسهيلات المقدمة لتنفيذ معاملات البيع أو نقل الأرض، وذلك عن طريق تحديد نسبة القيمة المقدرة للحقول"[26]. وقد تم في هذه الحالة تجاوز مجتمع القرية تماماً على الرغم من الاحتجاج الشديد الذي قدمه مجلس الإيرادات في مدراس (1808ـ1818). فقد رأى هذا المجلس، بحق، أن التسويات الضريبية الجماعية مع جماعات القرية أكثر واقعية، مع حمايتها والوقوف معها بوصفها أفضل ضمان للملكية الخاصة. وقد غلب الجشع والتزمت الإداري آخر الأمر، وأسبغت على الفلاحين الهنود "نعمة الملكية الخاصة".

(26) Romesh Chunder Dutt, *India in the Victorian Age* ([n. p.]: Kegan Paul, 1904), pp. 56-57.

كانت الأضرار المترتبة على هذا الإجراء من الوضوح بحيث عادت تسويات الأراضي في المناطق التي تمت السيطرة عليها أو احتلالها في شمال الهند إلى نظام معدل للزيمندار (وكانت هذه المناطق تمثل 30 في المئة من أراضي الحكم البريطاني للهند). إلا أن بعض المحاولات قد جرت أيضاً للاعتراف بالتجمعات الجماعية القائمة، ولا سيما في إقليم البنجاب.

وتضافر المبدأ الليبرالي مع الطمع الشرس لتضييق الخناق على الفلاحين؛ فزادا الضريبة زيادة حادة (وقد تضاعفت إيرادات الأرض في بومبي أكثر من مرتين خلال أربع سنوات من احتلال الإقليم عام 1817ـ1818)، وأصبح مبدأ الإيجار الذي وضعه مالتوس (Malthus) وريكاردو (Ricardo) من خلال النفوذ الذي مارسه زعيم المدرسة النفعية جيمس مِلْ هو العنصر الرئيسي في نظرية الريع. ووفقاً لهذا المبدأ، اعتبرت إيرادات الأرض المحكومة فائضاً صافياً لا علاقة له بالقيمة. وقد أُثير هذا المبدأ لأن بعض الأراضي التي تملكها الملاك كانت أكثر خصباً من غيرها، مما ترك آثاراً مدمرةً على الاقتصاد بأكمله. ومن ثم، فإن مصادرة هذه الأراضي لم تؤثر على ثروة البلاد، إلا بالحؤول دون نمو أرستقراطية مالكة للأرض وقادرة على ارتهان رجال الأعمال. وكان مستحيلاً أن يطرح النفوذ السياسي للمصالح الزراعية حلاً راديكالياً في بلد مثل بريطانيا، وربما كان سيؤدي إلى تأميم الأرض. غير أن قوة غازية مستبدة طاغية أيديولوجية كانت قادرة على فرض ذلك في الهند. وقد تقاطع عند هذه النقطة تياران من الجدل الليبرالي. فقد اتخذ مسؤولو الإدارة المحافظون وأصحاب المصالح الاقتصادية القدامى في القرن الثامن عشر موقفاً منطقياً مؤداه أن صغار الملاك الجهلة الذين يعيشون حياة الكفاف لن يستطيعوا، على الإطلاق، أن يراكموا رأس المال الزراعي ويدعموا الاقتصاد بهذه الخطوة، ففضلوا لذلك "تسويات دائمة" من النوع الذي طبق في البنغال، الذي شجع طبقة من ملاك الأرض، وفرض معدلات من الضريبة ثابتة إلى الأبد (أي بنسبة

متناقصة)، وشجع بالتالي على الادخار والتطوير. أما الإدارات النفعية، التي تزعمها المنظّر البارز مِل، فكانت تحبذ تأميم الأرض، وقيام تجمع من صغار الفلاحين ـ المستأجرين على مخاطر قيام أرستقراطية ثانية من ملاك الأرض. ولو كانت الهند مثل بريطانيا، لكانت حجة المحافظين أكثر إقناعاً بالتأكيد. وقد أصبحت كذلك لأسباب سياسية بعد العصيان الهندي عام 1857. ولم يكن لأي من النهجين السالفي الذكر علاقة بالزراعة في الهند. وبالإضافة إلى ذلك، ومع نمو الثورة الصناعية في بريطانيا، أصبحت المصالح الفرعية لشركة الهند الشرقية القديمة (التي كانت لها الهند بمثابة البقرة الحلوب) خاضعة لمصالح الصناعة البريطانية التي كانت تريد الاحتفاظ بالهند سوقاً ومصدراً للدخل، لا منافساً لها. من هنا، أعطيت الأفضلية للسياسة النفعية، التي أمّنت لبريطانيا سيطرة كاملة، ومردوداً عالياً من الضرائب. وكانت حدود الضريبة التقليدية قبل السيطرة البريطانية تمثل ثلث الإيرادات، بينما كان الأساس النموذجي البريطاني يعادل النصف. ولم تخفض الضريبة إلى معدلات أخف إلا بعد أن أدت السياسة النفعية الانضباطية إلى إفقار الكثيرين، إلى ثورة العام 1857.

إن تطبيق الليبرالية البريطانية على الأراضي الهندية لم يسفر عن قيام فئة من ملاك الإقطاعات المستنيرين، ولا طائفة من صغار الفلاحين المالكين المجدّين. بل إنه أسفر عن توليد عنصر آخر من الشك، هو شبكة أخرى معقدة من الطفيليين المستغلين للقرى (أي الموظفين الجدد في الراج البريطاني)[27]، والتحول الملحوظ في الملكية، وتعاظم ديون

---

(27) Bernard S. Cohn, "The Initial British Impact on India, a Case Study of Banaras Region," *The Journal of Asian Studies*, vol. 19 (1960), pp. 418-431.

تظهر دراسة الآثار الأولية للوجود البريطاني في الهند أن المسؤولين في مقاطعة بنارس (ولاية أوتار برادش) استخدموا مناصبهم الرسمية لاستملاك الأراضي بسعر الجملة. ومن أصل 74 مالكاً للإقطاعيات الكبيرة في نهاية القرن، استملك 23 سندات الملكية الأصلية للأراضي بسبب علاقاتهم مع موظفي الحكومة (ص 430 من المصدر المذكور).

الفلاحين وارتفاع نسبة الفقراء بينهم. وفي مقاطعة كاونبور في ولاية أوثار براديش، كان الملاك الوارثون يمتلكون ما يزيد على 84 في المئة من جميع العزب عندما تولت شركة الهند الشرقية الأمور. وبحلول العام 1840، كان المالكون الأصليون لهذه العزب قد اشتروا أربعين في المئة منها، ثم ارتفعت هذه النسبة إلى 62,6 في المئة عام 1872. وعلاوة على ذلك، كان أكثر من 750 عزبة من أصل ما يزيد على ثلاثة آلاف عزبة أو قرية، أي نحو ثلاثة أخماس العدد الإجمالي، التي انتقلت ملكيتها من ملاّكها الأصليين في ثلاث مقاطعات في الأقاليم الشرقية (أوتار براديش) بحلول العام 1846ـ1847، قد رُهنت لدى الدائنين المقرضين[28].

يمكن أن نقول الكثير لمصلحة الاستبداد المنهجي المستنير الذي أظهره البيروقراطيون النفعيون الذين بنوا الراج البريطاني في تلك الفترة. فقد أرسوا دعائم السلام، وطوروا الخدمات العامة، والكفاءة الإدارية، والقوانين التي يمكن الركون إليها، والحكومة غير الفاسدة على المستويات العليا. إلا أنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً في الناحية الاقتصادية. ومن بين جميع المناطق التي تولت إدارتها حكومات أوروبية، أو حكومات على الطراز الأوروبي بما فيها روسيا القيصرية، ظل شبح المجاعات الرهيبة الكاسحة يخيم على الهند، وربما زادت وطأة هذه الكوارث في أواخر ذلك القرن، على الرغم من عدم توفر الإحصاءات عن فترات سابقة.

وكانت أمريكا اللاتينية هي المنطقة المستعمرة الكولونيالية (أو

---

(28) Sulekh Chandra Gupta, "Land Market in the North Western Provinces (Uttar Pradesh) in the First Half of the Nineteenth Century," *Indian Economic Review*, vol. IV, no. 2 (August 1958).

انظر كذلك دراسة هذا المؤلف الرائدة والمفيدة بالقدر نفسه عن الأوضاع الزراعية التي اكتنفت التمرد في المقاطعات الشمالية الغربية عام 1857 في مجلة: *Enquiry*, New Delhi (February 1959).

الكولونيالية سابقاً) التي جرت فيها محاولات لتطبيق قانون الأرض الليبرالي. وفي هذه المناطق، لم يبدِ المستعمرون الإقطاعيون الإسبان على الإطلاق أية معارضة ضد تملك الهنود الجماعي الأساسي للأرض ما دام المستعمرون البيض كانوا ينالون ما شاؤوا من الأراضي. إلا أن الحكومات المستقلة سلكت السبيل الليبرالي الذي دعت إليه الثورة الفرنسية والمبادئ التي طرحها بنثام وكانت مصدر إلهام لها. وعلى هذا الأساس، أصدر بوليفار مرسوماً بفردنة الأراضي الجماعية في البيرو (1824)، وقامت أكثر الجمهوريات الجديدة بإلغاء وقف الأملاك لورثة معينين على نحو ما فعل الليبراليون الإسبان. وربما أفضى تحرير الأرض إلى إعادة تنظيم الأراضي وانتشارها، مع أن المزرعة (الهاسيِنْدا) ظلت هي الوحدة الأساسية لتملك الأرض في أكثر الجمهوريات، وكانت الهجمة على الأملاك الجماعية غير فعالة. والواقع أن الحملة لم تتخذ طابعاً جدياً إلا بعد العام 1850. بل يمكن القول إن تحرير الاقتصاد السياسي في تلك البلدان ظل أمراً مصطنعاً، مثله مثل نظامها السياسي. وعلى الرغم من قيام البرلمانات، والانتخابات، وقوانين الأرض وما إليها، فإن الأمور في أمريكا اللاتينية ظلت، في جوهرها، على ما كانت عليه.

V

تمثل الثورة في حيازة الأرض ونقلها الجانبَ السياسيَّ من الاضطراب الذي أصاب المجتمع الزراعي التقليدي، بينما يمثل اقتحامها من جانب الاقتصاد الريفي الجديد والسوق العالمية الجانبَ الاقتصادي. ولم يكن هذا التحول الاقتصادي قد اكتمل بعد في الفترة الممتدة بين العامين 1787 و1848. ويمكننا أن نتبين ذلك في المعدل المتواضع للهجرة. ولم تبدأ السكة الحديدية والسفن البخارية بخلق سوق زراعية عالمية واحدة إلا عند حدوث الكساد الكبير في المزارع في وقت لاحق من القرن التاسع عشر. من هنا، كانت الزراعة المحلية تتمتع، إلى حد كبير، بالحماية ضد المنافسة

الدولية وحتى البينية في نطاق المقاطعات. من جهة أخرى، لم تكن المنافسة الصناعية قد بدأت بالفعل تتهدد المصنوعات الحرفية القروية أو مراكز الإنتاج المحلية، إلا لتحويل بعضها إلى منتجات توزع على أسواق أوسع. وكانت الأساليب الزراعية خارج نطاق الزراعة الرأسمالية الناجحة، تتغلغل ببطء في القرية، على الرغم من أن محاصيل صناعية جديدة حققت تقدماً مشهوداً. ومن هذه المحاصيل شمندر السكر الذي انتشر نتيجة لمقاطعة سكر القصب البريطاني خلال المرحلة النابليونية، ومحاصيل غذائية جديدة مثل الذرة البيضاء، والبطاطا. ولم يكن ممكناً توليد حافز حقيقي في مجتمع زراعي بوسائل اقتصادية بحتة إلا بالتقاء أكثر من عنصر في زمان ومكان واحد، مثل القرب المباشر لاقتصاد صناعي على مستوى عال، ووجود موانع تكبح التنمية العادية.

وقد التقت هذه العناصر، وولّدت الحافز في إيرلندا، وإلى حد أقل في الهند. وكان ما حدث في الهند، ببساطة، هو التدمير شبه الكامل، خلال عقود قليلة، لما كان صناعة محلية وقروية مزدهرة مكملة للمداخيل الريفية؛ أي بعبارة أخرى، تجريد الهند من الصناعة. وبين العام 1815 والعام 1832، انخفضت قيمة البضائع القطنية الهندية المصدرة من تلك البلاد من مليون وثلاثمائة ألف باوند إلى أقل من مئة ألف باوند، بينما زادت واردات البضائع القطنية البريطانية إلى الهند ستة عشر ضعفاً. وعام 1840، حذر أحد المراقبين من العواقب المدمرة الجسيمة لتحويل الهند إلى "مزرعة غلال لإنجلترا؛ فالهند بلد منتج، وقد ازدهرت فيها مراكز الإنتاج الصناعي بأنواعه منذ قديم الزمان، ولم تكن أية دولة أخرى قادرة على منافستها إذا توافرت عناصر العدل والإنصاف. . . . ومن الإجحاف بحق الهند أن تحوَّل إلى بلد زراعي"[29]. وهذا الوصف ينطوي على بعض التضليل، لأن تنشيط

---

(29) Rajani Palme Dutt, *India to-Day* (London: V. Gollancz, 1940), pp. 129-130.

الإنتاج كان، في الهند وفي بلدان عديدة أخرى، جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد الزراعي. ومن ثم، فإن سياسة اللاتصنيع جعلت القرية الفلاحية نفسها تعتمد بشكل أكبر على محصول واحد يتحكم فيه تقلب المواسم.

وفي إيرلندا، كان الوضع أكثر إثارة. ففي بلد قليل السكان، متخلف اقتصادياً، يفتقر أهله إلى الأمن، كان المستأجرون الذين يعيشون من الزراعة على مستوى الكفاف يدفعون الحدود القصوى للإيجار لمجموعة قليلة من أصحاب الأرض الأجانب الذين لا يفلحون ولا يزرعون، بل يتغيبون عن أملاكهم بصورة عامة. وباستثناء المنطقة الشمالية الشرقية في إيرلندا (أي ألستر)، كانت البلاد قد حدت من الصناعة بفعل السياسة التجارية للحكومة الاستعمارية البريطانية، وفي فترة لاحقة بفعل منافسة الصناعة البريطانية. وقد أسفر ابتكار فني واحد، هو الاستعاضة بالبطاطا عن أنواع من المحاصيل الزراعية التي كانت شائعة في السابق، إلى تعزيز إمكانية التزايد في عدد السكان؛ فإن محصول فدان واحد من البطاطا يكفي لتغذية أعداد من الناس أكثر بكثير من إنتاج فدان من العلف، أو أية محاصيل أخرى في الواقع. وقد شجعت مطالبة سادة الأرض بأقصى عدد ممكن من المستأجرين الذين يدفعون الإيجار، وفي وقت لاحق، من الأيدي العاملة لفلاحة المزارع الجديدة التي تصدر المواد الغذائية إلى الأسواق البريطانية المتزايدة الاتساع، على مضاعفة القطع المملوكة. ففي العام 1841، كانت مساحة 64 في المئة من جميع الأراضي الكبيرة المملوكة في كوناكت أقل من خمسة فدادين، وذلك لا يشمل عدداً غير معروف من قطع الأرض التي تقل مساحة كل منها عن فدان واحد. وهكذا، تضاعف عدد السكان الذين كانوا يعتاشون من محصول هذه الأراضي خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وكان غذاء الفرد من هؤلاء يتألف من 10ـ12 باونداً من البطاطا في اليوم، وحتى العشرينات من ذلك القرن، من كمية من الحليب، وبعض السمك أحياناً. ولم يكن بين شعوب أوروبا

الغربية من يضاهي الإيرلنديين فقراً[30].

وحيث لم تكن ثمة فرص عمل بديلة، بعد إسقاط التصنيع من الحساب، كان ممكناً التكهن بنهاية هذا التطور بطريقة رياضية. فالكارثة كانت ستدق كل باب حالما يتزايد عدد السكان إلى الحدود التي تفرضها آخر وجبة من البطاطا في آخر قطعة أرض مفلوحة. وقد ظهرت نذر الكارثة فور انتهاء الحروب الفرنسية. وتضافر نقص الغذاء وانتشار الأمراض الوبائية ليحصدا عشر الإيرلنديين الذين كانوا يجأرون بالشكوى من سوء الوضع الزراعي. وكانت الغلة السيئة والأمراض التي داهمت المحاصيل بمثابة فرقة لإطلاق النار على شعب حكم عليه بالإعدام. ولا يعلم أحد بصورة دقيقة، عدد الضحايا في المجاعة الكبرى في إيرلندا عام 1847، التي كانت أضخم كارثة بشرية في التاريخ الأوروبي خلال الفترة التي نعالجها في هذه الدراسة. وتشير بعض التقديرات التقريبية إلى أن نحو مليون شخص ماتوا جوعاً، ومليونين آخرين هاجروا من الجزيرة المنكوبة بين العام 1846 والعام 1851. وكان عدد سكان إيرلندا عام 1820 أقل قليلاً من سبعة ملايين نسمة، وعام 1846 ثمانية ملايين ونصف المليون. أما في عام 1851، فقد انخفض العدد إلى ستة ملايين ونصف المليون، وأخذ عدد السكان يهبط باطّراد من خلال الهجرة منذ ذلك الحين. وفي تلك الأيام، استعاد كاهن إحدى الأبرشيات في إيرلندا لهجة مؤرخي القرون الوسطى، فكتب يشكو من أن أبرشيات غالوي ومايو لم تقم بطقوس العمّاد للأطفال عدة أشهر لأنه لم يكن ثمة مواليد في تلك الفترة[31].

في الفترة بين العامين 1789 و1848، كان من سوء طالع المرء أن

(30) K. H. Connell, "Land and Population in Ireland, 1780-1845," *The Economic History Review*, 2nd Series, vol. 3 (1949-1950), p. 285 and 288.

(31) S. H. Cousens, "Regional Death Rates in Ireland During the Great Famine from 1846 to 1851," *Population Studies*, vol. 14, no. 1 (1960), p. 65.

يكون فلاحاً في الهند وإيرلندا، غير أن أحداً لم يكن يرغب في تلك الفترة، إذا أعطي حق الاختيار، أن يكون عاملاً في إحدى المزارع في بريطانيا أيضاً. فمن المتفق عليه أن أوضاع هذه الطبقة التعيسة كانت قد تدهورت بشكل ملحوظ بعد منتصف التسعينات من القرن الثامن عشر. ويُعزى بعض ذلك إلى القوى الاقتصادية، وبعضه الآخر إلى موجة الفقر المدقع التي استحدثت "نظام سبينهاملاند" (1795)، وهو محاولة حسنة النية ولكنها جانبت الصواب لتأمين الحد الأدنى من الأجور للعمال بتقديم الدعم لذوي الأجور المتدنية، وكان من آثارها الرئيسية تشجيع المزارعين على خفض الأجور، مما أدى إلى إصابة العمال بالإحباط. ويمكن الاستدلال على مقدار ما أصابهم من تململ ونزوع إلى التمرد بزيادة المخالفات لقانون الصيد في العشرينات من ذلك القرن، والجنح وحوادث الإحراق العمد للمباني والممتلكات في الثلاثينات والأربعينات، وفوق هذا وذاك، بـ "حركات التمرد العمالي الأخيرة" اليائسة، العاجزة، وهي حوادث الشغب الوبائي التي انتشرت بصورة تلقائية من كِنْتْ إلى مقاطعات عديدة أخرى في أواخر الثلاثينات، وجرى قمعها بصورة وحشية. وقد حاولت الليبرالية الاقتصادية حل مشكلات العمال بأسلوبها المبتسر الفظّ بإرغامهم إما على قبول العمل بأجر اقتصادي أو الهجرة. وعام 1834، جاء قانون الفقر الجديد، وهو منظومة من المواد والبنود البالغة القسوة، ليقدم معونة الفقر للعمال الذين يعملون في المشاغل الجديدة (التي يرغمون فيها على ترك زوجاتهم وأطفالهم لثنيهم عن الانجراف العاطفي الجنسي الذي يدفعهم، خلافاً لنصائح مالتوس، إلى التهور في الإنجاب)، مع سحب الضمانات التي تؤمنها الأبرشية لهم بتقديم الحد الأدنى من سبل العيش. وقد انخفضت كلفة قانون الفقر بصورة حادة (مع أن مليون بريطاني ظلوا يعيشون في فقر مدقع حتى نهاية الفترة التي تعالجها هذه الدراسة)، وبدأ العمال بعدها التحرك ببطء، وبما أن الكساد أصاب الزراعة، فإن أوضاعهم ظلت غاية في التعاسة. ولم تبدأ أمورهم بالتحسن إلا في الخمسينات من القرن التاسع عشر.

كان العمال الزراعيون، في واقع الأمر، يعانون البؤس في كل مكان، مع أن أوضاعهم في المناطق المتخلفة النائية كانت، تقليدياً، متردية سيئة. وأدى الاكتشاف غير السعيد للبطاطا إلى هبوط مستوى المعيشة في أجزاء واسعة من شمال أوروبا، ولم يطرأ تحسن جوهري على أوضاعهم، في بروسيا مثلاً، إلا في الخمسينات والستينات من ذلك القرن. وربما كان وضع الفلاح المكتفي ذاتياً أفضل من ذلك، على الرغم من أن أوضاع ملاك الأرض الصغار كانت، عند حدوث المجاعات، تدعو إلى اليأس. وربما لم تتأثر فرنسا، وهي بلاد فلاحين، مثل غيرها، بالكساد العام الذي أصاب الزراعة بعد الحروب النابليونية. بل إن الفلاح الفرنسي لو نظر عبر القناة عام 1840 وقارن بين ما كانت عليه أوضاعه وأوضاع العمال البريطانيين في العام 1788، لأدرك أن حظه كان أفضل من حظوظ البريطانيين على الجانب الآخر[32]. وفي تلك الأثناء، كان المزارعون الأمريكيون على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، يتابعون شؤون الفلاحين في العالم القديم، ويهنئون أنفسهم على أنهم لا ينتمون إلى أوروبا.

---

(32) "بعد أن عشت طويلاً في أوساط الفلاحين والطبقة العاملة في بلادي وخارجها، علي أن أقول بصدق إنني لم أعرف أناساً أكثر من المزارعين الفرنسيين تأدباً، ونظافةً، وجداً، وتقشفاً، ورصانةً، أو هنداماً، إذا أخذنا أوضاعهم بالاعتبار. وهم، في هذه النواحي، يقفون بصورة صارخة على نقيض من قطاع كبير من العمال الزراعيين الاسكوتلنديين الذين يتميزون بالقذارة والبؤس البالغين، وكذلك الكثير من الإنجليز الذين يتسمون بالخنوع والانكسار والانغلاق في أساليب معيشتهم، ومن الإيرلنديين المساكين الذين يعيشون شبه عراة، وفي ظروف قاسية كل القسوة..."، انظر: Henry Colman, *The Agriculture and Rural Economy of France, Belgium, Holland and Switzerland* (London: J. Petheram, 1848), pp. 25-26.

الفصل التاسع

نحو عالم صناعي

"هذه، بالفعل، أيام مجيدة للمهندسين".

جيمس نازميث (James Nasmyth)، مخترع المطرقة البخارية[1].

"إزاء مثل هؤلاء الشهود، آه أيتها الطليعة المتقدمة،

أفرطي في الثناء على قدرة القاطرة،

أفرطي في الثناء على البخار وخطوط السكك الحديد.

آ. بوميه (A. Pommier)[2].

I

بحلول العام 1848، كان ثمة اقتصاد صناعي فعال، هو الاقتصاد البريطاني الذي استطاع بالتالي الهيمنة على العالم. وفي الأربعينات من

---

(1) W. H. G. Armytage, *A Social History of Engineering* ([n. p.: n. pb.], 1961), p. 126.

(2) Roger Picard, *Le Romantisme social* ([New York; Paris]: Brentano's, [1944]), pt. 2, cap. 6.

القرن التاسع عشر، ربما كانت الولايات المتحدة ومناطق واسعة من أوروبا الغربية والوسطى قد تقدمت خطوات من عتبة الثورة الصناعية أو تجاوزتها. ومثلما كان يتوقع ريتشارد كوبدن (Richard Cobden) في أواسط الثلاثينات[3]، فمن المؤكد أن الولايات المتحدة ستكون، بعد عشرين سنة، هي المنافس الجدّي لبريطانيا، كما أن الألمان كانوا في الأربعينات يشيرون إلى التقدم الصناعي السريع في بلادهم، على الرغم من أن أي طرف من الخارج لم يكن يشاركهم هذا الرأي. إلا أن هذه الاحتمالات لم تتحقق. وظل التحول الاقتصادي الحقيقي في العالم الناطق بغير الإنجليزية متواضعاً بحلول الأربعينات من القرن التاسع عشر. ففي العام 1850، على سبيل المثال، كان إجمالي خطوط السكة الحديدية في إسبانيا والبرتغال واسكندنافيا وسويسرا وشبه الجزيرة البلقانية جميعها أكثر قليلاً من مئة ميل. وإذا استثنينا الولايات المتحدة، فإن هذا الرقم ينخفض إلى النصف في البلدان غير الأوروبية جميعها. وإذا وضعنا بريطانيا وعدداً قليلاً من البقاع الأخرى جانباً، فإن العالم الاقتصادي والاجتماعي في أربعينات القرن التاسع عشر لم يكن ليبدو مختلفاً اختلافاً كبيراً عما كان عليه عام 1788. فأغلبية سكان العالم كانوا آنذاك، مثلما كانوا قبل ذلك، فلاحين. وفي العام 1830 لم يكن ثمة إلا مدينة واحدة يزيد عدد سكانها على مليون نسمة، هي لندن، وأخرى يزيد عدد سكانها على نصف مليون، هي باريس. وإذا استثنينا بريطانيا، لم يكن في أوروبا كلها أكثر من تسع عشرة مدينة يزيد عدد سكانها على مئة ألف.

كان بطء التغير في العالم غير البريطاني يعني أن النمو الاقتصادي فيه سيستمر، حتى نهاية الفترة التي ندرسها، خاضعاً لإيقاع الطبيعة الضارب في القدم، المتمثل في الحصاد الجيد أو الحصاد السيئ، لا في

---

(3) John Morley, *The Life of Richard Cobden*, 6th Thousand of the Popular one Volume Edition, [10th Ed.] (London: T. F. Unwin, 1903), p. 108.

سنوات يتناوب فيها الازدهار والكساد الصناعيان. وربما كانت أزمة العام 1857 هي الأولى التي انتشرت على النطاق العالمي، وكانت تعود إلى أسباب وأحداث غير الكوارث الزراعية. وقد أدى ذلك، للمناسبة، إلى نتائج سياسية عظيمة الأهمية. وفي الفترة الواقعة بين العامين 1780 و1848، اختلف إيقاع التغير في المناطق الصناعية وغير الصناعية، واتخذ مسارات متباينة(4).

كانت الأزمة الاقتصادية التي اكتوت بنيرانها أغلبية أوروبا بين العامين 1846 و1848 أزمة من الطراز القديم مما يحدث في اقتصاد تسيطر عليه الزراعة، وكانت، على نحو ما، انهياراً لاقتصاد النظام القديم بمفهوم علم الاقتصاد. إلا أن الأمر لم يكن كذلك في بريطانيا، حيث كانت أسوأ الانهيارات في مراحل التصنيع الأولى قد حدثت بين العامين 1839 و1842، لأسباب "حديثة"، وتزامنت، في الوقت نفسه، مع الانخفاض النسبي في أسعار الذرة. وبلغت حالة الهيجان الاجتماعي التلقائي ذروتها في صيف 1842 في الاضطراب العام الذي قام به الميثاقيون من دون تخطيط مسبق (أو ما يسمى أعمال الشغب المنفلتة). وما إن وصلت مضاعفات هذا الوضع إلى القارة عام 1848، حتى كانت بريطانيا تعاني أول حلقة في سلسلة الكساد الدائرية الناجمة عن التوسع الفيكتوري، مثلما حدث في بلجيكا، وهي البلد الصناعي، بشكل أو بآخر، في أوروبا. وكما تكهن ماركس، فإن أية ثورة في القارة الأوروبية بدون حركة مطابقة لها في بريطانيا، سيكون محكوماً عليها بالفشل. غير أن ما لم يستطع أن يتبينه هو أن حالة اللاتوازن في التنمية بين بريطانيا والقارة كانت تحتم على أوروبا أن تقوم بالثورة بمفردها.

(4) إن الانتصار العالمي الذي حققه القطاع الصناعي قد دفع المسارين الصناعي وغير الصناعي إلى الالتقاء مرة أخرى، ولكن بطريقة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المهم في الفترة الواقعة بين العامين 1789 و1848 ليس التغيرات الاقتصادية التي تعتبر، بمعايير لاحقة، طفيفة ضئيلة، بل التغيرات الجوهرية التي كانت تشق طريقها في أوروبا، وكان أبرز هذه التغيرات في الجانب الديمغرافي. فكان العالم، ولا سيما أجزاءه التي كانت تدور في فلك الثورة المزدوجة، قد بدأ مرحلة "الانفجار" غير المسبوقة التي ضاعفت من سكان المعمورة خلال المئة والخمسين سنة اللاحقة. وحيث إن قلة من الدول كانت، قبل القرن التاسع عشر، تقوم بالإحصاءات السكانية أو ما يماثلها، على الرغم من افتقارها إلى المصداقية[5]، فإن من الصعب قياس سرعة النمو السكاني في تلك الفترة؛ إذ كان النمو استثنائياً لا مثيل له، وبلغ أعلى مستوياته في المناطق المتقدمة اقتصادياً (باستثناء البلدان الشحيحة السكان التي ينتشر فيها في مساحات شاسعة غير مستغلة حتى ذلك الوقت، مثل روسيا). وبين العامين 1790 و1850، فإن سكان الولايات المتحدة (الذين تعاظموا بفعل الهجرة، وشجعتهم المساحات والموارد غير المتناهية في القارة الأمريكية)، تضاعفوا ست مرات، إذ ارتفع عددهم من أربعة ملايين إلى ثلاثة وعشرين مليوناً. وتضاعف تقريباً عدد سكان المملكة المتحدة بين عام 1800ـ1850، وارتفع عددهم ثلاثة أضعاف بين العامين 1750 و1850، وتضاعف سكان بروسيا (في نطاق حدود 1846) بين العامين 1800 و1846. وكذلك كانت الحال في روسيا الأوروبية (بدون فنلندا). كما أن سكان النرويج والدانمارك والسويد وهولندا، وأجزاء واسعة من إيطاليا قد تضاعف عددهم بين العامين 1750 و1850، غير أنهم تزايدوا بمعدلات أقل قليلاً خلال الفترة الزمنية التي نعالجها، وازداد عدد سكان إسبانيا والبرتغال بمعدل الثلث.

---

(5) أجري أول إحصاء عام للسكان في بريطانيا عام 1801. أما الإحصاء المنهجي المنظم الأول فقد أجري عام 1831.

وتتوافر لدينا معلومات أقل عن العالم غير الأوروبي. مع أن سكان الصين قد تزايدوا، على ما يبدو، بمعدلات متسارعة خلال القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر. واستمر ذلك حتى التدخل الأوروبي، وحتى الوقت الذي دار فيه التاريخ السياسي الصيني دورته التقليدية مؤذناً بانهيار الإدارة الزاهرة الفعالة لأسرة مانشو التي كانت قد بلغت أَوْجَها آنذاك[6]. وربما كان السكان في أمريكا اللاتينية يتزايدون بمعدلات قريبة مما كان شائعاً في إسبانيا[7]. ولا نعثر على أية إشارة إلى انفجار سكاني في آسيا، وربما سادت في أفريقيا حالة من الاستقرار السكاني. وليس ثمة زيادة استثنائية لعدد السكان إلا في بعض الأراضي الخالية التي بدأ المستوطنون البيض الإقامة فيها، مثل أستراليا التي لم يكن فيها مستوطنون بيض عام 1790. ولكن عددهم ارتفع عام 1851 إلى نصف مليون شخص.

لقد أعطى التزايد المثير لعدد السكان، بطبيعة الحال، قوة دافعة كبيرة للاقتصاد، مع أن علينا أن نعتبر هذه الزيادة من نتائج الثورة الاقتصادية لا من الأسباب الخارجية المؤثرة فيها؛ ذلك أنه لم يكن ممكناً بدون هذه الثورة المحافظة على هذا النمو السريع للسكان أكثر من فترة محدودة (وذلك ما حدث بالفعل في إيرلندا التي لم يتعزز النمو السكاني فيها بثورة اقتصادية مستدامة). لقد أدت هذه الزيادة إلى توليد قوى عاملة جديدة، وقوى عاملة "فتية" تحديداً، وزيادة في أعداد المستهلكين. وكان العالم، في الفترة التي نعالجها بصورة خاصة، أكثر شباباً مما كان عليه في أي وقت مضى؛ إذ كان يحفل بالأطفال، وبالأزواج الشباب، أو بالناس الذين هم في ريعان العمر.

وتمثل التغير الرئيسي الثاني في الاتصالات. وصحيح أن خطوط

---

(6) كانت دورة السلالة المالكة في الصين تمتد ثلاثمئة سنة في العادة. وقد تولت أسرة مانشو مقاليد الحكم في أواسط القرن السابع عشر.

(7) R. Baron Castro, "La Poblacion hispano-americana," *Journal of World History*, vol. V (1959-1960), pp. 339-400.

السكة الحديدية كانت في بداياتها عام 1848، مع أن أهميتها العملية كانت معتبرة في بريطانيا والولايات المتحدة وبلجيكا وفرنسا وألمانيا، إلا أن التحسن، حتى قبل استحداثها، كان باهراً بالمقاييس السابقة. ففي الإمبراطورية النمساوية (باستثناء هنغاريا)، تم تمهيد أكثر من ثلاثين ألف ميل من الطرق بين العامين 1830 و1847؛ مما ضاعف من حجم شبكة المواصلات مرتين وثلثاً[8]. وضاعفت بلجيكا شبكة الطرق فيها بين العامين 1830 و1850. وتضاعفت، حتى في إسبانيا، شبكة الطرق الصغيرة، بفضل الاحتلال الفرنسي أساساً. وفي الفترة الممتدة بين العامين 1800 و1850، ضاعفت الولايات المتحدة، التي كانت تتفوق في ضخامة مشروعاتها على أية دولة أخرى، شبكة طرق البريد فيها أكثر من ثماني مرات: من 21 ألف ميل إلى 170 ألف ميل[9]. وكان لبريطانيا نظامها الخاص من القنوات المائية، بينما حفرت فرنسا ما يعادل ألفي ميل منها (1800-1847)، وفتحت الولايات المتحدة مثل هذه المعابر المائية العظيمة الأهمية في إيري وتشيزابيك وأوهايو. وتضاعفت قدرة الشحن البحري في العالم الغربي بين العام 1800 ومطلع الأربعينات من القرن التاسع عشر، فيما كانت السفن البخارية، اعتباراً من العام 1822، تمخر عباب البحر بين بريطانيا وفرنسا، وتذرع الدانوب جيئة وذهاباً. (في عام 1840، نقلت السفن البخارية 370 ألف طن، مقابل تسعة ملايين طن للسفن الشراعية، مع أن تلك الحمولة قد لا تمثل أكثر من سدس القدرة الحقيقية لهذه البواخر. وفي هذا الميدان أيضاً، تفوق الأمريكيون على البلدان الأخرى، بما فيها بريطانيا، بامتلاكهم أضخم أسطول تجاري في العالم[10].

---

(8) Jerome Blum, "Transportation and Industry in Austria, 1815-1848," *The Journal of Modern History*, vol. XV (1943), p. 27.

(9) Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892), Post Office.

(10) أوشك الأمريكيون على بلوغ هذه الغاية بحلول العام 1860، قبل أن تحقق السفن الحديدية التفوق للبريطانيين.

وعلينا كذلك أن لا ننتقص من أهمية التحسن الذي طرأ في مجالي السرعة والحمولة. ولا شك في أن خدمة العربة التي أقلت قيصر روسيا من سان بطرسبرغ إلى برلين في أربعة أيام (1834) لم تكن متاحة للمخلوقات الأقل شأناً؛ بيد أن ما كان متاحاً لهم هو خدمة البريد السريع (المستعارة من فرنسا وبريطانيا) التي أصبحت تقطع المسافة بين برلين وماغديبيرغ في خمس عشرة ساعة بدلاً من يومين ونصف اليوم. كما تضاعفت أعداد الرسائل البريدية بفضل السكة الحديدية واختراع رولاند هيل (Rowland Hill) المدهش للكلفة الموحدة للخدمة البريدية في عام 1839 (التي تعززت باختراع طابع البريد اللاصق عام 1841). ولكن التطور السريع حصل، قبل هذا وذاك، في البلدان الأقل تقدماً من بريطانيا؛ ففي الفترة بين العامين 1830 و1840، ارتفع عدد الرسائل المرسلة من فرنسا من 64 إلى 94 مليوناً. يضاف إلى ذلك أن السفن البخارية لم تكن أسرع وأدعى إلى الثقة فحسب، بل إنها كانت في المعدل أكبر حجماً[11].

ولا شك في أن جوانب التحسن هذه لم تكن، من الوجهة الفنية، أكثر وقعاً وأعمق تأثيراً من خطوط السكة الحديدية. ومع ذلك، فإن الجسور الخلابة التي ارتفعت فوق الأنهار، والمعابر والمرافئ المائية الاصطناعية العظيمة، والسفن الشراعية الصغيرة التي تنزلق بسرعة على صفحة الماء كالبجع، وعربات البريد الأنيقة الجديدة، كانت آنذاك، وبعد ذلك، من أجل منتجات التصميم الصناعي. كما كانت، في الوقت نفسه، فعالة إلى حد يدعو إلى الإعجاب، بوصفها وسيلة لتيسير السفر والنقل، تربط ما بين المدينة والريف، والمناطق الفقيرة أو الغنية. وكان تزايد السكان مديناً لها بالكثير؛ لأن ما كان يكبح النمو السكاني في المرحلة ما قبل الصناعية لم يكن ارتفاع معدل الوفيات بين الناس، بل الكوارث الدورية مثل المجاعات وسوء التغذية التي كانت محصورة

---

(11) Mulhall, Ibid.

محلياً في أغلب الأحيان. وإذا كانت المجاعات قد أصبحت أقل خطراً في العالم الغربي في تلك الفترة (باستثناء سنوات القحط الشامل مثل 1816ـ1817، و1846ـ1848)، فإن ذلك يعود إلى جوانب التحسن هذه في خدمات النقل، بالإضافة إلى التحسن العام بطبيعة الحال في كفاءة الحكومة والإدارة[12].

كان التغير الثالث، بالطبع، يتمثل في حجم التجارة والهجرة. ولا يصدق ذلك على جميع المناطق. فلم تكن ثمة دلائل على أن الفلاحين في كالابريا أو إيليريا، على سبيل المثال، كانوا مستعدين للهجرة آنذاك، أو أن كمية البضائع التي تصل إلى معرض نيني نوفغورود السنوي الكبير كانت كبيرة إلى درجة مثيرة[13]. غير أننا إذا نظرنا إلى عالم الثورة المزدوجة بأكمله نظرة كلية، لأدركنا أن حركة الناس والبضائع كانت تجري بصورة كاسحة. وبين العامين 1816 و1850، غادر نحو خمسة ملايين أوروبي بلدانهم الأصلية (وتوجه أربعة أخماسهم إلى الأمريكتين)، بينما كانت موجات الهجرة الداخلية أسرع من ذلك بكثير. وازداد إجمالي التجارة العالمية للعالم الغربي ثلاثة أضعاف بين العامين 1780 و1840، وأكثر من أربعة أضعاف بين العامين 1780 و1850. وقد تبدو هذه الزيادة متواضعة[14] إذا قيست بمعايير لاحقة، غير أنها، بالمعايير السابقة

---

(12) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب.

(13) Pavel Alekseevich Khromov, *Ékonomicheskoe Razvitie Rossii v XIX-XX Vekakh, 1800-1917* ([Moskva]: Gos. izd-vo polit. lit-ry, 1950), Table 19, pp. 482-483, غير أن كمية المبيعات تزايدت بصورة أسرع.

انظر أيضاً: Jerome Blum, *Lord and Peasant in Russia, from the Ninth to the Nineteenth Century* (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1961), p. 287.

(14) نلاحظ بهذا الصدد أن اثنين وعشرين مليوناً من الأوروبيين هاجروا في الفترة بين العامين 1850 و1888. وفي العام 1889، بلغ حجم التجارة العالمية الإجمالية نحو 3,400 مليون جنيه، بالمقارنة مع أقل من 600 مليون جنيه عام 1840.

على تلك الفترة التي استخدمها أهل ذلك الزمان، كانت تتجاوز كل ما شطحت به مخيلاتهم من أحلام.

II

غير أن القضية الأهم، ونقطة الانعطاف التي لا يمكن أن يتجاهلها مؤرخو هذه الفترة مهما كانت محاور اهتمامهم، هي التسارع والزخم في معدلات التغير الاقتصادي والاجتماعي بعد العام 1830. إن فترة الثورة الفرنسية وحروبها لم تحدث إلا تقدماً بسيطاً نسبياً خارج بريطانيا، باستثناء الولايات المتحدة التي حققت وثبة إلى الأمام بعد حرب الاستقلال، فضاعفت مساحة أراضيها المفلوحة عام 1810، وزادت حجم الشحنات البحرية منها سبعة أضعاف، وأخذت، بصورة عامة، تبدي جانباً من قدراتها في المستقبل (ومن مظاهر التقدم الأمريكي في تلك الفترة: محالج القطن، والمراحل الأولى من الإنتاج بوساطة خط التجميع، وطاحونة أوليفر إيفانز (Oliver Evans) العاملة بالحزام الناقل). وكانت الأسس قد وضعت لكثير من الصناعات اللاحقة، ولا سيما الصناعات الثقيلة، في أوروبا النابليونية، غير أن أكثرها تبدد وانقرض مع انتهاء الحرب، مما تسبب في وقوع الأزمات في كل مكان. وكانت الفترة الواقعة بين العامين 1815 و1830 هي، على العموم، فترة النكسات، أو في أحسن حالاتها، فترة الإنتعاش البطيء. فقد عكفت الدول على تنظيم شؤونها المالية، عن طريق الانكماش الصارم في العادة (وكان الروس آخر من سلكوا هذا السبيل عام 1841). وأخذت الصناعات تترنح تحت ضربات تلك الأزمة والمنافسة الأجنبية، ولحقت بصناعة القطن الأمريكية أضرار فادحة، وتباطأ الزحف الحضري. فحتى العام 1828، تزايد سكان الريف الفرنسيون بالسرعة نفسها التي تزايد بها أهل المدن، وضعفت الزراعة، وبخاصة في ألمانيا. ولم يكن أي من المراقبين للنمو الاقتصادي في تلك الفترة، حتى خارج الاقتصاد البريطاني المتعاظم الاتساع، يحس بالتشاؤم. غير أن

قلة منهم كانت تعتقد أن أي دولة غير بريطانيا، وربما الولايات المتحدة، كانت بالفعل على أعتاب ثورة صناعية. ولنأخذ بعض المؤشرات الواضحة على الصناعة الجديدة: فخارج بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا، كان عدد المحركات البخارية وكمية الطاقة البخارية في العالم كله في العشرينات من القرن التاسع عشر من الضآلة بحيث لا تستحق أدنى اهتمام من علماء الإحصاء.

في العام 1830 (أو نحوه)، طرأ على الوضع تغيّر جذري سريع. وبحلول عام 1840، كانت المشكلات الاجتماعية الملازمة للتصنيع، مثل نشوء البروليتاريا الجديدة، والأهوال المترتبة على الزحف الحضري الضاري المنفلت من جميع الضوابط، هي المحاور التي تدور حولها المناقشات الجادة في أوروبا الغربية، والكوابيس التي تؤرق رجال السياسة والإدارة. لقد تضاعف عدد المحركات البخارية في بلجيكا، وزادت طاقتها ثلاثة أضعاف بين العامين 1830 و1838: من 354 محركاً (بقوة أحد عشر ألف حصان) إلى 712 (بقوة ثلاثين ألف حصان). وما أن حل العام 1850 حتى كان في ذلك البلد الصغير، الذي قطع أشواطاً بعيدة في مجال التصنيع، نحو ألفين وثلاثمئة محرك تبلغ طاقتها ستة وستين ألف حصان[15]، وأصبح ينتج نحو ستة ملايين طن من الفحم (أي بزيادة ثلاثة أضعاف عما كان عليه عام 1830). وفيما لم تكن ثمة شركات عامة مساهمة في صناعة التعدين والمناجم في بلجيكا عام 1830، أصبحت هذه الشركات عام 1841 هي القائمة على إنتاج نحو نصف الفحم الحجري.

وسيكون من دواعي الضجر أن نستعرض البيانات المشابهة في هذا المجال في فرنسا، والدول الألمانية، والنمسا، والبلدان الأخرى التي

---

(15) Rondo Emmett Cameron, *France and the Economic Development of Europe 1800-1914; Conquests of Peace and Seeds of War* (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1961), p. 347.

أرسيت فيها دعائم التصنيع خلال هذين العقدين من الزمان. لقد ركّبت شركة كْروبْ الألمانية، على سبيل المثال، أول محرك بخاري عام 1835، وفُتحت أولى الفوّهات في مناجم الفحم في إقليم الرور عام 1837، وشُغِّل أول مصهر بالفحم في مركز الحديد التشكيلي الكبير في فيتكوفيتش عام 1836، وأقيمت أول طاحونة دوارة لدى شركة فلاك في لومباردي عام 1839-1840. ومن دواعي الملل كذلك، أن نبين بالتفصيل أن مرحلة التصنيع الثقيل المكثف لم تبدأ إلا بعد عام 1848 في أوروبا، باستثناء بلجيكا وربما فرنسا. وقد شهدت الفترة الواقعة بين العامين 1830 و1848 ولادة المناطق الصناعية، والمراكز والشركات الصناعية التي ما زالت أسماؤها مألوفة حتى يومنا هذا، غير أن تلك الفترة لم تشهد بلوغ هذه الشركات مرحلة المراهقة، ناهيك عن البلوغ. ولو عدنا بالذاكرة إلى العام 1830، لأدركنا ما كانت تعنيه تلك الأجواء التي كانت تجري فيها هذه التجارب الفنية المثيرة، وطبيعة المشروعات الحافلة بالقلق والابتكار؛ لقد كانت تعني فتح المناطق الوسطى الغربية في أمريكا. غير أن اختراع كورميك للحصّادة الآلية (1834)، وشحن أول 78 مكيالاً من القمح من شيكاغو إلى الشرق عام 1838 لم يدخلا التاريخ إلا بسبب ما أسفرا عنه من نتائج بعد العام 1850. لقد ظل المصنع الذي أنتج الحصادات الآلية ينتظر وصول عبارات التهنئة على خطواته الجريئة حتى عام 1846. "كان من المتعذر إيجاد شركاء يتمتعون بالجرأة الكافية أو بالقدرة والطاقة اللازمتين، للانخراط في عملية حافلة بالمخاطر مثل صناعة الحصادات. وكان الأصعب من ذلك إقناع المزارعين بالمغامرة باستخدام هذه الحصادات في حقولهم، أو بالإعجاب بهذا الابتكار"[(16)]. لقد كان الأمر يعني كذلك مد خطوط السكة الحديدية وإقامة الصناعات الثقيلة في أوروبا، وإحداث ثورة في

---

(16) Sigfried Giedion, *Mechanisation Takes Command, a Contribution to Anonymous History* (New York: Oxford University Press, 1948), p. 152.

أساليب الاستثمار. ولو لم يقم الإخوة بيرير بمغامرتهم الكبيرة في مجال التمويل الصناعي بعد العام 1851، فإننا لم نكن نُعنى بمشروع "مكتب الإقراض والاقتراض الذي أخذت الصناعة تقترض من خلاله من الرأسماليين وفق أفضل الشروط، وبكفالة الوسطاء من أصحاب البنوك الأثرياء"، وهو الامتياز الذي تنازلوا عنه للحكومة الفرنسية الجديدة عام 1830[17].

وعلى نحو ما حدث في بريطانيا، فإن البضائع الاستهلاكية، وهي المنسوجات عموماً، والمواد الغذائية أحياناً، هي التي تصدرت فورات التصنيع هذه. غير أن البضائع الرأسمالية، مثل الحديد والصلب والفحم، وأمثالها، كانت هي الأكثر أهمية مما كانت عليه في الثورة الصناعية البريطانية الأولى. ففي العام 1846، كان 17 في المئة من العمالة والاستخدام الصناعي في بلجيكا في مجال الصناعات الرأسمالية، مقابل 8 أو 9 في المئة في بريطانيا. وبحلول عام 1850، كان ثلاثة أرباع الطاقة البخارية في بلجيكا يستخدم في صناعة المناجم والتعدين[18]. ومثلما كان الحال في بريطانيا أيضاً، كانت المؤسسة الصناعية الجديدة، أي المصانع، ومشاغل الحدادة، والمناجم، صغيرة نسبياً، وتحيط بها تجمعات ضخمة من القوى العاملة المحلية، الرخيصة غير الثورية من الوجهة الفنية، المدفوعة الأجر من الباطن، وقد تنامت لتلبية مطالب المصانع والسوق ثم بدأت تنقرض مع التقدم في كليهما. وفي بلجيكا (1846)، كان معدل أعداد العاملين في مصانع الصوف والكتان والقطن لا يتجاوز 30 أو 35، أو حتى 43 عاملاً، وكان المعدل في "مصنع"

(17) Cameron, Ibid., pp. 115 ff.

(18) انظر: المصدر نفسه، ص 347، و: Walther G. Hoffmann, *The Growth of Industrial Economies*, Translated from the German by W. O. Henderson and W. H. Chaloner (Dobbs Ferry, N. Y.: Oceana Publications, 1958), p. 71.

النسيج في السويد عام (1838) ستة عمّال أو سبعة[19]. من جهة أخرى، ثمة دلائل، كما هو متوقع، على وجود نقاط تجميع أكثر تركيزاً مما كان عليه الحال في بريطانيا، في النقاط التي نمت فيها الصناعة فيما بعد، وأحياناً على هيئة جيوب في البيئات الزراعية، مع الاستفادة من خبرة الرواد الأوائل، وكانت تقوم على تقانات أكثر تطوراً، وتتمتع بمساندة تخطط لها الحكومة في أغلب الأحيان. وكان ثلاثة أرباع عمال الغزل في بوهيميا (1841) يعملون في مصانع يزيد عدد العاملين في كل منها على 100 عامل، ونصفهم في 15 معملاً يزيد عدد العمال في كل واحد منها على 200[20] (وكانت جميع المصانع تقريباً تعمل في الخمسينات باستخدام المغازل اليدوية). ويصدق ذلك بصورة أكبر على الصناعات الثقيلة التي بدأت تحتل الآن مكان الصدارة. وفي بلجيكا، كان معدل عدد العمال عام 1838 في كل واحد من مصانع سبك المعادن 80 عاملاً، وفي منجم الفحم عام (1846) نحو 150[21]؛ ولا ننسى عمالقة الصناعة مثل كوكريلز في سيرانغ التي كانت تستخدم 2000 عامل.

كان المشهد الصناعي، إذن، أشبه بسلسلة من البحيرات تطرزها الجزر. وإذا اعتبرنا البلد عموماً بوصفه إحدى هذه البحيرات، فإن الجزر فيه تكون هي المدن الصناعية، والمجمعات الريفية (مثل شبكات قرى التصنيع الشائعة في المناطق الوسطى من ألمانيا وجبال بوهيميا) أو المناطق الصناعية: بلدات صناعة النسيج مثل مولهاوس وليل أو الرِون في فرنسا، وإيبرفيلد ـ بارمن (موطن عائلة فريدريك إنغلز التقيّة التي

(19) Hoffmann, Ibid., p. 48, and Mulhall, *The Dictionary of Statistics*, p. 377.

(20) Jaroslav Purs, "The Industrial Revolution in the Czech Lands," *Historica*, vol. 2 (1960), pp. 199-200.

(21) Cameron, *France and the Economic Development of Europe 1800-1914; Conquests of Peace and Seeds of War*, p. 347, and Mulhall, Ibid., p. 377.

تزعمت صناعة القطن) أو كريفيلد في بروسيا، وكذلك جنوب بلجيكا وساكسونيا. وإذا ما نظرنا إلى الكتلة العريضة من الصناع والفلاحين المستقلين الذين كانوا ينتجون البضائع لبيعها في السوق في فصل الشتاء، أو العمال المحليين المنتجين، فإن الجزر تمثل المعامل والمصانع والمناجم ومشاغل السكب على اختلاف أحجامها. وتغطي المياه جانباً كبيراً من هذا المشهد. وإذا أردنا تعديل هذه الصورة التشبيهية لتقريبها من الواقع، فإن المياه تمثل أسرّة صغيرة من القصب أو نقاط الإنتاج التابعة التي تكونت حول المراكز الصناعية أو التجارية. وقد نشأت كذلك صناعات محلية وأخرى كانت قد أسست في وقت سابق وأُلحقت بالإقطاعات. وكانت هذه الصناعات، مثل صناعة الكتان في سيليسيا، تحتضر بسرعة وتوشك على الانقراض[22]. أما المدن الكبرى، فلم تكن قد مستها يد التصنيع بعد، على الرغم من أنها كانت موطناً لجماهير غفيرة من العمال والصناع العاملين لتلبية احتياجات الاستهلاك، والنقل، والخدمات العامة. ومن بين مدن العالم التي يزيد سكانها على مئة ألف نسمة، باستثناء ليون، لم تكن ثمة مراكز صناعية إلا في المدن البريطانية والأمريكية؛ فلم يكن في ميلانو، على سبيل المثال، إلا محركان بخاريان عام 1841. والواقع أن المركز الصناعي النموذجي، في بريطانيا وفي القارة الأوروبية عموماً، لم يكن أكثر من بلدة صغيرة أو متوسطة الحجم أو تجمعاً قروياً في المقاطعة.

وثمة ناحية مهمة اختلف فيها التصنيع في القارة الأوروبية، وإلى حد ما في أمريكا، عن بريطانيا؛ إذ إن الشروط المسبقة الضرورية لتطور التصنيع التلقائي في القطاع الخاص لم تكن مواتية في الأولى مثلما كانت في بريطانيا. فبعد نحو مئتي سنة من الإعداد، لم تكن بريطانيا، كما

---

(22) Herbert Kisch, "The Textile Industries in Silesia and the Rhineland: A Comparative Study in Industrialization," *Journal of Economic History*, vol. 19 (December 1959).

رأينا، تفتقر فعلاً إلى أي من عناصر الإنتاج، أو تعاني من العراقيل المؤسسية المثبطة تماماً للنمو الرأسمالي الكامل. ولم يكن الأمر كذلك في البلدان الأخرى؛ ففي ألمانيا، على سبيل المثال، كان ثمة نقص واضح في رأس المال. ويتجلى ذلك في مستوى العيش المتواضع في أوساط الطبقة الوسطى الألمانية (على الرغم من أن مستوى الحياة هذا قد اكتسب مظهراً جميلاً بفعل الزخرفة الداخلية التقشفية الخلابة للمنازل التي على طراز بيدرماير). وعلينا أن لا ننسى أن غوته كان بمقاييس عصره غاية في الثراء، مع أن منزله في فايمار كان أقرب في طابعه العام إلى المنازل المتواضعة العادية التي يسكنها مديرو البنوك البريطانيون من عائلة كلابهام. وفي عشرينات القرن الثامن عشر، كانت سيدات البلاط، وحتى الأميرات، في برلين يرتدين الملابس القطنية البسيطة على مدار العام. وإذا كان لديهن ثوب من حرير، فإنهن يرتدينه في المناسبات الخاصة[23]. وكان نظام الغيلد (النقابات) الذي يشمل معلم الصنعة، وعمال المياومة البارعين، والأغرار، يقف حجر عثرة في وجه تطور المشروعات الخاصة وحراك العمال المهرة، بل في وجه التغير الاقتصادي بأكمله. وقد ألغيت إلزامية انضمام أصحاب الصنائع إلى الغيلد في روسيا عام 1811، ولكن قرار الإلغاء لم يشمل نقابات الغيلد نفسها التي كان أعضاؤها يتمتعون بقوة سياسية جراء التشريعات البلدية في ذلك الوقت. وبقي إنتاج الغيلدات على مستواه السابق حتى الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر. أما في المناطق الأخرى، فقد تأخر إقرار حدية التجارة حتى الخمسينات.

إلا أن كثرة الدويلات الصغيرة التي كان لكل منها ضوابط ومصالح خاصة قد أعاقت التنمية العقلانية. إن مجرد إقامة الاتحاد الجمركي العام (باستثناء النمسا)، الذي أفلحت بروسيا في إنشائه لخدمة

(23) Oskar Fischel and Max Boehn, *Die Mode Menschen und Moden im neunzehnten Jahrhundert 1818-1842* (Munchen: n. pb., [1924]), p. 136.

مصالحها الخاصة وبفعل الضغوط التي يفرضها موقعها الاستراتيجي بين العامين 1818 و1834 كان بحد ذاته انتصاراً متميزاً. فقد غمرت الحكومات، ذات الطابع التجاري أو الأبوي، هذه القضية المتواضعة بفيض مما لديها من تعليمات وإرشادات إشرافية وإدارية، مما أسهم في تحقيق الاستقرار الاجتماعي، ولكنه أثار الغيظ في نفوس أصحاب المشروعات التجارية الخاصة. فقد كانت الدولة البروسية تتحكم في منتجات الصناعات اليدوية، وتفرض العدالة والمساواة في أسعارها، وكذلك في أنشطة صناعة نسج الكتان المحلية في سيليسيا، وفي عمليات مُلاّك المناجم على الضفة اليمنى لنهر الراين. وكان من الضروري، قبل فتح أي منجم، الحصول على إذن حكومي، ويمكن سحب هذا الإذن بعد بدء العمليات.

في ظل هذه الظروف (التي نجد مثيلاً لها في دول عديدة كثيرة) كان على التنمية الصناعية أن تسير على نحو مختلف عما كان في بريطانيا. من هنا، راحت الحكومات في جميع أنحاء أوروبا تؤدي دوراً متعاظماً في عملية التنمية، لا لأنها كانت تريد ذلك، بل لأن عليها أن تتولى جانباً كبيراً من هذا الدور. ففي العام 1822، أسس وليام الأول (William I)، ملك هولندا المتحدة، الشركة العامة لدعم الصناعة الوطنية في الأراضي المنخفضة التي قدمت لها الأرض منحة من الدولة، وأسهم الملك بنحو أربعين في المئة من أسهمها، مع ضمان خمسة في المئة لجميع المشاركين الآخرين. وواصلت الدولة البروسية إدارة جانب كبير من مناجم البلاد. كما تولت الحكومات تخطيط خطوط السكك الحديد جميعها بلا استثناء، وتشييدها ومدها أو دعمها بمنحها امتيازات تفضيلية أو ضمانات استثمارية. والواقع أن بريطانيا هي الدولة الوحيدة التي قامت فيها الشركات الخاصة المخاطِرة الساعية إلى تحقيق الربح ببناء أنظمة السكة الحديدية بأكملها، من دون أن تقدم مكافآت أو تأمينات للمستثمرين أو أصحاب رؤوس الأموال. وكانت الشبكة البلجيكية هي الأسبق والأفضل تخطيطاً؛ إذ إنها مدَّت في أوائل

الثلاثينات لفصل الدولة الحديثة الاستقلال عن نظام الاتصالات والمواصلات الهولندي، الذي يعتمد أساساً على الممرات المائية. أما في فرنسا، فقد أدت الصعوبات السياسية وتردد البورجوازية الكبيرة المحافظة في استبدال الاستثمار الآمن باستثمار المراهنة على المستقبل إلى تأخر في بناء الشبكة التي صدر قرار بالموافقة عليها عام 1833. كما أن شح الموارد عرقل تنفيذ المشروع في النمسا على الرغم من أن الدولة أقرت بناءه عام 1842، كما عرقل الخطط الموضوعة بهذا الشأن في بروسيا.

ولأسباب مماثلة، اعتمدت المبادرات التجارية القارية على مشروعات اقتصادية، وتشريعات تجارية ومصرفية، وأدوات مالية أحدث بكثير مما كان في بريطانيا. وقد قدمت الثورة الفرنسية في الواقع هذه التسهيلات كلها، ووجد العالم قدوة ونموذجاً عاماً يُحتذى للأسباب نفسها في منظومة نابليون القانونية، بتشديدها على حرية التعاقد التي يكفلها القانون، واعترافها بالعملات الورقية والأوراق التجارية الأخرى للتعامل، والترتيبات التي أقرتها لإقامة الشركات العامة المشتركة (مثل الشركات المغفلة المحدودة المسؤولية المتضامنة ذات المسؤولية المشتركة التي تبنتها أوروبا بأكملها ما عدا بريطانيا واسكندنافيا). وبالإضافة إلى ذلك، فإن وسائل تمويل الصناعة التي تفتقت عنها قريحة الإخوة بيرير، الثوريين السان سيمونيين الشباب، قد لقيت الترحيب في الخارج. وقد تحقق انتصار هؤلاء الأكبر خلال فترة الازدهار العالمي في الخمسينات من ذلك القرن. غير أن "الشركة العامة" البلجيكية كانت قبل ذلك، في الثلاثينات، تمارس استثماراً مصرفياً من النوع الذي تصوره الإخوة بيرير، وتبنى الممولون في هولندا الأفكار السان سيمونية (مع أن أكثرية رجال الأعمال الآخرين لم يحذوا حذوهم). وكانت هذه الأفكار، في جوهرها، تهدف إلى حشد أشكال متنوعة من الموارد الرأسمالية التي لم تكن توجه تلقائياً إلى التنمية الصناعية، ولم يكن أصحابها يعرفون كيف يستخدمونها إذا أرادوا، من خلال البنوك وصناديق الائتمان. وقد أنتجت هذه الأفكار بعد العام 1850 الظاهرة القارّية النموذجية (ولا

سيما الألمانية) التي يقوم فيها بنك كبير بدور مزدوج، باعتباره بنكاً ومستثمراً في آنٍ معاً، مما يمكنه من السيطرة على الصناعة وتيسير تجمعاتها المركزية المبكرة.

III

إن التنمية الاقتصادية خلال تلك الفترة تنطوي على مفارقة ضخمة واحدة: فرنسا. لم يكن لأي بلد آخر، نظرياً، أن يتفوق عليها في مضمار التقدم السريع. لقد كان فيها، كما رأينا، مؤسسات مثالية للنمو الرأسمالي. ولم يكن في أوروبا من يستطيع مضاهاة فرنسا في النزعة الألمعية الابتكارية لدى أصحاب المشروعات التجارية النشطين. فالفرنسيون هم الذين اخترعوا أو طوروا للمرة الأولى المتاجر الضخمة التي تعرض فيها شتى البضائع، وكذلك الدعاية التجارية، كما استهدوا بتفوقهم العلمي في تحقيق إنجازات تقانية مبتكرة باختراع التصوير (مع نيسفور نيبس وداغور)، وإنتاج الصودا على يد لوبلان، وكلوريد التبييض على يد بيرتوليه، وكذلك التصفيح الإلكترومغناطيسي، والغَلْفَنة. وكانت في البلاد أرصدة رأسمالية صُدرت، بالاستعانة بالخبرة الفنية الفرنسية، إلى جميع أرجاء القارة الأوروبية، وحتى، بعد العام 1850، إلى بريطانيا إلى شركة لندن العامة للحافلات. وبحلول العام 1847، كان نحو ألفين ومئتين وخمسين مليون فرنك قد صدرت إلى الخارج[24]، مما يضع فرنسا في المرتبة الثانية بعد بريطانيا من حيث التعامل مع الخارج بهذه المبالغ الفلكية. وكانت باريس مركزاً عالمياً للتمويل لا تسبقه لندن إلا قليلاً. وفي أوقات الأزمات، مثل العام 1847، قامت شركات فرنسية ضخمة في أربعينات ذلك القرن بإنشاء شركات الغاز في أوروبا: في فلورنسا والبندقية وبادوا، وحصلت على

---

(24) Cameron, *France and the Economic Development of Europe 1800-1914; Conquests of Peace and Seeds of War*, pp. 79 and 85.

تصريح بإقامتها في جميع أنحاء إسبانيا، وفي الجزائر والقاهرة، والإسكندرية. كما أن شركات فرنسية كانت على وشك تمويل خطوط السكة الحديدية في القارة الأوروبية (باستثناء ألمانيا واسكندنافيا).

غير أن التنمية الاقتصادية الفرنسية كانت، في بنيتها الأساسية، بطيئة الحركة في واقع الأمر، مقارنة بالبلدان الأخرى. وقد تزايد عدد سكانها بهدوء، غير أن مستوى السكان لم يشهد طفرات حادة. كما أن مدنها (باستثناء باريس) كانت تنمو بصورة متواضعة، بل إن بعض هذه المدن أصيبت بالانكماش في أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر. ولا شك في أن قوتها الصناعية في أواخر الأربعينات كانت أضخم من قوة جميع الدول الأوروبية الأخرى، وكانت الطاقة البخارية فيها تعادل ما في أوروبا بأكملها. غير أنها بدأت تفقد جانباً من قوتها بالمقارنة مع بريطانيا، وتوشك أن تفقد قليلاً منها بالمقارنة مع ألمانيا. وعلى الرغم مما كانت تتمتع به فرنسا من مزايا، ومن بداياتها المبكرة، فإنها لم تستطع أبداً أن تكون دولة صناعية كبرى مثل بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ويمكن تفسير هذه المفارقة، كما رأينا، في أن الثورة الفرنسية نفسها أخذت بيد روبسبيير كثيراً ما أعطته بيد الجمعية التأسيسية[25]. فقد كان الجانب الرأسمالي في الاقتصاد الفرنسي هو البنية القومية التي قامت على قاعدة ثابتة من الفلاحين والبورجوازية الصغيرة. ولم يكن للعمال المتحررين الذين لا يمتلكون الأرض إلا أن يفدوا إلى المدينة، ولم تكن هناك أسواق واسعة متسعة بما فيه الكفاية للبضائع الرخيصة الموحدة التي جلبت الثراء للصناعيين التقدميين في مناطق أخرى. وقد تم إنقاذ كميات ضخمة من رأس المال. ولكن السؤال هو: هل ينبغي

(25) انظر الفصل الثالث، ص 151-154 من هذا الكتاب.

استثماره في الصناعات المحلية[26]؟ كان المستثمر التجاري الفرنسي الحكيم ينتج البضائع الكمالية المرفهة، لا البضائع الخاصة بالاستهلاك الجماعي، وكان الممول الفرنسي الحكيم يقدم الدعم للصناعات الأجنبية، لا المحلية، ولا ينسجم إيقاع المشروعات الخاصة والنمو الاقتصادي إلا إذا قام الأخير بتزويد الأول بأرباح أكثر مما توفره أية مصالح تجارية أخرى. وذلك ما لم تفعله في فرنسا، على الرغم من أنها قامت، من خلال فرنسا، بتغذية النمو الاقتصادي للبلدان الأخرى.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تقف على الطرف الآخر القصيّ من فرنسا، وكانت أمريكا تعاني من نقص في رأس المال، فأبدت بريطانيا استعدادها لإمدادها به مهما كان حجمه، كما كانت تعاني من نقص في القوى العاملة، فقامت الجزر البريطانية وألمانيا بتصدير فائض السكان إليها بالملايين بعد المجاعة الكبرى في أواسط الأربعينات. وكانت تفتقر إلى أعداد كافية من العمال المدربين فنياً، ولكن كان بالإمكان استيراد هؤلاء، وهم عمال القطن في لانكشير، وعمال المناجم والتعدين من ويلز، من القطاعات التي أنجزت مرحلة التصنيع. وكانت النزعة الأمريكية المعهودة لابتكار الآلات القادرة على اختصار الجهد وتيسير العمل قد وصلت إلى حدودها القصوى. ولم تكن الولايات المتحدة تحتاج إلا إلى الاستيطان والنقل لتفتح أراضيها ومواردها التي لا حدود لها. وكانت عملية التوسع الداخلي وحدها كافية للمحافظة على مستوى النمو الاقتصادي غير المحدود، مع أن المستوطنين الأمريكيين، والحكومات، والمبشرين، والتجار كانوا قد توسعوا براً حتى وصلوا إلى المحيط الهادي، أو دفعوا عملياتهم التجارية عبر المحيطات من زنجبار إلى هواي، بدعم من أسطول يحتل المرتبة

---

(26) Georges Lefebvre, "La Révolution française et les paysans," dans: Georges Lefebvre, *Etudes sur la révolution française* (Paris: Presses universitaires de France, 1954).

الثانية في العالم بعد بريطانيا في قوته وضخامته، وكان المحيط الهادئ والبحر الكاريبي هما المسرح المختار للإمبراطورية الأمريكية.

كانت كل المؤسسات في الجمهورية الجديدة تدعو إلى التثاقف، والبراعة، ومشروعات القطاع الخاص. وبدأت موجات ضخمة من السكان الجدد الذين استوطنوا المدن الساحلية والولايات الداخلية التي تم احتلالها مؤخراً، تطالب بالبضائع والمعدات الشخصية الموحدة لمنازلها ومزارعها، وتوفر سوقاً متجانسة على نحو مثالي، وكانت المكافأة عن الاختراعات والمبادرات الاقتصادية مجزية، وقد سعى إلى نيلها مخترعو السفينة البخارية (1807ـ1813)، والمسمار البسيط (1807)، وآلة قطع البراغي (1809)، والأسنان الاصطناعية (1822)، والأسلاك ذات الغطاء العازل (1827ـ1831)، والمسدس (1835)، وفكرة الآلة الطابعة وماكينة الخياطة (1843ـ1846)، والمطبعة الدوارة (1846)، ومجموعة من قطع الآليات الزراعية. ولم يحدث أن توسع اقتصاد ما في تلك الفترة أكثر من توسُّع الاقتصاد الأمريكي مع أن انطلاقته الشديدة لم تحدث إلا بعد العام 1860.

كانت هناك عقبة وحيدة تقف دون تحول الولايات المتحدة إلى قوة اقتصادية عالمية (وذلك ما تحقق في المستقبل): النزاع بين الشمال الزراعي الصناعي، والجنوب شبه الكولونيالي. ففي الوقت الذي استفاد فيه الشمال، بوصفه اقتصاداً مستقلاً، من رؤوس الأموال، والقوة العاملة، والمهارات الأوروبية، ولا سيما البريطانية، فإن الجنوب (الذي استورد القليل من هذه الموارد)، كان اقتصاداً نموذجياً تابعاً لبريطانيا. وقد عزز هذه التبعية بخاصة في تزويد مصانع لانكشير المزدهرة بجميع ما تحتاجه من القطن، على نحو ما كانت ستفعله أستراليا بالنسبة للصوف، والأرجنتين فيما يتعلق باللحوم. كان الجنوب من أنصار التجارة الحرة، مما مكّنه من أن يبيع لبريطانيا، ويشتري بالمقابل بضائع بريطانية رخيصة. أما الشمال، فقد حرص منذ البداية (1816) على حماية

صناعاته المحلية والتشدد في ذلك ضد جميع الأجانب، أي البريطانيين، الذين كان عليهم آنذاك أن يبيعوا بضائعهم بسعر أقل. ودبت المنافسة بين الشمال والجنوب على أراضي الغرب، وكان أحدهما يستهدف مزارع العبيد وجمهرة المُقرْفِصين الذين وضعوا أيديهم بغير حق على منطقة التلال المتخلفة المكتفية ذاتياً، بينما يسعى الآخر إلى الحصادات الآلية والمسالخ الجماعية. وظل الجنوب يحتفظ بعدد من الأوراق الاقتصادية القوية، حتى بداية عمل خط السكة الحديدية العابر للقارة الأمريكية، الذي سيطر على دلتا الميسيسبي التي كان الغرب الأوسط يصرف بضائعه منها. ولم يتحدد مستقبل الاقتصاد الأمريكي إلا في الحرب الأهلية بين العامين 1861 و1865، وهي التي تم خلالها بالفعل توحيد أمريكا في ظل الرأسمالية الشمالية وبزعامتها.

أما عملاق المستقبل الآخر في الاقتصاد العالمي، وهو روسيا، فلم يكن له شأن يذكر في ذلك الحين، على الرغم من أن المراقبين المتبصرين كانوا يتنبأون آنذاك بأن حجمه، وقدرته السكانية، وموارده الضخمة ستتبلور عاجلاً أم آجلاً. فالمناجم والمصانع التي أنشأها القياصرة في القرن الثامن عشر، وكان فيها ملاّك الأرض والتجار الإقطاعيون هم أرباب العمل، والرقيق هم العمال المستخدمون، كانت آيلة للانهيار البطيء. ولم تبدأ الصناعات الجديدة، مثل مشاغل النسيج المحلية الصغيرة بالتوسع بصورة ملموسة إلا في الستينات من ذلك القرن، بل إن تصدير الذرة إلى الغرب من حزام التربة السوداء الخصبة في أوكرانيا لم يحقق إلا تقدماً معتدلاً آنذاك. وكانت بولندا الروسية أكثر تقدماً على نحو ما، غير أن عهد التحول الاقتصادي الكبير لم يكن قريب المنال. ويصدق ذلك على شرق أوروبا من اسكندنافيا في الشمال إلى شبه جزيرة البلقان في الجنوب. كما يصدق على جنوب إيطاليا وإسبانيا، ما عدا شرائح صغيرة من المناطق الريفية في كاتالونيا والباسك. وحتى في شمال إيطاليا، حيث كانت التغيرات الاقتصادية أكبر من ذلك بكثير، لم تتضح بصورة ملموسة إلا في الزراعة (التي كانت في ذلك الإقليم على

الدوام منفذاً رئيسياً للاستثمار الرأسمالي والمشروعات الاقتصادية) وفي التجارة والشحن البحري، لا في الصناعات الإنتاجية. غير أن التطور في تلك القطاعات تعثر في جنوب أوروبا بفعل النقص الحاد في ما كان حتى ذلك الحين المصدر الوحيد للطاقة الصناعية، وهو الفحم.

وعلى هذا الأساس انطلق جزء واحد من العالم لتحقيق القوة والهيمنة الاقتصادية، وتخلّف الآخر. غير أن هاتين الظاهرتين كانتا مترابطتين متلاحمتين. لقد كان الكساد والركود، وحتى النكوص الاقتصادي، من نتائج التقدم الاقتصادي. فكيف تستطيع الاقتصاديات المتخلفة نسبياً أن تقاوم القوة، وفي بعض الأحيان، الإغراء، التي تمثلها مراكز الثروة والصناعة والتجارة الجديدة؟ لقد كان بوسع الإنجليز وبلدان أوروبية أخرى أن يبيعوا بأسعار أقل مما يبيعه منافسوهم جميعاً، وقد راق لهم أن يكونوا هم مشغل العالم. وكان من "الطبيعي" تماماً بالنسبة لهم أن يتعين على البلدان الأقل تقدماً أن تنتج الغذاء، وربما المعادن، وتستبدل هذه السلع غير التنافسية بمنتجات بريطانية (أو أوروبية غربية أخرى). وقد أبلغ ريتشارد كوبدن الإيطاليين أن "الشمس هي ما لديكم من فحم"[27]. وحيث كانت السلطة المحلية في أيدي ملاك الأرض الكبار أو حتى المزارعين وأصحاب المزارع التقدميين، فإن هذا التبادل كان مناسباً للطرفين كليهما. فقد كان أصحاب المزارع الكوبيون سعداء كل السعادة بجمع المال عن طريق بيع السكر، واستيراد البضائع الأجنبية، مما يتيح للأجانب أن يشتروا السكر. وفي الأماكن التي كان بوسع المصنعين المحليين فيها أن يعبروا عن آرائهم، أو كانت أجهزة الحكم المحلي تقدر فوائد التنمية الاقتصادية المتوازنة، أو تدرك مساوئ التبعية، فإن النظرة إلى عملية التبادل هذه لم تكن مشرقة

---

(27) G. Mori, "Osservazioni sul libero-scambismo dei moderati nel Risorgimento," *Rivista storica del socialismo*, vol. 3, no. 6 (1960), p. 8.

متفائلة. وفي هذا المجال، كان الاقتصادي الألماني فريدريك ليسْت (Frederick List)، الذي اعتاد أن يطرح آراءه في عبارات فلسفية مجردة، يرفض قيام اقتصاد عالمي تتولى فيه بريطانيا الزعامة الصناعية الأساسية، إن لم تكن الوحيدة، وقد طالب، على هذا الأساس، بسياسة حمائية. وكذلك فعل الأمريكيون، من دون أن يشفعوا هذه المطالبة بأية فذلكات فلسفية.

كان الافتراض الكامن وراء ذلك كله أن بوسع أي اقتصاد مستقل سياسياً، قويٍّ بما فيه الكفاية، أن يقبل أو يرفض الدور الذي فرضه عليه التصنيع الرائد في قطاع واحد صغير من العالم. ولم يكن ثمة خيار آخر أمام ذلك البلد إذا لم يكن مستقلاً، كما هي الحال في المستعمرات. فقد أرغمت الهند، كما رأينا، على عملية التجرّد من التصنيع، وكانت مصر تقدم مثالاً حياً على هذه العملية. فقد صمم حاكمها المحلي، محمد علي، على تحويل بلاده بصورة منهجية منظمة إلى اقتصاد حديث يتضمن، من جملة أمور أخرى، بعداً صناعياً. كما أنه لم يشجع زراعة القطن لتلبية احتياجات الأسواق العالمية (اعتباراً من العام 1821)، غير أنه، بحلول العام 1838، استثمر مبلغاً ضخماً يعادل 12 مليون جنيه إسترليني في الصناعة، التي أتاحت فرص العمل لما يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألفاً من العمال. ولا نعلم ما كان سيحدث لو لم تحدث مثل هذه التطورات في مصر. وما حدث هو أن المؤتمر الإنجليزي ـ التركي عام 1818 فرض على البلاد أن تتعامل مع التجار الأجانب، وقوّض بذلك احتكارَ محمد علي للتجارة الخارجية، وأرغمته هزيمة مصر أمام الغرب عام 1839ـ1841 على تقليل حجم جيشه، ومن ثَمَّ، إزالة الجانب الأكبر من الحافز الذي كان يحدو به إلى التصنيع[28]. ولم تكن تلك هي المرة الأولى أو الأخيرة التي "فتحت" فيها السفن الحربية الغربية أبواب بلد ما للتجارة؛ أي لمنافسة

(28) Charles Issawi, "Egypt since 1800: A Study in Lopsided Development," *Journal of Economic History*, vol. 21, no. 2 (March 1961), p. 1.

غير متكافئة مع القطاع الصناعي في العالم. وهل كان بوسع أحد ينظر إلى مصر، خلال فترة الحماية البريطانية في نهاية ذلك القرن، أن يتعرف على البلد الذي كان قبل ذلك بخمسين سنة الدولة غير البيضاء الوحيدة التي جهدت للخروج من دائرة التخلف بانتهاج السياسات الحديثة؟ كان ذلك مدعاة للاشمئزاز من جانب ريتشارد كوبدن[29].

وأثبت هذا التقسيم والفصل بين البلدان "المتقدمة" والبلدان "الناقصة النمو" أنه الأكثر عمقاً واستدامة بين جميع النتائج الاقتصادية لعصر الثورة المزدوجة. وبحلول العام 1848، اتضحت، بصورة عامة، قائمة البلدان التي ستنتمي إلى الفئة الأولى، وهي أوروبا الغربية (عدا شبه الجزيرة الأيبيرية)، وألمانيا، وشمال إيطاليا، وأجزاء من وسط أوروبا، واسكندنافيا، والولايات المتحدة، وربما المستعمرات التي استوطنها المهاجرون الناطقون بالإنجليزية. وأصبح من الواضح أيضاً، بالقدر نفسه، أن بقية العالم، باستثناء بقاع صغيرة، تعاني التخلف أو أنها، تحت الضغط غير الرسمي الذي تفرضه الصادرات والواردات الغربية، أو الضغط العسكري الذي تلوح به السفن الحربية والحملات العسكرية الغربية، كانت في سبيلها إلى أن ترضخ للتبعية الاقتصادية للغرب. وحتى الثلاثينات من القرن العشرين، التي طور فيها الاتحاد السوفياتي الوسائل الكفيلة بالقفز على هذه الهوة بين البلدان "المتخلفة" والبلدان "المتقدمة" ظلت هذه الشقة ثابتةً، عصيةً متزايدة الاتساع بين الأقلية والأكثرية من سكان العالم. وهذه الحقيقة الواقعة وحدها هي التي كانت الأكثر حسماً في تحديد مسار التاريخ في القرن العشرين.

---

(29) "هذا الهدر كله هو ما يصيب أفضل أنواع القطن الخام الذي ينبغي أن يباع لنا... ولا يقتصر الضرر على ذلك؛ لأن الأيدي التي تعمل على تصنيعه في المعامل، هي التي تُحرَم منها فلاحة الأرض"، انظر: Morley, *The Life of Richard Cobden*, Chapter 3.



الفصل العاشر

المهن تفتح أبوابها للمواهب

"كنت أسير ذات يوم وسط مانشستر برفقة واحد من أبناء الطبقة الوسطى، وقد حدثته عن الأحياء الفقيرة القذرة المشينة، ولفَتُّ انتباهه إلى الأوضاع المزرية التي يعيشها عمال المصنع في هذا الجزء من المدينة، وأبلغته أنني لم أرَ في حياتي قط مدينة بنيت بهذا المستوى من الانحطاط. استمع إلي صابراً، وعندما وصلنا إلى ركن الشارع، وأوشكنا على الافتراق، كلٌّ في سبيله، نظر إليّ قائلاً: "على الرغم من ذلك، فإن ثمة أموالاً طائلة في هذا المكان، عِمْ صباحاً يا سيّدي!".

فريدريك إنغلز، **أوضاع الطبقة العاملة في إنجلترا**[1].

"كان من عادة المتمولين الجدد أن ينشروا في الصحف قائمة الطعام الذي يقدمونه في حفلات العشاء التي يقيمونها، مع أسماء المدعوين".

م. كابفيغ (M. Capefigue)[2].

(1) Frederick Engels, *The Condition of the Working-Class in England in 1844*, Chapter XII.

(2) M. Capefigue, *Histoire des grandes opérations financières; banques, bourses,* =

I

يمكننا، بسهولة، أن نتبين المؤسسات الرسمية التي تطيح بها ـ أو تقيمها ـ ثورة ما، غير أن ذلك لا يقيس آثارها. فقد كانت النتيجة الأساسية للثورة في فرنسا إنهاء المجتمع الأرستقراطي. ولا تعني "الأرستقراطية" في هذا المجال تراتبية المكانة الاجتماعية التي تتميز بالألقاب أو الرموز الحصرية المنظورة الأخرى التي تشكل نفسها في أكثر الأحيان وفق نموذج أولي يقوم على نبل "الدم". فالمجتمعات القائمة على المسارات المهنية الفردية ترحب بعلامات النجاح المؤسسة الظاهرة هذه. بل إن نابليون أعاد خلق نوع من فئة النبلاء الرسمية التي انضم أعضاؤها إلى من تبقى من الأرستقراطيين القدماء بعد العام 1815، كما أن نهاية المجتمع الأرستقراطي لم تكن تعني نهاية النفوذ الأرستقراطي. فالطبقات الصاعدة تميل إلى إظهار الرموز الدالة على ما تتمتع به من ثورة وسلطة بالعودة إلى المقاييس التي سنَّتها الطبقات العليا السابقة للدلالة على ما تنعم به من ارتياح ورفاهية وأبهّة. إن زوجات تجار الأجواخ والألبسة في تشيشير أصبحن يحملن لقب "ليدي"، ويتعلمن الأصول من خلال العديد من الكتب عن الإتيكيت وأساليب الحياة المرفهة التي تضاعفت أعدادها منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر، وللسبب نفسه الذي جعل المنتفعين من حروب نابليون يستمرئون لقب "بارون"، أو الذي ملأ الصالونات البورجوازية "بالمخمل، والذهب، والمرايا، والكراسي وقطع الأثاث الأخرى السيئة التقليد لما كان شائعاً أيام لويس الخامس عشر... وانتشرت أساليب الحياة الإنجليزية، بما فيها الخدم والخيل، ولكن من دون الروح الأرستقراطية". ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الفخر أكثر من أن يتبجح أحد أصحاب البنوك بقوله: "عندما أظهر في قُمرتي في المسرح، تتجه

= *emprunts, compagnies industrielles*, 4 vols. (Paris: Amyot, 1855-1860), vol. 4, p. 255.

نحوي الأنظار، وأحظى باستقبال أشبه باستقبال الملوك"[3]. بالإضافة إلى ذلك، فإن ثقافة مثل الثقافة الفرنسية، التي أرسى البلاط والأرستقراطية أسسها الراسخة، لا بد من أن تترك بصماتها على ما يليها. من هنا كان الانشغال الواضح من جانب الأدب النثري الفرنسي بالتحليل النفسي للعلاقات الشخصية (الذي يعود في أصوله إلى الكتّاب الفرنسيين في القرن السابع عشر)، أو النمط المحدد للغزوات الجنسية وإعلانات المحبين أو العشيقات التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحضارة البورجوازية "الباريسية". وكان للملوك في الماضي عشيقاتهم الرسميات؛ فانضم إليهم الآن سماسرة الأوراق المالية. وغدت المحظيات يقدمن خدماتهن العالية الكلفة لرفع شأن أصحاب البنوك القادرين على دفع الثمن، وكذلك لإعلاء منزلة الجيل الجديد ممن دمرت الغواني ما لديهم من أملاك. والواقع أن الثورة حافظت، في أكثر من ناحية، على الخصائص الأرستقراطية للثقافة الفرنسية بما فيها من أصالة ونقاء بصورة استثنائية، مثلما فعلت الثورة الروسية فيما بعد للغرض نفسه عندما حافظت، بأمانة، على فن الباليه العريق والموقف البورجوازي المعتاد في القرن التاسع عشر من "الأدب الرفيع"؛ فقد انبهرت الثورتان بهذا الإرث باعتبار أنه يمثل تراث الماضي الذي ينبغي حمايته من التأكل بفعل أية تطورات لاحقة.

غير أن النظام القديم كان ميتاً لا حياة فيه، على الرغم من أن صيادي السمك في بريست كانوا، عام 1832، يعتقدون أن الكوليرا التي داهمتهم إنما كانت عقاباً من الله على إطاحة ملك البلاد الشرعي. وكانت النزعة الجمهورية بطيئة الانتشار بين الفلاحين خارج أوساط اليعاقبة ومناطق أخرى لا تأخذ المسيحية مأخذ الجد. إلا أن الإيمان بالشرعية كان خلال الانتخابات الحقيقية الشاملة الأولى عام 1848،

(3) انظر: المصدر نفسه، ص 248-249 و254.

مقصوراً على غربي البلاد والمقاطعات الوسطى الأكثر فقراً. ويمكننا، أن نتلمس، حتى في تلك الأيام، الملامح الأساسية للجغرافيا السياسية لفرنسا الحضرية الحديثة. ففي المراتب العليا للسلم الاجتماعي، لم تؤدِّ استعادة أسرة البوربون للعهد الملكي إلى عودة النظام السابق، بل إن محاولة شارل العاشر لفعل ذلك أسفرت عن إطاحته. وقد كان مجتمع الاستعادة هو مجتمع الرأسمالية والساعين إلى النجاح الذي تمثل في روايات أونوريه دو بلزاك وفي شخصية جوليان سوريل في رواية ستندال (Stendhal) **الأحمر والأسود**، لا مجتمع الدوقات المهاجرين العائدين إلى فرنسا. إن حقبة بالغة الطول تفصل بين هذا المجتمع و"الحياة الهانئة" التي كان الناس يحلمون بها في ثمانينات القرن الثامن عشر، وكان يستذكرها تاليران. وكانت شخصية راستيناك في أعمال بلزاك أقرب إلى شخصية "الصديق الطيب"، الشخصية النموذجية لدى القصاص غي دو موباسّان (Guy De Maupassant) في ثمانينات القرن التاسع عشر، بل إلى شخصية سامي غليك النموذجية في هوليود في أربعينات القرن العشرين، منه إلى شخصية فيغارو الذي يمثل النجاح غير الأرستقراطي في ثمانينات القرن الثامن عشر.

وجُماع القول، إن المجتمع ما بعد الثورة في فرنسا كان بورجوازياً في بِنيتهِ وقيمِه. لقد كان مجتمع العصاميين الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم، على الرغم من أن ذلك لم يكن جلياً بصورة تامة إلا عندما تولى هؤلاء العصاميون الحكم في البلاد؛ أي عندما كان الحكم جمهورياً أو بونابرترياً. وقد لا يبدو الأمر ثورياً متطرفاً لدينا أن يكون نصف طبقة النبلاء في فرنسا عام 1840 قد تحدر من الأسر النبيلة القديمة، لكن ما أدهش البورجوازيين في تلك الأيام هو أن النصف الآخر ينتسب إلى من كانوا من العامة عام 1789، خصوصاً عندما يرى هؤلاء نظام التراتب الاجتماعي الحصري الذي كان يسود باقي القارة الأوروبية. ونجد تعبيراً عما كانت تمثله باريس في القرن التاسع عشر في العبارة المتداولة آنذاك: "عندما يموت الأمريكيون الصالحون، فإنهم يذهبون إلى باريس"، مع أن

المدينة لم تصبح هي فردوس العصاميين إلا في زمن الإمبراطورية الثانية. ولم تكن لندن، أو حتى فيينا، وسان بطرسبرغ، أو برلين، من المدن التي يستطيع المرء فيها أن يشتري بالمال كل ما يريد، وفي الجيل الأول على أية حال. أما في باريس، فكان كل ما يستحق الشراء قريب المنال.

لم تقتصر هيمنة هذا المجتمع الجديد على فرنسا فحسب. ولكن إذا استثنينا الولايات المتحدة الأمريكية الديمقراطية، فإن هذه الهيمنة كانت، في نواح سطحية معينة، أكثر ظهوراً ووضوحاً في فرنسا، على الرغم من أنها لم تكن أكثر عمقاً مما كانت عليه في بريطانيا أو البلدان الواطئة. ففي بريطانيا، كان كبار الطهاة هم الذين يعملون لدى النبلاء، مثل كاريم (Carême) الذي عمل لدى الدوق ولنغتون (Duke of Wellington)، وكان قبلها طاهياً لدى تاليران، أو من عملوا في نوادي الصفوة المتميزة، مثل أليكسيس سوير (Alexis Soyer) الذي كان كبير الطهاة في "نادي الإصلاح". وقد قامت المطاعم العامة العالية الكلفة في فرنسا على أيدي طهاة النبلاء الذين فقدوا وظائفهم خلال الثورة. ويتجلى تغير الأجواء هذا في عنوان كتاب لتعليم فن الطبخ على الطريقة الفرنسية التقليدية، حيث ورد اسم المؤلف على الغلاف على النحو التالي: "بقلم أ. بوفيلييه (A. Beauvilliers)، كبير الطهاة سابقاً لدى المسيو كونت دو بروفانس، وحالياً صاحب مطعم "حانة لندن الكبرى" الواقع في شارع ريشيليو، رقم 26"[4]. كما أن "الذواقة"، وهم فئة من الناس اختُرعت أيام عودة الملكية وشاعت بعد أن كتب عنها بريبا - سافارين (Brillat-Savarin) في **دليل الذواقة** (*Almanach des gourmands*)، منذ عام 1817، أنهم غدوا يذهبون لتناول الطعام في "كافيه أنغليه"، أو "كافيه دو باري" من دون أن يكون ثمة مضيفات يَتولَّيْن خدمتهم. وفي تلك الأيام كانت الصحافة ما زالت وسيلة للإبلاغ والقدح والضغط السياسي. أما في فرنسا، فقد أسس إميل جيراردان

---

(4) Antoine Beauvilliers, *L'Art du cuisinier*, 2 vols. (Paris: Pilet, 1814).

(Emile Girardin) (1836) جريدة حديثة، هي **لا برسّ** (*La Presse*)، السياسية رخيصة الثمن، تهدف إلى تحقيق الربح من خلال الإعلانات، وتجتذب القراء من خلال ما تنشره من القيل والقال، والروايات المسلسلة، والمواد المثيرة الأخرى[5]. (وتتجسد الريادة الفرنسية في هذا المجال في كلمات من نوع "صحافة" (Journalism) و"دعاية تجارية" (Publicity) بالإنجليزية، و"Reklame" و"Annonce" بالألمانية). وليست الأزياء، والمتاجر الضخمة التي تبيع عدة أصناف، وواجهات عرض البضائع التي تغنى بها بلزاك[6]، إلا مخترعات فرنسية تعود إلى العشرينات من القرن التاسع عشر، كما أن الثورة أدخلت إلى "المجتمع الصالح" مجالاً متميزاً مفتوحاً أمام المواهب هو المسرح، في الوقت الذي كان فيه المسرحيون في بريطانيا الأرستقراطية يحتلون مرتبة اجتماعية تضاهي مرتبة المُلاكمين والخيّالة؛ ففي منطقة ميزون ـ لافيت (التي سميت باسم المصرفي الذي جلب الجاذبية والرواج لهذه الضاحية)، كان لأشخاص مثل لابلاش (Lablache)، وتالما (Talma)، حضور قوي جنباً إلى جنب مع منزل برانس دو لا موسكوفا الرائع.

أما الأثر الذي خلفته الثورة الفرنسية على بنية المجتمع البورجوازي، فكان، في ظاهره، أقل إثارة، غير أنه كان أعمق غوراً؛ ذلك إنه خلق تكتلات بورجوازية كانت من الضخامة بحيث لم يستطع المجتمع الرسمي الذي تعايشت معه استيعابها، إلا في حالات امتصاص ضئيلة في المراتب الاجتماعية العليا، كما أن ما كانت تتمتع به من الثقة بالنفس والدينامية جعلها لا تقبل بالاندماج إلا وفق شروطها. وكانت هذه الجحافل من

---

(5) حصلت *Journal des débats* (التي كانت توزع 10,000 نسخة) على 20 ألف فرنك في السنة لقاء ما نشرته من إعلانات عام 1835. وفي العام 1838، أُجّرت الصفحة الرابعة من صحيفة *La Presse* بمبلغ 150 ألف فرنك في السنة، وارتفع هذا الرقم إلى ثلاثمئة ألف فرنك عام 1845. انظر: Henri Sée, *Histoire économique de la France*, vol. 2, p. 216.

(6) "قصيدة الخيلاء الكبرى تنشد أنغامها الملونة، بدءاً من كاتدرائية المادلين حتى بوابة سان دونِي".

رجال الأعمال الأشداء عام 1820 غائبة عن وستمنستر في لندن حيث كان النبلاء وأقرباؤهم هم المسيطرين على البرلمان الذي لم يكن الإصلاح قد طاله بعد، وعن أجواء هايدبارك، حيث كانت سيدات غير متزمتات مثل هارييت ويلسون (Harriette Wilson) (التي بلغت من التحرر الأخلاقي حداً جعلها ترفض التظاهر بأنها من البراعم الكسيرة) تقود مركبة الجياد الخفيفة الخاصة بها وسط مجموعة من رجال الجيش والنبلاء والدبلوماسيين المعجبين الأنيقين، بمن فيهم دوق ولنغتون الحديدي غير البورجوازي نفسه. وكان التجار، وأصحاب البنوك، وحتى الصناعيون في القرن الثامن عشر من القلة بحيث أمكن اندماجهم في المجتمع الرسمي. بل إن الجيل الأول من أصحاب الملايين من المتاجرين بالقطن، وفي مقدمتهم السير روبرت بيل (Robert Peel) الأب، الذي كان ابنه يتدرب على أعمال رئاسة الوزراء، كان من أعضاء حزب المحافظين، مع ميل إلى الاعتدال. وعلى الرغم من ذلك، كان محراث التصنيع الحديدي يضاعف من محاصيل رجال الأعمال تحت غيوم الشمال الماطرة، ولم تكن ثمة إمكانية للتوفيق بين مانشستر ولندن. وفي ظل صرخة الحرب القائلة بأن "ما تفكر فيه مانشستر اليوم، ستفكر فيه لندن غداً"، بدأت مانشستر تستعد لتفرض شروطها على العاصمة.

كان الرجال الوافدون من المقاطعات يمثلون جحفلاً مهيباً زاد من هيبته إحساسهم بأنهم "طبقة" لا مجرد "مرتبة وسطى" تردم الفجوة القائمة بين المراتب العليا والمراتب السفلى في المجتمع (ولم يظهر مصطلح "الطبقة الوسطى" للمرة الأولى إلا سنة 1812). وكان بوسع جون ستيوارت مِلْ (John Stuart Mill) أن يوضح عام 1834 أن المعلقين الاجتماعيين "كانوا يتحركون في دائرة أبدية من الملّاك، والرأسماليين، والعمال، إلى أن وصلوا إلى مرحلة يعتقدون فيها أن تمايز المجتمع في ثلاث طبقات قد حدث لأنه نتيجة لأوامر إلهية"[7]. وبالإضافة إلى

(7) Asa Briggs, "Middle-Class Consciousness in English Politics 1780-1846," =

ذلك، فإنهم لم يكونوا مجرد طبقة، بل طبقة من المناضلين المحاربين الذين نظموا أنفسهم أول الأمر جنباً إلى جنب مع "الفقراء الكادحين" (الذين كان عليهم، وفق تصور تلك الطبقة، أن يحذوا حذوهم)[8]، في مواجهة المجتمع الأرستقراطي، وفي ما بعد، في مواجهة البروليتاريا والملاّك على السواء، ولا سيما الهيئة الأكثر وعياً لوضعها الطبقي، وهي "رابطة المعادين لقانون الذرة". لقد كانوا من العصاميين، أو، على الأقل، من الرجال الذين ينتسبون إلى أصول اجتماعية متواضعة، ولم يكتسبوا شيئاً بفعل نبل المحتد، أو العائلة، أو التعليم العالي الرسمي (ولم يتستروا على هذا الأمر، شأنهم في ذلك شأن المسماة **أوقات عصيبة** (*Hard Times*)). كانوا أثرياء، ويزدادون ثراءً عاماً بعد عام. وكانوا، فوق ذلك، قد تشبعوا بدرجة شرسة دينامية من الثقة بالنفس لا يتمتع بها إلا من أثبتت لهم مساراتهم المهنية أن العناية الإلهية، والعلم، والتاريخ قد اجتمعت لتجعل الأرض لقمةً سائغةً لهم.

واكتسب هؤلاء يقيناً عقلياً من "الاقتصاد السياسي" كما ترجمه في عبارات قطعية بسيطة قليلة أشخاص عصاميون من الصحافيين الناشرين الذين تغنوا بفضائل النظام الرأسمالي من أمثال إدوارد بينز (Edward Baines) من صحيفة **ليدز ميركوري** (*Leeds Mercury*) (1774ـ1844)، وجون إدوارد تايلور (John Edward Taylor) من **المانشستر غارديان** (*Manchester Guardian*) (1791ـ1844)، أرشيبال برنتيس (Archibald Prentice) من **المانشستر تايمز** (*Manchester Times*) (1792 - 1857)، وصامويل سمايلز (Samuel Smiles) (1812ـ1904). وقد قدم لهم المنشقون البروتستانت المتشددون من الميثوديين، والمستقلين،

= *Past and Present*, vol. 9 (April 1956), p. 68.

(8) "إن ما يشكل آراء هذه الطبقة من الناس الذين يحتلون مرتبة أدنى من الوسطى ويوجه عقولهم، هو هذه الشريحة الذكية الفاضلة من الناس الذين يخالطونهم بصورة مباشرة". انظر: James Mill, *An Essay on Government* ([n. p.: n. pb., 1823]).

والموحِّدين، والكويكرز، لا الميثوديون العاطفيون، يقيناً روحياً وإحساساً بالاحتقار تجاه الأرستقراطيين الذين لا تُرجى منهم فائدة. ولم يكن الخوف، أو الغضب، أو حتى الشفقة، تخامر نفس رب العمل عندما كان يخاطب العاملين لديه بقوله: "إن إله الطبيعة قد وضع نظاماً عادلاً منصفاً لا يحق لامرئ أن يُخلَّ به. وإذا ما غامر بالإخلال به، فإن من المؤكد دائماً أنه سيلقى جزاءً وِفاقاً، عاجلاً أم آجلاً... وعلى هذا الأساس، فعندما يتجرأ سيد العمل عل أن يضيف إلى ذلك شيئاً من السطوة ليستطيع ممارسة القمع على عمّاله، فإنه، بعمله هذا، إنما يستنزل على نفسه لعنة الله. من جهة أخرى، إذا اتحد العمال في محاولة من جانبهم لابتزاز جانب من الربح المستحق لأرباب العمل، فإنهم ينتهكون بذلك قوانين الإنصاف والعدل"[9].

كان ثمة نظام يسود العالم، غير أنه لم يكن نظام الماضي. وكان ثمة إله واحد اسمه البخار، يتحدث بصوت مالتوس، وماكولوك، وكل من استخدم الآلات والمعدات.

إن بقايا اللاأدريين من مثقفي القرن الثامن عشر والباحثين والكتاب العصاميين الذين تحدثوا بالنيابة عن أفراد الطبقة الجديدة ينبغي أن لا تحجب عن أعيننا أنهم لم يشغلهم عن جمع المال شيء لا يرتبط بهذا المسعى. وكان رجال الأعمال هؤلاء حتى من لم يحققوا منهم النجاح، مثل ريتشارد كوبدن (1804ـ1865)، يقدرون أولئك المثقفين ما داموا يتحاشون طرح الأفكار الفذلكية المعقدة.

ذلك أنهم كانوا رجالاً عمليين دفعهم افتقارهم إلى التحصيل العلمي إلى التشكيك في كل ما يتجاوز حدود التجريب، وقد طرح لهم العالم تشارلز باباج (Charles Babbage) (1792ـ1871) نهجه العلمي

---

(9) Donald Read, *Press and People, 1790-1850: Opinion in Three English Cities* (London: E. Arnold, [1961]), p. 26.

دونما جدوى. كما قدم لهم السير هنري كول (Henry Cole)، رائد التصميم الصناعي والتعليم الفني وترشيد المواصلات (بمساعدة قيمة من جانب الأمير الألماني قرين الملكة)، إنجازاً باهراً للغاية توجت به مساعيهم، هو المعرض الكبير عام 1851. غير أنه اضطر إلى الانقطاع عن الحياة العامة؛ لأنهم حنقوا عليه بوصفه فضولياً متطفلاً ذا نزعة بيروقراطية بالغة كانت، شأنها شأن التدخلات الحكومية جميعها، لا تساعدهم على تحقيق المزيد من الأرباح بصورة مباشرة. وسيطر على السكة الحديدية الجديدة الميكانيكي العصامي جورج ستيفنسون الذي قرر أن تكون المسافة بين قضيبي السكة هي نفسها التي كانت تفصل بين عجلتي عربة الخيل. ولم يكن ذلك من نصيب المهندس المبتكر الجريء إيزامبار كنغدوم برونيل (Isambard Kingdom Brunel)، الذي لم يكن له نصب تذكاري في متحف المهندسين الذي بناه صامويل سمايلز؛ إذ تعرض، ضمناً، للشجب في عبارة تقول: "إذا قسنا الأمور بمعايير النتائج العملية المربحة، فإن عائلة ستيفنسون قدمت الخبراء الأكثر حرصاً على نواحي السلامة من دون منازع"[10]. وقد بذل الفلاسفة الراديكاليون أقصى جهودهم لبناء شبكة من "معاهد الميكانيكيين" الخالية من الأخطاء المشؤومة سياسياً، التي كان المشغّلون يصرّون على سماعها رغماً عنهم في تلك الأمكنة، لتدريب الفنيين على الصناعات الجديدة القائمة على العلم. وبحلول العام 1848، كان أكثرهم قد دخل مرحلة الاحتضار جراء عدم الإقرار العام بأن هذا التعليم التقاني قادر على تعليم شيء نافع للإنجليز (لا للألمان أو الفرنسيين). وكان ثمة كثرة من المنتجين الصناعيين الأذكياء بل المثقفين والميالين إلى التجريب، غير أن من الخطأ افتراض أنهم كانوا يمثلون طبقتهم خير تمثيل.

لقد نشأ الجيل الجديد من هؤلاء الرجال في الفترة الفاصلة بين

---

(10) Samuel Smiles, *The Life of George Stephenson* ([n. p.]: Murray, 1881), p. 183.

معركة الطرف الأغر وإقامة المعرض الكبير. وربما كان سابقوهم أقل همجيةً منهم لأنهم نشأوا في سياق اجتماعي ينتشر فيه تجار المقاطعات المتحضرون العقلانيون، والقساوسة المنشقون، وفي إطار فكري محافظ في القرن السابق. فقد كان الخزاف جوسيا ويدجوود (1730ـ1795)، زميلاً في الجمعية الملكية، وزميلاً في نقابة تجار العاديّات الأثرية، وعضواً في الجمعية "القمرية" مع ماثيو بولتون، وشريكه جيمس وات، والعالم الكيميائي الثوري بريستلي (الذي قام ابنه توماس بتجارب في التصوير الفوتوغرافي، ونشر عدداً من الأوراق العلمية، وقدم الدعم للشاعر كوليريدج). وكان الصانع المنتج في القرن الثامن عشر يبني مصانعه بالطبع وفق التصاميم الموضوعة في كتب البنائين الجورجيين، وكان خلفاؤهم أكثر نبوغاً منهم، إن لم يكونوا أكثر ثقافة؛ لأنهم، بحلول أربعينات القرن التاسع عشر، كان لديهم ما يكفي من المال لينفقوا على المنازل الزائفة على الطراز الباروني، ودور البلدية الزائفة المبنية على الطراز القوطي أو أسلوب عصر النهضة، ويعيدوا بناء كنائسهم المتواضعة أو العملية أو العتيقة وفق الطراز المعماري المتعامد. إلا أن الفترة الواقعة بين الحقبتين الجورجية والفكتورية شهدت ظهور ما أصبح يعرف بحق بالعصر الكالح للبورجوازية وللطبقة العاملة على حد سواء، وهو العصر الذي خلّد تشارلز ديكنز (Charles Dickens) ملامحه إلى الأبد في رواية **أوقات عصيبة**.

لقد هيمنت على هذه الحقبة المقفرة نزعة أخلاقية بروتستانتية طهرانية ورعة متصلبة باهتة تدّعي لنفسها العصمة إلى حد أصبح معه النفاق رفيقاً ملازماً لها. وعلى حد قول ج. م. يونغ (G. M. Young)، "زحفت الفضيلة الظافرة على جبهة عريضة"، وداست بأقدامها جمهرة الأشرار، والضعفاء، والخطاة (أي أولئك الذين لم يكن بمقدورهم أن يجمعوا المال أو يضبطوا نفقاتهم المالية أو العاطفية)، وألقت بهم في الوحل الذي ينتمون إليه حتى لم يعودوا يستحقون إلا ما يجود به عليهم أفاضل الناس. وكان ثمة حس اقتصادي رأسمالي في ذلك؛ فقد كان

على صغار المبادرين في القطاع الخاص أن يعيدوا استثمار ما يحققونه من أرباح ليتحولوا إلى مبادرين كبار. وكان على جماهير البروليتاريا الجديدة أن تواكب إيقاع العمل الصناعي وفق انضباط غاية في الغبن والقسوة في ما يتصل بشروط العمل، وإلا فإنهم سيتضورون جوعاً إذا لم يقبلوا بذلك. بل إن النفس لتنقبض حتى في أيامنا هذه عندما يطالعنا المشهد الذي وضعه وخلفه ذلك الجيل[11].

"لم تكن لترى في كوكتاون إلا ما كان ضرورة لازبة للغاية. فإذا ما بنى أتباع إحدى الطوائف الدينية كنيسة هناك، وذلك ما فعلته ثماني عشرة طائفة دينية، فإنهم سيحولونها إلى ما يشبه المستودع المبنيّ بالطوب الأحمر، يعلوه (في حالات الزينة المترفة القليلة فحسب) جرس في ما يشبه أقفاص العصافير. . . . وكانت جميع النقوش والرسوم المطبوعة الظاهرة في الأماكن العامة متشابهة كئيبة الشكل، وبالأبيض والأسود. وكان السجن أشبه بالمصحة مثلما كانت المصحّة أقرب إلى السجن، ومبنى البلدية أقرب إلى ذلك وتلك، أو إلى كلتيهما معاً، أو إلى أي شيء آخر، لأن المبنى في جميع الحالات كان يفتقر إلى أدنى درجات الذوق واللطف. والحقيقة، الحقيقة، الحقيقة في كل مجال من مجالات الحياة المادية في البلدة، والحقيقة، الحقيقة، الحقيقة، في جميع المجالات المعنوية. . . . كان كل شيء يختزل إلى حقائق عارية في المسافة التي تفصل بين الراقدين في المستشفى والراقدين في المقبرة. أما الأمر الذي لا تستطيع أن تحوله إلى أرقام، أو تجعله قابلاً للشراء بأرخص الأسعار في السوق، أو للبيع بأغلى الأسعار، فهو شيء لم يكن، ولا ينبغي أن يكون في هذا العالم اللامتناهي، آمين"[12].

---

(11) Charles Dickens, *Hard Times*.

(12) قارن ذلك بما يقوله ليون فوشيه في كتابه **مانشستر سنة 1844**، ص 24-25: "إن هذه المدينة تحقق قدراً من اليوتوبيا التي تصورها بنثام. فكل شيء فيها يقاس بالنتائج ومستوى ما يترتب عليه من نفع. وإذا ما قدر لقيم الجمال، والعظمة، والنبل أن ترمي جذورها في=

بيد أن ثمة بُعداً جمالياً وظيفياً لهذا التكريس المتزمت للروح النفعية البورجوازية، الذي اشترك فيه الطهرانيون البيوريتان والإنجيليون مع الراديكاليين الفلسفيين المتحدرين من القرن الثامن عشر، الذين صاغوه في عبارات منطقية. وقد تجلى هذا البعد الجمالي في خطوط السكة الحديدية والجسور والمخازن. أما جانب الرعب الرومنطيقي في تلك الروح فقد ظهر في صفوف البيوت الصغيرة الحمْر أو الكالحة القاتمة السواد، المشبعة بالدخان التي تُطلُّ عليها قلاع المصانع من عَلٍ. وخارج هذه المنطقة، كانت تعيش جموع البورجوازيين (إذ كانوا قد كدّسوا من المال ما يمكنهم من الانتقال والحركة)، ويصدرون الأوامر، والمواعظ الأخلاقية، ويقدمون العون لمساعي المبشرين الرامية إلى هداية الوثنيين السود في ما وراء البحار. وكان الرجال البورجوازيون يجسدون سطوة المال الذي يثبت حقهم في السيطرة على العالم، أما النساء، اللواتي حرمهن أزواجهن من المال، حتى ولو كان عربوناً لقيامهن بالأعمال المنزلية، فإنهن كنَّ يجسدن الخصائص التي تتصف بها طبقتهن؛ فهي غبية ("كوني خادمة طيبة طيّعة، واتركي الشطارة لغيرك")، جاهلة، خرقاء، ولا شأن لها بالأمور الجنسية، نظرياً، ومُعدمة، مستورة. وكانت هذه الصفات هي الترف الوحيد الذي سمح به عصر التقتير والتعويل على النفس.

تطرح البورجوازية الصناعية البريطانية مثالاً متطرفاً على الطبقة التي تمثلها. إلا أن جماعات أخرى أصغر حجماً كانت تضاهيها على امتداد القارة الأوروبية، ومنها: الكاثوليك في المقاطعات التي انتشرت فيها صناعة النسيج في شمال فرنسا أو كاتالونيا، والكالفينيون في الألزاس، واللوثريون الأتقياء في الراينلاند، واليهود في جميع الأنحاء

= مانشستر، فإنها ستنمو وفق هذه المعايير وحدها"، في: Léon Leonard Joseph Faucher, *Manchester in 1844: Its Present Condition and Future Prospects*, Translated from the French with Copious Notes by a Member of the Manchester Athenaeum (London: Manchester, 1844).

في أوروبا الوسطى والشرقية. وقلما كان هؤلاء يضاهون البريطانيين في تزمتهم، لأنهم لم يتخلوا عن تقاليد الحياة الحضرية وأساليب الحكم الأبوية القديمة إلا فيما ندر. وقد صُعِق ليون فوشيه (Léon Faucher)، على الرغم من نزعته الليبرالية المتشددة، لمرأى مانشستر في أربعينات القرن التاسع عشر، وذلك ما يلاحظه مراقبون آخرون في القارة[13]. غير أنهم شاركوا الإنجليز الثقة الناجمة عن الإثراء المطرد، (ففي الفترة الممتدة بين العامين 1830 و1856، ارتفعت بائنة الزواج في عائلة دانسيت في مدينة لِيْلْ من خمسة عشر ألف فرنك إلى خمسين ألفاً[14]، كما شاركوهم الإيمان بالحرية الاقتصادية، ورفض الأنشطة غير الاقتصادية. وكانت سلالات أصحاب المنازل في لِيْلْ تنظر بازدراء تام إلى المهن العسكرية حتى الحرب العالمية الأولى. وبالمثل، أقنعت عائلة دولفوس في مولهاوس ابنها الشاب فريدريك إنْغِل بالعدول عن الالتحاق بمعهد البوليتكنيك لأنهم كانوا يخشون من أن ذلك سيفضي به إلى مهنة عسكرية بدلاً من العمل التجاري. ولم تستطع الأرستقراطية والمتحدرون منها إغراءهم واجتذابهم؛ ذلك أنهم، مثل القادة العسكريين في عهد نابليون، كانوا يعتبرون أنفسهم خير خلف لخير سلف.

II

من هنا، كان الإنجاز الأكبر للثورتين الصناعية والفرنسية أنهما مهدتا السبل أمام المواهب، أو على الأقل أمام ذوي الطاقة والدهاء، والمجدّين والجشعين على حد سواء. على أن ذلك لم يشمل جميع المسارات المهنية، ولا المراتب العليا في السلم الاجتماعي، ربما باستثناء الولايات

(13) Léon Leonard Joseph Faucher, *Etudes sur l'Angleterre*, 2 vols. (Paris: Guillaumin, 1845), vol. 1, p. 322.

(14) Jean Lambert Dansette, *Jean Lambert Dansette. Origines et évolution d'une bourgeoisie. Quelques familles du patronat textile de Lille-Armentières, 1789-1914*, préface de Jacques Chastenet (Lille: E. Raoust et cie, 1954), p. 659.

الأمريكية. غير أن الفرص كانت متاحة على نحو خارق للعادة، وكان القرن التاسع عشر بعيداً كل البعد عن النماذج التراتبية الساكنة التي كانت سائدة في الماضي. وانهالت مشاعر الاستهزاء والتسفيه آنذاك على مستشار مملكة هانوفر فون شيلي (Von Schele) لأنه رفض استخدام محام فقير شاب في وظيفة حكومية لأن أباه يعمل في تجليد الكتب وكان عليه أن يمارس صنعة والده دون سواها[15]. غير أن ذلك المستشار إنما كان يكرر المقولة الشائعة في المجتمع ما قبل الرأسمالي عام 1750 بأن ابن المجلِّد سيحذو، على الأغلب، حذو أبيه في صنعته. إلا أنه لم يعد مطالباً بذلك الآن بعد أن فتحت أمامه الآفاق في أربعة مجالات هي: التجارة، والتعليم (الذي سيؤدي بدوره إلى تحقيق ثلاثة أهداف أخرى هي الخدمة في الحكومة، والسياسة، والمهن الحرة)، والفنون، والحرب. وقد تقلصت أهمية المجال الأخير، (الذي كان شائعاً في الفترة الثورية والنابليونية في فرنسا)، بعد أجيال من السلم. وربما كان هذا المجال قد فقد جاذبيته لهذا السبب. أما المجال الثالث، فقد استجد نظراً لتعاظم الطلب على الإمتاع والمؤانسة وإثارة المشاعر لدى عامة الناس أكثر من أي وقت مضى. وقد تجلى ذلك في ارتفاع المكانة الاجتماعية للمسرح الذي استطاع، فيما بعد، أن يفضي في بريطانيا الإدواردية إلى الظاهرة المزدوجة التي يقترن فيها الفارس أو النبيل بفتاة الكورس. وقد برزت، حتى في فترة ما بعد نابليون، ظاهرة متميزة هي "معبود الجماهير" في الغناء (مثل جيني ليند (Jenny Lind)، و"العندليب السويدي")، أو في الرقص (مثل فاني إلسلر (Fanny Elssler))، أو

---

(15) Oppermañ, "Geschichte d. Königreichs Hannover," in: Tim Klein, ed., *1848: Der Vorkampf Deutscher Einheit und Freiheit: Erinnerungen, Urkunden, Berichte, Briefe*, Schicksal und Abenteuer: Lebensdokumente vergangener Jahrhunderte; 9 (Ebenhausen-München; Leipzig: W. Langewiesche-Brandt, 1914), p. 71.

العازف الموسيقي الأثير لدى الناس (مثل باغانيني (Paganini) أو فرانز ليسْت (Franz Liszt)).

غير أن مجالي التجارة والتعليم لم يكونا مفتوحين للجميع، بمن فيهم أولئك الذين كانوا قد تحرروا من إسار العادة والتقاليد بحيث أصبح بوسعهم الاعتقاد بأن "أمثالنا" سيسلكون هذا السبيل أو ذاك، ويعملون في مجتمع فردي، أو أنهم سيقبلون فكرة "تحسين أوضاعنا". وكان على من يريدون سلوك هذا السبيل أن يدفعوا الثمن؛ إذ كان من الصعب عليهم أن يحققوا النجاح إلا إذا توفرت لهم "بعض" الموارد الأولية مهما كان مستواها متدنياً. وكانت ضريبة الدخول هذه أعلى ـ من دون شك ـ بالنسبة لمن يرغبون في متابعة التحصيل العلمي مقارنة بمن يعتزمون ممارسة التجارة. ويعود ذلك إلى أن التعليم الابتدائي، حتى في البلدان التي عرفت نظام التعليم العام، كان مهملاً بصورة كبيرة، بل إنه، في حال وجوده، كان، لأسباب سياسية، لا يتجاوز الحد الأدنى من معرفة القراءة والكتابة، والحساب، والطاعة الأخلاقية. وتتجلى المفارقة في أن سبل التعليم كانت للوهلة الأولى، تبدو أكثر جاذبية من المجال التجاري.

ولا شك في أن ذلك يعود إلى أن التعليم كان يتطلب ثورة أقل بكثير من عادات الناس وأسلوب حياتهم. فقد كان للتعليم، حتى في مجال الكهنوت، مكانة عالية عظيمة التقدير من الوجهة الاجتماعية في المجتمع التقليدي، وكان ظهور الكاهن أو القس أو الحاخام مدعاة لاعتزاز العائلة وافتخارها بهذا الشرف الذي يطمح إليه الفقراء، ويسعون إلى تحقيقه مهما بلغت جسامة التضحيات. وقد يتحول الإعجاب الاجتماعي، حالما تنفتح هذه المسارات المهنية، إلى المثقف العَلْماني، أو إلى الموظف الحكومي، أو المدرس أو في حالات استثنائية، إلى المحامي والطبيب. وعلاوة على ذلك، فإن التعليم، خلافاً للتجارة، لم يكن في ظاهره يحمل دلالات غير مرغوب فيها من الوجهة

الاجتماعية. فليس من عادة المتعلم أن ينقض على أمثاله مثلما يفعل التاجر أو رب العمل الأناني الصفيق. بل إنه يميل في أغلب الأحيان، خصوصاً إذا كان مدرّساً، إلى مساعدة أقرانه وانتشالهم من ظلمات الجهل الذي جلب لهم البؤس. وكان تحفيز التعطش العام للعلم أسهل بكثير من شحذ الهمم لتحقيق النجاح الاقتصادي الفردي، واكتساب المعارف أيسر بكثير من تعلم أساليب جمع المال الغريبة. وبوسع الجماعات التي تكاد تقتصر على صغار الفلاحين، وصغار التجار، والبروليتاريا، كما هي الحال في ويلز، أن تنمي لدى أبنائها الرغبة في أن يصبحوا مدرسين أو قساوسة، والاستياء الاجتماعي المرّ تجاه الثراء والتجارة في آنٍ معاً.

على الرغم من ذلك كله، فإن التعليم، بمعنى من المعاني، كان يمثل تنافساً فردياً؛ لأن شعار "المسار المهني مفتوح أمام المواهب" يعني، بصورة فعالة، غلبة الجدارة على نبل المحتد وقوة الواسطة كما هي الحال في مجال الأعمال التجارية؛ لأنه يخضع للمنافسة من خلال الامتحانات. وقد أوجدت الثورة الفرنسية، كالعادة، التعبير المنطقي لهذه المسألة باستحداث النسق التراتبي للمسابقات التي يصار من خلالها إلى اختيار صفوة المفكرين الذين يديرون ويوجهون شؤون الشعب الفرنسي من جملة الفائزين بالبعثات الدراسية في البلاد. وكان التحصيل العلمي والمسابقة التنافسية هما النموذج المثالي في مدرسة المفكرين البورجوازيين البريطانيين الأكثر وعياً، والفلاسفة الراديكاليين من أتباع بنثام الذين تمكنوا، قبل نهاية فترتنا هذه، من فرض هذا النموذج في صيغته البالغة النقاء على أعلى المستويات في وزارة الداخلية وفي الخدمة المدنية الهندية، على الرغم من المقاومة المرة التي أبدتها الأرستقراطية. وأصبح الاختيار القائم على الجدارة، كما تقرره الامتحانات أو المسابقات التربوية الأخرى، هو النموذج المقبول عموماً في قطاعات الخدمة العامة الأوروبية كافة، باستثناء المتقادم البالي منها (مثل وزارتي

الخارجية في بريطانيا والفاتيكان)، أو البلدان الأكثر ديمقراطية (مثل الولايات المتحدة الأمريكية) التي تفضل الانتخاب على الامتحان معياراً لصلاحية المرء لشغل الوظائف العامة؛ ذلك أن اجتياز الامتحان، شأنه شأن الأشكال الأخرى للمنافسة الفردية، كان ممارسة ليبرالية، لا وسيلة لتحقيق الديمقراطية أو المساواة.

كانت الحصيلة الاجتماعية الرئيسية لفتح باب التعليم أمام المواهب تتسم بالتناقض. فهي لم تسفر عن خلق "مجتمع مفتوح" للمنافسة الاقتصادية الحرة، بل "مجتمع مغلق" من البيروقراطية؛ غير أن هذين المجتمعين كانا، مع اختلاف الوسائل، من المؤسسات المميزة لعصر البورجوازية ـ الليبرالية. فقد كانت القوة الدافعة للخدمة المدنية العليا في القرن التاسع عشر هي نفسها التي كانت سائدة في المقام الأول، أيام التنوير في القرن الثامن عشر: ماسونية و"جوزيفيّة" في أواسط أوروبا وشرقها، ونابليونية في فرنسا، وليبرالية ومعادية لرجال الكنيسة في البلدان اللاتينية الأخرى، وبنثاميّة في بريطانيا. وصحيح أن المنافسة كانت تتحول إلى ترقية تلقائية حالما يحتل المرء مكانة في الخدمة على أساس الجدارة، على الرغم من أن سرعة الترقية ومداها يعتمدان، نظرياً، على جدارة الموظف، إلا إذا فرضت نزعة المساواة المؤسسية هذه الترقية على أساس الأقدمية وحدها. وكان من نتائج ذلك أن البيروقراطية بدت، للوهلة الأولى، مغايرة للمفهوم المثالي للمجتمع الليبرالي. ومع ذلك، فإن ما كان يجمع الخدمات العامة هو الإدراك بأن الاختيار كان مبنياً على الجدارة، وبأن الأجواء السائدة كانت توحي بالنزاهة وانعدام الفساد، والكفاءة العملية، والتعليم، وغياب الأصول الأرستقراطية. بل إن الإصرار المتشدد على الترقية التلقائية (التي بلغت أقصى درجاتها في مؤسسة الطبقة المتوسطة المتجسدة في البحرية البريطانية)، قد أدى على الأقل إلى القضاء على ما درجت عليه الأرستقراطية أو الملكية من ممارسة المحسوبية والمحاباة. وفي المجتمعات التي كانت تعاني التخلف الاقتصادي، وفرت الخدمة العامة وسيلة بديلة

لنمو الطبقة الوسطى الناهضة[16]. ولم يكن من قبيل المصادفة، إذن، أن 68 في المئة من جميع النواب في برلمان فرانكفورت عام 1848 كانوا من موظفي الخدمة المدنية والمسؤولين الآخرين (مقابل 12 في المئة فحسب من أصحاب "المهن الحرة"، واثنين ونصف في المئة من رجال الأعمال)[17].

من هنا، كان من حسن حظ العازمين على سلوك المسار المهني أن فترة ما بعد نابليون شهدت في كل مكان توسعاً مشهوداً في أجهزة الحكومات وأنشطتها، مع أن هذا التوسع لم يكن يستوعب الأعداد المتعاظمة للمواطنين المتعلمين. ففي الفترة بين العامين 1830 و1850، ارتفع الإنفاق العام على الفرد بمعدل خمسة وعشرين في المئة في إسبانيا، وأربعين في المئة في فرنسا، وأربعة وأربعين في المئة في روسيا، وخمسين في المئة في بلجيكا، وسبعين في المئة في النمسا، وخمسة وسبعين في المئة في الولايات المتحدة، وأكثر من تسعين في المئة في هولندا (ولم يحافظ الإنفاق الحكومي على الفرد على استقراره أو ينخفض إلا في بريطانيا والمستعمرات البريطانية واسكندنافيا، وقليل من البلدان المتخلفة خلال تلك الفترة التي تعتبر العهد الذهبي للتحرر الاقتصادي)[18]. ولا يعود ذلك فقط إلى المستهلك الأكبر للضرائب، وهو القوات المسلحة التي حافظت بعد الحروب النابليونية على ضخامة حجمها السابق، على الرغم من غياب أية حروب دولية أساسية؛ فمن بين الدول الكبرى، احتفظت بريطانيا وفرنسا عام 1851 بجيوش أصغر

---

(16) يبدو أن جميع الموظفين في روايات بلزاك يتحدرون من عائلات صغار التجار أو يكونون على صلة بها.

(17) Gerhard Schilfert, *Sieg und Niederlage des Demokratischen Wahlrechts in der Deutschen Revolution 1848/1849* (Berlin: Rutten and Loening, [1952]), pp. 404-405.

(18) Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892), p. 259.

بكثير مما كان لهما في ذروة نفوذ نابليون عام 1810. وكانت لدى دول أخرى، مثل روسيا، ودول ألمانية وإيطالية مختلفة، بالإضافة إلى إسبانيا، جيوش أكبر من ذلك في واقع الأمر. ويعود ارتفاع الإنفاق العام على الفرد كذلك إلى اتساع المهمات التي كانت تقوم بها الدولة، واستحداث مهمات جديدة لها. وثمة خطأ أساسي (لا يشارك فيه أنصار الرأسمالية من "الراديكاليين الفلسفيين البنثاميين") في الاعتقاد بأن الليبرالية معادية للبيروقراطية؛ لأنها كانت، في واقع الأمر، عدوة للبيروقراطية العاجزة التي تفتقر إلى الكفاءة، وللضرائب المفرطة، وللتدخل من جانب القطاع العام في قضايا كان ينبغي تركها لمبادرات القطاع الخاص الاقتصادية، والشعار الليبرالي المبتذل، الرامي إلى اختزال دور الدولة في مهمات هامشية أشبه بالحراسة الليلية، إنما يحجب حقيقة ماثلة هي أن الدولة، إذا ما جردت من مهماتها وتدخلاتها غير الناجحة، ستغدو أكثر سطوة وطموحاً مما كانت عليه في الماضي. وعلى سبيل المثال، فإنها كانت عام 1848 دولة معززة بقوات شرطة حديثة محلية في أغلب الأحيان. وكان ذلك هو الحال في فرنسا اعتباراً من العام 1798، وفي إيرلندا منذ العام 1823، وبريطانيا منذ 1829، وفي إسبانيا (الحرس المدني) منذ 1844. أما في خارج بريطانيا، فكانت في العادة دولة ذات نظام تعليمي عام، وكانت، خارج بريطانيا والولايات المتحدة، دولة أقامت، أو أوشكت أن تقيم خدمة السكة الحديدية العامة، وكانت، في كل البلدان، دولة ذات نظام عام للخدمة البريدية يلبي الاحتياجات المتعاظمة للاتصالات وللقطاع الخاص. ومع تزايد السكان، أرغمت الدولة على توسيع نظامها القضائي، وأدى اتساع المدن وتزايد المشكلات الاجتماعية في المراكز الحضرية إلى تطوير إدارة البلديات. وسواء أكانت مهمات الحكومة قديمة أم جديدة، فإنها ألقيت بصورة مطردة على عاتق جهاز خدمة مدنية وطني واحد يعمل فيه مسؤولون محترفون متفرغون. وكانت سلطة مركزية هي التي تتولى نقل هؤلاء وترقيتهم بحرّية في أرجاء البلاد. ومع أن خدمة كفؤة من هذا النوع ربما اختصرت عدد الموظفين المسؤولين

وخفضت من كلفة العمل الإداري عن طريق القضاء على الفساد والعمل بعض الوقت، فإنها خلقت آلةً حكومية بالغة الجبروت. وربما كانت المهمات الأساسية التي تولتها الدولة الليبرالية، مثل تقدير الضرائب وجبايتها بكفاءة من جانب جهاز من الموظفين الذين يتقاضون راتباً منتظماً، أو المحافظة على قوات من الشرطة الوطنية النظامية في المناطق الريفية، أبعد بكثير مما يمكن أن تتصوره أو تحلم به أنظمة الحكم المطلق قبل الثورة. وعلى هذا النحو، كان حال الضرائب التي غدت تجمع الآن، بالفعل، وفق نظام ضريبي متدرج[19] يستطيع أبناء الدولة الليبرالية أن يتحملوه. وفي العام 1848، كان الإنفاق الحكومي في بريطانيا الليبرالية أربعة أضعاف مثيله في روسيا الأوتوقراطية.

ولم تكن هذه المناصب البيروقراطية القليلة تعدِل شارة الضابط العسكرية التي قيل إن الجندي في جيش نابليون كان يحملها في حقيبته على أمل أن يضعها ذات يوم على كتفيه قبل أن يحمل عصا الماريشالية في المستقبل. فمن أصل ما يقدر بمئة وثلاثين ألف موظف مدني في فرنسا عام 1839[20]، كانت الأغلبية العظمى تتألف من سعاة البريد، والمدرسين، وجباة الضرائب والمسؤولين القضائيين الأقل رتبة وغيرهم؛ بل إن الأربعمئة والخمسين في وزارة الخارجية كانوا يتألفون أساساً من الكتبة. وقد استخدم هؤلاء لاعتبارات إنسانية، وكانوا، كما يظهر في آثار الروائيين ديكنز وغوغول، في وضع لا يحسدون عليه، ولا يتمتعون بأية امتيازات إلا الخدمة في القطاع الحكومي، مع أنهم كانوا يعانون شظف العيش مدى العمر. أما الموظفون الذين يمكن، بحكم مسارهم الوظيفي، إدراجهم في عداد الطبقة الوسطى، فقد كانوا قلة

---

(19) فرض ذلك مؤقتاً في بريطانيا خلال الحروب النابليونية، وبصورة دائمة اعتباراً من سنة 1842. ولم تسلك أية دولة ذات شأن هذا النهج قبل عام 1848.

(20) Walter Rice Sharp, *The French Civil Service: Bureaucracy in Transition* (New York: Macmillan, 1931), pp. 15-16.

قليلة. ولم يكن بوسع أحدهم، إذا تحلى بالنزاهة في عمله، أن يطمع من الناحية المالية إلى غير العيش الكريم. كما أن "الطبقة الإدارية" في الخدمة المدنية البريطانية برمتها ـ وهي التي ابتكرها المصلحون في أواسط القرن التاسع عشر لتكون المعادل للطبقات الوسطى في البناء البيروقراطي ـ فإن عدد أفرادها جميعاً لم يكن يربو على ثلاثة آلاف وخمسمئة شخص.

وعلى الرغم من التواضع في أحوال صغار الموظفين أو ذوي الياقات البيض، فإن أوضاعهم كانت أفضل بكثير من أوضاع الفقراء الكادحين. فلم يكن الموظف من الفئة الأولى يمارس أي عمل يدوي، وكانت الأيدي النظيفة والياقة البيضاء تضعه، ولو بصورة رمزية، في مصاف الأغنياء، وكانت تحيط به، في الوقت نفسه، هالة سحرية بوصفه من العاملين في القطاع الحكومي العام، وكان الرجال والنساء يصطفون أمامه انتظاراً لدورهم من أجل استلام الوثائق التي تسجل تفاصيل حياتهم ومعيشتهم، ويطمئنهم أو يبعدهم بحركة من يده، ويبلغهم ما يتعين عليهم أن يعملوه أو لا يعملوه. وفي البلدان الأكثر تخلفاً (وكذلك في الولايات المتحدة الأمريكية الديمقراطية)، فإنه قد يساعد أبناء أعمامه وإخوته في الحصول على وظيفة أو عمل، وينبغي، في بلدان كثيرة أقل تخلفاً، أن تقدم له الرشاوى. وبالنسبة لأعداد لا حصر لها من عائلات الفلاحين والعمال الكادحين الذين لا سبيل أمامهم للتقدم الاجتماعي، فإن البيروقراطية الصغيرة، والتعليم، وسلك الكهنوت تظل، من الوجهة النظرية على الأقل، قريبة المنال، وقمماً شاهقة يحلم أبناؤهم بالصعود إليها.

لم تكن المهن الحرة في متناولهم إلا بالكاد؛ فقد كان المرء يقضي سنوات طويلة من الدراسة أو يتمتع بموهبة خارقة وبالفرصة اللازمة ليصبح طبيباً، أو محامياً، أو أستاذاً (وكان اللقب الأخير يطلق في أوروبا على مدير المدرسة الثانوية ومدرس الجامعة كليهما)، "أو أي

شخص متعلم يتعاطى أعمالاً منوعةً"[21]. وكان في بريطانيا عام 1851 نحو 16 ألف محام (بالإضافة إلى القضاة)، ونحو ألف وسبعمئة طالب حقوق فقط[22]، وما يقارب 17 ألف طبيب وجراح، وثلاثة آلاف وخمسمئة طالب طب أو تمريض، وأقل من ثلاثة آلاف مهندس معماري، ونحو ألف وثلاثمئة "محرر وكاتب" (ولم تكن كلمة "جورناليستْ/ جيرنالِستْ" صحافي قد دخلت حيز الاستعمال الرسمي بعد). وكان القانون والطب أعظم مهنتين تقليديتين. أما الثالثة، وهي سلك الكهنوت، فلم تكن تقدم ما هو متوقع من فرص، لأنها ربما كانت تتسع بصورة أبطأ من تزايد السكان (باستثناء قساوسة الطوائف البروتستانتية). بل إن جوانب من هذه المهنة كانت في حالة تقلص لا توسع بسبب مناهضة الحكومات لرجال الكنيسة (إذ إن جوزيف الثاني أغلق 359 كنيسة وديراً)، وبذل الإسبان قصارى جهدهم لحظر نشاطها كلياً خلال الفترات التي تصاعدت فيها الروح التحررية لديهم.

إلا أن مجالاً واحداً ظل مفتوحاً أمامهم، هو التدريس في المدارس الابتدائية على أيدي الناس العاديين ورجال الدين. فقد استمر التزايد بصورة لا يستهان بها في أوساط من يتعاطون التدريس، الذين كانوا، بالدرجة الأولى، من أبناء الفلاحين، والصناع، والعائلات المتواضعة في البلدان الغربية. ففي العام 1851، كان نحو ستة وسبعين ألفاً من الرجال والنساء في بريطانيا يطلقون على أنفسهم لقب مدير/ مديرة مدرسة أو مدرس عام، بالإضافة إلى ما يقرب من 20 ألفاً من مربيات الأطفال،

---

(21) *Census of Great Britain 1851: Religious Worship in England and Wales,* Abridged from the Official Report Made by H. Mann (London: G. Routledge and Co, [1854]), p. 57.

(22) كانت أعداد المحامين ونسبتهم في القارة الأوروبية أعلى من ذلك في أغلب الأحيان.

وذلك هو الملاذ الأخير الشهير للفتيات المعدمات اللواتي لم تكن لديهن القدرة أو الرغبة في كسب الرزق في مجالات أخرى غير محترمة. وعلاوة على ذلك، فإن احتراف التدريس لم يكن واسعاً فحسب، بل متزايد الاتساع. وصحيح أنه كان زهيد الأجر، غير أن المعلم في مدرسة ابتدائية كان يتمتع، بحق، بمنزلة عالية خارج البلدان التي يتكالب فيها الناس على جمع المال مثل بريطانيا والولايات المتحدة. وإذا بحث المرء عن شخص مثالي في ذلك العصر الذي ساد فيه الاعتقاد بضرورة القضاء على الجهل، فإن هذا النموذج كان يتمثل في الرجال أو النساء الذين اعتبروا أن رسالتهم في الحياة هي أن يمنحوا الأطفال فرصاً لم تكن متاحة لأهلهم، وأن يفتحوا أمامهم أبواب العالم، ويعلموهم الحقائق ومبادئ الأخلاق.

كان العمل التجاري، بطبيعة الحال، هو المجال المهني الأكثر انفتاحاً أمام المواهب، والفرص متاحة بصورة واسعة في اقتصاد يتسع باطراد وسرعة. وكان صغر حجم المشروعات الاقتصادية، وانتشار ممارسة المقاولات الفرعية من الباطن يسهل اغتنام تملك الأرض. بيد أن الظروف المادية، وكذلك الأوضاع الاجتماعية والثقافية، لم تكن مواتية للفقراء. فقد كان تطور الاقتصاد الصناعي يعتمد، في المقام الأول، على إنتاج طبقة من العمال المأجورين بأسرع مما يولّد أرباب العمل وذوي المهن الحرة، وذلك ما يغفل عنه الناجحون. ومقابل كل رجل يرتفع إلى شريحة أعلى في طبقات التجاريين، يهبط بالضرورة عدد أكبر على درجات السلم الاجتماعي. ومن ناحية ثانية، كان الاستقلال الاقتصادي يتطلب مواصفات فنية، وتوجهات نفسية، أو موارد مالية (مهما كانت متواضعة) لم تكن في حوزة أكثر الرجال والنساء. وقد يحالف النجاح المحظوظين الذين كانوا يمتلكونها، ومنهم، عل سبيل المثال، أعضاء الأقليات والطوائف الدينية الذين يعرف علماء الاجتماع تماماً توجهاتهم نحو تلك الأنشطة. وأغلب عمال السخرة في إيفانوفو، ـ وهي "مانشستر الروسية" ـ الذين تحولوا إلى منتجين في صناعة الأنسجة،

كانوا ينتسبون إلى طائفة "قدامى المؤمنين"[23]. غير أن من غير الواقعي أن نتوقع ممن لم يكونوا يمتلكون تلك المنافع ـ ومن أغلبية الفلاحين الروس على سبيل المثال ـ أن يفعلوا الشيء نفسه، أو أن يفكروا في تلك المرحلة بتقليدهم.

III

كانت تلك الأقليات، المحظور عليها والمحرومة من البروز حتى ذلك الحين، هي الأكثر حماسةً وترحاباً بين السكان بانفتاح المسارات المهنية أمام المواهب مهما كان نوعها. ولا يعود ذلك إلى أنها لم تكن نبيلة المحتد والمولد فحسب، بل لأنها كانت تعاني التمييز والتفرقة الجماعية على الصعيد الرسمي. ولم يكن يضاهي حماسة البروتستانتيين الذين اندفعوا للمشاركة في الحياة العامة خلال الثورة وبعدها إلا تفجر المواهب وانطلاقها في أوساط اليهود الغربيين. فقبل تحرير اليهود الذي مهدت له الحركة العقلانية في القرن الثامن عشر وأنجزته الثورة الفرنسية، كان أمامهم سبيلان فحسب لإعلاء شأنهم في المجتمع: فإما التجارة والمال، أو تفسير الناموس المقدس. وقد أسهمت كلا الطريقين في حصرهم وتضييق الآفاق حولهم في جماعات الغيتّو المعزولة التي استطاعت قلة قليلة من "يهود البلاط" أو الأثرياء الآخرين الإفلات النسبي منها. وكانوا ـ حتى في بريطانيا وهولندا ـ يحاذرون التمادي في دخول دائرة الضوء والشهرة الخطرة غير المرغوب فيها. ولم يكن ظهورهم هذا غير مرغوب فيه في أوساط الكفار المتوحشين السكارى الذين لم يرحبوا على العموم بتحرير اليهود فحسب، بل إن قروناً من الانضغاط الاجتماعي قد قَوْقَعَتِ الغيتو على نفسه، وحظرت على

---

(23) R. Portal, "La Naissance d'une bourgeoisie industrielle en Russie dans la première moitié du XIX siècle," *Bulletin de la société d'histoire moderne*, douzieme série, vol. II (1959).

ساكنيه الخروج على ما يعتبر صراطاً قويماً بوصفه كفراً وخيانةً. وقد حلت اللعنة على رواد تحرير اليهود في القرن الثامن عشر في ألمانيا والنمسا، مثل موزيس مندلسون (Moses Mendelssohn) (1786ـ1729) واعتبروا آبقين وملحدين.

ظل الجانب الأكبر من اليهود، الذين كانوا يقيمون في الغيتوات المتسارعة النمو في الأجزاء الشرقية من مملكة بولندا وليتوانيا القديمة، يعيشون حياتهم المنطوية المريبة وسط الفلاحين العدائيين، ووزعوا ولاءهم بين الحاخامات العقلاء العلماء الذين سلكوا النهج التقليدي في ليتوانيا من جهة، والكاسيديين الغارقين في حُمأة الفقر والوجد الصوفي من جهة أخرى. ولا غرو إذن في أن يكون ثمة يهودي واحد بين الثوريين الغاليقيين الذين اعتقلتهم السلطات النمساوية عام 1834[24]. غير أن اليهود في الجماعات الصغيرة في الغرب اغتنموا هذه الفرص الجديدة وانقضوا عليها بالنواجذ حتى لو كان الثمن الذي تعين عليهم أن يدفعوه هو أن يخضعوا لعمّاد رمزيّ، مثلما كان الأمر في البلدان شبه المتحررة، عند السعي إلى منصب رسمي في جميع الحالات. أما رجال المال، فلم يكونوا بحاجة إلى ذلك. إن آل روتشيلد، وهم ملوك اليهودية العالمية، لم يكونوا أثرياء فحسب، فذلك ما حققوه في وقت سابق مع أن التغيرات السياسية والعسكرية في تلك الفترة هي التي فتحت المجال للتمويل الدولي على نحو غير مسبوق. فقد أصبح بوسعهم الآن أن يُظهروا معالم الثراء الذي ينعمون به، ويحتلوا منزلة اجتماعية تتفق وثراءهم، بل أن يسعوا للحصول على ألقاب النبلاء التي بدأ الأمراء الأوروبيون إسباغها عليهم بالفعل عام 1816 (وأصبحوا بارونات بالوراثة في عهد أسرة الهابسبيرغ عام 1823).

كان تفتح المواهب اليهودية في مجالات الفنون، والعلوم،

---

(24) Vienna, Verwaltungsarchiv: Polizeihofstelle H 136/ 1834.

والمسارات المهنية العلْمانية أكثر إثارة من تنامي الثروات لديهم. وقد يكون ذلك متواضعاً إذا ما نظرنا إليه بمقاييس القرن العشرين، مع أننا، بحلول العام 1848، شهدنا مرحلة النضج لأعظم عقل يهودي في القرن التاسع عشر، هو كارل ماركس (1818ـ1883)، وأنجح سياسي يهودي، هو بنجامين ديزرائيلي (Benjamin Disraeli) (1804ـ1881). ولم يكن ثمة علماء يهود بارزون، على الرغم من أن قلة قليلة من العلماء الرياضيين البارزين، ولكن غير اللامعين قد ظهروا آنذاك. وليس مايربير (Meyerbeer) (1791ـ1864) ومندلسون ـ بارثولدي (Mendelssohn-Bartholdy) (1809ـ1847) من الموسيقيين، لكن الشاعر هاينريش هايني (Heinrich Heine) (1797ـ1856) كان أكثر ألمعيةً منهما. ولم يكن هناك رسامون ذوو أهمية أو مؤلفون موسيقيون كبار من اليهود سوى الممثلة المسرحية الوحيدة والمشهورة راشيل (1821 ـ و1858). غير أن إنتاج العبقرية ليس معياراً لتحرير شعب ما، بل إن المقياس الأفضل هو الوفرة المفاجئة لإسهام اليهود الأقل بروزاً في الثقافة والحياة العامة في أوروبا الغربية، ولا سيما في فرنسا، وفي الدول الألمانية على نحو خاص. فمن نتائج هذه المساهمة ظهور لغة وأيديولوجيا كانتا بصورة تدريجية بمثابة جسر يصل بين العصور الوسطى والقرن التاسع عشر لمصلحة اليهود المهاجرين من المناطق الخلفية.

لقد منحت الثورة المزدوجة اليهود أعلى درجة من المساواة بلغوها في ظل المسيحية. ولم يكن من اغتنموا الفرصة منهم يحلمون إلا بـِ "الاندماج" في المجتمع الجديد، فكانت توجهاتهم، بالتالي، ليبرالية بصورة كاسحة، لأسباب واضحة. إلا أن أوضاع اليهود ظلت قلقة غير مستقرة، على الرغم من أن السياسيين الغوغائيين لم يستغلوا بصورة جدية موجة العداء للسامية الشائعة في أوساط الجماهير المستغَلّة التي كان بوسعها أن تضع اليهود و"البورجوازيين" في معسكر واحد[25].

---

(25) اكتسبت جماعة قاطعي الطرق تشيندرهانيس (يوهانيس بوكلر Johannes=

بل إن بعض اليهود الشباب (في فرنسا، وألمانيا، لا في أي مكان آخر) وجدوا أنفسهم يحلمون بمجتمع أكثر كمالاً؛ إذ كان ثمة عنصر يهودي في السان سيمونية الفرنسية (أوليند رودريغيس (Olinde Rodrigues)، والأخوان بيرير (Pereire)، وليون هاليفي (Léon Halévy)، ودايشتال (Eichthal))، وإلى حد أقل، في الشيوعية الألمانية (موزيس هيس (Moses Hess)، والشاعر هايني (Heine)، وبالطبع ماركس الذي لم يبدِ أي اهتمام على الإطلاق بأصوله وصلاته اليهودية).

إن أوضاع اليهود جعلتهم مهيأين على نحو استثنائي للاندماج في المجتمع البورجوازي. فقد كانوا أقلية، وكانوا، في أغلبيتهم الساحقة، حضريين إلى حد منحهم المناعة تجاه الأمراض التي تلازم التحضر، وقد لاحظ خبراء الإحصاء انخفاض معدلات الوفيات والأمراض بينهم في المدن، وكانت أغلبيتهم العظمى من المتعلمين أو ممن يحسنون القراءة والكتابة وخارج ميدان الزراعة. وكان جانب كبير جداً منهم يعملون في التجارة أو المجال المهني، وقد دفعهم وضعهم المتميز إلى التعامل مع الأوضاع والأفكار الجديدة ليتلمسوا، على الأقل، مواطن الخطر التي تنطوي عليها، في الوقت الذي يشق فيه على أغلب الجماهير في العالم أن تتكيف مع هذا المجتمع الجديد.

ويعود جانب من ذلك إلى أن درع التقاليد الصلبة كانت تحول دون فهم الناس لما كان متوقعاً منهم أن يفعلوه في هذا المجتمع، شأنهم في ذلك شأن الشباب الجزائريين الذين أرسلوا عام 1848 إلى باريس لتلقي العلم، فأصيبوا بالصدمة عندما اكتشفوا أنهم دعوا إلى العاصمة الملكية لكل شيء باستثناء إقامة صلات اجتماعية مع الملك والنبلاء، وذلك ما

= Bueckler 1777 - 1803) شعبية كبيرة بسبب تركيزها على الضحايا اليهود. كما أن التململ الصناعي في براغ في الأربعينات من القرن التاسع عشر قد اتسم بطابع معادٍ لليهود. السجل الإداري لدائرة البوليس، فيينا (Vienna, Verwaltungsarchiv Polizeihofstelle) (-1845 .(1186

كانوا يعتقدون أنه حق لهم في بلادهم. وعلاوة على ذلك، فإن المجتمع الجديد لم يسهل عملية التكيّف. وقد تمكن الذين قبلوا بالنعم الواضحة في حضارة الطبقة الوسطى وأخلاقها أن يتمتعوا بالمزايا الإيجابية فيها بحرية. أما من رفضوا ذلك أو كانوا غير قادرين عليه، فلم يُؤْبَه لهم. وكان ثمة أمر أكثر أهمية من مجرد التحيز السياسي في الإصرار على حق الانتخاب الذي منحته الحكومة الليبرالية المعتدلة عام 1830 لذوي الأملاك فحسب. فالرجل الذي لم يكن قد تملّك بعد لم يكن رجلاً كاملاً بعد، ولا يمكن على هذا الأساس أن يكون مواطناً صالحاً كاملاً. وقد برزت المواقف المتطرفة في هذا التوجه عندما واجهت الطبقة الوسطى الأوروبية الوثنيين غير المؤمنين وحاولت استمالتهم عن طريق مبشرين أجلاف إلى حقائق المسيحية، والتجارة، وارتداء السراويل (من دون أن يوضع خط واضح يفصل الواحدة عن الأخرى)، أو عندما فرض عليهم حقائق التشريع الليبرالي. فإذا ما ارتضوا ذلك، كانت الليبرالية (في أوساط الثوريين الفرنسيين في جميع الأحوال) على استعداد لمنحهم المواطنة الكاملة بجميع ما تنطوي عليه من حقوق، أو في أوساط الإنجليز، الأمل بأن يصبحوا ذات يوم من الجنتلمانات الإنجليز صالحين. وتجلى ذلك في أوضح صوره في القرار الذي استصدره نابليون الثالث من مجلس الشيوخ، بعد عدة سنوات من الفترة التي نعالجها، ولكنه يحمل الروح نفسها: "يجوز، عند الطلب، أن يتمتع المرء بحقوق المواطن الفرنسي على أن يخضع، في هذه الحالة، لقوانين فرنسا المدنية والسياسية"[26]. ويعني ذلك في واقع الأمر أن على المرء أن يتخلى عن الإسلام. وإذا لم يقبل بذلك ـ شأنه شأن الأغلبية الساحقة ـ فإنه سيظل من الرعايا لا من المواطنين.

---

(26) Arthur Girault, *Principes de colonisation et de législation coloniale... L'Algérie*, 7e édition revisée par Louis Milliot (Bordeaux: Impr. bière; Paris: Librairie du recueil sirey, 1938), p. 359.

كان احتقار "المتمدنين" الشديد لـِ "البرابرة" (وكذلك لأغلبية الفقراء الكادحين داخل البلاد)(27)، يرتكز على الإحساس الصارخ بالتفوق، وكان عالم الطبقة الوسطى مفتوحاً أمام الجميع. والذين يرفضون دخوله إنما يكشفون عن افتقارهم للذكاء، وللقوة أو الطاقة الأخلاقية التي تستنزل عليهم اللعنة بصورة تلقائية، أو أنها، في أحسن الحالات، تكشف النقاب عن إرث تاريخي أو عرقي يكبلهم أو يشل حركتهم على الدوام ويحول بينهم وبين اغتنام الفرص المتاحة لهم. فإن الفترة التي ميزت أواسط القرن التاسع عشر كانت تطرح نموذجاً لا سابق له للجلافة. ولا يعود ذلك فقط إلى أن الفقر الذي اكتنف الطبقة الوسطى وجردها من الاحترام كان من الهول بحيث أن أثرياء البلد تحاشوا مشاهدته، وتركوا جوانبه المرعبة لتؤثر كل التأثير على الزوار الأجانب (كما تفعل قباحات الأزمة الهندية الآن). وإنما يعود هذا الأمر كذلك إلى أن الفقراء، مثل البرابرة في العالم الخارجي، لم يكونوا مداراً للحديث، أو أنهم ليسوا في مصاف البشر العاديين. وإذا كان مصيرهم أن تحولوا إلى عمال صناعيين، فإنهم كانوا مجرد كتلة ينبغي ضبطها وقولبتها رغماً عنها. وستتعاون على ذلك الدولة ونظام الانضباط الوحشي في المصانع. (واللافت أن الرأي العام في أوساط الطبقة الوسطى آنذاك لم يكن يجد تنافراً أو تعارضاً بين مبادئ المساواة أمام القانون، وقوانين العمل الحافلة بالتمييز والتفرقة المقصودة التي كانت، كما هي في "قانون السيد والخادم" الصادر عام

---

(27) Louis Chevalier, *Classes laborieuses et classes dangereuses à Paris pendant la première moitié du XIXe siècle*, civilisations d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Plon, 1958), vol. III.

يناقش الجزء الثاني استخدام مصطلح "البرابرة" من جانب أصدقاء الكادحين الفقراء وأعدائهم على السواء في أربعينات القرن التاسع عشر.

(28) D. Simon, "Master and Servant," in: John Saville, ed., *Democracy and the Labour Movement; Essays in Honour of Dona Torr* (London: Lawrence and Wishart, 1954).

1823، تعاقب العمال بالسجن عند الإخلال بشروط العقد بينما لا تعاقب رب العمل إلا بغرامة زهيدة أو لا تطاله على الإطلاق)[28]. وكان ينبغي الإبقاء على العمال في حالة التضور جوعاً على الدوام لأنهم بغير ذلك لن يعملوا بسبب افتقارهم إلى جميع الدوافع "الإنسانية". وقد نقل فيليرميه عن أرباب العمل في أواخر الثلاثينات من القرن الثامن عشر قولهم: "إن مصلحة العامل نفسه تقتضي تنغيص حياته والإبقاء عليه دائماً تحت وطأة الحاجة، لئلا يقدم لأولاده القدوة السيئة. وسيكون الفقر هو الضمانة الوحيدة لحسن سلوكه"[29]. ومع ذلك، كان عدد الفقراء أكثر بكثير من اللازم. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان مُؤَمَّلاً أن تشغيل قانون مالتوس سوف يتولى القضاء على عدد كافٍ منهم جوعاً بحيث يبقى أكبر عدد منهم على قيد الحياة، إلا إذا قام الفقراء، بالطبع، من تلقاء أنفسهم بوضع الضوابط العقلانية على التكاثر السكاني بالامتناع عن الإفراط في الإنجاب.

كان ذلك الموقف قريباً كل القرب من الاعتراف الرسمي باللامساواة، التي وصفها هنري بودريّار (Henri Baudrillart) في محاضرته الافتتاحية في الكوليج دو فرانس عام 1853، بأنها واحدة من ثلاثة أعمدة يقوم عليها المجتمع البشري، أما العمودان الآخران فهما المُلْكية والإرث[30]. وبذلك، أعيدت هيكلة المجتمع التراتبي على أسس من المساواة الشكلية. ولم يفقد المجتمع على هذا الأساس إلا الخصائص التي جعلته محتملاً في الأيام الخوالي، وهي الاعتقاد الاجتماعي العام بأن على جميع الناس واجباتٍ وحقوقاً، وأن الفضيلة لا يمكن أن تثمن بالمال، وأن للطبقة الدنيا، على الرغم من تدينها، حقاً في أن تعيش حياتها المتواضعة في المنزلة التي قررها لها الله.

---

(29) Pierre Jaccard, *Histoire sociale du travail, de l'antiquité à nos jours* (Paris: Payot, 1960), p. 248.

(30) انظر: المصدر نفسه، ص 249.



الفصل الحادي عشر

الكادحون الفقراء

"يعيش شكل واحد من المنتجين داخل مصنعه مثل أصحاب المزارع الكولونيالية في المستعمرات وسط عبيدهم، واحداً مقابل مئة. ويبدو دمار ليون بالنسبة لهم أشبه بعصيان مسلح في سان دومينغو. . . . إن البرابرة الذين يهددون مجتمعنا ليسوا في بلاد القفقاس ولا في سهوب التتر؛ إنهم يعيشون في ضواحي مدننا الصناعية. وينبغي على الطبقة الوسطى أن تتعرف بوضوح إلى طبيعة الموضع، وعليها أن تحدد موقفها".

سان مارك جيراردان (Saint-Marc Girardin) في جريدة *Journal des débats* 8 كانون الأول/ ديسمبر، 1931.

لكي تتمكنوا من الحكم، عليكم أن تمتلكوا
المعاطف والأشرطة المتقاطعة التي ننسجها لكم، (أَعِدْ)
يا عظماء الأرض،
ونحن، الفقراءَ المُدْقِعين، يدفنوننا بلا غطاء،
إننا، نحن المُدْقِعين
عُراة تماماً (أَعِدْ)
ولكن عندما يأتي حكمنا،
وينتهي حكمكم،

سننسج حينئذٍ كفن العالم القديم
وها نحن نسمع من الآن دوِيَّ الثورة.
إننا، نحن المُدْقِعين
لن نسير بعدئذٍ عراةً تماماً.

أغنية نسّاجي الحرير في ليون

I

كانت ثمة ثلاثة سبل محتملة أمام الفقراء الذين وجدوا أنفسهم على حواشي المجتمع البورجوازي، من دون أن يكون هناك ما يحميهم في المناطق التي لا يمكن الوصول إليها في المجتمع التقليدي. وكان بوسعهم أن يكافحوا ليصبحوا بورجوازيين، وكان بوسعهم أن يرتموا أرضاً، مثلما كان بوسعهم أن يثوروا.

لم يكن السبيل الأول، كما رأينا، صعباً من الناحية الفنية فحسب أمام من كانوا يفتقرون إلى الحد الأدنى من رسوم القبول المتمثلة في الملكية أو التعليم، بل إنه كان كريهاً بغيضاً إلى النفس. وفي نظر الناس الذين نشأوا في مجتمعات تقليدية، بدا أن استحداث نظام فردي نفعي جديد من السلوك الاجتماعي شعاره "كلٌ ومصلحته، وليذهب المتخلفون للشيطان"، لا يقل سوءاً عن غيره. وعلى حد قول أحد نسّاجي الكتان اليائسين من مشغّلي المغازل في سيليسيا ممن تمردوا عبثاً على مصيرهم عام 1844[1]، فإن "الرجال في أيامنا هذه قد ابتكروا وسائل ممتازة يستخدمها الواحد منهم لإضعاف الآخر وتقويض سبل المعيشة في وجهه. ولكن وأسفاه! ... فليس ثمة من يتذكر بعد اليوم الوصية السابقة التي تقول: لا تسرق. كما أن أحداً لا يتفكر في تعليق

---

(1) قول النسّاج هوف (Hauffe)، المولود عام 1807، مقتبس في: Alexander Schneer, *Ueber die Noth der Leinen - Arbeiter in Schlesien und die Mittel ihr Abzuhelfen* (Berlin: [n. pb.], 1844), p. 16.

لوثر (Luther) عليها حين يقول: علينا أن نحب الله ونخشاه لئلا نمد أيدينا إلى مُلك جارنا أو أمواله، أو نستولي عليها بالغش في التجارة أو ببيع سلعة زائفة، وأن علينا، على العكس من ذلك، أن نعينه على حماية مصدر رزقه وزيادة ما يملك". وكان ذلك الرجل يتحدث باسم جميع الذين طوّحت بهم قوة جهنمية إلى هوّة سحيقة. وهم لم يطالبوا بالكثير ("لقد درج الأغنياء على معاملة الفقراء بالحسنى، وكانت حياة الفقراء بسيطة. ذلك أن الفئات الدنيا في تلك الأيام لم تكن، كما هي الحال اليوم، تحتاج للقليل للظهور به أمام الناس مثل الملابس ووجوه الإنفاق الأخرى"). ولكن يبدو أنهم سيحرمون الآن هذه المكانة المتواضعة في الهرم الاجتماعي.

من هنا، كانت مقاومتهم ضد أكثر ما طرح في المجتمع البورجوازي من مقترحات تتسم بالعقلانية واللاإنسانية في آنٍ معاً. فقد استحدث سادة الأرياف نظام سبينهاملاند، وتشبث به العمال، على الرغم من أن الحجج الاقتصادية ضده كانت قاطعة. وكانت المعونات الخيرية المسيحية عديمة الجدوى في رد غائلة الفقر، كما يتجلى في تفاقم الفقر في الدويلات البابوية. غير أنها كانت أثيرة لدى الأثرياء التقليديين الذين تبنوها ضمانة للوقاية من مساوئ المساواة في الحقوق (التي طرحها "الحالمون" الذين قالوا بأن الطبيعة قد خلقت الناس بحقوق متساوية، وأن التمايز الاجتماعي ينبغي أن يقوم على النفع الجماعي[2]). كما أن تلك الأعمال الخيرية كانت مفضلة بالقدر نفسه لدى الفقراء التقليديين الذين كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أن لهم "حقاً" في فتات موائد الأغنياء. وقد انقسم الرأي في بريطانيا بين أنصار الطبقة الوسطى أصحاب "الجمعيات الصديقة" الذين رأوا في الأعمال الخيرية المسيحية

(2) P. D. Michele Augusti, "Della libertà ed eguaglianza degli uomini nell'ordine naturale e civile (1790)," in: Arnaldo Cherubini, *Dottrime e metodi assistenziali dal 1789 al 1848* (Milano: Giuffrè, 1958), p. 17.

شكلاً من أشكال المساعدة الذاتية من جهة، والفقراء الذين كانوا ينظرون إلى هذه الأنشطة باعتبارها في المقام الأول، "جمعيات" مرفهة لا همّ لها إلا تنظيم اللقاءات والاحتفالات والطقوس التي تستهدف اللهو وتناول الطعام والشراب، مما يخالف الغاية المبتغاة من النشاط الخيري.

وعزز من هذه المقاومة المعارضة التي أبدتها حتى البورجوازية لجوانب المنافسة الفردية الحرة الصافية التي لم يستفد منها الفقراء في الواقع. ولم يكن ثمة من هو أكثر وفاءً للنزعة الفردية من المزارع أو المنتج الأمريكي المثابر، ولا دستور أكثر معارضة من الدستور الأمريكي للتدخل في الحريات، ولا سيما التشريع الفيدرالي حول عمالة الأطفال، أو هذا ما يعتقده محاموهم حتى القرن الذي نعالجه في هذا الكتاب. غير أن أحداً لم يكن أكثر التزاماً منهم بالحماية "الصناعية" لنشاطهم التجاري كما رأينا. وكانت المعدات والآلات الجديدة إحدى الفوائد الرئيسية المتوخاة من المشروع التجاري الخاص والمنافسة الحرة. ولم يكن الكادحون اللوديون هم وحدهم الذين بادروا إلى تحطيم هذه المعدات، بل إن صغار التجار والمزارعين في مناطقهم قد تعاطفوا معهم، لأنهم رأوا أن المخترعين يدمرون سبل المعيشة بالنسبة للعمال اليدويين. والواقع أن المزارعين تركوا معداتهم في الخارج أحياناً ليدمرها المشاغبون، وكان على الحكومة عام 1830 أن ترسل تعميماً شديد العبارة ينص على أن "الآلات تتمتع بحماية القانون، شأنها شأن الممتلكات الأخرى بجميع أصنافها"[(3)]. وما عزز هذه القناعات في أوساط الفقراء هو الإحساس بالتردد والشك الذي انتاب المبادرين الاقتصاديين الجدد، خارج حصون الثقة البورجوازية ـ الليبرالية، عندما أقدموا على تفكيك النظام الاجتماعي الأخلاقي.

Eric John Hobsbawm, "The Machine Breakers," *Past and Present*, vol. 1 (3) (February 1952).

وبطبيعة الحال، كان ثمة كادحون بذلوا قصارى جهدهم للانضمام إلى الطبقة الوسطى أو، على الأقل، أن يسلكوا سبل الاقتصاد في الإنفاق، والمساعدة الذاتية، والتطوير الذاتي. ونجد أمثلة عديدة على رجال كان صامويل سمايلز مثلهم الأعلى في الأدبيات التعليمية والأخلاقية عن الطبقة الوسطى من حيث النزعة الراديكالية، والحركات الداعية إلى الاعتدال وضبط النفس، والمساعي الاحتجاجية. ولا شك في أن مثل هذه الشخصيات كانت تستهوي الشباب، وربما تشجعهم وتحفز فيهم روح الطموح. ونجد مثالاً حياً على ذلك في معهد رويتون للمعتدلين، الذي أسس عام 1843، (وكان وقفاً على الأولاد من أبناء عمال القطن غالباً ممن تعهدوا الامتناع عن الخمر والقمار، وكانوا على خلق قويم). ففي غضون عشرين سنة، تخرج فيه خمسة من كبار المشرفين على المغازل، وكاهن واحد، ومديران لمصانع النسيج في روسيا، "وكثيرون آخرون تولوا مناصب إدارية أو إشرافية، أو أصبحوا من كبار الميكانيكيين، أو مديري المدارس المؤهلين، أو أنهم أصبحوا من أصحاب المتاجر المحترمين"[(4)]. ولا شك في أن أمثال هذه الظواهر لم تكن شائعة خارج العالم الأنغلوسكسوني، حيث كانت سبل الخروج من الطبقة العاملة (باستثناء الهجرة) ضيقة للغاية، كما أنها لم تكن عريضة إلى درجة كبيرة في بريطانيا. كما أن النفوذ الأخلاقي والثقافي الراديكالي للطبقة الوسطى خلّف آثاراً أقل على العمال المهرة.

ومن الواضح، من جهة أخرى، أن كثيرين آخرين تردّت روحهم المعنوية إلى الحضيض بعد أن عايشوا كارثة اجتماعية لم يفهموها، وعانوا العوز، والاستغلال، وأُرغموا على العيش كالبهائم في أزقة تجمع بين القذارة والكآبة، أو في مجمعات دائمة التوسع من القرى الصناعية الصغيرة. وبعد أن حرموا من المؤسسات وموجهات السلوك التقليدية،

---

(4) إنني مدين باستخدام هذا المرجع للسيد آ. جنكن (A. Jenkin)، انظر: *The Leisure Hour* (1881).

أُرغم الكثيرون على الإملاق والعيش المدقع الذي كانت العائلات تضطر، تحت وطأته، إلى رهن بطانياتها حتى يوم استلام الأجر[5]، وكانت فيه الكحول "أسرع طريقة للهرب من مانشستر" (أو من لِيْلْ أو بورنياج). وانتشر إدمان الكحول الجماعي، الذي يكاد يكون ملازماً لعمليات التصنيع والتحضير المتهورة المنفلتة، وأصبح الإغراق في الخمر وباء اكتسح أوروبا من أقصاها إلى أقصاها[6] وربما كان المعاصرون الكثر الذين شجبوا انتشار إدمان الكحول، والدعارة، وأشكال التهتك الجنسي الأخرى، يجنحون إلى المبالغة. غير أن الطفرة المفاجئة المنظمة للحركات الداعية إلى الاعتدال في أوساط الطبقتين الوسطى والعاملة كلتيهما في إنجلترا، وإيرلندا، وألمانيا في الأربعينات من القرن التاسع عشر، تبين أن هموم انحطاط الروح المعنوية لم تكن مسألة نظرية، ولا قضية قاصرة على طبقة واحدة. وصحيح أن انتشارها كان قصير الأمد، إلا أن معاداة السُّكْر ظلت حتى نهاية ذلك القرن قضية يشترك فيها أرباب العمل المستنيرون والحركات العمالية على حد سواء[7].

بيد أن معاصري تلك المرحلة الذين نددوا بتدهور الروح المعنوية في أوساط الفقراء في المراكز الحضرية والصناعية لم يبالغوا في الأمر بطبيعة الحال؛ ذلك أن جميع العناصر قد تضافرت لتعظيم هذه الظاهرة. فقد تنامت البلدات والمراكز الصناعية بسرعة ودونما تخطيط أو إشراف،

---

(5) في العام 1855 كانت قيمة 60 في المئة من الرهون في محلات المسترهنين في ليفربول خمسة شلنات أو أقل، و27 في المئة شلنين وستة بنسات أو أقل.

(6) "Die Schnapspest im Ersten Drittel des Jahrhunderts," in: *Handwörterbuch der Staatswissenschaften*, Hrsg. von dr. J. Conrad [et al.], 2. Ganzlich Umgearb. Aufl. (Jena: G. Fischer, 1898-1901), Art. Trunksucht.

(7) لا ينطبق ذلك على معاداة الجعة والنبيذ وأنواع الخمر الأخرى التي كانت تمثل جانباً من غذاء الرجال اليومي المعتاد. وقد انحصر ذلك إلى حد بعيد في طائفة البروتستانت الأنغلوسكسونية.

كما أن الخدمات الأساسية لحياة المدينة أخفقت إخفاقاً ذريعاً في تلبية متطلباتها، ومنها: إضاءة الشوارع، وإمداد المياه، ومرافق الصحة العامة، بالإضافة إلى مساكن الطبقة العاملة[8]. وكان من النتائج الواضحة لهذا التردي في المناطق الحضرية عودة الأوبئة الجماعية المعدية المتنقلة (عن طريق الماء بصورة خاصة)، وفي مقدمتها الكوليرا التي أعادت غزو أوروبا اعتباراً من العام 1831، واكتسحت القارة من مارسيليا حتى سان بطرسبرغ عام 1832، ثم مرة أخرى في وقت لاحق. ولنأخذ مثالاً واحداً على ذلك: إن التيفوس في غلاسغو "لم يلفت الأنظار بصورته الوبائية إلا عام 1818"[9]. ثم تزايد بعد ذلك. وانتشر في المدينة وباءان رئيسيان هما التيفوس والكوليرا في الثلاثينات من القرن الثامن عشر، وثلاثة هي التيفوس والكوليرا والحمّى الراجعة في الأربعينات، واثنان في نصف العقد الأول من الخمسينات، إلى أن استدرك التحسن الحضري جيلاً كاملاً من الإهمال. وقد تعاظمت الآثار الفظيعة لهذا الإهمال، لأن الطبقتين الوسطى والحاكمة لم تشعرا به. وكان التطوير الحضري في تلك الفترة عملية ضخمة من الفصل والتفرقة دفعت الطبقة الكادحة الجديدة إلى هوّة سحيقة عميقة من البؤس خارج مراكز الحكومة والنشاط الاقتصادي والمناطق السكنية الممتازة الجديدة الخاصة بالبورجوازية. وقد برز في تلك الفترة التقسيم شبه الشامل لأوروبا بين الطرف الغربي "الراقي" والطرف الشرقي "الفقير" فيما يتصل بالمدن الكبرى[10]. ولم تنشأ في هذه التجمعات

---

(8) Louis Chevalier, *Classes laborieuses et classes dangereuses à Paris pendant la première moitié du XIXe siècle*, civilisations d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Plon, 1958).

(9) James Burn Russell, *Public Health Administration in Glasgow: A Memorial Volume of the Writings of James Burn Russell*, Edited by A. K. Chalmers (Glasgow: J. Maclehose, [1903]), p. 3.

(10) "تركت الظروف التي ترغم العمال على الابتعاد عن مركز باريس آثاراً منكرة في=

العمالية أية مؤسسات اجتماعية باستثناء الحانات وربما الكنائس، إلا ببادرة من العمال أنفسهم. وبعد العام 1848 فقط، عندما تفشَّت الأوبئة التي انطلقت من الأحياء الفقيرة تقضي على الأغنياء أيضاً، والجماهير اليائسة التي نشأت فيها تهدد الفئات الجديدة الحاكمة بالثورة الاجتماعية، بدأت عملية إعادة الإعمار والتحسين المنظمة في المناطق الحضرية.

ولم يكن تعاطي الخمور العلامة الوحيدة على انحطاط الروح المعنوية. فقد ارتبط الوأد، والدعارة، والانتحار، والاختلال العقلي بهذا الزلزال الاجتماعي الاقتصادي، وذلك ما وثّقه في تلك الأيام العمل الرائد الذي نسميه اليوم الطب الاجتماعي[11]، كما تزايدت معدلات الجريمة، والعنف المتعاظم الذي لم يكن له هدف في الغالب إلا إثبات النفس ضد القوى التي تهدد باجتياح السلبيين في المجتمع. ويشير انتشار الطوائف والعبادات الرؤيوية والتصوفية الأخرى خلال تلك الفترة[12]

= سلوكهم وأخلاقهم عموماً كما أوضحنا. لقد كانوا فيما مضى يعيشون في الطبقات العليا من المباني التي يشغل الطبقات السفلى منها رجال الأعمال وأفراد الطبقات التي تعيش في بحبوحة نسبية. ونشأ نوع من التضامن بين المستأجرين في العمارة الواحدة. وكان الجيران يساعدون بعضهم بعضاً في شؤون الحياة. وفي حالات المرض، أو البطالة، كان العمال يلقون قدراً كبيراً من العون داخل المنزل. كما تنامى من جهة أخرى، شعور بالاحترام الإنساني في نفوس أبناء الطبقة العاملة مما جعل عاداتهم اليومية أكثر انتظاماً". وقد اقتبسنا عبارات الرضى هذه من التقرير الذي أعدته غرفة التجارة وقيادة الشرطة. إلا أن الجدّة التي ينطوي عليها التمييز بين الجماعتين بارزة وواضحة كل الوضوح. انظر: Chevalier, Ibid., pp. 233-234.

(11) إننا، في معرفتنا للأحوال في تلك الفترة وما طرأ عليها من تحسن فيما بعد، مدينون بالكثير لقائمة طويلة من الأطباء تقف في مفارقة صارخة مع الآراء البورجوازية التي اتسمت بالتصلب وعدم الاكتراث. وينبغي الإقرار، أكثر بكثير مما هو الحال الآن، بفضل فللرميه والمساهمين الآخرين في **حوليات الصحة العامة** (*Annales d'hygiène publique*) التي أسسها عام 1829، وكذلك كاي، وثاكراه، وسيمون، وغازكل وفار في بريطانيا، ولعدد آخر في ألمانيا.

(12) انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

إلى عجز مماثل في التعامل مع الزلازل المجتمعية التي أخذت تفتت حياة الناس. وقد أدى شيوع وباء الكوليرا، على سبيل المثال، إلى انتعاش ديني في مرسيليا الكاثوليكية، وويلز البروتستانتية.

كانت جميع هذه الأشكال من تشويه السلوك الاجتماعي تشترك فيما بينها في صفة واحدة، تميّز كذلك حركة المساعدة الذاتية؛ لقد كانت كلها محاولات للهرب من مصير الكادحين الفقراء أو قبول الفقر والذل أو تناسيهما في أحسن الحالات. وقد أشاح المؤمنون بالحياة الأخرى، والسكارى، وقطاع الطرق، والمجانين، والمتشردون وصغار التجار الطموحون بوجوههم عن الوضع الجماعي، وفقدوا، باستثناء الفئة الأخيرة، الرغبة في العمل الجماعي. وفي تاريخ الفترة التي نعالجها، أدى هذا العزوف الشديد دوراً أكبر بكثير مما يفترض في العادة. ولم يكن من قبيل المصادفة أن الأكثر عزوفاً في هذا المجال كانوا هم الأقل مهارة، وتعليماً، وتنظيماً، وبالتالي الأقل أملاً في أوساط الفقراء في تلك الفترة وما بعدها؛ ففي الانتخابات التي جرت في مدينة هال البروسية عام 1848، كان عدد المشاركين في الاقتراع 81 في المئة من الصناع الكبار المستقلين، و71 في المئة من عمال البناء، والنجارين، والبنائين المهرة الآخرين، بينما لم يصوِّت غير 46 في المئة من عمال المصانع والسكة الحديدية، والشغيلة، والعاملين في المنازل، إلخ...[13].

II

كان التمرد هو البديل الوحيد للهرب أو الهزيمة. ويصدق ذلك على أوضاع الكادحين الفقراء، ولا سيما البروليتاريا الصناعية التي

---

(13) Erich Neuss, *Entstehung und Entwicklung der Klasse der Besitzlosen Lohnarbiter in Halle*, Sächsische Akademie der Wissenschaften, Leipzig. Philologische-Historische Klasse. Abhandlungen; Bd. 51, Heft 1 (Berlin: Akademie-Verlag, 1958), p. 283.

أصبحت تمثل نواةً لهم. وساد الاعتقاد بأن التمرد لم يكن ممكناً فحسب، بل إنه غدا إلزامياً. وكان محتماً في النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهور الحركات العمالية والاشتراكية، بل حركات التململ الاجتماعي الثوري. وكانت ثورة العام 1848 هي النتيجة المباشرة لذلك.

لم يكن بوسع أي مراقب عاقل أن ينكر أن أوضاع الكادحين الفقراء كانت مروِّعة بين العامين 1815 و1848 وأن هذه الحركات قد تزايدت كثيراً بحلول العام 1848. كما افترض الكثيرون على نطاق واسع أن هذه الأوضاع كانت تتردى على نحو مطّرد بالفعل. وفي بريطانيا، ارتكزت على هذا الاعتقاد نظرية مالتوس القائلة بأن تكاثر السكان سوف يتخطى الزيادة في موارد العيش. وعززت ذلك الاعتقاد حججُ الاقتصاديين الريكارديين. وكان أصحاب النظرة الوردية في مستقبل الطبقة العاملة أقل عدداً ممن يتخذون الموقف المتشائم. وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر، كان الإفقار المتصاعد في ألمانيا موضوعاً محدداً لما لا يقل عن أربعين مطبوعة منشورة، وكان ثمة تساؤل عما إذا كانت الشكوى من العوز ونقص الغذاء أمراً له ما يبرره في المقالات الأكاديمية التي تقدم لنيل الجوائز (ورأى عشرة من المتسابقين أن لهذه الشكوى ما يبررها، بينما أعطى الستة الباقون رأياً مخالفاً)[14] وكان انتشار مثل هذه الآراء، بحد ذاته، دليلاً فيما بعد على شيوع البؤس الشامل الذي ضرب أطنابه في أوساط الفقراء.

ولا شك في أن مستوى الفقر كان أسوأ من ذلك في الأرياف، ولا سيما في أوساط العمال المأجورين الذين لا يمتلكون الأرض، وعمال الخدمات البيتية الريفيين، وكذلك، بالطبع، الفلاحين الذين لا أرض لهم أو كانوا يعيشون في أرض قاحلة. وكانت المواسم السيئة،

---

(14) Jürgen Kuczynski, *Die Geschichte der Lage der Arbeiter Unter dem Kapitalismus*, 38 vols. (Berlin: Akademie-Verlag, 1960-1972), vol. 8, pp. 109 ff; vol. 9, pp. 264 ff.

كما هي الحال في الأعوام 1789، 1795، 1817، 1832، 1847، تحمل معها المجاعة الفعلية، حتى لو لم يكن ذلك متلازماً مع كوارث أخرى مثل منافسة صناعات الكتان الصغيرة. فبعد دمار المحصول في لومباردي عام 1813، كان الكثيرون يقيمون أَوَدَهم على القش والسماد الطبيعي، ويصنعون خبزهم من أوراق النباتات البقولية والتوت البري[15]. بل إن سوء المحصول، في بلد هادئ مثل سويسرا، قد أسفر عام 1817 عن زيادة عدد الوفيات على عدد المواليد[16]. ويبدو الجوع الذي اجتاح أوروبا باهتاً إذا ما قورن بالمجاعة الرهيبة التي ابتليت بها إيرلندا[17]، ولكنه كان جوعاً حقيقياً على أية حال. وقد انقطع ثلث السكان شرقي بروسيا ووسطها عن أكل الخبز (1847)، واعتمدوا كلياً على البطاطا[18]. وحدثت تطورات مماثلة في القرى الإنتاجية المتقشفة، المحترمة، المعوزة في أواسط الجبال الألمانية التي كان الرجال والنساء يجلسون فيها على جذوع الأشجار والأرائك الخشبية. ولم تكن العائلة تمتلك أكثر من عدد قليل من الستائر والأغطية الكتانية، وتشرب في أوانٍ طينية أو تنكية لافتقارها إلى الأكواب الزجاجية. وكانت العائلات في تلك القرى قد اعتادت خلال المجاعات على غذاء يتكون من البطاطا والقهوة الخفيفة حتى أنه كان على عمال الإغاثة أن يعلموها كيف تتناول المؤونة التي قدموها لها من البازلاء والثريد[19]. وقد تضافر التيفوس والجوع على

(15) R. John Rath, "The Habsburgs and the Great Depression in Lombardy-Venetia, 1814-1818," *Journal of Modern History*, vol. 13 (1941), p. 311.

(16) M. C. Muehlemann, "Les Prix des vivres et le mouvement de la population dans le canton de Berne 1782-1881," dans: *IV Congrès international d'hygiène* (1883).

(17) انظر الفصل الثامن، ص 311-314 من هذا الكتاب.

(18) F. J. Neumann, "Zur Lehre von den Lohngesetzen," *Jahrbücher Für Nationalökonomie und Statistik*, Band 3, F. 4 (1892), pp. 374 ff.

(19) Rudolf Scheer, *Die Entwicklung der Annaberger Posamentenindustrie im 19 Jahrhundert* (n. p.: R. Scheer, 1909), pp. 27-28 and 33.

إهلاك المناطق الريفية في الفلاندز وسيلسيا، حيث خاض ناسجو الكتان معركتهم الخاسرة ضد الصناعة الحديثة.

وفي الواقع أن البؤس، والبؤس المتعاظم على رأي الكثيرين، الذي لفت أكثر الانتباه بعد كوارث كلية كبرى مثل ما حصل في إيرلندا، هو بؤس المدن والمناطق الصناعية التي كان الفقراء يتضورون فيها جوعاً، ولكن بدرجة أقل من السلبية والتستر. ولا شك في أن أوضاع الفقراء العامة في المدن قد تدهورت، مع أن مسألة انخفاض مداخيلهم ما زالت موضع نظر لدى المؤرخين. ومن الصعب معالجة هذه القضية بصورة حاسمة، على الرغم من أنه يمكن استبعاد أي تحسين ملموس إطلاقاً قبل العام 1848، (أو ربما 1844 في بريطانيا)، والفجوة بين الأغنياء والفقراء غدت أكثر اتساعاً وبروزاً. ويعود وجه الصعوبة في ذلك إلى التفاوت بين إقليم وآخر، والاختلاف بين نوع وآخر من العمال، وفترة اقتصادية وأخرى، بالإضافة إلى العجز في البيانات الإحصائية. وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه البارونة روتشيلد تتزين بما يعادل مليوناً ونصف المليون من الفرنكات في حفلة الرقص المقنعة التي أقامها دوق أورليان (1842) فإننا نشهد في روكديل، على حد وصف جون برايت (John Bright)، "نحو ألفي امرأة وفتاة يزحفن في الشوارع، في مشهد مهيب مثير جليل، وهن ينشدن الترانيم، وكن يتضورن جوعاً. حتى إن الواحدة منهن كانت قادرة على التهام رغيف كامل وازدراده، بنَهَمٍ لا يوصف، حتى ولو كان ملطخاً بالطين"[20].

ربما كان بعض التدهور العام قد انتشر في مساحات واسعة في أوروبا. فالعجز عن مواكبة التوسع الطائش العشوائي لم يقتصر على المراكز الحضرية والخدمات الاجتماعية فحسب، بل إن الأجور المالية

---

(20) Norman McCord, *The Anti-Corn Law League, 1838-1846* (London: Allen and Unwin, [1958]), p. 127.

(الحقيقية) كانت تميل إلى الانخفاض بعد العام 1815. كما أن التأخر أصاب إنتاج المواد الغذائية ونقلها في المدن الكبيرة إلى أن بدأ عصر السكة الحديدية[21]. وكان هذا التخلف واحداً من أسباب التشاؤم الذي أبداه المالتوسيون في تلك الفترة. وبالإضافة إلى هذا التخلف، فإن مجرد تحول الناس عن الغذاء التقليدي في المرحلة ما قبل الصناعية، إلى الشراء المتقشف الجاهل في السوق الحرة في المراكز الحضرية والصناعية، كان سيفضي إلى مستوى تغذية أسوأ، مثلما أن ظروف الحياة والعمل في الأوساط الحضرية كانت ستؤدي إلى أوضاع صحية سيئة. وقد ركز خبراء الإحصاء الفرنسيون والبريطانيون على الاختلاف الصارخ في مجالِي الصحة واللياقة البدنية بين السكان في المناطق الصناعية والزراعية، (وكذلك بين الطبقات العليا، والوسطى، والعاملة). ففي الأربعينات من القرن الثامن عشر كان معدل العمر المتوقع عند الولادة في منطقتيْ ويلتشير وروتلاند (وهما من المناطق الفقيرة)، ضعفي ما كان عليه في مانشستر أو ليفربول. وعلى الرغم من ذلك، فإننا إذا أخذنا حالة واحدة على سبيل المثال، وجدنا أن "المرض الذي يصيب الجلاخين قلما عُرِفَ في صناعة أدوات المطابخ في شيفيلد، إلى أن بدأ استخدام الطاقة البخارية في تلك الصناعة في أواخر القرن الماضي". ولكن في العام 1842، كان المرض ينهش صدور 50 في المئة ممن كانوا في الثلاثينات من العمر، و79 في المئة ممن كانوا في الأربعينات، ومئة في المئة من

---

(21) وبالمقابل، ساء الوضع الغذائي في باريس تدريجياً خلال القرن التاسع عشر، وبخاصة في الخمسينات والستينات منه، انظر: R. Philippe, *Annales*, [vol.] 16, [no.] 3 (1961), p. 567.

لبيانات حسابية مماثلة عن لندن، انظر: Eric John Hobsbawm, "The British Standardof Living, 1790-1850," *The Economic History Review*, vol. 10, no. 1 (August 1957).

يبدو أن إجمالي استهلاك الفرد للحم في فرنسا قد ظل على حاله دون تغيير تقريباً بين عامي 1812 و1840. (*Congrès international d'hygiène Paris 1878* (1880), vol. 1, p. 432).

جميع عمال التجليخ والشحذ ممن تجاوزوا الخمسين(22).

وعلاوة على ذلك، أدى التغيّر إلى إزاحة شرائح واسعة من العمال أو نقلهم، لمصلحتهم أحياناً، ولأوضاع تلحق بهم الضرر في أغلب الأحيان. وظلت جماهير غفيرة من السكان بعيدة عن الاندماج في الصناعات أو المدن الجديدة كطبقة فرعية دائمة من طبقة المعوزين التي لم يكن لها حوْل ولا طوْل. بل إن جماهير غفيرة أخرى دُفعت إلى دوامة البطالة المنتظمة بفعل أزمات لم يجر بالكاد الاعتراف أو الإقرار بها، حتى باعتبارها ظاهرة عابرة أو متكررة. وقد طرد ثلثا عمال النسيج في بولتون (1842) وروبيه (1847) نهائياً من عملهم بفعل حالة الانهيار تلك(23). وربما كان 20 في المئة من نوتنغهام، وثلث بيزلي بالفعل في حالة من العوز والإملاق(24). وستنهار حركة مثل الحركة الميثاقية شيئاً فشيئاً تحت وطأة ضعفها السياسي. وشيئاً فشيئاً كذلك، سيعيدها الجوع إلى الحياة؛ لأنه العبء الثقيل الذي كانت تئن تحته الملايين من الكادحين الفقراء.

وعلاوة على هذه العواصف العامة، انفجرت كوارث خاصة فوق رؤوس فئات معينة من الكادحين الفقراء. إن المرحلة الأولية من الثورة الصناعية، كما رأينا، لم تدفع العمال جميعاً إلى المصانع المُمَكْنَنَة. وعلى

---

(22) Sidney Pollard, *A History of Labour in Sheffield* (Liverpool: Liverpool University Press, [1960]), pp. 62-63.

(23) Ernest Labrousse, *Aspects de la crise et de la dépression de l'économie française au milieu du XIXe siècle, 1846-1851*, bibliothèque de la révolution de 1848; t. 19, études sous la direction de E. Labrousse (La Roche-sur-yon: Impr. centrale de l'ouest, 1956), p. 107.

(24) *The Report of the Statistical Committee Appointed by the Anti-Corn Law Conference, Held in London... March, 1842* (London: Charles Fox, [1842]), p. 45.

العكس من ذلك، فإنها، في قطاعات الإنتاج الضخمة الممكننة، ضاعفت من أعداد الصناع الفنيين ما قبل الصناعيين من فئات محددة من العمال المهرة، ومن حشود حاشدة من العاملين من المنازل. وقد أدت إلى تحسن أحوالهم في أغلب الأحيان، خصوصاً عند نقص العمال خلال سني الحروب الطويلة. وفي العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر، أخذت المسيرة الحديدية اللاشخصية لكل من الآلة والسوق بالتخلي عنهم. وقد أدى ذلك، في أفضل حالاته، إلى تحويل الرجال المستقلين إلى عالةٍ وتابعين، والأشخاص إلى "أيدٍ عاملة". كما أسفر، في أكثر حالاته قسوة، عن إنتاج هذه الحشود التي لا طبقة لها من المعوزين المجوّعين الذين كان بينهم نساجو المغازل اليدوية، وحبّاكو الإطارات إلخ.، ممن كانت أوضاعهم كفيلة بصعق أكثر الاقتصاديين صلابة. ولم يكن هؤلاء من الدهماء الجهلة غير المهرة. لقد كانوا زهرة القوى العاملة التي تضم جماعات مثل: النساجين في نوريتشل ودنفرملين الذين تحطموا وتبعثروا في ثلاثينات القرن، والنجارين صانعي الأثاث في لندن الذين وقعوا في شباك المعامل المعَرِّقة، وعمال المياومة القاريين الذين أصبحوا مراراً وتكراراً من البروليتاريا، والصناع المهرة الذين فقدوا استقلالهم. لقد كان هؤلاء هم الأكثر مهارة، وتعلُّماً، واعتماداً على النفس بين الكادحين[25]. ولم يكونوا عارفين بما يجري لهم. وكان طبيعياً أن يسعوا لمعرفة ذلك، بل كان طبيعياً أكثر من ذلك أن يعلنوا الاحتجاج[26].

(25) كان 15 فقط من أصل 195 نساجاً بالغاً في غلوسسترشير عام 1840 لا يعرفون القراءة والكتابة. أما المشاغبون الذين اعتقلوا في مناطق التصنيع في لانكشير، وتششير، وستافوردشير عام 1842، فكان 13 في المئة منهم يحسنون القراءة والكتابة، و32 في المئة منهم شبه أميين. انظر: Robert K. Webb, "Working Class Readers in Early Victorian England," *The English Historical Review*, vol. LXV, (1950), pp. 333 ff.

(26) "إن نحو ثلث السكان العاملين بيننا... يتألفون من النساجين والعمال ممن لا تبلغ مداخيلهم مستوى كافياً لإعالة أسرهم والحفاظ عليها دون مساعدة كبيرة. إن هذه=

من الناحية المادية، كان عمال المصانع الجديدة (البروليتاريا) أحسن حالاً على نحو ما. ومن جهة أخرى، كانت أوضاعهم مقيدة بشروط؛ ذلك أنهم كانوا يخضعون للرقابة المتشددة أو لانضباط أكثر تشدداً يفرضه رب العمل أو المشرف اللذان لم يكن لديهم تقريباً أية حجة قانونية ضدهم. كما أنهم لم يكونوا يتمتعون بالحماية العامة في بواكيرها الأولى. وعليهم أن يعملوا الساعات أو نوبات العمل التي يقررها المستخدِم، ويتقبلوا ما يفرضه من عقوبات أو غرامات لتعزيز نفوذه أو زيادة أرباحه. وكان عليهم في المناطق والصناعات المنعزلة أن يبتاعوا حاجياتهم من متاجرِه، وأن يتقاضوا أجورهم سِلعاً لا نقداً (لتتاح لرب العمل عديم الضمير أن يضاعف أرباحه)، أو أن يقيموا في المساكن التي يزودهم بها. ولا شك في أن ابن القرية قد لا يجد في مثل هذه الحياة قدراً من التبعية أو الفقر أقل مما كان يعانيه مع أبويه، وربما كان لطغيان رب العمل ما يقابله، جزئياً على الأقل، في ما يقدمه من حماية وتعليم وخدمات اجتماعية في الصناعات القارية ذات التقاليد الأبوية القوية. إلا أن دخول الرجل الحر إلى المصنع يداً عاملة فحسب كان، بهذا المعنى، شكلاً من أشكال العبودية، لم يكن يقدم عليه إلا أشد الناس عَوَزاً، ولم يكن يقبل به حتى النساء والأطفال الذين كان أصحاب المصانع يفضلون استخدامهم باستمرار. وفي الثلاثينات وجانب من الأربعينات، بدأت حتى الأوضاع المادية لبروليتاريا المصانع بالتردّي. ومهما كان الوضع الحقيقي للكادحين الفقراء، فلا شك، على الإطلاق، في أن كل عاقل فيهم، أي كل من رفض أن تكون المحنة هي حظ الفقراء وقدرهم والعنصر الأبدي في تصميم الكون، إنما كان

= الشريحة من المجتمع، التي يعيش أفرادها معيشة شريفة محترمة، هي التي تتكبد أقسى أنواع المشقة جراء انخفاض الأجور وتزايد الصعوبات هذه الأيام. وإنني أتوجه إلى هذه الطبقة من زملائي الفقراء بالدعوة والتوصية لإقامة نظام التعاونيات". انظر: F. Baker, *First Lecture on Co-Operation* ([Bolton: n. pb., 1830]).

يعتقد أن العامل يتعرض للاستغلال وللإعواز من جانب الأغنياء. وكان هؤلاء يزدادون ثراء فيما يزداد الفقراء فقراً. وكان الفقراء هم الذين يعانون، لأن الأثرياء هم الذين يربحون. وكانت الآليات الاجتماعية في المجتمع البورجوازي، في أسسها العميقة، قاسية ظالمة غير إنسانية. وعلى حد تعبير صحيفة **لانكشير كووبريتور**، فـ "لا ثروة بدون عمل وعمال، والعامل هو مصدر الثروة بأكملها. من الذي أنتج هذه الأغذية؟ إنه العامل الفقير شبه الجائع. من الذي بنى هذه البيوت والمستودعات والقصور التي يسكنها الأغنياء الذين لا يبذلون أي جهد ولا ينتجون شيئاً؟ إنه العامل. من الذي يغزل وينسج كل هذا القطن والصوف ويصنع كل هذه الثياب؟ إنه عامل الغزل والنسيج". "إلا أن العامل"، كما تقول الصحيفة، "يظل فقيراً بائساً، بينما يظل من لا يعملون أغنياء، ويمتلكون الثروة المفرطة"[27]. أما العامل التعيس في الريف (الذي ما زالت شكواه تتردد حتى اليوم في الأناشيد الإنجيلية الزنجية) فيجهر بالشكوى بصورة أكثر وضوحاً، وربما أكثر عمقاً:

إذا كانت الحياة شيئاً يمكن شراؤه بالمال،
فإن الأثرياء هم وحدهم الذين سيعيشون بينما يموت الفقراء[28].

III

استجابت الحركة العمالية لنداء الفقراء. وينبغي أن لا نخلط بين هذه الاستجابة والانتفاضات الجماعية ضد مظاهر الشقاء التي لا تحتمل عبر التاريخ المدوّن، أو حتى بممارسة الإضراب أو أشكال النضال

---

(27) Albert Edward Musson,"Ideology of Early Co-Operation in Lancashire and Cheshire," *Transactions of the Lancashire and Cheshire Antiquarian Society*, vol. LXVIII (1958), p. 120.

(28) يدل محتوى هذا الكتاب على درجة عالية من الوعي الطبقي: Alfred Williams, ed., *Folk-songs of the Upper Thames: With an Essay on Folk-song Activity in the Upper Thames Neighbourhood* ([n. p.]: Duckworth, 1923), p. 105.

الأخرى التي أصبحت من خصائص العمال منذئذٍ. فلهذه الظواهر تاريخ يعود إلى ما قبل الثورة الصناعية. والجديد في الحركة العمالية في أوائل القرن التاسع عشر هو الوعي الطبقي والطموح الطبقي. فلم يعد "الفقراء" هم الذين يواجهون "الأغنياء". بل إن "طبقة" محددة هي الطبقة الكادحة، العاملة، البروليتارية، هي التي تواجه طبقة أخرى تضم أرباب العمل، أو الرأسماليين. وقد منحت الثورة الفرنسية هذه الطبقة الثقة بالنفس، بينما شحنتها الثورة الصناعية بروح التعبئة والحشد. إن الحياة الكريمة لا يمكن تحقيقها بمجرد القيام في مناسبات معينة بحركة احتجاج لا تؤول آخر الأمر إلا إلى إعادة التوازن والاستقرار إلى المجتمع بعد حالة من الاضطراب. إن تحقيق تلك الحياة يستوجب اليقظة الدائمة والتنظيم، والنشاط من جانب "الحركة"؛ أي من جانب نقابة العمال، والجمعية التعاونية أو المتبادلة، ومؤسسة الطبقة العاملة، والصحيفة، أو الإثارة والإهاجة. غير أن عنصري الجدة والسرعة في التغير الاجتماعي الذي اكتنف العمال قد شجعاهم على التفكير في مجتمع ينتابه التغير التام، انطلاقاً من تجربتهم ومن آرائهم هم، مقابل ما يؤمن به الطغاة الذين يتحكمون في مصيرهم. وسيكون هذا المجتمع تعاونياً لا تنافسياً، جماعياً لا فردياً. إنه سيكون "اشتراكياً". ولن يجسد الحلم الأبدي بمجتمع حر كان يدور في خلدهم على الدوام، ولكنهم قلما فكروا بالثورة الاجتماعية إلا في مناسبات نادرة. إن هذا المجتمع المنشود سيكون بديلاً عملياً دائماً للنظام الحالي.

بهذا المعنى، لم يكن وعي الطبقة العاملة قد تبلور بعد في سنة 1789، أو حتى خلال الثورة الفرنسية، بل إنه لم يكن كذلك خارج بريطانيا وفرنسا حتى في سنة 1848. غير أنه ظهر في هذين البلدين اللذين جسّدا الثورة المزدوجة بين العامين 1815 و1848، وبصورة خاصة عام 1830 تقريباً. ولم يبرز اصطلاح "الطبقة العاملة" المحدّد (بدلاً من اصطلاح "الطبقات العاملة" الأقل تميّزاً) في الكتابات المتصلة بالشؤون العمالية إلا بعد واترلو بقليل، وربما قبل ذلك. كما تكرر

استخدام هذا المصطلح في الكتابات المماثلة في فرنسا بعد العام 1830[29]. وفي العام 1818، بدأت المحاولات في بريطانيا لجمع العمال معاً في "نقابات" عامة؛ أي لاختراق العزلة المحلية والفئوية التي تمثلها جماعات محددة من العمال، مقابل محاولات التجمع على النطاق الوطني، بل مساعي جمع الطبقة العاملة في وحدة تضامنية شاملة. وجرت متابعة هذه المساعي على نحو حثيث محموم بين العامين 1829 و1834. وكان شعار "النقابة العامة" يوحي بـ "الإضراب العام". وقد جرى تطوير ذلك، مفهوماً ومخططاً تكتيكياً، للطبقة العاملة في تلك الفترة، ولا سيما في بيان وليام بنبو (William Benbow) المسمى "العيد الوطني، ومؤتمر الطبقات المنتجة" (1832)، ونوقش بصورة جدية في أوساط الميثاقيين باعتباره منهجاً. وفي تلك الأثناء، كانت المناقشات الفكرية في كل من بريطانيا وفرنسا قد أسفرت في العشرينات من القرن التاسع عشر عن ولادة تعبير "الاشتراكية" مفهوماً ومصطلحاً. وتبنى العمال هذا المفهوم، على نطاق ضيق في فرنسا (وفي نقابات باريس عام 1832)، وعلى نطاق أوسع بكثير في بريطانيا، حيث سارع العمال إلى مساندة روبرت أوين ودفعه إلى مكان الصدارة لقيادة الحركة الجماهيرية العريضة، على الرغم من أنه لم يكن مؤهلاً ولا صالحاً لها على الإطلاق. وباختصار، فإن الوعي الطبقي البروليتاري والتطلعات الاجتماعية كانت قد تبلورت في أوائل الثلاثينات. ومن شبه المؤكد أنها كانت أكثر ضعفاً

---

(29) Asa Briggs, "The Language of Class in Early Nineteenth Century England," in: Asa Briggs and John Saville, eds., *Essays in Labour History* (London: Macmillan, 1960); Ernest Labrousse, *Le Mouvement ouvrier et les théories sociales en France au XIXe siècle*, vol. III, pp. 168-169; E. Coornaert, "La Pensée ouvrière et la conscience de classe en France 1830-1848," in: Gino Luzzatto, *Studi in onore di Gino Luzzatto*, 4 vols. (Milano: A. Giuffrè, 1949-1950), vol. 3, p. 28, and George Douglas Howard Cole, *Attempts at General Union* (London: Macmillan, 1953), p. 161.

وأقل فاعلية من وعي الطبقة الوسطى الذي اكتسبه أرباب العمل أو حاولوا إظهاره في الوقت نفسه. غير أن حضورهم كان واضحاً على أية حال.

لقد ارتبط الوعي البروليتاري، وتعزّز، بما يمكن تسميته الوعي اليعقوبي، وهو منظومة من المطامح، والخبرات، ومناهج العمل، والتوجهات الأخلاقية التي زرعتها الثورة الفرنسية (وقبلها الأمريكية) في عقول الفقراء الواثقين في أنفسهم. ومثلما أن "الحركة العمالية" كانت التعبير العملي عن أوضاع الطبقة العاملة الجديدة وأيديولوجيتها، فإن "الكومنولث التعاوني" كان هو التعبير عن الحركة الديمقراطية بالنسبة للناس العاديين سواء أكانوا من البروليتاريا أم كانوا غير ذلك، وهم الذين دفعتهم الثورة الفرنسية إلى مسرح التاريخ، بوصفهم لاعبين لا ضحايا. "إن المواطنين الذين كان مظهرهم الخارجي يتسم بالرثاثة، ولم تكن لديهم الجرأة على الظهور فيما مضى في هذه الأماكن المخصصة للوجهاء، أصبحوا اليوم يتنزهون رافعي الرؤوس، جنباً إلى جنب مع الأغنياء"[30]. لقد كانوا يطالبون بأن يعاملوا باحترام وعلى قدم المساواة، مع الإقرار بما لهم من مكانة. وكانوا يعلمون أنهم قادرون على تحقيق ذلك؛ لأن ذلك ما فعلوه بين العامين 1793 و1794. ولم يكن هؤلاء المواطنون كلهم من العمال، غير أنهم كانوا يضمون العمال الواعين كافة.

كان الوعي البروليتاري والوعي اليعقوبي يكمل أحدهما الآخر. فقد أعطت خبرة الطبقة العاملة للكادحين الفقراء المؤسسة الرئيسية للدفاع الذاتي اليومي، وهي النقابة العمالية وجمعية التعاون المتبادل، والأسلحة الرئيسية المستخدمة للنضال الجماعي، وهي التضامن والإضراب (اللذان

---

(30) Albert Soboul, *Les Sans-culottes parisiens en l'An II* (Paris: Librairie clavreuil, 1958), p. 660.

كانا ينطويان على عنصري التنظيم والانضباط[31]. ومع أن الحركة العمالية لم تكن تعاني ما كانت تعانيه في أوروبا من ضعف وزعزعة وتجزئة، فإن مجال عملها كان محدوداً للغاية. وقد برزت في بريطانيا بين العامين 1829 و1834، ثم في ظل الميثاقيين بصورة جزئية، محاولات لاستخدام نموذج نقابي أو تعاوني تبادلي لا للحصول على أجور أعلى لفئات محددة من العمال، بل لدحر المجتمع القائم برمته وإقامة مجتمع جديد. وقد منيت هذه المحاولات بالفشل، وأدى هذا الفشل إلى إلحاق الشلل، مدة نصف قرن، بحركة بروليتارية اشتراكية مبكرة ناضجة بصورة مشهودة. كما فشلت المحاولات الرامية إلى تحويل النقابات العمالية إلى نقابات وطنية للمنتجين التعاونيين (كما حدث لنقابة عمال البناء التي تحولت إلى "برلمان" للبنائين، و"نقابة للبنائين" بين العامين 1831 و1834). وأخفقت، بالمثل، وبطرق أخرى، المحاولات التي استهدفت إقامة جمعية تعاونية منتجة وطنية و"نظام منصف لتبادل العمال". وكان صعباً التعامل مع الاتحاد العام للنقابات الشامل الضعيف الذي كانت النقابات المحلية الفرعية تفوقه قوةً؛ ويعود ذلك إلى عيوب ذاتية في الاتحاد العام لا إلى المسائل المتصلة بضعف الانضباط والتنظيم والخبرة لدى القيادة. وقد أثبت الإضراب العام عدم جدواه في ظل الميثاقيين، إلا في العام 1842 عندما استطاع إثارة أعمال الشغب التي انتشرت تلقائياً في أوساط الجياع.

وعلى العكس من ذلك، فإن أساليب الإهاجة السياسية التي كان ينتهجها اليعاقبة والراديكاليون عموماً، لا الطبقة العاملة تحديداً، أثبتت قدراً عالياً من الفعالية والمرونة؛ وتجلى ذلك في الحملات السياسية عن طريق الصحف والكراريس، والاجتماعات العامة والتظاهرات،

---

(31) يمثل الإضراب حصيلة منطقية تلقائية لوجود الطبقة العاملة، حتى أن له في اللغات الأوروبية أسماء محلية متميزة (مثلاً: Grève, Huelga, Sciopero, Zabastovka)، بينما تستخدم للمؤسسات الأخرى أسماء مستعارة في أغلب الأحيان.

وأعمال الشغب والانتفاضات عند الضرورة. وصحيح أن مثل هذه الحملات منيت بالفشل عندما بالغت في طموحاتها، أو أفزعت الطبقات الحاكمة. إلا أن العقد الثاني الهستيري من القرن التاسع عشر، اتسم بميل واضح لاستدعاء القوات المسلحة للتصدي لأية تظاهرة ذات خطر (مثلما حدث في سْبافيلدزْ في لندن عام 1816، أو "بيترلو" في مانشستر عام 1819 عندما قتل عشرة من المتظاهرين وأصيب عدة مئات). وفي الفترة الممتدة بين العامين 1838 و1848، لم تفلح ملايين التواقيع على العرائض في جعل "ميثاق الشعب" أقرب منالاً. وعلى الرغم من ذلك، فإن شن الحملات السياسية في جبهات ضيقة كان فعالاً حقاً. ولم يكن ممكناً بغير ذلك إعلان تحرير إعتاق الكاثوليك عام 1829، ولا "قانون الإصلاح" عام 1832، كما لم يكن ممكناً بالتأكيد إصدار التشريعات الخاصة ـ القليلة الفاعلية ـ بالرقابة على أوضاع المصانع وساعات العمل فيها. وهكذا، رأينا الطبقة العاملة السيئة التنظيم تحاول التعويض عن ضعفها بأساليب الإهاجة التي تتسم بها الراديكالية السياسية. وكانت "إهاجة المصانع" في الثلاثينات من القرن التاسع عشر تعويضاً عن ضعف النقابات المحلية، مثلما كانت حملة الاحتجاج الجماعية ضد نفي "شهداء تولبودل"[32] محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام "النقابات العامة" عند انهيارها بعد العام 1834.

بيد أن التقاليد العقوبية استمدت، بدورها، قوة واستمراراً وعنفواناً غير مسبوق من روح التماسك والتضامن والولاء التي امتاز بها البروليتاريون الجدد. فإن ما جَمعهم لم يكن مجرد كونهم فقراء في مكان واحد، بل إن جوهر حياتهم يتمثل في أنهم يعملون معاً بأعداد ضخمة، ويتعاونون في العمل، ويعتمدون بعضهم على بعض، وكان التضامن الصلب هو سلاحهم الوحيد لأنهم لم يكونوا قادرين من دونه على إظهار المصدر الوحيد الحاسم لقوتهم، وهو أنهم جماعة متضامنة لا

(32) انظر الفصل السادس، ص 235-364 من هذا الكتاب.

يمكن الاستغناء عنها. وأصبحت، وما زالت، عبارة "لا تفضّوا الإضراب"، أو كلمات بهذا المعنى، هي الوصية الأولى في ميثاقهم الأخلاقي، وغدا من يفسد الإضراب (الذي يلصق به النعت المشحون أخلاقياً وهو "الأسود"، الذي يقارب "الساق السوداء" وهو المرض المعدي الذي يصيب صغار الماشية) هو يهوذا الذي يخون أهله. وما إن بدأوا يكتسبون بواكير الوعي السياسي، حتى تجاوزت تظاهراتهم صفة النزوات التي تنتاب "الغوغاء" الساخطين في هذه المناسبة أو تلك ثم ينكفئون على أعقابهم، وأصبحت أقرب إلى جيش عرمرم مفعم بالحياة. من هنا، برزت كتلة بروليتارية قوية مستقرة في مدينة مثل شِيفيلدْ حالما أصبح الصراع بين الطبقتين الوسطى والعاملة القضية الأساسية في النشاط السياسي المحلي (في أوائل الأربعينات من القرن الثامن عشر). وفي نهاية العام 1847، كان ثمانية من الميثاقيين أعضاء في مجلس المدينة، ولم يتغير الوضع بعد انهيار الميثاقية على الصعيد الوطني عام 1848 في تلك المدينة التي هلك فيها ما يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً في ثورة باريس تلك السنة. وبحلول العام 1849، كان الميثاقيون يحتلون نحو نصف المقاعد في مجلس المدينة[33].

وتحت تقاليد الطبقة العاملة واليعاقبة، كانت ثمة تقاليد أقدم عهداً يقتدي بها الطرفان، ألا وهي أعمال الشغب، أو الاحتجاجات العلنية التي تقوم بها جمهرة اليائسين بين وقت وآخر. وللفعل المباشر، وأعمال الشغب، وتدمير الآلات والمتاجر ومنازل الأغنياء تاريخ عريق. وكانت كلها، على العموم، تعبيراً صارخاً عن الجوع، أو عن مشاعر رجال وصل بهم السخط حدوده القصوى. ويتجلى ذلك في موجات تدمير الآلات التي اجتاحت الصناعات اليدوية المتعثرة التي كانت مهددة بدخول الآلات (مثل صناعات النسيج البريطانية عام 1810-1811، ومرة أخرى عام 1826، وصناعات النسيج في القارة الأوروبية في أواسط

---

(33) Pollard, *A History of Labour in Sheffield*, pp. 48-49.

الثلاثينات والأربعينات من ذلك القرن). وفي بعض الأحيان، كما كانت الحال في إنجلترا، كانت أعمال الشغب هذه شكلاً معروفاً من أشكال الضغط الجماعي تمارسه فئات منظمة من العمال الذين لا يضمرون العداء للآلات، مثل عمال المناجم، وجماعات من العمال المهرة في صناعات النسيج والأدوات المنزلية الحادة الذين جمعوا بين الاعتدال والإرهاب المنظم في مواجهتهم لزملائهم من غير المنتسبين للنقابات. وربما كانت أعمال الشغب هذه تعبيراً عن الاستياء من البطالة أو من الجوع. وفي حالات نضج الثورة، يمكن أن تكون هذه الأفعال المباشرة من جانب رجال ونساء غير ناضجين سياسياً قوةً حاسمة، ولا سيما إذا حدثت في مدن كبرى أو أمكنة حساسة من الوجهة السياسية. وفي العامين 1830 و1848، ألقت هذه الأحداث بثقلها الشديد فوق صيغ التعبير عن السخط مما حوَّل معه الاحتجاجات الهادئة إلى انتفاضات.

IV

من ثَمَّ، لم تكن الحركات العمالية آنذاك حركات "بروليتارية" بمعنى الكلمة، سواء من حيث تكوينها أم من حيث أيديولوجيتها وبرامجها، أي أنها لم تكن تضم عمال المصانع والمعامل، أو حتى حركة تقتصر عضويتها على العمال المأجورين. بل إنها كانت جبهة مشتركة تضم جميع القوى والنزعات التي تمثل الكادحين الفقراء (في المراكز الحضرية أساساً). وكانت هذه الجبهة المشتركة قائمة منذ وقت طويل، غير أن زعاماتها وتطلعاتها، حتى أيام الثورة الفرنسية، كانت تتحدر من أوساط الطبقة الوسطى الليبرالية والراديكالية. فاليعاقبة، لا اللامتسرولون (ناهيك عن الطامحين من البروليتاريين غير الناضجين)، هم الذين أضفوا طابع الوحدة على التقاليد الباريسية الشعبية. وكانت عناصر الجدّة في الوضع الذي تلا العام 1815 تتمثل في أن الجبهة المشتركة راحت تتصدى للطبقة الوسطى الليبرالية، وللملوك

والأرستقراطيين على حد سواء، وأن ما وحد صفوفها كان برنامج البروليتاريا وأيديولوجيتها، على الرغم من أن الطبقة العاملة في المصانع والمعامل لم تكن قد تبلورت بعد، وكانت، بمجملها، أقل نضجاً من الشرائح الأخرى من الكادحين الفقراء من الوجهة السياسية. وقد نزع الفقراء والأغنياء على السواء إلى دمج "الجماهير الحضرية التي تحتل منزلة أدنى من الفئات الوسطى في المجتمع"(34) من الناحية السياسية في "البروليتاريا" أو "الطبقة العاملة". وكان المتخوفون من "الإحساس العام المتزايد حدةً بأن ثمة تناقضاً داخلياً في الأوضاع الراهنة، وأن هذا الوضع لن يستمر"(35) يميلون إلى الاشتراكية بوصفها البديل والتقييم النقدي الوحيد المقبول فكرياً لتلك الحالة.

وأظهرت قيادة الحركة الجديدة حالة مماثلة. فالعناصر الأكثر نشاطاً واندفاعاً نضالياً ووعياً سياسياً لم تكن من البروليتاريا الصناعية الجديدة، بل من الصنّاع المهرة، والحرفيين الفنيين المستقلين، والعمال المحليين على نطاق ضيق، وآخرين كانوا يعيشون ويعملون مثلما عاشوا وعملوا قبل الثورة الصناعية، ولكن تحت ضغوط أكثر حدة. وكان عمال الطباعة، وصانعو القبعات والخياطون وأمثالهم هم أوائل النقابيين في جميع الأحوال تقريباً. وكانت نواة قيادة الميثاقيين في مدينة مثل ليدز تضم، كما هو معهود، نجاراً تحول إلى نساج بنولٍ يدوي، وبضعة من عمال الطباعة المياومين، وبائعاً للكتب، ومشّاطاً للصوف. وكان أغلب الرجال الذين اعتنقوا مبادئ المستر أوين التعاونية من هؤلاء الصناع،

---

(34) Theodor Mundt, *Der Dritte Stand in Deutschland und Preussen, in Seiner Politischen und Ständischen Vertretung* (Berlin: [n. pb.], 1847), p. 4, and Kuczynski, *Die Geschichte der Lage der Arbeiter Unter dem Kapitalismus*, vol. 9, p. 169.

(35) Karl Biedermann, *Vorlesungen über Socialismus und Sociale Fragen* ([Leipzig: n. pb. 1847]), and Kuczynski, Ibid., p. 71.

والميكانيكيين، والعمال اليدويين. وكان أوائل الشيوعيين من الطبقة العاملة الألمانية من عمال المياومة الجوالين، والحرفيين، والخياطين، والنجارين، وعمال الطباعة. وكان الرجال الذين وقفوا في وجه البورجوازية في باريس عام 1848 يعيشون في حي الصنّاع الفنيين القديم في فوبورغ سان ـ أنطوان، ولم يكونوا، (مثلما كان المشاركون في كومونة العام 1871)، من البروليتاريين في لانفيل. ومثلما أسفر تقدم الصناعة عن تدمير قلاع وعي الطبقة العاملة هذه، فإنه أدى أيضاً إلى تقويض قوة هذه الحركات العمالية الأولى. فبين العامين 1820 و1850 على سبيل المثال، أوجدت الحركة البريطانية شبكة كثيفة من المؤسسات لتمارس فيها الطبقة العاملة التعلّم الذاتي والتربية السياسية، ومن "معاهد الميكانيكيين"، "وقاعات العلوم" التي بشر بها أوين، ومراكز أخرى. وبحلول العام 1850، كان في بريطانيا سبعمئة من هذه المعاهد (بالإضافة إلى المراكز ذات الطابع السياسي)، منها مئة وواحد وخمسون في مقاطعة يوركشير، وأربعمئة غرفة للأخبار[36]. ولكنها كانت تعاني الانحطاط التدريجي، حتى إن أكثرها كان قد اندثر أو اعتراه الخمول.

كان ثمة استثناء واحد. ففي بريطانيا وحدها، كان البروليتاريون قد بدأوا تنظيم قياداتهم بل إنتاجها، ومنها: جون دوهرتي (John Doherty) غزّال القطن الإيرلندي من أتباع أوين، وعاملي المناجم تومي هيبورن (Tommy Hepburn) ومارتن جود (Martin Jude). ولم يكن الصناع الفنيون المهرة والعمال المحليون المغبونون يشكلون كتائب الميثاقيين فحسب، بل إن عمال المصانع كانوا في مقدمة المحاربين، أو حتى الزعماء بينهم أحياناً. أما خارج بريطانيا، فكان عمال المصانع والمناجم أقرب إلى فئة المستضعفين منهم إلى جماعات الوكلاء. ولم يُتحْ لهؤلاء أن يتولوا أمورهم

---

(36) Mabel Tylecote, *The Mechanics' Institutes of Lancashire and Yorkshire before 1851* (Manchester: Manchester University Press, 1957), p. VIII.

بأنفسهم ويصبحوا مسؤولين عن مصيرهم إلا في أواخر القرن.

كانت الحركة العمالية منظمة للدفاع عن النفس، وللاحتجاج، وللثورة. إلا أنها كانت بالنسبة للكادحين الفقراء أكثر من أداة من أدوات النضال؛ لقد كانت أسلوب حياة. فالبورجوازيون الليبراليون لم يقدموا لهم شيئاً؛ فقد انتزعهم التاريخ من الحياة التقليدية التي وعدهم المحافظون عبثاً باستعادتها أو الحفاظ عليها. ولم يكن لكليهما صلة بالحياة التي راحوا ينجرّون إليها على نحو متزايد. غير أن الحركة كان لها مثل هذا الارتباط بالحياة التقليدية أو، بالأحرى، بأسلوب الحياة الذي اختاروه لأنفسهم، بخصائصهم الجماعية الكلية، النضالية، المثالية، المنعزلة. وذلك ما كانت تنطوي عليه الحركة التي كان النضال هو جوهرها الفعلي. ومقابل ذلك، فإن الحركة أسبغت على أسلوب الحياة هذا طابع التماسك والإحساس بالهدف. وقد افترضت الأسطورة الليبرالية أن النقابات لم تكن تضم غير العمال العاجزين يثيرهم مشاغبون لا ضمير لهم؛ إلا أن العاجزين كانوا، في واقع الأمر، هم الأقل إقبالاً على النقابات، وكان العمال الأكثر ذكاء وكفاءة هم الأكثر صلابة في مساندتهم للنقابات.

ربما كانت الصناعات المحلية القديمة هي الأمثلة الأكثر تقدماً وتطوراً على "عوالم العمل" هذه خلال تلك الفترة. ومن هذه الأمثلة جماعات العاملين في صناعة الحرير في ليون، وهم النساجون العصاة الذين ثاروا عام 1831، ومرة أخرى عام 1834، وكانوا حسب تعبير ميشيليه (Michelet) "قد أدركوا أن هذا العالم لم يكن يناسبهم، فخلقوا بديلاً له في الأزقة الرطبة المعتمة، وفي فردوس أخلاقي من الأحلام والرؤى"[37]. وكانت ثمة جماعات أخرى مثل نساجي الكتان الاسكوتلانديين المشبعين بالروح الجمهورية والطهرانية اليعقوبية وهرطقات سويدنبيرغ، ومكتبة تريدزمان، وبنوك التوفير، ومعهد

(37) *Revue historique*, vol. CCXXI (1959), p. 138.

الميكانيك، ونادي المكتبة العلمية، وأكاديمية الرسم، والاجتماعات التبشيرية، وروابط الاعتدال، ومدارس الأطفال، وجمعية بائعي الزهور، والمجلة الأدبية **دليل دنفرملاين**[38] (*Dunfermline Gasometer*)، والنزعة الميثاقية بالطبع. وكان الوعي الطبقي، والروح الكفاحية، وكراهية القامعين وازدراؤهم من خصائص هذه الحياة، شأنها شأن الأنوال والمغازل التي يستخدمها عمال النسيج. ولم يكونوا مدينين للأغنياء بشيء إلا أجورهم. وكان كل ما لهم في هذه الحياة هو ما صنعوه، جماعياً، بأيديهم.

بيد أن عملية إعادة التنظيم الصامتة لم تقتصر على العمال القدامى. فقد انعكست على "النقابة" التي كانت، في أكثر الأحيان، تتمركز في أوساط رعية الكنيسة الميثودية الأولى في مناجم نورثمْبرلاند ودَرهم. كما أنها ظهرت في المناطق التي انتشرت فيها جمعيات العمال التبادلية الصديقة بكثافة في المناطق الصناعية الجديدة، ولا سيما لانكشير[39]. والأهم من هذا وذاك أنها عبرت عن نفسها بآلاف من الرجال والنساء والأطفال الذين اكتظت بهم الشوارع الموحلة عندما زحفوا من بلدات لانكشير الصناعية الصغيرة، وهم يحملون المشاعل في تظاهرات الميثاقيين، بالسرعة نفسها التي انتشرت فيها وتنامت متاجر روكديل التعاونية في أواخر الأربعينات من القرن الثامن عشر.

---

(38) قارن ذلك بما ورد في رواية توماس ل. بيكوك: "قالت السيدة: أنت فيلسوف، وعاشق للحرية. وأنت مؤلف المقالة المسماة "الغاز الفلسفي"؛ أو "مشروع للتنوير الشامل للعقل البشري"، في: Thomas Love Peacock, *Nightmare Abbey* (London: Hookham, 1818).

(39) في العام 1821، نشطت في لانكشير أعلى نسبة من أعضاء جمعيات الصداقة مقارنة مع العدد الإجمالي للسكان (17 في المئة)؛ وفي العام 1845، انتشر ما يقرب من نصف مراكز "الزملاء الغريبين" في لانكشير ويوركشير. انظر: Peter Henry John Heather Gosden, *The Friendly Societies in England: 1815-1875* (Manchester: Manchester University Press, 1961), p. 23 and 31.

V

على الرغم من ذلك كله، فإننا إذا استرجعنا تاريخ تلك الفترة، نجد تناقضاً صارخاً واضحاً بين قوة الكادحين الفقراء التي كان الأغنياء يتخوفون منها ومن "شبح الشيوعية" الذي كان يملؤهم فزعاً من جهة، والقدرة المنظمة الفعلية لهؤلاء الكادحين من جهة أخرى، فقد كان التعبير العلني العام عن احتجاجهم، بالمعنى الحرفي للكلمة "حركة" أكثر منه تنظيماً. والعنصر الذي أوجد التلاحم حتى في أوساط أضخم تجلياتهم السياسية وأكثرها شمولاً، وهو الميثاقية (1838ـ1848)، لم يكن أكثر من حفنة من الشعارات التقليدية الراديكالية، وعدد قليل من الخطباء والصحافيين الذين أصبحوا صوتاً للفقراء، مثل فيرغوس أوكونور (1794ـ1855)، وعدد قليل آخر من الصحف مثل *Northern Star*. ويتذكر قدامى المناضلين منهم أن قدرهم المشترك كان يتمثل في الوقوف في وجه الأثرياء والكبار: "كان لدينا كلب اسمه رودني. ولم تكن جدتي تحب ذلك الاسم، لأن خاطراً غريباً كان يدور في خلدها عن أن الأدميرال رودني، الذي أُنعِم عليه بلقب "فارس"، كان معادياً للشعب. وكانت السيدة العجوز حريصة كذلك على أن توضح لي أن كوبيت وكوبدن كانا شخصين مختلفين، وأن كوبيت كان بطلاً، فيما لم يكن كوبدن غير داعية من الطبقة الوسطى. ومن الصور التي ما زلت أتذكرها منذ زمن بعيد، كانت صورة جون فروست (John Frost)[40] الموضوعة إلى جانب لوحة من شغل الإبرة، ورسوم أخرى منسوخة، على مقربة من تمثال صغير لجورج واشنطن بالخزف الصيني. ويشير خط ممتد في أعلى الصورة إلى أنها جزء من سلسلة من الصور تسمى "متحف الصور لأصدقاء الشعب". واستقر فوق الرأس إكليل من الغار، وتحته رسم للمستر فروست وهو يقدم

---

(40) زعيم تمرد "الميثاقيين" الفاشل في نيوبورت عام 1839.

عريضة للقاضي باسم المنبوذين المهلهلين التعساء. . . . . وكان أكثرَ الزائرين تردداً علينا إسكافيٌ كسيح. . . . يزورنا صباح كل أحد بشكل منتظم انتظام الساعة، ومعه نسخة من صحيفة *Northern Star* ما زالت فيها رطوبة المطبعة، ليستمع إلى أحد أفراد أسرتنا وهو يقرأ له وللجميع "رسالة فيرغوس". وكان ضرورياً تجفيف الصحيفة أمام النار، ثم قصُّها بعنايةٍ وأناةٍ لئلا يتلف سطر واحد من هذا النص شبه المقدس. وبعد ذلك، كان لاري يدخن غليونه القصير بهدوء، ويغذوه بجمر الموقد أحياناً، ثم يعتدل في جلسته ليستمع بخشوع المؤمن المتعبد إلى الرسالة الواردة في مقالة فيرغوس العظيم"[41].

لم يكن ثمة إلا الضئيل من روح القيادة، والقليل من التنسيق، والمحاولة الأكثر طموحاً لتحويل الحركة بين العامين 1834 و1835 إلى حركة منتظمة، وهي "الاتحاد العام للنقابات"، انهارت بسرعة وبصورة بائسة. وفي بريطانيا والقارة الأوروبية على السواء، كنا نشهد، في أحسن الحالات، التضامن العفوي في أوساط مجتمع العمال المحليين، وبين الرجال الذين ماتوا، كعمال الحرير في ليون، مثلما عاشوا تحت مظلة الشقاء. وكان ما يجمع هذه الحركة ويلمّ شملها هو الجوع، والبؤس، والكراهية، والأمل. أما ما ألحق بها الهزيمة، في بريطانيا الميثاقية كما في القارة الأوروبية التي التهبت فيها الثورة عام 1848، فهو أن الفقراء كانوا يتضورون جوعاً، وأنهم بلغوا من ضخامة العدد وعمق اليأس حداً دفعهم إلى الثورة. غير أنهم كانوا يفتقرون إلى التنظيم والنضج اللازمين لتحويل تمردهم إلى ما هو أكثر من خطر عابر على النظام الاجتماعي. وبحلول العام 1848، كان على حركة الكادحين الفقراء أن تطور البديل المماثل للحركة اليعقوبية التي أنشأتها الطبقة الوسطى الثورية بين العامين 1789 و1794.

(41) William Edwin Adams, *Memoirs of a Social Atom*, 2 vols. (London: Hutchinson and Co., 1903), vol. 1, pp. 163-165.

الفصل الثاني عشر

الأيديولوجيا: الدين

"أعطني شعباً يسيطر الإيمان والأمل والإحسان، على عواطفه الجياشة وجشعه الدنيوي؛ شعباً لا يرى هذه الدنيا غير مكان للحج، أما وطنه الأم فهو الحياة الأخرى؛ شعباً تعلم أن ينظر بإعجاب وإكبار إلى ما في البطولة المسيحية من صفات الفقر والآلام؛ شعباً يحب ويعبد في يسوع المسيح الابن البكر لجميع المستضعفين، ويرى في صليبه أداة الخلاص الشامل. أقول لك: أعطني شعباً تشكل في هذا القالب، وسيؤول الأمر إلى هزيمة الاشتراكية بسهولة فحسب، بل إن مجرد التفكير فيها سيكون مستحيلاً. . . . ".

من مجلة *Civiltà Cattolica*[1] **(المواطَنة الكاثوليكية).**

"ولكن عندما بدأ نابليون تقدمه، اعتقد (الفلاحون المولوكيون المُهرْطِقون) أنه كان هو الأسد الذي سيهبط إلى وادي يهوشافاط

---

(1) *La Civiltà Cattolica*, vol. II, p. 122, and L. Dal Pane, "Il Socialismo e le questione sociale nella prima annata della Civiltà Cattolica," in: Gino Luzzatto, *Studi in onore di Gino Luzzatto*, 4 vols. (Milano: A. Giuffrè, 1949-1950), p. 144.

الذي تُنبئهم ترانيمهم الدينية أنه سيطيح القيصر الدجال ويُحل مكانه القيصر الأبيض الحقيقي. وبناء عليه، جهز المولوكيون في إقليم تامبو وفداً منهم وهيأوه ليتوجه إلى نابليون، ويمثلوا أمامه بثيابه البيض، ويستقبلوه بالترحاب".

هاكستاوزن، **دراسات عن... روسيا**[2].

I

ما يظنه الناس عن العالم أمرٌ والمصطلحات التي يستخدمونها في تفكيرهم هذا أمرٌ آخر. ففي أغلب مراحل التاريخ، ومختلف أرجاء العالم (ربما نستثني الصين في المقام الأول)، استخدم أكثر الناس، ما عدا حفنة من المتعلمين والمتحررين، مصطلحات من الدين التقليدي لفهم العالم. بل إن الأمر بلغ حداً أصبحت معه كلمة "مسيحي" في بعض البلدان مرادفة لكلمة "فلاّح" أو حتى "إنسان". ولم يعد الأمر كذلك في أجزاء من أوروبا في إحدى المراحل قبل العام 1848، ما عدا الأطراف الواقعة خارج المنطقة التي لم يُصبها التحول بفعل الثورتين الصناعية والفرنسية. وقد تحول الدين من شيء أشبه بالسماء التي لا يستطيع المرء الهرب منها، وتحتوي على كل ما هو فوق هذه الأرض، إلى مظلة من السحاب، ومَلْمَح عظيم محدود متغير من ملامح الوجود البشري. وكان ذلك هو التغير الأعمق بين التغيرات الأيديولوجية، على الرغم من أن آثاره العملية كانت أكثر غموضاً وتداعياً مما كان مفترضاً من قبل. وكانت تلك الآثار، على أية حال غير مسبوقة على الإطلاق.

والأمر الذي لم يكن مسبوقاً هو، بالطبع، عَلْمنة الجماهير. لقد

(2) August Franz Ludwig Maria Haxthausen-Abbenburg, *Studien über die Innern Zustände, das Volksleben und Insbedondere die Ländlichen Einrichtungen Russlands*, 3 vols. (Hannover: Hahn, 1847-1852), vol. 1, p. 388.

كان مألوفاً في أوساط النبلاء المتحررين أن يظهروا نوعاً من العزوف الناعم عن الدين، مع الحرص الشديد، في الوقت نفسه، على أداء المهمات الطقسية (ليطرحوا القدوة الحسنة للفئات الأدنى مرتبة)[3]. أما النساء، فقد كُنَّ، كعادة بنات جنسهن، أكثر تُقىً وربما بكثير. وكان الرجال المؤدبون المتعلمون يؤمنون، من الوجهة الفنية، بكائن علويّ، على الرغم من أنه، في نظرهم، يقصر اهتمامه على الكينونة فحسب، ولا يتدخل في الأنشطة الإنسانية، أو يطالب الناس بأية عبادات غير الإقرار اللطيف بوجوده. إلا أن موقفهم من الدين التقليدي كان يمتاز بالازدراء، وبالعداء في أكثر الأحيان. ولم تكن أراؤهم لتختلف إذا أعلنوا إلحادهم على الملأ. ويقال إن العالم الرياضي العظيم لابلاس (Laplace) أجاب نابليون، الذي سأله عن موقع الله في منظومة القبة السماوية التي تصورها، بقوله: "يا سيدي، لا حاجة لي إلى هذا الافتراض". وكان الإلحاد الصريح أمراً نادراً نسبياً، غير أن المسيحية كانت أكثر ندرة في أوساط العلماء والكتاب وعِلْية القوم المستنيرين الذين حددوا المسارات الفكرية في أواخر القرن الثامن عشر. وإذا كان ثمة من ديانة مزدهرة في أوساط النخب في أواخر القرن الثامن عشر، فإنها كانت ديانة الماسونيين الأحرار: عقلانية، مستنيرة، معادية للكهنوت.

يعود تجرد الذكور الواسع من المسيحية في أوساط الطبقات المتأدبة المتعلمة إلى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وكانت آثاره العامة مذهلة نافعة، وقد تجلى ذلك، في أوضح صوره، في انقضاء عهد المحاكمات بتهمة السحر والشعوذة الذي ابتليت به أوروبا الغربية والوسطى قروناً عدة، مثلما انقضى قبله عهد المحاكمات بتهمة

(3) "لقد غدا الوثني الكبير شقيقاً لنا، في رباط الأخوة المقدس"، وهذه هي الصورة التي رسمها [الشاعر الإسباني] أنطونيو ماكادو للسيد الأندلسي النبيل. انظر: Antonio Machado, *Poesias completas*, pp. 152-154.

الهرطقة والأحكام بالإعدام إحراقاً بقرارات من محاكم التفتيش. غير أن ذلك لم يؤثر كثيراً أو قليلاً على الطبقات الدنيا، ولا على الطبقات الوسطى. فقد ظل الفلاحون بمنأى عن تأثير أية لغة أيديولوجية لا تتحدث إليهم بألسنة العذراء، والقديسين، و**الكتاب المقدس**، ناهيك عن قدامى الآلهة والأرواح الذين تستّروا وراء أقنعة مسيحية في الظاهر. وكان الفكر غير الديني يمد جذوره في أوساط الصّناع الذين كانوا سينجرفون في وقت سابق إلى الهرطقة. وأخذ الإسكافيون، وهم الأكثر مثابرة بين مثقفي الطبقة العاملة ـ وقد خرج من بينهم أولياء مثل يعقوب بوهمه ـ يبدون الشك في أية قوة إلهية. وكانوا، في فيينا في جميع الأحوال هم الجماعة الحرفية الوحيدة التي تعاطفت مع اليعاقبة؛ إذ قيل لهم إن هؤلاء لم يكونوا يؤمنون بالله. غير أن هذه التحركات لم تكن غير تموّجات طفيفة. فقد ظلت الجماهير العريضة من العمال غير المهرة وشتى فئات الفقراء في المدن متشبثة بإيمانها العميق أو بالشعوذة.

ولم يكن العداء المعلن للدين مقبولاً حتى في أوساط الطبقة الوسطى، على الرغم من أن أيديولوجية عقلانية تقدمية مستنيرة مغايرة للتقاليد كانت مناسبة تماماً لهذه الأوساط. فقد كان ذلك العداء يرتبط في نفوسهم بالأرستقراطية وانعدام الأخلاق، وهو ما ينتسب بدوره إلى مجتمع نبلاء. بل إن أوائل "المفكرين الأحرار" في أواسط القرن التاسع عشر كان لهم من اسمهم نصيب؛ فمسرحية **دون جوان** (*Don Juan*) للكاتب موليير (Molière) لا تقتصر على إظهار ما كان منتشراً بينهم من إلحاد وحرية جنسية فحسب، بل على فزع البورجوازيين ونفورهم منها. وكانت ثمة أسباب وجيهة لهذا التناقض (الواضح بصورة خاصة في القرن السابع عشر) في النظر إلى أكثر المثقفين المفكرين جرأة، الذين مهدوا لانتشار أيديولوجية الطبقة الوسطى في وقت لاحق، مثل بيكون (Bacon) وهوبز (Hobbes)، باعتبارهم، بصفتهم الفردية، من أبناء المجتمع القديم الفاسد. وقد كانت جحافل الطبقة الوسطى الزاحفة تحتاج في معاركها إلى الانضباط والتنظيم اللذين يتوفران في منظومة

أخلاقية محددة الهدف والاتجاه. وكانت اللاأدرية والإلحاد، نظرياً، موائمين تماماً لهذا الاتجاه، مثلما كانت المسيحية غير ضرورية له. وقد عمل "فلاسفة" القرن الثامن عشر جاهدين من دون كلل لإظهار أن الأخلاق "الطبيعية" (التي وجدوا تجلياتها بين المتوحشين النبلاء)، والمعايير الشخصية الرفيعة للمفكرين الأحرار كانت أفضل من المسيحية. إلا أن الفوائد المجرَّبة للنوع القديم من الدين، والمخاطر الكبرى التي ينطوي عليها التخلي عن مباركة علوية للأخلاق، كانت عظيمة في واقع الممارسة. ولم يقتصر ذلك على الكادحين الفقراء الذين كانوا، على العموم، يتصفون بالجهل والغباء بحيث لا يمكنهم التخلي عن شعوذة مقبولة اجتماعياً بل على الطبقة الوسطى نفسها.

حفلت الأجيال التي أعقبت الثورة في فرنسا بالعديد من المحاولات لتطوير منظومة أخلاقية بورجوازية، غير مسيحية ولكنها تعادل المسيحية؛ وذلك بتبني عقيدة "عبادة الكائن الأسمى" التي طرحها روسو (كما فعل روبسبيير عام 1794)، أو بالدعوة إلى عقائد شبه دينية قائمة على أسس عقلانية غير مسيحية، ولكنها تمارس شعائر العبادة وطقوسها (مثلما فعل السان سيمونيون، وكذلك أوغست كونت (Comte) في دعوته إلى "دين الإنسانية"). وفي آخر المطاف، تخلى هؤلاء جميعاً عن مساعيهم للحفاظ على المظاهر الخارجية للعبادات الدينية القديمة، ولكنهم واصلوا المساعي لتأسيس منظومة أخلاقية لعامة الناس (تقوم على مفاهيم أخلاقية مثل "التضامن")، وفوق ذلك، على نظير يقابل سلك الكهنوت في نظر العامة، وهو فئة المعلمين. إن المدرس الفرنسي، الفقير، الغيور على مصلحة الآخرين، الذي يلقن تلاميذه في كل قرية الأخلاق الرومانية الداعية إلى الثورة والجمهورية، وهو المناوئ الرسمي لكاهن القرية، لم يحقق انتصاره الحقيقي إلا مع مجيء الجمهورية الثالثة، التي حلت أيضاً المشكلات السياسية المتصلة بإرساء الاستقرار البورجوازي على أساس الثورة الاجتماعية في جميع الأحوال مدة سبعين عاماً. غير أن هذا المدرس كان موجوداً، ضمناً، في قانون كوندورسيه

عام 1792 الذي ينص على أن "الأشخاص الذين يتولون التدريس في الصفوف الابتدائية سيُسَموْنَ "مؤسسين"، ونجد في ذلك أصداء لدعوة كل من شيشرون (Cicero) وسالوست (Sallust) اللذين تحدثا عن إقامة "مجتمع الرخاء المشترك" (Instituere civitatem)، وكذلك إقامة "أخلاقيات مجتمعات الرفاه المشترك" (Instituere civitatem mores)[4].

وهكذا انقسمت البورجوازية في أيديولوجيتها بين قلة من المفكرين الأحرار الذين تتعاظم صراحتهم، وأغلبية من الأتقياء البروتستانت واليهود والكاثوليك. ومع ذلك، فإن الحقيقة التاريخية الماثلة للعيان هي أن قطاع المفكرين الأحرار كان، بما لا يقاس، هو الأكثر ديناميّة وفعالية. وعلى الرغم من أن الدين كان، بالمقاييس الكمية، عظيم الجبروت، وقد ازداد، كما سنرى، قوةً. إلا أنه، باستخدام تشبيه بيولوجي، لم يكن مهيمناً بل منحسراً، وما زال على هذه الحال حتى اليوم في العالم الذي أصابه التحول بفعل الثورة المزدوجة. ولا شك في أن الأغلبية العظمى من مواطني الولايات المتحدة الجديدة كانوا آنذاك، بشكل أو بآخر، من المؤمنين البروتستانت على الأغلب، غير أن دستور الجمهورية ما زال، على الرغم من جميع المحاولات الرامية إلى تغييره، لا أدرياً في طابعه. وليس هناك من شك على الإطلاق في أن المتدينين البروتستانت في الطبقات الوسطى في بريطانيا في تلك الأيام كانوا يفوقون الأقلية من اللاأدريين الراديكاليين عدداً، وبصورة متزايدة. إلا أن بنثام أفلح في صياغة المؤسسات الفعلية في ذلك العهد لديهم أكثر مما فعل ويلبرفورس.

كان الدليل الأوضح على هذا الانتصار الحاسم الذي حققته الأيديولوجيا العَلْمانية على الدينية يتمثل في النتائج التي تمخضت عنه. ففي الثورتين الأمريكية والفرنسية، عُلْمِنَتِ التحولات السياسية

---

(4) Georges Duveau, *Les Instituteurs*, le temps qui court; 2 ([Paris]: Editions du seuil, [1957]), pp. 3-4.

والاجتماعية الكبرى. وكانت قضايا الثورتين الهولندية والإنجليزية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ما تزال مطروحة للنقاش باللغة التقليدية للمسيحية الرشيدة، أو المنشقة، أو الهرطقية. وللمرة الأولى في التاريخ الأوروبي، غدت المسيحية لا ضرورة لها. وقد غلب الطابع غير المسيحي على اللغة، والرموز، والملابس عام 1789، هذا إذا استثنينا المحاولات الشعبية القليلة لوضع هالة فوق رؤوس قديسين وشهداء، من الأبطال اللامتسرولين الموتى، كما كان الأمر مع آخرين فيما مضى. كانت العلمنة، في واقع الأمر، رومانية. وفي الوقت نفسه، فإن العلمنة في تلك الثورة قد أظهرت الهيمنة السياسية المشهودة للطبقة الوسطى الليبرالية، التي فرضت أشكالها الأيديولوجية المحددة على حركة جماهيرية أكثر اتساعاً. وإذا كانت الثورة الفرنسية قد استمدت جانباً بسيطاً من قياداتها الفكرية من الجماهير التي صنعتها، فلا يعقل أن أيديولوجيتها لم تُبْدِ دلائل على نزعتها التقليدية أكثر مما فعلت[5].

من هنا، فإن انتصار البورجوازية أشبع الثورة الفرنسية بالروح اللاأدرية وبأيديولوجية الأخلاق العَلْمانية المتحدرة من عصر التنوير في القرن الثامن عشر. وحيث ان مصطلحات تلك الثورة أصبحت هي اللغة العامة التي استخدمتها الحركات الثورية الاجتماعية اللاحقة جميعها، فإنها نقلت إليها هذه النزعة العلمانية أيضاً. وكانت أيديولوجية الطبقة العاملة الجديدة، وجميع الحركات الاشتراكية في القرن التاسع عشر علمانية منذ بداياتها الأولى، ما عدا استثناءات قليلة لا أهمية لها، خصوصاً بين المثقفين من أمثال السان سيمونيين، وفي أوساط قلة من زعماء الجماعات الدينية المسيحية ـ الشيوعية مثل الخياط وايتلنغ (Weitling) (1808ـ1871). وقد اشتهر توماس بين، الذي عبرت أفكاره

---

(5) الواقع أن الأغاني الشعبية وحدها هي التي كانت أحياناً تلمح إلى مصطلحات كاثوليكية، مثل ça Ira ["سيكون كل شيء على ما يرام"، الأغنية الثورية الأشيع والأشهر خلال الثورة الفرنسية].

عن التطلعات الراديكالية ـ الديمقراطية لصغار الصناع الفنيين والحرفيين المعوزين، لأنه يوضح في كتابه **عصر العقل** (*The Age of Reason*) (1794)، بلغة شعبية، أن **الكتاب المقدس** ليس كلمة الله، مثلما اشتهر بسبب كتابه الآخر **حقوق الإنسان** (*Rights of Man*) (1791). وقد تبنى دعاة التغيير في العشرينات من القرن التاسع عشر آراء روبرت أوين لا لتحليله للرأسمالية، بل لكفره بها. وبعد سقوط الأُوِينية بزمن طويل، قامت مجلة *Halls of Science* بتوزيع النشرات الدعائية للعقلانية في المدن. وكان ثمة اشتراكيون متدينون، وعدد كبير من الرجال الذين كانوا، على تدينهم، اشتراكيين. بيد أن الأيديولوجيا المهيمنة في الحركات العمالية والاشتراكية الحديثة، إذا أعلنتها، إنما كانت تقوم على العقلانية التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر.

ومن المدهش أن الأغلبية العظمى من الجماهير ظلت، كما رأينا، على تدينها، وأن **الكتاب المقدس** ظل هو الوثيقة التي تلهب المشاعر على الرغم من أن الراية الثورية الطبيعية التي رفعتها الجماهير في مجتمع مسيحي تقليدي كانت راية التمرد (الهرطقة الاجتماعية، وبداية الألفية وما إلى ذلك). غير أن العلمانية السائدة في أوساط الحركات العمالية والاشتراكية الجديدة كانت تقوم على حقيقة جوهرية مستجدة بالقدر نفسه، ألا وهي العزوف الذي ساد البروليتاريا الجديدة عن الدين. ويبدو، بالمقاييس الحديثة، أن الطبقات العاملة والجماهير الحضرية التي برزت خلال الثورة الصناعية كانت، من دون شك، متأثرة بالدين إلى حد بعيد، ولكنها، بمقاييس النصف الأول من القرن التاسع عشر، لم تتأثر ببواكير تمهيدية تعزز موقف الابتعاد والجهل واللامبالاة الذي أظهرته تجاه الدين المنظم. ويتفق على ذلك المراقبون من شتى الميول السياسية. وذلك ما أظهره الإحصاء العام الديني عام 1851، وأثار الفزع في صفوف المعاصرين له. ويُعزى قدر كبير من هذا العزوف إلى الإخفاق الذريع الذي منيت به محاولات الكنائس التقليدية القائمة آنذاك في التعامل مع التجمعات الكبرى ـ مثل المدن الكبيرة والمستوطنات

الصناعية الجديدة ـ ومع الطبقات الاجتماعية ـ البروليتاريا ـ التي كانت غريبة عن إجراءات الكنيسة وتجربتها. ففي العام 1851، لم يكن ثمة أمكنة لإقامة الكنائس إلا في 38 في المئة من المناطق المأهولة في شيفيلد، و31,2 في المئة في ليفربول ومانشستر، و29 في المئة في بيرمينغهام. ولم تكن المشكلات التي يواجهها كاهن الرعية في قرية زراعية تساعد على هداية الناس في بلدة صناعية أو حيّ مدقع في مركز حضري.

لقد أهملت الكنائس القائمة، إذن، هذه الجماعات والطبقات، وتركتها (خصوصاً في البلدان الكاثوليكية واللوثرية) كلياً للعقيدة والعلمانية التي اعتنقتها الحركات العمالية الجديدة التي استطاعت استمالتها في أواخر القرن التاسع عشر (وذلك ما لم تستطعه إلى حد بعيد بحلول العام 1848، لأنها لم تعرض حافزاً مجزياً لإخراج هذه الحركات من دائرة الكفر). وكانت الطوائف الاحتجاجية أكثر نجاحاً، وفي جميع الأحوال، في بلدان مثل بريطانيا كانت فيها النزعة الطائفية ظاهرة دينية سياسية راسخة. غير أن ثمة دليلاً على أن الطوائف حققت القدر الأعظم من النجاح عندما كانت البيئة الاجتماعية التي كانت تعمل فيها أقرب إلى الأجواء التقليدية للمجتمعات المحلية في البلدات والقرى الصغيرة، مثل عمال المزارع، وعمال المناجم، والصيادين. وعلاوة على ذلك، فإن الطوائف لم تكن أبداً أكثر من أقليات تعيش وسط طبقات العمال الصناعيين. ولا شك في أن الطبقة العاملة، بوصفها جماعة، لم تتأثر بالدين المنظم مثلما تأثرت به أية تجمعات سابقة من الفقراء على امتداد التاريخ البشري. من هنا، كان الاتجاه العام بين العامين 1789 و1848، يركز على التشدد في العلمنة. وقد وجد العلم نفسه مخالفاً للنصوص الدينية عندما اقتحم ميدان دراسة تطور الحياة البشرية[6]. وطبقت أساليب البحث التاريخي بكثافة لا سابق لها على

(6) انظر الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب.

الكتاب المقدس، ولا سيما منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر. وعلى يد الدارسين المتخصصين في توبنغن، تحول النص الوحيد الذي أوحى به الرب، أو كتبه، إلى مجموعة من الوثائق التاريخية في مختلف الميادين، بكل ما يحتمله التوثيق الإنساني من عيوب. وأنكر لاكمان (Lachmann) في كتابه **العهد الجديد** (*Novum Testamentum*) أن تكون الأناجيل شهادة عيان، وأعرب عن شكه في أن يسوع المسيح كان يعتزم إقامة دين جديد. كما أن كتاب ديفيد شتراوس (David Strauss) المثير للجدل **حياة يسوع** (*Life of Jesus*) (1835) انتزع العنصر الخارق للطبيعة من سيرة موضوع البحث. وما أن أطل العام 1848، حتى كانت أوروبا المتعلمة مهيأة للصدمة التي أحدثها تشارلز داروين، وعززت هذا الاتجاه الهجمات المباشرة التي كانت الأنظمة السياسية العديدة المختلفة تشنها على الامتيازات القانونية والتملية التي تتمتع بها الكنائس القائمة وكهنتها والقائمون الآخرون على طقوسها. كما قوي هذا التيار جراء ميل الحكومات أو الأجهزة العلمانية الأخرى إلى أن تتولى هي نفسها الأنشطة التي كانت تقوم بها المؤسسات الدينية أساساً. ويصدق ذلك في البلدان الكاثوليكية، على خدمات الرفاه الاجتماعي والتعليم في المقام الأول. وفي الفترة بين العامين 1789 و1848، ألغيت أديار الرهبنة، وبيعت ممتلكاتها في مناطق تمتد من نابولي إلى نيكاراغوا. أما خارج أوروبا، فقد شن الغزاة البيض هجماتهم بالطبع على ديانة رعاياهم أو ضحاياهم، كما فعل حكام الهند البريطانيون الذين حظروا حرق النساء الأرامل (السوتي)، أو القضاء على عصابات القتل الطقوسي في الثلاثينات. وقد فعلوا ذلك باعتبارهم أبطالاً يمثلون الاستنارة ضد الشعوذة، أو لأنهم لم يدركوا الآثار التي ستخلفها إجراءاتهم على ضحاياهم.

II

إذا أخذنا بالاعتبار الجانب العددي الكمّي فحسب، فإننا سنعتبر ذلك دليلاً على أن جميع الأديان ستوسع نطاقها مع تزايد السكان، إلا

إذا كانت في حالة ضمور أو تقلص. غير أن الفترة التي نعالجها شهدت ديانتين ميالتين إلى التوسع، هما: الإسلام والبروتستانتية المتشددة. ويتجلى هذا التوسع بصورة أكثر بروزاً مقابل الإخفاق الذي منيت به محاولات التوسع التي قامت بها طوائف أخرى مسيحية، مثل الكاثوليكية والبروتستانتية العامة، على الرغم من التزايد الكبير في أنشطة الحملات التبشيرية خارج أوروبا، تساندها القوة العسكرية، والسياسية، والاقتصادية للتغلغل الأوروبي. والواقع أن العقود الثورية والنابليونية قد شهدت بواكير الأنشطة التبشيرية البروتستانتية المنظمة، من جانب الأنغلوسكسونيين على الأغلب. وفي أعقاب الجمعية التبشيرية المعمدانية (1792)، وجمعية لندن التبشيرية لجميع الطوائف (1795)، وجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية (1804)، جاء مجلس المفوضين الأمريكي للبعثات الأجنبية (1810)، و"المعمدانيون الأمريكيون" (1814)، والويزْليون (1813-1818)، وجمعية الكتاب المقدس الأمريكية (1816)، وكنيسة اسكوتلندا (1824)، و"المشيخيون المتحدون" (1835)، والكنيسة الميثودية الأسقفية (1819)، وغيرها. وانتعشت، في وقت لاحق، أنشطة البروتستانت في القارة الأوروبية بعد عدة محاولات ريادية قامت بها الجمعية التبشيرية الهولندية (1797)، وجمعيات باسل التبشيرية. فنشطت جمعيات برلين والراين في عشرينات القرن، وجمعيات السويد، وليبزغ وبريمان في الثلاثينات، والنرويج عام 1842. أما الكاثوليكية في روما، التي كانت بعثاتها التبشيرية خاملة مهملة، فلم تنتعش إلا في مرحلة لاحقة. ويعود انتشار الكتب المقدسة والتجارة وانتصارهما على الوثنيين إلى الأصول الدينية، والاجتماعية والاقتصادية لكل من أوروبا وأمريكا. وما علينا هنا إلا أن نلاحظ أن نتائجها لم تكن ملموسة بحلول العام 1848، إلا في بعض جزر المحيط الهادي مثل هاواي. وقد حققت الكاثوليكية موطئ قدم في عدة مواقع على ساحل سيراليون (حيث جلبت الاهتمام حملات الإهاجة المناوئة للاسترقاق في تسعينات القرن الثامن عشر)، وفي ليبيريا التي أسست

باعتبارها دولة للعبيد الأمريكيين المحررين في عشرينات القرن التاسع عشر. وبدأت البعثات التبشيرية الأجنبية (لا الكنيسة المحلية الإنجليزية ولا الكنيسة الإصلاحية الهولندية) بتنصير أعداد كبيرة من الأفارقة في الأطراف المحيطة بمواقع الاستيطان الأوروبي. ولكن عندما أبحر المبشر المستكشف الشهير ديفيد ليفنغستون متجهاً إلى أفريقيا عام 1840، لم يكن سكان القارة الأصليون قد تعرفوا إلى المسيحية بأية صورة من الصور.

ومقابل ذلك، كان الإسلام يواصل توسعه الصامت، المندفع شيئاً فشيئاً في طريق لا عودة عنه، من دون أن تسانده جهود تبشيرية منظمة أو إرغام الناس على التحول إلى الإسلام. وقد اتسع الإسلام شرقاً ليغطي إندونيسيا والشمال الغربي من الصين، وغرباً من السودان إلى السنغال، وكذلك، إلى حد قليل جداً، من شواطئ المحيط الهندي إلى اليابسة. وعندما تبدل المجتمعات أساساً جوهرياً في حياتها مثل الدين، فلا بد من أن تواجه مشكلات رئيسية جديدة. لقد أسهم التجار المسلمون، الذين تقاسموا احتكار التجارة مع العالم الخارجي وحققوا المكاسب معه في داخل أفريقيا في اجتذاب الشعوب الجديدة إلى الإسلام. وعززت قوة الجذب هذه تجارة الرقيق التي حطمت الحياة الجماعية؛ لأن الإسلام وسيلة بالغة القوة لإعادة دمج البُنى الاجتماعية[7]. وفي الوقت نفسه، استهوى الدين الإسلامي المجتمعات شبه الإقطاعية والعسكرية في السودان، كما أن روح الاستقلال، والكفاح، والتفوق الكامنة فيه قد جعلت منه قوة نافعة لمعارضة الرق ومناوأة الاستعباد. وكان الزنوج المسلمون عبيداً سيئين؛ فأبناء الحوسا (والسودانيون الآخرون) الذين استوردوا إلى باهيا (في البرازيل) ثاروا تسع مرات بين العام 1807 والتمرد الكبير عام 1835 إلى أن تم بالفعل القضاء على أكثرهم أو إعادتهم إلى أفريقيا. وقد تعلم تجار الرق أن

(7) John Spencer Trimingham, *Islam in West Africa* (Oxford: Clarendon Press, 1959), p. 30.

يتحاشوا الاستيراد من تلك المناطق التي فُتِحت أبوابها للتجارة منذ عهد قريب[8].

وفيما كان عنصر المقاومة فاتراً لدى مسلمي أفريقيا ضد البيض (على ضآلة عددهم آنذاك)، فقد كان، بحكم التقاليد، قوياً في جنوب شرق آسيا. فالإسلام الذي حمله كذلك التجار، كان قد قطع منذ زمن بعيد أشواطاً من التقدم في مواجهة العبادات المحلية والهندوسية الآيلة للسقوط في جزائر البهارات والتوابل، بحيث غدا أداة أكثر فاعلية في التصدي للبرتغاليين والهولنديين. بل إنه أصبح نوعاً من "القومية التمهيدية" مع أنه أدى، في الوقت نفسه، دور القوة الشعبية الرادعة للأمراء الذين كانوا يدينون بالهندوسية[9]. ومع تحول هؤلاء الأمراء إلى تابعين أو عملاء للهولنديين، ويتحركون في مجالات غاية في الضيق، كان الإسلام يرمي بجذوره العميقة في أوساط السكان. وبالمقابل، أدرك الهولنديون أن بوسع الأمراء الإندونيسيين، بالتحالف مع علماء الدين، أن يطلقوا التمرد الشعبي العام من عقاله، كما حدث في حرب جزيرة جاوه التي خاضها أمير ديوغجاكارتا (1825ـ1830). وقد اضطر هؤلاء أكثر من مرة، إلى انتهاج سياسة التحالف الوثيق أو الحكم غير المباشر مع الحكام المحليين. وفي تلك الأثناء، أدى نمو التجارة وحركة الشحن إلى خلق روابط وثيقة بين مسلمي جنوب شرق آسيا من جهة، ومكة من جهة أخرى، مما أسهم في زيادة عدد الحجاج، ووضع الإسلام الإندونيسي في المسار الصحيح، وحتى إلى فتح أبوابه أمام المؤتمرات

---

(8) Arthur Ramos, *Las Culturas negras en el nuevo mundo*, sección de obras de sociologia [del fondo de cultura económica] I. Manuales introductorios, Versión española de Ernestina de Champourcin; glosario de voces por Jorge A. Vivó (México: Fondo de cultura económica, [1943]), pp. 277 ff.

(9) Willem Frederik Wertheim, *Indonesian Society in Transition, a Study of Social Change* (The Hague: W. van Hoeve, 1956), p. 204.

الجهادية والإحيائية للحركة الوهابية في الجزيرة العربية.

وفي إطار الإسلام، يمكن اعتبار حركات الإصلاح والإحياء، التي أعطت الدين كثيراً من القدرة على التغلغل، بوصفها انعكاساً لآثار التوسع الأوروبي والأزمة في المجتمعات المسلمة القديمة (وفي الإمبراطوريتين التركية والفارسية في المقام الأول)، وكذلك الأزمة المتفاقمة في الإمبراطورية الصينية. وقد نشأ الوهابيون الطهرانيون في الجزيرة العربية في أواسط القرن الثامن عشر. وبحلول العام 1814، كانوا قد استولوا على الجزيرة العربية، وهيأوا أنفسهم لغزو سوريا، إلا أنهم عدلوا عن ذلك عندما وقفت ضدهم قوة مشتركة من مصر التي كانت تسلك طريق التحديث في عهد محمد علي، والجيوش الغربية، مع أن تعاليمهم تحركت شرقاً حتى دخلت فارس، وأفغانستان، والهند. وقد ألهمت الوهابية جزائرياً ورعاً هو سِيْدي محمد بن علي السنوسي، إنشاء حركة مشابهة انتشرت، منذ أربعينات القرن التاسع عشر، من طرابلس إلى الصحراء. كما أسس عبد القادر في الجزائر، وشامل في القفقاس، حركتين دينيتين سياسيتين لمقاومة الفرنسيين والروس على التوالي[10]، ومهدا لنشوء نزعة قومية إسلامية لا تهدف إلى العودة إلى الإسلام النقي كما كان زمن الرسول فحسب، بل إلى استيعاب المبتكرات الأوروبية كذلك. وفي فارس، برزت في أربعينات القرن حركة تزعمها علي محمد هي حركة "باب" الابتداعية الثورية الأكثر تشديداً على النزعة القومية. وقد طالبت هذه الحركة، بين أمور أخرى، بالعودة إلى بعض الممارسات في الزرادشتية الفارسية القديمة، وإلى نزع الحجاب عن النساء.

بلغ نهوض الإسلام وتوسعه آنذاك شأناً يدفعنا إلى أن نصف تلك الفترة الممتدة بين العامين 1789 و1848 من ناحية التاريخ الديني،

(10) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

بمرحلة الإحياء الإسلامي على مستوى العالم. فلم تقم غيرها حركة جماهيرية مماثلة في أية ديانة غير مسيحية، مع أن نهاية تلك الفترة تضعنا على أعتاب التمرد الصيني الكبير في تايبنغ، الذي كان يتسم بهذه الخصائص نفسها. وقد انطلقت حركات إصلاح دينية ثانوية في الهند البريطانية، ولا سيما حركة براهمو ساماج بزعامة رام موهان روي (Ram Mohan Roy) (1772ـ1833). وفي الولايات المتحدة، كانت القبائل الهندية تقوم بحركات مقاومة نبوئية دينية ـ اجتماعية ضد البيض، ومنها الحركة التي دفعت إلى الحرب أضخم تجمع معروف تاريخياً لهنود السهول تحت قيادة تيكومْسيه في النصف الأول من ذلك القرن، وديانة هاندسوم ليك (1799) التي كانت تستهدف الحفاظ على أسلوب الحياة لقبائل إيروكوا وحمايته من الاختلال جراء الاحتكاك بمجتمع الأمريكيين البيض. ويسجَّل لتوماس جيفرسون (Thomas Jefferson)، الرجل الذي لا مثيل له في استنارته، أنه منح بركاته وموافقته الرسمية لهذا النبي الذي تبنى بعض الخصائص المسيحية، بل الكويكرية تحديداً. غير أن التَماسَّ المباشر بين الحضارة الرأسمالية المتقدمة والشعوب الأرواحية كان من الندرة بحيث لم يبرز خلاله الكثير من تلك الحركات النبوئية والألفية التي أصبحت أمراً شائعاً في القرن العشرين.

وتميزت الحركة التوسعية للبروتستانتية عن نظيرتها الإسلامية بأنها كادت تقتصر على بلدان الحضارة الرأسمالية المتقدمة. ولا يمكن أن يقاس مداها ونطاقها لأن حركات من هذا النوع (مثل الوَرَعية الألمانية والإنجيلية الإنجليزية) ظلت تدور في إطار الكنائس المنتشرة في البلاد آنذاك. ومع ذلك، فإن حجمها ليس موضع شك. ففي العام 1851، كان نحو نصف المصلّين البروتستانت في إنجلترا وويلز يؤدون خدماتهم الدينية في كنائس غير الكنيسة الرئيسية الرسمية في الدولة. وكان انتصار الطوائف المشهود هذا من نتائج التطورات الدينية عموماً منذ العام 1790، أو، بعبارة أدق، منذ السنوات الأخيرة من الحروب النابليونية.

من هنا، كانت الرعية في الكنيسة الميثودية الويزْلية في إنجلترا لا تتجاوز 59 ألف شخص عام 1789. وقد ارتفع هذا العدد عشرة أضعاف في تلك الكنيسة وفروعها المختلفة عام 1850[11] وفي الولايات المتحدة، حدثت عملية مماثلة من التحول الجماعي ضاعفت من أعداد المعمدانيين، والميثوديين، وإلى حد أقل، المشيخيين، وذلك على حساب الكنائس التي كان لها مكان الصدارة في الماضي. وبحلول العام 1850، كان نحو ثلاثة أرباع جميع الكنائس في الولايات المتحدة تنتمي إلى إحدى تلك الطوائف الثلاث[12]. وكان الاختلال الذي أصاب الكنائس القائمة، وانشقاق الطوائف وصعودها، من خصائص التاريخ الديني لتلك الفترة في اسكوتلندا (مثل الاختلال الكبير عام 1843)، وفي هولندا، والنرويج وبلدان أخرى.

وتعود القيود الجغرافية والاجتماعية التي حدت من توسع البروتستانتية المتشددة إلى أسباب واضحة. فلم تكن البلدان الكاثوليكية وتقاليدها تفسح المجال للطوائف الدينية للبروز العلني. ففي تلك الدول، كان الانفصال عن الكنيسة القائمة أو الديانة السائدة يتم عن طريق التحرر الجماعي من الدين (خصوصاً بين الرجال) لا الانشقاق[13] (وبالمقابل، فإن عداء البروتستانت لسلك الكهنوت في البلدان الأنغلوسكسونية كان في أغلب الأحيان هو النظير التام للعداء الملحد للكهنوت في بلدان القارة الأوروبية). وكان يمكن أن تتجسد نزعة الإحياء الديني في هيئة واحدة من العبادات العاطفية، أو واحد

---

(11) *Census of Great Britain 1851: Religious Worship in England and Wales*, Abridged from the Official Report Made by H. Mann (London: G. Routledge and Co, [1854]).

(12) انظر: "Religion" في: Michael G. Mulhall, *The Dictionary of Statistics* (London; New York: G. Routledge and Sons, 1892).

(13) إن الطوائف والانشقاقات التي انضمت إلى البروتستانتية والتي لم تتواتر كثيراً آنذاك كانت وظلت قليلة العدد.

من القديسين صانعي الإطار المقبول للديانة الكاثوليكية. وقد ظهر في هذه الفترة واحد أو اثنان من القديسين المعروفين على نطاق واسع، ومنهم كوريه دار (1786ـ1859) في فرنسا. وكانت المسيحية الأرثوذكسية في أوروبا الشرقية أكثر عرضة للتجزئة الطائفية. وأدى الخلل المتزايد في المجتمع المتخلف في روسيا منذ أواخر القرن السابع عشر إلى بروز العديد من الطوائف، وكان عدد منها، ولا سيما السكوبتسيين الخصيان، والدوخوبور الأوكرانيين، والمولوكيين، من نتائج أواخر القرن الثامن عشر والفترة النابليونية، بينما يعود "قدامى المؤمنين" إلى القرن السابع عشر. إلا أن الطبقات التي استهوتها هذه النزعات الطائفية كانت، على العموم، تضم صغار الحرفيين، والتجار، والمزارعين التجاريين، والفئات الأخرى التي مهدت لظهور البورجوازية، أو الفلاحين الثوريين الواعين. إلا أنها لم تكن من حيث العدد قادرة على إطلاق حركة طائفية عريضة واسعة النطاق.

بيد أن الوضع كان مختلفاً في البلدان البروتستانتية. لقد كانت آثار المجتمع التجاري القائم على النزعة الفردية في أقوى حالاته (وفي بريطانيا والولايات المتحدة في جميع الحالات)، بينما كانت التقاليد الطائفية راسخة كل الرسوخ. وقد زاد من جاذبيتها واستهوائها في نظر المبادرين التجاريين وصغار رجال الأعمال الصاعدين طابعها الحصري، وإصرارها على الاتصال المباشر بين الإنسان والله، بالإضافة إلى تقشفها الأخلاقي. وكانت دراساتها اللاهوتية المتزمتة الهزيلة عن الجحيم ويوم الدينونة، وعن الخلاص الشخصي الصارم جذابة في أعين الرجال الذين عانوا شظف العيش في ظروف قاسية، ومنهم سكان التخوم، والبحارة، وصغار المزارعين، وعمال المناجم، والحرفيون الذين يعانون الاستغلال. وكان بوسع الطائفة أن تتحول بسهولة إلى جماعة من المؤمنين تسودهم الديمقراطية والمساواة، ولا تتحكم فيهم المراتبية الاجتماعية أو الدينية، وعلى هذا الأساس، استهوت الناس العاديين. وأسهم عداؤها للطقوس المفصلة والشعائر المعقدة والمبادئ المكررة في تشجيع هوة التنبؤ

والوعظ. وقد أفضى استمرار الإيمان التقليدي بالعصر الألفي السعيد إلى تعبير بدائي عن التمرد الاجتماعي. وأخيراً، فإن ارتباط البروتستانتية بتجربة التحول الديني العاطفية الغامرة قد أفسح المجال لنزعة "إحيائية" دينية جماعية ذات طابع هستيري مشحون. ووجد الرجال والنساء في ذلك متنفساً للضغوط التي فرضها عليهم مجتمع لا يوفر لهم منفذاً للعواطف الجماعية، بل إنه دمر جميع المنافذ التي كانت شائعة في الماضي. ولقد أسهمت "الإحيائية" أكثر من أي عامل آخر في تنمية النزعة الطائفية؛ ومن هنا فإن مدرسة الخلاص الشخصي اللاعقلانية المشحونة بالعاطفة التي أنشأها جون ويزْلي (1703ـ1791) وأتباعه الميثوديون هي التي أعطت زخماً لحركات النهوض والتوسع والانشقاق البروتستانتي في بريطانيا في جميع الأحوال. ولهذا السبب، حافظت الطوائف والتيارات الجديدة، أول الأمر، على طابعها غير السياسي أو حتى الشديد المحافظة (كما كانت الحال لدى أتباع ويزْلي). ذلك أن هؤلاء أشاحوا بأبصارهم عن شرور العالم الخارجي، وعادوا إلى أنفسهم سعياً إلى الخلاص الشخصي أو إلى حياة الجماعة المكتفية ذاتياً، مما كان يعني، أغلب الأحيان، أنهم يرفضون أية إمكانية لإجراء تعديلات جماعية على ترتيباتهم الدنيوية. وقد سُخرت طاقاتهم "السياسية" على العموم لخدمة الحملات الأخلاقية والاجتماعية كتلك التي ضاعفت أعداد البعثات التبشيرية الأجنبية، أو نشطت لمكافحة تجارة الرقيق أو الدعوة إلى الاعتدال. وقد تحرر الطائفيون الراديكاليون النشطون سياسياً خلال فترة الثورتين الأمريكية والفرنسية من الجماعات الأقدم الأكثر جفافاً والطهرانية الوقورة المنشقة التي عاشت في ركودها منذ القرن السابع عشر، بل إنها كانت تتحول إلى ديانة وحدانية فكرياً تحت تأثير النزعة العقلانية التي شاعت في القرن الثامن عشر، وكان من بينها: المشيخيون، والأبرشانيون، والموحدون، والكويكرز. وكان الميثوديون الجدد بين هؤلاء الطائفيين مناوئين للثورة، وقد عُزِيَتْ إلى نفوذهم المتزايد، خطأً، مناعة بريطانيا تجاه الثورة في الفترة التي يعالجها هذا الكتاب.

غير أن الطابع الاجتماعي للطوائف الجديدة قد عوض عن عزوفها اللاهوتي تجاه هذا العالم. فقد انتشرت بسرعة فائقة بين من كانوا في المنزلة الوسطى بين الأغنياء الأقوياء من جهة، وجماهير المجتمع التقليدي من جهة أخرى؛ أي بين من كانوا على وشك الصعود إلى الطبقة الوسطى، ومن كانوا يوشكون على الهبوط إلى مصاف البروليتاريا، وجمهرة الناس العاديين الصغار المستقلين غير المميَّزين بين هؤلاء وأولئك. وكان التوجه السياسي الأساسي لهؤلاء جميعاً يدفعهم في اتّجاه راديكالي يعقوبي أو جِفرسونيّ، أو على الأقل، إلى ليبرالية الطبقة الوسطى. ومن هنا، كانت المدرسة "اللاامتثالية" في بريطانيا، والكنائس البروتستانتية المنتشرة في الولايات المتحدة تميل إلى اتخاذ مواقف سياسية يسارية، على الرغم من أن النزعة المحافظة لمؤسس الميثودية البريطانية تركت بصماتها على نشاط هذه الطائفة حتى زوالها على مدى نصف قرن من تعاقب الزعامات والأزمات الداخلية التي انتهت عام 1848.

استمر الرفض الأصلي لنظام العالم القائم في أوساط الفقراء المعدمين أو المهتزين فحسب. ولكن كان ثمة رفض بدائي ثوري في أغلب الأحيان، على هيئة تنبؤات ألفية بنهاية العالم. ومهدت لذلك المحن التي أعقبت المرحلة النابليونية على نحو ما ورد في "سفر الرؤيا النبوئية"، وقد تكهن بها وحذر أتباع إيرفنغ في بريطانيا من وقوعها في العامين 1835 و1838، وفي الولايات المتحدة تنبأ بحدوثها وليام ميللر (William Miller)، مؤسس طائفة الأدفنتست السبتية في العامين 1843 و1844، عندما بلغ عدد أتباعه نحو 50 ألفاً، وعدد الواعظين في طائفته ثلاثة آلاف قس. وفي المجالات التي وقعت فيها المزارع الصغيرة المستقرة والمتاجر البسيطة تحت التأثير المباشر لنمو اقتصاد رأسمالي ديناميّ، كما كان الحال في المنطقة العليا من ولاية نيويورك، كانت الحماسة والإيمان بالعصر الألفي السعيد بالغي القوة، وكانت أبرز نتائجهما طائفة قديسي الأيام الأخيرة (المورمون)، التي أسسها المتنبئ

جوزيف سميث (Joseph Smith) بعد أن تلقى الوحي بها في بالميرا في نيويورك في العشرينات من القرن التاسع عشر، ثم قاد جماعته في رحلة إلى جبل صهيون ناءٍ، وانتهى بهم المطاف في صحارى ولاية أُوْتاه.

كانت هذه هي الجماعات التي اكتسحتها الهستيريا الجماعية واستهوتها اجتماعات الإحياء الجماهيرية، سواء للتخفيف من وطأة الحياة الشاقة الكالحة عليها ("وعندما تنعدم التسلية، تحل مكانها تجمعات الإحياء الديني" على حد ما تقوله إحدى السيدات عن البنات العاملات في مصانع إيسكس)[14]، أو لأن اللقاءات الدينية الجماعية تخلق نوعاً من التضامن والترابط العابر بين شتات من الناس. وكانت الإحيائية، بمفهومها الحديث، من نتائج التخوم الأمريكية. فقد بدأت "اليقظة الكبرى" سنة 1800 في جبال الأبالاشيا على شكل "مخيمات" تضم جموعاً عظيمة من الناس. وكان منها المعسكر الذي أقيم عام 1801 في كين ريدج في ولاية كنتاكي، وجمع ما يتراوح بين عشرة آلاف وعشرين ألفاً من الناس يشرف عليهم أربعون واعظاً، وقد تولتهم نوبة من الهستيريا العربيدة الصاخبة لا يمكن وصفها؛ فقد أصيب الرجال والنساء بالخبل، ورقصوا حتى تهالكوا من الإعياء، وغشيت النشوة ألوفاً منهم، "وتحدثوا بألسنة" أو راحوا ينبحون كالكلاب. وشجع التنائي بين الناس، والبيئة الطبيعية أو الاجتماعية القاسية، أو هذه العوامل كلها، على انتشار هذه النزعة الإحيائية التي حملها الواعظون المسافرون معهم إلى أوروبا. وأفضى ذلك إلى القطيعة بين الديمقراطية البروليتارية من جهة، والويزْليين (الذين اصطلح على تسميتهم بالميثوديين البدائيين) من جهة أخرى عام 1848. وقد انتشر هؤلاء، بصورة خاصة،

---

(14) Mary Merryweather, *Experience of Factory Life: Being a Record of Fourteen Years' Work at Mr. Courtauld's Silk Mill at Halstead, in Essex*, Third Edition, much Enlarged with a Preface by B. R. Parkes ([London: n. pb., 1862]), p. 18.

في أوساط عمال المناجم البريطانيين في نورثكنتري، وصغار المزارعين في التلال، والصيادين في بحر الشمال، والعمال الزراعيين، والعمال المحليين الذين تتهددهم البطالة في الميدلاندز. وكانت نوبات الهستيريا الدينية هذه تحدث بصورة دورية في غضون تلك الفترة. فقد حدثت في جنوب ويلز في الفترات الواقعية بين كل من العامين 1807 و1809، والعامين 1828 و1830، والعامين 1839 و1842، والعامين 1849 و1859[15]. وتدل تلك التجمعات على التزايد الكبير في القوة العددية لتلك الطوائف. ولا يمكن رد هذه النوبات جميعها إلى سبب واحد وحيد. فقد تزامن بعضها مع فترات من التوتر والتململ الحاد (ويشمل ذلك هذه الوقائع كلها إلا واحدة. وقد تزامنت جميعها مع الفترات التي شهدت توسعاً هائلاً في نشاط الكنيسة الويزلية خلال الفترة التي تعالجها هذه الدراسة). إلا أن بعضها حدث أحياناً بعد الخروج السريع من دائرة الركود الاقتصادي، كما استثارتها، في أحيان أخرى، كوارث اجتماعية مثل وباء الكوليرا؛ وذلك ما ولّد ظواهر دينية مماثلة في بلدان مسيحية أخرى.

III

من الناحية الدينية البحتة، إذن، كانت العَلْمنة المتزايدة، (وفي أوروبا) عدم الاكتراث بالدين يقفان وجهاً لوجه مع حركات الإحياء الديني بأكثر أشكالها حدة من حيث التفكير اللاعقلاني، والتصلب، والاندفاع العاطفي المشبوب. وإذا كان توم بين يقف على أحد طرفي ذلك الطيف، فإن الأدفنتستي وليام ميللر يقف على الطرف الآخر. وكانت الفلسفة المادية الميكانيكية الملحدة الصريحة التي يمثلها الفيلسوف الألماني فيورباخ (1804ـ1872) تواجه شبان "حركة أوكسفورد" المعادين للفكر الذين كانوا يدافعون عن الدقة الحرفية في سير حياة أوائل

---

(15) Thomas Rees, *History of Protestant Nonconformity in Wales* (n. p.: n. pb.], 1861).

القديسين في القرون الوسطى.

وتمثلت العودة إلى هذه النزعة الدينية النضالية الحرفية المتقادمة في ثلاثة أوجه. فقد كانت بالنسبة للجماهير، بصورة عامة، وسيلة للتكيف مع الأجواء اللاإنسانية العميقة المتعاظمة القتامة التي سادت مجتمع الطبقة الوسطى الليبرالية، وعلى حد تعبير ماركس (الذي استعمل هذا الاصطلاح مثلما استخدمه غيره)، فإن العودة إلى هذا النوع من النزوع الديني كانت بمثابة "القلب في عالم لا قلب له، والروح في أوضاع لا روح فيها. . . . وكانت بمثابة الأفيون للناس"[16]. والأكثر من ذلك، أنها حاولت خلق مؤسسات اجتماعية، وأحياناً تعليمية وسياسية، في بيئة تفتقر إلى مثل هذه الهيئات. كما أنها كانت في أوساط الناس غير الناضجين من الوجهة السياسية تعبيراً بدائياً عن سخطهم وعن تطلعاتهم. وكانت نزعتها الحرفية، العاطفية وجنوحها إلى الشعوذة بمثابة احتجاج على مجتمع سيطرت عليه بأكمله الحسابات العقلانية، وعلى الطبقات العليا التي شوهت الدين وجعلته على صورتها.

وبالنسبة لأبناء الطبقات الوسطى التي ولدت من هذه الجماهير، فإن بوسع الدين أن يكون محفزاً أخلاقياً قوياً، ومبرراً لحضورهم الاجتماعي الذي يتصدى لما يكنّه المجتمع التقليدي لهم من احتقار وكراهية، ومحركاً يدفعهم إلى التوسع. وإذا كانوا طائفيين فقد حررهم الدين من الأغلال التي كبلهم بها المجتمع. كما أنه أعطى للأرباح التي حققوها عنواناً أخلاقياً أعظم مما تعطيه المصلحة الذاتية العقلانية، وأضفى الشرعية على قسوتهم تجاه المقموعين، وتضافر مع التجارة لإدخال الهمج إلى عالم الحضارة والأعمال التجارية إلى دائرة المبيعات.

كما أن الدين وفر الاستقرار الاجتماعي للأنظمة الملكية

---

(16) Karl Marx, *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke* (Berlin: Dietz, 1956), vol. 1, p. 378.

وللأرستقراطية، بل لكل أولئك الذين احتلوا قمة الهرم الاجتماعي. وقد تعلموا من الثورة الفرنسية أن الكنيسة هي العماد الأقوى للعرش. وقد هبّ الأتقياء الأميون من الإيطاليين الجنوبيين، والإسبان، والتيروليين، والروس وحملوا السلاح للدفاع عن كنيستهم وحكامهم وحمايتهم من الأجانب والكفار والثوريين. وقد باركهم، وأحياناً تصدرهم كهنتهم في ذلك. وكان بوسع الأتقياء الأميين أن يقنعوا بحياة الفقر التي كتبها لهم الله في ظل حكام أنعمت عليهم بهم العناية الإلهية، وأن يواصلوا معيشتهم الأخلاقية البسيطة المنظمة التي أكسبتهم المناعة ضد عواقب التفكير المدمرة. وبالنسبة للحكومات المحافظة بعد العام 1815 (وكانت جميع الحكومات على هذه الشاكلة)، كان تشجيع العواطف الدينية والكنائس جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه من سياساتها، شأنها شأن تنظيم مكاتب الشرطة والرقابة. ذلك أن الكاهن، والشرطي، والرقيب، كانوا هم الأركان التي استندت إليها الرجعية في تصديرها للثورة.

كان من دواعي الرضى لدى الحكومات القائمة آنذاك أن التيار اليعقوبي كان يهدد العروش، بينما كانت الكنيسة تحافظ عليها وتحميها. وعلى الرغم من ذلك، فإن التحالف بين مذبح الكنيسة والعرش كان، في نظر جماعة من المثقفين والعقائديين الرومنطيقيين، له أهمية بالغة أكثر عمقاً؛ ذلك أنه حافظ على مجتمع قديم عضوي حيّ من التأكل الناجم عن التفكير العقلي والليبرالية. ووجد الواحد منهم في هذا التحالف تعبيراً أكثر إقناعاً مما طرحه العقلانيون عن مأزقه المأساوي. أما في فرنسا وبريطانيا، فلم يكن لهذه التبريرات لتحالف العرش والكنيسة أهمية سياسية ذات شأن. ولم يكن ثمة أهمية كذلك للبحث الرومنطيقي عن دين شخصي مأساوي (كان المستكشف الأكثر أهمية لأغوار النفس البشرية هو الدانماركي سورين كيركغارد (Soren Kierkegaard)، 1813ـ1855. وقد عاش في بلد صغير، ولم يلفت انتباه معاصريه، ولم تتحقق له الشهرة إلا بعد وفاته). أما في الدويلات الألمانية وروسيا،

وهي المعقل الرئيسي للرجعية الملكية، فقد كان للمتقين الرومنطيقيين الرجعيين بعض الدور في النشاط السياسي بوصفهم موظفين في الدولة، أو كتاب لمسوّدات البيانات أو واضعين للبرامج أو مستشارين خاصين في الأوقات التي ينتاب فيها الملوك خلل عقلي (مثل الإسكندر الأول في روسيا، وفريدريك وليام الرابع في بروسيا). وعلى العموم، لم يكن فريدريك غينتز وآدم مُولِّلر (Adam Mueller) وأمثالهم غير موظفين لا يؤبه لرأيهم، ولم يكن إيمانهم الديني القروسطي (الذي كان ميترنيخ نفسه يرتاب فيه) أكثر من وسيلة تقليدية بسيطة للإعلان عن وجود الشرطة والرقباء الذين يعتمد عليهم ملوكهم كل الاعتماد. ولم تكن قوة التحالف المقدس بين روسيا والنمسا وبروسيا، الذي جعل همَّهُ إعادة تنظيم أوروبا بعد العام 1915 ترتكز على مظاهر هذه التسمية الشرقية الصوفية، بل على قرار بسيط يقضي على كل حركة تخريبية مسلحة في روسيا وبروسيا والنمسا. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الحكومات المحافظة بالفعل تميل إلى الشك في جميع المثقفين والمنظرين العقائديين، وحتى الرجعيين منهم؛ لأن القبول بمبدأ استبدال الطاعة بالتفكير كان يعني، في واقع، الأمر أن النهاية كانت على الأبواب. وقد كتب فريدريك غينتز (سكرتير ميترنيخ) عام 1819 إلى آدم مُولِّلر يقول:

"سأواصل الدفاع عن هذا الاقتراح. ولكي لا يساء استخدام الصحافة، فلن تتم طباعة أي شيء على الإطلاق. . . طوال السنوات القادمة. ذلك أمر قاطع. وإذا ما جرى تطبيق هذا المبدأ والالتزام التام به، والاقتصار على السماح بعدد قليل من الاستثناءات بقرار من المحكمة العليا، فإننا سنكون خلال فترة قصيرة على الطريق إلى الله والحقيقة"[17].

---

(17) "Gentz to Müller, 7 October 1819," in: Adam Heinrich Müller von Nitersdorf and Friedrich Gentz, *Briefwechsel Zwischen Friedrich Gentz und Adam Heinrich Müller, 1800-1829* ([Stuttgart: J. G. Cotta, 1857]).

وإذا كان للدعاة الأيديولوجيين الناهضين للتحرر أهمية سياسية ضئيلة، فإن هروبهم من رعب الليبرالية إلى ماضٍ عضوي كامل الخصائص كان له أثر ديني ملموس. أفلم تكن البروتستانتية نفسها هي التي مهدت لنشوء النزعة الفردية، والعقلانية، والليبرالية؟ وإذا كان بوسع مجتمع ديني حقيقي أن يعالج أمراض القرن التاسع عشر، فإن المجتمع القادر على ذلك هو المجتمع المسيحي الحقيقي بالفعل في القرون الوسطى الكاثوليكية[18]. وقد عبر غينتز، كالعادة، عن جاذبية الكاثوليكية بوضوح لا يليق بهذا الموضوع: "إن البروتستانتية هي المصدر الأول، الحقيقي، الوحيد لجميع الشرور العظيمة التي نئن تحت وطأتها اليوم. ولو انحصر نفوذها في التفكير فحسب، لكنّا قادرين، بل مرغمين على التساهل معها لأن نزعة الحِجاج أصيلة في أعماق الطبيعة البشرية. أما إذا وافقت الحكومات على القبول بالبروتستانتية، بوصفها شكلاً مصرحاً به من أشكال الدين، وتعبيراً عن المسيحية، وواحدةً من الحقوق الإنسانية. . . . وإذا منحتها الحكومات مكاناً في الدولة إلى جانب الكنيسة الحقيقية، بل على أنقاضها، فإن ذلك سيعني انهيار النظام الديني والأخلاقي والسياسي في العالم. . . . إن الثورة الفرنسية، بل الثورة الأسوأ التي توشك أن تندلع من ألمانيا، إنما داهمتنا من ذلك المصدر"[19].

هكذا تخلصت جماعات من الشباب المندفعين من قيود التفكير المرعبة وألقوا بأنفسهم في أحضان روما البابوية، وتبنوا العزوبة، وتعذيب النفس بالتنسك، وبالانشغال بكتابات آباء الدين، أو بمجرد الإغراق في التمتع بالعيش والتنعم الرضي بالطقوس الكنسية الجذابة من الناحية الجمالية. وجاؤوا، كما هو متوقع، من البلدان البروتستانتية على

---

(18) مقابل ذلك، فإن النزعة في روسيا، حيث كان المجتمع المسيحي الحقيقي في ظل الكنيسة الأرثوذكسية مزدهراً، لم تكن تمثل عودة إلى طهارة الماضي ونقائه، بل انسحاباً إلى الأعماق السحيقة للتصوف الذي تنطوي عليه الأرثوذكسية في تلك المرحلة.

(19) "Gentz to Müller, 19 April 1819"، في: المصدر نفسه.

الأغلب، وقَدِم الرومنطيقيون الألمان من بروسيا عموماً. وكانت "حركة أوكسفورد" في الثلاثينات من القرن التاسع عشر الظاهرة الأكثر قرباً من اهتمامات القارئ الأنغلوسكسوني. وعلى الرغم من طابعها البريطاني، فإن قلة من الشباب الغلاة المتحمسين الذين كانوا يعبرون عن روح هذه الجامعة المغمورة المغرقة في الرجعية قد انضموا إلى كنيسة روما، وأصبحوا، بصورة خاصة، من أنصار رجل الدين الموهوب ج. هـ. نيومان (J. H. Newman) (1801ـ1890). الباقون منهم صيغة للمصالحة بوصفهم "طقوسيين" داخل الكنيسة الأنغليكانية التي زعموا أنها هي الكنيسة الكاثوليكية الحقة. وقد أثار هؤلاء الفزع في نفوس رجال الكنيسة، صغاراً وكباراً، عندما زينوا أنفسهم برداء الكهنوت، واستخدموا البخور وما إلى ذلك من الأمور البغيضة التي كانت وقفاً على الكهنة الكاثوليك. وكان المتحولون الجدد يمثلون لغزاً لدى الكاثوليك النبلاء تقليدياً ولدى العائلات الوجيهة التي كانت تعتبر الدين إرثاً عائلياً، ولدى جماهير العمال المهاجرين الإيرلنديين الذين كانوا، بصورة متزايدة، يشكلون أغلبية الرعية في الكنيسة الكاثوليكية البريطانية. ولم يستقبل حماس هذه الجماعة النبيل بالتقدير في الفاتيكان لدى المؤولين الحريصين الواقعين في سلك الكهنوت. غير أن انتسابهم إلى العائلات الراقية، والاعتقاد بأن اعتناق الطبقات العليا للكاثوليكية قد يقنع الطبقات الدنيا بالتحول، جعلهم موضع ترحاب؛ لأن الكنيسة رأت في ذلك دليلاً يبعث على الاطمئنان إلى قدرتها على التجدد والغلبة.

غير أن طلائع الليبرالية كانوا يعملون عملهم حتى في إطار الدين المنظم، وعلى الأقل في فروعه الكاثوليكية، والبروتستانتية، واليهودية. وفيما يخص الكنيسة الكاثوليكية، كانت فرنسا هي الميدان الرئيسي لنشاطهم، وكان الزعيم الأبرز بينهم هو هيوغز ـ فيليسيتيه روربير دو لامينيه (Hugues-Felecité-Robert de Lamennais) (1782ـ1854) الذي تحول، بصورة متتابعة، من محافظ رومنطيقي، إلى ثوري يمجد الشعب، مما قربّه من الاشتراكية. وقد أحدث كتاب لامينيه **كلمات مؤمن**

(*Paroles d'un croyant*) ضجة في أوساط الحكومات التي لم تكن تتوقع أن تجيئها الطعنة من الخلف بسلاح الكاثوليكية التي كانت تعتبرها حصنها الحصين، كما كان الكتاب موضع إدانة في روما. غير أن الكاثوليكية الليبرالية عاشت في فرنسا التي كانت على الدوام تحتفي بالتيارات التي تختلف بعض الاختلاف عما تعتقده روما. وفي إيطاليا كذلك اجتذب التيار الثوري القوي في الثلاثينات والأربعينات من ذلك القرن عدداً من المفكرين الكاثوليك إلى دوامته. وكان منهم روزميني (Rosmini)، وكذلك جيوبرتي (Gioberti) (1801ـ1852) الذي دعا إلى إقامة إيطاليا ليبرالية تحت المظلة البابوية. وعلى الرغم من ذلك، كان الجسم الكَنَسي معادياً للنزعة الليبرالية بصورة عنيفة متزايدة.

وكان طبيعياً أن تكون مواقف الأقليات والطوائف البروتستانتية قريبةً جداً من الليبرالية، وفي السياسة في جميع الأحوال. وكان انضمام المرء إلى طائفة الهوغنو البروتستانتية في فرنسا يعني أنه سيكون ليبرالياً معتدلاً على الأقل (وكان غيزو، رئيس وزراء لويس فيليب، واحداً منهم). وكانت كنائس الدولة البروتستانتية، ومنها الأنغليكانية واللوثرية، محافظة من الوجهة السياسية. غير أن أيديولوجياتها كانت تبدي مقاومة أقل تجاه تأكل دراسات **الكتاب المقدس** والاستقصاءات العقلانية. أما اليهود فكانوا، بالطبع، معرضين للتيار الليبرالي بكامل قوته. فقد كانوا يدينون له بتحررهم السياسي والاجتماعي، وكان الاندماج الثقافي هو الغاية القصوى لليهود المتحررين، وتخلى الأكثر تطرفاً بين المتحضرين منهم عن دينهم القديم، وآثروا عليه الامتثال المسيحي أو المذهب اللاأدري، مثلما فعل والد كارل ماركس أو الشاعر هاينريش هايني (الذي اكتشف أن اليهود لا يَعْدُون كونهم يهوداً، في نظر العالم الخارجي على الأقل، لمجرد امتناعهم عن الذهاب إلى الكنيسة)، وقد طور الأقل تطرفاً منهم صيغة ليبرالية مخففة من اليهودية. أما حياة الغيتو التي تتحكم فيها **التوراة** و**التلمود**، فلم يطرأ عليها أي تغيُّر إلا في البلدات الصغيرة.

الفصل الثالث عشر

الأيديولوجيا: العَلْمانية

"(السيد بنثام) يحوّل الأداة الخشبية المنزلية إلى مخرطة، ويتوهم أن بوسعه أن يحول الناس بالطريقة نفسها. إنه ليس شغوفاً بالشعر، وليس بوسعه أن يستخلص عبرة ما من شكسبير (Shakespeare)، وهو يستخدم البخار لتدفئة بيته وإنارته. إنه واحد ممن يفضلون الاصطناعي على الطبيعي في أكثر الأمور، ويعتقدون بجبروت العقل. وهو يزدري ما يشاهده في الهواء الطلق، والحقول والأشجار الخضر، ويصر، دائماً، على إرجاع كل شيء إلى (المنفعة)".

وليام هازليت (W. Hazlitt)، **روح العصر** (*The Spirit of the Age*) (1825).

"إن الشيوعيين يكرهون أن يتستروا على مواقفهم وأهدافهم. وهم يصرحون علناً بأن أهدافهم لا يمكن أن تتحقق إلا عندما يطيحون، بالقوة، بالأوضاع القائمة. فلترتعد الطبقات الحاكمة خوفاً من ثورة شيوعية. فليس للبروليتاريا ما تخسره إلا أغلالها، وأمامها العالم لتكسبه. يا عمال العالم، اتحدوا!".

كارل ماركس وفريدريك إنغلز، **البيان الشيوعي** (*Manifesto of the Communist Party*) (1848).

I

من الوجهة الكمية، كانت الفترة الواقعة بين العامين 1789 و1848 حافلة بالمعلومات والدراسات المتصلة بالأيديولوجيا الدينية. أما من حيث النوعية، فإن الأيديولوجيا العلمانية تحتل مكان الصدارة. فقد استخدم جميع المفكرين المهمين في تلك الفترة، عدا بعض الاستثناءات، اللغة العلمانية. وسنناقش جانباً كبيراً من تفكيرهم ـ وما كان الناس العاديون يعتبرونه أمراً مفروغاً منه ـ في وقت لاحق، في الفصلين اللذين يدوران حول العلوم والآداب، وقد ناقشنا بعضه في وقت سابق. وسنركز هنا على الموضوعة الأساسية التي برزت في أعقاب الثورة المزدوجة، وهي طبيعة المجتمع، والسبيل الذي سيسلكه، والوجهة التي ينبغي أن يتخذها. وقد انقسم الرأي حول هذه القضية الأساسية بين من تقبلوا وجهة سير العالم كما هو ومن لم يتقبلوا. وبعبارة أخرى: بين من يؤمنون بالتقدم من جهة، والآخرين من جهة أخرى. لقد كانت هناك، بمعنى من المعاني، نظرة شاملة واحدة ذات أهمية، وعدد آخر من وجهات النظر التي كانت، على الرغم من جدارتها، مجرد تقييمات نقدية سلبية في جوهرها للنظرة المحورية. وتدور هذه النظرة، بمجملها، حول مسألة "التنوير" العقلاني الإنساني الذي ساد القرن الثامن عشر، وكان دعاته يؤمنون إيماناً راسخاً بأن التاريخ البشري يمثل حالة من التسامي، لا حالةً من الهبوط غير المتعرج الذي ينتهي إلى التسطّح، وكانوا محقين في ذلك؛ لقد لاحظوا أن معرفة الإنسان العلمية وسيطرته على الطبيعة تتزايدان بصورة مطردة يوماً بعد يوم. كما اعتقدوا أن المجتمع البشري والإنسان الفرد يمكن أن يبلغا درجة الكمال عن طريق إعمال العقل، وأن مسيرة التاريخ ستفضي إلى هذا المصير الكامل. وحول هذه النقاط تلاقت آراء الليبراليين البورجوازيين والاشتراكيين.

حتى العام 1789، كانت الصيغة الأقوى، الأكثر تقدماً لأيديولوجية التقدم هذه هي ما طرحته الليبرالية البورجوازية

الكلاسيكية. والواقع أن الدعائم الراسخة لنظامها الأساسي كانت قد أرسيت في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى حد قد يجعل الحديث عنها في هذا الكتاب من لزوم ما لا يلزم؛ لقد كانت فلسفة ضيقة، شفافة، مرهفة، لم تكن لتجد عناصرها الأنقى، كما نتوقع، إلا في بريطانيا وفرنسا.

كانت هذه الأيديولوجيا صارمة في عقلانيتها وعلْمانيتها؛ أي أنها كانت مقتنعة بأن بوسع البشر أن يفهموا كل شيء ويحلّوا كل المعضلات بإعمال العقل، وأن الجنوح إلى السلوك غير العقلاني والمؤسسات غير العقلانية (التي تتضمن النزعة التقليدية والدين كافة إلا ما كان عقلانياً منهما) من شأنه أن يؤدي إلى الإبهام بدلاً من الاستنارة. واتجهت، فلسفياً، إلى المادية والتجريبية كما يليق بأيديولوجية تستمد قوتها وأساليب عملها من العلم، وفي هذه الحالة، من الرياضيات والفيزياء اللتين طورتهما الثورة العلمية في القرن السابع عشر، وكانت افتراضاتها العامة عن العالم تتميز بشيوع الروح الفردية التي ترجع إلى استبطان أفراد الطبقة الوسطى أو إلى مراقبة سلوكهم أكثر مما تعود إلى أية مبادئ مسبقة من النوع الذي تزعم أنها ارتكزت عليه، وقد تمثلت في نوع من علم النفس، على الرغم من أن مصطلح "سيكولوجي" لم يكن قيد التداول عام 1789، ونهج هذا العلم، الذي كان يسمى "المدرسة الترابطية"، منهج علم الميكانيكا الذي كان قد تطور في القرن السابع عشر.

باختصار، كان العالم البشري بالنسبة لليبرالية الكلاسيكية يتألف من ذرّاتٍ فردية مكتفية ذاتياً، تساورها مشاعر ودوافع أصيلة، ويسعى كل منها إلى تعظيم ما يرضيه، واختصار ما يسوؤه، ويتساوى الفرد في ذلك مع الآخرين[1]. وهو، (بطبيعة الحال)، لا يعرف حدوداً لأهوائه

---

(1) دعا توماس هوبز (Thomas Hobbes) العظيم بقوة، ولأغراض عملية، إلى المساواة التامة بين جميع الأفراد في مختلف المجالات، باستثناء "العلوم".

ولا يتمتع بحق التدخل فيها. وبعبارة أخرى، فإن لكل إنسان (بطبيعة الحال)، الحق في الحياة، والحرية، والسعي للسعادة، على حد قول إعلان الاستقلال الأمريكي، على الرغم من أن أكثر المفكرين الليبراليين تعقلاً تحاشوا إيرادها باعتبارها "حقوقاً طبيعية". وخلال هذا المسعى لتحقيق المصلحة الذاتية، وجد كل واحد من الأفراد في فوضى المتنافسين المتساوين هذه أن من النافع، بل من الضروري، أن يقيموا علاقات معينة مع أفراد آخرين. وهذا المركَّب من الترتيبات النافعة ـ التي وجدت تعبيراً صريحاً عنها في المصطلح التجاري المسمى "العقد" ـ هو الذي كوّن المجتمع والجماعات الاجتماعية والسياسية. وقد تضمنت هذه الترتيبات والروابط بعض التقييد لحرية الإنسان الطبيعية اللامحدودة لفعل ما يشاء، وكان من مهمات النشاط السياسي أن يخفض هذا التدخل إلى حدوده الدنيا عملياً. وباستثناء الجماعات غير القابلة للاختزال مثل علاقات الوالدين بالأبناء، فإن "الإنسان" في الليبرالية الكلاسيكية (ورمزه الأدبي هو "روبنسون كروزو") كان حيواناً اجتماعياً؛ لأنه يتعايش معاً في جماعات كثيرة العدد. وبالتالي، كانت الأهداف الاجتماعية هي الحصيلة الحسابية لمجموع الأهداف الفردية، وكانت السعادة (وهي الكلمة التي عانى من حاولوا تعريفها أكثر مما عاناه من حاولوا تحقيقها) هي هدف الفرد الأسمى؛ وهدف المجتمع، ببساطة، هو أن تتحقق السعادة الكبرى للعدد الأكبر من الناس. وفي واقع الأمر، كانت "النفعية" البحتة التي اختزلت جميع العلاقات الإنسانية، بصراحة، إلى العناصر الأساسية التي أوضحناها، تقتصر على فلاسفة غير لبقين مثل العظيم توماس هوبز في القرن السابع عشر، أو على أبطال الطبقة الوسطى الواثقين، مثل مدرسة المفكرين والدعاة البريطانيين المرتبطين بأسماء جيريمي بنثام (1748ـ1832)، وجيمس مِلْ (1773ـ1836)، وعلاوة على هؤلاء، علماء الاقتصاد السياسي الكلاسيكي. ويعود ذلك إلى أنّ أيديولوجية تعتبر كل ما يخرج عن نطاق المنفعة المحسوبة بصورة عقلانية "هراء في هراء" (حسب تعبير بنثام)،

كان لا بد من أن تصطدم ببعض الغرائز العميقة الغور في سلوك الطبقة الوسطى الذي تحاول أن تنمّيه وتغذيه[2]. وكان ممكناً، على هذا الأساس، أن تقدم المصلحة العقلانية تبريراً كافياً لمزيد من التدخل في "الحرية الطبيعية" التي يتمتع بها الفرد ليفعل ما يشاء ويحتفظ بما يكسب أكثر بكثير من الحدود المقبولة (وقد أوضح توماس هوبز، الذي عكف النفعيون البريطانيون الغيورون على جمع أعماله ونشرها، أن هذه الحرية تحول دون فرض أية شروط مسبقة على سلطة الدولة. كما أن البنثاميّين أنفسهم بدأوا يعلون من شأن البيروقراطية في إدارة الدولة عندما أحسوا بأنها ستضمن أقصى درجة من السعادة لأكبر عدد من الناس مثلما ستفعل سياسة "دعه يعمل، دعه يمر"). من هنا، فإن من كانوا يسعون إلى حماية الملكية الفردية، والمبادرة، والحرية الفردية، كانوا غالباً ما يؤثرون أن يسبغوا عليها مباركة ميتافيزيقية باعتبارها "حقاً طبيعياً"، لا بإطلاق صفة "النفعية"، المعرّضة للاستهداف، عليها. وعلاوة على ذلك، فإن فلسفتهم تستبعد تماماً مفهومي الأخلاق والواجب باختزالهما الإحساس بنظام الأشياء الأبدي الراسخ في نفوس الفقراء الجاهلين الذين يعتمد عليهم الاستقرار الاجتماعي.

ولمثل هذه الأسباب، فإن النفعية لم تستطع أبداً احتكار أيديولوجية الطبقة الوسطى الليبرالية. فهي قدمت المعاول القوية الكافية لتدمير

---

(2) علينا أن لا نفترض أن "المصالح الخاصة" كانت تعني، بالضرورة، نوعاً من الأنانية المعادية للمجتمع. فقد رأى النفعيون ذوو النزعة الإنسانية والاجتماعية أن عناصر الاكتفاء التي يسعى الفرد إلى الحصول عليها وتعظيمها تتضمن، أو يجب مع التربية الصحيحة أن تتضمن، العنصر الخيري؛ أي الرغبة في مساعدة البشر الآخرين. ولم يكن ينظر إلى هذا البعد بوصفه واجباً أخلاقياً أو جانباً من جوانب الوجود الاجتماعي، بل اعتبر أمراً تستلزمه سعادة الفرد. ويقول دو هولباخ (Holbach) في كتابه **نظام الطبيعة** (*Système de la nature*) (الجزء الأول، ص 268): "المصلحة ليست أكثر من الأمر الذي يعتبره كل منا من ضرورات سعادته".

المؤسسات التقليدية التي لم تستطع الإجابة عن الأسئلة الظافرة من نوع: هل هذا الأمر عقلاني؟ هل هو نافع؟ هل سيحقق السعادة القصوى لأكبر عدد من البشر؟ إلا أنها لم تكن من القوة بحيث تتمكن من إشعال ثورة أو اتقائها. وهكذا ظل جون لوكْ (John Locke)، الواهن فلسفياً، لا توماس هوبز الجليل، هو وحده المفكر الأثير المدافع عن الليبرالية المبتذلة؛ لأنه، على الأقل، وضع الحرية الفردية خارج نطاق التدخل والهموم؛ لأنه اعتبرها هي الأكثر أهمية من جميع "الحقوق الطبيعية". ووجد الثوريون الفرنسيون أن الأفضل لهم أن يؤكدوا على المطالبة بالمشروع الاقتصادي الحر (لكل مواطن الحرية في استخدام جهده وطاقته ورأسماله بالطريقة التي يراها صالحة نافعة له... وله أن يشاء ما يشاء، وكيفما يشاء)[3]، وأن يعتبروه شكلاً من أشكال الحق الطبيعي العام في الحرية (إن ممارسة كل شخص لحقوقه الطبيعية لا حدود لها ما دام أنه يضمن لأعضاء المجتمع الآخرين أن يتمتعوا بالحقوق نفسها)[4].

وبالتالي، فإن الليبرالية الكلاسيكية، تخلت في تفكيرها السياسي، عن الجرأة والعنفوان اللذين جعلا منها قوة ثورية مؤثرة. غير أنها كانت أقل تزمتاً في تفكيرها الاقتصادي؛ ويعود ذلك في جانب منه، إلى أن ثقة الطبقة الوسطى بانتصار الرأسمالية كانت أكبر بكثير من ثقتها بتفوق البورجوازية السياسي على الحكم المطلق أو على الدهماء الجهلة، إضافة إلى أن الافتراضات الكلاسيكية عن الطبيعة البشرية وحالة الإنسان الطبيعية كانت، دونما شك، تتواءم وأوضاع السوق الخاصة أكثر بكثير مما تتواءم أوضاع البشرية عموماً. من هنا، فإن الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، بمساهمة من توماس هوبز، يمثل صرح الأيديولوجيا

---

(3) *Archives parlementaires de 1787-1860*, tome VIII, p. 429.
كانت تلك هي مسوَّدة الفقرة الرابعة من إعلان حقوق الإنسان والمواطن.

(4) إعلان حقوق الإنسان والمواطن 1798، الفقرة 4.

الليبرالية الأكثر نفوذاً من الوجهة الفكرية، وقد شهد عصره الذهبي قبل المرحلة التي يعالجها هذا الكتاب بقليل؛ ذلك أنه بدأ بنشر كتاب آدم سميث (1723ـ1790) **ثروة الأمم** (*Wealth of Nations*) عام 1776، وبلغ أَوْجَهُ بنشر كتاب ديفيد ريكاردو (1792ـ1823) **مبادئ الاقتصاد السياسي** (*Principles of Political Economy*) عام 1817، غير أن هذا الصرح الفكري بدأ بالانهيار أو التحول عام 1830. وعلى الرغم من ذلك، فإن نسخة مبتذلة منه بقيت تستهوي المزيد من الأتباع والأنصار في أوساط رجال الأعمال في تلك الفترة.

كانت الحجة الاجتماعية لاقتصاد آدم سميث السياسي تتسم بالأناقة والنزعة التطمينية. فصحيح أن البشر يتألفون، أساساً، من أفراد يتمتعون بالسيادة، وبكيان نفسي يسعى إلى تحقيق المصلحة الذاتية في بيئة ينافس فيها الواحد الآخر. غير أنه يمكننا أن نبين أن هذه الأنشطة، عندما يسمح لها بالانطلاق من عقالها دونما ضابط أو رابط، فإنها لن تكتفي بخلق نظام اجتماعي "طبيعي" (يتميز عن النظم المصطنعة التي فرضتها المصالح الذاتية الأرستقراطية، أو النزعة الظَّلامية، أو التطفل الجاهل)، بل ستؤدي أيضاً إلى نمو "ثروة الأمم" بأسرع وقت ممكن؛ أي أنها ستجسد الرخاء والرفاه، ومن ثَمّ السعادة لجميع الناس. والأساس الذي يقوم عليه هذا النظام الطبيعي هو التقسيم الاجتماعي للعمل. ويمكن "البرهنة"، علمياً، على أن وجود طبقة رأسمالية تمتلك وسائل الإنتاج سيجلب النفع للجميع، بمن فيهم طبقة العمال الذين يؤجرون أنفسهم للرأسماليين. ويمكن كذلك البرهنة، علمياً، على أن من مصلحة كل من بريطانيا وجمايكا كلتيهما أن تقوم الواحدة بصنع البضائع بينما تكتفي الأخرى بإنتاج السكر الخام؛ ذلك أن ثروة الأمم إنما تنامت من خلال المشروعات الخاصة القائمة على التملك وتراكم رأس المال. ويمكن البرهنة أيضاً على أن أية وسيلة أخرى لتأمين الثروة لا بد من أن تصيبها بالتعثر، والإبطاء، إن لم يكن الخمود. وعلاوة على ذلك، فإن المجتمع غير المتكافئ من الوجهة الاقتصادية، الذي نجم على

نحو لا مناص منه عن أنشطة الطبيعة البشرية، لم يكن ينسجم والمساواة الطبيعية بين الناس ولا يتفق وروح العدالة. ومن شأن هذه الثروة أن تؤمن حتى لأفقر الفقراء حياة أفضل مما كانوا يحلمون به. كما أنها كانت تقوم على أكثر العلاقات تكافؤاً ومساواة، وهي تبادل الأشياء بما يعادلها في السوق. وعلى حد تعبير أحد الدارسين المحدثين: "لم يكن ثمة أحد يعتمد على صدقة الآخرين؛ لأن المرء يستبدل كل ما يحصل من شخص آخر، بشيء يعادله. يضاف إلى ذلك أن النشاط الحر للقوى الطبيعية سيدمر جميع المواقع التي لم تكن تقوم على الإسهام في خدمة المصلحة العامة"[5].

وعلى هذا الأساس، كان التقدم يعتبر أمراً "طبيعياً"، مثل الرأسمالية. والمطلوب هو إزالة العراقيل التي وضعت في الماضي ليتحقق التقدم ويواصل مسيرته إلى الأمام لا محالة. وكان واضحاً أن تقدم الإنتاج كان يواكبه تقدم مماثل في الآداب والعلوم والمدنيّة كلها بصورة عامة. وعلينا أن لا نفترض أن من اتخذوا هذه المواقف كانوا يدافعون بصورة خاصة عن المصالح الذاتية لرجال الأعمال. فقد كانوا يعتقدون أن طريق البشرية إلى المستقبل كان من خلال الرأسمالية، وكان بوسعهم أن يجدوا مبررات تاريخية في تلك الفترة لاعتقادهم هذا.

إن موطن القوة في وجهة النظر الضحلة تلك (التي تحاكي في ضحالتها مواقف المعلم بانغلوس في رواية فولتير: **كانديد**) لم يكن يكمن فقط في ما كان يُعتقد أنه قدرتها الفائقة على إثبات نظرياتها الاقتصادية بالاستدلال العقلي، بل في التقدم الجليّ الذي حققته كل من الرأسمالية والمدنية في القرن الثامن عشر. وقد بدأ العطب يصيب وجهة النظر هذه، لا لمجرد أن ريكاردو اكتشف في هذا النظام تناقضات غفل عنها آدم سميث، بل لأن النتائج الاقتصادية والاجتماعية الفعلية للرأسمالية لم تكن على مستوى التوقعات.

---

(5) Eric Roll, *A History of Economic Thought* ([n. p: n. pb., 1948]), p. 155.

لقد كان الاقتصاد السياسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر علماً "قاتماً"، لا علماً وردياً. وكان يمكن، بطبيعة الحال، الاعتقاد بأن بؤس الفقراء الذين كتب عليهم أن يظلوا على الدوام على شفا المجاعة مثلما رأى مالتوس في **مقالة عن السكان** (*Essay on Population*) عام 1798، أو كانوا من ضحايا استقدام الآلات إلى المصانع كما رأى ريكاردو[6]، كان هو السبب في القدر الأعظم من السعادة للعدد الأكبر من الناس، غير أن هذه المستويات والأعداد كانت أقل بكثير مما كان مؤملاً. إلا أن مثل هذه الحقائق، وكذلك الصعوبات الواضحة التي كان يواجهها التوسع الرأسمالي في الفترة بين العام 1810 والأربعينات من ذلك القرن، وقد أسهمت في تضاؤل التفاؤل، وحفزت على الاستقصاء النقدي، ولا سيما في دراسة "التوزيع" مقابل الإنتاج، وهو ما كان الشاغل الرئيسي للجيل المعاصر لآدم سميث.

إن اقتصاد ديفيد ريكاردو السياسي، وهو من الروائع في الاستدلال المنطقي الصارم، استحدث، من ثمَّ، عناصر معتبرة في السجال حول التناغم الطبيعي الذي شغل به من سبقوه من الاقتصاديين. بل إنه أكّد، أكثر بكثير مما فعله آدم سميث، على عدد من العوامل التي يتوقع أن توقف عجلة التقدم الاقتصادي عندما ركز على المكونات التي تحرك هذه العجلة، مثل ميل معدلات الربح إلى التناقص. والأهم من ذلك، أنه طرح نظرية العمل العامة حول القيمة، وهي التي لم يكن ينقصها إلا لمسة واحدة لتتحول إلى حجة قوية ضد الرأسمالية. وعلى الرغم من ذلك، فإن قدرته الفنية الفائقة، مفكراً، ومساندته الحارة للأهداف العملية التي نادى بها رجال الأعمال البريطانيون، مثل التجارة الحرة والعداء ضد الملاّك، ساعدت على احتلال الاقتصاد

(6) "إن الرأي الذي يحمله أفراد الطبقة العاملة، بأن استخدام الآلات كثيراً ما يعرقل مصالحهم، لا يقوم على التحيز أو الخطأ، بل إنه ينسجم والمبادئ الصحيحة للاقتصاد السياسي". انظر: *Principles*, p. 383.

السياسي الكلاسيكي موقعاً أكثر تميزاً مما كان عليه في الأيديولوجيا الليبرالية. وكانت طلائع المصلحين من الطبقة الوسطى فيما بعد المرحلة النابليونية مسلحين، لأغراض عملية، بمزيج من النفعية البنثامية والاقتصاد الريكاردي. وقد أدت إنجازات سميث وريكاردو الضخمة، بمساندة من أساطين الصناعة والتجارة البريطانيين، إلى تحويل الاقتصاد السياسي إلى علم بريطاني أساساً، وتقليص أدوار الاقتصاديين الفرنسيين (الذين شاركوا في ريادة هذا المجال في القرن الثامن عشر) ووضعها في مرتبة تمهيدية أو مسانِدة، وحولوا الاقتصاديين غير الكلاسيكيين إلى جماعة متناثرة من القناصة. وعلاوة على ذلك، فقد جعلوا من الاقتصاد السياسي رمزاً جوهرياً لتقدم الليبرالية. وأسست البرازيل كرسياً حول هذا المبحث احتله أحد مُريدي آدم سميث، هو ج. ب. ساي (J. B. Say)، والنفعي الفوضوي وليام غودوين (William Godwin). ولم تكد الأرجنتين تحقق الاستقلال، حتى بدأ في جامعة بيونس آيريس الجديدة تدريس الاقتصاد السياسي عام 1823 اعتماداً على أعمال ريكاردو وجيمس مِلْ التي كانت قد ترجمت قبيل ذلك. ولكن كوبا سبقت غيرها عندما أسست أول كرسي للتدريس الجامعي حول هذا الموضوع عام 1818. ومع أن السلوك الاقتصادي الفعلي للجماعات الحاكمة في أمريكا اللاتينية قد أثار الفزع في أوساط التمويل والاقتصاد في أوروبا، فإن ذلك لم يغير مسارهم قيد شعرة عن النهج الاقتصادي الذي اتبعوه.

وفي السياسة، لم تكن الأيديولوجيا الليبرالية، كما رأينا، تتسم بالتماسك أو الانسجام. فقد ظلت، من الناحية النظرية، موزعة بين المدرسة النفعية من جهة، وتنويعات معدلة على المذاهب القديمة التي تدور حول محاور القانون الطبيعي والحق الطبيعي، مع غلبة التيار الثاني من جهة أخرى. كما ظلت تتنازع برامجها العملية الاتجاهات التي تتراوح بين الإيمان بالحكومة الشعبية؛ أي حكم الأغلبية الذي كان يدعمه المنطق (ويرى أن ما كلّل الثورات بالنجاح لم يكن حجة الطبقة

الوسطى، بل حشد الجماهير[7] من جهة، والإيمان الأكثر شيوعاً بحكم تتولاه نخب الملاّك؛ أي بين النزعتين الراديكالية والمحافظة حسب الاصطلاح البريطاني، لأنه إذا كانت الحكومات تتمتع بدعم الناس، وإذا كانت الأغلبية هي التي تتولى الحكم بالفعل (أي عندما تتم التضحية لمصلحتها بمصالح الأقلية، وذلك، حتمي من الوجهة المنطقية)، فهل سيكون ممكناً الاتكال على الأغلبية الفعلية، وهي "الطبقات الأفقر والأكثر عدداً"[8] في حماية الحرية، والقيام بما يمليه العقل، وهو، كما كان واضحاً، مطابق لبرنامج الليبرالية من الطبقة الوسطى؟

وبهذا الصدد، كان السبب الأساسي للفزع قبل الثورة الفرنسية هو الجهل والشعوذة الشائعان في أوساط الكادحين الفقراء الذين كانوا، في أغلب الأحيان، أداة طيعة في أيدي الكهنة والملك. واستحدثت الثورة نفسها خطراً إضافياً هو البرنامج اليساري المعادي للرأسمالية، وذلك ما تجلى ضمناً (أو علانية كما يرى البعض) في بعض جوانب دكتاتورية اليعاقبة. وكان المحافظون المعتدلون في الخارج قد تلمسوا هذا الخطر بصورة مبكرة؛ فقد تراجع إدموند بيرك (Edmund Burke)، الذي سلك، في نشاطه السياسي، نهج آدم سميث في أيديولوجيّته الاقتصادية[9]، فتبنى الإيمان غير العقلاني بفضائل التقاليد،

---

(7) كان من نتائج سقوط الباستيل أن كوندورسيه (Condorcet) (1743 ـ 1794)، الذي تعتبر أفكاره خميرة للتوجهات البورجوازية المستنيرة، تحول عن اعتقاده بحق التصويت المحدود إلى الإيمان بالديمقراطية، مع ضرورة توفر ضمانات قوية لحماية الأفراد والجماعات.

(8) Jean - Antoine Nicolas de Caritat Condorcet, *Oeuvres de Condorcet* (1804), [vol. XVIII], p. 412, and R. R. Palmer, *Age of Democratic Revolution: A Political History of Europe and America, 1760-1800* (Princeton: Princeton University Press, 1959), vol. 1: *The Challenge*, pp. 13-20:

يرى بالمر (Palmer)، بصورة غير مقنعة، أن الليبرالية كانت آنذاك ذات طابع "ديمقراطي" أكثر وضوحاً مما تبدو عليه الآن.

(9) C. B. Macpherson, "Edmund Burke," *Transactions of the Royal Society of Canada = Mémoires de la société royale du Canada*, 3rd. Series, Sect. 2, vol. LIII (1959), pp. 19-26.

والاستمرارية، والتقدم العضوي البطيء، الذي أصبح منذئذٍ الإطار النظري للنزعة المحافظة. ولقد عدل الليبراليون العمليون في القارة الأوروبية عن الديمقراطية السياسية إلى ملكية دستورية تقوم على حق الانتخاب للملاّك، أو، باختصار، إلى حكم مطلق يضمن لهم مصالحهم. وبعد العامين 1793 و1794، لم يكن ثمة من يشارك جيمس مِلْ الرأي في الوثوق بالقدرة الذاتية على الاحتفاظ بمساندة الكادحين الفقراء على الدوام، حتى في جمهورية ديمقراطية، غير جماعة من الساخطين المتطرفين، أو من البورجوازيين الواثقين في أنفسهم كل الثقة.

وفي أعقاب الفترة النابليونية، أسهمت مظاهر السخط الاجتماعي، والحركات الثورية، والأيديولوجيات الاشتراكية في تفاقم هذا المأزق، وزادته ثورة عام 1830 حِدّةً. وبدا أن الليبرالية والديمقراطية قد تحولتا إلى خصمين لا إلى حليفين، وأصبح شعار الثورة الفرنسية الثلاثي المتمثل في الحرية والمساواة والإخاء، تعبيراً عن التناقض لا التآلف. وتبدى ذلك بطبيعة الحال في أجلى صوره في موطن الثورة نفسه، في فرنسا. إن أليكسيس دو توكفيل (1805ـ1859)، الذي كرس ذكاءه الحاد المشهود لتحليل النزعات الأصلية في الديمقراطية الأمريكية (1835) ثم في الثورة الفرنسية فيما بعد، قد حافظ على نفسه بين النقاد الليبراليين المعتدلين في تلك المرحلة، بل إن أفكاره برهنت عن تجانسها مع موقف الليبراليين المعتدلين في العالم الغربي منذ العام 1945. وربما يعود ذلك بالطبع إلى مقولته: "منذ القرن الثامن عشر، نبع نهران، كأنهما من نبع واحد. ينقل الأول منهما الناس إلى المؤسسات الحرة، والآخر إلى السلطة المطلقة"[10]. وفي بريطانيا أيضاً، نلمس مفارقة جلية بين الثقة البالغة التي أولاها جيمس مِلْ للديمقراطية التي تتزعمها البورجوازية من جهة، والقلق الذي أعرب عنه ابنه جون ستيوارت مِلْ

---

(10) J. L. Talmon, *Political Messianism: The Romantic Phase*, Books that Matter (New York: Praeger, 1960), p. 323.

(1806ـ1873) بشأن حماية حقوق الأقليات قبالة الأغلبيات؛ وذلك هو الأمر الذي شغل ذلك المفكر السخي المهموم في كتابه **حول الحرية** (***On*** *Liberty*) (1859).

II

فيما كانت الأيديولوجيا الليبرالية تفقد عنفوانها الأصلي الواثق ـ إلى حد جعل بعض الليبراليين يشككون بحتمية التقدم أو حتى بضرورته ـ بدأت أيديولوجية جديدة، هي الاشتراكية، بالأسس التي قامت عليها وهي: إعادة العقل والعلم والتقدم. وما كان يميّز الاشتراكيين في تلك الفترة عن دعاة المجتمع الكامل الذي تسوده الملكية المشتركة، والذي يظهر مرة بعد أخرى في أدبيات التاريخ المسجل، هو القبول من دون تحفظ بالثورة الصناعية التي مهدت لاحتمال بروز الاشتراكية الحديثة. وكان الكونت كلود دو سان سيمون (1760ـ1825)، على الرغم من أن أفكاره تحتل منزلة أكثر غموضاً، الداعية الطليعي الأول لـِ "الصناعتية" و"الصناعيين" (وهو الذي نحت هذين المصطلحين بالفرنسية). وأصبح تلاميذه اشتراكيين، وخبراء فنيين مغامرين، وممولين وصناعيين، أو كليهما على التوالي. وهكذا احتلت السان سيمونية مكانة غريبة في تاريخ كل من تطور الرأسمالية ومعاداة الرأسمالية على حد سواء. وكان روبرت أوين (1771ـ1858) في بريطانيا رائداً ناجحاً كل النجاح في صناعة القطن، واستمد ثقته بإمكانية قيام مجتمع أفضل لا من إيمانه الراسخ باحتمال تحقق الكمال الإنساني فحسب، بل أيضاً من الشواهد القائمة آنذاك على خلق مجتمع الوفرة المحتمل جراء الثورة الصناعية. وكان فريدريك إنغلز من المشاركين في تصنيع القطن، وإن كان ذلك على مضض. ولم يكن أحد من الاشتراكيين الجدد راغباً في إرجاع ساعة التطور الاجتماعي إلى الوراء، مع أن كثيراً من أتباعهم كانوا يريدون ذلك. بل إن شارل فورييه (1772ـ1837)، وهو الأقل حماسةً تجاه النزعة الصناعتية بين الآباء المؤسسين للاشتراكية، كان يرى أن الحل يكمن بعد الثورة الصناعية لا قبلها.

إضافةً إلى ذلك، فإن حجج الليبرالية الكلاسيكية كانت ستستخدم، وقد استخدمت بالفعل، ضد المجتمع الرأسمالي الذي أسهمت في بنائه. لقد كانت السعادة، على حد تعبير سان ـ جوست، "فكرة جديدة في أوروبا"[11]؛ إلا أنه كان من السهل أن نلاحظ أن السعادة العظمى للعدد الأكبر من الناس لم تكن ستتحقق للكادحين الفقراء. ولم يكن صعباً وضع خط فاصل بين السعي للسعادة من جهة، وافتراضات الفردية الأنانية من جهة أخرى. وذلك ما فعله وليام غودوين، وروبرت أوين، وتوماس هودْغسكن (Thomas Hodgskin)، والمعجبون الآخرون ببنثام. ويرى أوين أن "الهدف الأولي الضروري للحياة كلها هو السعادة. غير أنه لا يمكن أن تتحقق السعادة بصورة فردية؛ ومن العبث أن نتوقع سعادة معزولة. وإذا لم يكن منها نصيب للجميع، فلن تتمتع بها القلة على الإطلاق"[12].

وبعبارة أدق، كان ممكناً أن يقف الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، بصيغته الريكاردية، ضد الرأسمالية؛ وذلك ما دفع اقتصاديي الطبقة الوسطى بعد العام 1830 إلى أن ينظروا إلى ريكاردو بفزع، بل أن يعتبروه، هو والأمريكي كاري (Carey) (1793ـ1879)، مصدراً من المصادر التي يستلهمها المشاغبون والمخربون في المجتمع. فإذا كان العمل، كما يرى الاقتصاد السياسي، هو منبع القيم جميعها، فلماذا يعيش منتجو العمل على حافة هوّة البؤس؟ ويكمن السبب، كما أوضح ريكاردو، مع أنه لم يكن راغباً في استخلاص النتائج من نظريته، في

(11) تقرير عن الإجراءات الخاصة بتنفيذ المرسوم الصادر في السنة الثانية في الثامن من شهر فنتوز [الشهر السادس في التقويم الجمهوري]، انظر: Louis-Antoine-Léon Saint-Just, *Oeuvres complètes de Saint-Just*, 2 vols., l'élite de la révolution; 1, avec une introd. et des notes par Charles Vellay (Paris: E. Fasquelle, 1908), vol. II: *Rapports et écrits divers (mai 1793-thermidor an II)*, p. 248.

(12) [Robert Owen], *The Book of the New Moral World*, pt. IV, p. 54.

أن الرأسماليين استحوذوا، على هيئة فائدة، على الفائض الذي أنتجه العامل، بالإضافة إلى ما يتلقاه من أجر (ولم يكن لتملك مالكي الأرض جانباً من هذا الفائض آثار مهمة على هذا الوضع). لقد كان الرأسماليون، في واقع الأمر، يستغلون العمال. ويستوجب الأمر الآن التخلص من الرأسماليين والقضاء على الاستغلال. وسرعان ما برزت جماعة من "اقتصاديي العمل" الريكارديين في بريطانيا، وعكفت على تحليل الدروس المستفادة وتبيانها.

وإذا كانت الرأسمالية قد حققت، بالفعل، ما كان متوقعاً منها في أيام الاقتصاد السياسي المتفائلة، فإن أوجه النقد هذه لم تكن لتجد صدى لها. وخلافاً لما يُفترض في كثير من الأحيان، فإن "الثورات المدويّة" لا تندلع في أوساط الفقراء إلا لَماماً. إلا أن ظروفاً في غاية الصعوبة استجدّت جراء تضافر الكساد، وتناقص الأجور النقدية، والبطالة الناجمة عن الاستخدام المكثف للتقانة، وتعاظم الشكوك في مستقبل التوسع الاقتصادي[13]. وقد تبلورت هذه الظواهر كلها خلال المرحلة التكوينية للاشتراكية؛ أي في الفترة الواقعة بين نشر روبرت أوين كتابه: **نظرة جديدة للمجتمع** (1813-1814)[14]، وإعلان البيان الشيوعي (1848). ولذلك أصبح بوسع النقاد أن يركزوا اهتمامهم على عيوب النشاط الاقتصادي، وعلى "تناقضاته الداخلية"، بدلاً من الحديث عن افتقاره إلى العدل والإنصاف. وراحت الأبصار التي زادها النفور حِدةً تتلمس التقلبات الدورية الأصيلة، أو "الأزمات" التي

---

(13) إن كلمة "الاشتراكية" نفسها من الألفاظ التي نُحتت في العشرينات من القرن التاسع عشر.

(14) Robert Owen, *New View of Society: Or, Essays on the Principle of the Formation of the Human Character, and the Application of the Principle to Practice*, Essay Second by One of His Majesty's Justices of Peace for the County of Lanark (London: [n. pb.], 1813).

تنطوي عليها الرأسمالية (وذلك ما أوضحته أعمال سيسموندي (Sismondi)، وويد (Wade)، وإنغلز). وقد فات أنصار الرأسمالية أن يستبينوا ما فيها من تناقضات، بل إن "قانوناً" يرتبط باسم ج. ب. ساي (1767ـ1832) أنكر احتمال وجودها أصلاً. وقد أدرك هؤلاء أن توزيع الدخل القومي الذي يفتقر بصورة متزايدة إلى الإنصاف في تلك الفترة (حيث يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقراً) لم يكن من قبيل المصادفة، بل كان واحداً من نتائج تشغيل هذا النظام. ومجمل القول إنهم استطاعوا أن يبينوا أن الرأسمالية لم تكن تنطوي على الظلم فحسب، بل إنها كانت كذلك تعمل بصورة سيئة وتؤدي، من ثَمَّ، إلى توليد نتائج عكسية مخالفة لما تكهن به مناصروها.

كان الاشتراكيون الجدد، حتى ذلك الحين، يقتصرون على تبيان وجهة نظرهم بعرض الحجج التي استخدمتها الليبرالية الفرنسية ـ البريطانية الكلاسيكية بما يتجاوز حدود ما يقبل به الليبراليون البورجوازيون. كما أن المجتمع الجديد الذي دعوا إلى إقامته لم يكن يختلف عن النموذج التقليدي الذي تصوره الليبراليون الإنسانيون. لقد كان المجتمع المثالي الذي طمح إلى إقامته الليبراليون والاشتراكيون على السواء عالماً يتمتع الجميع فيه بالسعادة، ويحقق فيه الفرد بحرية كامل طاقاته المضمرة، وتسوده الحرية، ويغيب عنه الحكم الذي يقوم على الإرغام. ولم يكن مختلف أعضاء العائلة الأيديولوجية المتحررة من المدرسة الإنسانية وعصر التنوير، ولا الليبراليون، والاشتراكيون، والشيوعيون، يختلفون عن الفوضوية اللطيفة التي كانت بمثابة مجتمع طوباوي لهم جميعاً، بل إن ما كانوا يمتازون به هو الوسائل الواجب استخدامها لتحقيق ذلك. وعند هذا الحد، شقت الاشتراكية لنفسها طريقاً مختلفاً عن التقاليد الليبرالية الكلاسيكية.

لقد رفضت الاشتراكية، بادئ ذي بدء، بصورة جذرية، التصور الليبرالي للمجتمع بوصفه مجرد تجمع أو ترابط بين ذراته المفردة، تمثل

المصالح الذاتية والمنافسة القوة الدافعة فيه. وعلى هذا الأساس، يعود الاشتراكيون إلى المبدأ الأعرق في تقاليد الأيديولوجيات البشرية، وهو أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، وأن الناس يعيشون معاً، ويساعد بعضهم بعضاً، والمجتمع ليس انتقاصاً ضرورياً، مؤسفاً، من حق الإنسان الطبيعي غير المحدود في أن يفعل ما يشاء، بل هو حاضن حياته، وسعادته، وفرديته. وقد فوجئوا بفكرة آدم سميث القائلة إن تبادل الأشياء في السوق سيجلب العدالة الاجتماعية، ورأوا أن هذا الرأي إما أن يكون غير مفهوم أو غير أخلاقي. وقد شاركهم هذا الرأي أغلب الناس العاديين، حتى ولو لم يكونوا قادرين على التعبير عنه. كما أن عدداً كبيراً من نقاد الرأسمالية وقفوا ضد هذا الاتجاه الذي يجرد المجتمع البورجوازي من الإنسانية (ويعبر مصطلح "الاستلاب" الذي استخدمه الهيغليّون وماركس الشاب، عن المفهوم القديم للمجتمع بوصفه "سكن" الإنسان، لا مجرد موضع تتلاقى فيه أنشطة أفراد لا رابطة بينهم). وأنحى هؤلاء النقاد باللوم على كامل مسيرة المدنية، والنزعة العقلانية، والعلم، والتقانة. أما الاشتراكيون الجدد، فإنهم، خلافاً للثوريين القدامى مثل الشاعر وليام بليك، وجان جاك روسو، حرصوا على تحاشي ذلك. إلا أنهم لم يكتفوا بتبني النموذج التقليدي للمجتمع بوصفه سكن الإنسان، بل جمعهم الاعتقاد القديم بأن الناس عاشوا في وئام قبل ظهور مجتمع الطبقات والملكية؛ وذلك هو المفهوم الذي عبر عنه روسو بالإعلاء من شأن الإنسان البدائي، والكتاب الراديكاليون الأقل تقدماً بترويج أسطورة الناس الذين كانوا يعيشون إخواناً وأحراراً إلى أن تعرضوا للغزو من جانب حكام غرباء، مثلما حدث للسكسونيين على يد النورمانديين، والغاليين على يد التيوتونيين. وفي ذلك يقول فورييه: "على العبقرية أن تعيد اكتشاف السبل المفضية إلى هذه السعادة البدائية، وتكيّفها مع أوضاع الصناعة الحديثة"[15].

(15) Talmon, *Political Messianism: The Romantic Phase*, p. 127.

ولقد امتدت الشيوعية البدائية عبر القرون والمحيطات لتقدم نموذجاً لشيوعية المستقبل.

من جهة أخرى، تبنت الاشتراكية حجةً لم تشدد تقاليد الليبرالية الكلاسيكية التأكيد عليها، هذا إذا كانت تأبه لها أساساً، ألا وهي البعد التطوري التاريخي. فقد كانت مشروعات الليبرالية الكلاسيكية، بل وأوائل الاشتراكيين الحديثين، طبيعية عقلانية، مغايرة للمجتمع اللاعقلاني المصطنع الذي فرضه الجهل والطغيان آنذاك على العالم. والآن، وبعد أن بين تقدم التنوير للناس ماهية العقلانية، لم يبق إلا اكتساح العراقيل التي منعت المنطق السليم من المضي قدماً إلى الأمام. والواقع أن الاشتراكيين "الطوباويين" (ومنهم السان سيمونيون، وأوين، وفورييه، وغيرهم)، كانوا مقتنعين اقتناعاً راسخاً بأنهم ما إن يعلنوا الحقيقة حتى يسارع الناس المتعلمون الحصيفون إلى تبنيها، وأنهم قصروا جهودهم ومساعيهم لتحقيق الاشتراكية أول الأمر على النشاط الدعائي الترويجي الموجه، في المقام الأول، إلى الطبقات ذات النفوذ. وكان العمال الذين سينتفعون، ولا شك، أكثر من غيرهم، غارقين في الجهل والتخلف مع الأسف. ومن ثم انصبت جهودهم على إقامة تجمعات اشتراكية ريادية، هي المستعمرات الشيوعية والمشروعات التعاونية الواقعة في أراضي أمريكا الواسعة الخالية التي لم تكن تعاني من تقاليد التخلف التاريخي التي تعوق التقدم البشري. وكانت مستعمرة أوين، المسماة "الانسجام الجديد" في ولاية إنديانا. وانتشرت في الولايات المتحدة أربع وثلاثون من "كتائب" فورييه، سواء منها المولود محلياً أم المستورد، وأعداد كبيرة أخرى من المستعمرات التي أقيمت بوحي من المسيحي الشيوعي كابيه وآخرين. أما السان سيمونيون، الذين لم يكونوا ميالين إلى إجراء التجارب الجماعية، فقد واصلوا البحث عن طاغية مستنير لتنفيذ مقترحاتهم، وظنوا ذات مرة أنهم وجدوه في شخصية بعيدة المنال هي محمد علي، والي مصر.

كان ثمة عنصر تطّوري تاريخي في هذه الدعوة الكلاسيكية العقلانية لإقامة المجتمع الصالح؛ لأن أية أيديولوجية للتقدم لا بد من أن تنطوي على بعد تطوري، وربما على تطور حتمي خلال مراحل من النمو التاريخي. وظل الأمر كذلك إلى أن حول كارل ماركس (1818ـ1883) مركز الثقل في الدعوة الاشتراكية من كونها مسعى عقلانياً مرغوباً فيه إلى ضرورتها باعتبارها حتمية تاريخية. وبذلك حصلت الاشتراكية على أكثر الأسلحة الفكرية سطوة، وما زالت المساجلات قائمة حتى الآن دفاعاً عنه. وقد استقصى ماركس حُجّته هذه من خليط من تقاليد الأيديولوجيا الفرنسية ـ البريطانية والألمانية (الاقتصاد السياسي الانجليزي، والاشتراكية الفرنسية، والفلسفة الألمانية). وبالنسبة لماركس، كان من المحتم على المجتمع البشري أن يقسم الشيوعية البدائية إلى طبقات، ثم تطور بصورة حتمية أيضاً إلى سلسلة متتابعة من المجتمعات الطبقية التي كانت، على الرغم مما انطوى عليه كل منها من أوجه الظلم، "تقدمية" في زمانها، وشهد كل منها "التناقضات الداخلية" التي أعاقت، في وقت ما، تحقيق المزيد من التقدم وولَّدت القوى التي ستَجُبُّها وتحل مكانها، وكانت الرأسمالية آخر تلك المجتمعات. لكن ماركس، بدلاً من أن يهاجمها، استخدم كل بلاغته المدوية في الإشادة بها وإكبار منجزاتها التاريخية. غير أن بوسع الاقتصاد السياسي أن يبين أن في الرأسمالية تناقضاتٍ داخلية تجعلها في مرحلة ما لا محالة عقبة تقف في وجه التقدم، وتدخلها في أزمة مستعصية لا تستطيع الخروج منها. وعلاوة على ذلك، فإن الرأسمالية (كما يوضح لنا الاقتصاد السياسي)، قد أفرزت من سيحفرون قبرها، وهم البروليتاريا الذين لا بد من أن تتزايد أعدادهم ويتعاظم سخطهم، بينما سيجعلها تركّز القوة الاقتصادية في أيدي قلة من الناس أكثر تعرضاً للسقوط. إلا أنه يمكن أيضاً إثبات أن النظام الاجتماعي الذي يتفق ومصالح الطبقة العاملة هو الاشتراكية أو الشيوعية. ومثلما انتصرت الرأسمالية وسادت، لا لأنها أكثر عقلانية من الإقطاع فحسب، بل بسبب القوة

الاجتماعية للبورجوازية، فسوف تسود الاشتراكية لا محالة بسبب انتصار العمال. ومن الحمق الاعتقاد بأنها كانت ستكون النموذج المثالي الأبدي لو حققها الناس وكانوا على قدر كافٍ من الذكاء أيام لويس السادس عشر. فقد كانت الاشتراكية وليدة الرأسمالية، ولم يكن تشكيلها ممكناً بطريقة ملائمة قبل أن يصيب التحول المجتمع الذي خلق الشروط اللازمة لقيامها. ولكن النصر كان مؤكداً لها فور توفر هذه الشروط، "لأن البشر يرسمون لأنفسهم المهمات التي يستطيعون أداءها فحسب"[16].

III

بالمقارنة مع أيديولوجيات التقدم المتماسكة نسبياً، فإن تلك التي تقف موقف المقاومة في وجه التقدم قد لا تستحق أن توصف بأنها نظام فكري. فهي لم تكن، في الواقع، أكثر من مجموعة من التوجهات التي تفتقر إلى منهجية فكرية مشتركة، وتعتمد على إدراكها الحاد لمواطن الضعف في المجتمع البورجوازي، وعلى اعتقادها الجازم أن آفاق الحياة أوسع مما تسمح به الليبرالية. من هنا، فإنها لا تستحق إلا قليلاً من الاهتمام.

يستند نقد مناهضي الليبرالية، في أساسه، إلى اعتقادهم بأنها دمرت النظام الاجتماعي أو مفهوم الجماعة التي كان البشر، حتى ذلك الحين، يعتبرونها جوهر الحياة، واستبدلتها بفوضى لا تطاق يتناحر فيها الناس جميعاً فيما بينهم ("كل إنسان ومصلحته، وليذهب المتخلفون إلى الجحيم")، فيما جردت السوق من طابعها الإنساني. وعند هذه النقطة تلاقت آراء المحافظين والثوريين المناهضين للتقدم، وحتى الاشتراكيين. وتجلى لقاء المواقف هذا بأوضح صوره لدى الرومنطيقيين[17]، وأطلق

(16) Karl Marx, *Preface to the Critique of Political Economy.*

(17) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

عليه خليط من النعوت الغريبة مثل "ديمقراطية المحافظين"، و"الاشتراكية الإقطاعية". وكان المحافظون ميالين إلى اعتبار كل نظام تهدده الثورة المزدوجة، أو أية حالة معينة من الماضي، مثل إقطاع القرون الوسطى، هو النموذج المثال، أو القريب من المثال للنظام الاجتماعي المنشود؛ لأن مطامح الأثرياء الاجتماعية تظل أكثر تواضعاً من تطلعات الفقراء. كما أكد هؤلاء، بالطبع، على عنصر "النظام" في الأنساق السياسية؛ لأنه هو وحده الذي يحمي من يحتلون المراتب العليا في الهرم الاجتماعي ضد من يشغلون المراتب الدنيا. أما الثوريون، فكانوا، كما رأينا، يتوقون إلى عهود ذهبية بعيدة ماضية كان الناس ينعمون فيها بالخير، لأن المجتمعات الراهنة لا تلبي احتياجات الفقراء. كذلك شدد الثوريون على ما كان يسود المجتمعات الماضية من روح التعاون المتبادل والشعور بالتضامن الجماعي أكثر مما ركزوا على عنصر "النظام" فيها.

وعلى الرغم من ذلك، اتفق الطرفان على أن النظام القديم كان، في عدة مجالات مهمة، أحسن حالاً من الأوضاع الجديدة. ففي ذلك النظام، قسم الله الأرزاق والمراتب، أعاليها وأسافلها، بين الناس، وذلك ما سرَّ المحافظين. غير أنه فرض على علية القوم مهمات يؤدونها (وإن كانت خفيفة سيئة الأداء)، والناس بشر غير متساوين، إلا أنهم ليسوا سلعة تثمَّن بأسعار السوق. وفوق هذا وذلك، فإنهم كانوا يعيشون معاً، في شبكة متلاحمة من العلاقات الشخصية والاجتماعية، ويسترشدون في ذلك بمنظومة من العادات، والمؤسسات الاجتماعية، والالتزامات. ولا ريب في أن غينتز، سكرتير ميترنيخ، والصحافي الغوغائي الراديكالي البريطاني كوبيت (1762ـ1835) كانا يحلمان بنموذج مثالي قروسطي مختلف، إلا أنهما هاجما، بالحدة نفسها "الإصلاح" الذي أدى، في نظرهما، إلى استحداث المبادئ البورجوازية في المجتمع. بل إن فريدريك إنغلز، وهو أعمق المؤمنين بالتقدم، رسم صورة توحي الرضى والطمأنينة لمجتمع القرن الثامن عشر القديم الذي أشاعت الثورة

الصناعية الاضطراب فيه.

وحيث إن المفكرين المعادين للتقدم لم تكن لديهم نظرية متماسكة عن التطور، فقد كان صعباً عليهم أن يقرروا أين وقع "الخطأ". وكان المتهم الأثير لديهم هو "العقل"، أو، بتعبير أكثر دقة، عقلانية القرن الثامن عشر، التي حاولت بأسلوبها الأحمق الفظّ أن تعبث بقضايا تستعصي على الفهم الإنساني والتنظيم البشري. فلا يمكن تنظيم المجتمعات البشرية كما لو كانت آلاتٍ صلدة. وعلى حد قول إدموند بيرك: "علينا أن نضرب عرض الحائط، إلى الأبد، **بالإنسيكلوبيديا** (التي وضعها الفيزيوقراطيون)، وجماعة الاقتصاديين برمتها، وأن نعود إلى القواعد والمبادئ القديمة التي كانت، حتى ذلك الحين، تجلب العظمة للأمراء، والسعادة للأمم"[18]. وقد استُجمعت ضد العقلانية المنظمة حشود الغرائز، والتقاليد، والإيمان الديني، و"الطبيعة البشرية"، والعقل "السليم" لا المزيّف، حسب النزعة الفكرية للمفكرين. غير أن "التاريخ" الظافر كان هو الغالب في هذه المواجهة.

وعلى الرغم من أنه لم يكن لدى المفكرين المحافظين إحساس بالتقدم التاريخي، إلا أنهم كانوا يدركون إدراكاً عميقاً أن ثمة فرقاً بين المجتمعات التي تكونت واستقرت بصورة طبيعية تدريجية بفعل التاريخ، وتلك التي أُسست فجأة "بالمكر والحيلة". وإذ لم يكن بوسعهم أن يفسروا كيف فُصِّلت ثياب التاريخ، بل إنهم أنكروا ذلك أصلاً، فإنهم استطاعوا أن يفسروا، بصورة تدعو إلى الإعجاب، كيف أصبحت هذه الثياب، بعد ارتدائها فترة طويلة، أكثر مواءمة وأدعى للارتياح. وانصبّ الجانب الجدي من الجهد الفكري للأيديولوجية المناوئة للتقدم على تحليل التاريخ وإعادة تأهيل الماضي، وعلى استقصاء الاستمرارية لا الثورة. ولم يكن شارحوها ومؤيدوها البارزون المهاجرين الفرنسيين الغريبي الأطوار

---

(18) *Letter to the Chevalier de Rivarol* (1 June1791).

مثل دو بونال (1753-1840) أو جوزيف دو ميستر (Joseph de Maistre) (1753-1821)، اللذين حاولا إحياء ماضٍ ميت، بحجج عقلانية أقرب إلى الجنون، حتى ولو كانوا يستهدفون التأكيد على فضائل اللاعقلانية، ولكنهم كانوا مفكرين من نوع إدموند بيرك في إنجلترا، والحقوقيين الألمان من أنصار "المدرسة التاريخية" الذين شَرْعَنوا النظامَ القديم القائم على أساس الاستمرارية التاريخية.

IV

بقي علينا أن نستعرض مجموعة من الأيديولوجيات التي اتخذت موقفاً غريباً وسطاً بين الموقفين: التقدمي والمناهض للتقدم، أو، بالمنطق الاجتماعي، بين البورجوازية والبروليتاريا الصناعيتين من جهة، وجماهير الأرستقراطية والطبقات الميركنتيلية والإقطاع من جهة أخرى. وكان أبرز من رفع رايتها "الرجال الصغار" الراديكاليون في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، والطبقات الوسطى المتواضعة في المناطق الوسطى والجنوبية في أوروبا، التي كانت تحس بالارتياح، ولكن لا بالرضى التام جراء وجودها في إطار مجتمع أرستقراطي أو ملكي. ولم يكن كلٌ منهما مستعداً لمواصلة مسيرة التقدم إلى نهاياتها المنطقية، سواء أكانت ليبرالية أم اشتراكية؛ إذ كان الأول يعتقد أن هذه النهايات ستدفع صغار الصناع، وأصحاب المتاجر، والمزارعين ورجال الأعمال مرغمين ليتحولوا إما إلى رأسماليين أو عمال. وأما الفئة الثانية، فكانت في غاية الضعف، وبعد تجربة دكتاتورية اليعاقبة، في غاية الفزع والخوف من تحدي سلطة أمرائها الذين كانت مستَخدَمة لديهم في كثير من الأحيان. ومن هنا، فإن مواقف هاتين المجموعتين كانت، في الوقت نفسه، تجمع بين العناصر الليبرالية (والاشتراكية، ضمناً) في حالة الفئة الأولى، المعادية لليبرالية، والتقدمية، والمناهضة للتقدم. وعلاوة على ذلك، أتاحت لهم هذه التعقيدات والتناقضات الجوهرية الفرصة ليسبروا أغواراً في طبيعة المجتمع أعمق مما فعل التقدميون ومعارضو التقدم على حدٍ

سواء. وهكذا وجدوا أنفسهم في غمرة الجدلية.

كان أهم المفكرين (بل العباقرة المتبصرين) بين المجموعة الأولى من صغار البورجوازيين قد توفي عام 1789؛ إنه جان جاك روسو. لقد وجد نفسه واقفاً في منتصف المسافة بين الفردية المحضة، والاعتقاد بأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا في نطاق الجماعة؛ أي بين النموذج المثالي لدولة عقلانية، والشك في "الشعور"، وبين الإقرار بحتمية التقدم، واليقين بأنه دمر حالة الانسجام التي عاشها الإنسان البدائي "الطبيعي". وقد عبر عن المأزق الشخصي الذي كان يعانيه، وتعانيه معه الطبقات التي لم تقبل اليقين الليبرالي الذي يمثله أصحاب المصانع، ولا اليقين الاشتراكي الذي اعتنقه الاشتراكيون. إن مواقف هذا الرجل السيئ الطبع، العُصابي، ولكن العظيم مع الأسف، لن تكون موضع اهتمام تفصيلي من جانبنا؛ لأنه لم تقم مدرسة فكرية روسوويّة محددة، أو اتجاه سياسي، ما عدا روبسبيير واليعاقبة في السنة الثانية للثورة الفرنسية. وكان نفوذه الفكري قوياً شاملاً، خصوصاً في ألمانيا وفي أوساط الرومنطيقيين، غير أنه لم يكن يمثل نسقاً أو نظاماً معيناً، بل يدل على توجه وموقف عاطفي. وكان نفوذه عظيماً كذلك بين عامة الناس وصغار البورجوازيين الراديكاليين، ولكنه لم يكن طاغياً إلا في أوساط المهووسين من أمثال مازيني وشاكلته من المتطرفين القوميين. وبصورة عامة اندمج أثره في التعديلات الأكثر وقاراً على عقلانية القرن الثامن عشر مثل ما استحدثه توماس جيفرسون (1743-1826) وتوماس بين (1737-1809).

لقد أساءت تيارات أكاديمية في الآونة الأخيرة فهم روسو بصورة بالغة. وقد سخر أصحاب هذه المدرسة من المناهج الفكرية التي وضعته في صف واحد مع فولتير والموسوعيين بوصفه واحداً من رواد التنوير والثورة لأنه كان من نقّادهم. غير أن من تأثروا به آنذاك اعتبروه جزءاً من حركة التنوير، وأعادوا طباعة أعماله في دور نشر صغيرة في مطلع

القرن التاسع عشر مثلما فعلوا تلقائياً مع أعمال فولتير ودولباخ وآخرين. وقد هاجمه النقاد الليبراليون المحدثون باعتبار أنه من دعاة "الاستبدادية" اليساريين. إلا أنه في واقع الأمر لم يخلف أية آثار إطلاقاً على التقاليد الرئيسية للشيوعية والماركسية الحديثة[19]. وخلال تلك الفترة وبعدها، كان أتباعه هم صغار البورجوازيين الراديكاليين من اليعاقبة والجفرسونيين ومازيني وأمثاله؛ أي المؤمنين بالديمقراطية، والقومية، وبضرورة قيام دولة توزع فيها المِلْكية بإنصاف، وتشيع فيها بعض أنشطة الرفاه الاجتماعي. وفي الفترة التي تعالجها هذه الدراسة، كان يعتبر من دعاة "المساواة" والحرية ضد الاستبداد والاستغلال ("ولد الإنسان حراً، غير أنه، في كل مكان، مكبَّل بالأصفاد")، والديمقراطية ضد حكم القلة، ومن الداعمين لـِ "الإنسان الطبيعي" البسيط الذي لم تفسده تعقيدات الأثرياء والمتعلمين، ولـِ "الشعور" ضد الحسابات الباردة.

وكانت المجموعة الثانية، التي يمكن أن نسميها جماعة الفلسفة الألمانية، بعيدة كل البعد عن التعقيد. وعلاوة على ذلك، فإن أعضاءها لم تكن لديهم القدرة على الانقلاب على مجتمعهم ولا الموارد الاقتصادية اللازمة لإحداث ثورة صناعية. فمالوا، من ثم، إلى بناء عمارات معقدة مفصلة من أنساق التفكير العامة. وكان ثمة قلة من الليبراليين الكلاسيكيين في ألمانيا، ومن أبرزهم فلهلم هامبولدت (Wilhelm von Humboldt) (1767ـ1835)، شقيق العالِم العظيم. وشاع في أوساط مثقفي الطبقة الوسطى والطبقة العليا اعتقاد بحتمية التقدم، وبفوائد التقدم العلمي والاقتصادي، مع الإيمان بفضائل إدارة أبوية بيروقراطية مستنيرة، وإحساس بالمسؤولية لدى الطبقات العليا. وكان ذلك هو الموقف الأنسب والأكثر شيوعاً في طبقة تضم العديد من موظفي

(19) خلال المراسلات التي جرت بين ماركس وإنغلز (Engels) على مدى أربعين عاماً، لم يرد ذكر جان جاك روسو غير ثلاث مرات، وبصورة سلبية أكثر الأحيان. غير أنهما أعربا عن التقدير لنهجه الجدلي الذي استبق به جدلية هيغل (Hegel).

الحكومة وأساتذة الجامعات المستخدمين لدى الدولة. ويتضح مثل هذا الموقف في أن غوته العظيم نفسه كان وزيراً ومستشاراً في دويلة صغيرة[20]. وكانت مطالب الطبقة الوسطى ـ التي كانت تصاغ غالباً باعتبارها نتيجة حتمية لنزوع تاريخي ـ تطرح دولة مستنيرة لتلبيتها. وتمثل هذه المطالب مطامح الليبرالية الألمانية المعتدلة في أحسن حالاتها. ولم يخفف من حدة هذا الموقف قيام الدول الألمانية، دائماً وفي أفضل الحالات، بمبادرات نشطة فعالة في تنظيم التقدم في ميادين الاقتصاد والتعليم، كما أن سياسة "دعه يعمل، دعه يمر" لم تكن بصورة خاصة مفيدة لرجال الأعمال الألمان.

وعلى الرغم من ذلك، وحتى لو تفهمنا الموقف العملي الذي اتخذه مفكرو الطبقة الوسطى الألمان (مع أخذ الخصائص المميزة لموقعهم التاريخي بالاعتبار)، بالمقارنة مع نظرائهم في البلدان الأخرى، فليس من المؤكد أننا نستطيع بهذه الطريقة أن نفسر البرود الواضح الذي يبديه الجانب الأكبر من الفكر الألماني إزاء الليبرالية الكلاسيكية في أصفى حالاتها. فقد أعرب أكثر المفكرين الألمان عن امتعاضهم البالغ من الاتجاهات الليبرالية المألوفة، كما تتمثل في الفلسفات الإمبيريقية/ التجريبية والمادية، وفي نظريات نيوتن (Newton)، والتحليل الديكارتي. وغير ذلك. واستهوتهم، من ثمَّ، النزعات الصوفية والرمزية والتعميمات العريضة عن الكليات العضوية. وربما كانت هذه النزعة الفكرية الجرمانية ردة فعل قومية على الثقافة الفرنسية التي كانت هي المهيمنة في مطلع القرن الثامن عشر. ومن المحتمل أن يُعزى ذلك أيضاً إلى استمرار المناخ الفكري الذي ساد العهد السابق، وكانت ألمانيا تتمتع فيه بالهيمنة الاقتصادية، والثقافية، والسياسية إلى حد ما؛ ذلك أن انتهاء الفترة الواقعة بين عهد "الإصلاح" وأواخر القرن الثامن عشر قد

---

(20) Johann Peter Eckermann, *Gespraeche Mit Goethe in den Letzten Jahren Seines Lebens* (4-1-1824).

حافظ على التقاليد الثقافية الألمانية العتيقة من دون تغيير، مثلما حافظ على مظهر البلدات الألمانية على ما كان عليه في القرن السادس عشر. وفي جميع الأحوال، ظل المناخ الفكري الألماني الأساسي، سواء في مجالات الفلسفة، أو العلم، أو الفن، مختلفاً اختلافاً بيّناً عن التقاليد الرئيسية التي سادت في أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر[21]. وفيما كانت الكلاسيكية تقترب من نهايتها، كان الفكر الألماني يفيد منها بعض الإفادة. وفي ذلك تفسير للنفوذ الثقافي المتزايد للفكر الألماني في القرن التاسع عشر.

يتمثل التعبير الأبلغ عن هذا التراث الفكري في الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، وهي المنظومة الفكرية التي أرسيت دعائمها بين العامين 1760 و1830، بالإضافة إلى الأدب الألماني الكلاسيكي الذي كان وثيق الصلة بها (وعلينا أن لا ننسى أن الشاعر غوته كان عالماً و"فيلسوفاً طبيعياً" عظيم الشأن، وأن الشاعر شيللر لم يكن أستاذاً للتاريخ فحسب[22]، بل كان مؤلفاً مرموقاً للبحوث الفلسفية). ويمثل إيمانويل كانْتْ (1724ـ1804)، وغيورغ فِلْهلم فريدريك هيغل (1770ـ1831) القمتين الشامختين في الفلسفة الألمانية. وبعد العام 1830، أصيبت بالتفكك نفسه الذي انتاب الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، كما رأينا (وهو درة الفكر العقلاني في القرن الثامن عشر). وكان "الهيغليون الشباب"، ثم الماركسية بعد ذلك، هم نتاج هذه الفلسفة.

وجدير بنا أن نتذكر أن الفلسفة الألمانية الكلاسيكية ظاهرة

---

(21) لا يصدق ذلك على النمسا التي مرت بتاريخ مختلف جداً. فمن الخصائص المهمة للفكر النمساوي أنه لم يكن فيه ما يستحق الذكر، على الرغم من أن الفنون (ولا سيما الموسيقى، والعمارة، والمسرح) وبعض العلوم التطبيقية، شهدت أزهى عصورها في الإمبراطورية النمساوية.

(22) تحتوي المسرحيات التاريخية التي وضعها شيللر، ماعدا ثلاثية فالنشتين، على الكثير من الأخطاء الشعرية التي لا تخطر في البال.

بورجوازية في أعماقها. وقد هلل رموزها البارزون (مثل كانْت، وهيغل، وفيخته، وشيللنغ) للثورة الفرنسية، بل إنهم ظلوا على ولائهم لها وقتاً غير قليل، وظل هيغل يمجد نابليون ويعلي من شأنه حتى معركة يينا (1806). وكانت فلسفة عصر التنوير هي الإطار لفكر كانْت الذي كان يحمل كل خصائص الفكر في القرن الثامن عشر، كما أنها كانت منطلقاً لفلسفة هيغل. وقد تشربت آراء الفيلسوفين كليهما، بصورة عميقة، بأفكار التقدم، وكان أعظم إنجازات كانْت الأولى هو الفرضية التي طرحها عن أصل النظام الشمسي وتطوره، بينما كان المحور الرئيسي لفلسفة هيغل، برمتها، هو التطور (أو، بالمعنى الاجتماعي، التاريخانية) والتقدم التاريخي. وعلى الرغم من أن هيغل كان، منذ البداية، يكره الجناح اليساري المتطرف في الثورة الفرنسية، وقد تحول بعد ذلك إلى محافظ متطرف تماماً، فإنه لم يشك لحظة واحدة في الضرورة التاريخية لهذه الثورة بوصفها الأساس الذي قام عليه المجتمع البورجوازي. وعلاوة على ذلك، وخلافاً لأكثر الفلاسفة الأكاديميين اللاحقين، فإن كانْت، وفيخته، وخصوصاً هيغل، قطعوا شوطاً في دراسة الاقتصاد (إذ درس فيخته على يد الفيزيوقراطيين، وكانْت وهيغل على البريطانيين)، وثمة ما يدعو إلى الاعتقاد أن كانْت وهيغل الشاب كانا سيقتنعان بآراء آدم سميث[23].

هذا المنحى البورجوازي في الفلسفة الألمانية يتجلى بوضوح، في إحدى صوره، في كانْت الذي ظل طوال حياته إلى جانب اليسار الليبرالي. وتضمنت آخر مؤلفاته (1795) نداءً نبيلاً لإقامة سلام عالمي شامل في إطار اتحاد للجمهوريات يشجب الحرب في جميع أرجاء العالم. غير أن كانْت، في جانب آخر منه، يبدو أكثر غموضاً وإبهاماً من هيغل؛ ذلك أن كانْت، الذي اعتكف كأستاذ جامعي متقشف في منزله

---

(23) György Lukàcs, *Der junge Hegel. Ueber die Beziehungen von Dialektik und Oekonomie*, p. 409 for Kant, *Passim*-esp. II, 5 for Hegel.

المتواضع في بلدة كونيغسبيرغ البروسية النائية، قد اختزل في فكره المضمون الاجتماعي الذي تميز به الفكر البريطاني والفرنسي، إلى مفهوم تجريدي صارم، على ما فيه من سموّ؛ ولا سيما موقفه الأخلاقي المجرد من موضوع "الإدارة"[24]. أما فكر هيغل فهو فكر مجرد تجريداً يثير الحسرة. بيد أنه، للوهلة الأولى على الأقل، أكثر وضوحاً بكثير في محاولته التفاهم مع المجتمع ـ المجتمع البورجوازي. بل إنه في تحليله لمفهوم "العمل" بوصفه العنصر الجوهري للحياة البشرية (وكما يقول في محاضراته بين العامين 1805 و1806، "يصنع الإنسان الأدوات لأنه كائن عاقل، وفي ذلك أول تعبير عن "الإدارة" لديه")[25]. وهيغل يتلمس هنا، بصورة تدريجية، الأدوات نفسها التي ركز عليها الاقتصاديون الليبراليون الكلاسيكيون، ويشير، بصورة عريضة، إلى أحد العناصر التي ارتكز عليها ماركس.

على الرغم من ذلك، كانت الفلسفة الألمانية منذ بداياتها تختلف عن الليبرالية الكلاسيكية في عدة نواحٍ رئيسية. ويتضح هذا الاختلاف لدى كانْت أكثر مما هو لدى هيغل. لقدّ كانت، في المقام الأول، فلسفة مثالية بصورة مقصودة، ترفض النزعات المادية والتجريبية التقليدية. ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من أن الوحدة الأساسية في فلسفة كانْت هي الفرد ـ حتى في حالة الضمير الفردي ـ فإن نقطة الانطلاق لدى هيغل هي الجماعة (أي المجتمع) التي كان يعتقد أنها قد بدأت تتشظّى تحت وطأة التطور التاريخي. بل إن الجدلية/ الديالكتيكية لدى هيغل، أي نظرية التقدم (أياً كان مجاله)، عبر صيرورة لا نهاية لها لحل المتناقضات،

---

(24) وهكذا يبين لوكاش (Lukacs) أن مفارقة سميث (Smith) الواضحة، حول "اليد الخفية" التي تنتج محصلة نافعة للمجتمع من النزعة الأنانية الفردية، قد تحولت لدى كانْت (Kant) إلى مجرد تجريد لفكرة "النزعة الاجتماعية المجردة من الروح الاجتماعية". انظر: المصدر نفسه، ص 409.

(25) انظر أيضاً: المصدر نفسه، ص 411-412.

قد استمدّت بواعثها الأولى من هذا الإدراك العميق للتناقض بين الفرد والجماعة. يضاف إلى ذلك، أن مواقف المفكرين الألمان من الهامش المحيط بمسيرة التقدم الليبرالي ـ البورجوازي، وربما لعجزهم التام عن المشاركة فيها، قد جعلتهم أكثر إدراكاً لحدودها وتناقضاتها. وقد كان ذلك محتماً من دون شك. ولكن السؤال هو: ألم تؤد هذه المسيرة إلى خسائر فادحة، مثلما أدت إلى مكاسب عظيمة؟ ألا ينبغي بعد ذلك أن يليها ما يُجُبُّها ويلغيها؟

إننا نرى أن الفلسفة الكلاسيكية، ولا سيما الهيغلية، تسير، على نحو يثير الاستغراب، جنباً إلى جنب مع وجهة نظر روسو الحافلة بالمآزق تجاه العالم، مع أن الفلاسفة، خلافاً لما فعله هو، بذلوا قصارى جهدهم ليدرجوا تناقضاتهم في أنساق مفردة شاملة متماسكة فكرياً (وبالمناسبة، كان لروسو تأثير عاطفي بالغ على إيمانويل كانْت الذي قيل عنه إنه لم ينقطع عن التريّض بالمشي بعد ظهر كل يوم إلا مرتين: الأولى عند سماعه بسقوط الباستيل، والثانية لعدة أيام، بعد قراءته كتاب **إميل** (*Emile*)). أما من حيث الممارسة الفعلية، فقد واجه الثوريون الفلسفيون المحبطون مشكلة "المصالحة" مع الواقع، التي اتخذت لدى هيغل شكل تمجيد الدولة البروسية وإضفاء السمات المثالية عليها، وذلك بعد أن ظل، بعد سنوات من التمرد، يقلب الفكر في أمر بروسيا حتى ما بعد سقوط نابليون، ومثل غوته، لم يأبه بحروب التحرير. ومن الوجهة النظرية، كان الطابع الانتقالي العابر للمجتمع المحكوم عليه، تاريخياً، مرسوماً قائماً في فكر الفيلسوفين، فلم تكن ثمة حقيقة مطلقة. وكان تطور السيرورة التاريخية نفسه يشق مجراه عبر جدلية التناقضات. غير أن هذا التوجس كان مدعاة للتوجس وفق المنطق الجدلي نفسه، وذلك ما استنتجه "الهيغليون الشباب" على الأقل في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، بعد أن التزموا تقاليد الفلسفة الكلاسيكية الألمانية وتجاوزوا الحدود التي توقف عندها معلمهم العظيم

هيغل الذي كان حريصاً كل الحرص على اختتام التاريخ البشري بـِ "الفكرة المطلقة". وكان هؤلاء يوشكون بعد عام 1830 على العودة إلى سلوك طريق الثورة الذي كان العظام من الجيل السابق قد تخلوا عنه (كما فعل غوته)، أو لم يسلكوه على الإطلاق. غير أن قضية الثورة بين العامين 1830 و1848 لم تعد سيطرة الطبقة الوسطى على السلطة والحكم. كما أن المثقفين الثوريين الذين ظهروا في غمرة التفكك الذي أصاب الفلسفة الكلاسيكية الألمانية لم يكونوا جيرونديين أو ثوريين فلسفيين، بل كانوا كارل ماركس وأمثاله.

لقد شهدت هذه الفترة من الثورة المزدوجة، في آنٍ معاً، انتصار التشكيل الأكثر شمولاً وتفصيلاً لأيديولوجيتيْ الطبقة الوسطى الليبرالية والبورجوازية الصغيرة الراديكالية، وانهيارهما، في الوقت نفسه، تحت تأثير الدول والمجتمعات التي كانت هذه التوجهات نفسها تسعى إلى إقامتها، أو تأمل في قيامها على الأقل. وكانت سنة 1830، التي شهدت انبعاث الحركة الثورية الأوروبية الأساسية بعد مرحلة الخمول التي أعقبت معركة واترلو، تمثل أيضاً بداية الأزمة التي واجهها هذان التياران، ثم تجاوزاها، ولكن المدى الذي تحركا فيه آنذاك كان في غاية الضيق؛ إذ لم يبرز بعده اقتصادي ليبرالي كلاسيكي بحجم سميث أو مكانة ريكاردو (ولم يكن جيمس ستيوارت مِلْ من هذا الجيل الجديد اللاحق؛ لأنه أصبح منذ أربعينات القرن هو الممثل للفلاسفة والاقتصاديين الليبراليين البريطانيين)، ولم يبرز فيلسوف ألماني كلاسيكي يضاهي كانْت وهيغل مكانةً وهيبةً. وكان الجيرونديون واليعاقبة مجرد أقزام في فرنسا في العامين 1830 و1848 إذا ما قورنوا بأسلافهم في الفترة بين العامين 1789 و1794. ولا يمكن، بالمنطق نفسه، أن نقارن مازيني وأضرابَه في أواسط القرن التاسع عشر بجان جاك روسو في القرن الثامن عشر. بيد أن الإرث العظيم، وهو التيار الأساسي للنهوض الفكري منذ عصر النهضة، لم يمت، بل إنه انثنى وتحول إلى

نقيضه في الاتجاه المعاكس. وكان ماركس، بمكانته وقامته الفكرية، وريث الاقتصاديين والفلاسفة الكلاسيكيين. غير أن المجتمع الذي كان يأمل في أن يكون مبشراً بقيامه مسهماً في صنعه، كان يختلف اختلافاً بيناً عن المجتمع الذي عاش فيه أسلافه.

الفصل الرابع عشر

الآداب والفنون

"ثمة شغف وولوع وتذوق على الدوام لما هو شائع حولنا: شغف بعربة البريد ـ تذوق لتمثيل دور هاملت (Hamlet) ـ تذوق للمحاضرات الفلسفية ـ تذوق للمدهش ـ تذوق للبسيط ـ تذوق للإشراق ـ تذوق للعتمة ـ تذوق للطلاوة ـ تذوق للتجهّم ـ تذوق للصوص ـ تذوق للأشباح ـ تذوق للشيطان ـ شغف بالراقصات الفرنسيات والمغنين الإيطاليين، والبهلوانات والمآسي الألمانية ـ شغف بالاستمتاع بالريف في تشرين الثاني / نوفمبر وقضاء الشتاء حتى الصيف القائظ في لندن ـ تذوق لصنع الأحذية ـ تذوق للتجوال بين مشاهد الطبيعة الرائعة ـ تذوق وشغف بالذوق نفسه ـ أو بكتابة مقالة عن الذوق والتذوق".

السيدة بينموني المحترمة، في رواية توماس لوف بيكوك (T. L. Peacock), *Melincourt* (1816).

"إذا أخذنا بالاعتبار ثروة البلاد، أدركنا ضآلة عدد العمارات العريقة فيها... وشح استغلال رأس المال في المتاحف، واللوحات، والجواهر، والروائع، والرسوم، والمسارح، أو المجالات الأخرى غير الإنتاجية! إن هذه هي الأسس التي تقوم

عليها عظمة البلدان. إلا أن زوارنا الأجانب، بل بعض كتابنا المواظبين، يستشهدون بهذه النواحي دليلاً على انحطاطنا".

س. لينغ (S. Laing)، **ملاحظات مسافر حول الأوضاع الاجتماعية والسياسية في فرنسا، وبروسيا، وسويسرا، وإيطاليا، ومناطق أخرى في أوروبا**، 1842[1].

I

عندما يحاول المرء أن يستعرض تطور الآداب في فترة الثورة المزدوجة هذه، فإن أول ما يثير فيه العجب هو ما طرأ عليها من ازدهار خارق للعادة. ولا ريب في أن نصف القرن الذي عاش فيه بيتهوفن وشوبارت (Schubert)، وغوته الشيخ الناضج، وديكنز الشاب، ودستويفسكي (Dostoievsky)، وفيردي (Verdi)، وفاغنر (Wagner)، وموتزارت في أواخر سنواته، وغويا (Goya)، كله أو أكثره، وبوشكين (Pushkin)، وبلزاك، ناهيك عن كوكبة من الأعلام الذين تعلو قاماتهم العملاقة بصرف النظر عمن يكون برفقتهم، نقول إن نصف القرن هذا لا تضاهيه حقبة زمنية بالطول نفسه في أية مرحلة أخرى من تاريخ العالم. ويعود قدر كبير من هذا السجل الحافل إلى انتعاش الآداب وتوسعها على نحو أصبحت معه تستهوي جمهوراً متعلماً في جميع البلدان الأوروبية التي ازدهرت فيها[2].

وبدلاً من أن نُضجر القارئ بقائمة طويلة من الأسماء، قد يحسن بنا أن نوضح اتساع نطاق هذا الانبعاث الثقافي ونسبُر أغواره العميقة

---

(1) Samuel Laing, *Notes of a Traveller, on the Social and Political State of France, Prussia, Switzerland, Italy, and Other Parts of Europe, During the Present Century* (London: Longman, Brown, Green and Longmans, 1854), p. 275.

(2) لن نستعرض في هذا الفصل فنون الحضارات غير الأوروبية إلا بقدر ما أحدثته الثورة المزدوجة فيها من تأثيرات؛ وذلك ما لم يحدث على الإطلاق خلال تلك الفترة.

بأن نأخذ قطاعاً عَرَضياً من الإبداعات في تلك الأيام. ففي الفترة الواقعة بين العامين 1798 و1801، كان بوسع المواطن الذي يروم عنصر الجدة في الآداب عموماً أن يقرأ بالإنجليزية **الأهازيج الغنائية** (*Lyrical Ballads*) التي وضعها الشاعران ووردزورث وكوليريدج، وأعمالاً عديدة أخرى، بالألمانية، لغوته، وشيللر، وجان بول (Jean Paul) ونوفاليس (Novalis)، بينما يستمع في الوقت نفسه إلى معزوفتي "الخَلْق" و"فصول" لهايدن، والسيمفونية الأولى، والرباعيات الوترية الأولى لبيتهوفن. وفي تلك الأيام، أنجز الرسام ج . ل. دافيد (J. L. David) "صورة مدام ريكامييه"، والرسام غويا "صورة عائلة الملك تشارلز الرابع". وبين العامين 1824 و1826، كان بوسع القارئ أو القارئة أن يطالعا عدة روايات جديدة بالإنجليزية من تأليف والتر سكوت (Walter Scott)، وقصائد ليوباردي ورواية أليساندرو مانزوني (Manzoni) **الخطيبة** (*Promessi Sposi*) بالإيطالية، وقصائد فكتور هوغو (Victor Hugo) وألفريد دو فيني بالفرنسية. وبوسع المرء، إذا كان في المكان المناسب، أن يقرأ الأجزاء الأولى من **يوجين أوينغن** (*Eugene Onegin*) بالروسية لبوشكين، والحكايات النورسكية التي كانت قد صدرت قبل ذلك بقليل. وكانت قد ظهرت في تلك السنوات السيمفونية الكورالية (Choral Symphony) لبيتهوفن، وأوبرا "الموت والصبيّة" (Death and the Maiden) لشوبارت، وباكورة أعمال شوبان، وأوبرا "أوبيرون" (Oberon) لفيبر (Weber) ، ولوحات الرسامينْ دولاكروا (Delacroix) "مذبحة في شيوس" (The Massacre at Chios)، وكونستابل (Constable) "عربة القش" (The Hay Wain) . وبعد عشر سنوات (1834 ـ 1836)، ظهرت في الساحة الأدبية مسرحية غوغول (Gogol) "المفتش العام" (Inspector-General)، ومسرحية بوشكين "الملكة البستوني". كما صدرت، في فرنسا، رواية بلزاك **الأب غوريو** (*Père Goriot*)، وأعمال موسيه (Musset)، وهوغو، وثيوفيل غوتييه (Theophile Gautier)، وفيني، ولامارتين

(Lamartine)، وألـكـســنـدر دومـاس (Alexander Dumas) الأب. وصدرت في ألمانيا أعمال لبوخنر (Büchner)، وغْرابِّ (Grabbe)، وهايني، وفي النمسا مؤلفات للشاعرة فرانز غريلبارزر (Grillparzer)، والشاعر نستروي، وفي الدانمارك حكايات هانز أندرسون (Hans Andersen)، وكتاب ميكييفيتش *Pan Tadeusz* في بولندا، والطبقات الأولى من الملحمة البطولية كاليفالا في فنلندا، وأعمال براوننغ (Browning) ووردزورث الشعرية في بريطانيا. وفي مجال الموسيقى، ظهرت أوبرات بلليني (Bellini) ودونيزيتي (Donizetti) في إيطاليا، وألحان شوبان (Chopin) في بولندا، وغلينكا (Glinka) في روسيا، ورسم كونستابل (Constable) لوحاته في بريطانيا، وكاسبار ديفيد فريدريتش (Caspar David Friedrich) في ألمانيا. وقبل هذه الفترة أو بعدها ببضع سنوات، كان ديكنز ينشر روايته **أوراق بيكويك** (*Pickwick Papers*)، وكارلايل **الثورة الفرنسية** (*French Revolution*)، وغوته **فاوست** (*Faust*) ـ الجزء الثاني. كما نشرت أشعار مهمة أخرى في الأدبين الفلمنكي والهنغاري، وكذلك مطبوعات لكبار الكتاب في الآداب البولندية والروسية. وظهرت في الموسيقى كذلك "رقصات جماعة داوُد" لشومان (Schumann)، و"قداس الموتى" لبرليوز (Berlioz).

تظهر لنا هذه العينات العَرَضية أمرين: الأول هو مدى التنوع الواسع المذهل في المنجزات الفنية بين الشعوب، وذلك شيء جديد. ففي النصف الأول من القرن الثامن عشر، برز الأدب والموسيقى الروسيان باعتبارهما قوة عالمية، مثلما فعل، بطريقة أكثر تواضعاً بكثير، أدب الولايات المتحدة على أيدي فينيمور كوبر (1787ـ1851)، وإدغار ألان بو (Edgar Allan Poe) (1809ـ1849)، وهيرمان ملفيل (Herman Melville) (1819ـ1891). كذلك كان شأن الأدب والموسيقى في بولندا، وهنغاريا، وعلى الأقل في مجالات طبع الأغاني الشعبية والخرافات، والملاحم في الشمال، والبلقان. وعلاوة على ذلك، كانت المنجزات

فورية لا تضاهى في تلك الثقافات الحديثة التي يلمّ أغلب أهلها بالقراءة والكتابة. وعلى سبيل المثال، يظل بوشكين (1799ـ1837) شاعر روسيا الأكبر، وميكييفيتش (1798ـ1855) أعظم شعراء بولندا، وبتويفي (Petoefi) (1823ـ1849) شاعر هنغاريا الوطني.

وتتمثل الحقيقة الأخرى في التوسع الاستثنائي لبعض الفنون والأنواع الأدبية. ويتضح ذلك، بأجلى صوره، في الأدب، ولا سيما أدب الرواية. وربما لم يكن في التاريخ نصف قرن شهد ما شهدته تلك الفترة من حيث أعداد الروائيين العظام الذين عاشوا فيها: ستاندال وبلزاك في فرنسا، وجين أوستن وديكنز وثاكري (Thackeray) والأخوات برونتي (Brontës) في إنجلترا، وغوغول ودستويفسكي الشاب وتورغنيف (Turgenev) في روسيا (وقد ظهرت بواكير كتابات تولوستوي (Tolstoi) في الخمسينات من القرن التاسع عشر). وربما نقف أكثر انبهاراً إزاء الحركة الموسيقية. والإرث الموسيقي الكلاسيكي الذي يعيش معنا حتى الآن ينبع أساساً من إبداع الموسيقيين في تلك الفترة، ومنهم موتزارت وهايدن، مع أنهما ينتميان إلى مرحلة أبكر، وبيتهوفن وشوبارت، ومندلسون، وشومان، وشوبان، وليسْتْ. وكانت الفترة "الكلاسيكية" للموسيقى الآلاتية من الإنجازات الألمانية والنمساوية في المقام الأول. غير أن نوعاً آخر، هو الأوبرا، ازدهر وربما كان أكثر نجاحاً من الأنواع الأخرى، وقد نبغ فيه روسيني (Rossini)، ودونيزيتي، وبلليني، وفيردي الشاب في إيطاليا، وفيبر، وفاغنر الشاب (إضافة إلى اثنتين من أوبرات موتزارت الأخيرة) في ألمانيا، وغلينكا في روسيا، وعدة موسيقيين آخرين أقل أهمية في فرنسا. غير أن الفنون البصرية لم تشهد تقدماً مماثلاً، باستثناء الرسم بصورة جزئية. إذ إن إسبانيا أنجبت في فرانشسكو غويا إيْ لوسيينتي (Goya y Lucientes) وهو واحد من عباقرة الفنانين فيها وربما من ألمع الرسامين في كل زمان. وقد يقال إن فن الرسم البريطاني (مع ج. م. و. تيرنر) (J. M. W. Turner) (1775ـ1851)، وجون كونستابل (1776ـ1837)) قد

بلغ ذروة إنجازاته وأصالته أكثر مما فعل في القرن الثامن عشر، وأنه عرف بالتأكيد على الصعيد العالمي قبل ذلك الوقت وبعده. كما يمكن أن يقال إن فن الرسم الفرنسي (مع ج. ل. دافيد (1748ـ1825) وج. ل. غيريكو (Géricault) (1791ـ1824) و ج. د. إنْغر (J. D. Ingres) (1780ـ1867) وف. ـ إ. دولاكروا (F. E. Delacroix) (1790ـ1863) وأونوريه دوميه (Honoré Daumier) (1808ـ1879) وغوستاف كوربيه الشاب (Gustave Courbet) (1819ـ1877)) حافظ على تألقه المعهود عبر التاريخ في تلك الفترة. ومن جهة أخرى، وصل الرسم الإيطالي إلى نهاية أمجاده التي شهدها على مدى عدة قرون. وكان مستوى الرسم الألماني أقل بكثير إذا ما قورن بالنبوغ في مجالي الموسيقى والأدب في ألمانيا، حتى في القرن السادس عشر. أما النحت، فلم يبلغ المستوى المرموق الذي وصل إليه في القرن الثامن عشر. وكذلك كان الفن المعماري على الرغم من بعض الإنجازات الملموسة في ألمانيا وروسيا. ولا ريب في أن أعظم الإنجازات المعمارية في تلك الفترة كان من صنع المهندسين.

ما زالت الأسباب مبهمة في ازدهار الفنون وذبولها في أية مرحلة زمنية. غير أننا قد نجد جواباً شافياً عن الفترة الممتدة بين العامين 1789 و1848 في الآثار التي خلفتها الثورة المزدوجة بالدرجة الأولى. وإذا جاز لنا استخدام عبارة واحدة مضللة لاختصار العلاقة بين الفنان من جهة، والمجتمع من جهة أخرى، قلنا إن الثورة الفرنسية هي التي ألهمته النموذج الذي طرحته، والثورة الصناعية بما انطوت عليه من جوانب مرعبة، والمجتمع البورجوازي الذي نجم عن هاتين الثورتين؛ لأنه أدخل تعديلاً جذرياً على وجود الفنان وأنماط الإبداع لديه.

لا شك في أن فناني تلك الفترة استوحوا الكثير من الشؤون العامة مباشرة أو شاركوا فيها. فقد وضع موتزارت أوبرا دعائية هي "الناي السحري" عام 1790 لمصلحة الماسونيين الأحرار ذوي الميول السياسية

الواضحة، وأهدى بيتهوفن سمفونية إيرويكا (البطولية) إلى نابليون بوصفه وريث الثورة الفرنسية، كما كان غوته، على الأقل، رجل دولة وموظفاً حكومياً نشطاً. وكتب ديكنز روايات يهاجم فيها المساوئ الاجتماعية، وحكم على دستويفسكي بالإعدام عام 1849 لنشاطه الثوري، وتعرض فاغنر وغويا للنفي السياسي، وعوقب بوشكين لانخراطه في حركة الديسمبريين. كما أن رواية بلزاك **الكوميديا الإنسانية** (*Human Comedy*) برمتها تمثل واحداً من المعالم البارزة لنمو الوعي الاجتماعي. وكان فنانو تلك الفترة على قدر كبير من "الالتزام". أما أولئك الذين شغلوا أنفسهم بتزيين القصور والمخادع الفخمة وزخرفتها، أو تزويد اللوردات الإنجليز الزائرين بالتحف القديمة، فقد اندثرت منتجاتهم الفنية. فمن منا يتذكر، على سبيل المثال لا الحصر، أن فراغونار (Fragonard) عاش بعد الثورة الفرنسية سبع عشرة سنة؟ بل إن الفنون الأقل تسيُّساً، مثل الموسيقى، كانت لها ارتباطات سياسية. وربما كانت تلك الفترة هي الوحيدة في التاريخ التي وضعت فيها الأوبرات، أو اعتبرت آنذاك، أشبه بالبيانات السياسية، وكانت من حوافز الثورة[3].

كانت الصلة بين القضايا العامة والفنون قوية بصورة خاصة في البلدان التي تنامى فيها الوعي الوطني، أو حركات التحرر الوطني والوحدة[4]. وغني عن البيان أن انبعاث الثقافات الوطنية المكتوبة أو

---

(3) بالإضافة إلى "الناي السحري" (Magic flute) يمكننا أن نذكر أعمال الأوبرا المبكرة لفيردي (Verdi) التي قوبلت بالتقدير بوصفها تعبيراً عن القومية الإيطالية، وأوبرا أوبرْ (Auber) "خرساء من بورتيتشي" (Muette de Portici)، التي أسهمت في إشعال الثورة البلجيكية عام 1830، وأوبرا غلينكا (Glinka) "حياة لقيصر" (A Life for the Tsar)، وأوبرات "وطنية" مختلفة مثل "هونديادي لازلو" (Hunyady László) الهنغارية (1844). وما زالت هذه الأعمال تحافظ على أهميتها ومكانتها الثقافية المحلية للبلدان المعنية لارتباطها ببواكير اليقظة القومية فيها.

(4) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

ولادتها في ألمانيا، وروسيا، وبولندا، وهنغاريا، والبلدان الاسكندينافية وغيرها قد لازم، بل كان أول تعبير عن تأكيد التفوق الثقافي للغة المحكية المحلية أو التي يتحدث بها أهل البلاد الأصليون، في مواجهة الثقافة الأرستقراطية الوافدة عليهم بلغة أجنبية. ومن الطبيعي أن تجد هذه النزعة القومية التعبير الثقافي الأفضل عنها في الأدب وفي الموسيقى، وكلاهما من الفنون العامة. وكان بوسع هذين المكوِّنين الثقافيين أن يستمدا أصولهما من التراث القوي الخلاق لعامة الناس، في مجالي اللغة والأغاني الشعبية تحديداً. ومن المفهوم بالمقدار نفسه، أن الفنون التي تعتمد على تكليفات من الطبقات الحاكمة، والبلاط، والحكومات، مثل العمارة، والنحت، وإلى حد أقل، الرسم، لم تشهد مثل هذا الانتعاش الوطني[5]. وقد ازدهرت الأوبرا الإيطالية كما لم تفعل من قبل كفن شعبي لا كفنٍ مرتبط بالبلاط، فيما انقرض الرسم والعمارة في إيطاليا. وعلينا أن لا ننسى بالطبع أن هذه الثقافات الوطنية الجديدة كانت مقصورة على قلة من المتعلمين وعلى الطبقتين الوسطى والعليا. وما عدا الأوبرا الإيطالية، وأشكال الفن التصويري التي يمكن استنساخها، وقلة قليلة من القصائد والأغاني، فإن المنجزات الفنية الكبرى لم تكن في متناول الأميين أو الفقراء في تلك الفترة، ولم يكن أغلب سكان أوروبا، بالتأكيد، يعرفون عنها شيئاً إلى أن حولتها الحركات الجماهيرية والوطنية والسياسية إلى رموز جماعية. وكان الأدب، بطبيعة الحال، هو الأكثر شيوعاً، ولا سيما في أوساط الطبقة الوسطى

(5) أدى غياب نسبة كافية من الناس المتعلمين والواعين سياسياً في أكثر أرجاء أوروبا إلى الحد من استغلال الفنون المخترعة حديثاً والقليلة الكلفة إعادة إنتاجها مثل الليثوغراف (الطبع بطريقة الطباعة الحجرية). إلا أن الإنجازات المشهودة للفنانين الثوريين العظام عبر هذه الوسائط وغيرها مثل: "كوارث الحرب" و"كابريكوس" للفنان غويا (Goya)، والإيضاحات الرؤيوية للشاعر وليام بليك (William Blake)، والليثوغرامات والرسوم الكاريكاتيرية الصحافية للفنان دومييه، توضح لنا جميعها جاذبية هذه الأساليب الدعائية القوية، وقدرتها على استهواء الناس.

الصاعدة التي وفرت سوقاً رائجة ـ خصوصاً بين النساء المتعطلات عن العمل ـ للروايات والحكايات الشعرية الطويلة. وقد تمتع المؤلفون الناجحون بقدر غير مسبوق من الرفاه؛ فقد قبض بايرون ألفين وستمئة جنيه إسترليني ثمناً للأناشيد الثلاثة الأولى من "تشيلد هارولد". وأصبح مرتادو المسرح، وهو، من الناحية الاجتماعية، محدود النطاق، يُعَدّون بالآلاف. وكان حظ الموسيقى الآلاتية أقل قليلاً من ذلك خارج البلدان البورجوازية، مثل إنجلترا وفرنسا، والمناطق العطشى إلى الثقافة مثل الأمريكتين، حيث كانت قد أنشأت ورسخت تقاليد إقامة الحفلات الموسيقية الكبيرة العامة (من هنا، كان الموسيقيون والعازفون الأوروبيون يتطلعون إلى الأسواق الإنجليزية المغرية، على الرغم من أنها لم تكن تميز الجيد من الرديء). وفي مناطق أخرى، كانت أفضل المجالات هي الخدمة في البلاد، أو الارتباط مع فرقة موسيقية ينفق عليها أحد النبلاء المحليين الصغار للقيام بعروض خاصة أو حفلات للهواة. أما الرسم، فكان يقتصر، بطبيعة الحال، على ابتياع المشترين الأفراد للوحات التي كانت غالباً ما تختفي عن الأنظار بعد عرضها في معرض عام وتنتهي لدى المشترين أو الوسطاء، مع أن هذه المعارض كانت واسعة الانتشار. وقد درجت المتاحف والمعارض الفنية التي أنشئت أو فتحت أبوابها للجمهور في ذلك الوقت (مثل اللوفْرْ والمتحف الوطني البريطاني اللذين أُسسا عام 1826)، على عرض لوحات الماضي لا الحاضر. ومن جهة أخرى، كانت فنون الحفر، والطباعة، والطباعة الحجرية واسعة الانتشار؛ لأنها كانت قليلة الكلفة، مستخدمة على نطاق واسع في الصحف. وواصلت العمارة نشاطها، بالطبع، على أساس التكليف من جانب الأفراد أو القطاع العام (باستثناء جانب معين من المباني للمتاجرة والمنازل الخاصة).

II

إلا أن الفنون، حتى في أقلية صغيرة في المجتمع، قد تكون

صدى لرعود الزلازل التي تجتاح البشرية برمتها؛ وذلك ما فعله الأدب والفن في تلك المرحلة. وكانت "الرومنطيقية" هي النتيجة. وليس ثمة ما هو أصعب من تعريفها، بوصفها أسلوباً، ومدرسة، ومرحلة في تطور الآداب، حتى ولو لجأنا إلى التحليل الشكلي، أو قارنا بينها وبين الكلاسيكية التي رفعت راية الثورة ضدها. وليس بوسع الرومنطيقيين أنفسهم مساعدتنا في ذلك؛ لأنهم كانوا يتحاشون المنطق العقلاني في تعريفهم لما كانوا يرمون بحزم وتصميم إلى تحقيقه. وعلى حد تعبير فكتور هوغو، فإن الرومنطيقية "تفعل ما تفعله الطبيعة، وتمتزج بمخلوقات الطبيعة، فيما تتجنب في الوقت نفسه الخلط بينهما: الظل والضوء، والعادي والسامي، وبعبارة أخرى، الجسد والروح، الحيواني والروحي"[6]. وبالنسبة لشارل نودييه (Charles Nodier)، فإنها "الملجأ الأخير للقلب البشري، الذي أرهقته المشاعر العادية. وذلك هو ما يسمى "الرومنطيقي" بين الأنواع الأدبية؛ إنها الشعر الغريب، المناسب تماماً للحالة الأخلاقية للمجتمع، ولحاجات الأجيال المحبطة التي ترفع صوتها مطالبة بالإثارة الحسية بأي ثمن..."[7]. ويرى نوفاليس أن الرومنطيقية كانت تعني "إعطاء معنى سام لما هو عادي، وإبقاء نظرة لا حدود لها على ما هو محدود"[8]. أما هيغل، فيعتقد أن "جوهر الفن الرومنطيقي يكمن في أن الموضوع الفني حرّ، وعياني ملموس، وأن الفكرة الروحية هي جوهره الفعلي، وذلك ما يظهر للبصيرة الباطنية، لا للبصر"[9]. إن مثل هذه التعريفات لا تشكل إضاءة للموقف، وذلك

---

(6) Victor Hugo, *Oeuvres complètes*, vol. XIV, p. 17.

(7) Howard E. Hugo, *The Romantic Reader* (New York: Viking Press, [1957]), p. 58.

(8) Novalis, *Novalis Schriften* (Jena: Eugen Diederich, 1923), vol. III, pp. 45-46.

(9) Georg Wilhelm Friedrich Hegel, *The Philosophy of Fine Art*, 4 vols. (London: G. Bell and sons, 1920), vol. 1, pp. 106 ff.

متوقع؛ لأن الرومنطيقيين يؤثرون العدول عن الأفكار الواضحة إلى الخواطر المعتمة التي لا يزورها الضوء إلا لماماً.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أحداً لا ينكر وجود الرومنطيقية أو قدرتنا على الإحساس بها، حتى ولو كان هذا المفهوم يراوغ المحلل الذي يحار في تبيان أصوله ومنابعه ونتائجه التي سرعان ما تمّحي حالما يبدأ الدارس تحديد بداياته، وتتحول معاييره إلى تعميمات هلامية. وبالمعنى الضيق، برزت الرومنطيقية، باعتبارها حركة نضالية واعية لنفسها، في بريطانيا وفرنسا وألمانيا في مطلع القرن التاسع عشر (أي في نهاية العقد الأول بعد الثورة الفرنسية)، وفي مناطق أوسع في أوروبا وأمريكا الشمالية بعد معركة واترلو. وقد سبقتها قبل الثورة، وفي فرنسا وألمانيا كذلك، المرحلة التي سميت "ما قبل الرومنطيقية" التي يمثلها جان جاك روسو، وجيل من شعراء "العاصفة والقهر" الألمان الشباب. وربما بلغت هذه الحركة أوجها في أوروبا خلال الحقبة الثورية بين العامين 1830 و1848. وبالمعنى الواسع، تسيطر الرومنطيقية على عدد من الفنون الإبداعية في أوروبا منذ الثورة الفرنسية وما بعدها. وبهذا المعنى، فإن العناصر الرومنطيقية في موسيقى بيتهوفن، ولوحات غويا، وشعر غوته، وروايات بلزاك، تمثل الجوانب الجوهرية في عظمتهم، خلافاً لما هو الحال، على سبيل المثال، لدى هايدن أو موتزارت، وفراغونار ورينولدز (Reynolds)، وماتياس كلاوديوس (Mathias Claudius) أو كوديرلوس دو لاكلوس (Choderlos de Laclos) (الذين امتدت السنوات الأخيرة من حياتهم إلى تلك الفترة)، مع أن أحداً من هؤلاء لا يمكن أن يوصف، أو يصف نفسه، بأنه "رومنطيقي"[10]. وبمعنى أخر أكثر اتساعاً، فإن الموقف من الفن

(10) بما أن "الرومنطيقية" كانت بمثابة شعار وبيان لفئات الفنانين المغلولة، فإننا قد نكون عرضة للزلل إذا لم نحدد دلالاتها في سياقها التاريخي وحصرناها فيهم فحسب، أو إذا استثنينا الفئات الأخرى التي كانت تقف منها موقف المعارضة.

والفنانين الذين يتّسمون بالرومنطيقية يظل هو الموقف النموذجي لمجتمع الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر، وما زال يحافظ على الكثير من عناصره حتى الآن.

ومع أن الرومنطيقية لا تعني في جميع الأحوال مفهوماً محدداً، فإن ثمة معنى واضحاً كل الوضوح لما كانت تقف منه موقف المعارضة، ألا وهو مفهوم الوسطية. فقد كان توجُّهاً متطرفاً، بصرف النظر عن مضمونه. وقد اتخذ الفنانون والمفكرون الرومنطيقيون موقفاً يسارياً متطرفاً، مثل الشاعر شيلي (Shelley)، أو يمينياً متطرفاً، مثل شاتوبريان (Chateaubriand) ونوفاليس، أو متقلباً بين اليسار واليمين، مثل ووردزورث، وكولريدج، والعديد من أنصار الثورة الفرنسية المحبطين، أو متقلباً بين الولاء للنظام الملكي والولاء لليسار المتطرف مثل فكتور هوغو. ولكنهم، في الأحوال كافة، لم يقفوا موقف المعتدلين، أو الليبراليين المحافظين، أو العقلانيين الوسطيين، وهو الموقف الذي كان الحصن الحصين للمدرسة "الكلاسيكية". وعلى حد قول ووردزورث، المحافظ القديم: "إنني لا أكنّ أي احترام للمحافظين، غير أن لديّ نزعةً ميثاقيةً قويةً"(11). وعلينا أن لا نبالغ بالقول إن هذه النزعة تمثل عقيدة معادية للبورجوازية؛ لأن الروح الثورية العارمة التي كانت تعتمل في أوساط الطبقة الفتية المتحفزة للاجتياح كانت تستهوي الرومنطيقيين كذلك. وأصبح نابليون واحداً من أبطالهم الأسطوريين، مثل الشيطان، وشكسبير، واليهودي التائه، والعصاة الآخرين الذين تجاوزوا التخوم المعتادة للحياة. وكان العنصر الشيطاني الذي أثقل نفوسهم هو التراكم الرأسمالي، والجشع المستمر إلى تحقيق "المزيد" من الربح غير المحدود الذي يتجاوز حدود الحساب أو

---

(11) Edith C. Batho, *The Later Wordsworth* (New York: The Macmillan Company; Cambridge, Eng.: The University Press, 1933), p. 27, pp. 46-47 and 197-199.

القصد العقلاني، والحاجة، وحتى متطلبات الرفاهية المفرطة. وقد جسَّد أبطالهم النموذجيون، مثل فاوست ودون جوان، هذا الجشع الذي لا يقنع، مثلما جسّده التجار المغامرون في روايات بلزاك. ومع ذلك، ظل العنصر الرومنطيقي يحتل المرتبة الثانية، حتى في مرحلة الثورة البورجوازية. وقدم روسو بعض المستلزمات للثورة الفرنسية، إلا أنها هيمنت في الفترة التي تجاوزت فيها هذه الثورة حدود الليبرالية البورجوازية أيام روبسبيير. غير أنها، حتى في، تلك الآونة، كانت ذات إهابٍ روماني، عقلاني، ونيوكلاسيكي. وكان دافيد فيها هو الرسام، والعقل هو "الكائن الأسمى".

وفي هذه الحالة، لا يمكن اعتبار الرومنطيقية، ببساطة، حركة مناوئة للبورجوازية. بل إن كثيراً من الشعارات التي ارتفعت في مرحلة ما قبل الرومنطيقية خلال العقود السابقة للثورة الفرنسية كانت تمجيداً للطبقة الوسطى وتقريظاً لموقفها الصادق، البسيط، وربما المتهافت، مقابل المجتمع المتعالي الحافل بالفساد. وساد الاعتقاد بأن اعتمادها التلقائي على الطبيعة سيمكنها من اكتساح مخادعات البلاط وسلك الكهنوت. وعلى الرغم من ذلك، فإن انتصار البورجوازية في الثورتين الفرنسية والبورجوازية سرعان ما حوّل الرومنطيقية بصورة غريزية مؤكدة إلى عدو لدود لها.

ولا شك في أن نفور الرومنطيقية الشديد، المرتبك والعميق من المجتمع البورجوازي كان مبعثه المصالح الذاتية لجماعتين كانتا تمثلان قوة الاقتحام فيها، هما فئة الشباب الذين تزعزع وضعهم الاجتماعي؛ وفئة الفنانين الحرفيين. ولم يشهد الفنانون في أي وقت عصراً ذهبياً كالذي عرفه الرومنطيقيون؛ فقد نظم **الأهازيج الغنائية** (1798) شاعران شابان في العشرينات، وذاعت شهرة بايرون، بين عشية وضحاها، وهو في الرابعة والعشرين، وهي السن التي كان فيها شيللي مشهوراً أيضاً، وقارب فيها أجل كيتس (Keats) على الانتهاء. وقد بدأ هوغو حياته

الشعرية عندما كان في العشرين، وألفرد دو موسّيه في الرابعة والعشرين. ولحّن شوبارت قصيدة "الملك" وهو في الثامنة عشرة، وتوفي وهو في الحادية والثلاثين من العمر. ورسم دولاكروا لوحة "مذبحة تشيوس" عندما بلغ خمسة وعشرين عاماً، ونشر بتويفي ديوانه **قصائد** (*Poems*) في الحادية والعشرين. وكان أغلب الرومنطيقيين قد حققوا الشهرة وأنتجوا روائعهم قبل بلوغهم الثلاثين. وكانت مرحلة الشباب، ولا سيما في أوساط المثقفين والطلبة، هي موطنهم ونقطة انطلاقهم الطبيعية. وفي تلك الأيام أصبح الحي اللاتيني في باريس، للمرة الأولى منذ القرون الوسطى، لا مجرد مكان قريب من السوربون فحسب، بل أصبح مفهوماً ثقافياً (وسياسياً). وكانت ثمة مفارقة صارخة بين عالم يفتح نظرياً ذراعيه للمواهب، وبين الممارسة الفعلية، جراء الظلم الشامل الذي احتكره البيروقراطيون الأجلاف والمتحذلقون البطينون.

كانت تحاصرهم ظلال السجن، والزواج، والمهنة المحترمة، والانجراف مع التيار المادي. وكما يقول المسجل هيربراند في رواية إ. ت. أ. هوفمان (E. T. A. Hoffmmann) **الإناء الذهبي** (*Goldener Topf*)، كانت طيور الليل التي تمثل أسلافهم القدامى تنذرهم (وهي تبتسم ابتسامة ماكرة مبهمة)، بمصيرهم المحتوم وبمستقبل الشاعر الشاب أنسلموس على يد وزير البلاط. وكان بايرون من صفاء الذهن بحيث تنبأ بأن الموت المبكر وحده هو الذي سينقذه من شيخوخة "محترمة". وقد أثبت أ. و. شليغل (A. W. Schlegel) أنه على حق. وليس ثمة ما يشير بالطبع إلى أن تمرد الشباب ضد من يكبرونهم سناً كان ظاهرة عالمية شاملة. فقد كان تعبيراً عن مجتمع خلقته الثورة المزدوجة. إلا أن الشكل التاريخي المحدد لهذا الاستلاب قد ترك بالتأكيد آثاره المميزة على جانب كبير من الرومنطيقية.

وعلى هذا النحو كان، إلى حد كبير، اغتراب الفنان الذي رد على

ذلك بالنبوغ في مجاله، ويمثل النبوغ واحداً من أبرز ابتكارات العهد الرومنطيقي. وقد يكون الفنان نابغة أو عبقرياً، إلا أن عليه أن لا يتصرف على هذا النحو، ولا سيما عندما تكون وظيفته الاجتماعية واضحة، وعلاقته مع الجمهور مباشرة، وعندما تكون الإجابات عما يثار من أسئلة مستمدة من التقاليد والقيم الأخلاقية والعقل أو أية منظومة من المعايير المتواضع عليها. والقلة التي ترقبت أنماط القرن التاسع عشر، من أمثال مايكل أنجلو (Michelangelo)، وكارافاتشيو (Caravaggio) أو سلفاتور روزا (Salvator Rosa)، تظل قائمة ظاهرة للعيان بين الصناع والفنانين الحرفيين المهنيين من أمثال يوهان سبستيان باخ (John Sebastian Bach)، وهاندل (Handel)، وهايدن، وموتزارت، وهم يماثلون فراغونار وغينزبورو (Gainsborough) في المرحلة ما قبل الثورية. وعندما تستمر المؤسسات الاجتماعية القديمة وأمثالها بعد الثورة المزدوجة، فإن الفنان يظل بعيداً عن النبوغ، مع أنه قد يكون مغروراً تماماً. وقد واصل المعماريون والمهندسون العاملون في مشروعات محددة إنتاج بنايات مفيدة بصورة جلية، وبأشكال واضحة مفهومة. والجدير بالملاحظة أن الأغلبية العظمى من البنايات النموذجية، وأكثرها شهرة، تقريباً، خلال تلك الفترة بين العامين 1790 و1848 قد بنيت على الطراز النيوكلاسيكي، مثل كنيسة المادلين (المجدلية)، والمتحف البريطاني، وكاتدرائية سانت آيزاك في لينغراد (بطرسبرغ)، وناش في لندن، وشينكل في برلين، أو أنها كانت وظيفية الغرض، مثل الجسور الرائعة، والقنوات، ومباني السكة الحديدية، والمصانع، والحدائق. وكانت كلها، من الوجهة الفنية، ذات جمال مشهود في تلك الأيام.

غير أن المعماريين والمهندسين في تلك الفترة كانوا، بالإضافة إلى أساليبهم، يتصرفون بوصفهم مهنيين محترفين، لا بوصفهم عباقرة. ومن ناحية ثانية، فإن الموسيقيين والكتاب في ميادين الفن الشعبية الحقيقية، مثل الأوبرا في إيطاليا، (وعلى مستوى أرقى) الرواية في إنجلترا،

واصلوا أعمالهم الفنية على أساس أن المعيار الطبيعي لفنّهم هو تصاعد إقبال الجمهور على أعمالهم، لا مقدار الوحي والإلهام الذي يهبط عليهم من ربّات الفن. ولم يكن موسيقار مثل روسيني ليأمل في إنتاج أوبرا فاشلة تجارياً. كما أن ديكنز الشاب لم يكن ليكتب أو ينشر رواية غير مسلسلة من دون أن يتوقع لها الرواج ويأمل من ورائها بعض الريع. وذلك ما نراه، حتى في أيامنا هذه، عندما يتعرض النص الأصلي الذي يضعه كاتب الأوبرا الموسيقية للتغيير والتنقيح ليتواءم ومتطلبات الجمهور والسوق (وقد نجد في ذلك تفسيراً للسبب الذي جعل الأوبرا الإيطالية في ذلك الوقت تفتقر إلى العنصر الرومنطيقي، على الرغم من ولعها بالدم، والرعد، والأوضاع "المشحونة").

تكمن المشكلة الحقيقية في أن الفنان كان مقطوع الصلة بوظيفة معترف بها، أو براع يساند فنه، أو جمهور يقبل عليه. وقد تُرك الفنان وحده، وأصبح ما تجود به قريحته سلعةً في سوق عمياء قد تصادف الرواج أو الكساد، أو أنه، بالمقابل، يسعى للحصول على الدعم من نظام للرعاية يؤمن له، بصورة عامة، دخلاً اقتصادياً. إلا أن هذا الظهير لم يعد موجوداً، مع أن الثورة الفرنسية أعادت للفنان الموهوب كرامته الإنسانية. لقد غدا الفنان، إذن، واقفاً وحيداً من دون سند، يصيح في عتمة الليل، ويساوره الشك في أن نداءه سيلاقي الصدى المطلوب. وكان طبيعياً أن يجعل الفنان من نفسه عبقرياً يبدع ما يعتمل في نفسه، بصرف النظر عما في العالم من حوله، ودونما اعتبار للجمهور الذي كان سيقبل بالفنان، وفق شروطه، أو لا يقبل به على الإطلاق. لقد كان، في أحسن الحالات، يطمع في أن يكون، مثل ستاندال، مفهوماً لدى قلة قليلة من الناس، أو لدى أجيال قادمة غير محددة. وما عدا ذلك، فإنه، في أسوأ الحالات، سيكتب، مثل غْرابّي، مسرحياتٍ غيرَ قابلة للتمثيل، أو حتى مثل غوته، الذي كتب **فاوست** ـ الجزء الثاني. في ظروف مشابهة، أو أنه، مثل برليوز، سيضع المؤلفات الموسيقية لتعزفها أوركسترات ضخمة بصورة غير واقعية، أو أنه سيصاب

بالجنون، شأنه شأن هويلدرلن، وغْرابِّ، ودو نرفال، وآخرين عديدين. والواقع أن العباقرة الذين أسيء فهمهم قد أجزل لهم العطاء أمراء اعتادوا أن ينفقوا على نزوات عشيقاتهم ببذخ بالغ، أو بورجوازيون أغنياء حريصون على الإغراق في المتع المترفة الراقية في الحياة. إن فرانز ليسْت (1811ـ1886) لم يعانِ الجوع أو الحاجة في عِلّيته الرومنطيقية المعروفة. ولم ينجح إلا القليلون في تحقيق أحلام العظمة كما حققها ريتشارد فاغنر. غير أن الأمراء في الفترة الممتدة بين ثورتي 1789 و1848 كانوا في أغلب الأحيان يتوجسون خيفة من الفن غير الأوبرالي[12]. كما أن البورجوازيين عكفوا على تكديس الأموال لا على إنفاقها. وتعرض النوابغ، بالتالي، لسوء الفهم والفقر على حد سواء. وكان أغلبهم ثوريين.

كان من نتائج تعرض الشباب و"النابغين" لسوء الفهم هذا أن بدأ الرومنطيقيون يحسون بالنفور من الجهلة، وينقضّون على البورجوازيين، ويصيبونهم بالصدمة، وينغمسون في عالم الغواني (Demi-monde) والتشرد (Bohème) (وقد استمد هذان المصطلحان دلالتهما الحالية من تلك الفترة الرومنطيقية)، واستلطاف الجنون والأمور التي تحرّمها المؤسسات والهيئات المحترمة. لكن ذلك لم يكن غير واحد من المكونات الصغيرة للرومنطيقية. وموسوعة ماريو براز (Mario Praz) عن التطرف الشبقي لا تمت بصلة إلى ما يسمى "العذاب الرومنطيقي"[13] إلا بقدر ما تعتبر المناقشة عن الجماجم والأشباح نقداً لمسرحية **هاملت**. ووراء الامتعاض المجزّأ الذي أبداه الرومنطيقيون الفنانون الشباب (وأحياناً

---

(12) يمثل ملك إسبانيا السيئ الذكر فرديناند (Ferdinand)، الذي استمر في رعايته للفنان الثوري غويا على الرغم من جميع الاستفزازات السياسية والفنية، حالة استثنائية في هذا المجال.

(13) Mario Praz, *The Romantic Agony*, Translated from the Italian by Angus Davidson (London: Oxford University Press; H. Milford, 1933).

الشابات، لأن تلك كانت المناسبة الأولى التي تظهر فيها الفنانات الأوروبيات بهذا الحجم)، كان ثمة استياء أعمق وأشمل من المجتمع الذي أفرزته الثورة المزدوجة[14].

لم يكن التحليل الاجتماعي الدقيق من مواطن القوة لدى الرومنطيقيين على الإطلاق، بل إنهم، على العكس من ذلك، كانوا يتشككون في سلامة التفكير الآلي المادي الواثق في القرن الثامن عشر (ويمثله نيوتن، الذي كان يثير الغيظ لدى كل من وليام بليك وغوته). وكانوا يعتبرون هذا التفكير المادي إحدى الأدوات التي استخدمت لبناء المجتمع البورجوازي. ومن ثم، لم يكن متوقعاً منهم أن يقدموا نقداً رصيناً للمجتمع البورجوازي، على الرغم من أن ما يشبه هذا النقد قد ظهر متنكراً في ثياب "فلسفة طبيعية"، حائماً وسط غيبيات ضبابية. وقد برز مثل هذا النقد في إطار "رومنطيقي" عريض، وأسهم، بين جملة منجزات أخرى، في فلسفة هيغل[15]. كما ظهر نقد مشابه في أوساط أوائل الاشتراكيين اليوتوبيين في فرنسا، على هيئة ومضات رؤيوية غريبة هي أشبه ما تكون بالجنون. وتتمثل الآثار الباقية من هذه التقييمات الرومنطيقية في مفهوم "الاستلاب/ الاغتراب" الإنساني،

---

(14) نذكر من تلك النساء: مدام دو ستايل (Mme de Staël)، وجورج صاند (George Sand)، والرسامات مدام فيجيه لوبرون (Mme Vigée Lebrun)، وأنجليكا كوفمان (Angelica Kauffman) في فرنسا؛ وبيتينا فون أرنم (Bettina von Arnim)، وأنيت فون دروست ـ هويلشوف (Annette von Droste-Huelshoff) في ألمانيا. وكانت ظاهرة النساء الروائيات شائعة في أوساط الطبقة الوسطى في إنجلترا، حيث جرى الإقرار بهذا النوع الأدبي بوصفه وسيلة "محترمة" للكسب من جانب البنات اللواتي نشأن نشأة حسنة في بيوت أهلهن. وتقع في هذه الفئة، كلياً أم جزئياً، فاني بيرني (Fanny Burney)، والسيدة رادكليف (Radcliffe)، وجين أوستن (Jane Austen)، والسيدة غاسكيل (Gaskell)، والأخوات برونتي (Brontë)؛ ويصدق ذلك أيضاً على الشاعرة إليزابيث باريت براوننغ (Elizabeth Barrett Browning).

(15) انظر ص 459-464 من هذا الكتاب.

الذي أدى دوراً مهماً في تفكير ماركس الشاب، الذي ترعرع في كنف التقاليد الفكرية الألمانية (أي الرومنطيقية في المقام الأول)، ولم يصبح "ماركسياً" إلا بعد أن جمع بين النقد الاشتراكي الفرنسي، ونظرية الاقتصاد السياسي الإنجليزية (غير الرومنطيقية على الإطلاق). وكان الاقتصاد السياسي هو الذي شكّل نواة فكره الناضج.

III

ليس من الحكمة على الإطلاق أن نتجاهل أهواء القلب التي لا يعرفها العقل على الإطلاق. لقد نُبذَ الشعراء خارج الإطار المرجعي الذي وضعه علماء الاقتصاد والفيزياء، بيد أن بصيرتهم لم تكن أكثر عمقاً فحسب، بل أكثر صفاءً ووضوحاً أحياناً. إذ لم تَرَ إلا قلةٌ من الناس ما رآه وليام بليك في تسعينات القرن الثامن عشر من زلزال اجتماعي أحدثته الآلات والمصانع قبيل ذلك، على الرغم من أنه لم يشاهد في لندن في تلك المرحلة غير عدد قليل من المحطات البخارية والأتونات التي يحرق فيها طوب البناء. إن أفضل معالجاتنا حول مشكلة الزحف الحضري مستمدة، مع استثناءات قليلة، من نتاج الكتّاب ذوي الخيال الواسع الذين أثبتت ملاحظاتهم ـ التي تبدو في ظاهرها غير واقعية ـ أنها مؤشر يمكن الركون إليه لتبين مستوى التطور الحضري لباريس[16]. ولتعريفنا على إنجلترا كما كانت عام 1848، فإننا قد نجد في كارلايل دليلاً أكثر إرباكاً، ولكنه أكثر عمقاً، مما قدمه الخبير الإحصائي الجامع المثابر ج. ر. ماكولوك (J. R. McCulloch). وإذا كان جون ستيوارت مِلْ أفضل من غيره من الفلاسفة النفعيين، فذلك لأن أزمة شخصية جعلته وحده أكثرهم إدراكاً لقيمة ناقديْ المجتمع: الألماني

---

(16) Louis Chevalier, *Classes laborieuses et classes dangereuses à Paris pendant la première moitié du XIXe siècle*, civilisations d'hier et d'aujourd'hui (Paris: Plon, 1958).

غوته والرومنطيقي كوليريدج. ولهذا، فإن التقييم الرومنطيقي للعالم، على ضعفه، جدير بالاعتبار.

كان ما يعتمل في نفوس النقاد الرومنطيقيين هو التوق إلى الوحدة المفقودة بين الإنسان والطبيعة. لقد كان العالم البورجوازي مُجافياً للمجتمع، على نحو أكثر عمقاً واستهدافاً. فقد قطع، بطريقة شرسة، الوشائج المتعددة العناصر التي كانت تربط الإنسان بـِ "أسيادِه الطبيعيين"، وبالتالي، قطعت الصلات بين الإنسان والإنسان، ما عدا المصلحة الذاتية العارية، وجلافة "الدفعة النقدية". لقد أغرقت الحماسة السماوية المهيبة، والعاطفة الدينية المشبوبة، ونخوة الشهامة، والعواطف العفوية، في صقيع الحسابات الأنانية. لقد حولت البورجوازية القيمة الإنسانية واستبدلتها بما يعادلها حسب أسعار السلع والعملات، واستعاضت عن الحريات الأصلية التي لا حصر لها بحرية واحدة وحيدة عديمة الضمير: حرية التجارة؛ وذلك ما يقوله "البيان الشيوعي". غير أن هذا الصوت إنما كان ينطق كذلك بلسان الرومنطيقيين. وربما كان عالم البورجوازية قد جلب الثراء لبعض الناس، والتعاسة لأعداد هائلة من البشر، وترك نفوسهم، في جميع الأحوال، عارية موحشة. لقد تركهم كائناتٍ مشردةً ضائعة غريبة "مُسْتَلَبة". لقد قطعت هوة ثورية سحيقة صلتهم بالتاريخ الإنساني، حتى من أوضح الردود على الاستلاب، وهو القدرة على اتخاذ قرار عدم الهجرة من مواطنهم القديمة. وكان شعراء الرومنطيقية الألمان يعتقدون أكثر من غيرهم أن الخلاص إنما يكمن في حياة العمل البسيط المتواضعة - التي عُرفت في مرحلة ما قبل الرأسمالية في البلدات الصغيرة الوادعة المتناثرة بين المروج الحالمة - وهي الحياة التي وصفها هؤلاء الشعراء كما لم يصفها أحد من قبل. غير أن الشباب منهم اضطروا إلى مغادرة مواطن إقامتهم ليواصلوا مساعيهم الرامية إلى تحقيق ما لا يتحقق من الأحلام، أو أن يهيموا على غير هدى، يملؤهم الحنين إلى العودة إلى ديارهم، ويرددون أغاني شوبارت أو قصائد آيخندورف.

كانت ألحان الضياع حُداءَهم، والوُطان رفيقَهم. بل إن نوفاليس عرّف الفلسفة من منطلقات رومنطيقية[17].

لقد تضافرت الينابيع الثلاثة التالية لإرواء الظمأ إلى الانسجام المفقود بين الإنسان والعالم: القرون الوسطى، والإنسان البدائي (أو ما يعادله ممثَّلاً بالرغبة في كل ما هو مجلوب ودخيل وغريب، أو بالعودة إلى روح "العِشْرَة")، والثورة الفرنسية.

واجتذب الينبوع الأول الرومنطيقية الرجعية أساساً. فالمجتمع المنظم الذي كان في عصر الإقطاع، ونتاج العصور العضوي البطيء الملون بشعارات النبالة والنسب والأبهة، يكتنفه الغموض المبهم الذي تتلفع به الغابات المليئة بالخرافات، ويستظل بالسماوات المسيحية التي لا شك فيها ولا ريب. كان هذا هو الفردوس المفقود بالنسبة للمحافظين المناوئين للمجتمع البورجوازي. وقد أرهف من شعور هؤلاء بالتقوى والولاء، مستوى الأمية العالي في أوساط الطبقات الدنيا من جماهير الثورة الفرنسية. وطرأت على أحلام الماضي هذه تعديلات محلية جعلت إدموند بيرك في كتابه **تأملات في الثورة الفرنسية** (*Reflections on the French Revolution*) (1790) يعتبرها نموذجاً مثالياً حاول أن يُفحِمَ به العَلْمانيين الذين اقتحموا سجن الباستيل. بيد أنها وجدت التعبير الكلاسيكي عنها في ألمانيا، التي حققت في تلك الفترة نوعاً من الاحتكار لهذا الحلم القروسطي، ربما لأن مفهوم "الطمأنينة" والدعة وراحة البال، المرتبط بقلاع الراين وتضاعيف "الغابة السوداء" كان، على ما يبدو، أكثر مدعاةً للإعجاب والتمجيد من القسوة والقذارة الشائعتين في البلدان القروسطية الحقيقية[18]. ومهما كان الأمر، فإن

(17) Ricarda Huch, *Die Romantik*, vol. I, p. 70.

(18) يقول غوتييه (Gautier) الذي كان، كغيره من الرومنطيقيين الفرنسيين، يحب ألمانيا حتى العشق: "آه يا هرمان، آه يا دوروثي! الطمأنينة! (Gemuetlichkeit) ألا يتناهى إلى الأسماع من بعيد صوت الحوذي الذي يقترب بعربة المسافرين والبريد؟". انظر: Pierre =

الروح القروسطية كانت العنصر الأقوى في الرومنطيقية الألمانية، كما أنها كانت تُشِعُّ من ألمانيا على خارجها، سواء اتخذت شكل الأوبرا أو الباليه (مثل عملَيْ فيبر "فرايشوتْزْ" (Freischuetz) و"غيزيل" (Giselle))، أو **الحكايات الخرافية** (*Fairy Tales*) (للأخويْن ياكوب وفيلهلم غْرِيْم (Grimm))، أو تمثلت في إنتاج كتاب ألهمتهم النزعة النظرية التاريخية، أو الروح الجرمانية، مثل كولريدج أو كارلايل. إلا أن إحياء الروح القروسطية المعمارية القوطية في شكلها العام كان هو الشعار الذي رفعه المحافظون، ولا سيما المتدينون المعادون للبورجوازية في كل مكان. وقد أشاد شاتوبريان بالنزعة المعمارية القوطية في كتابه **عبقرية المسيحية** (*Génie du christianisme*) (1802) ضد الثورة، كما وقف إلى جانبها أنصار الكنيسة الإنجليزية في مواجهتهم للعقلانيين والمتمردين ممن حافظت الطرز المعمارية التي تميزت بها مبانيهم على الطابع الكلاسيكي. وكان المهندس المعماري بوغين (Pugin) و"حركة أوكسفورد" الشمولية المغرقة في الرجعية قوطيين حتى العظم. وفي تلك الأثناء، ومن أقاصي اسكوتلندا النائية الملفّعة بالضباب، الحافلة بالأحلام العتيقة، كتلك التي عبرت عنها قصائد أوسيان المبتكرة، قام والتر سكوت المحافظ في رواياته التاريخية بإمداد أوروبا بجرعات إضافية من الصور المستوحاة من القرون الوسطى. ولم يأبه الناس بأن أفضل رواياته كانت تتناول فترات متأخرة نسبياً عن تلك المرحلة.

ومع غلبة هذه الروح القروسطية المحافظة، التي سعت الحكومات الرجعية بعد العام 1815 إلى ترجمتها إلى تبريرات متهافتة للحكم المطلق[19]، لم تكن القروسطية اليسارية ذات شأن. فقد تمثلت في إنجلترا أساساً في تيار كان يميل، داخل الحركة الشعبية الراديكالية، إلى

Jourda, *L'Exotisme dans la littérature française depuis Chateaubriand* (Paris: [n. = pb., 1939]), p. 79.

(19) انظر ص 427–428 من هذا الكتاب.

اعتبار الفترة التي سبقت "الإصلاح" هي العهد الذهبي للعمال، والإصلاح نفسه الخطوةَ الكبرى الأولى نحو الرأسمالية. أما في فرنسا، فكانت هذه الروح أهم من ذلك بكثير؛ لأنها لم تركز هناك على التراتبية الإقطاعية، ولا على سلك الكهنوت الكاثوليكي، بل على "الشعب"؛ الشعب الخلاق الأبدي المضطرم بالمعاناة. وركز الشعب الفرنسي على هويته ورسالته على الدوام. وكان الشاعر المؤرخ جول ميشيليه أعظم هؤلاء الديمقراطيين الثوريين القروسطيين، مثلما كانت رواية فكتور هوغو **أحدب نوتردام** (*Hunchback of Notre Dame*) هي الأكثر شهرة بين ثمار هذا الانشغال بروح الشعب.

وقد وجدت القروسطية، ولا سيما في انشغالها بالتقاليد الدينية والغيبية، حليفاً وفياً لها في التيارات الرامية إلى العودة إلى المنابع العريقة العميقة للطقوس الباطنية الغامضة والحكمة اللاعقلانية في الشرق، المتجلية في مذاهب قبلاي خان والبراهمية. وصحيح أن مكتشف اللغة السنسكريتية، السير وليام جونز، كان من المحافظين الراديكاليين المتطرفين الذين هللوا للثورتين الأمريكية والفرنسية، شأنهم شأن كل المحترمين والمستنيرين آنذاك، إلا أن أغلبية الهواة المولعين بالشرق، والشعراء الذين أغرموا بنظم ما يشبه الشعر الفارسي، كانوا ينتمون إلى المعسكر المناوئ لليعقوبية، وهو الجانب الذي نشأت في أحضانه أكثر المدارس الاستشراقية الحديثة. ولم يكن مستغرباً أن تتجه أنظارهم إلى الهند البراهمية بوصفها مَحَجَّهم الروحي، لا إلى الإمبراطورية الصينية العقلانية غير المتدينة التي أثارت مخيلة الناس المستنيرين في القرن الثامن عشر.

IV

إن لحلم الانسجام المفقود لدى الإنسان البدائي تاريخاً أقدم وأكثر تعقيداً. لقد كان هذا الحلم، بصورة غالبة، ثورياً في جوهره، سواء في حنينه إلى عصر ذهبي للشيوعية القديمة أو المساواة "عندما كان آدمُ يتولى

الحراثة، وحواءُ الغَزْل"، وذلك قبل أن يستعبد الغزاة النورمانديون الأنغلوسكسونين الأحرار، أو تتغلب مفاسد المجتمع الحديث على براءة الإنسان "الوحشي النبيل". ومن ثم، كانت الرومنطيقية البدائية أكثر جاذبية للمتمردين اليساريين، إلا إذا كانت مجرد ملاذ يهربون إليه من المجتمع البورجوازي (وقد تجلت مثل هذه النزعة الغرائبية لدى غوتييه، وكذلك لدى ميريميه الذي اكتشف الوحشي النبيل كمشهد سياحي في إسبانيا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر). ولم تكن تستهويهم كذلك إذا حولت الاستمرارية التاريخية الإنسانَ البدائي إلى نموذج ورمز للروح المحافظة. وكانت هذه هي الحالة التي غلبت على مفهوم "القوم"، أو الجماعة، وكانت روح "القوم" هذه، في نظر الرومنطيقيين على اختلاف منابتهم، تمثل الفلاحين والحرفيين في المرحلة ما قبل الصناعية، التي لم يدنسها الفساد، وكانت فيها اللغة، والأغاني، والحكايات والتقاليد هي المنابع الحقيقية لحياة الشعب الروحية. وكانت العودة إلى تلك البساطة وتلك الفضيلة هي الهدف الذي رمى إليه ووردزورث عندما كتب **قصائد غنائية**؛ وكان مطمح العديد من الشعراء، والفنانين، والموسيقيين في شمال ألمانيا أن يندمجوا ويصبحوا جزءاً لا يتجزأ من تراث الأغاني الشعبية والحكايات الشعبية. وارتبطت بالرومنطيقية ارتباطاً وثيقاً حركةٌ نشطة لجمع الأغاني الشعبية، ونشر الملاحم الشعبية القديمة، ووضع القواميس والمعاجم للغة المحكية الحية، وأصبح مصطلح "الفولكلور" من مبتكرات تلك المرحلة. وكان من جملة المعالم البارزة لهذه الجهود كتاب والتر سكوت **أغانٍ من حدود اسكوتلندا** (*Minstrelsy of the Scottish Border*) (1846)، وكتاب آرنيم وبرينتانو **قرن الولد السحري** (*Des Knaben Wunderhorn*) (1806)، و**الحكايات الخرافية** للأخويْن غريم (1812)، وكتاب مور (Moore) **أغانٍ إيرلندية** (*Irish Melodies*) (1807-1834)، ومؤلف دوبروفسكي **تاريخ اللغة البوهيمية** (*History of the Bohemian Language*) (1818)، وقاموس اللغة الصربية (1818)، والأغاني الصربية الشعبية (1823-1833) اللذان

أعدهما فُوكْ كاراجيك (Vuk Karajic)، وكتاب **قصة فريثيوفس** (*Frithjofssaga*) الذي ألفه إيسايِاس تيغنر (Tegner) في السويد (1825)، ومؤلَّف إلياس لونروت (Lönnrot) **كاليفالا** (*Kalevala*) في فنلندا (1835)، وكتاب الأخويْن غريم عن **الأساطير الألمانية** (*German Mythology*) (1835)، وكتاب **الحكايات الخرافية النرويجية** (*Norwegian Folk Tales*) (1842ـ1871) من إعداد أسبيورنسون وموي (Asbjörnson and Moe).

إن مفهوم "القوم/ الشعب" قد يكون مفهوماً ثورياً، خصوصاً في أوساط الشعوب المقهورة التي توشك على اكتشاف هويتها الوطنية أو إعادة تأكيدها، ولا سيما بين الناس الذين لا ينتسبون إلى الطبقة العاملة أو إلى أصول أرستقراطية. وبالنسبة لهؤلاء يكون أول قاموس أو كتاب لقواعد النحو أو الأغاني الشعبية حدثاً عظيم الأهمية من الوجهة السياسية، وشيئاً أشبه بأول إعلان للاستقلال. وبالنسبة للناس العاديين الذين يتحلون بالفضائل البسيطة، بما فيها القناعة والجهل والورع، فإن الحكمة العميقة الكافية في ثقتهم بالبابا، أو الملك، أو القيصر، أو لمشاعر التبجيل لكل ما هو بدائي بينهم، يمكن من ناحية أخرى أن تحمل دلالات محافظة. فهي ترمز إلى الاتحاد بين البراءة والأسطورة والتقاليد القديمة، التي كانت البورجوازية تتولى تدميرها بصورة يومية[20]. وقد كان الرأسماليون، والعقلانيون، هم الأعداء الذين وقف الملك، والوجهاء، وحتى الفلاحون، صفاً واحداً في وجههم.

كان البدائيون حاضرين في كل قرية. لكن حضورهم كان مفهوماً أكثر ثوريةً في العصور الذهبية الماضية التي شاعت فيها الشيوعية البدائية

---

(20) يظل تفسير الشعبية الجديدة التي اكتسبتها الرقصات المستمدة من الفولكلور خلال تلك الفترة مسألة تتعلق بالذوق. ومن هذه الرقصات التي تجري في الردهات الواسعة: الفالس، والمازوركا، والشوتيششي. ولا بد أنها كانت رومنطيقية الطابع بالتأكيد.

الموهومة في الداخل، والمتوحش النبيل الحر في الخارج، كما كانت الحال بالنسبة للهنود الحمر. وما بين روسو الذي أعلى من شأن الإنسان الاجتماعي الحر وبين الاشتراكيين، كان المجتمع البدائي نوعاً من أنواع اليوتوبيا المثالية. وتتردد أصداء هذه التقاليد الفكرية لدى ماركس، الذي حول هذا المفهوم وعدله على مستويات أعلى، في تقسيمه الثلاثي للتاريخ: من مجتمع شيوعي بدائي، إلى مجتمع طبقي، إلى شيوعي. ولم يكن النموذج البدائي المثالي رومنطيقياً بحد ذاته. والواقع أن عدداً من دعاته وأنصاره كانوا من لوامع القرن الثامن عشر. وقد تحولت أنظار الرعيل الأول في الحملة الرومنطيقية إلى الصحارى الكبرى في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وإلى المحاربين والغواني في رسوم دولاكروا وفرومانتان (Fromentin)، وانتقلوا مع الشاعر بايرون إلى عالم البحر الأبيض المتوسط، ومع الروائي ليرمونتوف (Lermontov) إلى القفقاس، حيث كان الإنسان الطبيعي، ممثلاً بالقوزاق، يحارب الإنسان الطبيعي الآخر برجال القبائل في أصقاع زاخرة بالهُوى السحيقة والشلالات، بدلاً من يوتوبيا تاهيتي الاجتماعية البريئة الحافلة بالشهوة الغرامية. غير أنها حملتهم كذلك إلى أمريكا، حيث كان الإنسان البدائي يخوض معركة يائسة خاسرة، مما جعله قريباً كل القرب من قلوب الرومنطيقيين ومزاجهم. وتمثل القصائد التي نظمها الشاعر النمساوي الهنغاري ليناو (Lenau) عن أوضاع الهنود الحمر صرخة احتجاج على طردهم؛ ولو لم يكن "موهيكان" آخر الزعماء في قبيلته، لما تحوّل إلى رمز عميق الدلالة في الثقافة الأوروبية. وقد لعب المتوحش النبيل في الرومنطيقية الأمريكية دوراً أبلغ أهمية وأعمق وقعاً مما هو في الرومنطيقية الأوروبية، ويتجلى ذلك في أروع صوره في رواية هيرمان ملفيل **موبي ديك** (*Moby Dick*) (1851). إلا أن شخصيته استحوذت على خيال العالم القديم في سلسلة روايات فينيمور كوبر (Fenimore Cooper) **الجراب الجلدي** (*Leatherstocking*)؛ وذلك ما لم تستطع أن تفعله شخصية ناتشيز في كتابات شاتوبريان.

كانت القرون الوسطى، والروح الفولكلورية، وشخصية المتوحش النبيل هي النماذج المثالية الوافدة من الماضي. ولم يكن يشير إلى المستقبل على نحو لا لبس فيه إلى الثورة، "ربيع الشعوب". بيد أن الأكثر مثاليةً بين اليوتوبيين كانوا يرتاحون إلى استحضار الشواهد من أوضاع سابقة للدلالة على مستقبل لا سابقة له. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، إلا بعد أن أظهر جيل ثانٍ من الرومنطيقيين كوكبة من الشباب الذين كانت الثورة الفرنسية ونابليون بالنسبة لهم وقائع تاريخية ملموسة، لا مجرد فصل مؤلم من سيرة ذاتية. فقد كان عام 1789 موضع ترحاب وإجلال من جانب جميع الفنانين والمثقفين في أوروبا. وعلى الرغم من أن بعضهم حافظوا على ولائهم للثورة حتى خلال الحرب، والفساد البورجوازي، وعهد الإمبراطورية، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على التعبير بسهولة عن أحلامهم. وحتى في بريطانيا، حيث كان الجيل الأول من الرومنطيقيين من أمثال بليك، ووردزورث، وكوليريدج، وسوذي، وكامبل، وهازليت من اليعاقبة بصورة كاملة، فقد سيطرت على هؤلاء خيبة الأمل والنزعة المحافظة الجديدة بحلول العام 1805. بل إن مصطلح "الرومنطيقية" قد ابتكر في فرنسا وألمانيا بحلول أواخر التسعينات من القرن الثامن عشر، بوصفه شعاراً مناوئاً للثورة من قبل المحافظين المعادين للبورجوازية (الذين كانوا في أغلب الأحيان من اليساريين المحبطين)، ويفسر ذلك أسباب استثناء عدد كبير من المفكرين والفنانين الذين يعتبرون رومنطيقيين تماماً بالمقاييس الحديثة في تلك البلدان من هذا التصنيف تقليدياً. غير أن السنوات الأخيرة من الحروب النابليونية شهدت ظهور أجيال جديدة من الشباب الذين ألهبت حماستهم شعلة الحرية التي رفعتها الثورة، وتغاضوا عما أغرقت فيه من مفاسد؛ بل إن نابليون، حتى بعد نفيه وتضاؤل التعاطف مع شخصيته، بقي في نفوسهم رمزاً أسطورياً للحرية والتحرير. وفيما كانت أوروبا تغرق، سنةً بعد سنة، في غياهب الرجعية والرقابة والابتذال، وفي المستنقعات الموبوءة الزاخرة بالفقر والتعاسة والعسف، كانت صورة الثورة المحرِّرة تزداد لمعاناً وتألقاً.

ومن هنا، فقد انحسرت لدى الجيل الثاني من الرومنطيقيين البريطانيين ـ الذي يضم بايرون (1788ـ1824)، ورفيق الطريق غير المسيَّس جون كيتس (1795ـ1821)، وفي مقدمتهم جميعاً بيرسي بيش شيللي (1792ـ1822)، وهو أول من جمع بين الرومنطيقية والثورية النشطة؛ ـ خيبات الثورة الفرنسية، التي ظلت طرية في نفوس أكثر أسلافهم، مقابل ما كانوا يشهدونه من جوانب الرعب في عملية التحول إلى الرأسمالية في بلادهم. أما في القارة الأوروبية، فقد كان التقاء الفن الرومنطيقي بالثورة أمراً متوقعاً منذ عشرينات القرن الثامن عشر، بيد أنه لم يتحقق إلا خلال الثورة الفرنسية عام 1830 وبعدها. ويصدق ذلك على ما يمكن تسميته الرؤية الرومنطيقية للثورة، والأسلوب الرومنطيقي في ممارسة الثورة، الذي نتلمس التعبير المألوف عنه في لوحة دولاكروا "الحرية وراء المتاريس" (1831). ففي هذه اللوحة، نشاهد ثلة من الشبان المتجهمين الملتحين، بطاقياتهم، والعمال الذين يرتدون قمصاناً قصيرة الأكمام، ومنبراً يعتليه فوجٌ من الأشخاص المُرْسَلي الشعر يعتمرون قبعات عريضة، تحيط بهم الأعلام الثلاثية اللون والقلنسوات الصغيرة، وهم يعلنون ثورة 1793، لا ثورة 1789 المعتدلة، بل ثورة السنة الثانية المشهودة، ويقيمون متاريسها في كل مدينة في القارة الأوروبية.

صحيح أن الثوري الرومنطيقي لم يكن أمراً جديداً تماماً. فقد كان أسلافه وسابقوه أعضاء في الجماعات الثورية السرية الماسونية، ومنها الكاربوناري والرابطة الهيلينية، الذين استوحوا أفكارهم مباشرةً من قدامى اليعاقبة الأحياء، أو من البابوفستيين مثل جماعة بوناروتي. وكان هؤلاء هم الذين تصدروا الكفاح خلال مرحلة الإصلاح، وكانوا من الشباب الذين يتدفقون حيويةً، ويترددون على حفلات الأوبرا والسهرات ومهمات العمل وهم يرتدون زيَّ الحراس أو الفرسان في لقاءات مع الدوقات، أو في اجتماعات راقية طقوسية الطابع بهدف القيام بانقلاب عسكري أو يتزعمون النضال نيابة عن شعب مكافح،

على الطراز البايروني في واقع الأمر. ولم يقتصر الأمر على تأثر هذا الأسلوب الثوري مباشرة بطرائق التفكير في القرن الثامن عشر، وربما بصورة أكثر حصراً ممن سبقهم من الناحية الاجتماعية. فقد كان أتباع هذا التيار يفتقرون إلى عنصر جوهري من عناصر الرؤية الرومنطيقية الثورية التي تجلت بين العامين 1830 و1848، ألا وهو المتاريس، والجماهير، والبروليتاريا الجديدة المستميتة؛ وهو العنصر الذي أضافته إلى مخزون الصور الرومنطيقية لوحة دوميه "مذبحة في شارع ترانسنونان" (1834)، التي تظهر فيها جثة عامل مجهول قتيل.

كانت النتائج الأكثر إدهاشاً لهذا اللقاء بين الرومنطيقية وتصور ثورة فرنسية جديدة على مستوى أرقى هي النصر الكاسح الذي حققه الفن السياسي بين العامين 1830 و1848. وقلَّ أن نجد في أي وقت فترة كان فيها الفنانون الأقل أَدلجةً أكثر انحيازاً بصورة كلية، بل إنهم، في أغلب الأحيان، كانوا يعتبرون خدمة النشاط السياسي واجبهم الأساسي. ويقول فكتور هوغو في مقدمته لمسرحية **هرناني** (*Hernani*)، وهي أشبه ما تكون ببيان ثوري: "إن الرومنطيقية هي الليبرالية في الأدب"[21]. أما ألفرد دو موسيه (1810ـ1857) الذي كرس موهبته الطبيعية للتعبير عن أهداف ذاتية لا عامة، شأنه في ذلك شأن الموسيقار شوبان (1810ـ1849)، والشاعر النمساوي الهنغاري الباطني ليناو (1802ـ1850)، فيرى أن "الكتّاب ينزعون في مقدماتهم إلى الحديث عن المستقبل، وعن التقدم الاجتماعي والإنسانية والمدنية"[22]. وقد أصبح عدة فنانين شخصيات سياسية في البلدان التي كانت تكافح من أجل تحقيق التحرر الوطني وفي غيرها، حيث تحولوا إلى أنبياء ورموز وطنية. وكان بينهم المؤلفان الموسيقيان شوبان، وفرانز ليسْتْ، وحتى الموسيقي

(21) Hugo, *Oeuvres complètes,* vol. XV, p. 2.

(22) Alfred de Musset, *Oeuvres complètes de Alfred de Musset*, 11 vols. ([Paris: L. Hébert, 1876-18847]), vol. IX, p. 212.

الشاب فيردي، وميكييفيتش (الذي اتخذ لنفسه دوراً تنبؤياً)، وبتويفي ومانزوني من بين شعراء بولندا، وهنغاريا، وإيطاليا على التوالي. وقد عمل الفنان دومييه رساماً للكاريكاتير السياسي أساساً. وكان الشاعر أُوْهْلانـد (Uhland)، والأَخَوان غْريـمْ سيـاسيـين ليبـراليين، والـنـابغـة البركاني غيورغ بوخنر (1810ـ1837) ثورياً نشطاً، مثلما كان الشاعر هاينريش هايني (1797ـ1856)، الذي كان صديقاً شخصياً حميماً لكارل ماركس، ناطقاً غامضاً ولكنه قوي بلسان اليسار المتطرف[23]. وانصهر الأدب والصحافة، ولا سيما في فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وكان ممكناً في عصر آخر أن يكون أمثال لامينيه وجول ميشيليه في فرنسا، وكارلايل ورسكن (Ruskin) في بريطانيا، شعراء أو روائيين يتخذون موقفاً من القضايا العامة، إلا أنهم في هذا العصر كانوا دعاة وأنبياء وفلاسفة أو مؤرخين تشوب نظرتهم إلى العالم رؤيا شاعرية. وفي هذه الناحية، فإن الصور الشعرية اللاهبة تلون أفكار ماركس الشاب على نحو غير معهود في غيره من الفلاسفة أو المفكرين الاقتصاديين. وقد وصل الأمر حدّاً جعل تينيسون (Tennyson) وأصدقاءه في كامبريدج يضعون أنفسهم في صف الفيلق الدولي الذي ذهب لنصرة الليبراليين ضد رجال الدين في إسبانيا.

وقد كرست النظريات الجمالية التي برزت وسادت في تلك الفترة الوحدةَ بين الفن والالتزام الاجتماعي. بل إن السان سيمونيين الفرنسيين، من جهة، والمثقفين الروس اللامعين الثوريين في أربعينات

(23) علينا أن نلاحظ أن هذه كانت إحدى الفترات النادرة التي لم يقتصر فيها الشعراء على التعاطف مع اليسار المتطرف، بل كتبوا قصائد جميلة صالحة لاستثارة الناس. ويجدر التنويه في هذا السياق بمجموعة من الشعراء الاشتراكيين الألمان اللامعين في أربعينات القرن التاسع عشر مثل: هيرفيغ، وفيرث، وفرايليغراث، وبالطبع، هايني (Heine)، مع أن قصيدة شيللي (Shelley) **أقنعة الفوضى** (*Masque of Anarchy*) (1820) التي كتبت في معرض الرد على بيتولو، كانت هي الأقوى أثراً.

القرن التاسع عشر من جهة أخرى، طرحوا مواقف أصبحت في وقت لاحق عنصراً رئيسياً في الحركات الماركسية التي برزت تحت تسميات عدة مثل "الواقعية الاشتراكية"[(24)]. وكان هذا التيار الذي لم يكتب له، على نبله، النجاح، يستمد عناصره ومكوناته من الفضيلة اليعقوبية الصارمة، ومن الإيمان الرومنطيقي بقوة الروح التي جعلت شيللي يسبغ على الشعراء لقب "مشرّعي العالم غير المعترف بهم". ولم يعد بوسع شعار "الفن للفن"، الذي كان قد رُفع قبل ذلك، من جانب المحافظين والهواة في المقام الأول، أن ينافس شعار الفن للإنسانية، أو للشعب، أو للبروليتاريا. ولم تكن النزعة الجمالية الصرفة المكتفية ذاتياً لتثبت وجودها وحضورها إلا بعد أن بددت ثورة العام 1848 الحلم الرومنطيقي بانبعاث الإنسان الجديد. ويتضح هذا التغير في التوجهات السياسية والجمالية في أجلى صوره لدى بودلير (Baudelaire) وفلوبير (Flaubert). ونجد خير تجسيد أدبي لذلك في رواية فلوبير **التربية العاطفية** (*Sentimental Education*). غير أن الفنون واصلت انشغالها والتزامها الاجتماعي في بلدان مثل روسيا، التي لم تعانِ إحباطات عام 1848 لأنها لم تحدث فيها ثورة آنذاك.

V

كانت الرومنطيقية أسلوباً في الفن وفي الحياة طبع بطابعه المميز فترة الثورة المزدوجة هذه، غير أنها لم تكن الأسلوب الوحيد. فحيث إنها لم تكن هي السائدة في ثقافات كل من الأرستقراطية والطبقة الوسطى، ناهيك عن الفقراء الكادحين، فإن أهميتها من الوجهة الكمّية كانت قليلة في تلك الأيام. وكانت الفنون التي تعتمد على الرعاية أو الدعم الجماهيري من جانب الطبقات القادرة مالياً، مثل الموسيقى، هي التي

---

(24) Marguerite Thibert, *Le Rôle social de l'art d'après Saint-Simon* (Paris: [n. pb., n. d.]).

تتمتع بالقدر الأكبر من التسامح، عندما تكون سماتها الأيديولوجية خافتة وأقل بروزاً. أما الفنون التي كانت تعتمد على مساندة الفقراء، فلم تكن محل اهتمام من جانب الفنانين الرومنطيقيين، على الرغم من أن تسلية الفقراء وإمتاعهم من خلال الصحف والمجلات الزهيدة الثمن، والسيركات، والعروض والمعارض الفنية على الطرق، والمسارح المتنقلة، وغيرها، كانت مصدراً للإلهام لدى الكثير من الرومنطيقيين، وبالتالي فإن الفنانين المشاركين في هذه الاستعراضات قد زادوا من رصيدهم الشعبي ومخزونهم من العواطف والمواقف المثيرة والمهارات التي يغذون بها تشوق الجمهور إلى الجديد، مثل مشاهد تحول الشخصيات المسرحية من حال إلى حال، وسرد الحكايات الخرافية المسلية، وأواخر العبارات التي يتفوه بها القتلة وقطاع الطرق، وما إلى ذلك من الحالات التي برع الرومنطيقيون في تصويرها أو التعبير عنها.

وظلت أصول الأساليب الأساسية المميزة للحياة الأرستقراطية وللفن راسخة الجذور في القرن الثامن عشر، مع أنها تعرضت للابتذال إلى حد بعيد على يد مُحْدَثي النعمة الذين غدوا أحياناً في عداد النبلاء. وقد مورس هذا الابتذال بصورة خاصة على الملابس والأثاث من طراز "أمبير" في عهد نابليون، وهو تصميم في غاية القبح والصلف، ومن طراز ريجنسي البريطاني. ويتضح ذلك عند مقارنة الزيّ الرسمي الذي كان شائعاً في القرن الثامن عشر بنظيره في مرحلة ما بعد نابليون؛ وذلك هو الشكل الفني الذي يعبر عن ميل الضباط الفطري ومزاج المصممين في الوقت نفسه. وقد جعل التفوق البريطاني المشهود في هذا الميدان من النبلاء الإنجليز نموذجاً يُحتذى في التعبير عن الثقافة الأرستقراطية العالمية أو عدمها؛ ذلك أن اهتمامات الرجل "الغندور"، الحليق، الرائق، المتألق، الشديد التأنق في ملبسه ومظهره وذوقه، ينبغي أن تنحصر في الخيول والكلاب والعربات والمسابقات والصيد والتبذير والانغماس في الملذات التي تليق بالوجهاء، مع التركيز على نفسه في المقام الأول. وقد ألهب هذا التأنق المغالي خيال الرومنطيقيين الذين كانت

"الغندرة"، بهذا المعنى، قريبة من قلوبهم، ولكن مفهوم التأنق هذا استهوى، بالدرجة الأولى، الفتيات من منزلة اجتماعية متواضعة، فتداعبهن (كما يقول غوتييه)، الأحلام الوردية:

"كان السير إدوارد هو الرجل الإنجليزي الأمثل الأروع الذي يدغدغ أحلامها، الرجل الإنجليزي الحليق المنتعش، المتورد، المتأنق، اللامع، الذي يواجه أشعة الفجر وقد لف حول عنقه لِفاعاً فاتناً أبيض، الإنجليزي الذي يرتدي معطفاً واقياً من المطر. ألا يمثل هذا الرجل قمة التحضر والمدنية؟... وحدثت نفسها قائلة: سيكون لدي آنية فضية للمائدة، وكذلك آنية خزفية صينية نفيسة من ويدجوود. وستغطي السجاجيد جميع أرجاء المنزل، وسيساعدني المرافق على الصعود لآخذ مكاني إلى جانب زوجي في عربتنا التي تقودها أربعة خيول عبر حديقة هايد بارك. وستلعب غزلان منقطة أليفة على العشب الأخضر في بيتي الريفي، وربما لعب معها كذلك عدد من الأطفال الشقر المتوردي الوجنات. وسيكون منظر الأطفال بهيجاً عندما يجلسون على المقعد الأمامي للمركبة ذات العجلات الأربع، وإلى جانبهم كلب صغير أصيل من نوع كينغ تشارلز"[25].

ربما كان هذا التصور مُلهِماً بحد ذاته. ولكنه لم يعد رومنطيقياً، لا هو، ولا صور أصحاب الجلالة الملوك، أو أصحاب الجلالة الأباطرة، وهم يشاهدون الأوبرا أو يشاركون في حفل راقص، يحوطهم كوكبة من الرجال والنساء الجميلات المرصعات بالجواهر، والنبلاء من ذوي المحتد الكريم فحسب.

كما أن ثقافة الطبقتين الوسطى والدنيا الوسطى لم تعد رومنطيقية كذلك. فقد كان الخيط الذي ينتظمها هو الوقار والتواضع. ولم يكن

---

(25) Jourda, *L'Exotisme dans la littérature française depuis Chateaubriand,* pp. 55-56.

الترف والفخامة المزيفة التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر يتجليان إلا في أوساط أصحاب البنوك الكبار والمضاربين، وطلائع الجيل الأول من الصناعيين أصحاب الملايين، الذين لم يستثمروا، ولم يكونوا بحاجة إلى استثمار قدر كبير من أرباحهم في أعمالهم التجارية؛ كما أن ذلك لم يتحقق إلا في بلدان قليلة لم تعد فيها العروش والأرستقراطيات القديمة تفرض هيمنتها الكاملة على "المجتمع". لقد كان أفراد عائلة روتشيلد، وهم، بحد ذاتهم، في مرتبة الملوك، يتصرفون كالأمراء[26]. وذلك ما لم يفعله البورجوازيون العاديون. فقد كان التيار البيوريتاني الطهراني، وأصول الورع الأنغليكاني والكاثوليكي على السواء، تدعو إلى الاعتدال، والاقتصاد في الإنفاق، والتقشف المريح، والرضى عن النفس، أخلاقياً، في كل من بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا، والجماعات البروتستانتية في فرنسا. وقد فرضت التقاليد الأخلاقية التنويرية والماسونية التي سادت في القرن الثامن عشر حدود الضبط نفسها على غير المتدينين وحتى على المناوئين للدين. وكانت حياة الطبقة الوسطى حياةً تجري فيها السيطرة على العواطف وتتحدد مجالاتها بقيود شديدة صارمة. وكان القطاع العريض من الطبقة الوسطى في القارة الأوروبية لا يعمل في القطاع الخاص، بل كان من موظفين في الحكومة أو مدرسين، أو أساتذة جامعيين، أو قساوسة أحياناً. وكانوا، بالتالي، يفتقرون إلى المجالات التي يمكن فيها تراكم رأس المال. وكذلك كان حال صغار البورجوازيين في المقاطعات، الذين كانوا يعلمون أن الثروة التي قد يجمعونها في البلدات الصغيرة هي أقصى ما يمكن أن يحققوه. وهي ليست ذات شأن في جميع الأحوال، خصوصاً إذا ما قيست بمعايير الثروة والسلطة البارزتين في ذلك العصر. وواقع الأمر

---

(26) M. Capefigue, *Histoire des grandes opérations financières; banques, bourses, emprunts, compagnies industrielles*, 4 vols. (Paris: Amyot, 1855-1860), vol. IV, pp. 252-253.

أن حياة الطبقة الوسطى كانت منافيةً للرومنطيقية، وكانت نظرة القرن الثامن عشر هي التي تتحكم في أنماطها وأساليبها.

يتبدى ذلك بوضوح تام في بيت عائلة من الطبقة الوسطى، لأنه، المركز الذي تدور حوله ثقافة الطبقة الوسطى. إن هيئة المنزل أو الشارع البورجوازي في مرحلة ما بعد نابليون مستمدة على نحو مباشر من تقاليد النصف الأول من القرن الثامن عشر الكلاسيكية أو الروكوكية (أي فن العمارة والتزيين المفرط في الزخرفة والتعقيد). واستمرت أساليب العمارة الجورجية المتأخرة في بريطانيا حتى الأربعينات من القرن التاسع عشر. وفي أماكن أخرى، حدث في وقت لاحق انقطاع في الهندسة المعمارية (والسبب الرئيسي في ذلك هو الاكتشاف المتأخر ـ الكارثي من الناحية الفنية ـ لعصر النهضة الأوروبية). وكان الديكور الداخلي للمنزل الألماني، المسمى باسم المصمم بيدرماير، نوعاً من الأساليب الكلاسيكية المحلية التي أضيفت إليها لمسة حميمة حالمة توحي بالأجواء الرومنطيقية، بل بالمرحلة السابقة على الرومنطيقية في أواخر القرن الثامن عشر. ولكن هذا التصميم اختصر أبعاد المساحة الداخلية بحيث تناسب مزاج البورجوازي المتواضع وهو يعزف مقطوعته الرباعية الوترية المفضلة بعد ظهر يوم الأحد في غرفة الجلوس. وقد أنتج بيدرماير كذلك واحداً من أجمل تصاميم الأثاث المنزلي على الإطلاق. ويتميز هذا التصميم بالستائر البيضاء المنسدلة على جدران رمادية فاتحة تعلو أرضية عارية، عليها مقاعد صلبة وأنيقة ومكتب وبيانو وخزائن معدنية ومزهريات مليئة بالورد. لكن الأسلوب العام ظل كلاسيكياً في جوهره. وخير ما يمثل هذا الأسلوب منزل الشاعر غوته في فايمار. وهذا المنزل، أو ما يشبهه، هو الذي تعيش فيه بطلات الروايات التي ألفتها جين أوستن (1775ـ1817)، أو الذي استخدمته طائفة "كلابهام" المعمدانية لأداء طقوسها وأنشطتها، أو العائلات البورجوازية المتعلمة في بوسطن، أو في المقاطعات الفرنسية، قراء مجلة *Journal des débats*.

وربما تغلغلت الرومنطيقية في ثقافة الطبقة الوسطى عبر تعاظم أحلام اليقظة في أوساط الإناث في العائلات البورجوازية. وربما كان من أهم الأهداف الاجتماعية التي كُنَّ يسعَيْنَ إليها إثبات قدرة رب العائلة على إبقائهن في حالة الضجر المرفَّه هذه؛ وأن الرق الذي درجن على استمرائه هو المصير المثالي لهن. وكانت البنات البورجوازيات، في جميع الأحوال، يظهرن في الإهاب نفسه: الوجه البيضاوي الهش، وعقصة الشعر الناعم، والزهرة اللطيفة في الشال أو القلنسوة المربوطة تحت الذقن؛ وتلك كلها من مستلزمات الزِّيّ الأنيق في أربعينات ذلك القرن. وكان ذلك الإهاب كذلك من خصائص الفتيات غير البورجوازيات، والجواري والحوريات اللواتي أخرجهن رسامون معادون للرومنطيقية مثل إنغر (1780ـ1867) من الدائرة الرومنطيقية ليضعوهن في سياق بورجوازي. وذلك بعيد كل البعد عن اللبؤة المتربصة الظاهرة في لوحة غويا "دوقة ألبا"، أو الفتيات اليونانيات الجديدات المتحررات، بأثوابهن القطنية الرقيقة، اللواتي أطلقتهن الثورة الفرنسية ونشرتهن في الصالونات، أو السيدات والغانيات الرابطات الجأش في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، مثل الليدي ليفن أو هارييت ويلسون، اللواتي كن بعيدات عن الرومنطيقية بُعدَهن عن البورجوازية.

وقد تعزف الصبايا البورجوازيات مقطوعات موسيقية رومنطيقية حنونة من ألحان شوبان أو شومان (1810ـ1856). وربما كانت أريكة بيدرماير تشجع على الاسترخاء والاستماع إلى لحن غنائي رومنطيقي من أعمال آيخندورف (Eichendorff) (1788ـ1857) أو إدوارد موريكي (Eduard Mörike) (1804ـ1875)، التي تحولت فيها العاطفة إلى نوع من الوُطان أو التوق السلبي. ويمكن لرجل الأعمال النشط، في أثناء إحدى رحلات العمل، أن يعبر أحد المسالك الجبلية، ويستمتع "بأبدع مشهد رومنطيقي أشاهده في حياتي"، ثم يستريح في البيت، ويرسم "قلعة أودولفو" أو يفعل ما فعله جون كراغ (John Cragg) في ليفربول الذي كان "من أصحاب الذوق الفني الراقي" مثلما كان سبّاكاً

للمعادن؛ "فاستخدم قضبان الحديد المسبوك في تصاميم العمارات القوطية"[27]. غير أن الثقافة البورجوازية لم تكن رومنطيقية على العموم؛ ذلك أن تمجيد التقدم التقني كان يعني بالضرورة العزوف عن الميول الرومنطيقية المعتادة، وفي مراكز التقدم الصناعي على الأقل. فإن رجلاً مثل جيمس نازميث، مخترع المطرقة البخارية (1808ـ1890)، كان من البرابرة الأجلاف بالمقارنة مع الرسام اليعقوبي (الذي يعتبر بمثابة الأب لرسم المشاهد الطبيعية في اسكوتلندا). فقد نشأ الابن في وسط ثقافي وفني، وكان يعشق المشاهد المثيرة والآثار القديمة كما يليق برجل اسكوتلندي واسع العلم. غير أنه اختار الهندسة الميكانيكية، وكان في شبابه يرافق والده في مشواره اليومي، فلا يستوقفه ويثير إعجابه من المشاهد إلا مصنع الحديد في ديفون. فبالنسبة له، ولمواطني أدنبره المؤدبين الذين ترعرع بينهم في القرن التاسع عشر، كانت الأشياء سامية راقية ولكنها غير عقلانية. وكان "في مدينة روين كاتدرائية رائعة، وكنيسة سانت أوين باهرة الجمال، وكذلك كانت أطلال العمارات القوطية المتناثرة في تلك المدينة الجميلة المثيرة للاهتمام". وعلى الرغم من روعة هذه المشاهد، فإنه لم يملك إلا أن يسجل في مذكراته عن جولاته خلال الإجازات أن جمالها إنما كان نتيجة للإهمال. إن جمالها باهر خلاب. غير أن الخطأ الجسيم في العمارة الحديثة في رأيه هو أنها "جعلت الهدف في المرتبة الثانية من اهتماماتها... لم أستطع أن أبتعد عن برج بيزا لما فيه من جمال أخاذ... غير أن ما أثار اهتمامي أكثر من أي شيء آخر في الكاتدرائية هو منظر المصباحين البرونزيين المعلقين فوق القاعدة. وذلك ما أوحى لغاليليو فكرة اختراع البندول (Pendulum)"[28]. ولم يكن هؤلاء الرجال برابرة ولا جهلة؛ لكن

---

(27) James Nasmyth, *James Nasmyth, Engineer, an Autobiography*, Edited by Samuel Smiles ([n. p: n. pb., 1897]), p. 177.

(28) انظر: المصدر نفسه، ص 243، 246 و251.

عالمهم كان أقرب بكثير إلى عالم فولتير أو جوسيا ويدجوود منه إلى عالم رسكن. ولا شك في أن صانع الأدوات الشهير هنري مودزلي (Henry Maudslay)، خلال زيارته لبرلين، كان في رفقة أصدقائه هامبولدت زعيم العلماء الليبراليين، والمهندس المعماري النيوكلاسيكي شينغل (Schinkel) يحس بارتياح أكثر بكثير مما كان سيشعر به لو أنه التقى الفيلسوف العظيم، ولكن الضبابي، هيغل.

وعلى أية حال، كانت الآداب عموماً تأتي في الدرجة الثانية بعد العلم. وكان بوسع مدير المصنع أو المهندس البريطاني أو الأمريكي المتعلم أن يظهر التقدير للآداب، غير أن جهوده الثقافية الحقيقية كانت ستكرس لنشر وتقدم المعرفة ـ معرفته، ومن خلال هيئات من نوع الجمعية البريطانية لتقدم العلوم، أو من خلال الناس مثل جمعية نشر المعارف المفيدة، ومؤسسات أخرى. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن واحدة من النتائج الأساسية لحركة التنوير في القرن الثامن عشر، وهي **الموسوعة/الإنسيكلوبيديا** شهدت ازدهاراً غير مسبوق، وظلت تحتفظ بروح الليبرالية السياسية النشطة (كما يرى معجم ماير الألماني الصادر في عشرينات القرن). وقد كسب بايرون الكثير من المال من أشعاره، غير أن الناشر كونستابل دفع لدوغالد ستيوارت (Dugald Stewart) ألف جنيه عام 1812 ليكتب تصديراً لكتاب **تقدم الفلسفة** ليقدم الملحق إلى **الموسوعة البريطانية** (*Encyclopaedia Britanica*)[29]. وحتى عندما كانت البورجوازية رومنطيقية المزاج، فإن أحلامها كانت تتمحور حول التقانة: فقد طرد سان سيمون مجموعة من الشباب لأن مخططي قناة السويس، ومصممي شبكة السكة الحديدية العملاقة التي كانت ستربط أرجاء المعمورة بعضها ببعض، وبسبب توسع التمويل

---

(29) Elie Halévy, *A History of the English People in 1815 = Angleterre en 1815*, A History of the English People; v. 1, Introduction by Asa Briggs (London; New York: Ark Paperbacks, 1987), vol. 1, p. 509.

الشيطاني إلى أكثر مما يحققه آل روتشيلد العقلانيون الهادئون من أرباح، كانوا يدركون أن عليهم أن يجمعوا أكثر مما يستطيعون من مال مع استثمار أقل القليل في أنشطة المضاربة المتعاظمة بالمقاييس المحافظة[30]. لقد كانت العلوم والتقانة هي ربّات الوحي والإلهام للبورجوازية، وقد تحالفت هذه كلها للاحتفال بيوم النصر العظيم وهو يوم انطلاق القطارات فوق السكة الحديدية من البوابات النيوكلاسيكية العظيمة (التي دمرت مع الأسف) في يوستن.

VI

في تلك الأثناء، وخارج دائرة المتعلمين، ظلت ثقافة عامة الناس على ما كانت عليه. ففي المناطق غير الحضرية وغير الصناعية من العالم، لم يطرأ عليها تغيّر يذكر. ففي أربعينات القرن الثامن عشر ظلت، دونما تعديل، وكما كانت عليه عام 1789، أكثر الأغاني والمظاهر الاحتفالية والأزياء والفنون التزيينية بجميع تصاميمها وألوانها، وطراز الملابس وأنماطها. غير أن الصناعة بدأت بتدمير هذه التقاليد الثقافية في المراكز الصناعية وفي المدن الآخذة بالاتساع. فلم يعد بمقدور الناس العاملين في بلدة صناعية أن يعيشوا كما لو كانوا في القرى التي تركوها. كما أن المركب الثقافي بأكمله أخذ يتهاوى بالضرورة مع انهيار الإطار الاجتماعي الذي كان يحفظ له التماسك والتكامل. ولم يعد بوسع المرء الذي تخلى عن الحراثة أن يغني أغنية تتصل بموسم الحصاد؛ وإذا فعل ذلك، فلن تكون أغنية فولكلورية شعبية، بل دندنة من نوع مختلف. وقد لازمت مشاعر الحنين والوُطان قلوب المهاجرين إلى المدينة الذين حافظوا على التقاليد والأغاني في غربتهم تلك، بل إن الاغتراب زاد من

(30) David S. Landes, "Vieille banque et banque nouvelle: La Révolution financière du XIXe siècle," *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, vol. 3 (1956), p. 205.

تمسكهم بها، لأنها كانت لهم مصدراً للعزاء والسلوى يخفف من آلام الاقتلاع التي يعانونها. لكن الثورة المزدوجة ولّدت تحوّلاً جذرياً، وبعبارة أدق، دمرت شرائح ومجالات من الحياة خارج المدن والمصانع، خصوصاً في أجزاء من إيرلندا وبريطانيا، إلى حد تعذر معه العيش وفق أساليب الحياة القديمة.

غير أن هذا التحول الاجتماعي، حتى في المناطق الصناعية، لم يكن قبل عشرينات ذلك القرن قد وصل إلى حد التدمير الكامل للثقافة بمجملها؛ ويصدق ذلك بصورة خاصة على الحرفيين والمصنعين والمنتجين في أوروبا الغربية الذين كانوا قد أمضوا عدة قرون في تطوير أنماط ثقافية شبه صناعية. وفي الأرياف، كان عمال المناجم والنسيج يعبرون عن آمالهم وعن احتجاجهم على حد سواء بالأغاني الشعبية التقليدية. وأدت الثورة الصناعية إلى ازدياد أعدادهم مثلما شحذت من خبراتهم ومعاناتهم. ولم يكن المصنع يحتاج إلى أغانٍ شعبية، إلا أن أنشطة منوعة ذات صلة بالنمو الاقتصادي كانت تستلزم ذلك، وأسهمت بالتالي في تطويرها وفق الأساليب القديمة. وتنتسب الأغنية التي كان الملاحون ينشدونها وهم يديرون دولاب رفع الأثقال والمراسي إلى العصر الذهبي للفولكلور "الصناعي" في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وتدخل في هذا الباب أهازيج صيادي الحيتان في غرينلندا، وأنشودة "صاحب المنجم"، وأغنية "زوجة بائع الرصيف"، "والنواح على عامل النسيج"[31]. وفي البلدات ما قبل الصناعة، تبلورت في أوساط جماعات الحرفيين والعمال المحليين ثقافة متعلمة مكثفة كانت فيها النزعة الطائفية البروتستانتية تلتقي أو تزاحم اليعقوبية الراديكالية كحافز على التعلُّم الذاتي تحت تأثير كل من جون كالفين (John Calvin)، وتوم بين، وروبرت أوين. وانتشرت المكتبات، والكنائس والمعاهد والحدائق

---

(31) Ewan MacColl, ed., *The Shuttle and Cage: Industrial Folk-Ballads*, 10T 13; "Row, Bullies, Row", 8T 8 and "The Blackball Line", 8T 8.

والزوايا بين جماعات الحرفيين المكافحين الذين يعتمدون على أنفسهم، وبينهم عدد من الصناع المبتكرين ممن عكفوا على زراعة الزهور المضخمة الحجم واقتناء الحمام والكلاب. ولم تشتهر نوريتش في إنجلترا بميولها الإلحادية والجمهورية فحسب، بل بما فيها من عصافير الكناري[32]. غير أن تكيف الأغاني الفولكلورية القديمة مع الحياة الصناعية لم يستطع، (إلا في الولايات المتحدة)، مقاومة التأثيرات التي جلبها عصر القاطرات والحديد، كما أن جماعات الصناع المهرة القدامى، مثل عمال غزل الكتان في دنفرملاين، لم يتمكنوا من الوقوف في وجه المصانع والآلات، وتحولوا، هم وما عايشوه من تراث شعبي، إلى حطامٍ بعد العام 1840.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن الثقافة القديمة لم تُستَبْدَل بغيرها حتى ذلك الحين؛ ففي بريطانيا، على سبيل المثال، لم تبرز الأنماط الجديدة للحياة الصناعية الكاملة بصورة كلية إلا في السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر. من هنا، فإن الفترة الممتدة بين أزمة وسائل الحياة التقليدية القديمة حتى ذلك الحين كانت، في أكثر من وجه، المرحلة الأكثر قتامة وكآبة في حقبة هي، بحد ذاتها، الأكثر قتامة وكآبة بالنسبة للكادحين الفقراء. ومن جهة أخرى، فإن المدن الكبرى كذلك لم تستحدث، في تلك الفترة، أنماطاً لثقافة شعبية تكون، بالضرورة، تجارية الطابع، خلافاً للثقافات التي طورتها جماعات صغيرة من تلقاء نفسها.

---

(32) كتب فرانسيس هورنر (Francis Horner) عام 1879: "ما زالت ثمة بيوت قديمة مزروعة في أعماق البلدة، ولكل منها حديقة. وربما كانت في البلدة محلات لبيع الزهور. فهنا، على سبيل المثال، شباك، طويل مشرق، كان عامل الغزل يعمل وراءه على نوله اليدوي، ويطل من خلاله على مساكب الورد في بيته جامعاً بذلك بين العمل والمتعة... غير أن المصنع قد حل محل آلته اليدوية الصبورة، والتهمت جدران الطوب حديقته".
انظر: G. Taylor, "Nineteenth Century Florists and their Flowers," *The Listener* (23-6-1949). =

وصحيح أن المدينة الكبيرة، خصوصاً إذا كانت المدينة الكبيرة هي العاصمة، كانت تضم مؤسسات مهمة تفي بالاحتياجات الثقافية للفقراء، أو بالأحرى "صغار الفقراء"، وتفي، في الوقت نفسه، كعهدها دائماً، باحتياجات الأرستقراطيين. إلا أن هذه المؤسسات كانت بمجملها من تطورات القرن الثامن عشر الذي تتعرض إسهاماته في بلورة الفنون الشعبية إلى الإغفال في أكثر الأحيان. فقد شملت منجزات القرن الثامن عشر نشأة مسرح الضواحي الشعبي في فيينا، ومسرح اللهجة الشعبية في المدن الإيطالية، والأوبرا الشعبية (تمييزاً لها عن أوبرا البلاط)، والكوميديا الفنية، وعروض المسرح الصامت المتنقل، ومسرح الهواء الطلق، ومباريات الملاكمة، ومهرجانات سباق الخيل، أو النسخة الشعبية من مصارعة الثيران الإسبانية[33]، وكذلك الصحف المصورة، وكتيبات القصص الشعبية التي ظهرت في وقت سابق. وكانت الأشكال الجديدة الحقيقية للتسلية والترويح في المراكز الحضرية من النتائج الجانبية لحانات الشراب التي غدت بصورة متزايدة موئل الكادحين الفقراء الباحثين عن العزاء والسلوى في وجه التفكك الاجتماعي الذي حاق بهم، والملاذ الحضري الأخير لممارسة العادات والاحتفالات التقليدية التي تداعت إلى إقامتها روابط العمال المياومين، ونقابات العمال، و"جمعيات الصداقة" الطقوسية. كما أن الحانات هي التي شهدت ولادة "قاعات الموسيقى" و"قاعات الرقص"؛ بيد أنها لم تكن قد ظهرت بشكل كامل حتى في بريطانيا، بحلول العام 1848، على الرغم من أن

= كان النساجون في بيزلي بصورة خاصة من عشاق الزهور المغرمين. وكانوا يرون أن ما يستحق أن يزرع منها ثمانية أنواع فقط. وكان صانعو الأربطة والمخرّمات في نوتنغهام يزرعون الورد الذي لم يكن ـ مثل الخطمي الوردي ـ من الزهور الأثيرة حتى ذلك الوقت لدى الطبقة العاملة.

(33) كانت مصارعة الثيران في الأصل نوعاً من ألعاب الفروسية، وكان المصارع يتصدى لمقارعة الثور وهو على صهوة جواده. أما المصارعة الراجلة فإن ابتكارها يُعْزَى إلى نجار في روندا في القرن الثامن عشر.

بوادرها كانت قد برزت في الثلاثينات[34]. وتعود الأشكال الجديدة الأخرى للترويح الحضري في المدن الكبيرة إلى المعارض والأسواق والمهرجانات الموسمية التي تحييها جمهرة من المطربين والممثلين واللاعبين. وكان لهذه المعارض مواعيد ثابتة في المدن الكبرى. وحتى في الأربعينات من ذلك القرن، كانت هذه التجمعات الموسمية، بعناصرها المختلفة من مسارح وعروض فنية وباعة متجولين ونشالين وصبيان يجرون عرباتهم الصغيرة في بعض الشوارع الكبرى، مصدر إلهام ووحي لمثقفي باريس الرومنطيقيين، مثلما كانت مصدراً لإقناع عامة الناس والترويح عنهم.

ومن ناحية أخرى، حدد الذوق الشعبي شكل العدد القليل نسبياً من المنتجات والسلع، وأساليب تزيينها وعرضها بعد أن تقوم الصناعة بإنتاجها وطرحها في السوق للفقراء بصورة خاصة، ومنها: الجرار التي تباع وتهدى تذكاراً بقانون الإصلاح، والجسر الحديدي الضخم فوق نهر "وير"، والسفن العملاقة الثلاث التي عبرت الأطلسي، والمطبوعات التي كانت تحمل المواقف الثورية، والروح الوطنية، وأخبار كبرى الجرائم، بالإضافة إلى قطع الأثاث والملابس التي يستطيع الفقراء الحضريون ابتياعها. إلا أن المدينة، ولا سيما المدينة الصناعية، بقيت على العموم مكاناً كئيباً؛ إذ إن المتع والتسهيلات الجذابة فيها، مثل الفضاءات المفتوحة، والعطلات والأعياد، أخذت تتلاشى بالتدرج تحت وطأة اكتظاظ العمران، وتصاعد الأدخنة التي سمّمت جميع مظاهر الحياة الطبيعية وأعطبتها، والإرغام على العمل المستمر الذي صاحبه

---

(34) [*Select Committee on Drunkenness* (Parliamentary Papers VIII, 1934)], Q 571.

في عام 1852، كانت الموسيقى الترفيهية تقدم في 26 حانة و21 مقصفاً للجعة في مانشستر (من أصل 481 حانة و1298 مقصفاً للجعة في المقاطعة بأكملها). انظر: John Tyrrell Baylee, *Statistics and Facts in Reference to the Lord's Day* (London: Seeleys, 1852), p. 20.

تزمت الطبقة الوسطى وإصرارها على المطالبة بالامتناع عن العمل أيام السبت والأحد. وقد مهدت الإضاءة بالغاز، والعروض التجارية في الشوارع الرئيسية هنا وهناك، لظهور الأضواء الملونة في الليل في المدن الحديثة. إلا أن مكونات المدن الكبيرة الحديثة، وأساليب الحياة الحضرية الشعبية الحديثة لم تبدأ بالظهور إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما النصف الأول من ذلك القرن، فقد شاع فيه التدمير أو، في أفضل الحالات، أوقف عند حده.

الفصل الخامس عشر

العلوم

"علينا ألا ننسى أن العلوم والفلسفة سبقتنا إلى محاربة الطغاة، وكانت الثورة من ثمار هذه الجهود التي بذلتها. ومن واجبنا اليوم، بوصفنا أحراراً ممتنين، أن نؤصِّلها بيننا، وأن نفخر بها ونحافظ عليها إلى الأبد؛ ذلك أن العلوم والفلسفة ستكون الدرع الواقية للحرية التي نلناها".

عضو في "المؤتمر"[(1)].

"إن تساؤلات العلم، كما يلاحظ غوته، غالباً ما تكون تساؤلات عن مسارات حياة الإنسان، فاكتشاف واحد قد يجلب للمرء الشهرة، ويكون منطلقاً يبدأ منه "كمواطن" طريقه إلى حظوظ أحسن في الحياة. . . . وما إن تلاحظ ظاهرة جديدة حتى تغدو اكتشافاً، وكلُّ اكتشافٍ ملْك. وما عليك إلا أن تمسَّ ملْكية امرئ ما، حتى تستثار مشاعره على الفور".

محادثة مع إيكرمان، 21 كانون الأول/ ديسمبر، 1823.

---

(1) S. Solomon, *Commune* (August 1839), p. 964.

I

إن خلق الموازاة بين الآداب والعلوم فيه بعض المخاطرة على الدوام؛ لأن العلاقة بين كل منهما من جهة، والمجتمع الذي يترعرعان فيه من جهة أخرى تختلف في كلتا الحالتين. غير أن العلوم عكست، بطريقتها الخاصة، آثار الثورة المزدوجة؛ لأنها طرحت أمامها، جزئياً، احتمالات جديدة، وواجهتها بمشكلات جديدة، وأتاحت لها فرصاً جديدة، كما أنها أسهمت إسهاماً كبيراً في إرساء أنماط فكرية جديدة. ولا يعني ذلك أن من الممكن تحليل تطور العلوم بين العامين 1789 و1848 على أساس الحركات التي كان يحفل بها المجتمع حولها. إن لأغلب الأنشطة البشرية منطقها الداخلي الخاص الذي يحدد، على الأقل، جانباً من مسار حركتها. لقد اكتشف كوكب نبتون عام 1846، لا لأن عوامل خارج علم الفلك شجعت على اكتشافه، بل لأن الجداول التي وصفها بوفار عام 1821 أوضحت أن مدار الكوكب أورانوس، الذي كان قد اكتشف عام 1781، يُظهر انحرافات غير متوقعة عن الحسابات؛ لأن هذه الانحرافات قد تزايدت بحلول أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وعُزيت وقتها إلى اضطرابات يحدثها واحد من أجسام سماوية أخرى مجهولة، ولأن مختلف علماء الفلك عكفوا منذئذٍ على استقصاء موقع هذا الجسم. وعلى الرغم من ذلك، فإن أغلب المؤمنين الغيورين بصفاء العلم البحت الذي لا تشوبه شائبة يدركون كل الإدراك أن الفكر العلمي قد يتأثر على الأقل بعوامل خارجة عن نطاق العلم المحدد؛ لأن العلماء، وحتى الرياضيين التجريديين منهم، إنما يعيشون في عالم وافر الاتساع. ولا يسلك التقدم العلمي مساراً مستقيماً بسيطاً تمثل كل مرحلة فيه حلاً لمشكلات كانت قائمة فيه من قبل، ضمناً أو علانية، وتطرح بدورها مشكلات جديدة. كما أن العلم يمضي، في العادة، قدماً عن طريق اكتشاف مشكلات جديدة، وأساليب جديدة لدراسة تلك الماضية، وطرق جديدة لمعالجة المشكلات القديمة أو حلها، أو اكتشاف مجالات جديدة تماماً للاستقصاء، أو

أدوات نظرية أو عملية جديدة للتقصي. وثمة مجال فسيح هنا تسهم فيه العوامل الخارجية في حفز الفكر أو تشكيله. وقد لا يكون ذلك مهماً للغاية لو أن أكثر العلوم في تلك الفترة كانت في واقع الأمر تتقدم في خط مستقيم كما هي الحال في الفلك الذي ظل، في جوهره، يتحرك في إطار نيوتن. إلا أن تلك الفترة، كما سنرى، كانت تمثل منعطفات جذرية جديدة في بعض ميادين الفكر (مثل الرياضيات)، وصحوة علوم كانت خاملة حتى ذلك الحين (مثل الكيمياء)، أو خلق علوم جديدة تقريباً (مثل الجيولوجيا)، أو في حقن أفكار ثورية جديدة في علوم أخرى (مثل العلوم الاجتماعية والبيولوجية).

والواقع أن المتطلبات المباشرة التي فرضتها الحكومات أو الصناعة على العلماء كانت، بين جميع القوى الخارجية التي تشكل التطور العلمي، هي الأقل أهمية. فقد عبأتهم الثورة الفرنسية، وعينت المهندس والخبير في علم الهندسة لازار كارنو مشرفاً على المجهود الحربي اليعقوبي، والرياضي عالم الفيزياء مونج (Monge) وزيراً للبحرية عام 1792ـ1793، وفريقاً من علماء الرياضيات والكيمياء لإدارة الإنتاج الحربي، مثلما عينت قبل ذلك الكيميائي عالم الاقتصاد لافوازييه مسؤولاً عن إعداد تقديرات الدخل القومي. وربما كانت تلك هي المرة الأولى في التاريخ الحديث، بل في التاريخ عموماً، التي يتولى فيها علماء مدربون من هذا النوع مناصب حكومية رفيعة. غير أن ذلك كان أكثر أهمية للحكومة مما كان للعلوم. ففي بريطانيا، كانت الصناعات الأساسية في تلك الفترة تتركز في الأنسجة القطنية والمناجم والحديد والسكة الحديدية والشحن البحري. وكانت المهارات التي أحدثت ثورة في تلك الصناعات من نتاج الخبراء التجريبيين العمليين، بل المغرقين في التجريب العملي. وكان بطل ثورة السكة الحديدية البريطانية جورج ستيفنسون رجلاً أمّياً من الوجهة العلمية، إلا أنه كان قادراً على أن يتلمس الطريقة التي تعمل بها الآلات؛ أي، بعبارة أخرى، صانعاً حرفياً بالغ البراعة، لا خبيراً تقنياً. ولم تثمر المحاولات التي قام بها

علماء مثل باباج لتطوير السكة الحديدية، أو مهندسون علماء مثل برونيل، لإقامة هذه الصناعة على أسس عقلانية، لا على أسس تجريبية بحتة.

من جهة أخرى، أفادت العلوم فائدة عظيمة من التشجيع الكبير الذي لقيه التعليم العلمي والتقني، والتشجيع المعتدل الذي لقيته البحوث خلال تلك الفترة. ويبدو تأثير الثورة المزدوجة هنا واضحاً تماماً. فقد أجرت الثورة الفرنسية تحولاً في التعليم العلمي والتقني في تلك البلاد، خصوصاً بعد إنشاء معهد "إيكول بوليتكنيك" (1795) ليكون مدرسة لتدريب الفنيين في شتى المجالات، والنواة الأولى لمعهد "Ecole normale supérieure" (1794)، وهو الصرح الراسخ الدعائم الذي كان ركناً من أركان الإصلاح العام للتعليم الثانوي والدراسات العليا الذي سعى إليه نابليون. كما أنها أحيت الأكاديمية الملكية المترهلة (1795)، وأقامت في المتحف الوطني للعلوم الطبيعية (1794) أول مركز حقيقي للبحث خارج العلوم الطبيعية. وكان التفوق العالمي الذي تمتعت به العلوم الفرنسية في تلك الفترة من ثمار هذه المؤسسات الرئيسية، وفي مقدمتها "البوليتكنيك"، الذي ظل حتى ما بعد نابليون مركزاً زاخراً بالنزعات اليعقوبية والليبرالية، ومهداً فريداً ترعرع فيه كبار علماء الرياضيات والفيزياء النظرية. وقد أنشئت على غرار البوليتكنيك مؤسسات مماثلة في براغ، وفيينا، وستوكهولم، وسان بطرسبرغ، وكوبنهاغن، وفي عدة أماكن في ألمانيا وبلجيكا، وفي زيوريخ وماساتشوستس، ولكن لا في إنجلترا. كما أن صدمة الثورة الفرنسية أخرجت بروسيا من ربقة نظامها التعليمي المتحجر. وأصبحت جامعة برلين الجديدة التي أنشئت (1806-1810) بوصفها ركناً من أركان الإحياء البروسي، نموذجاً لأكثر الجامعات الألمانية التي غدت، بدورها، قدوة تحتذيها المؤسسات الأكاديمية في جميع أنحاء العالم. ومرة أخرى، لم تحدث مثل هذه الإصلاحات في بريطانيا، حيث لم تقع ثورة سياسية، ولم تنتصر هذه الثورة. غير أن ثروتها الطائلة حققت نتائج مماثلة؛ لأنها

مهدت لقيام مختبرات خاصة كتلك التي أنشأها هنري كافنديش (Henri Cavendish) وجيمس جول (James Joule)، وساندتها في ذلك الضغوط العامة التي مارسها أبناء الطبقة الوسطى الأذكياء، لتطوير التعليم العلمي والتقني. وفي العام 1799، أنشأ الكونت رمفورد (Count Rumford)، المغامر المستنير الجوّال، المعهد الملكي الذي اكتسب شهرته في نظر الناس العاديين لما كان يلقيه من محاضرات عامة، إلا أن أهميته الحقيقية تكمن في أنه أفسح مجالاً فريداً للعلوم التجريبية ولعلماء مثل همفري ديفي (Humphry Davy) ومايكل فاراداي (Michael Faraday). وكان هذا المعهد نموذجاً مبكراً لمختبرات البحوث. وتمكنت الهيئات المشجعة للعلوم، مثل الجمعية القمرية في بيرمينغهام، والجمعية الأدبية الفلسفية في مانشستر، من استقطاب دعم الصناعيين في المقاطعات، وكان مؤسس النظرية الذرية جون دالتون (John Dalton) من أعضاء جمعية مانشستر. كما أسس الراديكاليون البنثاميون في لندن معهد لندن الميكانيكي ـ وهو الآن كلية بيركبيك ـ باعتباره مدرسة لفنيين (والأحرى أنهم تولوا إدارته وحوّلوا مَسارَهُ)، وذلك ما فعلوه أيضاً في جامعة لندن بديلاً للخمول الذي هيمن على أوكسفورد وكامبريدج، والجمعية البريطانية للارتقاء بالعلوم (1831) عوضاً عن بلادة الجمعية الملكية البالية. ولم تكن هذه المراكز مؤسسات معنية بدعم المساعي الرامية لاكتساب المعرفة بحد ذاتها، وربما كان ذلك هو سبب التباطؤ في ظهور مؤسسات معينة للبحوث. ولم تنشأ، حتى في ألمانيا، مختبرات جامعية للبحث الكيميائي (مثل مختبر ليبيغ في غيسن) حتى العام 1825. (وغني عن القول إنها تأثرت بالتجربة الفرنسية). وقد أنشئت مؤسسات لتدريب الفنيين، كما في فرنسا وبريطانيا، وتدريب المدرسين، في فرنسا وألمانيا، أو لتنمية روح الخدمة العامة في أوساط الشباب.

تزايدت في عصر الثورة، إذن، أعداد العلماء والدارسين، وتعاظم الإنتاج العلمي. وإضافة إلى ذلك، شهد ذلك العصر اتساع

النطاق الجغرافي للعلم من ناحيتين: فمن ناحية، فتحت العمليات التجارية وحملات الاستكشاف آفاقاً جديدة في العالم للدراسة العلمية، وحفزت على النظر فيها. وقد أسهم في هذا الإنتاج العلمي واحد من أعظم العقول العلمية في تلك الفترة، هو ألكسندر هامبولدت (1769ـ1859)، بوصفه رحّالةً لا يكلّ ولا يملّ، ومراقباً، ومنظراً في مجالات الجغرافيا، والتاريخ الطبيعي. وعلى الرغم من التوليفة التي جمع فيها جميع روافد المعرفة، فإن المجلة التي أصدرها **كوزموس** (*Kosmos*) (1845ـ1859) كانت من الشمول بحيث ألغت الفواصل المعرفية بين فروع المعرفة المختلفة.

من ناحية أخرى، اتسع نطاق العلم ليشمل بلداناً وشعوباً لم تكن حتى ذلك الوقت قد أسهمت فيه، ولو بقدر بسيط. ويمكن أن نورد قائمة من كبار العلماء في العام 1750، على سبيل المثال، لا تحتوي إلا على قلة قليلة من غير الفرنسيين والبريطانيين والألمان والإيطاليين والسويسريين. إلا أن أقصر قائمة لكبار العلماء الرياضيين خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تضم هينريخ آبل (Henrik Abel) من النرويج، وجانوس بولياي (Janos Bolyai) من هنغاريا، ونيكولاي لوباتشيفسكي (Nikolai Lobachevsky) من مدينة قازان النائية. ويبدو أن العلم يعبر، هنا أيضاً، عن بزوغ الثقافات الوطنية خارج حدود أوروبا الغربية، وذلك، بحد ذاته، من الثمار المشهودة لعصر الثورة. وقد تمثل هذا العنصر الوطني في توسع العلوم، بدوره، في تقهقر النزعة العالمية التي كانت من خصائص الجماعات العلمية الصغيرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فقد انصرم وتولى، مع أنظمة الحكم القديمة، العهدُ الذي كان فيه لعالم عالمي معروف مثل يولر (Euler) برنامجٌ حافلٌ من التنقل والترحال من بازل إلى سان بطرسبرغ، ثم إلى برلين، ليعود بعدها إلى كاثرين العظمى. وغدا العلماء منذئذٍ يعيشون ويتحركون داخل دوائرهم اللغوية، ويتواصلون الواحد منهم مع زملائه عبر المجلات العلمية، وهي أيضاً من الثمار المميزة لذلك العصر، ومنها *Proceedings*

Comptes rendus de l'académie des ،(1831) *of the Royal Society*
Proceedings of the American Phylosophical Society ،(1837) *sciences*
(1838)، أو المجلات الجديدة المتخصصة مثل المجلة التي كان يصدرها
كْرِيلْ *Journal für Reine und Angewandte Mathematik* (1838) أو مجلة
.(1797) *Annales de chimie et de physique*

II

قبل أن نطلق الأحكام على طبيعة آثار الثورة المزدوجة على العلوم، يجدر بنا أن نقدم عرضاً موجزاً لما كانت عليه آنذاك. فالعلوم "الفيزيائية" الكلاسيكية لم تَتَثَوْرن على العموم؛ أي أنها، بعبارة أخرى، بقيت جوهرياً في الإطار المرجعي الذي وضعه نيوتن. فإما أن تسلك طرائق البحث التي كانت متّبعة في القرن الثامن عشر، أو تتوسع في الاكتشافات المجزأة السابقة وتنسق بينها وتصوغها في أنساق نظرية عريضة. وكان المجال الجديد الأبرز الذي انفتحت آفاقه آنذاك (وكانت له نتائج مباشرة أكثر من غيره) هو الكهرباء، أو بالأحرى الكهرومغناطيسيا. وتمثلت علامات تقدمه الحاسم في خمسة تواريخ - كانت أربعة منها خلال تلك الفترة: 1786، عندما اكتشف غالفاني (Galvani) التيار الكهربائي، و1799 حين صنع فولتا (Volta) البطارية، و1800 يوم اكتُشف التحليل الكهربائي، و1820 عندما اكتشف أورستيد (Oersted) الرابطة بين الطاقتين الكهربائية والمغناطيسية، و1831 حين اكتشف فارادي العلاقة بين هذه القوى جميعها، ووجد نفسه، مصادفةً، يرتاد سبيلاً جديداً إلى الفيزياء (بواسطة "حقول الطاقة" لا قوى الدفع والشد الآلية)، وكان بذلك يمهد الطريق إلى العصر الحديث. وكانت التوليفة النظرية الجديدة الأهم هي اكتشاف قوانين الديناميّة الحرارية، أي العلاقة بين الحرارة والطاقة.

كانت الثورة التي حولت الفلك والفيزياء إلى علوم حديثة قد بدأت في القرن السابع عشر. أما الثورة التي ولّدت "الكيمياء"،

فكانت في أوج ازدهارها عندما بدأت هذه الفترة؛ ذلك أن الكيمياء، بين العلوم كافة، كانت هي الأكثر التصاقاً مباشراً بالممارسات الصناعية، ولا سيما عمليات التبييض والصبغ في صناعة النسيج. وبالإضافة إلى ذلك، فإن آباء هذا العلم لم يكونوا رجالاً عمليين يرتبطون مع رجال عمليين مثلهم فحسب (مثل دالتون في "جمعية مانشستر الأدبية والفلسفية" مع بريستلي في "الجمعية القمرية" في بيرمينغهام)، بل كانوا أحياناً سياسيين ثوريين، وإن كانوا من المعتدلين. وكان اثنان منهم من ضحايا الثورة الفرنسية: بريستلي، الذي اغتاله الغوغاء المحافظون؛ لتعاطفه الشديد مع الثورة، ولافوازييه العظيم الذي أعدم على المقصلة؛ لأنه لم يتعاطف معها بصورة كافية، أو بالأحرى لأنه لم يكن رجل أعمال كبيراً.

كانت "الكيمياء"، شأنها شأن الفيزياء، علماً فرنسياً في المقام الأول. فقد نشر مؤسسها الأول لافوازييه (1743ـ1794) مؤلفه الأساسي عن **مبادئ علم الكيمياء** (*Traité élementaire de chimie*) في السنة التي اندلعت فيها الثورة. كما كانت ثمة مبالغة، فرنسية بالدرجة الأولى كذلك، لمراحل التقدم التي قطعها علم الكيمياء، خصوصاً في تنظيم البحوث الكيميائية، في البلدان الأخرى، وحتى في تلك التي أصبحت في ما بعد هي المراكز الرئيسية للبحث الكيميائي، مثل ألمانيا. وانحصرت أشواط التقدم قبل العام 1789 في إسباغ بعض النظام الأولي على التجارب الإمبيريقية المتحابكة عن طريق تقديم تفسير واضح لعمليات كيماوية أساسية معينة مثل الاحتراق، أو بعض العناصر الأساسية مثل الأوكسيجين. كما أنها استحدثت قياسات كمية دقيقة، وبرنامجاً للمزيد من البحث في هذا المجال. وكان المفهوم الخطير للنظرية الذرية (الذي طرحه دالتون بين العامين 1803 و1810) قد مهد الطريق لوضع المعادلة الكيميائية، وأفسح المجال لدراسة البنية الكيميائية، وتلت ذلك سلسلة طويلة من نتائج التجارب الجديدة. وأصبحت الكيمياء في القرن التاسع عشر هي الأكثر صرامةً بين جميع العلوم، وغدت،

بالتالي، تجتذب جمهرة العلماء النابهين، شأنها شأن كل مجالات البحث الدينامية. ومع ذلك، ظلت أجواء علم الكيمياء ومناهج البحث فيه، إلى حد بعيد، مثل ما كانت عليه في القرن الثامن عشر.

وكان من تداعيات الكيمياء في تلك الفترة تحقيق كشف ثوري واحد، هو إمكانية تحليل الحياة باستخدام العلوم غير العضوية. فقد اكتشف لافوازييه أن التنفس شكل من أشكال احتراق الأوكسيجين. كما اكتشف ووهلر (Woehler) (1828) أن أحد العناصر التي كان يُعتقد حتى ذلك الحين أنها توجد فقط في الأجسام الحية، وهي الأَبولة (اليوريا)، يمكن توليفه في المختبر، فَدشّن بذلك مجالاً واسعاً هو "الكيمياء العضوية". غير أن المقاربتين الميكانيكية والكيميائية كلتيهما لم تمكنا علماء الأحياء (البيولوجيا) من تحقيق تقدم كبير، وذلك على الرغم من الشلل الخطير الذي أصاب العائق الأبرز في طريق التقدم، وهو الاعتقاد بأن المادة الحية تخضع لقوانين طبيعية تختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التي تتحكم في المادة غير الحية، وقد تأسس في العلوم الحيوية آنذاك ما يشبه النظرية الذرية في علم الأحياء بعد اكتشاف شلايدن (Schleiden) وشوان (Schwann) أن جميع الأجسام الحية تتكون من عدد لا حصر له من "الخلايا" (1838ـ1839). غير أن نضوج الفيزياء الحيوية والكيمياء الحيوية لم يتحقق إلا في وقت لاحق.

وحدثت في "الرياضيات" ثورة أكثر عمقاً، مع أنها بحكم طبيعتها أقل وضوحاً مما حدث في الكيمياء. وخلافاً لما حدث في الفيزياء التي ظلت في حدود مرجعيات القرن السابع عشر، والكيمياء التي انفتحت على مجالات واسعة عبر فجوة انفرجت في القرن الثامن عشر، دخلت الرياضيات في تلك الفترة ميداناً مختلفاً كل الاختلاف. وتجاوزت بذلك العالم الرياضي الذي بناه الإغريق، وقد سيطر حتى ذلك الحين على الحساب والهندسة المستوية، وكذلك عالم القرن السابع عشر الذي سيطر على مناهج التحليل. ولا يستطيع إلا الرياضيون تقدير

عمق الابتكار الذي استحدث في العلوم جراء نظرية وظائف المتغيرات المركبة (غوس (Gauss)، وكوشي (Cauchy)، وآبل، وجاكوبي (Jacobi))، ونظرية المجموعات (كوشي وغالوا (Galois)) أو نظرية الكمية الموجَّهة (هاملتون). ولكن بمقدور حتى عامة الناس أن يفهموا آثار الثورة التي استطاع بها الروسي لوباتشيفسكي (1826ـ1829) والهنغاري بولياي (1831) أن يطيحا أكثر الحقائق اليقينية الثابتة، وهي الهندسة الإقليدية. لقد كان الصرح الشاهق والبنية الراسخة لمنطق إقليدس يقوم على فرضيات محددة، ومنها أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان. وتلك من البديهيات التي تؤخذ على علاتها ولا يمكن البرهنة عليها. ومن الأمور البدائية البسيطة اليوم بناء هندسة منطقية مماثلة تقوم على افتراضات أخرى، كما فعل لوباتشيفسكي وبولياي، كأن نقول إن الامتداد اللامتناهي لخط مثل (خ) قد يمر من النقطة (ن)؛ أو، كما يرى ريمان أن الامتداد اللامتناهي لخط مثل (خ) لن يمر من النقطة (ن)؛ ويصدق ذلك بصورة أكبر إذا استطعنا بناء سطوح مستوية حقيقية تنطبق عليها هذه القوانين (من هنا، فإن ما يصح على الكرة الأرضية الكروية الشكل هو افتراضات ريمان لا إقليدس). غير أن الإقدام على طرح تلك الفرضيات في أوائل القرن التاسع عشر كان يمثل جرأة فكرية لا يعادلها إلا القول بأن الشمس، لا الأرض، هي مركز الكواكب.

III

لم يتنبه للثورة الرياضية إلا قلة من الاختصاصيين في مجالات بعيدة كل البعد عن الحياة اليومية. بيد أن الثورة في "العلوم الاجتماعية" كانت، من ناحية ثانية، أكثر وقعاً على الناس العاديين لأنها أكثر مساساً بحياتهم بصورة أكثر وضوحاً، ولكن أثرها، كما كان يُعتقد آنذاك، كان سلبياً على العموم. لقد كانت شخصيات العلماء والدارسين الهواة في روايات توماس لوف بيكوك تقابل بالتعاطف الناعم الرقيق أو بالسخرية

الودودة. ولكن ذلك لم يكن الحال بالنسبة لعلماء الاقتصاد والدعاة الأعضاء في دار النشر "Steam Intellect Society".

هبّت، بعبارة أدق، ثورتان، التقى مساراهما لتولد منهما الماركسية بوصفها التوليفة الأكثر شمولاً بين العلوم الاجتماعية: الثورة الأولى، التي واصلت الريادة المستنيرة التي بدأها عقلانيو القرنين السابع عشر والثامن عشر، وضعت ما يعادل القوانين الفيزيائية للتجمعات البشرية. وتمثل انتصارها الأول في بناء نظرية استدلالية منهجية للاقتصاد السياسي، وهي النظرية التي كانت قد قطعت أشواطاً من التقدم بحلول العام 1789. أما الثانية، الوثيقة الصلة بالفترة التي نتناولها، الأقرب إلى النزعة الرومنطيقية، فهي اكتشاف التطور التاريخي[2].

كان الابتكار الجريء الذي أقدم عليه العقلانيون الكلاسيكيون يتمثل في تبيان أن معادلة شبيهة بمنطق القوانين الجبرية يمكن تطبيقها على الوعي الإنساني وعلى حرية القرار. وكانت "قوانين الاقتصاد السياسي" من هذا النوع. وقد أدت هذه القوانين التي لا علاقة لها بما يحب البشر أو بما يكرهون، كما هي الحال في قانون الجاذبية (الذي يمثل وجه الشبه) إلى ترسيخ يقين الرأسماليين في أوائل القرن التاسع عشر، وزودت خصومهم الرومنطيقيين بنزعة غير عقلانية لا تقل عنها شراسة. وكان الاقتصاديون على حق من حيث المبدأ، على الرغم من أنهم بالغوا في التهويل بالطبيعة الشمولية للمقدمات التي بنوا استدلالاتهم على أساسها، وفي التركيز على قدرة "العوامل الأخرى"، والمحافظة على "تشابه الظروف"، وكذلك أحياناً على قدراتهم الفكرية. فإذا تضاعف عدد السكان في بلدة ما، دون أن ترافق ذلك زيادة في عدد المساكن فيها، فإن الإيجار ـ مع ثبات الظروف والعوامل الأخرى ـ لا بد أن يرتفع حتماً، سواء رضي الناس بذلك أم لم يرضوا. وكانت

(2) انظر ص 438-442 و450-451 من هذا الكتاب.

الافتراضات التي من هذا القبيل هي التي تعطي القوة لمنظومة التفكير الاستدلالي التي يبنيها الاقتصاد السياسي، ولا سيما في بريطانيا، وكذلك، إلى درجة أقل من ذلك بكثير، للمراكز العلمية التي أسست في القرن الثامن عشر في فرنسا، وإيطاليا، وسويسرا. وفي الفترة الممتدة بين العامين 1776 و1830، شهدت هذه التيارات أبرز انتصاراتها[3]، وتعززت في أعقاب عرض منهجي لنظرية ديمغرافية تهدف إلى تأسيس علاقة ميكانيكية تكاد تكون حتمية، ويمكن قياسها حسابياً بين مستويات نمو السكان من جهة، وموارد العيش من جهة أخرى. ولم تكن دراسة توماس ر. مالتوس **مقالة عن السكان** (*Essay on Population*) 1798 أصيلة أو قاهرة الحجة كما يزعم أنصارها في غمرة حماسهم لأن أحداً اكتشف أن على الفقراء أن يبقوا فقراء، أو أن الكرم والصدقة سيجعلانهم أكثر فقراً. فأهمية هذه الدراسة لا تكمن في جدارتها الفكرية، وهي متوسطة على العموم، بل في زعمها أنها سلكت منهج المعالجة العلمية عندما تناولت سلسلة من القرارات الفردية المزاجية، من نوع الرغبات الجنسية، واعتبرتها ظاهرة اجتماعية.

وحقق تطبيق الأساليب الرياضية على المجتمع خطوات متقدمة خلال هذه الفترة. وهنا، اتخذ العلماء الفرنسيون مكان الصدارة، تساعدهم، دون شك، أجواء الرياضيات الراقية التي سادت التعليم الفرنسي. وعلى هذا الأساس، بيّن أدولف كيتيليه البلجيكي في كتابه المَعْلَمي **حول الإنسان** (*Sur l'homme*) (1835)، أن التوزيع الإحصائي للخصائص البشرية يخضع لقوانين رياضية معروفة تمكنه من أن يستدل، بثقة اعتبرت مُغاليةً منذ ذلك الحين، على إمكانية الدمج بين العلوم الاجتماعية والفيزيائية. وكان منظِّرو الاحتمالات (وهي المنطلق الذي اتخذه كيتيليه (Quételet) لدراسة العلوم الاجتماعية) قد مهدوا لإمكانية

---

(3) انظر ص 438-439 من هذا الكتاب.

التعميم الإحصائي حول مجموعات السكان البشرية، وهو ما اعتمده الأشخاص العمليون مثل شركات التأمين. غير أن كيتيليه ومن عاصره من الإحصائيين، والأنثروبولوجيين، والدارسين الاجتماعيين الناشئين، طبقوا هذه المنهجيات في مجالات أوسع من ذلك بكثير، ووضعوا الأسس لما يعتبر حتى الآن الأداة الرياضية الرئيسية لاستقصاء الظواهر الاجتماعية.

كانت هذه التطورات في العلوم الاجتماعية، مثلها مثل ما حدث في الكيمياء، ثورية؛ من حيث إنها انطلقت من مراحل التقدم التي تحققت، من الناحية النظرية، قبل ذلك. غير أن ما يحسب لمصلحة العلوم الاجتماعية هو إنجاز آخر أصيل جديد كلياً أخصب، بدوره، العلوم البيولوجية، وحتى الفيزيائية، هو علم طبقات الأرض. وتمثل ذلك في اكتشاف أن التاريخ هو سيرورة تطورية منطقية، لا مجرد سردٍ زمني لأحداث متتالية. وتتضح إلى حدٍ غني عن البيان صلة هذا الابتكار، من جهة، بالثورة المزدوجة. ومن جهة أخرى، كان التقييم النقدي للرأسمالية هو المنطلق الذي صدر عن أوغست كونت في استحداثه مبحثاً جديداً هو "علم الاجتماع" (وهو الذي أطلق عليه هذا الاسم عام 1830 تقريباً). وقد بدأ كونت، الذي يعتبر في العادة مؤسساً لهذا العلم، حياته المهنية سكرتيراً خاصاً للاشتراكي اليوتوبي الرائد الكونت سان سيمون[4]، واعتبر المنظر المعاصر الأكثر خطورة كارل ماركس نظريته هذه أداة لتغيير العالم.

كان استحداث "التاريخ" كمبحث أكاديمي هو الجانب الأقل أهمية في تَأْرخة العلوم الاجتماعية. وصحيح أن كتابة التاريخ شاعت، على نحو كاسح، في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،

---

(4) على الرغم من أن من المتعذر تصنيف آراء سان سيمون بسهولة، فإننا لن نخرج عما جرت عليه العادة باعتباره اشتراكياً طوباوياً.

وقلما نشهد مثل هذا العدد ممن حاولوا أن يفهموا معنى العالم الذي يعيشون فيه بالعكوف على كتابة تاريخ الماضي، مجلَّداً بعد مجلَّد، وللمرة الأولى في أكثر الأحيان. ومن الآباء المؤسسين لعلم التأريخ في بلدانهم: كَرامْزين في روسيا (1818ـ1824)، وغيْيِر في السويد (1832ـ1836)، وبالاكي في بوهيميا (1836ـ1867). وكان النزوع إلى فهم الحاضر عبر فهم الماضي قوياً بصورة خاصة في فرنسا، حيث غدت الثورة نفسها موضوعاً لدراسات مكثفة متعاطفة من جانب تيير (Thiers) (1823، 1843)، ومينييه (Mignet) (1824)، وبوناروتي (1828)، ولامارتين (1847)، والباحث العظيم جول ميشيليه (1847ـ1853). وكانت تلك المرحلة فترة بطولية لعلم التأريخ، غير أنه لم تبق ثمة أعمال ذات قيمة من أعمال غيزو، وأوغستين تييري (Augustin Thierry) وميشيليه في فرنسا، ودين نيبور (Dane Niebuhr) والسويسري سيموندي، وهالام (Hallam)، ولينغارد (Lingard)، وكارلايْل في بريطانيا، وجمهرة الأساتذة الجامعيين الألمان. وتكمن أهمية الأغلبية من هذه المؤلَّفات في كونها وثائق تاريخية، أو أعمالاً أدبية، أو سجلاّ للنبوغ.

تمثلت الآثار الأبقى لهذه اليقظة التاريخية في أساليب التأريخ والتوثيق؛ ذلك أن استحضار آثار الماضي، المكتوبة أو غير المكتوبة، أصبح الشغل الشاغل للكثيرين. وربما كان الحافز على ذلك، جزئياً، هو حماية هذا الماضي في وجه هجمات الحاضر الشرسة، مع أن النزعة القومية قد تكون هي الدافع الأعمق؛ ذلك أن المؤرخ، ومؤلف المعاجم، وجامع الفولكلور والتراث الشعبي كانوا، في تلك الشعوب التي لم تستيقظ بعد، هم الذين عززوا الوعي القومي. من هنا، أنشأ الفرنسيون "معهد التوثيق" (Ecole des chartes) (1821)، والإنجليز "مكتب السجلات العامة" (Public Record Office) (1826)، والألمان "النُصُب التاريخي الجرماني" (Monumenta Germaniae Historiae) (1826)، بينما وضع المؤرخ الغزير الإنتاج ليوبولد فون رانكِه (Leopold von Ranke) (1795ـ1886) الأسس لكتابة التاريخ التي تعتمد على

التقييم التمحيصي للسجلات الأولية. وفي تلك الأثناء أنتج اللغويون وجامعو التراث الشعبي[5] سلسلة من القواميس الأساسية للغاتهم، ومجموعة من المؤلفات عن تقاليد شعوبهم الشفاهية.

وتجلت في مجال القانون الآثار الفورية لدمج التاريخ في العلوم الاجتماعية، حيث أنشأ فريدريك كارل فون سافيني المدرسة التاريخية لفلسفة التشريع (1815)، وطبقت المعايير التاريخية التي أفزعت الأصوليين في الدراسات اللاهوتية، ولا سيما كتاب ديفيد ف. شتراوس **حياة يسوع** (*Leben Jesu*) (1835). كما تجلت تلك الآثار، بصورة خاصة، في علم جديد كل الجدة، هو فقه اللغة، وقد برز أساساً في ألمانيا التي كانت المركز الأكثر صرامة في الترويج للمنهج التاريخي. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكون كارل ماركس ألمانياً. فقد كان الحافز الظاهري لنشأة فقه اللغة هو الغزو الأوروبي للبلدان غير الأوروبية. وكانت استقصاءات السير وليام جونز الرائدة في اللغة السنسكريتية (1786) من نتائج الحملة البريطانية على البنغال، وفك مغالق اللغة الهيروغليفية على يد شامبوليون (Champollion) (الذي نشر عمله الرئيسي هذا عام 1824) من نتائج حملة نابليون على مصر، كما كانت شروح راولينسون (Rawlinson) للكتابات المسمارية (البابلية والآشورية القديمة) (1835) عن أنشطة ضباط الحركة الكولونيالية البريطانية. غير أن فقه اللغة لم يقتصر في واقع الأمر على الاكتشاف، والوصف، والتصنيف فحسب. فقد أصبح، على النحو الذي وصفناه، يحتل المرتبة الثانية في العلوم الاجتماعية، على أيدي عدد من كبار الدارسين الألمان، مثل فرانْتْزْ بُبْ (Franz Bopp) (1791-1867)، والأخويْن غْريمْ. وبعبارة أخرى، فإنه كان العلم الثاني في اكتشاف القوانين العامة القابلة للتطبيق في مجال قُلَّبٍ مثل التواصل البشري

(5) انظر الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب.

(وكان الأول هو الاقتصاد السياسي). إلا أن قواعد فقه اللغة، خلافاً لقوانين الاقتصاد السياسي، كانت في جوهرها تاريخية، بل تطورية[6].

كانت الأسس التي قام عليها فقه اللغة تتمثل في أن ثمة عدداً ضخماً من اللغات، ويتجلى ذلك في أن كل واحدة من اللغات الأوروبية المكتوبة كانت، على مدى قرون، تمر في مراحل متتالية من التحولات. ولم تكن القضية تتعلق بمجرد إثبات تلك العلاقات وتصنيفها بالمقارنة بينها، وهي العملية التي كانت تجري بصورة واسعة (في علم التشريح، مثلاً، على يد كوفييه)، بل إنها كانت كذلك، في الأساس، تركز على تفسير تطور اللغات عبر التاريخ من أصل مشترك لها جميعاً. وكان فقه اللغة العلم الأول الذي يعتبر التطور من سماته الجوهرية. ومن حسن الطالع أن **الكتاب المقدس** يلتزم الصمت نسبياً حيال تاريخ اللغة، بينما كان هذا الأمر واضحاً كل الوضوح لدى البيولوجيين والجيولوجيين ـ الذين تحملوا الكثير جراء وجهة النظر تلك ـ عن بدايات تاريخ هذا الكوكب. من هنا، كان احتمال انغماس فقهاء اللغة في مياه طوفان نوح أو تخبطهم عند عراقيل "سفر التكوين 1" أقل مما تعرض له زملاؤهم الأقل حظاً. فقد كان من حسن حظهم في جميع الأحوال أن وردت في **الكتاب المقدس** عبارة لمصلحتهم تقول: "وكان أهل الأرض جميعاً يتكلمون أولاً بلسانٍ واحدٍ ولغة واحدة". ولكن فقه اللغة كان محظوظاً أيضاً لأنه، بين العلوم الاجتماعية كافة، لم يكن يتعامل مباشرة مع البشر، الذين يرفضون أية مقولة مفادها أن أفعالهم تخضع لأي أمر غير خيارهم الحر، بل يتعامل مع الكلمات التي لا ترفض مثل هذه الاعتبارات. وكان لفقهاء اللغة، بالتالي، حرية التعامل مع المشكلة التي كانت، حتى ذلك الحين، أساسية في العلوم الاجتماعية؛ ألا وهي أن يستخلصوا من القوانين العامة التي لا تراعي

---

(6) من المفارقات أن محاولة تطبيق المنهجية الرياضية ـ الفيزيائية على علم اللغات ـ وهي التي اعتبرت جانباً من "نظرية التواصل" العامة ـ لم تبدأ إلا في القرن العشرين.

التغيرات، التنويعات الكثيرة المتقلبة في سلوك الأفراد.

لم يحقق فقهاء اللغة، في الواقع، تقدماً ملموساً في تفسير التغير اللغوي، على الرغم من أن بُبْ نفسه كان قد عرض نظرية عن أصول علم الصرف وعلم النحو. إلا أنهم وصفوا ما يشبه شجرة الأنساب للغات الهندو ـ أوروبية، واستخلصوا عدداً من التعميمات الاستدلالية حول معدلات التغير النسبية في مختلف العناصر اللغوية، وبعض التعميمات التاريخية ذات الطابع العام، مثل "قانون غْريمْ" الذي بيّن أن "جميع" اللغات التيوتونية/ الجرمانية قد مرت في انعطافات صوتية معينة، وأن قسماً من اللهجات التيوتونية المحلية شهد، بعد قرون، منعطفات مماثلة. غير أنهم، على أية حال، كانوا متأكدين في دراساتهم الريادية تلك من أن تطور اللغة ليس مجرد سرد لتتابع زمني أو سجلّ لتنويعات، بل يتوجب تفسيره بالرجوع إلى قوانين لغوية أشبه بالقوانين العلمية.

IV

أما البيولوجيون والجيولوجيون، فكانوا أقل حظاً. لقد كان التاريخ هو القضية الأساسية بالنسبة لهم، مع أن دراسة الأرض كانت أكثر ارتباطاً بالكيمياء (من خلال صناعة المناجم)، وبعلم وظائف الأعضاء/ الفسيولوجيا (من خلال الاكتشاف المهم وهو العناصر الكيميائية في الأجسام الحية هي نفسها الموجودة في المادة غير العضوية في الطبيعة). غير أن المشكلات الواضحة للجيولوجي كانت تتصل بالتاريخ؛ إذ كيف يمكن له، على سبيل المثال، أن يفسر توزيع اليابسة والماء، والجبال، وفوق هذا وذاك، التوزيع البيّن في طبقات الأرض؟

إذا كانت المشكلة التاريخية لعلم طبقات الأرض هي تفسير تطور الأرض، فإن مشكلة علم الأحياء كانت تفسير نمو الأجسام الحية المفردة من بيضة، أو بذرة أو جرثومة، وتفسير تطور الأنواع، وكان كلاهما مرتبطاً بالدلائل المنظورة المحسومة للأحافير والمستحاثات التي لا

يمكن انتقاء عينة منها إلا بالتنقيب في كل طبقة صخرية بعينها دون سواها. وقد اكتشف مهندس إنجليزي متخصص بتصريف المياه، هو وليام سميث (William Smith)، في تسعينات القرن الثامن عشر، أنه يمكن بسهولة تحديد التواريخ الزمنية للتسلسل التاريخي للطبقات على أساس خصائص المستحاثات، فأنار بذلك السبيل أمام العِلْمين كليهما من خلال العمليات الجارية على الأرض في الثورة الصناعية.

كانت المشكلة آنذاك من الوضوح بحيث إن نظريات التطور كانت مطروحة بالفعل؛ ولا سيما ما عرضه عن عالم الحيوانات، عالم الحيوان الأنيق الأسلوب، الاستعراضي في بعض الأحيان، الكونت دو بوفون (Comte de Buffon)، في كتابه **حقب الطبيعة** (*Les Epoques de la nature*) (1778). وقد اكتسبت هذه النظريات شهرة واسعة خلال العقد الذي حدثت فيه الثورة الفرنسية. وظهرت نظريات تطورية كاملة تقريباً عن الأرض وأنواع النباتات والحيوانات، وضعها في أدنبره جيمس هَتُنْ (James Hutton) المعروف بالتكرار (**نظرية الأرض** (*Theory of the Earth*)، 1795)، وكذلك إيرازموس داروين (Erasmus Darwin) الغريب الأطوار الذي لمع نجمه في الجمعية القمرية في بيرمينغهام، وقد نظم جانباً من نظرياته العلمية شعراً (**زونوميا** (*Zoonomia*)، 1794). بل إن لابلاس وضع عام 1796 نظرية تطورية عن النظام الشمسي. وكان قد سبقه إلى ذلك الفيلسوف إيمانويل كانْت. كما أن بيار كاباني كان، في الوقت نفسه، يطرح تصوره لقوى الإنسان العقلية بوصفها نتاجاً لتاريخه التطوري. وفي سنة 1809، عرض لامارك (Lamarck) في فرنسا أول نظرية أساسية حديثة منهجية للتطور، تقوم على وراثة الخصائص المكتسبة.

لم يكتب النجاح لأي من هذه النظريات، بل إنها ووجهت بمقاومة عنيفة من أولئك "المؤمنين إيماناً راسخاً بالوحي الإلهي"[7]

---

(7) Charles Coulston Gillispie, *Genesis and Geology, a Study in the Relations* =

مثل مجلة *Quarterly Review* المحافظة. فما الذي سيحدث إذن لطوفان نوح؟ وماذا عن خلق الأنواع مستقلة بعضها عن بعض، ناهيك عن الإنسان؟ والأهم من ذلك كله، ما الذي سيحدث للاستقرار الاجتماعي؟ ولم تشغل الهموم الناجمة عن مثل هذه التأملات رجال الدين البسطاء والسياسيين الأكثر بساطة فحسب، بل إن كوفييه العظيم، مؤسس الدراسات المنهجية للمستحاثات والأحافير (*Recherches sur les ossemens fossiles*) (1812) رفض نظرية التطور باسم العناية الربانية. وكان من الأفضل، في رأي هؤلاء، أن يتصور سلسلة من الكوارث في التاريخ الجيولوجي، تليها سلسلة من أعمال إعادة الخلق الربانية (إذ كان من المتعذر إنكار التغير الجيولوجي بمعزل تام عن التغير البيولوجي) بدلاً من التلاعب بما ورد في **الكتاب المقدس** أو بما قال به أرسطو. والدكتور لورنس العاثر الحظ، الذي رد على لامارك بطرح نظرية شبه داروينية عن التطور بفعل الانتقاء الطبيعي، أرغمته صيحات الاستنكار الغاضبة من جانب المحافظين على أن يسحب من التوزيع كتابه عن **التاريخ الطبيعي للإنسان** (*Natural History of Man*) (1819). فقد جانب الصواب والحكمة لا في مناقشة تطور الإنسان فحسب، بل في إشارته إلى التحدث عما تعنيه أفكاره هذه للمجتمع المعاصر له. وقد مكنته توبته واستغفاره من استعادة عمله، وضمان مستقبله الوظيفي، غير أنها أورثته ضميراً مثقلاً حاول أن يريحه بعد ذلك بتملق صاحب المطبعة الراديكالي الشجاع الذي أفلح، مرة بعد مرة، في تهريب نسخ من هذا العمل المثير للقلاقل إلى القراء.

لم تحقق نظريات التطور الناضجة أي اختراق في علم طبقات الأرض إلا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، أي عندما تحولت

---

of Scientific Thought, Natural Theology, and Social Opinion in Great Britain, 1790-1850, Harvard Historical Studies; vol. 58 (Cambridge: Harvard University Press, 1951), p. 116. =

الأنشطة السياسية إلى اليسار عندما نشر ليل (Lyell) كتابه الشهير **مبادئ علم طبقات الأرض** (*Principles of Geology*) (1830ـ1833)، منهياً بذلك معارضة النبتونيين. وكانت حجة هؤلاء، المستقاة من **الكتاب المقدس**، هي أن جميع المعادن قد ترسبت من المحاليل المائية التي غمرت الأرض ذات يوم (سفر التكوين 1، 7ـ9)، وشاركهم في ذلك الكارِثيّون الذين تبنوا حجج كوفييه اليائسة.

في ذلك العقد نفسه، تكهن بتطورات أخطر اثنان من العلماء هما شميرلينغ الذي كان يجري بحوثه في بلجيكا، وبوشيه دو بيرت (Boucher de Perthes) الذي فضل لحسن حظه هواية علم الآثار على منصبه مديراً للجمارك في آبيفيل. فقد اكتشفا بالفعل أحافير لإنسان ما قبل التاريخ، وهي التي كان وجودها يتعرض للإنكار الشديد[8]، غير أن النزعة العلمية المحافظة آثرت رفض هذه النتائج المفزعة باعتبار أنها تفتقر إلى الأدلة السليمة. وظل الأمر على هذه الحال إلى أن اكتشفت بقايا الهيكل العظمي للإنسان النياندرتالي في ألمانيا عام 1856.

وتعين الآن قبول الأمور التالية: (أ) أن الأسباب المؤثرة الآن قد حولت الأرض، على مر الزمان، من حالتها السابقة إلى ما هي عليه في الوقت الحاضر؛ (ب) أن هذا التحول قد استغرق زمناً طويلاً كل الطول لا يمكن قياسه بحسابات **الكتاب المقدس**؛ (ج) أن توالي الطبقات الجيولوجية يكشف عن تتابع في التطورية للحيوانات، مما يدل على تطور بيولوجي. والجدير بالإشادة أن من أبدى الاهتمام الأكبر بقضية التطور هم عامة الناس الراديكاليين من أبناء الطبقات الوسطى البريطانية (باستثناء الدكتور أندرو أور (Andrew Ure) المُنْفِر الذي كرس أناشيده الدينية للإشادة بنظام المعامل). وقد تباطأ العلماء في قبول العلم. وذلك

---

(8) لم ينشر كتابه عن **الأحافير والمستحاثات** (*Antiquitès celtiques et antédiluviennes*) إلا عام 1846. والواقع أن مستحاثات بشرية عديدة كانت تكتشف بين حين وآخر، غير أنها ظلت مهملة أو منسية في زوايا المتاحف في الأقاليم.

ليس بمستغرب إذا تذكرنا أن الجيولوجيا كانت العلم الوحيد الذي يليق بالدارسين أن يتعلموه في جامعتي أوكسفورد وكامبريدج في تلك الفترة (ربما لأن من الممكن ممارسة هذا العلم في الهواء الطلق، وحبذا لو كان ذلك في "رحلات جيولوجية" عالية الكلفة).

أما التطور البيولوجي، فقد تخلف. ولم تتكرر مناقشة هذا الموضوع المتفجر إلا بعد هزيمة ثورات العام 1848؛ فإن تشارلز داروين، حتى في تلك الأيام، تناول الأمر في غاية الحذر والإبهام، بل المكر. وتلاشى مؤقتاً حتى الاكتشاف الموازي للتطور، وهو علم الأجنّة. وكان بعض أوائل الفلاسفة الطبيعيين التأمليين الألمان، مثل يوهان ميكيل (Johann Meckel) في هال (1781ـ1833)، قد اقترحوا أن الجنين في الكائنات العضوية إنما يكرر في نموه تطور النوع الإنساني. ومع أن قانون "السيرة الجينية" هذا حظي بمساندة علماء مثل راتكِهْ الذي اكتشف أن أجنة العصافير تمر في مرحلة تكون فيها مشقوقة شقاً طولياً (1829)، إلا أنه قوبل بالرفض من جانب فون باير النافض الرأي في كوينغزبرغ وسان بطرسبرغ؛ ذلك أن علم وظائف الأعضاء التجريبي صادف هوى في نفوس العاملين في مناطق السلاف والبلطيق[9]، ولم ينتعش هذا المنهج الفكري إلا مع نشأة الداروينية. وكانت النظريات التطورية في تلك الأثناء قد حققت تقدماً مشهوداً في دراسة المجتمع. إلا أن علينا أن نتحاشى المبالغة في أهمية هذا التقدم. إن مرحلة الثورة المزدوجة تنتمي إلى فترة ما قبل تاريخ العلوم الاجتماعية كافة، باستثناء الاقتصاد السياسي، والعلوم اللغوية، وربما الإحصاء، بل إن إنجازاتها الهائلة المتمثلة في نظرية ماركس وإنغلز المتماسكة عن التطور الاجتماعي لم تكن آنذاك أكثر من تخمين ألمعي صيغ على هيئة صورة قلمية رائعة، أو

---

(9) عمل راتكِه (Rathke) مدرساً في دوربات (تارتو) في إستونيا، كما قام باندر بالتدريس في ريغا، وأسس عالم الفيزيولوجيا التشيكي الكبير بوركويني أول مختبر للبحث الفيزيولوجي في برسلافا عام 1830.

منطلق للسرد التاريخي. ولم تتدعم القواعد الراسخة للمنهج العلمي لدراسة المجتمع البشري إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ويصدق ذلك على مجالات الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الإثنوغرافيا الميدانية في المجتمعات ما قبل التاريخية، وعلى علم الاجتماع وعلم النفس. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تدشين هذه المجالات في تلك الفترة، أو الادعاء بأن كلا منها يشكل علماً قائماً بذاته وله خصائصه المتميزة، قد طرح للمرة الأولى، وأن جون ستيوارت مِلْ كان أول من وضع علم النفس بحزم في تلك المرتبة عام 1843. ويعادل ذلك في الأهمية تأسيس الجمعيات الإثنولوجية الخاصة في فرنسا وإنجلترا (1839 و1843)، وتكاثر البحوث الاجتماعية باستخدام الوسائل الإحصائية لجمعيات الإحصاء بين العامين 1830 و1848. وقد بقي البرنامج الذي وضعته الجمعية الإثنولوجية الفرنسية حبراً على ورق على الرغم من أنه كان، من الوجهة التاريخية، عميق الدلالة. فـ "التعليمات إلى الرحالة" التي أصدرتها الجمعية، تحث الباحثين على "الكشف عن الذكريات التي اختزنتها الشعوب عن أصولها. . . والتحولات التي طرأت، جراء أسباب داخلية أو بسبب الغزو، على لغاتها وأنماط سلوكها في مجالات الفنون، والعلوم، والثروة، وصيغ الحكم والسلطة فيها"[10]. ولا تكمن أهمية العلوم الاجتماعية في تلك الفترة في ما توصلت إليه من نتائج (مع أنها قد تراكمت لديها كمية معتبرة من المادة الوصفية) بقدر ما تتجلى في تميزها المادي الحازم المتمثل في تصميمها على تفسير الفوارق الإنسانية الاجتماعية على أساس المؤثرات البيئية، وفي التزامها العميق بمفهوم التطور. ومن هنا كان تعريف شافان عند ولادة هذا العلم عام 1787 للإثنولوجيا بأنها "تاريخ ارتقاء الشعوب إلى المدينة"[11].

---

(10) Maurice Daumas, éd., *Histoire de la science*, encyclopédie de la pléiade; 5 ([Paris: Gallimard, 1957]), p. 1456.

(11) Alexandre André César Chavannes, *Essai sur l'éducation intellectuelle*, =

ولا بد من أن نشير هنا، بإيجاز، إلى إحدى النتائج الجانبية المشبوهة للمرحلة الأولى من تطور العلوم الاجتماعية: نظريات العرق. فقد نوقشت مسألة وجود عدة أعراق (بل ألوان) للبشر في القرن الثامن عشر، عندما شغلت العقول التأملية بقضية نشأة الكون في حالة خلق واحدة مفردة أم على وجوه متعددة. ولم يكن من اليسير وضع خط فاصل بين مدرستي الأصل الأحادي والأصل التعددي. وقد ضمت المجموعة الأولى المؤمنين بالتطور والمساواة بين البشر، والذين ارتاحوا لاعتقادهم هذا لأن العلم على الأقل، لا يتعارض مع ما ورد في **الكتاب المقدس**، وكان من هؤلاء عالمان من المرحلة السابقة للداروينية هما بريتشارد (Prichard) ولورنس، وكذلك كوفييه. أما التيار الثاني فلم يكن يضم، في واقع الأمر، العلماء المخلصين فحسب، بل يشمل العنصريين من جنوب العبيد الأمريكي. وأدت هذه المساجلات حول الأعراق إلى فورة في الأنثروبومترية المولعة بقياس الجسم البشري، التي تقوم أساساً على جمع الجماجم وتصنيفها وقياسها. ومما شجع على هذه الممارسة هواية غريبة برزت في ذلك الوقت هي فراسة الدماغ (الفرينولوجيا)، التي تقوم على دراسة شكل الجمجمة بوصفه مظهراً دالاً على الشخصية والملكات العقلية. وأسست الجمعيات الفِراسْدِماغية في بريطانيا وفرنسا (1823، 1832)، غير أن هذه الجمعيات سرعان ما انقرضت في المجال العلمي.

وفي الوقت نفسه، تضافر خليط من النزعة القومية، والراديكالية، والتاريخ، والملاحظات الميدانية لاستحداث أمر آخر لا يقل خطورة عن التمييز العنصري، هو موضوع السمات القومية أو العرقية لمجتمع ما. وفي عشرينات القرن التاسع عشر، شرع الأَخوان تييري، وهما من المؤرخين الفرنسيين الثوريين الرواد، في دراسة الغزو النورماني،

= *avec le projet d'une science nouvelle* (Lausanne: Impr. de I. Hignou, 1787).

وغزوات الغال، وهي التي ما زالت تتردد في العبارة الواردة في مستهل كتب القراءة في فرنسا **أجدادنا الغال** (*Nos ancêstres Les Gaulois*)، وعلى العلب الزرق لسجائر الغُلْواز (Gauloise). وقد أفضت بهما النزعة الراديكالية إلى الاعتقاد بأن الشعب الفرنسي يتحدر من أصول غاليّة، وأن الارستقراطيين من نسل التيوتونيين الجرمان الذين تغلبوا عليهم. وقد استخدمت هذه الحجة في ما بعد من جانب العنصريين من الطبقة العليا مثل الكونت غوبينو لخدمة أغراض المحافظين. وكان الاعتقاد بخصائص عرقية محددة دائمة ـ وقد آمن العالم الطبيعي الإيرلندي إدواردز بوجودها لدى الكِلْتيين ـ ينسجم وسياق ذلك العصر. فقد زعم كثيرون في تلك الأيام أنهم اكتشفوا خصالاً فردية رومنطيقية خفية لشعوبهم، أو توهموا، إذْ كانوا ثوريين، أن للأمة التي ينتمون إليها رسالة تؤديها، وأنهم، في حالات غير ذلك، أرجعوا ما يتمتع به شعبهم من ثروة وقوة إلى "خصال التفوق الأصيلة" فيه (ولم يميلوا إلى إرجاع ظاهرتي الفقر والقمع إلى "مركب نقص أصيل" فيه). بيد أن من الضروري الإقرار بأن أسوأ استخدام للنظريات العرقية إنما بدأ بعد نهاية الفترة التي يعالجها هذا الكتاب.

V

ترى، بِمَ نفسر هذه التطورات العلمية؟ وكيف نربط، بصورة خاصة، بينها وبين التغيرات التاريخية في الثورة المزدوجة؟ غني عن البيان أن الروابط واضحة كل الوضوح. فالإشكالات النظرية في المحرك البخاري دفعت العالم البارع سادي كارنو (Sadi Carnot) عام 1824 إلى وضع النظريات الفيزيائية الأعمق في القرن التاسع عشر حول المحركات الحرارية، والاهتداء إلى قانونِي الديناميّة الحرارية في (**تأملات في قوة الحرارة المحرِّكة**)[12] (*Reflexions sur la puissance motrice du feu*)، مع

(12) إن اكتشافه للقانون الأول لم ينشر على أية حال إلا في وقت لاحق.

أن ملاحظاته تلك لم تكن المقاربة الوحيدة لتلك المشكلات. كما تحقق تقدم عظيم في مجالات علم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، وعلم الإحاثة (البيليونتولوجيا) الذي يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات الحيوانية والنباتية، بفضل عمليات حفر الأرض والمناجم التي كان يجريها المهندسون الصناعيون النشطون. ولم يكن مستغرباً، والحال هذه، أن تصبح بريطانيا بلد الجيولوجيا بامتياز، وأن يجري فيها مسح جيولوجي وطني عام 1836. وقد وفر مسح المعادن للكيميائيين عدداً لا يحصى من المركبات غير العضوية تمهيداً لتحليلها، كما قدمت لهم الحوافز صناعات المناجم، والخزف، والتعدين، والنسيج، والصناعات الجديدة في مجالات الإنارة بالغاز، والكيماويات، والزراعة. وثمة شواهد أخرى للبرهنة على أن التقدم العلمي في تلك المرحلة لا يمكن فصله عن الحوافز التي قدمتها الثورة الصناعية. كما أسهم في تحقيق التقدم العلمي الحماس الغامر من جانب البورجوازية والراديكالية والأرستقراطية البريطانية المحافظة على السواء لا لتطبيق نتائج البحوث فحسب، بل للتقدم خطواتٍ جريئة في عالم المعرفة، وهو المهد الذي تترعرع فيه العلوم وتزدهر.

وبالمثل، فإن المُنطَويات العلمية للثورة الفرنسية تتجلى في العداء ـ المعلن والخفي ـ الذي أظهره السياسيون المعتدلون والمحافظون على السواء تجاه العلم. فقد اعتبره هؤلاء من نتائج الانقلاب المادي العقلاني في القرن الثامن عشر. وقد أسفرت هزيمة نابليون عن موجة ظَلاميّة معيقة لانتشار المعرفة والتقدم. وكان لامارتين المراوغ يرى أن "الرياضيات هي أغلال الفكر. . . . وما إن أتنفس حتى تتهاوى". وقد استمر الصراع منذئذٍ بين جبهتين؛ تضم الأولى يساراً مكافحاً مناصراً للعلم ومناوئاً لسلك الكهنوت. وقد تمكن هذا التيار في ساعات انتصاره القليلة من أن يبني أكثر المؤسسات التي أتاحت فرص النشاط والعمل للعلماء الفرنسيين. وكانت هناك، من جهة أخرى، جبهة اليمين المعادي

للعلم، الذي بذل قصارى جهده لتجويع العلماء[13]، وما زال يفعل ذلك. ولا يعني ذلك أن العلماء في فرنسا أو في أي بلد آخر كانوا ثوريين. لقد كان بعضهم كذلك، ومنهم الولد الذهبي إيفاريست غالوا الذي استحكم وراء المتاريس عام 1830، واضطهد بوصفه من المتمردين، ثم قتل عام 1832، وهو في الحادية والعشرين من العمر، في مبارزة أثارها المشاغبون السياسيون. وظل علماء الرياضيات على مدى أجيال عديدة يغتذون على الأفكار النيرة التي خطها على عجل في الليلة التي كان يعتبرها الأخيرة في حياته على الأرض. وكان علماء آخرون رجعيين صريحين، مثل الحقوقي كوشي على الرغم من أن تقاليد الإيكول بوليتكنيك التي اعتنقها، لأسباب واضحة، كانت معادية للملكية. وربما كان أغلب العلماء يعتبرون أنفسهم على يسار الوسط في المرحلة ما بعد النابليونية. كما أُرغم بعضهم، ولا سيما المؤرخون، وعلماء اللغة، وغيرهم ممن كانت لهم صلات واضحة مع الحركات الوطنية، على توَلّي مناصب سياسية قيادية. وقد أصبح بالاكي الناطق الرئيسي باسم التشيكيين عام 1848، ووجد أساتذة الجامعات السبعة الذين وقعوا رسالة احتجاج عام 1837 في غوتنغن أنفسهم أبطالاً وطنيين[14]. واشتهر برلمان فرانكفورت خلال ثورة 1848 الألمانية بوصفه مجلساً من أساتذة الجامعات ومن موظفي الحكومة على حد سواء. ومن ناحية أخرى، كان العلماء، وعلى رأسهم العلماء الطبيعيون، بالمقارنة مع الفنانين والفلاسفة، يظهرون قدراً يسيراً من الوعي السياسي، إلا إذا تطلب عملهم ذلك بالفعل. وخارج البلدان الكاثوليكية، على سبيل المثال، أظهروا قدرتهم على الجمع بين العلم والتدين المستكين، مما

---

(13) Guerlac, "Science and National Strength," in: Edward Mead Earle, ed., *Modern France: Problems of the Third and Fourth Republics*, Contributors Warren C. Baum [et al.] (Princeton: Princeton University Press, 1951).

(14) كان الأخوان غريم (Grimm) من جملة هؤلاء.

أدهش الطلبة في المرحلة ما بعد الداروينية. وتفسر هذه الاستدلالات المباشرة جوانب من التطور العلمي بين العامين 1789 و1840، ولكنها لا تفسر الكثير. فمن الواضح أن الآثار المباشرة للأحداث التي جرت آنذاك كانت أكثر أهمية. وبوسع كل امرئ أن يلاحظ أن العالم قد تحوّل تحولاً جذرياً في تلك المرحلة، على نحو لا مثيل له في التاريخ. ولا يسع المراقب المتبصر إلا أن يذهل، ويهتز، ويتحفز عقلياً إزاء تلك التشنجات والتحولات. ولم يكن من المستغرب، والحال هذه، أن تُستقبل بالقبول والترحاب أنماط التفكير المستمدة من التغيّر الاجتماعي السريع، والثورات العميقة، وحلول الابتكارات العقلانية الجذرية محل المؤسسات الاعتيادية والتقليدية. فهل يمكن ربط بزوغ الثورة الظاهر هذا باستعداد الرياضيين الذين لا يُعنوْن بالحياة الواقعية حولهم لاختراق حواجز التفكير العملي؟ نحن لا نستطيع الإجابة عن هذا التساؤل، غير أننا ندرك أن تبني مناهج ثورية جديدة في التفكير يواجَهُ عادة بالمنع، لا بسبب استعصائها، بل بسبب مخالفتها للافتراضات الضمنية حول ما هو أمر "طبيعي" أو غير طبيعي. فإن مصطلحات الأرقام "غير العقلانية" (مثل الرقم $\sqrt{2}$) أو "الخيالية" (مثل $\sqrt{-1}$)، تشير إلى طبيعة هذه الصعوبة. ويسهُل الأمر حالما نقرر أن هذه الأرقام لا تختلف عن غيرها ولا تزيد أو تقل عقلانية أو واقعية عنها. إلا أن الأمر قد يستغرق عقوداً من التحول العميق قبل أن يرى المفكرون حاجة لاتخاذ مثل هذا القرار؛ بل إن المتغيرات الخيالية أو المركبة في الرياضيات، التي كانت تعامل بحذر وحيرة في القرن الثامن عشر، لم تنضج وتُستوعَبْ كلياً إلا بعد الثورة.

وإذا ما وضعنا الرياضيات جانباً، أدركنا أن أنماط التفكير الناجمة عن هذه التحولات المجتمعية كان من شأنها أن تغري العلماء بدخول مجالات تنطبق عليها هذه الأوضاع المثيلة؛ ومن ذلك استحداث مفاهيم دينامية تطورية بدلاً من تلك التي كانت حتى ذلك الحين مفاهيم ساكنة. وقد يحدث ذلك مباشرةً، أو عبر واحد من العلوم الأخرى. وعلى هذا

الأساس، استُحدث في العشرينات من القرن التاسع عشر مفهوم "الثورة الصناعية"، وهو من المفاهيم الجوهرية للتاريخ مثلما هو للاقتصاد الحديث، اقتداءً صريحاً بمفهوم "الثورة الفرنسية". كما أن تشارلز داروين اشتق آليّة "الانتقاء الطبيعي" من نموذج المنافسة الرأسمالية، الذي اقتبسه بدوره عن المفهوم الذي طرحه مالتوس عن "الصراع من أجل البقاء". وربما كانت موجة النظريات الكارثيّة في الجيولوجيا (1790ـ1830) مدينةً أيضاً لما كان يلاحظه ذلك الجيل من وجوه التفجر والتشنج العنيف في المجتمع.

على الرغم من ذلك، فإننا نجانب الصواب إذا شددنا على أهمية هذه المؤثرات الخارجية خارج العلوم الاجتماعية المعروفة. إن عالَم الفكر يتمتع بالاستقلال إلى حد ما، وهو يتحرك على طول الموجة التاريخية نفسها التي تتحرك بها المؤثرات في الخارج، غير أنه ليس مجرد أصداء لها. من هنا، فإن النظريات الجيولوجية الكارثية، على سبيل المثال، مدينة بعض الشيء للبروتستانتية، ولا سيما التيار الكالفينستي منها، الذي يشدد على قدرة الرب التعسفية المطلقة. لقد كانت هذه النظريات، إلى حد بعيد، حكراً على البروتستانتية التي تميزت بهذه النظرة عن الكاثوليكية واللاأدرية. وإذا كانت تطورات مشابهة قد حدثت في ميادين العلم في أماكن أخرى، فإن ذلك لا يُعزى، بصورة مبسطة، لما يقابلها من التطورات السياسية والاقتصادية.

غير أنه لا يمكن إنكار هذا الترابط. فالتيارات الفكرية العامة في تلك الفترة كان لها ما يطابقها في ميادين العلم التخصصية، وذلك ما يمكننا من إقامة نوع من الموازاة بين العلوم والآداب، أو بينها من جهة وبين التوجهات السياسية ـ الاجتماعية من جهة أخرى. فقد كانت، من ثم، نزعة "كلاسيكية"، و"رومنطيقية" أيضاً في العلوم التي كانت لها، كما رأينا، مقارباتٌ متميزةٌ للمجتمع البشري، منسجمةٌ وذلك التوجه. إن الموازنة بين عالم عصر التنوير والكلاسيكية (أو،

بالمصطلحات الفكرية) العقلانية الميكانيكية النيوتونية من جهة، وأوساط الليبرالية البورجوازية، والرومنطيقية (أو، بالمصطلحات الفكرية، ما يسمى "الفلسفة الطبيعية") مع خصومها، هي من باب التبسيط المُخلّ الذي سيتقوض بعد العام 1830. غير أن في هذه الموازنة بعض الصحة. فحتى الوقت الذي أدى فيه بزوغ نظريات مثل الاشتراكية الحديثة وترسيخ الفكر الثوري في الماضي العقلاني[15]، كانت علوم مثل الفيزياء، والكيمياء، والفلك، تسير جنباً إلى جنب مع البورجوازية الليبرالية الأنغلو ـ فرنسية. وعلى سبيل المثال، فإن الثوريين من أبناء المدن كانوا في السنة الحادية عشرة بعد الثورة يستلهمون أفكار روسو لا فولتير، ويلقون ظلال الشك على لافوازييه (الذي أعدموه)، ولابلاس، لا بسبب صلاتهما مع نظام الحكم القديم فحسب، بل لأسباب شبيهة بتلك التي دفعت الشاعر وليام بليك إلى التنديد بنيوتن[16]. وبخلاف ذلك، كان "التاريخ الطبيعي" مناسباً لمزاج المرحلة؛ لأنه يفسح المجال أمام عفوية الطبيعة الحقيقية الصافية التي لم يمسسها الفساد. وقد أسست الدكتاتورية اليعقوبية، التي حلّت الأكاديميةَ الفرنسية، اثني عشر كرسياً للبحوث في "حديقة النباتات" (Jardin des plantes) التي يتدرب فيها علماء النبات. وبالمثل، شهدت ألمانيا، التي كانت الليبرالية الكلاسيكية فيها ضعيفة الجانب[17]، ظهور أيديولوجية علمية منافسة للكلاسيكية، وأصبحت هي الأكثر شعبية وشيوعاً. وكان هذا التيار الجديد هو "الفلسفة الطبيعية".

ومن السهل الانتقاص من قدر "الفلسفة الطبيعية"، لأنها كانت تتعارض تعارضاً شديداً مع ما تعارفنا على وصفه بالعلم؛ ذلك أنها

---

(15) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

(16) لم تتعرض العلوم النيوتونية للشك في مجالات العمل التطبيقي الذي كانت قيمته الاقتصادية والعسكرية واضحة تماماً.

(17) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

كانت تأملية حدسيّة. وقد سعت إلى ما يعبر عن روح العالم، أو الحياة، وعن الاتحاد العضوي الملفع بالأسرار الذي يدمج جميع الأشياء بعضها ببعض، وكثيراً من الأمور التي يتعذر قياسها، كمّيّاً بدقة أو بوضوح ديكارتي. والواقع أنها كانت تمرداً صارخاً على المادية الآلية، وعلى نيوتن، وأحياناً على العقل نفسه. وقد أهدر غوته العظيم، في عليائه، جانباً معتبراً من وقته في محاولة تفنيد نظرية نيوتن في علم البصريات. وقد دفعه إلى ذلك إحساسه بعدم الارتياح لنظرية لا تستطيع تفسير الألوان على أساس التفاعل بين أصول الضوء والظلمة. وكان لمثل هذا الزَّيْغ أن يبعث على الدهشة والألم في "الإيكول بوليتكنيك"، حيث استعصى على فهم العلماء هناك تفضيلُ الألمان المستمر لِكَبْلَر (Kepler)، المثقل بأعباء الصوفية الباطنية المبهمة، على الجلاء البيّن الواضح الكامل في **مبادئ** (*Principia*) نيوتن. فكيف يتأتى للمرء أن يفك المغالق في ما يقوله لورنز أوكن (Lorenz Oken):

"إن أعمال الله أو حياته تتمَظْهَر في تعبيرها الأبدي عن نفسها، وتأملها الأبدي في ذاتها الوحدانية والثنائية، وهي تنقسم خارجياً وتحافظ على وحدانيتها في آنٍ معاً. .. والاستقطابية التناقضية هي القوة الأولى في العالم. .. وقانون السببية هو قانون الاستقطاب. السببية فعلُ التوليد. والنزوع الجنسي متجذّرٌ في أول حركة في العالم. .. ومن ثَمَّ فإن في كل شيء سَيْرورتَيْن: تفضي الأولى إلى الفَرْدَنة والإحياء، والثانية إلى الشمول والتدمير"[18].

وتلك مقولات بعيدة كل البعد عن الوضوح والجلاء! إن وقوف برتراند راسِلْ (Bertrand Russell) عاجزاً عن فهم هيغل، الذي كان يتحدث بمثل هذه اللغة المُبهمة، يطرح مثالاً واضحاً على رد مفكر من

---

(18) Stephen Finney Mason, *A History of the Sciences: Main Currents of Scientific Thought* (London: Routledge and Kegan Paul, 1953), p. 286.

عقلانيّي القرن الثامن عشر على مثل هذه المعضلة الخطابية. ومن جهة أخرى، فإن إقرار ماركس وإنغلز الصريح بأنهما مدينان للفلسفة الطبيعية[19] من شأنه أن ينبهنا إلى أنها ليست مجرد لغو من نافلة القول، بل إلى أنها كانت مجدية وفعالة. فهي لم تنتج جهداً علمياً فحسب، بل نتائج مثمرة أيضاً. فلم يكتفِ لورنز أوكن بتأسيس "الجمعية الألمانية للفلسفة الطبيعية" (Deutsche Natur-forscherversammlung)، بل أوحى أيضاً بقيام "الجمعية البريطانية للتقدم العلمي". وقد لعبت "الرومنطيقية" دوراً مؤثراً في تطوير نظرية الخلايا في علم الأحياء، وأسهمت إسهاماً كبيراً في علم البُنْية النباتية والحيوانية، وعلم الأجنّة، وفقه اللغة، وكثير من العناصر التاريخية والتطورية في جميع العلوم. والواقع أن الرومنطيقية في ميدانها المفضل، وهو علم الأحياء، قد استفادت من المُدْخلات الكلاسيكية الصارمة اللاحقة التي أضافها كلود برنارد (Claude Bernard) (1813ـ1878)، وهو مؤسس علم وظائف الأعضاء الحديث. من جهة ثانية، فإن تأملات الفلاسفة الطبيعيين حول موضوعات غامضة مثل الكهرباء والمغناطيسية، قد عززت من التقدم الذي تحقق في العلوم الفيزيائية ـ الكيميائية التي بقيت من معاقل الكلاسيكية المنيعة. وقد اكتشف هانز كريستيان أورستيد في كوبنهاغن العلاقة بين هذين المجالين عندما شرح الآثار المغناطيسية على التيار الكهربائي للعلم بالفعل، غير أنهما لم تندمجا في منهجية واحدة، حتى في فكر ماركس الذي كان أكثر إدراكاً من غيره للأصول المتداخلة لتفكيره. وقد كانت المقاربة الرومنطيقية على العموم حافزاً لنشأة أفكار ومنطلقات جديدة إلى أن انسحبت، آخر الأمر، من ساحة العلم. غير أنه لا ينبغي تجاهلها في تلك الفترة.

وإذا لم يكن من الممكن تجاهلها بوصفها حافزاً علمياً صرفاً، فإن

---

(19) وتضمن مؤلَّفا إنغلز **ضد دوهرينغ** (*Anti-Duehring*) و**فيورباخ** (*Feuerbach*) دفاعاً متحفظاً عن الفلسفة الطبيعية، كذلك عن كيبلر وضد نيوتن.

من المتعذر إهمالها من جانب مؤرخي الأفكار والآراء، الذين يعتبرون حتى الآراءَ السفيهةَ الزائفةَ حقائقَ ومؤثراتٍ تاريخية. وليس بوسعنا أن نغفل حركة استهوت أو أثرت في شخصيات فكرية وثقافية عملاقة، مثل غوته، وهيغل، وماركس الشاب. ويمكننا أن نتفهم الاستياء العميق من النظرة الأنغلو ـ فرنسية "الكلاسيكية" إلى العالم في القرن الثامن عشر. فقد حققت هذه النظرة إنجازات جبارة لا يمكن إنكارها في ميدان العلوم وفي المجتمع. غير أن ضيق هذه النظرة وتقييداتها كانت تتضح بصورة مطردة خلال فترة الثورتين الصناعية والفرنسية. إن إدراك هذه القيود، وتبيّن الشروط التي يمكن وِفْقَها رسم صورة أفضل لبناء العالم، بالحدس لا بالتحليل، لا يعني بناء هذا العالم بالفعل. كما أن رؤى العالم التطورية، المتداخلة، الجدلية التي طرحها الفلاسفة الطبيعيون، لا تقدم البراهين ولا المعادلات السليمة. إلا أنها عرضت لمشكلات حقيقية، بل لمشكلات حقيقية حتى في العلوم الفيزيائية نفسها، ومهدت للتحولات والامتدادات التي طرأت على عالم العلوم، ووضعت الأسس للعالم العلمي الحديث الذي نعيش فيه. وقد عبرت، بطريقتها الخاصة، عن الآثار التي تركتها الثورة المزدوجة التي غيرت جميع الجوانب في الحياة البشرية.

الفصل السادس عشر

الخاتمة: نحو العام 1848

"إن الإعواز والبروليتاريا هما القرحة المتقيّحة التي ولدت في قلب الدول الحديثة. ترى، هل يمكن الشفاء منها؟ إن الأطباء الشيوعيين يقترحون تدمير بنية الدولة القائمة وإعدامها كلياً. . . . والحقيقة المؤكدة هي أنه إذا أتيحت لهؤلاء فرصة التصرف، فإن ذلك لن يفضي إلى ثورة سياسية، بل إلى ثورة اجتماعية، إلى حرب على المُلْكية، وإلى فوضى مطبقة. وهل سيمهد ذلك الطريق لنشأة دول قومية جديدة، وعلى أية أسس أخلاقية واجتماعية؟ ومن سيكشف النقاب عن المستقبل؟ وما الدور الذي ستقوم به روسيا؟ والمثل الروسي القديم يقول: "سأجلس على الشاطئ، وأنتظر الريح".

هاكستاوزن، **دراسات حول. . . روسيا** (1847)[1].

---

(1) August Franz Ludwig Maria Haxthausen-Abbenburg, *Studien über die Innern Zustände, das Volksleben und Insbedondere die Lañdlichen Einrichtungen Russlands*, 3 vols. (Hannover: Hahn, 1847-52), vol. 1, pp. 156-157.

I

كنا قد بدأنا هذا الكتاب باستعراض حالة العالم عام 1789. ولنختتم الآن بإلقاء نظرة عليه بعد نحو خمسين عاماً، في نهاية نصف القرن الأكثر ثورية في تاريخ البشرية المسجل حتى ذلك الحين.

لقد كان هذا العصر هو "عصر أفعل التفضيل". فالملخصات الإحصائية العديدة الجديدة التي حاولت في عصر الحسابات والإحصائيات هذا أن تسجل واقع الجوانب المختلفة في العالم المعروف آنذاك[2] كانت تخلُص، بحق، إلى أن كل كمية يمكن قياسها كانت أعظم (أو أقل) مما كانت عليه قبل ذلك. وكانت خريطة العالم المعروف الذي يترابط بشبكة من الاتصالات أوسعَ وأعظمَ مما كانت عليه من قبل، والتواصل بين أطراف العالم أكثر سرعةً وكفاءة في أكثر من ناحية، وكان عدد سكان العالم قد ارتفع آنذاك إلى مستوى لا سابق له على الإطلاق، وتضاعف عدد المدن الضخمة بسرعة غير مسبوقة، ووصل الإنتاج الصناعي إلى مستوياتٍ فلكية؛ ففي الأربعينات من القرن التاسع عشر، استُخرج من باطن الأرض نحو 640 مليون طن من الفحم الحجري. ولم يتفوق على هذا المستوى إلا حجم التجارة الدولية التي تضاعفت أربع مرات منذ العام 1780، لتبلغ نحو 800 مليون جنيه إسترليني، وقيمةً مالية أعلى من ذلك بكثير بالعملات الأقل صلابة واستقراراً.

وبلغ تقدم العلم ذروة لم يبلغها من قبل، واتسعت آفاق المعرفة اتساعاً غير معهود، واطلع مواطنو العالم على ما يجري فيه من تطورات

(2) نشر نحو خمسين ملخصاً رئيسياً من هذا النوع في الفترة بين العامين 1800 و1848. يضاف إلى ذلك الإحصاءات التي كانت تنشرها الحكومات (مثل تعداد السكان، والتحقيقات الرسمية، وما إلى ذلك)، أو العديد من المجلات الجديدة في المجالات التخصصية أو الاقتصادية الحافلة بالجداول الإحصائية.

عبر ما يربو على أربعة آلاف صحيفة، وتجاوز عدد الكتب الصادرة في كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة أرقاماً من خمس خانات في السنة. كما تعاظم صعود الخط البياني للاختراعات البشرية، سنة بعد أخرى، إلى درجة مذهلة، وكان مصباح أرغاند (1782ـ1784) قد أوشك قبل ذلك أن يكون أول ثورة رئيسية منذ مصباح الزيت والشمعة، عندما بدأت المختبرات الهائلة التي كانت تعرف بمصانع الغاز بدفق إنتاجها عبر شبكة من الأنابيب التي امتدت تحت الأرض لتضيء المعامل[3]، وتنتشر بعدها في المدن الأوروبية: لندن منذ العام 1807، ودبلن 1818، وباريس 1819، وحتى سيدني النائية اعتباراً من سنة 1841. وكانت الإنارة بالقوس الكهربائي معروفة آنئذ، وكان البروفسور وِيتْستون (Wheatstone) يخطط وقتها في لندن ليربط إنجلترا بفرنسا عن طريق خط كهربائي بحري للبرق (التلغراف). وفي الوقت نفسه، كان ثمانية وأربعون مليوناً من الناس يستخدمون السكة الحديدية في بريطانيا وحدها في السنة الواحدة (1845). كما كان الرجال والنساء يتحركون على مدى ثلاثة آلاف ميل عام 1846، وستة آلاف ميل بحلول العام 1850 في بريطانيا، وتسعة آلاف ميل في الولايات المتحدة، وكانت خدمات السفن البخارية تصل أوروبا بأمريكا وأوروبا بجزر الهند.

ولا شك في أن هذه الانتصارات كان لها جانب قاتم، مع أن من غير المستطاع تحديد ذلك الجانب في جداول إحصائية موجزة. فكيف لنا أن نصوّر كمياً، ما لا ينكره أحد اليوم، وهو أن الثورة الصناعية قد خلقت أقبح عالم عاش الإنسان فيه على مدى التاريخ، كما كان يتبدى في الشوارع الخلفية المعتمة الموبوءة القذرة الغارقة بالضباب في مانشستر؟ وكيف نصور اقتلاعها آلافاً مؤلفة من الرجال والنساء من

---

(3) أدخل بولتون ووات هذه المصابيح عام 1798. وكانت مصانع القطن التي يملكها فيلبس ولي (Lee) في مانشستر تستخدم بصورة دائمة ألف مَصْرَم اعتباراً من العام 1805.

جذورهم، وحرمانهم، في عالم التعاسة الذين أصبحوا يعيشون فيه، من القناعات التي تحدرت إليهم عبر العصور؟ وعلى الرغم من ذلك، فإننا سنغفر لدعاة التقدم في أربعينات ذاك القرن تصميمَهم وثقتَهم بأن "التجارة ستمضي قدماً إلى الأمام، حاملةً المدنيّة بيد، والسلام بأخرى، وستقود البشر إلى مستقبل أفضل وأكثر سعادة وحكمة"؛ وذلك هو موقف رئيس الوزراء البريطاني اللورد بالميرستون الذي أدلى بهذه العبارة الوردية سنة 1842، وهي أكثر السنين حلكةً، ثم اختتمها بقوله: "سيدي . . . هذه إرادة الله"[4]. ولم يكن أحد لينكر وجود الفقر في أكثر صوره مدعاةً للفزع، ورأى كثيرون أنه يزداد اتساعاً وعمقاً. ومع ذلك كله، هل كان بوسع أكثر المراقبين العقلانيين تشاؤماً أن يقول، اعتماداً على المعايير التي تقاس بها انتصارات الصناعة والعلوم، إن الأحوال المادية كانت أسوأ مما كانت عليه في أي وقت مضى، أو مما كانت آنذاك في البلدان غير الصناعية؟ الإجابة عن ذلك هي بالنفي. غير أن التهمة كانت قاسية، والدلائل قاطعة. فحالة الكادحين الفقراء لم تكن أفضل مما كانت عليه في الماضي المظلم، بل إنها كانت في بعض الأحيان أسوأ مما تعيه ذاكرة الأحياء في تلك الأيام. وقد حاول دعاة التقدم أن يردّوا هذه التهمة بدعوى أن السبب في ذلك لم يكن يكمن في عمليات المجتمع البورجوازي الجديد، بل في العراقيل التي كان الإقطاع، والنظام الملكي، والأرستقراطية يضعونها في طريق المشروع الاقتصادي الكامل الحرية. وخلافاً لذلك، كان الاشتراكيون الجدد يعتقدون أن السبب هو عمليات النظام الجديد نفسها. غير أن الجانبين اتفقا على أن هذه المتاعب كلها ليست أكثر من آلام النمو والبلوغ. وكان الطرف الأول يرى أنه سيتم التغلب على هذه الصعوبات في إطار الرأسمالية، بينما كان

(4) Hansard, "16 Feb. 1842," in: Ronald Robinson, Alice Denny and John Gallagher, *Africa and the Victorians: The Official Mind of Imperialism* (London: Macmillan and Co; New York: St. Martin's Press, 1961), p. 2.

الطرف الثاني يخالفه الرأي. إلا أن الجانبين كانا مُحقّين في اعتقادهما أن حياة البشر قد شهدت تحسناً مادياً يعادل التقدم الذي حققه الإنسان في السيطرة على قوى الطبيعة.

عندما نتناول بالتحليل البنية الاجتماعية والسياسية للعالم في أربعينات القرن التاسع عشر، فإننا نتخلى عن أفعل التفضيل الذي درجنا على استخدامه حتى الآن، ونعدل عنه إلى معايير أكثر تواضعاً وتحفظاً. إن جُلَّ سكان العالم آنذاك كانوا ما زالوا فلاحين، مع أن ثمة بقاعاً، مثل بريطانيا، كانت فيها أقليات صغيرة هي التي تمارس الزراعة، وكانت القطاعات الحضرية توشك على تجاوز سكان الأرياف، كما حدث للمرة الأولى في تعداد السكان عام 1851. ولم يكن هناك غير أعداد قليلة نسبياً من العبيد؛ فقد ألغيت تجارة الرقيق رسمياً عام 1815، وفي المستعمرات البريطانية عام 1834، وفي المستعمرات الإسبانية والفرنسية المحررة إبّان الثورة الفرنسية أو بعدها. وفيما كانت جزر الهند الغربية آنذاك منطقة زراعية حرة قانونياً، باستثناء بعض الجزر غير القانونية، فقد واصلت تجارة الرقيق، عددياً، توسعها في اثنين من مواقعها الحصينة الباقية، هما البرازيل وجنوب الولايات المتحدة. وكان من حوافز ذلك التوسع تقدم الصناعة والتجارة اللتين كانتا تعارضان كل قيد على حركة السلع والناس. كما أن التحريم الرسمي جعل تجارة الرقيق أكثر جاذبية وربحاً. وكان سعر العامل الزراعي في جنوب الولايات المتحدة نحو 300 دولار عام 1795، وتصاعد إلى ما يتراوح بين 1200 و1800 دولار عام 1860[5]، كما ارتفع عدد العبيد في الولايات المتحدة من سبعمئة ألف عام 1790 إلى مليونين ونصف المليون عام 1840، وثلاثة ملايين ومئتي ألف عام 1850. وكانوا حتى ذلك الحين يُجلبون من أفريقيا، ولكنهم يُرَبَّون ويهيئون للبيع في مناطق

(5) Richard Brandon Morris, *Encyclopedia of American History* (New York: Harper, [1953]), p. 515 and 516.

استملاك الرقيق، أي الولايات الحدودية في الولايات المتحدة، ويباعون للعمل في حزام القطن المتزايد الاتساع.

وإضافة إلى ذلك، نشطت تجارة أشباه العبيد القائمة على تصدير "العمال المتعاقدين" من الهند إلى جزر قصب السكر في المحيط الهندي وجزر الهند الغربية.

وكان نظام السخرة، أو الاسترقاق القانوني للفلاحين، قد ألغي في مناطق واسعة من أوروبا، مع أن ذلك لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للواقع الفعلي لفقراء الأرياف في مناطق فِلاحة العزب التقليدية، مثل صقلية والأندلس. غير أن السخرة استمرت في مواقعها الرئيسية في أوروبا، مع أن أعداد المسخّرين ظلت، بعد مرحلة من التوسع الأوّلي، مستقرةً في روسيا في حدود ما يتراوح بين عشرة ملايين وأحدَ عشر مليوناً من الذكور بعد العام 1811، أي أنها انخفضت نسبياً[6]. ومع ذلك، كان من الواضح أن السخرة الزراعية، خلافاً للرق الزراعي، كانت في حالة انخفاض مستمر بعد أن أخذت فوائدها الاقتصادية بالتناقص التدريجي، وبعد أن تصاعدت حالات التمرد بين الفلاحين، ولا سيما منذ أربعينات ذلك القرن. وربما كان أعنف تمرد بين عمال السخرة هو الذي حدث في غاليقيا النمساوية عام 1846، وكان بمثابة تمهيد للانعتاق العام الذي جاءت به ثورة العام 1848. ولكن حتى في روسيا، اندلعت حركات التمرد بين الفلاحين 148 مرة في الفترة بين العامين 1826 و1834، ومئتين وست عشرة مرة بين 1835 و1844، وثلاثمئة وثمانٍ وأربعين بين 1844 و1854، وبلغت ذروتها عند وقوع

---

(6) أدى تمديد السخرة في عهد كاثرين الثانية، وبولس (1762-1801) إلى زيادة أعداد المسّخرين الذكور من نحو ثلاثة ملايين وثمانمئة ألف إلى عشرة ملايين وأربعمئة ألف عام 1811. انظر: Peter Ivanovich Lyashchenko, *History of the National Economy of Russia to the 1917 Revolution*, Translated by L. M. Herman (New York: Macmillan, 1949), pp. 273-274.

474 تمرداً في السنوات الأخيرة التي سبقت الانعتاق عام 1861[7].

في الجانب الآخر من الهرم الاجتماعي، طرأ تغير أقل مما كان متوقعاً على أوضاع الأرستقراطيين مُلاّك الأرض، إلا في البلدان التي حدثت فيها ثورات فلاحية مباشرة، مثل فرنسا. ولا شك في أن ثمة بلداناً، مثل فرنسا والولايات المتحدة، لم تعد فيها طبقة ملاّك الأرض تمثل الفئة الأكثر ثراء في المجتمع (إلا إذا كان هؤلاء، مثل عائلة روتشيلد، قد اشتروا الإقطاعات والعزب لأن فيها إشارةً وعلامةً تمثل انضمامهم إلى صفوف الطبقة العليا). فقد كانت مفاتيح تركيز الثروة، حتى في بريطانيا في أربعينات القرن، في أيدي النبلاء، كما أن أصحاب مزارع القطن في جنوب الولايات المتحدة خلقوا لأنفسهم طبقة مشوّهة تماثل المجتمع الأرستقراطي، مستوحاةً مما كتبه والتر سكوت عن فئات "الفرسان" الرومنطيقية، وجماعات أخرى لا صلة لها بتجارة الزنوج التي حققوا من وراءها الثروة، ولا بالمزارعين الطهرانيين المنتفخي الأوداج الذين كانت موائدهم حافلة بالذرة ولحم الخنزير السمين. وكانت هذه اللمسة الأرستقراطية تخفي تحتها بعض جوانب التغيير؛ فقد كان دخلهم يعتمد بصورة متزايدة على الصناعة، وعلى تجارة السلع والأسهم والعقارات التي تخلت عنها الطبقة البورجوازية المحتَقَرة.

وقد تزايدت مداخيل "الطبقة الوسطى" بطبيعة الحال، غير أن عدد أفراد هذه الفئة لم يكن كبيراً جداً. ففي العام 1801، كان الدخل السنوي لنحو مئة ألف من دافعي الضرائب يقرب من مئة وخمسين جنيهاً إسترلينياً؛ وقد يكون عددهم قد ازداد مع نهاية الفترة التي نعالجها ليصل إلى 340 ألفاً[8] من أرباب العائلات الكبيرة، مما يرفع العدد الإجمالي إلى مليون ونصف المليون من إجمالي السكان، وعددهم نحو 21

---

(7) انظر: المصدر نفسه، ص 370.

(8) Josiah Charles Stamp, *British Incomes and Property* (London: P. S. King and Son, 1920), p. 431 and 515.

مليون نسمة (1851)[9]. وبالطبع، كان عدد الراغبين في العيش على غرار الطبقة الوسطى وانتهاج أسلوب حياتها أكبر من ذلك بكثير. ولم يكن هؤلاء أثرياء جداً. وتقدر بعض التخمينات[10] عدد من كانت مداخيلهم أكثر من خمسة آلاف جنيه في السنة بأربعة آلاف شخص، بمن فيهم الأرستقراطيون، ولا يتعارض هذا العدد مع عدد أرباب العمل ممن يستخدمون 7579 حوذياً كانوا يزينون الشوارع البريطانية. وفي تقديرنا أن نسبة "الطبقة الوسطى" لم تكن تتجاوز هذا المعدل كثيراً في البلدان الأخرى، بل ربما كانت أقل من ذلك على العموم.

وبطبيعة الحال، كانت الطبقة العاملة (بما فيها البروليتاريا الجديدة في المصانع، والمناجم، والسكة الحديدية) قد تنامت بصورة أسرع من غيرها بكثير، إلا أنها في بريطانيا لم تكن تتجاوز مئات الآلاف ـ لا الملايين ـ في أحسن الحالات. ولا يؤبه لهذا العدد بالمقارنة مع إجمالي سكان العالم، كما أن العمال لم يكونوا قوة منظمة إلا في بريطانيا وبؤر عمالية بسيطة في مناطق أخرى. غير أن النفوذ السياسي لهذه الطبقة كان، كما رأينا، عظيماً، ولا يتناسب مع حجمها أو إنجازاتها.

بحلول الأربعينات من القرن التاسع عشر، كانت البنية السياسية للعالم قد شهدت تحولاً بارزاً أيضاً، ولو كان دون مستوى توقعات المراقبين المتفائلين (أو المتشائمين) عام 1800؛ ذلك أن المَلَكية ظلت هي نظام الحكم في الأغلبية العظمى من الدول، ما عدا القارة الأمريكية،

---

(9) هذه تقديرات اعتباطية. إلا أننا إذا افترضنا أن كل فرد ممن يمكن تصنيفهم في الطبقة الوسطى كان يحتفظ بخادم واحد على الأقل، فإن عدد النساء العاملات في "الخدمة المنزلية" عام 1851، وهو ستمئة وأربعة وسبعين ألفاً، سيعطينا ما هو أكثر بكثير من الحد الأقصى للأسر في "الطبقة الوسطى"، ومن الحد الأدنى من الطهاة وهو 50 ألفاً (وكانت أعداد الخادمات والمدبرات متماثلة تقريباً).

(10) أورد هذا التخمين العالم الإحصائي البارز وليام فار (William Farr) في **المجلة الإحصائية** (*Statistical Journal*) (1875)، ص 102.

بل إن إحدى الدول الكبرى هناك (وهي البرازيل) كانت إمبراطورية، كما أن دولة أخرى (هي المكسيك) جربت، على الأقل، التقاليد الإمبراطورية في عهد الجنرال إيتوربيد (أغسطين الأول) في الفترة من 1822 إلى 1833. وصحيح أنه يمكن اعتبار عدة ممالك أوروبية، بما فيها فرنسا، ملكياتٍ دستوريةً في ذلك الوقت، غير أن الأنظمة الملكية المطلقة كانت هي السائدة في جميع الأنحاء خارج نطاق هذا الحزام على امتداد السواحل الشرقية للمحيط الأطلسي. وصحيح كذلك أن دولاً جديدة كانت قد نشأت بحلول أربعينات القرن، وكانت من ثمار الثورة مثل بلجيكا، وصربيا، واليونان، وحفنة من الدول في أمريكا اللاتينية. ومع أن بلجيكا كانت قوة اقتصادية ذات شأن (لأنها كانت إلى حد بعيد تتحرك بمحاذاة جارتها الفرنسية الكبرى)[11]، إلا أن الدولة الثورية الأهم بينها كانت قائمة عام 1789، وهي الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت تتمتع بميزتيْن هائلتينْ: الأولى هي غياب أية دولة منافسة في الجوار قد تحاول أو تسعى إلى الحؤول دون توسعها عبر القارة الأمريكية باتجاه المحيط الهادي. وكانت فرنسا قد باعت للولايات المتحدة منطقة توازيها مساحةً في ما سمي آنذاك "صفقة لويزيانا" عام 1803. والميزة الثانية هي معدل التوسع الاقتصادي الخارق للعادة. وقد شاركتها في الميزة الأولى البرازيل التي نجت، بعد انفصالها عن البرتغال، من التشرذم الذي ألحقه جيل من الحروب الثورية بالجانب الأكبر من أمريكا الإسبانية؛ غير أن ثروتها من الموارد لم تكن قد استُغلت بعد.

على الرغم من ذلك كله، حدثت تغيرات كبيرة تعاظمت وتزايدت بصورة ظاهرة جراء ما اكتنفها من زخم منذ العام 1830 أو نحوه. فقد استحدثت ثورة 1830 دساتير ليبرالية معتدلة تلبي تطلعات الطبقة الوسطى في الدول الرئيسية في أوروبا الغربية. ومع أن هذه الدساتير

(11) صُدِّر نحو ثلث إنتاج بلجيكا من الفحم وقضبان الحديد بأكمله تقريباً إلى فرنسا.

كانت مناوئة للديمقراطية، إلا أنها كانت، بالقدر نفسه، معادية للأرستقراطية. وكانت ثمة، دون شك، تسويات وحلول وسط فرضها الخوف من ثورة جماهيرية تتجاوز التطلعات المعتدلة للطبقة الوسطى. فقد ظلت الطبقات المالكة تتمتع بتمثيلٍ عالٍ في الحكومة، كما في بريطانيا، وقطاعاتٌ واسعةٌ من الطبقة الوسطى الجديدة، وخصوصاً الشرائح الصناعية الأكثر عنفواناً، تتمتع بتمثيلٍ متدنٍّ. وفي القضايا المهمة كافة، تمتع الصناعيون البريطانيون بحرية التصرف بعد العام 1832، وكانت القدرة على إلغاء قانون الذرة تستحق الابتعاد عن مشروعات النفعيين ومقترحاتهم الجمهورية المتطرفة المعادية لرجال الكنيسة. ولا شك في أن ليبرالية الطبقة الوسطى الأوروبية (لا الديمقراطية الراديكالية) كانت في صعود مطرد آنذاك، وكان خصومها ـ وهم المحافظون في بريطانيا ـ والمتكتلون حول الكنيسة الكاثوليكية في أماكن أخرى، يتخذون مواقع دفاعية، ويدركون ذلك كل الإدراك.

وقد حققت الديمقراطية الراديكالية تقدماً كبيراً على الرغم من ذلك كله. فبعد خمسين سنة من التردد والعداء، أفلحت في فرض الديمقراطية، في الولايات المتحدة، ضغوط المزارعين وسكان التخوم على الرئيس أندرو جاكسون (1829ـ1837)، فيما كانت الثورة الأوروبية تستجمع قواها. وفي أواخر تلك الفترة التي نعالجها (1847)، أعيدت الديمقراطية إلى سويسرا بعد حرب أهلية بين الراديكاليين والكاثوليك. غير أن قلة قليلة فحسب من أفراد الطبقة الوسطى الليبراليين المعتدلين كانوا يعتقدون حينئذٍ أن نظام الحكم ذاك، كما ينادي به الثوريون اليساريون أساساً، سيخدم مصالح صغار المنتجين الجسورين في السهول والمناطق الجبلية. كما أنهم كانوا يشكّون في أن ذلك النظام سيكون إطاراً سياسياً صالحاً للرأسمالية أو مناسباً للدفاع عنها ضد هجمات من كانوا من دعاتها في الأربعينات من القرن التاسع عشر. وبالتالي، لم تكن ثمة ثورةٌ شاملةٌ غيرُ مشروطة، وبالجملة على ما يبدو، إلا في السياسة الدولية وحدها. فقد كان عالم الأربعينات من القرن التاسع عشر خاضعاً

بصورة كلية، سياسياً واقتصادياً، لهيمنة قوى أوروبية، تساعدها قوة الولايات المتحدة المتزايدة.

وقد أوضحت حرب الأفيون في الفترة بين 1839 و1842 أن القوة غير الأوروبية الوحيدة الباقية، وهي الإمبراطورية الصينية، كانت عاجزة عن مواجهة العدوان العسكري والاقتصادي. ولم تكن هناك، على ما يبدو، قوة قادرة على الوقوف في وجه بضع سفن حربية أو كتائب عسكرية غربية تحمل معها التجارة و**الكتاب المقدس**. وكان التفوق البريطاني من السطوة بحيث لم يكن بحاجة إلى إشراف سياسي ليفعل ما يريد. ولم تكن قد بقيت قوى استعمارية أخرى، إلا ما كانت تتكرم بريطانيا عليه بحرية العمل، كما لم يكن ثمة منافسة للبريطانيين. وكانت الإمبراطورية الفرنسية قد تقلصت إلى بضع جزر ومواقع تجارية، على الرغم من أنها كانت تحاول إحياء نفوذها عبر البحر المتوسط في الجزائر. كما أن الهولنديين، الذين كانت تحدجهم أنظار البريطانيين من مركزهم التجاري الجديد في سنغافورة عندما استعادوا نفوذهم في إندونيسيا، لم يعودوا قادرين على المنافسة. كما أعاد الإسبان سيطرتهم على كوبا والفلبين، وجددوا مطالب غامضة لهم في أفريقيا، فيما أهملت، بحق، المستعمرات البرتغالية، وسيطرت التجارة البريطانية على الأرجنتين المستقلة، والبرازيل، وجنوب الولايات المتحدة، وكذلك المستعمرة الإسبانية في كوبا، والمستعمرات البريطانية الأخرى في الهند. وكان للاستثمارات البريطانية حضور قوي في شمال الولايات المتحدة، بل في كل موقع طالته التنمية الاقتصادية. ولم يحدث في تاريخ العالم على الإطلاق أن فرضت دولة واحدة هيمنتها العالمية كما فعلت بريطانيا في أواسط القرن التاسع عشر؛ ذلك أن الإمبراطوريات العظمى التي مارست مثل هذه الهيمنة في الماضي، ومنها الإمبراطوريات الصينية، والإسلامية، والرومانية، كانت تتحرك في إطار إقليمي. ولم يحدث منذ ذلك الحين أن نجحت قوة واحدة في فرض هيمنة مماثلة، لا في الماضي، ولا في الحاضر أو المستقبل المنظور؛ لأنه لم يكن بوسع أية

دولة أن تطلق على نفسها، حصرياً، لقب "مَشْغَل العالم".

على أن بوادر انهيار بريطانيا كانت، آنذاك، واضحة للعيان. فحتى في الثلاثينات والأربعينات من ذلك القرن، تكهن المراقبون الحصيفون، ومنهم أليكسيس دو توكفيل، وهاكستاوزن، بأن الولايات المتحدة وروسيا ستتمكنان، بما لهما من حجم وموارد ممكنة، من الانضمام في المستقبل إلى العملاقين التوأمين في العالم؛ وستقف ألمانيا (كما تنبأ فريدريك إنغلز عام 1844) منهما موقف المنافسة وعلى قدم المساواة في أوروبا. ولم تنسحب من حلبة المنافسة للسيطرة على العالم غير فرنسا، مع أن ذلك لم يكن واضحاً إلى درجة تُطمئن رجالَ الدولة البريطانيين وغيرهم أو تهدّئ من هواجسهم.

باختصار، كان عالم العقد الخامس من القرن التاسع عشر يعاني الخلل وانعدام التوازن. فقد كانت قوى التغيير الاقتصادي، والتقني، والاجتماعي التي انطلقت خلال نصف القرن المنصرم، حتى في نظر المراقبين السُذَّج، ظاهرة فريدة لا سابق لها في التاريخ، ولا سبيل إلى مقاومتها. ومن جهة أخرى، كانت النتائج المؤسسية لهذه التغيرات متواضعة آنذاك. فقد كان من المحتم، على سبيل المثال، زوال نظامي الرق والسخرة قانونياً، عاجلاً أم آجلاً (باستثناء مخلفات هاتين الممارستين في مناطق نائية لم يَطَلْها الاقتصاد الجديد بعد)، مثلما كان من المحتم أن لا تبقى بريطانيا هي الدولة الصناعية الوحيدة. وكان من المحتم لا محالة أيضاً أن الأرستقراطية المالكة للأرض، والملكيات المطلقة، ستندحر في جميع البلدان التي كانت تتنامى فيها بورجوازية قوية، مهما كان نوع التسويات والمعادلات السياسية التي سيتم التوصل إليها للحفاظ على المكانة، والنفوذ، والسلطة السياسية. وإضافةً إلى ذلك، كان من المحتم أن تُشحن الجماهير بالوعي السياسي، وبالنشاط السياسي الدائم، وهذا هو الإرث الذي خلفته الثورة الفرنسية، مما سيعني أن تلك الجماهير ستسهم بدور رسمي في الأنشطة السياسية، إن عاجلاً أو آجلاً. وإذا أخذنا بالاعتبار التسارع المشهود في التغير

الاجتماعي منذ العام 1830، وانتعاش الحركة الثورية الأممية، فسيتضح أن من المستحيل إرجاء هذه التغيرات، مهما كانت طبيعتها المؤسسية[12].

كان من شأن ذلك كله أن يُشعِرَ الناس في أربعينات القرن التاسع عشر بالتغير الوشيك الآتي، غير أنه لم يكن كافياً لتفسير ما يشعر به الجميع في أنحاء أوروبا كافة، وهو الإدراك المتزايد بالثورة الاجتماعية الوشيكة الوقوع. والجدير بالملاحظة، أن هذا الإدراك لم يقتصر على الثوريين الذين كانوا يعبرون عنه بصورة مسهبة، ولا على الطبقات الحاكمة التي كانت تتوجس خيفةً من جماهير الفقراء في أوقات التغير الاجتماعي. فالفقراء أنفسهم هم الذين كانوا يدركون ذلك كل الإدراك، بل إن الفئات المتعلمة كانت تعبر عنه. وفي هذا السياق، يكتب القنصل الأمريكي في أمستردام خلال مجاعة العام 1847 تقريراً عن مشاعر المهاجرين الألمان أثناء عبورهم من هولندا، يقول فيه: "يعرب جميع المطّلعين عن اعتقادهم أن الأزمة الراهنة التي تتجلى بعض مظاهرها في الأحداث الحالية هي من العمق بحيث تمثل بداية الثورة العظيمة التي توشك، في اعتقادهم، أن تدمر الوضع القائم في هذه الآونة"[13].

وتعود الأسباب إلى أن الأزمة القائمة في ما تبقى من المجتمع القديم تزامنت مع بروز أزمة جديدة. ومن السهل علينا الآن، عندما نستحضر فترة الأربعينات من ذلك القرن أن نعتقد أن الاشتراكيين الذين

---

(12) ذلك لا يعني بالطبع أن جميع التغيرات المحددة التي اعتبرت حتمية آنذاك سوف تحدث بالضرورة؛ ومن هذه التغيرات على سبيل المثال: الانتصار الشامل للتجارة الحرة، والسلام، والمجالس التمثيلية ذات السيادة، أو انقراض الملكيات أو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

(13) Marcus Lee Hansen, *The Atlantic Migration, 1607-1860: A History of the Continuing Settlement of the United States*, Edited with a Foreword by Arthur M. Schlesinger, Third Printing (Cambridge (Massachusetts): Harvard University Press, 1945), p. 252.

تنبئوا بالأزمة النهائية الوشيكة للرأسمالية، طال الزمان أم قصر، إنما كانوا يحلمون ويخلطون بين الآمال والتوقعات المستقبلية. ذلك أن الأحداث اللاحقة لم تسفر عن انهيار الرأسمالية، بل أدت إلى انتعاشها وتوسعها السريع وانتصارها، دون أن يعترض سبيلها أي عائق. ففي الثلاثينات والأربعينات، لم يكن واضحاً على الإطلاق أن الاقتصاد الجديد سيذلل ما يعترضه من صعوبات كانت، هي نفسها، قوة دافعة إلى إنتاج كميات متزايدة من السلع بأساليب ووسائل أكثر ثوريةً وجدّة. وكان منظرو هذه الفترة يتخوفون من "حالة السكون" التي تخمد فيها القوة الدافعة للاقتصاد للسير به قُدُماً إلى الأمام، وكانوا (خلافاً لمنظري القرن الثامن عشر) يعتقدون أن حالة السكون تلك آتية لا ريب فيها، وأنها ليست مجرد افتراض نظري. وفي الثلاثينات، لم يكن مروجو التمويل الضخم والتصنيع الثقيل (أي السان سيمونيون) قد استقروا على رأي بعد حول ما إذا كانت الاشتراكية أو الرأسمالية هي السبيل الأمثل لانتصار المجتمع الصناعي. وفي الولايات المتحدة، فإن أمثال هوراس غريلي (Horace Greeley)، الذين غدوا المبشرين الخالدين بالتوسع الفردي (ورددوا هتافه المعروف: "انطلق غرباً أيها الشاب")، كانوا في الأربعينات من دعاة الاشتراكية الطوباوية، وهم الذين أقاموا، على غرار ما فعله فورييه، "كتائب" التعاونيات الجماعية وهللوا لها، لأنها كانت تنسجم آنذاك مع ما يُدعى الآن "الأمْرَكة"، وكان رجال الأعمال مستميتين في مساعيهم التوسعية. وإذا ما استحضرنا تلك الأيام، فإننا قد لا نفهم الأسباب التي دفعت رجل أعمال كويكرياً مثل جون برايت، وأصحاب مصانع القطن الناجحين في لانكشير، في غمرة التوسع الديناميّ الذي شهدته تلك الفترة، إلى استنزال الفوضى والجوع والشغب على بلادهم بإغلاق المصانع لإرغام العمال على القبول بشروطهم السياسية من أجل إلغاء التعرفة الجمركية[14]. غير أن

---

(14) Norman McCord, *The Anti-Corn Law League, 1838-1846* (London: Allen and Unwin, [1958]), Chapter V.

الصناعيين المتبصرين ربما كانوا في تلك السنة العصيبة (1841ـ 1842) يعتقدون أن الأمر لن يؤدي إلى الضيق والخسارة فحسب، بل إلى اختناق الصناعة بأكملها، إلا إذا أزيلت، على الفور، العوائق التي تعرقل تقدمها نحو المزيد من التوسع.

وبالنسبة لجماهير عامة الناس، كانت المشكلة أبسط من ذلك بكثير. لقد كانت الأوضاع في المدن الكبيرة والمقاطعات الصناعية في المناطق الغربية والوسطى في أوروبا تدفعهم، كما رأينا، إلى الثورة الاجتماعية، وكانت كراهيتهم للأثرياء والعظماء في ذلك العالم الذي يعيشون فيه، وأحلامهم بعالم جديد أفضل، تمنحهم، في أوضاعهم اليائسة، إحساساً بالهدف، وبصيصاً من النور، مع أن بعضهم، خصوصاً في بريطانيا وفرنسا، كانوا يعون هذا الهدف، وقد استمدوا القوة من قدرتهم على التنظيم أو تنسيق العمل الاجتماعي. كما علمتهم اليقظة العظمى في الثورة الفرنسية أن على الناس العاديين أن يرفضوا الاستكانة إلى الظلم والإجحاف: "كانت الشعوب تجهل كل شيء في الماضي. وكان الناس يرون في الملوك آلهةً على الأرض، وكانوا مرغمين على أن يؤمنوا بأن كل ما يفعله هؤلاء هو الأمر الصواب. أما في فترة التغيّر الراهنة، فقد غدا التحكم في الناس أمراً أكثر صعوبة"[15].

كان ذلك هو "شبح الشيوعية" الذي خيّم على أوروبا وأفزعها، ولم يرهب الخوف من "البروليتاريا" أصحابَ المصانع في لانكشير أو شمال فرنسا فحسب، بل موظفي الدولة في الريف الألماني، والكهنةَ في روما، وأساتذةَ الجامعات في كل مكان. وكان لذلك ما يبرره؛ ذلك

(15) T. Kolokotrones, in: Leften Stavros Stavrianos, "Antecedents to the Balkan Revolutions of the Nineteenth Century," *Journal of Modern History*, vol. 29, no. 4 (1957), p. 344.

أن الثورة التي اندلعت في الأشهر الأولى من العام 1848 لم تكن فقط ثورة اجتماعية جمعت وحشدت جميع الطبقات الاجتماعية، بل كانت، بالمعنى الحرفي للكلمة، انتفاضةً للكادحين الفقراء في المدن، ولا سيما العواصم، في المناطق الغربية والوسطى من أوروبا. وكانت ثورتهم هذه هي وحدها القوة التي أطاحت النظامَ القديم في المنطقة الممتدة من باليرمو إلى حدود روسيا. وعندما هدأت العاصفة واستقر الغبار على أطلال هذا النظام، وقف العمال، والعمال الاشتراكيون تحديداً في فرنسا، على أنقاضه. ولم تنحصر مطالبهم في الحصول على الخبز والعمل، بل تجاوزت ذلك إلى الدعوة لإقامة دولة ومجتمع جديدين.

وفيما كان الفقراء الكادحون يعلنون انتفاضتهم تلك، أسهم الوهن والبلى المستفحلان في النظام القديم، في تفاقم الأزمات في عالم الأثرياء وذوي النفوذ؛ ولم تكن هذه أموراً مهمة بحد ذاتها. فلو أنها حدثت في أزمنة أخرى، أو في أنظمة اجتماعية تسمح لمختلف الشرائح في الطبقات الحاكمة بتكييف منافساتها والتكيف معها بصورة سلمية، فإنها لم تكن أقدر على إشعال الثورة من المناحرات التي كانت تنشب على الدوام في بلاط القيصر في روسيا بين مختلف الأجنحة في القرن الثامن عشر. ففي بريطانيا وبلجيكا، على سبيل المثال، دبَّ الصراع بين الزراعيين والصناعيين، وبين مختلف الشرائح في الجانبين أيضاً. غير أنه كان من المفهوم تماماً أن التحولات التي طرأت بين العامين 1830 و1832 قد حسمت قضية السلطة لمصلحة الصناعيين، ولمصلحة تجميد الوضع السياسي القائم لتحاشي مخاطر الثورة مهما كان الثمن. من هنا، فإن الصراع المرّ بين الصناعيين المطالبين بتحرير التجارة من جهة، والزراعيين الحِمائيين من جهة أخرى، سيكلل بالنجاح (1846) في غمرة انشغال الميثاقيين بقانون القمح، دون أن يترتب على ذلك، ولو للحظة واحدة، انهيار وحدة الطبقات الحاكمة جميعها في تصديها لحق الاقتراع الانتخابي العام. كما أدى انتصار الليبراليين على الكاثوليك في انتخابات 1847 في بلجيكا إلى فصل الصناعيين عن الثوريين المحتملين، وإلى إجراء

إصلاحات متأنية مدروسة بعناية على النظام الانتخابي عام 1848، مما ضاعف عدد الناخبين[16]. وأدى ذلك كذلك إلى إزالة التذمر الشائع في أوساط شرائح مهمة من الطبقة المتدنية في الطبقة المتوسطة. ولم تحدث الثورة عام 1848، على الرغم من أن المعاناة الفعلية في بلجيكا (أو الفلاندر) ربما كانت أسوأ مما كان شائعاً في المناطق الأخرى في أوروبا الغربية، باستثناء إيرلندا.

على أن التصلب السياسي في أنظمة الحكم الأوروبية المطلقة، المتأهبة لمقاومة أي تغيير ليبرالي أو وطني عام 1815، لم يترك حتى لقوى المعارضة المعتدلة خياراً غير القبول بالأمر الواقع، أو الثورة. ولم تكن هذه القوى مستعدة للثورة بنفسها إلا إذا اندلعت ثورة اجتماعية لا رجعة عنها، ولا تخسر فيها شيئاً إلا مع خاسرين آخرين. وكان على أنظمة الحكم القائمة عام 1815 أن تتداعى وتولي الأدبار، وكانت تلك الأنظمة تعرف ذلك، وكان إدراكها أن "التاريخ يقف ضدها" قد استنزف قواها وشلَّ قدرتها على المقاومة، فتداعت عندما هبت عليها البوادر الخفيفة لرياح الثورة، الوافدة من الخارج في أغلب الأحيان، إلا أنها لم تكن لتتساقط لولا تلك الهبات الخفيفة. وفي الاتجاه المعاكس، كانت المناوشات الصغيرة تتعاظم وتحدث هزات سياسية كبيرة في تلك البلدان. ومن هذه المناوشات متاعبُ الحكام مع المجالس والمنتديات الشعبية في بروسيا وهنغاريا، وانتخابُ بابا "ليبرالي" عام 1846 (أي شخص حريص على دفع الكرسي البابوي خطوة أو خطوتين باتجاه القرنِ التاسعَ عشر)، ونوبةُ السخط التي انتابت إحدى عشيقات الملك في بافاريا، وما إلى ذلك.

نظرياً، كان على فرنسا في عهد لوِيس فيليب أن تتحلى بالمرونة

---

(16) لم يكن عدد الناخبين آنذاك يزيد على ثمانين ألفاً من أصل أربعة ملايين.

السياسية التي تمتعت بها بريطانيا، وبلجيكا، والهولنديون والاسكندنافيون. غير أنها، في واقع الممارسة الفعلية، لم تفعل ذلك. فعلى الرغم من أن الطبقة الحاكمة في فرنسا، المؤلفة من أصحاب البنوك والممولين وواحد أو اثنين من الصناعيين، كانت تمثل جانباً واحداً من مصالح الطبقة الوسطى، وكانت سياستها الاقتصادية، فوق ذلك، مدعاةً لاستياء العناصر الصناعية الدينامية ومختلف المصالح الخاصة، فإن ذكرى الثورة الفرنسية عام 1789 كانت تقف حائلاً دون الإصلاح؛ ذلك أن المعارضة لم تكن تضم البورجوازيين الساخطين فحسب، بل شرائح الطبقة الوسطى المتدنية ذات النفوذ السياسي الحاسم، ولا سيما في باريس (التي صوّتت ضد الحكومة عام 1846 على الرغم من تقييد حق الانتخاب). وكان من شأن توسيع حق الانتخاب أن يعيد إلى سدة الحكم اليعاقبةَ المحتملين والراديكاليين، الذين سيتحولون إلى جمهوريين لولا الحظر الرسمي. وعلى هذا الأساس، حاول المؤرخ غيزو، رئيس وزراء لويس فيليب (1840-1848)، أن يترك توسيع قاعدة النظام الحاكم الاجتماعية للتنمية الاقتصادية، مما زاد، تلقائياً، من أعداد المواطنين، المؤهلين بالتملك، لدخول الحلبة السياسية، فارتفع عدد الناخبين من 166 ألفاً عام 1831 إلى 241 ألفاً عام 1846. إلا أن ذلك لم يكن كافياً. فقد أدى الخوف من مجيء جمهورية يعقوبية إلى توتر متعاظم في الوضع السياسي الفرنسي. ففي أوضاع كتلك التي كانت قائمة في بريطانيا، كان بوسع حملة انتخابية عامة وسلسلة من الخطب بعد حفلات العشاء، مثل ما فعلته المعارضة الفرنسية عام 1847، أن تكون حلاًّ ناجحاً لا ضرر منه ولا ضرار. أما في فرنسا، فقد كانت هذه الأوضاع من المقدمات التمهيدية للثورة.

ذلك أن هذه الأوضاع، شأنها شأن الأزمات الأخرى في سياسات الطبقة الحاكمة في أوروبا، تزامنت مع وقوع كارثة اجتماعية، هي الكساد العظيم الذي اكتسح القارة الأوروبية منذ أواسط الأربعينات في

القرن التاسع عشر. فقد انهارت المحاصيل، ولا سيما محصول البطاطا، وتضوّرت جوعاً شعوب بأكملها، مثل شعب إيرلندا، وشعوب سيليسيا، والفلاندر إلى حد أقل[17]. وارتفعت أسعار المواد الغذائية، وتفاقمت البطالة جراء الكساد الصناعي، وحرمت جماهير الفقراء الكادحين في المراكز الحضرية من دخلها المتواضع فيما تصاعدت كلفة المعيشة على نحو صاروخي. وتفاوت الوضع بين بلد وآخر، إلا أن من حسن حظ بعض الأنظمة الحاكمة أن الجماهير الأكثر بؤساً، مثل الإيرلنديين والفلمنكيين، أو العمال في مصانع بعض المقاطعات، كانت هي الأكثر افتقاراً إلى النضج السياسي، فانتقم عمال القطن في المقاطعة الشمالية في فرنسا من يأسهم بأن أخذوا بثأرهم من نظرائهم العمال البلجيكيين المهاجرين الذين تدفقوا على شمال فرنسا، ولو لم يكونوا أقل منهم يأساً، بدلاً من أن يثأروا لأنفسهم من الحكومة أو حتى من أرباب العمل. بالإضافة إلى ذلك، فإن الازدهار المشهود الذي شهدته حركة العمران الصناعي وإقامة منشآت السكة الحديدية قد خفف من حدة السخط في الدول الصناعية المتقدمة في أواسط الأربعينات. وكانت السنوات الثلاث بين 1846 و1848 سنواتٍ سيئة، بَيْد أنها لم تكن أكثر سوءاً من العامين 1841 و1842، بل إنها كانت في واقع الأمر تشكل انخفاضاً حاداً تلاه بعد ذلك ارتفاع ملموس في مسار الازدهار الاقتصادي. ولكن إذا نظرنا إلى مناطق أوروبا الغربية والوسطى، فإن كارثة 1846ـ1848 كانت عامة شاملة، وكانت الأجواء مشبعة بالاحتدام والتوتر في أوساط الجماهير، التي لم تكن حياتها بعيدة عن مستوى الكفاف.

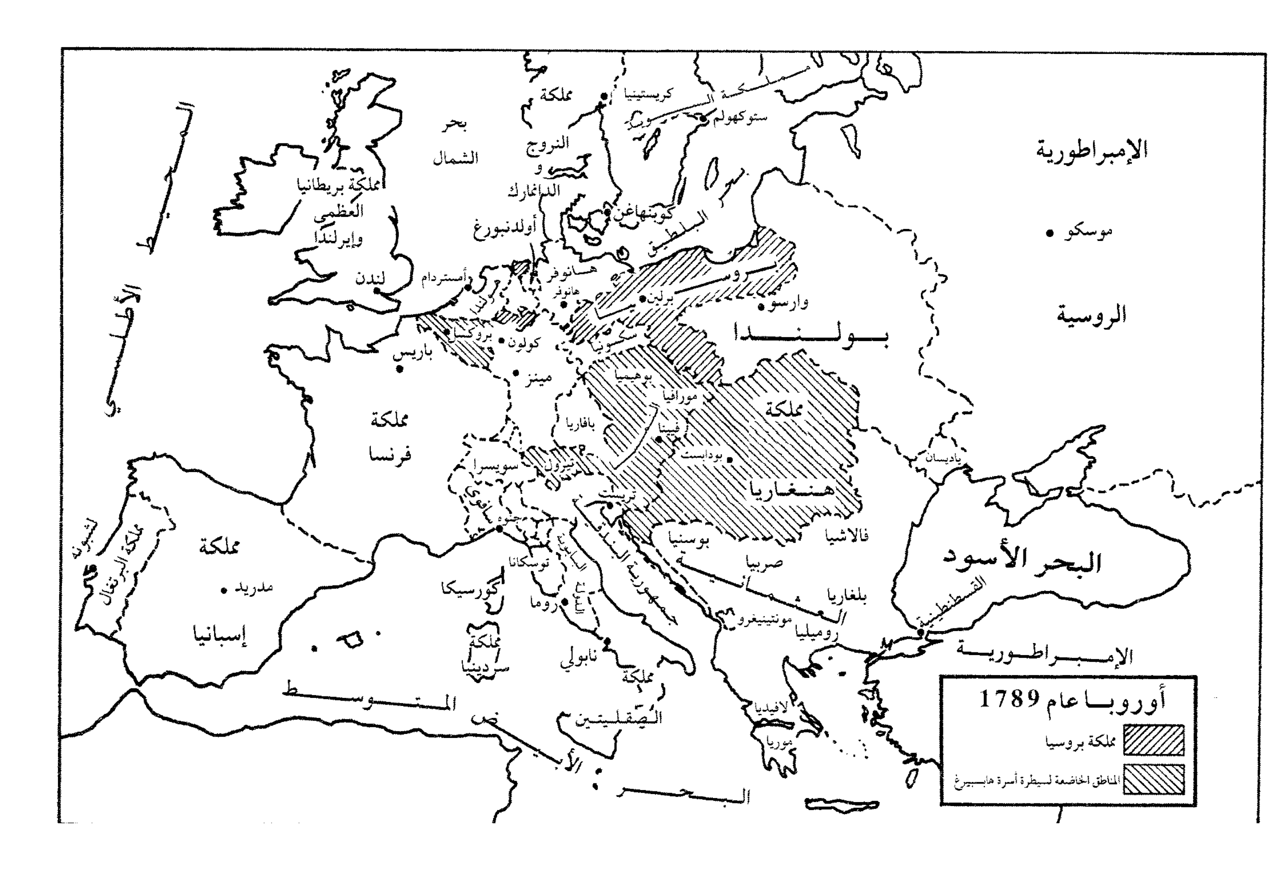
من هنا، تزامن الزلزال الاقتصادي في أوروبا مع تأكل أنظمة الحكم القديمة: ثورة للفلاحين في غاليقيا عام 1846، وانتخاب بابا

(17) انخفض عدد السكان في أقاليم الفلاندز الشهيرة بزراعة الكتان بمعدل خمسة في المئة بين العامين 1846 و1848.

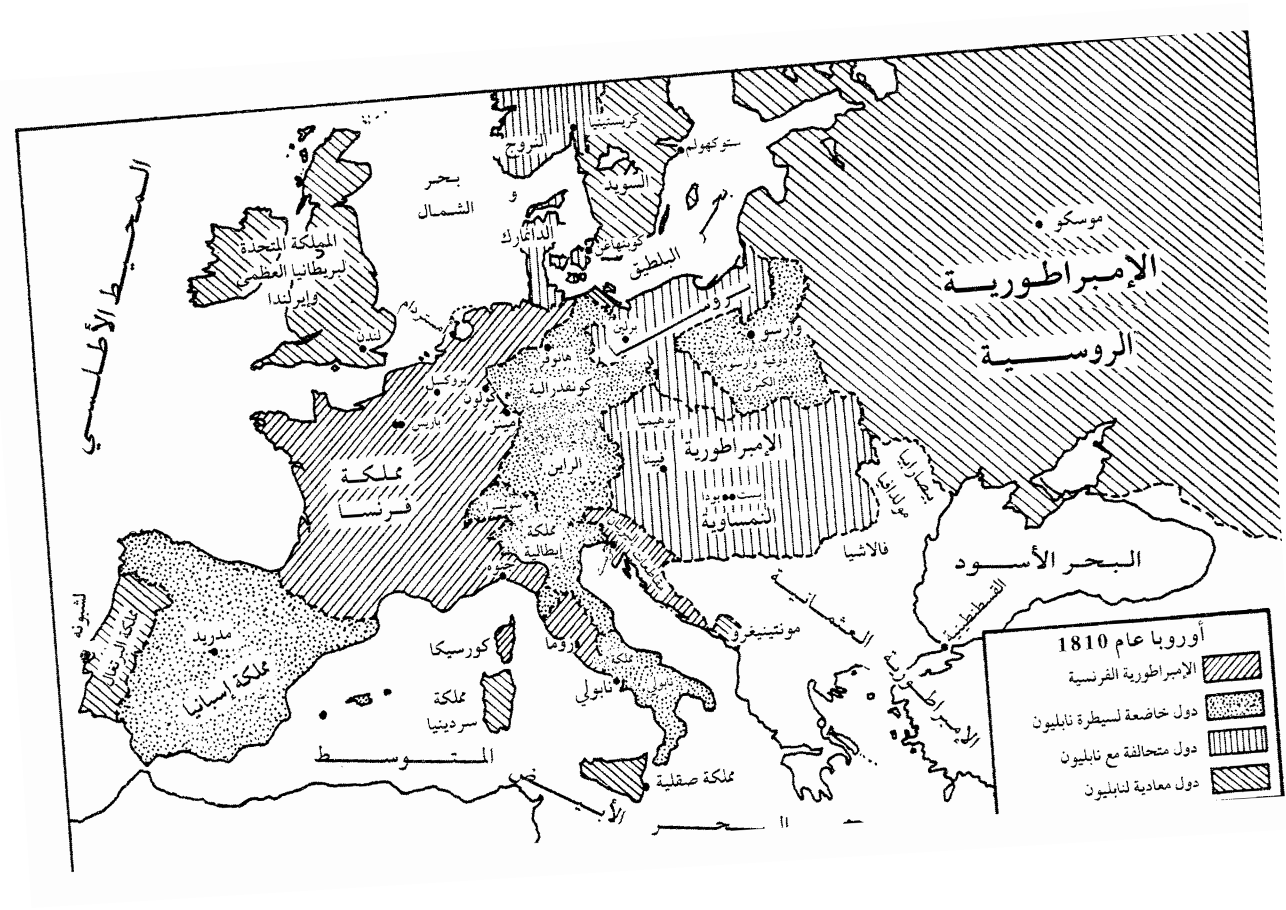
ليبرالي في السنة نفسها، وحرب أهلية كان فيها النصر حليف الراديكاليين ضد الكاثوليك في سويسرا عام 1847، وإحدى الانتفاضات الدائمة المطالبة بالحكم الذاتي في باليرمو في صقلية في مطلع العام 1848. ولم تكن هذه التطورات والأحداث قشاً تذروه الرياح، بل كانت الهدير الراعد الذي يسبق العاصفة، وكان الجميع يعرفون ذلك. ونادراً ما حدثت في التاريخ ثورة تنبأت بها كل هذه المؤشرات الشاملة، ولكن ليس بالضرورة في هذه الدولة أو تلك، أو في هذا التاريخ أو ذاك. كانت قارة كاملة تقف موقف الانتظار، وتتهيأ لتنقل أنباء الثورة أولاً بأول، ومن مدينة إلى أخرى، عن طريق التلغراف الكهربائي الحديث الاختراع. وكان فكتور هوغو قد كتب يقول عام 1831 إنه سمع دوي الثورة يتصاعد من أعمق أعماق الأرض بعد أن انطلقت من فوهة المنجم في باريس، واندفعت تشق طريقها عبر السراديب البحرية التحتية لكل الممالك في أوروبا. وفي العام 1847، كان الصوت عالياً قريباً. وفي 1848، حدث الانفجار.

الخــرائــــط

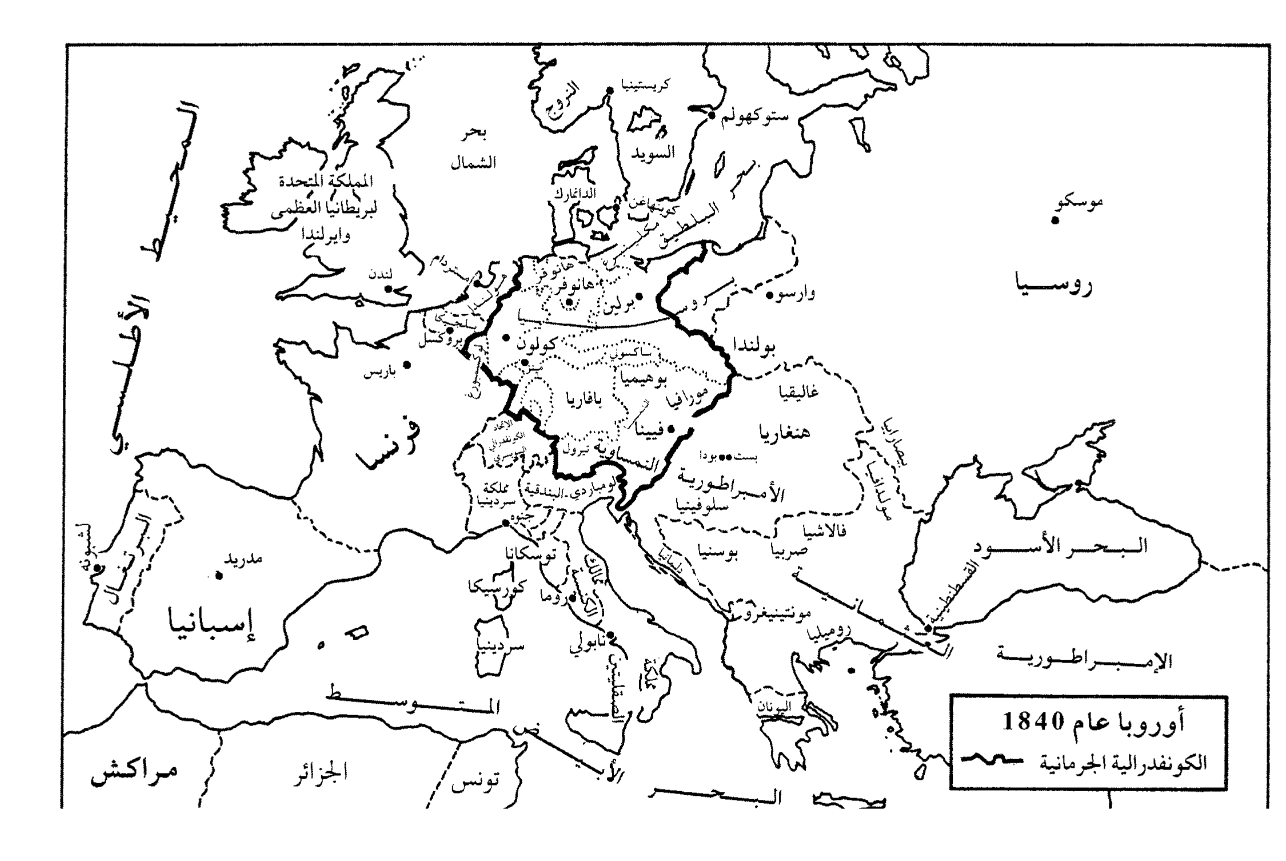




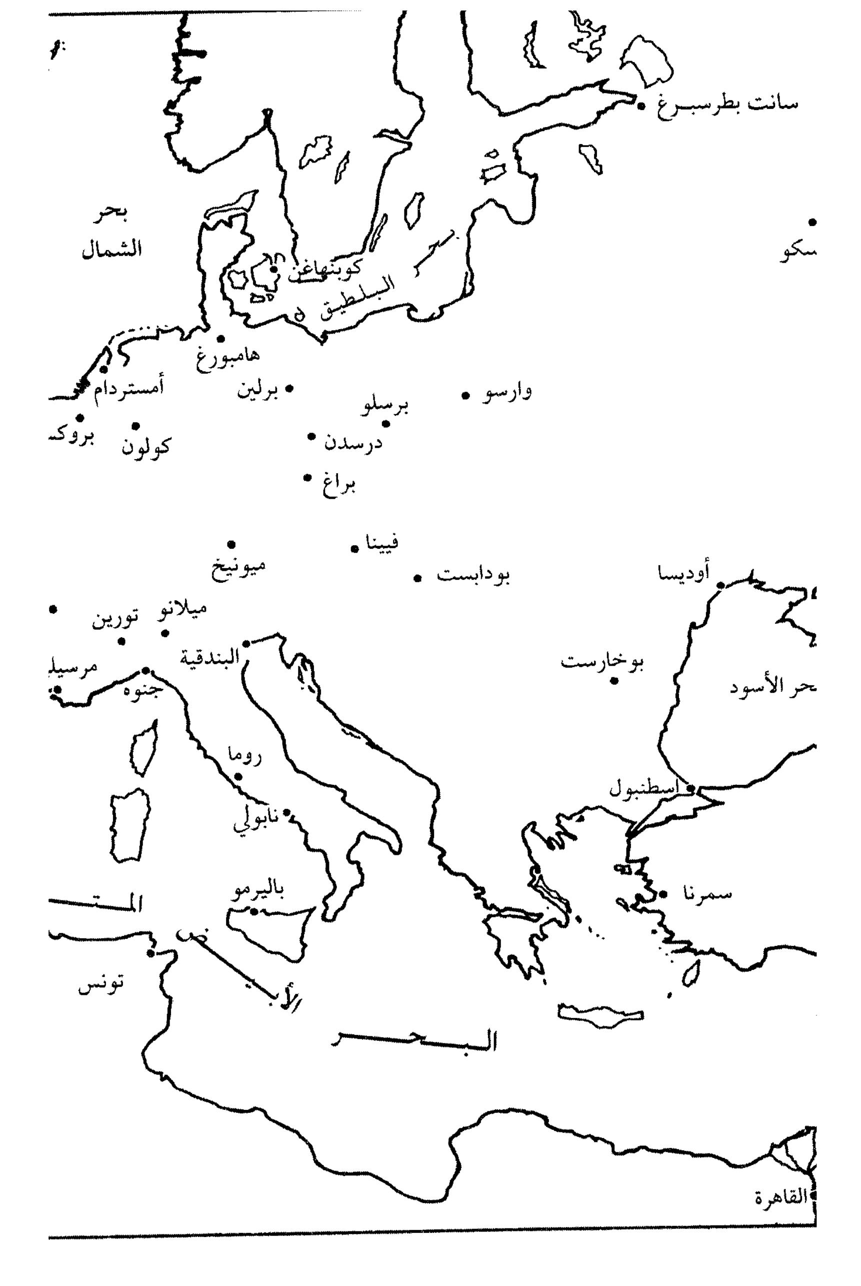
أوروبا عام 1789
مملكة بروسيا
المناطق الخاضعة لسيطرة أسرة هابسبرغ
الإمبراطورية الروسية
موسكو
مملكة النروج و الدانمارك
كريستينيا
مملكة السويد
ستوكهولم
كوبنهاغن
البلطيق
بحر الشمال
مملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا
لندن
أمستردام
أولدنبورغ
هانوفر
برلين
وارسو
بروسيا
بولندا
سكسونيا
بروكسل
كولون
باريس
مينز
بوهيميا
مورافيا
فيينا
بودابست
مملكة هنغاريا
بافاريا
تيرول
سويسرا
سافوي
جنوة
تريست
مملكة فرنسا
مملكة إسبانيا
مدريد
مملكة البرتغال
لشبونة
توسكانا
كورسيكا
روما
مملكة سردينيا
نابولي
مملكة الصقليتين
جمهورية البندقية
الدولة البابوية
بوسنيا
صربيا
فالاشيا
بلغاريا
مونتينيغرو
روميليا
القسطنطينية
باديسان
البحر الأسود
الإمبراطورية العثمانية
لافيديا
موريا
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط



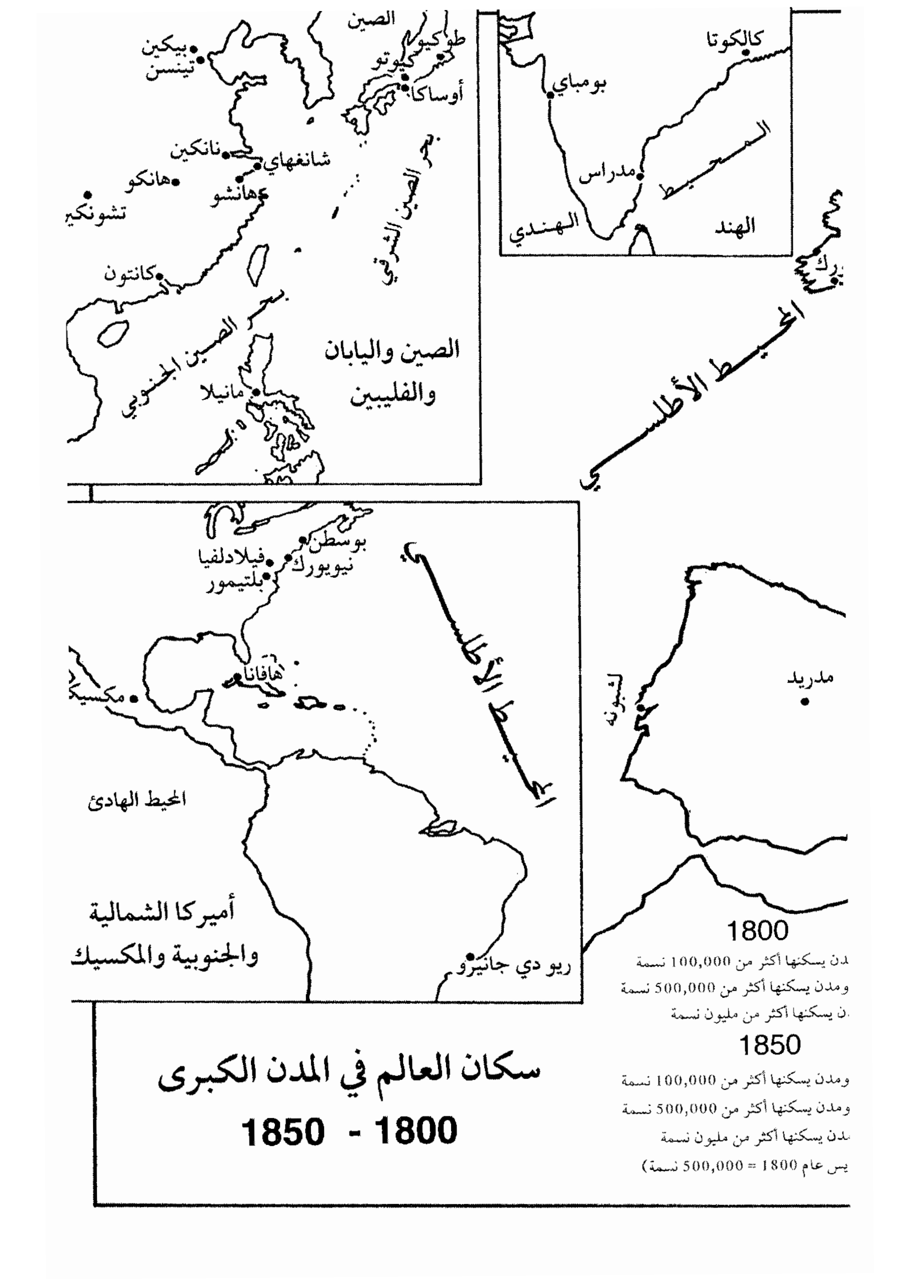
أوروبا عام 1810
الإمبراطورية الفرنسية
دول خاضعة لسيطرة نابليون
دول متحالفة مع نابليون
دول معادية لنابليون
الإمبراطورية الروسية
موسكو
ستوكهولم
كريستيانيا
النروج
السويد
بحر
و
الشمال
الدانمارك
كوبنهاغن
البلطيق
المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا
لندن
أمستردام
المحيط الأطلسي
برلين
وارسو
دوقية وارسو الكبرى
هانوفر
كونفدرالية
الراين
بروكسل
كولون
باريس
مملكة فرنسا
بوهيميا
الإمبراطورية النمساوية
فيينا
بودا
بست
بيصارابيا
مولدافيا
فالاشيا
البحر الأسود
القسطنطينية
الإمبراطورية العثمانية
مونتينيغرو
مملكة إيطاليا
جنوة
روما
مملكة نابولي
نابولي
كورسيكا
مملكة سردينيا
مملكة صقلية
مدريد
مملكة إسبانيا
لشبونة
مملكة البرتغال
المتوسط
الأبيض
البحر



أوروبا عام 1840
الكونفدرالية الجرمانية
روسيا
موسكو
وارسو
بولندا
ستوكهولم
كريستينيا
النرويج
السويد
الدانمارك
كوبنهاغن
البحر البلطيق
بحر الشمال
المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلندا
لندن
امستردام
بروكسل
باريس
فرنسا
هانوفر
برلين
كولون
ساكسونيا
بوهيميا
بافاريا
مورافيا
فيينا
تيرول
النمساوية
غاليقيا
هنغاريا
بست
بودا
الأمبراطورية
سلوفينيا
فالاشيا
مولدافيا
بيصارابيا
البحر الأسود
القسطنطينية
صربيا
بوسنيا
دلماتيا
مونتينيغرو
روميليا
اليونان
الإمبراطورية
لومباردي-البندقية
مملكة سردينيا
جنوه
توسكانا
كورسيكا
روما
نابولي
سردينيا
مملكة الصقليتين
إسبانيا
مدريد
البرتغال
لشبونة
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
الأبيض
مراكش
الجزائر
تونس
البحر



سانت بطرسبرغ
بحر
الشمال
كوبنهاغن
بحر
البلطيق
هامبورغ
أمستردام
برلين
وارسو
برسلو
كولون
درسدن
براغ
فيينا
ميونيخ
بودابست
أوديسا
ميلانو
تورين
البندقية
مرسيل
جنوه
بوخارست
الأسود
روما
اسطنبول
نابولي
باليرمو
سمرنا
تونس
البحر
القاهرة

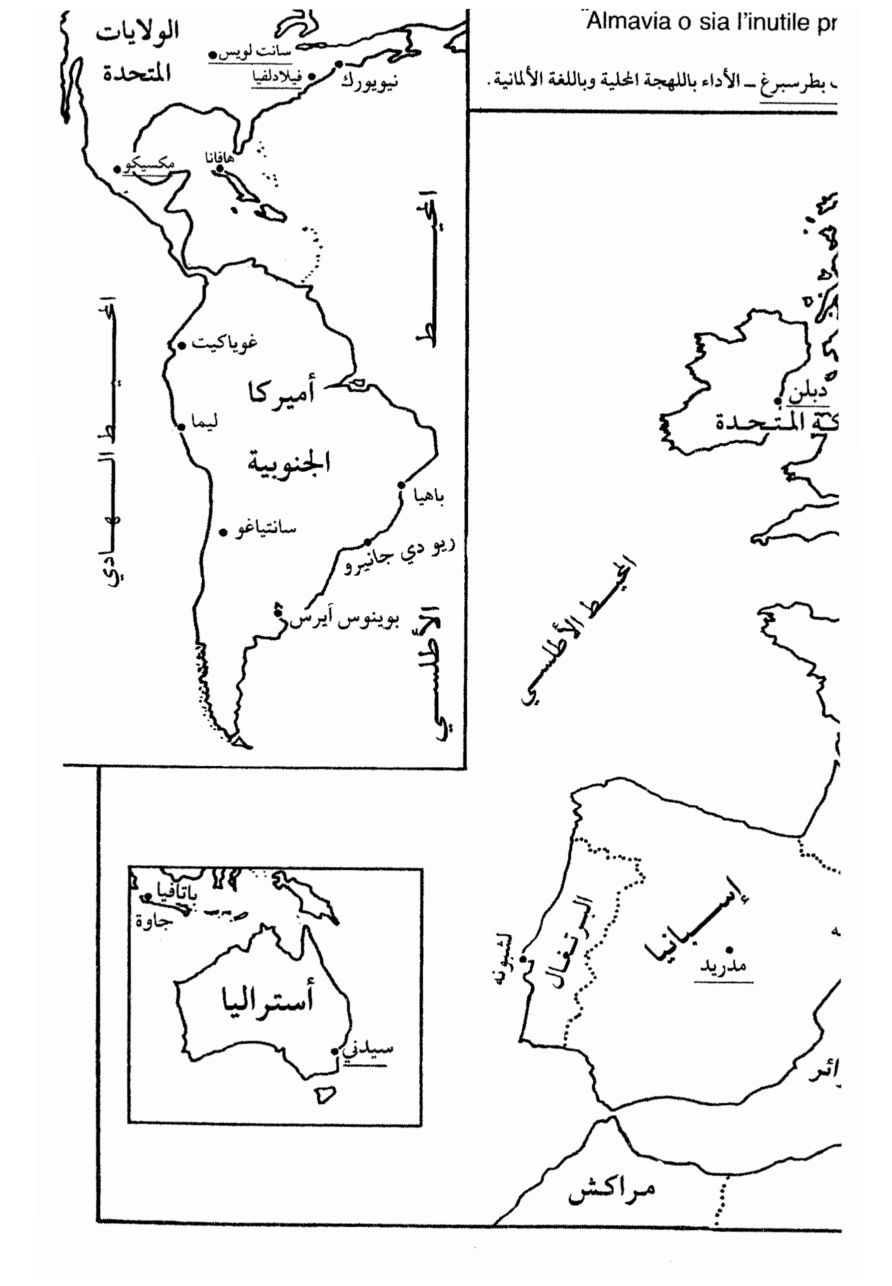


الصين
بيكين
تينسن
طوكيو
كيوتو
أوساكا
نانكين
شانغهاي
هانكو
هانشو
تشونكي
كانتون
بحر الصين الشرقي
بحر الصين الجنوبي
مانيلا
الصين واليابان
والفليبين
كالكوتا
بومباي
مدراس
المحيط الهندي
الهند
المحيط الأطلسي
بوسطن
فيلادلفيا
نيويورك
بلتيمور
هافانا
مكسيك
المحيط الأطلسي
المحيط الهادئ
أميركا الشمالية
والجنوبية والمكسيك
ريو دي جانيرو
مدريد
لشبونة
1800
دن يسكنها أكثر من 100,000 نسمة
ومدن يسكنها أكثر من 500,000 نسمة
ن يسكنها أكثر من مليون نسمة
1850
ومدن يسكنها أكثر من 100,000 نسمة
ومدن يسكنها أكثر من 500,000 نسمة
دن يسكنها أكثر من مليون نسمة
يس عام 1800 = 500,000 نسمة)
سكان العالم في المدن الكبرى
1850 - 1800

adra : Auber: La Muette de Portici

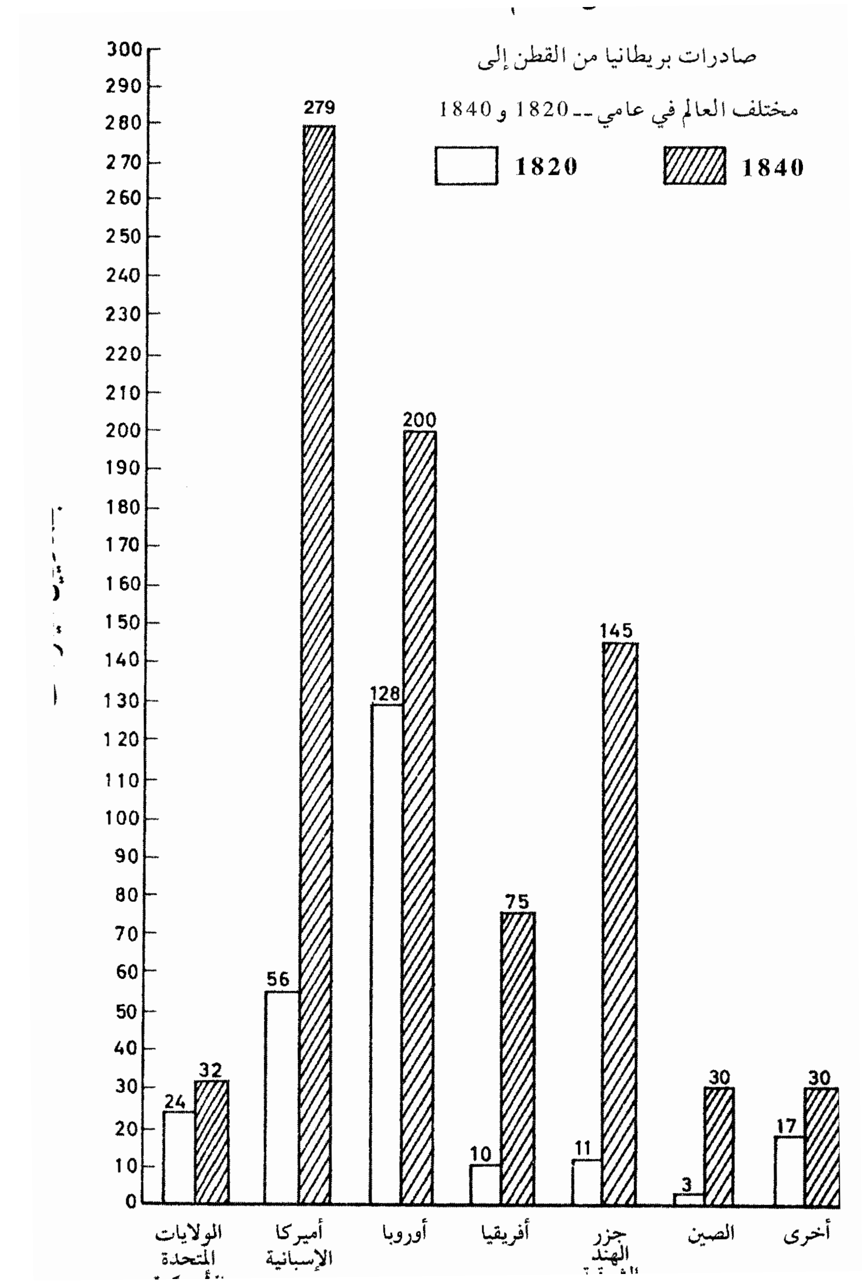
رفو ـ الأداء بالفرنسية والإيطالية ـــ لندن ـ الأداء أيضاً أو بصورة حصرية باللهجة المحلية ـــ بازل ـ الأداء

النروج
السويد
هلسنغفور
سانت بطرسبرغ
كريستينيا
ستوكهولم
ريغا
الدانمارك
كوبنهاغن
البلطيق
روسيا
بروسيا
هامبورغ
أمستردام
روتردام
برلين
برونشفيغ
الكونفدرالية
ديساو
وارسو
بولندا
انتويرن
بروكسل
رودولستادت
الجرمانية
براغ
مانهايم
برنو
ستراسبورغ
ميونيخ
فيينا
بودابست
كلوسنبرغ
أوديسا
بازل
النمساوية
الملكة
غراز
هرمانستادت
كروستادت
لوغانو
أغرام
تريست
البندقية
ميلانو
بوخارست
البحر
أسود
العثمانية
فلورنسا
مرسيليا
إيطاليا
القسطنطينية
الإمبراطورية
باستيا
روما
نابولي
كورفو
سمرنا
كاغلياري
اليونان
أثينا
صقلية
الأبيض
البحر
تونس
مالطة

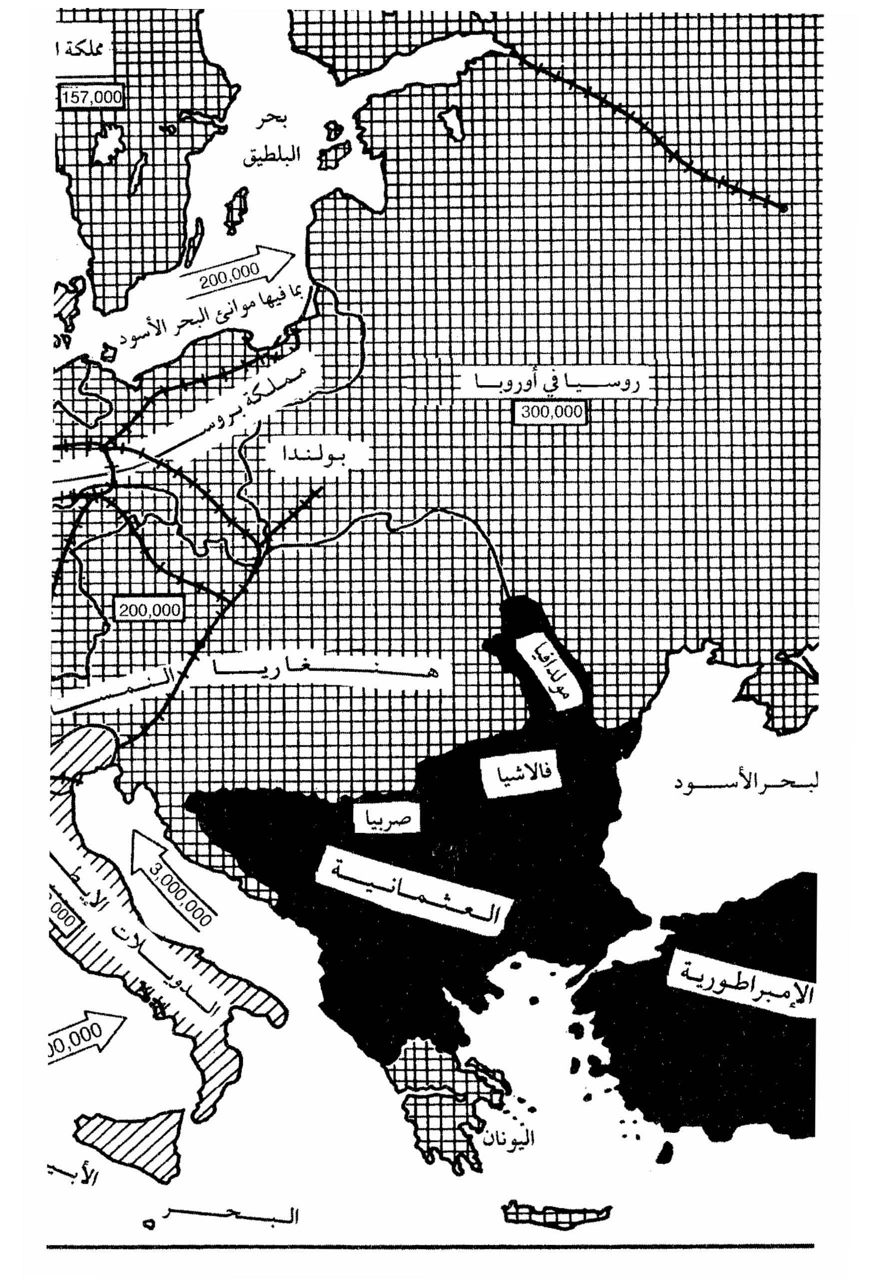


"Almavia o sia l'inutile pr
بطرسبرغ ـ الأداء باللهجة المحلية وباللغة الألمانية.
الولايات المتحدة
سانت لويس
فيلادلفيا
نيويورك
مكسيكو
هافانا
المحيط الأطلسي
المحيط الهادي
غوياكيت
أميركا الجنوبية
ليما
باهيا
سانتياغو
ريو دي جانيرو
بوينوس آيرس
باتافيا
جاوة
أستراليا
سيدني
دبلن
المحيط الأطلسي
البرتغال
إسبانيا
لشبونة
مدريد
مراكش

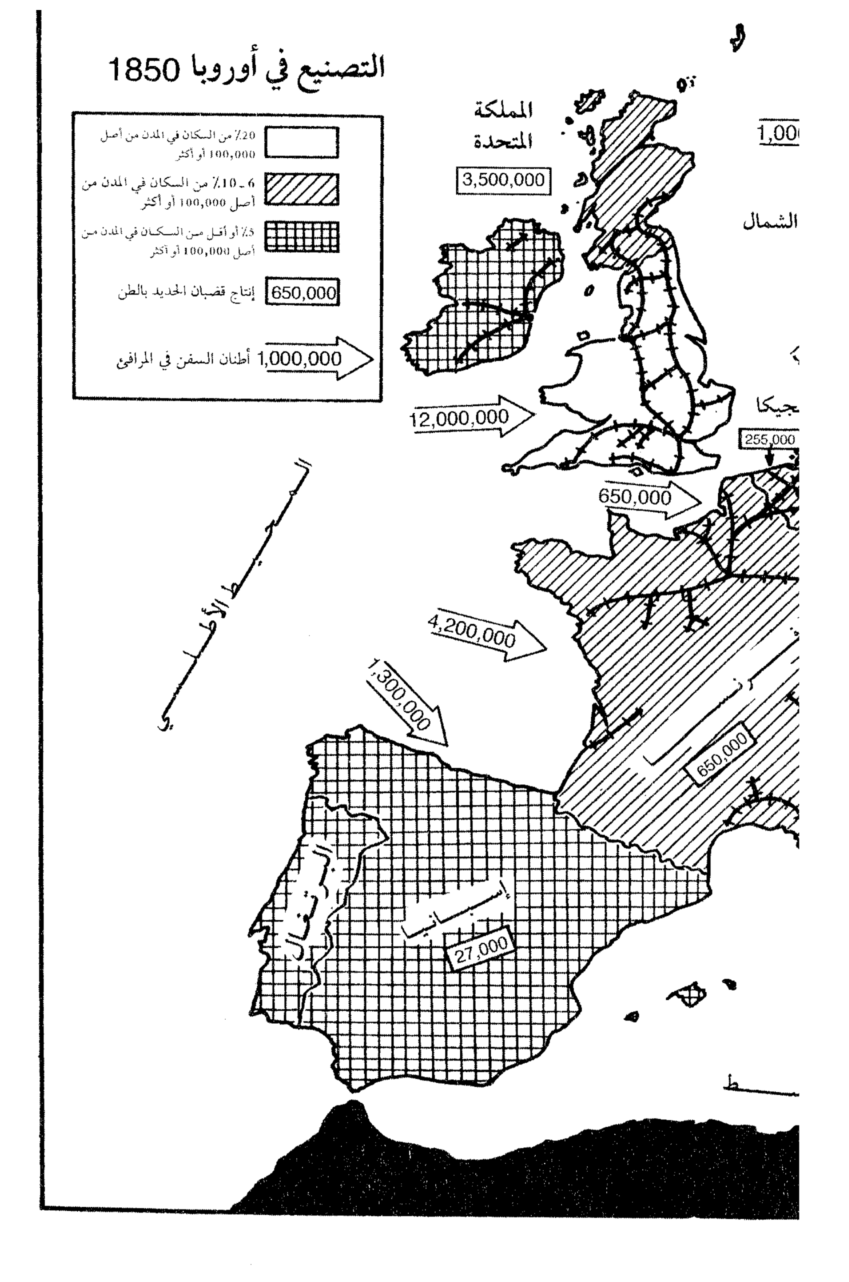
	(بالآلاف)	يزيد عدد سكانها على 50,000 نسمة	المحروثة بالمرغن (= 2,2 فدان) (بالمليون)	بالكيل (يتراوح وزنه حسب نوع الحبوب بين 15 ـ 27 كغم)	الأبقار والماشية (بالمليون)	الحديد (بالطن الخام)	الفحم (بالطن الخام)
سيا بما فيها بولندا راكاو	49,538	6	276	1125	19	2.1	—
مسا بما فيها هنغاريا ولومباردي	35,000	8	93	225	10.4	1.2	2.3
سا	33,000	9	74	254	7	4	20.0
طانيا العظمى بما فيها ندا	24,273	17	67.5	330	10.5	13	200
اد الجرماني (باستثناء النمسا وسيا)	14,205	4	37.5	115	6	1.1	2.2
نيا	14,032	8	30		3	0.2	0
غال	3,530	1	30		3	0.2	0
سيا	13,093	5	43	145	4.5	2	4.6
ا بما فيها رومانيا	8,600	5					
نابولي	7,622	2	20	116	2.8	0	0.1
رنت ـ سردينيا	4,450	2	20	116	2.8	0	0.1
إيطاليا	5,000	4	20	116	2.8	0	0.1
بد والنروج	4,000	1	2	21	1.4	1.7	0.6
كيا	3,827	4	7	5	2	0.4	55.4
ا	2,750	3	7	5	2	0.4	55.4
مرا	2,000	0	2		0.8	0.1	[illegible]
بارك	2,000	1	[illegible]				



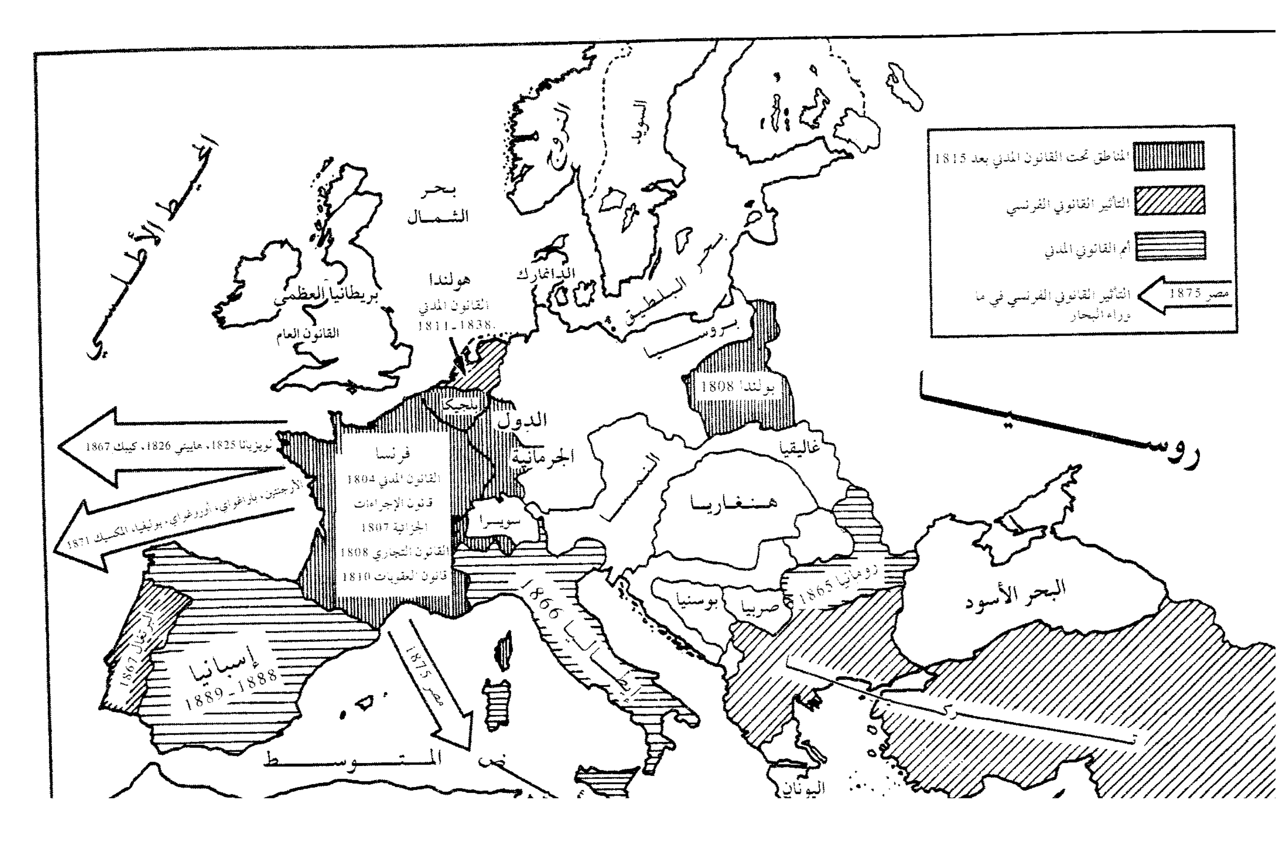
صادرات بريطانيا من القطن إلى
مختلف العالم في عامي ـ 1820 و 1840
1820
1840
300
290
280
270
260
250
240
230
220
210
200
190
180
170
160
150
140
130
120
110
100
90
80
70
60
50
40
30
20
10
0
24
32
56
279
128
200
10
75
11
145
3
30
17
30
الولايات
المتحدة
أميركا
الإسبانية
أوروبا
أفريقيا
جزر
الهند
الصين
أخرى



مملكة ا
157,000
بحر
البلطيق
200,000
بما فيها موانئ البحر الأسود
مملكة بروسـ
روسـيـا في أوروبـا
300,000
بولندا
200,000
هـنـغـاريـا
النمسـ
مولدافيا
فالاشيا
لبحر الأسـود
صربيا
العثمانية
3,000,000
الإمبراطورية
الإيطـ
الـدويـلات
اليونان
الأبـ
البـحـر



التصنيع في أوروبا 1850
20٪ من السكان في المدن من أصل 100,000 أو أكثر
6 ـ 10٪ من السكان في المدن من أصل 100,000 أو أكثر
5٪ أو أقل من السكان في المدن من أصل 100,000 أو أكثر
650,000 إنتاج قضبان الحديد بالطن
1,000,000 أطنان السفن في المرافئ
المملكة المتحدة
3,500,000
12,000,000
650,000
255,000
4,200,000
1,300,000
650,000
27,000
المحيط الأطلسي
البرتغال
إسبانيا
الشمال



المناطق تحت القانون المدني بعد 1815
التأثير القانوني الفرنسي
أم القانون المدني
مصر 1875
التأثير القانوني الفرنسي في ما وراء البحار
المحيط الأطلسي
بحر الشمال
بريطانيا العظمى
القانون العام
هولندا
القانون المدني
1811-1838
الدانمارك
النرويج
السويد
بحر البلطيق
بروسيا
بولندا 1808
روسيا
بلجيكا
الدول الجرمانية
غاليقيا
هنغاريا
فرنسا
القانون المدني 1804
قانون الإجراءات الجزائية 1807
القانون التجاري 1808
قانون العقوبات 1810
سويسرا
لويزيانا 1825، هاييتي 1826، كيبك 1867
الأرجنتين، باراغواي، أوروغواي، بوليفيا، المكسيك 1871
إيطاليا 1866
بوسنيا
صربيا
رومانيا 1865
البحر الأسود
إسبانيا
1888-1889
البرتغال 1867
مصر 1875
المتوسط
اليونان

الثبت التعريفي(*)

الأرثوذكسية (Orthodoxy): إحدى الطوائف/ الكنائس الأساسية الثلاث في المسيحية وهي الأولى بينها من الوجهة التاريخية منذ أن سمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم وعباداتهم في الإمبراطورية الرومانية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي. انتشرت في اليونان وروسيا وأوروبا الوسطى والشرق وبقاع أخرى. ولعدة قرون، وحتى ظهور البروتستانتية، ظلت الأرثوذكسية، أو الكنيسة الشرقية، هي المنافس الرئيسي للكاثوليكية التابعة للكرسي البابوي في الفاتيكان في إيطاليا. ويستخدم التعبير، مجازاً، للدلالة على الرأي القويم.

الأرستقراطية (Aristocracy): حكم الصفوة الاجتماعية. وتختلف التعريفات باختلاف السياق التاريخي. غير أن المفهوم، الذي يعود استخدامه الأول إلى أفلاطون في **الجمهورية**، أصبح يرتبط عموماً بملّاك الأرض الأثرياء المتنفذين ونفوذهم المتوارث في أنظمة الحكم الملكية في أوروبا. وتضاءل نفوذ هذه الفئة في أعقاب الثورة الفرنسية واندحار الإقطاع وتزايد أهمية رأس المال الصناعي والتجاري.

(*) جرت العادة، في كتب المنظمة، وضع «ثبت مصطلحات»، إضافةً إلى هذا الثبت التعريفي. وقد تم إرجاء ذلك إلى كتابي **عصر رأس المال** و**عصر الإمبراطورية** الذين سيصدران عن المنظمة ومؤسسة ترجمان ويكتمل بهما ثالوث هوبزباوم (المترجم).

الإقطاع (Feudalism): النسق الاجتماعي الذي ساد أوروبا منذ انهيار إمبراطورية شارلمان ونشوء الأنظمة الملكية المطلقة في القرون الوسطى. نشأ، في ظل ظروف تاريخية أخرى، وبصورة مختلفة، في مناطق أخرى من العالم. وفي السياق الأوروبي، كان "العرش" يُقطع النبلاء "إقطاعياتٍ" أو "عزباً" من الأراضي الزراعية أساساً بمن عليها من المزارعين والعمال المسخرين، وربما الأرقاء. ويمتلك هؤلاء ويشرفون على هذه الإقطاعيات مقابل تقديم خدماتهم السياسية والاجتماعية والعسكرية للملك. وأخذ هذا النسق الاقتصادي الاجتماعي بالتآكل مع بروز الصناعة وانتشار النشاط التجاري والرأسمالي في المراكز الحضرية في أوروبا.

الإنكشارية (Janissaries): مجموعة من الجنود المدربين تدريباً عالياً في عهد الإمبراطورية العثمانية. اشتُقّت تسميتهم من مصطلح تركي معناه "العسكر الجديد". نُظّموا حرساً في أواخر القرن الرابع عشر، ثم تطوروا بحلول القرن الخامس عشر ليصبحوا من أقوى الوحدات العسكرية في العالم. وخدموا الحكام العثمانيين حتى عام 1826 عندما ثاروا على السلطان محمود الثاني في الآستانة (اسطنبول/ القسطنطينية) فقضى عليهم.

الأوليغاركية (Oligarchy): حكم القلة. وأرسطو هو أول من استخدم هذا المصطلح ليدل، في السياق السياسي، على تسلم قلة قليلة، أو أقلية، لمقاليد السلطة في المجتمع، بحكم ما تتمتع به من صلاح وفضيلة ونزاهة، لخدمة المصلحة العامة في المقام الأول. إلا أن هذا المفهوم غدا مرادفاً لحكم الأقلية الساعية إلى تحقيق مصلحتها الذاتية أساساً، مما يناقض الأصول الديمقراطية. واستخدم عالم الاجتماع الألماني روبرت ميتشلز (Robert Micherls) هذا الاصطلاح في كتابه **قانون الأوليغاركية الحديدي** (*Iron Law of Oligarchy*) لوصف النخب القيادية التي تستأثر بزعامة الأحزاب السياسية والمؤسسات الحديثة وتحتكرها

لإدامة سلطتها والحفاظ على مصالحها، وعلى نحو وراثي عائلي أحياناً.

الباروك (Baroque): أسلوب متميز للمعمار والفنون التعبيرية والتصويرية، شاع في القرن السابع عشر بخاصة. يتسم عموماً بدقة الزخرفة وغرابتها أحياناً وباصطناع الأشكال المنحرفة أو الملتوية (في فن العمارة)، وبالتعقيد والصور التعبيرية الغامضة الغريبة (في الأدب). بدأ في إيطاليا وانتشر في أوروبا، ولعبت الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك العائلات الأرستقراطية، دوراً مهماً في إشاعته واستخدامه في الكاتدرائيات والمنشآت الدينية والقصور لما له من إيحاءات دينية وقدرة على التأثير.

البرلمان (Parlement): في التاريخ الفرنسي قبل ثورة 1789، هيئة قضائية وتشريعية كان الملك يعين أعضاءها من النبلاء والوجهاء والملاك لتقديم المشورة له في الشؤون السياسية للبلاد. وكانت ثمة هيئة شكلية من هذا النوع في باريس وبعض المدن الفرنسية الكبرى، غير أنها كانت من أوائل المؤسسات التي ألغتها الثورة الفرنسية.

البروتستانتية (Protestantism): أحد المذاهب/الكنائس الأساسية في المسيحية. نشأت وانتشرت في أوروبا وفي المغرب عموماً بعد حركة الإصلاح التي أعلنها القس مارتن لوثر (Martin Luther) (1483–1546) في ألمانيا وانشق فيها هو وأبرز تلاميذه كالْفِن (Calvin) وزوينغلي (Zwingli) عن الكنيسة الكاثوليكية وكرسي البابوية في الفاتيكان. سميت بهذا الاسم نسبةً إلى عريضة احتجاج (Protestio) قدمها بعض المندوبين (1529) إلى المجلس التشريعي في ولاية سبيير ضد الإجراءات التي تستهدف اللوثريين. وتقوم البروتستانتية في جوهرها على أن مصدر الخلاص هو العناية الإلهية بصرف النظر عن طبيعة الأفعال والعبادات التي يقوم بها البشر، وعلى إلغاء الوسائط بين الناس والله بمن فيها من رجال الدين والكهنوت والبيروقراطية الكنسية.

البروليتاريا (Proletariat): في المنظور الماركسي، طبقة العمال

والشغيلة بأجر الذين يتعرضون للاستغلال من جانب الطبقة التي تمتلك رأس المال ووسائل الإنتاج في المجتمع. والبروليتاري هو من يقيم أَوَدَه هو وعائلته، ببيع عمله، وهو كل ما يملك. ويرى كارل ماركس أن انهيار الإقطاع ونمو الرأسمالية قد أسفرا عن نشوء طبقة جديدة لا تمتلك شيئاً من أوساط الفلاحين والعمال الزراعيين الذين لم تعد ثمة أرض يعملون فيها أو عليها، فاضطروا إلى بيع عملهم مقابل أجر في المراكز الصناعية الجديدة. وقد أعرب ماركس في **البيان الشيوعي** (1848) عن اعتقاده بأن ليس لدى العمال (البروليتاريا) ما يخسرونه إلا قيودهم، وأنهم سيكسبون العالم بأسره إذا أطاحوا الطبقة الرأسمالية المستَغِلَّة.

التنظيمات العثمانية (Tanzimat): حركة إصلاحية على النمط الأوروبي بدأها السلطان محمود الثاني في الدولة العثمانية، بعد قضائه على الانكشارية، في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وتابعها بعده ابنه عبد المجيد والسلاطين الآخرون. شملت مجالات إصلاح الجيش وأجهزة الدولة المركزية، والتمهيد للحياة الدستورية وتطوير التعليم وتنظيم الاقتصاد والصحة والعمران والزراعة. كما اشتملت على إدخال البرق وخطوط السكك الحديدية وتحسين شبكة المواصلات.

الجمعية القمَرية (Lunar Society): منتدى للنقاش ضم جماعات من ألمع العلماء والمفكرين والمخترعين ورجال الصناعة في بريطانيا بين عامي 1765 و1813. اتخذت الجمعية من مدينة بيرمينغهام مقراً لها، وعرفت بهذا الاسم عام 1775 لأن أعضاءها كانوا يفدون إلى المدينة للاجتماع في أواسط الشهر القمري عندما يكون القمر بدراً كاملاً لتيسير تنقلهم ليلاً، حيث إن إنجلترا لم تكن آنذاك قد عرفت إنارة الشوارع بالزيت أو الغاز أو أية وسيلة أخرى. ولم يقتصر اهتمام "القمريين" على تشجيع العلوم، بل تعداه إلى تحفيز الابتكار وتطبيق الاختراعات والمكتشفات في ميادين التصنيع، والمناجم، والمواصلات والنقل، والتعليم والطب.

الجيروندیون (Girondists): كتلة سياسية من الجمهوريين المعتدلين الذين كان لهم مكان الصدارة في الثورة الفرنسية، واكتسبوا هذا الاسم لأن أغلبهم كانوا من ممثلي مقاطعة الجيروند. كانت الجماعة تضم المحامين والصحفيين والتجار وممثلي الطبقة الوسطى المتعلمين في المقاطعات الفرنسية. نادوا بشن الحرب الثورية ضد الأنظمة الملكية وإشاعة مبادئ الحرية والإخاء والمساواة في أوروبا. نشب النزاع بينهم وبين اليعاقبة بزعامة روبسبيير (Robespierre) ودالتون (Dalton) ومارا (Marat)، ولقي أكثر الزعماء الجيروندیين مصرعهم بالإعدام على المقصلة بعد انتصار اليعاقبة خلال حكم الإرهاب عام 1793.

حكم الإرهاب (Reign of Terror): انتخب مكسمليان روبسبيير في لجنة السلامة العامة يوم 27 تموز/ يوليو 1793. وكان العضو الأكثر نفوذاً وسطوة. وشددت اللجنة خلال سنة واحدة أحكامها بالإعدام بالمقصلة لا على من كانوا يوصفون بأنهم "أعداء الثورة" فحسب، بل أصدقاء روبسبير وحلفائه اليعاقبة ومنهم سان جوست (Saint-Just)، ودانتون (Danton)، وإيبير (Hébert)، وديمولان (Desmoulins). وكان من مهماتها الرئيسية المحافظة على الأمن والنظام والدفاع عن الثورة ومواجهة الغزو الذي بدأته الملكيات الأوروبية ضد فرنسا. وفي التاسع من شهر ثيرميدور، في التقويم الذي اعتمدته الثورة الفرنسية (27 تموز/ يوليو) 1794، هب المؤتمر الوطني للثورة ضد روبسبيير، فاعتقل، وحوكم وأعدم بالمقصلة صباح اليوم التالي.

الديسمبريون (Decembrists): تمرد قام به مجموعة من ضباط الحرس الإمبراطوري الروس في بطرسبرغ في 26 كانون الأول/ ديسمبر عام 1825، للحيلولة دون تعيين نيكولا الأول خلفاً لوالده ألكسندر الأول، وللمطالبة بدستور للبلاد. قُمع التمرد، وأعدم عدد من مخططيه ومنفذيه، وعوقب آخرون بالنفي مدى الحياة في سيبيريا.

الديمقراطية (Democracy): حكم الشعب لنفسه وبنفسه، وفق

التعريف المشتق أساساً من الأصل اليوناني القديم للاصطلاح. وفي العصور الحديثة، أصبح التعريف يعني مشاركة الشعب في الحكم عموماً وفي تدبير أمور الدولة إما بصورة مباشرة أو عن طريق ممثلين منتخبين في هيئات تشريعية أو مجالس أو مناصب تنفيذية، في أجواء تتسم بالمساواة والنزاهة والشمول، بهدف إحقاق المواطنين السياسية والمدنية والإنسانية.

الراديكالية (Radicalism): اتخاذ المواقف ووجهات النظر الجذرية والمتطرفة في الميادين الفكرية أو السياسية أو المذهبية، والدعوة إلى التغير والتجديد بصورة لا تتسم بالاعتدال أو اللين أو التساهل.

العقلانية (Rationalism): حركة فكرية عنيت بالتأكيد على أن الوسيلة الفضلى لاكتشاف الحقيقة وتحقيق التطور الإنساني هي النظر والتحليل العلمي للواقع الفعلي، لا الأساليب الإيمانية ولا الطرق الغيبية. واعتمد العلماء الطبيعيون هذا النهج في جميع الحضارات القديمة، غير أنه أصبح المنهج الفكري المحوري في حركة التنوير الأوروبية منذ القرن السابع عشر، والمنطلق الأساسي للحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بعيداً عن النزعات العاطفية والتقاليد الثقافية والشعبية الموروثة.

الفيزيوقراطيون (Physiocrats): جماعة من علماء الاقتصاد الفرنسيين المتأثرين بحركة التنوير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. اعتمدت نظرياتهم على "حكم الطبيعة" (ومنه اشتق اسمهم)، وعلى نظريات العالم البريطاني اسحق نيوتن والنموذج الميكانيكي الذي وصفه لحركة الأجسام. وحاولوا تطبيق القوانين الطبيعية على النشاط الإنتاجي والاقتصادي وتوزيع السلع والخدمات في المجتمع، وبخاصة في القطاعين الزراعي والتجاري.

قانون الذُرة (Corn Law): صدر قانون الذرة/ الحبوب في بريطانيا عام 1815 للمحافظة على ارتفاع الأسعار وتحاشي الكساد في القطاع

الزراعي في أعقاب الحروب النابليونية. وفرض هذا القانون، والقوانين والقواعد والتعليمات المتفرعة عنه، خلال العقدين اللاحقين قيوداً على تصدير الحبوب إلا إذا كانت رخيصة السعر محلياً، واستيرادها إلا في حالات شح المحاصيل في إنجلترا. واستهدف القانون تأمين إمدادات كافية من المصادر المحلية وعدم الاعتماد على الاستيراد. وقد عارضه المستهلكون والعمال وذوو الدخل المتدني عموماً. ونشأت "رابطة مناهضة قانون الذرة" في مانشستر وجمعيات أخرى تطالب بإلغائه. وكان أصحاب المصانع هم الأكثر حدةً في انتقاد الحكومة على استمرار القانون إلى أن أفلح المعارضون في إقناع رئيس الوزراء المحافظ السير روبرت بيل في إلغائه عام 1848.

القرون الوسطى/ القروسطية (Medieval /Mediaeval /Middle Ages): تمثل هذه الحقبة الزمنية المراحل المتعددة التي تتوسط، في التاريخ العام، بين المدنيات الكبرى والعصور الحديثة، وفي التاريخ الأوروبي بخاصة، بين الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي، وقيام الدول والأنظمة الملكية الوراثية، وبدء الحملات الاستكشافية والاستعمارية الأوروبية في العالمين القديم والجديد، ومنها الحملات الصليبية على العالم الإسلامي. وشهدت هذه الفترة في مراحلها الأخيرة كذلك، توسع التجارة الأوروبية في الشرق، والإصلاح الديني وظهور البروتستانتية، وبروز النزعة الإنسانية في الفلسفة.

القوطيّ (Gothic): طراز في العمارة وفي فنون التصوير والنحت نشأ في شمال فرنسا وانتشر في أوروبا الغربية من أواسط القرن الثاني عشر إلى أوائل القرن السادس عشر. يتميز، هندسياً، بعظم الأشكال العمرانية والأعمدة والأقواس الكبيرة الحجم، كما في الكنائس والقصور الباذخة، وبضخامة أجسام البشر والحيوان والنباتات المصورة في اللوحات الزيتية والتماثيل الحجرية والمعدنية، لإعطائها مزيداً من الهيبة وتأكيد قدرتها على التأثير.

اللامتسرولون (Sans-culottes): مصطلح فضفاض أطلق للمرة الأولى على جمهرة الفقراء الثوريين الغاضبين الذين تحركوا إبّان الثورة الفرنسية وبعدها للدفاع عن مصالحهم. كانوا أول الأمر يحملون الحراب الطويلة ويرتدون بنطلونات الطبقة العاملة الرثة، لا سراويل الطبقة الوسطى والأرستقراطيين التي تصل حتى الركبتين. برزوا كقوة سياسية مؤثرة ناصرت اليعاقبة خلال الثورة، غير أن نفوذهم السياسي أخذ بالانكماش في الحركات الاجتماعية اللاحقة في فرنسا وأوروبا.

الليبرالية (Liberalism): فلسفة أو حركة تستهدف تنمية الحرية الفردية في شتى المجالات: السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وعلى الرغم من التعديلات والتنويعات على هذا المنظور عبر التاريخ، فكراً وممارسة، فإن المفهوم حافظ على أربعة أبعاد رئيسية هي: الإيمان بالتغيير، والنزعة الإنسانية، والنهج العقلاني، والدعوة العَلمانية التي تنادي، من جملة أمور أخرى، إلى الفصل بين الدين والدولة.

الماسونيون (الأحرار) (Freemasons): منظمة إخائية عالمية سرية لا يعرف غير أعضائها إلا أقل القليل عن طبيعتها ومراميها وشعائرها ورموزها، وحتى تسميتها التي تعني "البنائين". يعتقد أن بداياتها الأولى كانت في انجلترا في العقود الأولى من القرن الثامن عشر، ثم انتشرت بسرعة في أوروبا وأميركا الشمالية وأرجاء العالم الأخرى. ويرى كثير من الدارسين أن رابطة أخلاقية تشد الماسونيين بعضهم إلى بعض أينما كانوا، وأنهم يؤمنون بقوة علوية تسيّر الكون وتتحكم بمصائر البشر، ويلتزمون، في ما بينهم على الأقل، بمبادئ النزاهة والاستقامة ومساعدة الآخرين على تحقيق النجاح، ويتعرف أحدهم إلى الآخر عن طريق منظومة متعارف عليها من الرموز والشارات. ويعتقد أن بين الماسونيين أعداداً ضخمة من القيادات والرموز في أنحاء العالم في ميادين السياسة والاقتصاد والفكر.

الموسوعة (الإنسيكلوبيدي) (Encyclopédie): أولى الموسوعات التي

وضعت ونشرت في فرنسا. أطلق عليها أول الأمر اسم **المعجم المنهجي للعلوم، والفنون، والحرف** (*dictionnaire raisonné des science, des arts et des métiers*) وصدر منها خمسة وثلاثون مجلداً بين عامي 1751-1780. لعبت دوراً حاسماً في تهيئة المناخ الفكري والسياسي في أوساط المتعلمين قبيل اندلاع الثورة الفرنسية. أسهم في وضعها جمهرة من المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والفنانين من بينهم: جان جاك روسو (Jean Jacques Rousseau)، فولتير (Voltaire)، بارون دولباخ، كونديياك، مونتسكيو، آن تورغو، ودوبنتون. تناولت **الموسوعة** شتى الموضوعات، ودارت دراساتها حول العديد من المحاور مثل: الرياضيات، والفلسفة، والدين، والتاريخ الطبيعي، والسياسة، والاقتصاد، والطب، والموسيقى والأدب والفيزياء.

الميثاقيون (Chartists): حركة عمالية مؤثرة قامت ونشطت في المطالبة بالإصلاح السياسي في بريطانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. اشتق اسمها مما كان يسمى "ميثاق الشعب" الذي أصدرته يوم تأسيسها رسمياً، عام 1838، وطالبت فيه بالتصويت عن طريق صناديق الاقتراح، وحق الانتخاب لجميع الذكور، وإجراء انتخابات برلمانية كل سنة، والمساواة بين المقاطعات، وإلغاء شرط التملّك لدخول البرلمان، ودفع رواتب لأعضاء مجلس العموم. انتشرت الحركة وتعاظم نفوذها في أوساط الطبقة العاملة البريطانية، ولا سيما عمال المناجم، وكان من أبرز زعمائها وليام لوفيت، والخطيب المفوّه فيرغوس أوكونور. استغلت الحكومة تضارب المواقف وتصارع الزعامات في الحركة ووجهت لها ضرباتٍ موجعة أدت إلى انهيارها عام 1848.

الميثودية (Methodism): طائفة (أو كنيسة) مسيحية أسسها القس البريطاني جون ويزلي (John Wesley) (1703-1793)، وعدد من أتباعه وتلاميذه يوم كان مدرساً في جامعة أوكسفورد. وسميت الطائفة بهذا الاسم بالنظر إلى التزامهم "المنهجي" بأصول المسيحية وأساليب العبادة

فيها، متأثرين في ذلك بدعوة الإصلاح التي رفعها مؤسس البروتستانتية مارتن لوثر. وتعتبر الميثودية أحد الأعمدة الرئيسية التي قامت عليها الكنيسة الإنجليزية (Church of English).

النظام القديم (Ancien régime): نظام الحكم الملكي الوراثي الذي كان قائماً في فرنسا لعدة قرون حتى اندلاع الثورة الفرنسية عام 1789. وكان يمثله الملك (لويس السادس عشر آنذاك) والطبقات الحاكمة التي كانت تضم النبلاء والإقطاعيين ورجال الكنيسة. وشاع استخدام هذا المصطلح استخداماً سلبياً منذ ذلك الوقت للدلالة على ما يسمى بالعربية "العهد البائد".

اليعاقبة (Jacobins): إحدى الجماعات الطليعية في الثورة الفرنسية. عرفوا بهذا الاسم لأنهم كانوا عند تأسيس حركتهم عام 1789 يجتمعون في أحد الأديرة التابعة لليعاقبة الدومينيكان في باريس. سموا بـِ "الجبليين" لأنهم كانوا يجلسون على مقاعد عالية في الجمعية الوطنية وتمتعوا بنفوذ قوي في الجمعية وفي لجنة السلامة العامة التي تولت زمام الأمور كلها خلال "حكم الإرهاب" (Reign of Terror) الذي شهد، من جملة عشرات الآلاف من الضحايا، إعدام الملك لويس السادس عشر ثم الملكة ماري أنطوانيت على المقصلة، وزعماء الجيرونديين المنافسين لليعاقبة. وانتهى عهد اليعاقبة بعد أن جزّت المقصلة أعناق زعمائهم تباعاً. غير أن روح اليعاقبة الجمهورية الثورية المتطرفة كانت تتجلى في كثير من الحركات السياسية والاجتماعية اللاحقة في أوروبا، وبخاصة ثورات الأعوام 1830، 1848 و1870.

المراجع

Books

Adams, William Edwin. *Memoirs of a Social Atom*. London: Hutchinson and Co., 1903. 2 vols.

Agthe, Adolf. *Ursprung und Lage der Landarbeiter in Livland*. Tübingen: H. Laupp, 1909. (Zeitschrift für die Gesamte Staatswissenschaft Ergänzungsheft XXIX)

Armytage, W. H. G. *A Social History of Engineering*. [n. p.: n. pb.], 1961.

Baines, Edward. *History of the Cotton Manufacture in Great Britain; with a Notice of its Early History in the East, and in all the Quarters of the Globe*. London: H. Fisher, R. Fisher and P. Jackson, [1835].

Baker, F. *First Lecture on Co-Operation*. [Bolton: n. pb., 1830].

Batho, Edith C. *The Later Wordsworth*. New York: The Macmillan Company; Cambridge, Eng.: The University Press, 1933.

Baylee, John Tyrrell. *Statistics and Facts in Reference to the Lord's Day*. London: Seeleys, 1852.

Beauvilliers, Antoine. *L'Art du cuisinier*. Paris: Pilet, 1814. 2 vols.

Biedermann, Karl. *Vorlesungen über Socialismus und Sociale Fragen*. Leipzig: [n. pb.], 1847.

Billingsley, John. *General View of the Agriculture of the County of Somerset*. Second Edition. Bath: Printed by R. Cruttwell, 1798.

Blum, Jerome. *Lord and Peasant in Russia, from the Ninth to the Nineteenth Century*. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1961.

Bodart, Gaston and Vernon Lyman Kellogg. *Losses of Life in Modern Wars: Austria-Hungary; France; Military Selection and Race Deterioration*. Edited by Harald Westergaard. Oxford: Clarendon Press; London: New York; H. Milford, 1916. (Carnegie Endowment for International Peace. Division of Economics and History)

Boerne, Ludwig. *Gesammelte Schriften.*

Vol. III.

Briggs, Asa. *Chartist Studies*. London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1959.

——— and John Saville (eds.). *Essays in Labour History*. London: Macmillan, 1960.

Bruun, Geoffrey. *Europe and the French Imperium, 1799-1814*. New York; London: Harper and Brothers, 1938. (The Rise of Modern Europe)

Cameron, Rondo Emmett. *France and the Economic Development of Europe 1800-1914; Conquests of Peace and Seeds of War*. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1961.

Capefigue, M. *Histoire des grandes opérations financières; banques, bourses, emprunts, compagnies industrielles*. Paris: Amyot, 1855-1860. 4 vols.

Vol. IV: *Compagnies industrielles et commerciales, canaux, ponts, chemins de fer, crédits foncier et mobilier, depuis le moyen âge jusqu'à nos jours.*

Carlsson, Sten Carl Oscar. *Ståndssamhälle Och Ståndspersoner, 1700-1865: Studier Rörande det Svenska Ståndssamhällets*

Upplösning. Lund: C. W. K. Gleerup, [1949].

Census of Great Britain 1851: Religious Worship in England and Wales. Abridged from the Official Report Made by H. Mann. London: G. Routledge and Co, [1854].

Chabert, Alexandre. *Essai sur les mouvements des prix et des revenus en France, 1798-1820*. Paris: Librairie de médicis, 1949.

Chavannes, Alexandre André César. *Essai sur l'éducation intellectuelle, avec le projet d'une science nouvelle*. Lausanne: Impr. de I. Hignou, 1787.

Cherubini, Arnaldo. *Dottrime e metodi assistenziali dal 1789 al 1848*. Milano: Giuffrè, 1958.

Chevalier, Louis. *Classes laborieuses et classes dangereuses à Paris pendant la première moitié du XIXe siècle*. Paris: Plon, 1958. (Civilisations d'hier et d'aujourd'hui)

Chlapowski, Alfred. *La Fayette et la Pologne, 1830-1834: Centenaire de la mort du général La Fayette célébré à la bibliothèque polonaise de Paris, le 28 mai 1934*. [Catalogue de l'exposition par M. Czeslaw Chowaniec; allocution de M. Alfred de Chlapowski; conférence de M. Félix Ponteil; textes de La Fayette]. Paris: Bibliothèque polonaise; société générale d'imprimerie et d'édition, 1934.

Clapham, John Harold. *An Economic History of Modern Britain*. Cambridge: The University Press, 1926-1938. 3 vols.

Clark, George Norman. *The Idea of the Industrial Revolution*. Glasgow: Jackson Son and Co, 1953. (Glasgow University Publications; 95)

Clegg, James. *A Chronological History of Bolton*. [n. p: n. pb., 1876].

Cole, George Douglas Howard. *Attempts at General Union*. London: Macmillan, 1953.

——— and A. W. Filson. *British Working Class Movements, Select Documents, 1789-1875*. London: Macmillan, 1951.

Collins, Irene. *The Government and the Newspaper Press in France, 1814-1881*. London: Oxford University Press, 1959. (Oxford Historical Series; General Series)

Colman, Henry. *The Agriculture and Rural Economy of France, Belgium, Holland and Switzerland*. London: J. Petheram, 1848.

Condorcet, Jean - Antoine Nicolas de Caritat. *Oeuvres de Condorcet*. [n. p.: n. pb., 1804].

Vol. XVIII.

Craig, Gordon A. *The Politics of the Prussian Army, 1640-1945*. Oxford: Clarendon Press, 1955.

Crouzet, François. *L'Economie britannique et le blocus continental, 1806-1813*. Paris: Presses universitaires de France, 1958. 2 vols.

Dal Pane, Luigi. *Storia del lavoro in Italia dagli inizi del secolo XVIII al 1815*. Milán: [n. pb.], 1958.

Daumas, Maurice (éd.). *Histoire de la science*. [Paris: Gallimard, 1957]. (Encyclopédie de la pléiade; 5)

Dautry, Jean. *1848 et la II ième république*. [n. p.: n. pb., 1848].

Dickens, Charles. *Hard Times*.

Dutt, Rajani Palme. *India to-Day*. London: V. Gollancz, 1940.

Dutt, Romesh Chunder. *The Economic History of India under Early British Rule, from the Rise of the British Power in 1757 to the Accession of Queen Victoria in 1837*. London: K. Paul, Trench, Trübner and Co, [1916]. (Trübner's Oriental Series)

———. *India in the Victorian Age*. [n. p.]: Kegan Paul, 1904.

Duveau, Georges. *Les Instituteurs*. [Paris]: Editions du seuil,

[1957]. (Le Temps qui court; 2)

Earle, Edward Mead (ed.). *Modern France: Problems of the Third and Fourth Republics*. Contributors Warren C. Baum [et al.]. Princeton: Princeton University Press, 1951.

Eckermann, Johann Peter. *Gespraeche Mit Goethe in den Letzten Jahren Seines Lebens.*

Ellison, Thomas. *The Cotton Trade of Great Britain, Including a History of the Liverpool Cotton Market and of the Liverpool Cotton Brokers' Association*. London: E. Wilson, 1886.

Engels, Frederick. *The Condition of the Working-Class in England in 1844*.

Faucher, Léon Leonard Joseph. *Etudes sur l'Angleterre*. Paris: Guillaumin, 1845. 2 vols.

———. *Manchester in 1844: Its Present Condition and Future Prospects*. Translated from the French with Copious Notes by a Member of the Manchester Athenaeum. London: Manchester, 1844.

Fejtö, Ferenc (ed.). *The Opening of an Era, 1848: An Historical Symposium*. With an introd. by A. J. P. Taylor. London: Allan Wingate, 1948.

Fischel, Oskar and Max Boehn. *Die Mode Menschen und Moden im Neunzehnten Jahrhundert 1818-1842*. München: [n. pb., 1924].

Francis, John. *A History of the English Railway, its Social Relations and Revelations, 1820-1845*. London: Longman, Brown, Green and Longmans, 1851.

Gayer, Arthur D., W. W. Rostow [and] Anna Jacobson Schwartz. *The Growth and Fluctuation of the British Economy, 1790-1850: An Historical, Statistical, and Theoretical Study of Britain's Economic Development*. With the Assistance of Isaiah Frank. Oxford: Clarendon Press, 1953. 2 vols.

Gentz, Friedrich. *Dépêches inédites du chevalier de Gentz aux*

hospodars de Valachie, pour servir à l'histoire politique européenne (1813-1828). Publiées par le comte Prokesch-Osten fils. Paris: E. Plon, 1876-1877. 3 vols.

Giedion, Sigfried. *Mechanisation Takes Command, a Contribution to Anonymous History*. New York: Oxford University Press, 1948.

Gillispie, Charles Coulston. *Genesis and Geology, a Study in the Relations of Scientific Thought, Natural Theology, and Social Opinion in Great Britain, 1790-1850*. Cambridge: Harvard University Press, 1951. (Harvard Historical Studies; vol. 58)

Girault, Arthur. *Principes de colonisation et de législation coloniale... L'Algérie*. 7e édition revisée par Louis Milliot. Bordeaux: Impr. bière; Paris: Librairie du recueil sirey, 1938.

Godechot, Jacques. *La Grande nation: L'Expansion révolutionnaire de la France dans le monde, 1789 - 1799*. Paris: Editions montaigne, 1956. 2 vols. (Collection historique).

Vol. II.

Goltz, Theodor Freiherr von der. *Geschichte der Deutschen Landwirtschaft*. Stuttgart; Berlin: J. G. Cotta Nachfolger, 1903. 2 vols.

Goodwin, Albert (ed.). *The European Nobility in the Eighteenth Century: Studies of the Nobilities of the Major European States in the Pre-Reform Era*. London: A. and C. Black, 1953.

———. *The French Revolution*. London: Arrows Books, 1959. ([Grey Arrow; no. G16])

Gosden, Peter Henry John Heather. *The Friendly Societies in England: 1815-1875*. Manchester: Manchester University Press, 1961.

Greer, Donald. *The Incidence of the Emigration during the French Revolution*. Cambridge: Harvard University Press, 1951.

———. *The Incidence of the Terror during the French Revolution: A*

Statistical Interpretation. Cambridge: Harvard University Press, 1935.

Groote, Wolfgang von (ed.). *Die Entstehung des Nationalbewusstseins in Nordwestdeutschland, 1790-1830*. Göttingen: Musterschmidt-Verlag, [1952]. (Göttinger Bausteine zur Geschichtswissenchaft; Bd. 22)

Guizot, François Pierre Guillaume. *Of Democracy in Modern Societies*. London: [Henry Hooper], 1938.

Häbich, Theodor. *Deutsche Latifundien: Bericht und Mahnung*. 3. Aufl. Stuttgart: W. Kohlhammer, 1947.

Halévy, Elie. *A History of the English People in 1815 = Angleterre en 1815*. Introduction by Asa Briggs. London; New York: Ark Paperbacks, 1987. (A History of the English People; v. 1)

Handwörterbuch der Staatswissenschaften. Hrsg. von dr. J. Conrad [et al.]. 2. Gänzlich Umgearb. Aufl. Jena: G. Fischer, 1898-1901.

Hansen, Marcus Lee. *The Atlantic Migration, 1607-1860: A History of the Continuing Settlement of the United States*. Edited with a Foreword by Arthur M. Schlesinger. Third Printing. Cambridge (Massachusetts): Harvard University Press, 1945.

Haxthausen-Abbenburg, August Franz Ludwig Maria. *Studien über die Innern Zustände, das Volksleben und Insbedondere die Ländlichen Einrichtungen Russlands*. Hannover: Hahn, 1847-1852. 3 vols.

Vol. 1.

Hegel, Georg Wilhelm Friedrich. *The Philosophy of Fine Art*. London: G. Bell and Sons, 1920. 4 vols.

Hobsbawm, Eric John. *The Age of Capital, 1848-1875*. New York: Scribner, 1975. (History of Civilization)

———. *The Age of Empire, 1875-1914*. New York: Pantheon

Books, 1987. (History of Civilization)

———. *Age of Extremes: The Short Twentieth Century, 1914-1991.* London: Michael Joseph; New York: Viking Penguin, 1994.

———. *Bandits.* [New York]: Delacorte Press, [1969]. (Pageant of History Series)

———. and George Rudé. *Captain Swing.* New York: Pantheon Books, [1968].

———. *On the Edge of the New Century.* In Conversation with Antonio Polito; Translated from the Italian by Allan Cameron. New York: New Press, 2000.

———. *On History.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1997.

———. *Industry and Empire; an Economic History of Britain since 1750.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1968.

———. *Interesting Times: A Twentieth-Century Life.* New York: Pantheon Books, 2002.

———. *The Jazz Scene.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1989.

———. *Labour's Turning Point, 1880-1900; Extracts from Contemporary Sources.* London: Lawrence and Wishart, 1948. (History in the Making. Nineteenth Century; v. 3)

———. *Labouring Men; Studies in the History of Labour.* London: Weidenfeld and Nicolson, [1964].

———. *Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality.* Cambridge [England]; New York: Cambridge University Press, 1990. (The Wiles Lectures)

———. *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movements in the 19th and 20th Centuries.* Manchester: Manchester University Press, 1959.

———. *Revolutionaries: Contemporary Essays.* London: Weidenfeld and Nicolson, [1973].

———. *Uncommon People: Resistance, Rebellion and Jazz*. New York: New Press: Distributed by Norton, 1998.

———. *Workers: Worlds of Labor*. New York: Pantheon Books, 1984.

Hoffmann, Walther G. *The Growth of Industrial Economies*. Translated from the German by W. O. Henderson and W. H. Chaloner. Dobbs Ferry, N. Y.: Oceana Publications, 1958.

Hoffmann von Fallersleben, August Heinrich. *Unpolitische Lieder*.

Hovde, Brynjolf Jakob. *The Scandinavian Countries, 1720-1865, the Rise of the Middle Classes*. Boston: Chapman and Grimes, [1943].

Hugo, Howard E. *The Romantic Reader*. New York: Viking Press, [1957].

Jaccard, Pierre. *Histoire sociale du travail, de l'antiquité à nos jours*. Paris: Payot, 1960.

Jenks, Leland Hamilton. *The Migration of British Capital to 1875*. New York; London: A. A. Knopf, 1927.

Khromov, Pavel Alekseevich. *Ëkonomicheskoe Razvitie Rossii v XIX-XX Vekakh, 1800-1917*. [Moskva]: Gos. izd-vo polit. lit-ry, 1950.

Klein, Tim (ed.). *1848: Der Vorkampf Deutscher Einheit und Freiheit: Erinnerungen, Urkunden, Berichte, Briefe*. Ebenhausen-München; Leipzig: W. Langewiesche-Brandt, 1914. (Schicksal und Abenteuer: Lebensdokumente vergangener Jahrhunderte; 9)

Kuczynski, Jürgen. *Die Geschichte der Lage der Arbeiter Unter dem Kapitalismus*. Berlin: Akademie-Verlag, 1960-1972. 38 vols.

Vol. 8.
Vol. 9.

Labrousse, Ernest. *Aspects de la crise et de la dépression de l'économie française au milieu du XIXe siècle, 1846-1851.* Etudes sous la direction de E. Labrousse. La Roche-sur-yon: Impr. centrale de l'ouest, 1956. (Bibliothèque de la révolution de 1848; t. 19)

———. *Le Mouvement ouvrier et les théories sociales en France au XIXe siècle.*

Vol. III.

Laing, Samuel. *Notes of a Traveller, on the Social and Political State of France, Prussia, Switzerland, Italy, and Other Parts of Europe, during the Present Century.* London: Longman, Brown, Green and Longmans, 1854.

Lambert Dansette, Jean. *Jean Lambert Dansette. Origines et évolution d'une bourgeoisie. Quelques familles du patronat textile de Lille-Armentières, 1789-1914.* Préface de Jacques Chastenet. Lille: E. Raoust et cie, 1954.

Lardner, Dionysius. *Cabinet Cyclopaedia.* [London: n. pb., 1830 - 1849]. 133 vols.

Laveleye, Emile Louis Victor. *L'Instruction du peuple.* Paris: Hachette et cie, 1872.

Lefebvre, Georges. *Etudes sur la révolution française.* Paris: Presses universitaires de France, 1954.

———. Napoléon. Paris: F. Alcan, [1936]. (Peuples et civilisations. Histoire générale; XIV)

L'Huillier, Fernand. *Recherches sur l'alsace napoléonienne.* [Paris]: Librairie istra, [1947].

Leverrier, Jules. *La Naissance de l'armée nationale, 1789-1794.* Paris: Editions sociales internationales, 1939. (Collection "problèmes")

Lewis, Michael. *A Social History of the Navy, 1793-1815.* London: G. Allen and Unwin, 1960.

Liard, Louis. *L'Enseignement supérieur en France: 1789-1889.* Paris: A. Colin, 1888-1894. 2 vols.

Loyd, Samuel Jones. *Reflections Suggested by a Perusal of Mr. J. Horsley Palmer's Pamphlet: On the Causes and Consequences of the Pressure on the Money Market.* London: P. Richard-Son, 1837.

Lukàcs, Gyorgy. *Der junge Hegel. Ueber die Beziehungen von Dialektik und Oekonomie.*

Luzzatto, Gino. *Studi in onore di Gino Luzzatto.* Milano: A. Giuffrè, 1949-1950. 4 vols.

Vol. 3.

Lyashchenko, Peter Ivanovich. *History of the National Economy of Russia to the 1917 Revolution.* Translated by L. M. Herman. New York: Macmillan, 1949.

[Maistre, Joseph de]. *Considérations sur la France.* [n. p.: n. pb., 1796].

Marx, Karl. *Karl Marx, Friedrich Engels. Werke.* Berlin: Dietz, 1956.

———. *Pre-Capitalist Economic Formations = Formen, die der kapitalistichen Produktion vorhergehen.* Translated by Jack Cohen; Edited and with an Introd. by E. J. Hobsbawm. London: Lawrence and Wishart, 1964.

———. *Preface to the Critique of Political Economy.*

Mason, Stephen Finney. *A History of the Sciences: Main Currents of Scientific Thought.* London: Routledge and Kegan Paul, 1953.

Mathias, Peter. *The Brewing Industry in England, 1700-1830.* Cambridge: University Press, 1959.

McCord, Norman. *The Anti-Corn Law League, 1838-1846.* London: Allen and Unwin, [1958].

Merryweather, Mary. *Experience of Factory Life: Being a Record*

of Fourteen Years' Work at Mr. Courtauld's Silk Mill at Halstead, in Essex. Third Edition, much Enlarged, with a Preface by B. R. Parkes. [London: n. pb., 1862].

Metternich-Winneburg, Clemens Lothar Wenzel. *Memoirs of Prince Metternich.*

Vol. III.

Mill, James. *An Essay on Government.* [n. p.: n. pb., 1823].

Mill, John Stuart. *Principles of Political Economy.*

Miskolczy, [Julius]. *Ungarn in der Habsburger-Monarchie.* Wien; München: Verlag Herold, 1959.

Moore, Wilbert Ellis. *Industrialization and Labor. Social Aspects of Economic Development.* Ithaca; New York: Cornell University Press, 1951. (Studies of the Institute of World Affairs)

Morgan, Lewis Henry. *The Indian Journals, 1859-1862.* Edited and with an Introd. by Leslie A. White; Illus. Selected and Edited by Clyde Walton. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1959.

Morley, John. *The Life of Richard Cobden.* 6th Thousand of the Popular one Volume Edition. [10th Ed.]. London: T. F. Unwin, 1903.

Morris, Richard Brandon. *Encyclopedia of American History.* New York: Harper, [1953].

Mulhall, Michael G. *The Dictionary of Statistics.* London; New York: G. Routledge and Sons, 1892.

Müller von Nitersdorf, Adam Heinrich and Friedrich Gentz. *Briefwechsel Zwischen Friedrich Gentz und Adam Heinrich Müller, 1800-1829.* [Stuttgart: J. G. Cotta, 1857].

Mundt, Theodor. *Der Dritte Stand in Deutschland und Preussen, in Seiner Politischen und Ständischen Vertretung.* Berlin: [n. pb.], 1847.

Musset, Alfred de. *Oeuvres complètes de Alfred de Musset.* [Paris: L. Hébert, 1876-1884]. 11 vols.

Vol. IV, 1879.

Namier, Lewis Bernstein. *1848: The Revolution of the Intellectuals.* London: G. Cumberlege, [1944].

Nasmyth, James. *James Nasmyth, Engineer, an Autobiography.* Edited by Samuel Smiles. [n. p.: n. pb., 1897].

Neuss, Erich. *Entstehung und Entwicklung der Klasse der Besitzlosen Lohnarbiter in Halle.* Berlin: Akademie-Verlag, 1958. (Sächsische Akademie der Wissenschaften, Leipzig. Philologische-Historische Klasse. Abhandlungen; Bd. 51, Heft 1)

[Owen, Robert]. *The Book of the New Moral World.*

———. *New View of Society: Or, Essays on the Principle of the Formation of the Human Character, and the Application of the Principle to Practice.* Essay Second by One of His Majesty's Justices of Peace for the County of Lanark. London: [n. pb.], 1813.

Palmer, R. R. *Age of Democratic Revolution: A Political History of Europe and America, 1760-1800.* Princeton: Princeton University Press, 1959.

Vol. 1: *The Challenge.*

Paulsen, Friedrich. *Geschichte des Gelehrten Unterrichts auf den Deutschen Schulen und Universitäten vom Ausgang des Mittelalters bis zur Gegenwart.* Mit Besonderer Rücksicht auf den klassischen Unterricht. 2., Umgearb. und sehr Erweiterte Aufl. Leipzig: Veit and Comp., 1896-972. 2 vols.

Vol. 2.

Peacock, Thomas Love. *Nightmare Abbey.* London: Hookham, 1818.

Picard, Roger. *Le Romantisme social.* [New York; Paris]:

Brentano's, [1944].

Pollard, Sidney. *A History of Labour in Sheffield.* Liverpool: Liverpool University Press, [1959].

Praz, Mario. *The Romantic Agony.* Translated from the Italian by Angus Davidson. London: Oxford University Press; H. Milford, 1933.

Ramos, Arthur. *Las Culturas negras en el nuevo mundo.* Versión española de Ernestina de Champourcín; glosario de voces por Jorge A. Vivó. México: Fondo de cultura económica, [1943]. (Sección de obras de sociología [del fondo de cultura económica] I; Manuales introductorios)

Read, Donald. *Press and People, 1790-1850: Opinion in Three English Cities.* London: E. Arnold, [1961].

Rees, Thomas. *History of Protestant Nonconformity in Wales.* [n. p.: n. pb.], 1861.

Richardson, Joanna. *My Dearest Uncle: A Life of Leopold, First king of the Belgians.* London: Jonathan Cape, 1961.

Robbins, Michael. *The Railway Age.* London: Routledge and Paul, [1962].

Robinson, Ronald, Alice Denny and John Gallagher. *Africa and the Victorians: The Official Mind of Imperialism.* London: Macmillan and Co; New York: St. Martin's Press, 1961.

Roll, Eric. *A History of Economic Thought.* [n. p: n. pb., 1948]

Russell, James Burn. *Public Health Administration in Glasgow: A Memorial Volume of the Writings of James Burn Russell.* Edited by A. K. Chalmers. Glasgow: J. Maclehose, [1903].

Saint-Just, Louis-Antoine-Léon. *Oeuvres complètes de Saint-Just.* Avec une introd. et des notes par Charles Vellay. Paris: E. Fasquelle, 1908. 2 vols. (L'Elite de la révolution; 1).

Vol. I: *Organt. Discours et lettres (avril 1790-mai 1793).*

Vol. II: *Rapports et écrits divers (mai 1793-thermidor an II).*

Sartorius von Waltershausen, A. *Deutsche Wirtschaftsgeschichte, 1815-1914.* 2., Ergänzte Auflage. Jena: G. Fischer, 1923.

Savant, Jean. *Les Préfets de Napoléon.* [Paris]: Hachette, [1958].

Saville, John (ed.). *Democracy and the Labour Movement; Essays in Honour of Dona Torr.* London: Lawrence and Wishart, 1954.

Scheer, Rudolf. *Die Entwicklung der Annaberger Posamentenindustrie im 19 Jahrhundert.* [n. p.]: R. Scheer, 1909.

Schneer, Alexander. *Ueber die Noth der Leinen-Arbeiter in Schlesien und die Mittel ihr Abzuhelfen.* Berlin: [n. pb.], 1844.

Schilfert, Gerhard. *Sieg und Niederlage des Demokratischen Wahlrechts in der Deutschen Revolution 1848/1849.* Berlin: Rutten and Loening, [1952].

Schumpeter, Joseph Alois. *History of Economic Analysis.* Edited from Manuscript by Elizabeth Boody Schumpeter. New York: Oxford University Press, 1954.

Sée, Henri. *Esquisse d'une histoire du régime agraire en Europe aux XVIIIe et XIXe siècles.* [Paris: M. Giard, 1921].

——— . *Histoire économique de la France.*

Vol. II: [*Les Temps modernes (1789-1914)*].

Sereni, Emilio. *Il Capitalismo nelle campagne (1860-1900).* Turín: Einaudi, 1948.

Sharp, Walter Rice. *The French Civil Service: Bureaucracy in Transition.* New York: Macmillan, 1931.

Smiles, Samuel. *The Life of George Stephenson.* [n. p.]: Murray, 1881.

Soboul, Albert. *Les Campagnes montpelliéraines à la fin de l'ancien régime: Propriété et cultures d'après les compoix.* Paris: Presses universitaires de France, 1958.

———. *Les Sans-culottes parisiens en l'An II.* Paris: Librairie clavreuil, 1958.

Sorel, Albert. *L'Europe et la révolution française.* [Paris: E. Plon, nourrit et cie, 1922-1927]. 8 vols.

Vol. 1.

Spitzer, Alan Barrie. *The Revolutionary Theories of Louis Auguste Blanqui.* New York: Columbia University Press, 1957. (Columbia Studies in the Social Sciences; no. 594)

Stamp, Josiah Charles. *British Incomes and Property.* London: P. S. King and Son, 1920.

Talmon, J. L. *Political Messianism: The Romantic Phase.* New York: Praeger, 1960. (Books That Matter)

Tarlé, Evgeny Viktorovitch. *Le Blocus continental et le royaume d'Italie: La Situation économique de l'Italie sous Napoléon 1er, d'après des documents inédits.* Paris: F. Alcan, 1928.

Thibert, Marguerite. *Le Rôle social de l'art d'après Saint-Simon.* Paris: [n. pb., n. d.].

Tocqueville, Alexis de. *Democracy in America = De La démocratie en Amérique.* Translated by Henry Reeve. London: Saunders and Otley, 1835-1840. 4 vols.

———. *Journeys to England and Ireland.* Translated by George Lawrence and K. P. Mayer; Edited by J. P. Mayer. New Haven: Yale University Press, 1958.

Tooke, Thomas. *A History of Prices and of the State of the Circulation, from 1793 to 1837.*

Vol. II.

Trimingham, John Spencer. *Islam in West Africa.* Oxford: Clarendon Press, 1959.

Tuck, Henry. *The Railway Shareholder's Manual.* 7th. Ed. London: E. Wilson, 1846.

Turgot, Anne-Robert-Jacques. *Oeuvres de Turgot.*

Vol. 5.

Tylecote, Mabel. *The Mechanics' Institutes of Lancashire and Yorkshire before 1851.* Manchester: Manchester University Press, 1957.

Ure, Andrew and Peter Lund Simmonds. *The Cotton Manufacture of Great Britain Investigated and Illustrated.* London: H. G. Bohn, 1861. 2 vols.

Vicens Vives, Jaime. *Historia social y económica de España y América.* Barcelona: Editorial Teide, [1957-1959]. 4 vols.

———. *Manual de historia económica de España.* Con la colaboración de J. Nadal Oller. Barcelona: Editorial Teide, [1959].

Villeneuve-Bargemon, Alban. *Economie politique chrétienne.* Paris: Paulin, 1834. 3 vols.

Wachsmuth, Wilhelm. *Europäische Sittengeschichte vom Ursprunge Volksthümlicher Gestaltungen bis auf Unsere Zeit.* Leipzig: F. C. W. Vogel, [n. d.].

V, 1-2: *Das Zeitalter des Kirchenstreits*, 1839.

Wade, John. *History of the Middle and Working Classes.*

Wadsworth, Alfred P. and Julia de Lacy Mann. *The Cotton Trade and Industrial Lancashire, 1600-1780.* [Manchester]: Manchester University Press, 1931. (Publications of the University of Manchester. Economic History Series; no. VII)

Weill, Georges. *Histoire de l'enseignement secondaire en France (1802-1920).* Paris: Payot, 1921.

Wertheim, Willem Frederik. *Indonesian Society in Transition, a Study of Social Change.* The Hague: W. van Hoeve, 1956.

White, George. *A Practical Treatise on Weaving. Intended as a*

Text Book for Manufacturers by Hand and Power Looms and Power Loom Engineers. Glasgow: J. Niven, 1846.

Williams, Alfred (ed.). *Folk-songs of the Upper Thames: With an Essay on Folk-song Activity in the Upper Thames Neighbourhood.* [n. p.]: Duckworth, 1923.

Wilson, James. *Fluctuations of Currency, Commerce and Manufactures; Referable to the Corn Laws*. [London: n. pb., 1840].

Young, Arthur. *Tours in England and Wales. Selected from the Annals of Agriculture*. [London: The London School of Economics and Political Science, 1932]. (Series of Reprints of Scarce Tracts in Economic and Political Science; no. 14)

Zangheri, Renato (éd.). *Le Campagne emiliane nell'epoca moderna; saggi e testimonianze*. Milano: Feltrinelli, [1957]. (Biblioteca G. G. Feltrinelli. Studi e ricerche storiche)

———. *Prime ricerche sulla distribuzione della proprieta fondiaria nella pianura bolognese (1789-1835)*. Bologna: Cappelli, stampa, 1957.

Zubaida, Sami. *Islam, the People and the State: Essays on Political Ideas and Movements in the Middle East*. London; New York: Routledge, [1988].

Periodicals

Annals of Agriculture...: vol. XXXVI.

Bezanson, Anna. "The Early Uses of the Term Industrial Revolution." *Quarterly Journal of Economics*: vol. XXXVI, no. 2, February 1922.

Blaug, M. "The Productivity of Capital in the Lancashire Cotton Industry during the Nineteenth Century." *The Economic History Review*: vol. 13, April 1961.

Bloch, C. "L'Emigration française au XIX siècle." *Etudes d'histoire moderne et contemporaine*: vol. 1, 1947.

Blum, Jerome. "Transportation and Industry in Austria, 1815-

1848." *The Journal of Modern History*: vol. XV, 1943.

Briggs, Asa. "Middle-Class Consciousness in English Politics 1780-1846." *Past and Present*: vol. 9, April 1956.

Castro, R. Baron. "La Poblacion hispano-americana." *Journal of World History*: vol. V, 1959-1960.

Cohn, Bernard S. "The Initial British Impact on India, a Case Study of Banaras Region." *The Journal of Asian Studies*: vol. 19, 1960.

Connell, K. H. "Land and Population in Ireland, 1780-1845." *The Economic History Review*: 2nd Series, vol. 3, 1949-1950.

Conrad, D. "Die Frequenzverhaltnisse der Universitaten der Hauptsach Lichsten Kulturlander." *Jahrbücher Für Nationalökonomie und Statistik*: vol. LVI, 1895.

Cousens, S. H. "Regional Death Rates in Ireland during the Great Famine from 1846 to 1851." *Population Studies*: vol. 14, no. 1, 1960.

Daumard, Adeline. "Les Elèves de l'école polytechnique, 1815-1848." *Revue d'histoire moderne et contemporaine*: vol. 5, 1958.

Deane, Phyllis. "Estimates of the British National Income." *The Economic History Review*: April 1956; April 1957.

Eckers, R. S. "The North-South Differential in Italian Economic Development." *Journal of Economic History*: vol. XXI, 1961.

Emerit, M. "L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830." *Revue d'histoire moderne et contemporaine*: vol. 1, 1954.

Gupta, Sulekh Chandra. "Land Market in the North Western Provinces (Uttar Pradesh) in the First Half of the Nineteenth Century." *Indian Economic Review:* vol. IV, no. 2, August 1958.

Hobsbawm, Eric John. "The British Standard of Living, 1790-

1850." *The Economic History Review*: vol. 10, no. 1, August 1957.

———. "The Machine Breakers." *Past and Present*: vol. 1, February 1952.

Hovelacque, Abel. "La Taille dans un canton ligure." *Revue mensuelle de l'école d'anthropology*: [vol. 6], 1896.

Imlah, Albert H. "British Balance of Payments and Capital Export of 1816-1913." *The Economic History Review*: 2nd Series, vol. V, 1952.

Issawi, Charles. "Egypt since 1800: A Study in Lopsided Development." *Journal of Economic History*: vol. 21, [no. 2], March 1961.

Jourda, Pierre. *L'Exotisme dans la littérature française depuis Chateaubriand.* Paris: [n. pb., 1939].

Kisch, Herbert. "The Textile Industries in Silesia and the Rhineland: A Comparative Study in Industrialization." *Journal of Economic History*: vol. 19, December 1959.

Landes, David S. "Vieille banque et banque nouvelle: La Révolution financière du XIXe siècle." *Revue d'histoire moderne et contemporaine*: vol. 3, 1956.

Lebrun, Pierre [et. al.]. "La Rivoluzione industriale in Belgio." *Studi Storici*: vol. II, nos. 3-4, 1961.

Lewis, Bernard. "The Impact of the French Revolution on Turkey." *Journal of World History*: vol. 1, 1953.

Macpherson, C. B. "Edmund Burke." *Transactions of the Royal Society of Canada = Mémoires de la société royale du Canada*: 3rd. Series, Sect. 2, vol. LIII, 1959.

Mori, G. "Osservazioni sul libero-scambismo dei moderati nel Risorgimento." *Rivista storica del socialismo:* vol. 3, no. 6, 1960.

Musson, A. E. and E. Robinson. "Science and Industry in the Late Eighteenth Century." *The Economic History Review*: 2nd Series, vol. XIII, December 1960.

Neue Rheinische Zeitung: 1848.

Neumann, F. J. "Zur Lehre von den Lohngesetzen." *Jahrbücher Für Nationalökonomie und Statistik*: Band 3, F. 4, 1892.

O'Brien, P. K. "Britisch Incomes and Property in the Early Nineteenth Century." *The Economic History Review*: 2nd Series, vol. XII, August 1959.

Portal, R. "La Naissance d'une bourgeoisie industrielle en Russie dans la première moitié du XIX siècle." *Bulletin de la société d'histoire moderne*: douzieme série, vol. II, 1959.

Purs, Jaroslav. "The Industrial Revolution in the Czech Lands." *Historica*: vol. 2, 1960.

Rath, R. John. "The Habsburgs and the Great Depression in Lombardy-Venetia, 1814-1818." *Journal of Modern History*: vol. 13, 1941.

Sigmann, Jean. "Les Radicaux badois et l'idee nationale allemande en 1848." *Etudes d'histoire moderne et contemporaine*: vol. II, 1948.

Spring, David. "The English Landed Estate in the Age of Coal and Iron: 1830-1880." *The Journal of Economic History*: vol. 11, no. 1, 1951.

Stavrianos, Leften Stavros. "Antecedents to the Balkan Revolutions of the Nineteenth Century." *Journal of Modern History*: vol. 29, no. 4, 1957.

Volguine, V. "Les Idées socialistes et communistes dans les sociétés secrètes." *Questions d'histoire*: vol. II, 1954.

Webb, Robert K. "Working Class Readers in Early Victorian England." *The English Historical Review*: vol. LXV, 1950.

Zubrzycki, J. "Emigration from Poland in the 19th and 20th Centuries." *Population Studies:* vol. 6, 1952-1953.

Conferences

La Pologne au Xe congrès international des sciences historiques à Rome. Warszawa: [Państw. Wydaw. Naukowe], 1955.

The Report of the Statistical Committee appointed by the Anti-Corn Law Conference, Held in London... March, 1842. London: Charles Fox, [1842].

Thesis

Safa, Elie. *L'Emigration libanaise.* Préface du président Alfred Naccache. (Thèse, université Saint Joseph Beyrouth, faculté de droit et des sciences économiques, 1960).

المراجع المساندة

Books

Armytage, W. H. *A Social History of Engineering*. New York: Pitman, [1961]. (Technology Today and Tomorrow)

Artz, Frederick Binkerd. *France Under the Bourbon Restoration, 1814-1830*. Cambridge: Harvard University Press, 1931.

———. *Reaction and Revolution, 1814-1832*. New York; London: Harper and Brothers, 1934. (The Rise of Modern Europe)

Atlas of Islamic History. Compiled by H. W. Hazard; Maps Executed by H. Lester Cooke and J. McA. Smiley. [n. p.: n. pb., 1943].

Atlas Istorii SSSR. [n. p.: n. pb., 1950].

Atlas of World History. Edited by R. R. Palmer. Chicago: [Rand McNally, 1957]. (Rand McNally History Series)

Baker, John Norman Leonard. *A History of Geographical Discovery and Exploration*. New Ed., Rev. London: G. G. Harrap and Co., [1937]. (Harrap's New Geographical Series)

Bernal, John Desmond. *Science and Industry in the Nineteenth Century*. London: Routledge and Paul, [1953].

———. *Science in History*. London: Watts, [1954].

Bloch, Marc. *Esquisse d'une histoire monétaire de l'Europe*. Paris:

A. Colin, 1954. (Cahiers des annales, 9)

Blom, Eric (ed.). *Grovés Dictionary of Music and Musicians*. 5th Ed. London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1954. 9 vols.

Bowden, Witt, Michael Karpovich and Abbott Payson Usher. *An Economic History of Europe since 1750*. New York; Cincinnati; American Book Company, [1937].

Briggs, Asa (ed.). *The Age of Improvement*. [n. p.]: Longmans, Green, 1959. ([History of England; vol. 8])

———. *Chartist Studies*. London: Macmillan; New York: St. Martin's Press, 1959.

Brinton, Crane. *A Decade of Revolution, 1789-1799*. New York; London: Harper and Brothers, 1934. (The Rise of Modern Europe)

Bromley, John Selwyn and Albert Goodwin (eds.). *A select List of Works on Europe and Europe Overseas, 1715-1815*. [Oxford]: Clarendon Press, 1956.

Bronowski, Jacob. *William Blake, 1757-1827; a Man without a Mask*. Rev. Ed. Harmondsworth, Middlesex: Penguin Books, [1954]. (Pelican Books; A 317)

Bruun, Geoffrey. *Europe and the French Imperium, 1799-1814*. New York; London: Harper and Brothers, 1938. (The Rise of Modern Europe)

Bury, John Bagnell. *The Idea of Progress; an Inquiry into its Origin and Growth*. London: Macmillan and Co., 1920.

Candeloro, G. *Storia dell'Italia moderna 1815-1846*. [n. p.]: Feltrinelli, 1958.

Vol. 2: *Dalla restaurazione alla rivoluzione nazionale*.

Cassell's Encyclopedia of Literature.

Chalmin, Pierre. *L'Officier français, 1815-1871.* Paris: M. Rivière, 1957.

Cipolla, Carlo M. *The Economic History of World Population.* Baltimore: Penguin Books, [1962]. (Pelican Books; A 537)

Clark, Kenneth. *The Gothic Revival.* [n. p.: n. pb., 1944].

Cole, George Douglas Howard. *A History of Socialist Thought.* London: Macmillan and Co., 1953-1960. 5 vols.

Vol. 1: *Socialist Thought: The Forerunners, 1789-1850.* 1953.

Cornu, Auguste. *Karl Marx und Friedrich Engels, Leben und Werk.* Berlin: Aufbau-Verlag, 1954-1962. 2 vols.

Vol. 1: *1818-1844.*

Craig, Gordon Alexander. *The Politics of the Prussian Army, 1640-1945.* Oxford: Clarendon Press, 1955.

Deerr, Noël. *The History of Sugar.* London: Chapman and Hall, 1949-1950. 2 vols.

Demoulin, Robert. *La Révolution de 1830.* Bruxelles: La Renaissance du livre, 1950. (Notre passé. 6ème série)

Desai, Akshayakumar Ramanlal. *Social Background of Indian Nationalism.* [Bombay; New York]: Indian Branch; Oxford University Press, [1948]. (University of Bombay Publications. Sociology Series; no. 2)

Dobb, Maurice. *Studies in the Development of Capitalism.* London: G. Routledge and Sons, [1946].

Dodwell, Henry Herbert. *The Founder of Modern Egypt.* Cambridge: The University Press, 1931.

Dolléans, Edouard. *Histoire du mouvement ourvrier.* Préface de Lucien Febvre. Paris: A. Colin, 1936-1939. 2 vols.

Droz, Jacques. *Les Révolutions allemandes de 1848.* D'Après un manuscrit et des notes de E. Tonnelat. Paris: Presses

universitaires de France, 1957. (Publications de la faculté des lettres de l'université de Clermont. 2. série; fasc. 6)

Drummond J. C. and Anne Wilbraham. *The Englishman's Food, a History of Five Centuries of English Diet*. London: J. Cape, 1939.

Dubnow, Simon. *Weltgeschichte des Jüdischen Volkes, von Seinen Uranfangen bis zur Gegenwart*. Berlin: Jüdischer Verlag, [1925-1930]. 10 vols.

Vols.: VIII and IX.

Duveau, Georges. *L'Instituteur*. [Paris]: Editions du seuil, [1957]. (Le Temps qui court; 2)

Edwards, R. Dudley and T. Desmond Williams (eds.). *The Great Famine; Studies in Irish History, 1845-1852*. [New York]: New York University Press, 1957.

Einstein, Alfred. *Music in the Romantic Era*. New York: W. W. Norton and Company, [1947].

Eisenstein, Elizabeth Lewisohn. *The First Professional Revolutionist: Filippo Michele Buonarroti, 1761-1837*. Cambridge: Harvard University Press, Mass, 1959. ([Harvard Historical Monographs; no. 38])

Encyclopedia of the Social Sciences. [New York: The Macmillan Company, 1935].

Encyclopedia of World Art. [New York: Florence Printed, 1959-1968]. 15 vols.

Engels, Friedrich. *Condition of the Working Class in England in 1844*.

L'Epoque contemporaine. Paris: Presses universitaires de France, 1953.

Vol. I: *Restaurations et révolutions, 1815-1871*. Par Jacques Droz, Lucien Genet et Jean Vidalenc. 1953.

Evans, David Owen. *Le Socialisme romantique, Pierre Leroux et ses contemporains*. Préf. par Edouard Dolléans. Paris: M. Riviére, 1948. (Bibliothèque d'histoire économique et sociale)

Fage, J. D. *An Atlas of African History*. [London]: E. Arnold, [1958].

Ferns, Henry Stanley. *Britain and Argentina in the Nineteenth Century*. Oxford [Eng.]: Clarendon Press, 1960.

Festy, Octave. *Le Mouvement ouvrier au début de la monarchie de juillet (1830-1834)*. Paris: E. Cornély et cie, 1908. (Bibliothèque d'histoire moderne pub. sous les auspices de la société d'histoire moderne; t. 2, fasc. III)

Florinsky, Michael T. *Russia: A History and an Interpretation*. New York: Macmillan, 1953. 2 vols.

Vol. 2.

Francastel, Pierre. *Le Style empire*. Paris: Larousse, 1944.

Francovich, Carlo. *Idee sociali e organizzazione operaia nella prima metà dell'800 (1815-1847)*. Milano: Avanti, 1959.

Fugier, André. *La Révolution française et l'empire napoléonien*. Paris: Hachette, [1954]. (Histoire des relations internationales; t. 4)

Furnivall, John Sydenham. *Colonial Policy and Practice; a Comparative Study of Burma and Netherlands India*. New York: New York University Press, [1956].

Galt, John. *Annals of the Parish*.

Godechot, Jacques. *La Contre-révolution, doctrine et action, 1789-1804*. Paris: Presses universitaires de France, 1961.

Gombrich, Ernst Hans. *The Story of Art*. New York: Phaidon Publishers, 1950.

Gonnard, René. *La Légende du bon sauvage: Contribution à l'étude des origines du socialisme*. Paris: Librairie de médicis, [1946].

Greenberg, Michael. *British Trade and the Opening of China, 1800-1842.* [Cambridge: The University Press, 1951].

Grosser Historischer Weltatlas. München: Bayerischer Schulbuch-Verlag, 1957.

A Guide to Historical Literature.

Halévy, Elie. *History of the English People in the Nineteenth Century.*

Hauser, Arnold. *The Social History of Art.* London: England Routledge and K. Paul, 1951. 2 vols.

Vol. 2.

Heckscher, Elie F. *The Continental System; an Economic Interpretation.* Edited by Harald Westergaard. Oxford: Clarendon Press; London; New York: H. Milford, 1922. (Publications of the Carnegie Endowment for International Peace, Division of Economics and History)

Henderson, William Otto. *Britain and Industrial Europe, 1750-1870; Studies in British Influence on the Industrial Revolution in Western Europe.* Liverpool: University Press, [1954].

———. *The Industrial Revolution on the Continent: Germany, France, Russia, 1800-1914.* [London]: F. Cass, [1961].

Hitchcock, Henry Russell. *Architecture: Nineteenth and Twentieth Centuries.* [Harmondsworth, Middlesex]: Penguin Books, [1958]. (The Pelican History of Art, Z15)

James, Cyril Lionel Robert. *The Black Jacobins.* New York: The Dial Press, [1938].

Klingender, Francis Donald. *Art and the Industrial Revolution.* London: N. Carrington, [1947].

———. *Goya in the Democratic Tradition.* [n. p.]: Sidgwick and Jackson, 1948.

Kohn, Hans. *The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background.* New York: Macmillan Company, 1944.

Kulischer, Iosif Mikhaiílovich. *Allgemeine Wirtschaftsgeschichte des Mittelalters und der Neuzeit.* Mit einer Einleitung von Jurgen Kuczynski. Berlin: Rütten and Loening, [1954]. (Historische Schriftenreihe). 2 vols.

Lang, P. H. *Music in Western Civilisation.* [n. p.: n. pb., 1942].

Langer, William Leonard. *An Encyclopedia of World History, Ancient, Medieval and Modern, Chronologically Arranged.* Rev. Ed. Boston: Houghton Mifflin Co., [1948].

Lanternari, V. *Moaimenti religiosi di libertd e di salvezza.* [n. p.: n. pb., 1960].

Latourette, Kenneth Scott. *Christianity in a Revolutionary Age: A History of Christianity in the Nineteenth and Twentieth Centuries.* London: Eyre and Spottiswoode, 1959-1963. 5 vols.

Leslie, R. F. *Polish Politics and the Revolution of November 1830.* London: University of London; Athlone Press, 1956. (University of London Historical Studies; 3)

Lewis, Bernard. *The Emergence of Modern Turkey.* London: Oxford University Press, 1961.

Lewis, Michael Arthur. A *Social History of the Navy, 1793-1815.* London: Allen and Unwin, [1960].

Liddell Hart, Basil Henry. *The Ghost of Napoleon.* London: Faber and Faber limited, [1933].

Lilley, S. (ed.). *Essays in the Social History of Science.* Copenhagen: [n. pb.], 1953.

Lippmann, Edmund Oskar von. *Geschichte des zuckers seit den altesten zeiten bis zum beginn der rubenzucker-fabrikation.* 2. Aufl. Berlin: J. Springer, 1929.

Lukács, György. *Goethe und seine Zeit.* [n. p.: n. pb., 1955].

———. *The Historical Novel.* Translated from the German by Hannah and Stanley Mitchell. London: Merlin Press, [1962].

———. *Studies in European Realism; a Sociological Survey of the Writings of Balzac, Stendhal, Zola, Tolstoy, Gorki, and others.* Translated by Edith Bone; Foreword by Roy Pascal. London: Hillway Pub. Co., 1950.

Lyashchenko, P. *History of the Russian National Economy.* [n. p.: n. pb., 1947].

Maekenzie, Kenneth. *The Banking Systems of Great Britain, France, Germany, and the United States of America.* 3d Ed., Rev. and Enl. London: Macmillan and Co., 1945.

Mantoux, Paul. *The Industrial Revolution of the 18th Century.* [n. p.: n. pb., 1906].

Manuel, Frank Edward. *The New World of Henri Saint-Simon.* Cambridge: Harvard University Press, 1956.

Marcuse, Herbert. *Reason and Revolution; Hegel and the Rise of Social Theory.* London; New York: Oxford University Press, [1940].

Martin, Gaston. *Histoire de l'esclavage dans les colonies françaises.* Paris: Presses universitaires de France, 1948. (Colonies et empires; collection internationale de documentation coloniale. 1. sér.: Etudes coloniales, 4 Colonies et empires. 1. sér.: Etudes coloniales; 4)

Marx, Karl. *Capital I.*

Mayer, Alfred. *Annals of European Civilization, 1501-1900.* Foreword by G. P. Gooch. London: Cassell, 1949.

Mazour, Anatole G. *The First Russian Revolution, 1825, the Decembrist Movement, its Origins, Development and Significance.* With a Foreword by Robert J. Kerner. Berkeley: University of California Press, 1937.

Niebuhr, H. Richard. *The Social Sources of Denominationalism.* New York: H. Holt and Company, [1929].

Novotny, Fritz. *Painting and Sculpture in Europe, 1780-1870.* Baltimore: Penguin Books, [1960]. (The Pelican History of Art, Z20)

O'Dea, William T. *The Social History of Lighting.* London: Routledge and Paul, [1958].

Panikkar, Kavalam Madhava. *Asia and Western Dominance.* London: Allen and Unwin, [1953].

Parker, Harold Talbot. *The Cult of Antiquity and the French Revolutionaries.* Chicago, Ill.: The University of Chicago Press, 1937.

Pascal, Roy. *The Growth of Modern Germany.* London: Cobbett Press, 1946. (Past and Present; Studies in the History of Civilization; v. 2)

Pevsner, Nikolaus. *An Outline of European Architecture.* [6th, Jubilee Ed.]. Baltimore: Penguin Books, [1960].

Pinson, Koppel Shub. *Modern Germany, its History and Civilization.* New York: Macmillan, 1954.

Pirenne, Henri. *Histoire de Belgique.* Bruxelles: H. Lamertin, 1900. 7 vols.

Vol. 5. 1926.

Vol. 6. 1932.

Pokrovsky, Mikhail Nikolaevich. *Brief History of Russia.* Translated by D. S. Mirsky. New York: International Publishers, [1933]. 2 vols.

Vol. 1.

Polanyi, Karl. *The Great Transformation.* [n. p.: n. pb., 1945].

Ponteil, Félix. *L'Eveil des nationalités 1815-1848.* [n. p.: n. pb., 1960].

———. *La Monarchie parlementaire, 1815-1848*. Paris: Colin, 1949. (Collection Armand Colin, no. 256. Section d'histoire et sciences économiques)

Preclin, Edmond. *Le XVIII siècle*. Paris: Presses universitaires de France, 1952. 2 vols.

Redlich, Fritz. *De praeda militari. Looting and booty, 1500-1815*. Wiesbaden: F. Steiner, [1955]. (Beihefte/ Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaftsgeschichte; Nr. 39).

Reinhard, Marcel R. *Histoire de la population mondiale de 1700 à 1948*. [Paris]: Domat-Montchrestien, [1949].

Roll, Eric. *A History of Economic Thought*.

Rude, George F. E. *The Crowd in the French Revolution*. Oxford: Clarendon Press, 1959.

Sagnac, Philippe. *La Formation de la société française moderne*. Paris: Presses universitaires de France, 1945-1946. 2 vols.

Vol. 2: *La Révolution des idées et des mœurs et le déclin de l'ancien régime (1715-1788)*.

Salaman, Redcliffe Nathan. *The History and Social Influence of the Potato*. Cambridge [Eng.]: University Press, 1949.

Scelle, Georges. *La Traite négrière aux Indes de Castille, contrats et traités d'assiento*. Paris: L. Larose and L. Tenin, 1906. 2 vols.

Schumpeter, Joseph A. *Business Cycles; a Theoretical, Historical, and Statistical Analysis of the Capitalist Process*. New York; London: McGraw-Hill Book Company, 1939. 2 vols.

Sereni, Emilio. *A Storia del paesaggio agrario italiano*. Bari: Laterza, [1961].

Simon, Brian. *Studies in the History of Education, 1780-1870*. London: Lawrence and Wishart, 1960.

Singer, Charles [et al.] (eds.). *A History of Technology*. Oxford:

Clarendon Press, 1954-1958. 5 vols.

Vol. 4: *The Industrial Revolution 1750-1850*. 1958.

Smith, Wilfred Cantwell. *Islam in Modern History*. Princeton: Princeton University Press, 1957.

Soboul, Albert. *Précis d'histoire de la révolution française*. [Paris: Editions sociales, 1962].

———. *Les Sans-culottes parisiens en l'an II*. [n. p.: n. pb., 1960].

Sombart, Werner. *Der Moderne kapitalismus; Historisch-Systematische Darstellung des Gesamteuropaischen Wirtschaftslebens von Seinen anfangen bis zur Gegenwart*. München; Leipzig: Duncker and Humblot, 1928. 3 vols.

Vol. 3.

Sorel, Albert. *L'Europe et la révolution française*. Paris: E. Plon; Nourrit et cie, 1885-1904. 8 vols.

Vol. 1.

Sovietskaya Istoricheskaya Entsiklopediya.

Stavrianos, Leften Stavros. *The Balkans Since 1453*. [n. p: n. pb., 1953].

Stokes, Eric. *The English Utilitarians and India*. Oxford: Clarendon Press, 1959.

Strauss, Erich. *Irish Nationalism and British Democracy*. London: Methuen, [1951].

Tarle, Evgenií Viktorovich. *Napoleon's Invasion of Russia, 1812*. New York; Toronto: Oxford University Press, 1942.

Taton, R. *The French Revolution and the Progress of Science*.

Taylor, Alan John Percivale. *The Habsburg Monarchy, 1809-1918; a History of the Austrian Empire and Austria-Hungary*. London: H. Hamilton, [1949].

Thompson, Edward and G. T. Garratt. *Rise and Fulfillment of British Rule in India*. London: Macmillan and Co., 1934.

Trahard, Pierre. *La Sensibilité révolutionnaire (1789-1794)*. Paris: Boivin et cie, [1936].

Tropp, Asher. *The School Teachers; the Growth of the Teaching Profession in England and Wales from 1800 to the Present Day*. London: Heinemann, [1957]. (The Kingswood Social History Series)

Truslow, Adams James (ed.). *Atlas of American History*. [n. p.: n. pb., 1957].

Villat, Louis. *La Révolution et l'empire*.

Wangermann, Ernst. *From Joseph II to the Jacobin Trials; Government Policy and Public Opinion in the Habsburg Dominions in the Period of the French Revolution*. [London]: Oxford University Press, 1959.(Oxford Historical Series; 2d Ser.)

Weill, Georges Jacques. *Le Journal*. Paris: La Renaissance du livre, 1934.

Wellek, René. *A History of Modern Criticism: 1750-1950*. New Haven: Yale University Press, 1955. 8 vols.

Vol. 1: *The Later Eighteenth Century*.

Wertheim, Willem Frederik. *Indonesian Society in Transition, a Study of Social change*. 2d., Rev. Ed. The Hague: W. van Hoeve, 1959.

Williams, Eric Eustace. *Capitalism and Slavery*. [Chapel Hill, N. C: n. pb.], 1944.

Wright, Gordon. *France in Modern Times, 1760 to the Present*. London: John Murray, 1962.

Wright, Harold Richard Charles. *Free Trade and Protection in the Netherlands, 1816-30; a Study of the First Benelux*. Cam-

bridge [Eng.]: University Press, 1955. (Cambridge Studies in Economic History)

Periodicals

Antal, Friedrich. "Reflections on Classicism and Romanticism." *Burlington Magazine.*

Purs, Jaroslav. "The Industrial Revolution in the Czech Lands," *Historica*: vol. II, 1960.

Conferences:

Actes du congrès historique du centenaire de la révolution de 1848. Paris: Presses universitaires de France, 1948.

Première conférence internationale d'histoire économique. Contributions = First International Conference of Economic History. Contributions. A. L'Industrialisation comme facteur de la croissance économique depuis 1700. B. Etude comparée du grand domai3ne depuis la fin du moyen âge. Communications. Paris; La Haye: Mouton, 1960.



الفهرس

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- ج -

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

- م -

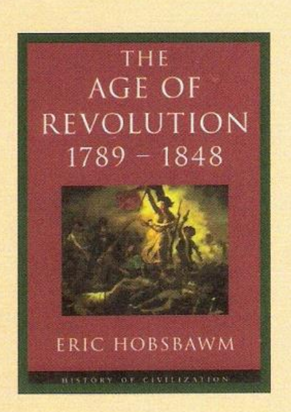
ـ ن ـ

ـ هـ ـ

- و -

- ي -

عصـــر الثـــورة



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم



المنظمة العربية للترجمة

أدت الثورة الفرنسية والثورة الصناعية إلى تحوّل العالم بين عامي 1789 و1848. هذه «الثورة المزدوجة» التي خلقت العالم الحديث كما نعرفه لخصها إريك هوبْزْباوْم في هذا الكتاب المثير والمفيد، مع محافظة صارمة على موضوعية المؤرخ.

لقد تتبع إريك هوبْزُباوْم، بوضوح تحليلي رائع، هذا التحوّل الذي أحدثته «الثورة المزدوجة» في كل نواحي الحياة في أوروبا: في مجال الحرب والدبلوماسية، في المناطق الصناعية الجديدة، وعلى الأرض، وسَط طبقات الفلاحين والبورجوازية والأرستقراطية، في أساليب الحكم والثورة، في العلوم والفلسفة والدين، في الآداب والفنون...

عصر الثورة هذا يتبعه، ضمن إصدارات المنظمة، **عصر رأس المال** و**عصر الإمبراطورية**، حرصاً على مدّ القارئ العربي بـ «ثلاثية هوبْزْباوْم» الشهيرة التي يعتبرها المتخصصون إحدى الإنجازات الكبرى في مجال المؤلفات التاريخية، خلال القرن العشرين.

● **إريك هوبْزْباوْم:** ولد في الإسكندرية عام 1917 وتابع دراسته في فيينا وبرلين ولندن وكامبريدج. عضو في الأكاديمية البريطانية والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم. كان أستاذاً في جامعة بيربك وجامعة لندن ثم في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية في نيويورك. من مؤلفاته التي تُرجمت إلى لغات عديدة:

The Age of Capital, The Age of Empire, The Age of Extremes, The Age of Revolution, Bandits, Industry and Empire, Labouring Men, Primitive Rebels, and *Worlds of Labour.*

● **فايز الصُيّاغ:** عالم اجتماع من الأردن، زميل زائر في مركز الدراسات الاستراتيجية – الجامعة الأردنية، عمل أستاذاً، لعدة سنوات، في جامعة تورنتو الكندية. له مؤلفات ومترجمات بالعربية والإنجليزية في المجالات الاجتماعية والتنموية والثقافية.

الثمن: 18 دولاراً
أو مـــا يعادلهـــا

ISBN 9953-0-0761-6
9 789953 007618